

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم العلوم الاجتماعية
شعبة علم الاجتماع

أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع موسومة:

هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الجغرافية
جامعة تلمسان نموذجاً

إشراف الدكتور: مزوار بلخضر

إعداد الطالب: باي بوعلام

أعضاء لجنة المناقشة

رئيساً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. مبخوت بودواية
مشرفاً	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر (أ)	د. مزوار بلخضر
مناقشاً	جامعة وهران	أستاذ محاضر (أ)	د. زاوي مصطفى
مناقشاً	جامعة سعيدة	أستاذ محاضر (أ)	د. بكري عبد الحميد
مناقشاً	جامعة تلمسان	أستاذ محاضر (أ)	د. مصطفى الشريف
مناقشاً	جامعة معسكر	أستاذ محاضر (أ)	د. طيبي غماري

السنة الجامعية: 2012-2013

الفهرس العام

الإهداء.....	II
الشكر والعرفان.....	III
مقولات افتتاحية.....	VI
فهرست الرسوم والأشكال البيانية.....	V
فهرست الصور المؤتثة للدراسة.....	VI
معاني بعض المصطلحات المفتاحية.....	VIII
مقدمة عامة.....	1
الفصل الأول: أركبولوجية "الممارسة الجرافيتية" وركانزها النظرية.....	30
الفصل الثاني: التّعبيد المفاهيمي والمنهجي للدراسة.....	125
الفصل الثالث: ملامح "الهوية الطّالبية" من خلال المتون الجرافيتية.....	191
خاتمة عامة.....	291
قائمة المصادر والمراجع.....	297
الملاحق.....	317
الفهرس التفصيلي.....	332

الإهداء

إلى والديّ الكريمين، وإلى ابنتي و زوجتي،

وإلى كل من علّمني حرفاً.

الشُّكْرُ وَالعِرْفَانُ

يطيب لنا أن نتقدم بآيات الشُّكْرِ والعِرْفَانِ إلى كل من ساهم

من قريب أو من بعيد في تجسيد هذا العمل المتواضع،

بدءًا بالمشرفين الدكتور "بشير محمد" والدكتور "مزوار بلخضر".

وكامل الأساتذة الزملاء والطلبة الأعزاء والعائلة الكريمة

كما أشكر جزيل الشكر الأساتذة الأفاضل أعضاء اللّجنة المناقشة

على تكبّدهم عناء قراءة هذه الرسالة.

مقولات إفتتاحية

" إنَّ الجدار-ومنه المساحات الأخرى- مقياس للحرارة الاجتماعية، فبقدر ما ترتفع هذه

الحرارة بقدر ما يُغطى الجدار بالجرافيتي".

"إنَّ الكلمة المكتوبة باليد وبحروفٍ غليظةٍ وبارزةٍ لها وقعٌ لا يمكن أن يكون

للملصقات أبدًا". BRASSAÏ, «Graffiti», 1960, pp.19.20.

"سواءً سجّلوا (عَرَفْتُوا) أسماءهم، أو توارى بهم، حُبهم أو مَقَمهم على مختلف جدران

البنيات، فإنني لا أعتقد أن كلَّ تخريبٍ يجب تفسيره بترغبات التدمير والقتل، وإنما أرى

فيه رغبةً في البقاء والتخليد، لأولئك الذين لم يستطيعوا إقامة أهرامات وكاتدرائيات من

أجل إستدامة (سَرْمَدَة) أسمائهم.-ترجمة بتصرف.-BRASSAÏ, Ibid.

"..يمكن التعامل مع كلِّ جرافيتي باعتباره سيرة ذاتية شخصية وجماعية، يعكس من

خلاله المُعْرِفُ (Le graffeur) بُعدًا من ذاته ومن مجتمعه".-ترجمة بتصرف.-

¹ Ernest L. Abel & Barbara E. Buckley

صرح أحد ممارسي الجرافيتي: "إذا أردت أن تتعرف على ما يحدث في أي مدينة ما، فأنظر

إلى الجرافيتي المنتشر على جدرانها".

عُرِفَت شاب جزائري على جدار بمدينة "تيزي وزو"، خلال أحداث 2001، مخاطباً:

"Vous pouvez tirer, nous sommes déjà morts".

¹ Ernest L. Abel et Barbara E. Buckley, The handwriting on the wall, Westport (Conn.), Londres, Greenwood Press, 1977, p. 20.

فهرس الرسوم والأشكال البيانيّة

الصفحة	العنوان	الشكل رقم
41	تطور الدّراسات الخاصة بالجرافيتيا من سنة 1930 إلى 1990	1
188	دوافع الفعل الجرافيتي حسب "Regina Blume"	2
190	نسبة استخدام كل مقارنة حسب "Jane M. Gadsby "	3
198	الفضاءات التي إنتشرت بها "الكتابات الجرافيتية" بالجامعة	4
199	حاملات الكتابات الجرافيتية Les supports graffitiques	5
203	ترتيب "المضامين الجرافيتية" على أساس عدد الوحدات	6
204	توزيع نسب "المضامين الجرافيتية"	7
277	دوافع "الفعل الجرافيتي" الطّلابي	8

فهرس الصور المؤتة للدراسة

الصفحة	عنوان الصورة	الصورة
31	غرافيتيا تاريخية على "هرم Sakka Pyramid" بمصر	1
32	غرافيتيا تاريخية بمنطقة الطاسيلي	2
32	زمرة أشخاص ينقشون الصخور	3
33	غرافيتيا لخمسة أشخاص بدون أطراف عليا، (القرن 15 قلة Selles à comburai)	4
33	غرافيتي من سرديب الموتى بـ"روما" (ذات مغزي ديني)	5
35	عينة من الصور التي جمعها، (عنوانها بصورة 'الحب L'amour')	6
40	"غيتوهات" نيويورك مهد الظاهرة	7
45	معرض "للفن الغرافيتي" بمتحف أمريكي	8
49	غرافيتيا تعود لـ1943، على جذع شجرة مغمرة	9
49	دعوة صريحة للغرافيتيا، (واجهة باب مستودع 1999)	10
52	لوحة غرافيتية بـ "South Bank of the Thames in London" رفض للحرب وللعولسياسة (2005)	11
55	"ممنوع المنع" (محطة المترو "Ledru-Rollin" (باريس) أبريل 2011	12
56	الثورة الطلابية ماي 68، شارع "Lussac" Gay" باريس، (وضعنا "الغرافيتيا" في حيز، لإبرازها)	13
57	دعوة "للمقاومة" الغرافيتية	14
57	إصرار على مواصلة "التمرد" الطلابي	15
58	تكميم الأفواه يُقلق الشباب	16
63	"جدار برلين" مكسو بالغرافيتيا (الجانب الغربي سنة 1986)	17
65	قطع من الجدار المغمرة عليها بساحة "Platz Postdamer"	18
65	أجزاء "للجدار" مغطاة بالغرافيتيا، محفوظة أمام البرلمان لأوروبي/ بروكسل	19
68	"غرافيتيا تاريخية" لـ1605، بمتحف Monument El Morro National	20
74	الرسالة موجهة للشرطة الاسرائيلية "الشين بيت shin Bet"	21
74	حماس: "أرضنا إسلامية هذه هي الهوية"	22
75	"الجدار" صحيفة حركات المقاومة	23
76	غرافيتيا على جدار الفصل العنصري من توقيع "Jacki 0"	24
76	لوحة غرافيتية من توقيع فنان الشوارع الانجليزي "Banksy" سنة 2005	25
79	استغاثات سياسية على جدر مدينة بغداد	26

81	شباب جزائري أمام وحدة غرافيتية عن "FLN"	27
82	غرافيتيا منظمة "O. A. S" بالعاصمة (LA FRANCE REST. O.A.S)	28
83	"Saint-Michel" جسر "ICI ON NOIE LES ALGERIENS"	29
86	تجسيد حرية التعبير بكل اللغات (تيزي وزو 2007)	30
87	لوحة من توقيع الشاب الملقب بـ "Biltag"	31
87	"لوحة غرافيتية" لِكُنْيَة شخص يُدعى "G.S. Jocker" من مدينة "تيزي وزو"، (وفي حاشيتها أسماء لمغنيات ولأشخاص آخرين)	32
90	أحد شعارات الانتفاضة التونسية (بالعاصمة)	33
90	رفض الديكتاتورية (حي التضامن بالعاصمة)	34
91	"لوحة غرافيتية" على "الكورنيش الثغر" بالإسكندرية	35
91	فعاليّة مواقع الأنترنت في إستوقاد الثّورة المصريّة	36
92	التأكيد على الوحدة الليبية	37
92	رفض سياسة 'فرق تسد'	38
92	شارع الرئيس بمدينة المُكلا اليمينية (2011)	39
93	حتى المساجد لم تسلم من "عدوى" الغرافيتيا	40
93	"أسطرة" مراكز الاحتجاج	41
94	الفاعلين كُثُر والمطلب واحد	42
95	واجهة مَحَل / لا بَدِيلَ عن "الأسد" (مناصرى الرئيس السوري)	43
95	"خيارين كِلاهما مُرّ"	44
95	غرافيتيا القنصلية الفرنسية بـ "Turin" يوم 4 ماي 2011	45
105	"غرافيتي، ومحطتك القادمة تكون السّجن"	46
107	أحد عمال شركة "HTP-anti-graffiti" في مهمة تنظيف "الفوضى" الغرافيتية (باريس 2009)	47
112	بَشائر موجة "الهييب هوب" الجزائري	48

معاني بعض المصطلحات المفتاحية

المصطلح	معناه
غُرِفَتَ: Graffiter (réaliser des graffiti)	خَرِبَشَ وَكَتَبَ وَخَدَشَ وَنَقَشَ (غُرِفَتَ).
المُغْرِفَت Le(s) Graffeur (s) Le(s) Graffiteur (s)	الطالب "الكاتب" على مختلف الدعامات الغرافيتية Les supports graffitiques على نحو الجدران، الأبواب، الأعمدة، الطاولات، المكاتب،...
الكتابات الغرافيتية: Les écrits graffitiques	مختلف الكتابات الجائبة والمنتشرة على مختلف الحاملات الغرافيتية.
الحاملات الغرافيتية: Les supports graffitiques	مختلف الدعامات والحاملات الحُبَلَى بالوحدات الغرافيتية، جدار، باب، عمود، صندوق، طاولة،...
الو. رقم: Unité N° :	الوحدة الغرافيتية رقم x. تتضمن كل (كلمة، جملة، شكل، صورة، رمز)، كُتِبَت/خُرِبِشَت/ غُرِفَتَت مستقلة عن باقي الوحدات الأخرى، من حيث الدعامات والمعنى المقصود (الرسالة).

مقدمة عامة

"ليس العمل أن نتأمل ما لم يتأمله أحدٌ بعدُ، بل أن نتأمل كما لم يتأمل أحدٌ بعدُ، فيما يوجد أمام أعين الناس جميعاً". "أرتير شوبنهاور Arthur Schopenhauer"
« L'identité n'est pas donnée une fois pour toutes, elle se construit et se transforme tout au long de l'existence». Amin Maalouf, *Les Identités meurtrières*, éd: Grasset, 1998.

يعيش المجتمع العربي عامة و الجزائري خاصة، والشبابي (الطلابي) بالأخص، اختبارات عسيرة متعدّدة المستويات (اجتماعية، ثقافية، سياسية، اقتصادية.. يلخصها الدكتور "مسعود ضاهر" بقوله "إنّ أبرز سمات المشهد الثقافي العربي الرّاهن هي التّخلف، القُطرية، السُّكونية، اللاديمقراطية، الاستهلاكية"². جلّها متغيرات توجّج أسئلة "الهوية" (الفردية والجماعية والمجتمعية)، وتؤشّر على الضرورة بناء إستراتيجيات لإستحداث "توازن" داخل الوعي الفردي والجمعي، ربما يعزّز الدّفاعات الدّاتية، واستجاباتها الفاعلة للتعامل مع إيقاع الضغوط التي تفرضها متغيرات الحداثة وإكراهات ظاهرة العولمة، وتداعيات الفضاءات والحدود المفتوحة، وأنماط التّنمية أو التّماء السريع في أزمنة العولمة³.

يشخص هكذا وضع، السوسولوجي "خلدون النقيب" بقوله أن "الثورة في الثقافة والمعلومات وفي أنماط الاستهلاك التي أدخلتها الحداثة إلى مجتمعاتنا العربية قد أفرزت ثورة صامتة في القيم والاتجاهات، وفي المهارات التي يحتاجها الفرد. ومن نتائج هذه الثورة الصّامتة التي أربكت المنظومة التقليدية، وأدخلت الفزع على قيّمها، فقدان الشّاب العربي المعاصر الثّوابت التي يبني بواسطتها هويته، لأنّ الهوية تحتاج إلى مراجع ثقافية وقيميّة واضحة وثابتة، يعتمدها الفرد لبناء شخصيته⁴. ظروف "أرغمت" الفرد العربي، ومنه الجزائري، لمعيشة حالة صراعٍ مزدوجٍ، الأول مع ذاته لتتعرّف على هويته الحقيقية، ومحاولة إثبات إنوجادها، وإعادة ربط حاضره ومستقبله بماضيه، والتّوفيق بينهما. والثاني في صراعه مع الآخر (الغير)، على كافة المستويات والأصعدة ولأسباب شتى، ولعل هذا ما دفع العديد من المُنهَجِسِين بظاهرة العولمة وإفرازاتها للتأكيد على أنّ أبرز وأخطر صراع نعيشه اليوم، هو "صراع الهويات" (Le(s) conflit(s) des identités)، في زمن العولمة

² ورد ذلك خلال ندوة "تحو نظام ثقافي عربي جديد"، صفاقس، تونس، 22-24/07/1991.

³ يوسف الحسن، الهوية وكتابة التاريخ، الخبر الجزائرية، الاثني 2011/7/14.

⁴ خلدون النقيب، المشكل التربوي و الثورة الصامتة، مجلة المستقبل العربي، ع 174، بيروت، 1993، ص 61-65.

وحضارة الثورة المعلوماتية⁵. إننا نعيش "موضة الهويات" كما يعتقد "روني غاليسو René Gallissot"، فلقد فتحت العولمة قضايا الهوية على نطاق واسع، بأبعاد عالمية، أدت بالعالم إلى هوس كبير بها، وما يتهدها من مخاطر الإلغاء والإقصاء، أو الدوبان والانصهار، بل وحتى بالافتراض الثالث، وهو الانبعاث والاستنهاض⁶.

يتمثل فصيل من المفكرين ظاهرة "العولمة" باعتبارها فلسفة تركيبية واختزالية واندماجية، تُحاول أن تدفع العالم المتنوع، والمتعدد والمختلف في هوياته وثقافته (المحلية والاجتماعية)، لنموذج واحد، مستثمراً مخترعات الثورة المعلوماتية والاتصالية التي اختزلت المسافات وخلّلت الحواجز القطرية، بل ربطت العالم بشبكات، جعلته أشبه بـ 'قرية كونية Le village planétaire'، كما يصفها عالم الاجتماع الكندي "مارشال ماك لوهان Marshall Macluhan" (مصطلح نَحْتَه نهاية ستينات القرن الماضي في كتابه المثير "حرب وسلام في القرية الكونية")⁷.

سوسيولوجياً، إننا أمام ظاهرة "ثقافة الهوية(ات)" -وهوية الثقافة(ات)-، حيث أضحت هذه الأخيرة من أهمّ متغيرات الاستقطاب والتعبئة والحشد، بعد تقهقر "الأيديولوجيات التقليدية"، إن لم تتحوّل بحدّ ذاتها إلى "أيديولوجية". فإنّ أهمّ تجلّيات الأزمة التي تعيشها معظم المجتمعات العربية ترتبط بمسألة الهوية، سواء تعلق الأمر بالمجتمع العراقي أو السوداني، اللبناني، الفلسطيني أو الجزائري.. إلخ. إذ أخذت "الظاهرة" طابعاً صدامياً ودموياً، داخل الدولة القطرية (الوطنية) الواحدة. ذلك لأنها تحمل في طياتها عناصر ثابتة، وأخرى مُتجددة ومتغيرة. وغالباً ما تخضع هذه العناصر للفحص والتدقيق، وإعادة الترتيب والهيكلية، خاصة في مجتمعٍ كمجتمعنا الجزائري، حيث تعرض منذ مطلع عقد الثمانينات -وقبله خلال الهيمنة الاستعمارية الفرنسية- لاختبارات عسيرة على مستوى مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، جعلته يعيش "صدمة ثقافية وحضارية" كما يصفها "أبو القاسم سعد الله"⁸.

⁵ عبد العزيز أنميرات، "هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة... من الاختراق إلى الممانعة"، مجلة الكلمة، العدد 21، السنة الخامسة، خريف 1998. موقع المجلة: www.kalima.net. تاريخ الاطلاع: 2010/3/12.

⁶ زكي الميلاد، "الفكر الإسلامي وقضايا العولمة"، مجلة الكلمة، العدد 20، السنة الخامسة، صيف 1998. موقع المجلة: www.kalima.net. تاريخ الاطلاع: 2010/3/13.

⁷ "Guerre et paix dans le village planétaire", Paris, Ed :Robert Laffont, 1970, 192 p.

(Titre originale: " War and Peace in the global Village", New York, Bantam Books, 1967.

⁸ حيث يؤكد "بأنّ ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر... بل احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو احتلال التقدم للتخلف"♦.

أفضت لـ"حالة استثنائية"، لخص معالمها الدكتور "علي سموك" بقوله "و.ع.عرف-المجتمع الجزائري- إنقسامية اجتماعية وثقافية من نوع جديد، لذلك شهد صراعاً بين ثقافات وهويات صريحة، تقوم الأولى على المفهوم الإسلامي في الميدان الاجتماعي، والثانية ثقافة لائكية وافدة مع الفعل التّحديثي، وثالثة قائمة على إشباع الضّرورات الأولى للحياة من جانب الفقراء، والتّرف الاستهلاكي من جانب الأغنياء وأجهزتهم الحاكمة، ورابعة كامنة في السلوك، متوارثة في الضّمير الجمعي، وتتمثل في العصبية والانتماء القبلي وتجلياته التي لا تزال بادية في الأفعال الاجتماعية على المستوى الكلي أو الجزئي⁹. متغيرات ساهمت -وما زالت- تستثير "الهوية" ومرجعياتها، والبحث عن "استراتيجيات هويّاتية" لتحقيق توازن داخلي للوعي الفردي والجماعي للتكيف مع ضغوطات وإكراهات متغيرات العولمة.

لقد أضى الشّباب المعاصر-ذكوراً وإناثاً- يخضع في تنشئته وتربيته إلى مؤسسات اجتماعية متعدّدة ومتنوعة، تقودها وتوجهها قيّم ومعايير وأهداف مختلفة ومخالفة -ومتناقضة أحياناً-. ويزيد الأمر تعقيداً و"إغتراباً" لشباب المجتمعات التي تعرف "فترة انتقالية"، كالمجتمع الجزائري، حيث يُعاني شبابه -كما يعتقد العديد من الباحثين الجزائريين ومن بينهم "علي الكنز"- تشوّتاً وعدم وضوح للنموذج الذي يفترض أن يلتّمسه ويُنشده ويتمثّله، في عالم مضطرب ومتغيّر بصفة مُتسارعة مليء بالتناقضات والتلاطمات. إضافةً إلى تعايش هذه الفئة في ظلّ كيانات اجتماعية متعدّدة ومُتعارضة، تبدأ بالقبيلة وتمرّ بالطائفة وتنتهي بالوطن، ثم بالمجتمع الإنساني ككل¹⁰. إنّه "يعيش في كيان مركّب معقد، تتداخل فيه عناصر الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، والعالمية، خاصّة مع تأثيرات العولمة، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة"¹¹.

◆ أبو القاسم سعد الله، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال"، مقدمة الطبعة الثانية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1976، ص5-6. نقلاً عن مقال: جمال غريد، "الجزائر: ثنائية المجتمع وثنائية النخبة الجذور التاريخية"، الملتقى الدولي ("النخب والمجتمع في العالم العربي حالتنا الجزائر ومصر")، تنظيم مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقي من أجل التنمية بالجزائر بالتعاون مع مركز البحوث العربية للدراسات العربية والإفريقية والتوثيق بالقاهرة، تيميمون، 23-24-25 مارس 2002، ص 2.

⁹ علي سموك، "إشكالية العنف في المجتمع الجزائري، من أجل مقارنة سوسولوجية"، الجزائر، عنابة، مختبر التربية والانحراف والجريمة في المجتمع، 2006، ص 215.

¹⁰ إنّه يعيش "أزمة اختيارات ورموز ومرجعيات هويّاتية".

¹¹ سعد الدين إبراهيم، "تعليم الأمة العربية للتخطيط في القرن العشرين"، القاهرة، المعهد العربي للتخطيط، 1992، ص 37.

يحدث ذلك في ظلّ ما أسماه آل الاختصاص غياب/تغيّب سياسة شبابية كفيلة بإستقطاب إيجابي لهذه الفئة، وتفهم أوضاعها وأزماتها، بهدف تيسير إدماجها واندماجها في الحياة الاجتماعية العامّة. هذا ما جعلها تعيش حالة تيهانٍ وشكٍّ، وعَدَم ثبات على مُستوى السلوكيات والتصرفات، جسّدتها ظواهر اجتماعية عديدة، كالعنف، الانحراف، تعاطي المخدرات، الهجرة السرية (الخرقة)، تخريب وتحطيم الممتلكات العامّة... إلخ. "تصرفات شبابية" يُلجّص وظيفتها عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا "د. لوبروتو David Le Breton" بقوله "...إنّ تجاوزات المراهقين (الشباب)، الملاحظة يوميًا بأماكن عدّة من عَدَم احترام القوانين، سواء المُروية، كالسرعة المفرطة أو الصّحية، كتناول ما يضرّ بالصّحة كالمخدرات والكحول أو الأخلاقية، كالتلفظ بكلمات تُخلّ بالنّظام الأخلاقي السائد، ونوعية اللباس... تجاوزات لها وظيفة البحث عن الهوية الشّخصية والجماعية، جعلت المجتمع ينظر إليهم نظرة خاصّة¹².

بالإضافة إلى طبيعة التّغيرات النّمائية، بمختلف مستوياتها، التي تُصاحب فترة المراهقة وما بعدها، تعمل على تيقُّظ الشّعور الدّاتي والجماعي لدى الشباب، وتدفعه للبحث عن إستراتيجيات للتكيف والتّوافق مع متطلبات الدّات ومع إكراهات المحيط الاجتماعي، ومحاولة افتكاك "مكانة" اجتماعية مُتميّزة ومُميّزة له، تُعبّر بدرجة مناسبة عن أوضاعه وحاجاته، وتُتميّز كينونته، وتحدّد له أدواره الملائمة، ومعايير سلوكياته وتصرفاته، محاولًا تشكيل شخصية مستقلة ومستقرة نوعًا ما. إلا أنّ هذه العملية(ات) لن تكون سهلة التّحقيق نظرًا للأوضاع الاستثنائية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي يعيشها السّواد الأعظم من أفراد المجتمع -خاصّة الشباب منهم- مع تباين التّضاريس، فشباب المناطق الرّيفية وشبه الحضرية يعيش حالات التّخلف والتّهميش والحرمان والإقصاء، وما يَسْتَتَبِعُهَا من حالات الإحباط، "أكثر" من نظرائهم في الحواضر-مع تباين مستوياتها-. هذا التّخلف الذي أصاب بعض المناطق كان بحدّ ذاته مؤشّرًا على الانتقال القسري من الأرياف إلى ضواحي المدن، وشكلت حزام البؤس حيث نمت غالبية قيادات الجماعات العنيفة فيما بعد، حسب "علي سموك"¹³.

¹² David Le Breton, "Les conduites à risque des jeunes comme résistance", Ères, Empan, 2005/1, n°57, pp.87-93. URI: <http://www.cairn.info/revue-empan-2005-1-page-87.htm>, Consulté le: 22/02/08.

¹³ علي سموك، مرجع سابق، ص 11-12.

يُضاف لما سبق العيش/التعايش في ظلّ ثقافة أسرية ومجتمعية لا تستجيب -في غالب الأحيان- لتطلعات الشّباب، وحاجاتهم (النفسية، العاطفية، الاجتماعية والثقافية)، حيث يجدون أنفسهم "مُرغمين" على التّفاعل مع "أنماط ثقافية" خاصة. تحت تزايد المسافة الاجتماعية بينهم وبين جيل الرّاشدين 'الكبار' (أهل الحَل والرّبط والأمر والنهي). جيلٌ تَنشأ في ثقافة من سماتها "الغالبية": الانغلاق والمحافظة والتقليدية، وتهميش- مقصود وغير مقصود- لما له علاقة بالشّباب¹⁴، بحجّة "ما زالوا صغاراً"¹⁵، يحاولون إنتاجها وإعادة إنتاجها وتسويقها من خلال نماذج وقوالب تربية وتنشئية خاصّة، ضمن ثقافة جزائرية وعربية "مُتكلّسة"، "صمّاء"، "محصّنة ومغلقة"....¹⁶

يلخص ملامحها الدكتور "عبد الله إبراهيم" بقوله "يكشف المسار الخاص بتطور الثقافة العربية الحديثة، صورة شديدة التّعقيد والالتباس، صورة تتقاطع فيها التّصورات والرؤى والمناهج والمفاهيم والمرجعيات. ولا يأخذ هذا التّقاطع شكل تفاعل وحوار، وإنما يَتَمَثَل لمعادلة الإقصاء والاستبعاد من جهة، والاستحواذ السّلي والتنكّر والتّخفي من جهة ثانية"، ويواصل توصيفه "أنّ الثقافة العربية الحديثة أصبحت ثقافة "مُطابّقة" وليس ثقافة اختلاف. فهي في جملة ممارساتها العامة، واتجاهاتها الرئيسة، تهتدي بمرجعيات ثقافية أفرزتها منظومات حضارية، لها شروطها الخاصة، مرّة تتطابق مع مرجعيات ذاتية تجريدية، وقارة متصلة، بنموذج فكري قديم، ترتبط مضامينه بالفروض الفكرية والدّينية الشائعة آنذاك"¹⁷. ظروف ووضعيات تدفع -وتشجّع- الشّباب إلى نهج مسالك من شيمتها التّمرد والابتعاد، وعدم الخضوع -الكامل- لهكذا "ثقافة أبوية"-متسلطة- بتعدّد مُستويات الأبوة. مما يجعلنا حسب العديد من الباحثين أمام مآزق علائقية (علاقاتية) بين الأبناء والآباء، ومن ينوب عنهم (الأستاذ، الإداري، المسؤول المحلي،...)، عوّض التّساكن الثّقافي والاجتماعي بين التّمودجين (نموذج الآباء/ الرّاشدين والأبناء/اليافعين).

إنّ محاولات الشّباب -بصفة عامة- في تطوير نسق ثقافي خاص بهم، ما هو إلّا تعبير عن الرّغبة في التّغيير والتّجديد، وتجاوز-ولو بشكل نسبي وتدرجي- بعض قيم النظم الثقافية المهيمنة. بيد أنّ

¹⁴ يعتقد السوسيوولوجي المغربي "محمد الغيلاني" أنّ "التّخبة" قد أهملت سنّ قضايا تواجه الشّباب، وهي:

-سؤال الهوية الانتماء.-سؤال التاريخ.-سؤال المعرفة الجنسية.-سؤال السيكلوجيا.-سؤال السياسة والمدنية.

¹⁵ حتّى ولو بلغوا من العُمُر عتياً.

¹⁶ بمختلف الأوصاف التي تعارف عليها آل الاختصاص.

¹⁷ د. عبد الله إبراهيم، "الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم، ورهانات العولمة"، المغرب، المركز

الثقافي العربي، 1999، ص 7.

هذا التعبير الثقافي الخاص، ليس متجانسًا وموحدًا دائمًا، إذ يجد الشاب نفسه موزع -ومُشْتَت- الاهتمام بين مواكبة التغيرات والتطورات المتسارعة التي تعيشها المجتمعات المعاصرة، والتي تزيد في تحريضه للتفتُّح والانفتاح، لتحقيق وجود أفضل ومشروع، وبين القوالب الثقافية الخاصة بمجتمعه. "قوالب" ما زالت تتحكّم فيها -بعض- الأعراف والتقاليد والقيم المتكديسة، التي قد تُحد من نزعتة ورغبته نحو تمثّل قيم الحداثة والتطور، نتيجة احتكاكه -وتأثره- بما يحدث في العالم، عبر قنوات التنشئة الإعلامية والاتصالية (الفضائيات، الأنترنت...). قيم-قد- تُرشحه للعيش حياة مُتوازنة إلى حدّ ما، بشخصية مستقلة وفاعلة، تجنّب الهروب والهجرة المزمّنة للنسق الثقافي -الجزائري-، والارتقاء في أحضان نُظُم أخرى، قد لا تَمُت بصلّة بمبادئ أصوله الدينية والثقافية، لإحتواء أزمته الهويّاتية.

أزمة، لامست الإنسان المعاصر دون إستثناء -ولكن بدرجات متفاوتة- ممّا أثار سجالات علمية وأيديولوجية سياسية، بين الباحثين، بشأن الهوية وبنائها، ومستوياتها وإعتلالاتها (أزماتها). حيث إحتدم النقاش -وما زال- أساسًا حول إشكالية مفادها أن الهوية القديمة التي شكّلت لفترة طويلة قاعدة لإستقرار النظام الاجتماعي، بل شجعت سياسات سُكُونية تخدمها غايات رجعية، ومُخجّلة حسب اعتقاد "كاترين هالبيرن Catherine Halpern"، هي في طريقها للزوال¹⁸. مما إستولد -وما زال يَستولد- هويّات جديدة، وجعل الفرد المعاصر بصفته ذاتًا موحّدة في حالة من التفتّت.

ويعتبر الدارسون 'أزمة الهوية' جزءًا من عملية تغيير أشمل تقتلّع البنى والصيرورات المحورية للمجتمعات الحديثة من مكانها، وتُضعف الأطر التي أعطت الأفراد نقاط إرتكاز ثابتة في المجال الاجتماعي¹⁹. وهكذا، تتجسد سيرورة التّجاوز والتّغيير بشكل جليّ في ثقافة -ثقافات- الشّباب، كثقافة مضادة، أو لنقل مُتميّزة ومختلفة، تبحث عن سبل إثبات ذاتها، وإنتزاع إعراف وتقدير "الغير" (الأخر L'Autrui)²⁰، رغم المحاولات المُكثّفة لتندشنتهم وفق معايير الثقافة المجتمعية الرّسمية، من خلال مختلف الفضاءات التّنشئوية.

¹⁸ Catherine Halpern, "Faut-il en finir avec l'identité, (Aux origine des civilisation)", Sciences Humaines, n°151, Juillet 2004. URI: http://www.scienceshumaines.com/index.php?Lg=fr&id_article=4240. Consulté le : 20/20/2009.

¹⁹ ستيوارت هول، "حول الهوية الثقافية"، ترجمة: بول طبر، مجلة إضافات، العدد الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ربيع 2008، ص. 137-174.

²⁰ ذلك أنّ التقدير والاعتراف لا يُوهب، وإنّما يُبنى، ويُؤخذ من الآخرين، لأنّه "لو انتظرت تقدير الآخرين لواجهت خداعًا كبيرًا، كما يقول عالم النفس الأمريكي " وليام جيمس William James".

يتجلى ذلك من خلال محاولة تجاوز بعض قيم ومعايير الثقافة (التقليدية والرسمية)، ولعلّ هذا ما يفسّر التباينات الحاصلة على مستوى المواقف والتّمثلات بين الشباب والكبار، بين الآباء والأبناء، بين الأساتذة والطلبة، مما يؤدي لإحتدام النزاعات والتشّجات، التي تؤثر على عدم التّوافق بين أنماط ثقافية سائدة ومرجعيات التّماهي المُمكّنة بين منظومة ثقافية محافظة في سِمَتها الغالبة، تُروم إعادة إنتاج علاقات اجتماعية تُقدّس -إلى حدٍ ما- مراسيم المنع والخضوع والولاء لرموز معيّنة. وأخرى شبابية تنشُد علاقات جديدة تتلاءم ومتطلبات الواقع المُتسارع المُعوّلم والمُرفّمّن، وإكراهات المرحلة العُمريّة، عبر آليات واستراتيجيات الرّد، و رَدّ الفعل التي تتفاوت درجتها تبعاً لدرجة استيعاب وتمثل الأنماط التّنشئية المُلقّنة، في إطار وكالات التّنشئة الاجتماعية، من أسرة ومدرسة ومسجد وقنوات إعلامية، ولعلّ المؤسسة الجامعية من أهمّها.

خلصت -بعض- الدّراسات التي تناولت الجماعة(ات) الطلابية، إلى أنّها فئة اجتماعية متميّزة، ذات مصالح مشتركة، إتخذت من المؤسسة الجامعية فضاءً مفتوحاً تُعبّر فيه عن رهاناتها ومصالحها، (التي قد تختلف في بعض الأحيان بين الجماعات الطلابية). كما اختلفت مقاربات الباحثين لهكذا فضاء-ومنه لهكذا فئة- باختلاف المرجعيات الفكرية والنّظرية لكلّ باحث، فنسبت إليها وظائف متعدّدة، من بينها تجنيد النّخبة والتّنشئة السّياسية (عند البعض)، والسّاهرة على تكوين ما يُعرّف بـ'الأنتلجينسيا' الحاملة -أو التي يُفترض أن تحمل- القضايا الوطنية والمجتمعية، بل محرّك ضدّ هيمنة النّظام الرّأسمالي.

كما يُنظر إلى الجامعة على أنّها فضاءً مناسب لتشكل ملامح هوية الطالب، مثلها مثل باقي الفضاءات الأخرى، فمن خلال تقاطع العديد من الممارسات والعلاقات الرّسمية والغير رسمية تتموضع المرحلة الجامعية كمرحلة "انتقالية" مهمّة، يكتشف من خلالها الطالب(ة) مستويات جديدة من الحياة العامة، سواء المهنية أو الشّخصية أو العلاقاتية (العاطفية) حيث يُفعل ويُستثار الطالب لإكتشاف "ذاته" كفرد أو كمجموعة -مهمّة- تنتمي لمجتمعٍ أهم (المصلحة العامة أولى من المصلحة الخاصة).

يَتيسّر ذلك عن طريق التّنشئة الجامعية من خلال مختلف الأنشطة الطلابية المُرسّمة والغير مُرسّمة، حيث تحتل هذه الأخيرة (الأنشطة) موقعاً إستراتيجياً في تحديد خصائص هويته، بوصفها ممارسات تنفّتح على عوالم مجهولة نسبياً بالنسبة إليه، على نحو خصوصية العلاقة(ات) بالآخر، (سواء كان هذا الآخر من نفس الجنس، أو من الجنس المُغاير)، أو التّنظيم الذاتي للوقت، أو

الاستهلاك العقلاني لهامش الحرية التي تُمنح له، أو التّسيير المالي -الرّشيد- للمصروف اليومي (L'argent de poche)، وغيرها من المستجدات التي يجد نفسه منخرطاً فيها، طوعاً أو كرهاً.

يشكل الطلبة الجامعيون نسبة مهمّة من فئة الشّباب ككل، إذ ما فتئت تُعرف اتّساعاً يوماً بعد آخر -ففي الجزائر مثلاً عرف عدد الطلبة الجامعيين زيادة معتبرة²¹-، وضعيّة شغلت العديد من "أهل الحل والرّبط ومالكي وسائل الإنتاج"، من سياسيين وإداريين وأصحاب مؤسسات، وباحثين أفنّوا حياتهم المهنيّة مُنْهَجِسين بِتَحْوُلَاتِهَا وإنتاجاتها الثّقافية والاجتماعية-ولمّا لا الغرافيتية...؟-حيث تبلورت رُؤى تعاملت مع الطلبة باعتبارهم جسم اجتماعي متماسك، له خصوصياته المتجانسة²².

حيث يعتقد بعض الباحثين على نحو الباحثة "فاليري إرليش Valérie Erlich" أنّ الطلبة يمتلكون ناصية معرفية تؤهلهم لتشكل ورسم ملامح هويتهم المُتميّزة عن باقي الهويات الأخرى، في مقدمتها هوية الكبار، مُتميّزة بممارسات وتَمَثُّلات تتوافق مع حاجيات ومتطلبات وإكراهات المرحلة السوسيوثقافية التي يعيشونها، وبثقافة تُلامس المطالب النّمائيّة والمعيشية للطلاب الجامعي.

فاعلٌ (طالبٌ)، من أهم خصائصه الثّقافية محاولة "التّنصّل والتّحرّر" من بعض الأنماط التقليدية، الجائمة على واقعه، متطلعاً لقيم ومعايير تُمكنه من تأكيد هويته. يستقي معالم ثقافته من محيطه الخاص والعام، (محيط تضعف أو تختفي فيه الرّقابة والسّلطة المجتمعية من خلال وسائل الضّبط والكبح الاجتماعي)، فهو يَبْصُم مميّزاته محاولاً تجنّب الصّراع مع الوسط "الأبوي/Patriarcale" (نظام سلطة الأب)، "مُتَحاشياً" الوقوع في مآزق علائقي تفرضه قوانين لعبة المواجهة، بين قيم الاستمرارية والمحافظة على الوضع، وقيم التّغيير والتّجديد. لأنّ الفرد -كما يعتقد-"هاري.س.سيليغان Harry. S. Sullivan" يسعى منذ طفولته المبكرة إلى تخفيف درجة القلق والتّوتر النّاتج عن الاختلال العلائقي، لأنّ الاستهجان أو الاستحسان الذي يتلقاه الفرد من

²¹ بلغ عددهم خلال موسم 2009-2010 حوالي 1.164.137 طالب، مقابل 2.750 طالب ل 1962-1963. نقلا عن:

Djamel Guerid, "L'université algérienne à 100 ans", Le Quotidien d'Oran, 2010/1/17.

ليقفز العدد خلال موسم 2011-2012 حوالي 1.400.000 طالب، مُوزَعين على النّظامين الكلاسيكي (LMD).²² يتساءل "م. نوفي Michel Novi" عن تجانس الظروف المشتركة بين الطلبة، والتي تضفي لتشكل جماعة طلابية ذات مصالح وأهداف مشتركة. ومنه يمكن تعريف الطلبة إمّا من خلال "المكانة" أو من خلال امتداد حالة المراهقة. لكن هل يسمح لنا هكذا وضع الكلام عن "الجماعة الطلابية" بشكل مطلق، حيث يتدخل متغيّر تنوّع التّخصصات الأكاديمية ليخلط التنبؤات. وهذا ما أثبتته دراسته (1991) عن طلبة جامعة "Nice-Sophia Antipolis" حيث سجّل اختلاف واضح في كيفية التّعبير عن مشاكلهم حسب إختلاف الكليات والأقسام.

محيطه، يُعدُّ بحقٍ عاملاً مُهمًّا في تقدير الذات لدى الفرد. وللمحافظة على هذه العلاقة والتقدير الذاتي والاجتماعي، يحاول الاستجابة لمتطلبات وسطه.

يحاول الطالب خلال المرحلة الجامعية تكثيف تفاعلاته الاجتماعية، من أجل إثبات ذاته أمام الآخر القريب والبعيد. وفي نفس الوقت يركن من حين لآخر لمراجعة مؤقتة، ينعزل فيها لمحادثة الالتزامات الشخصية والجماعية (المجتمع المحلي)، والمؤسسية (الفضاء الجامعي خاصة)، والمجتمعية (باقي الفضاءات الأخرى التي يتفاعل معها). يركن لما يسميه "أ. ستروس Strauss Anselm. L"²³ بـ"التوقف الهوياتي Le moratoire identitaire"، حيث يُعرِّفه بأنه لحظة انسحاب مؤقت للفرد من الحياة الاجتماعية من أجل تأمل مشاكله الهوياتية، ومنه إعادة بناء وتشكيل التزاماته اتجاه نفسه واتجاه الآخرين²⁴. مما يدفعه لضرورة إعادة تعريف وتحديد بعض الأدوار والمبادئ والقيم والسلوكيات، إمَّا بالتخلي عنها أو بتثبيتها أو استبدالها، من مؤشرات، تحوير اللهجة (اللكنة L'accent)، اللباس، نوعية العلاقات الاجتماعية،...إلخ.

إلا أن عملية إثبات الإنوجاد والتَّميُّز لن تتأتى بسهولة، نظرًا للالتزامات والإكراهات الحياة الجامعية، وإلحاحات المرحلة العُمرية (المراهقة) وتداعياتها، إضافةً لتعدد الرهانات لديه، ولدى نظرائه من الطلبة، وباقي الفاعلين -القائمين- على الوسط الجامعي، وحتى غير الجامعي كالأُسرة والمجتمع المحلي، فيحاول التعبير عن ثقافته المهنديسة لهويته وانتماءاته التي يعتقد أنها مناسبة له، بتمظهرات متعددة، غالباً ما تُواجه من طرف السلطة المجتمعية (الرسمية والاجتماعية)، بنوع من الكبح أو الامتناع أو القدح، أو حتى الرِّفض بحجة الممنوع والمرفوض واللاقانوني والعيب والحرام.

لأن من يمتلك "السلطة الشرعية" كما يعتقد "بيار بورديو P. Bourdieu" هو المُتمكِّن من فرض تعريفه لنفسه ولغيره (هوية الأنا وهوية الآخر)²⁵، وأن الدَّوات ليست أشياء، فحتى "الوهم

²³ "Anselm Leonard Strauss" (1916-1996): سوسيولوجي أمريكي، تأثر بالتفاعلية الرمزية، وانتقد الوظيفية بحدّة،

خاصة من خلال كتابه:

Miroirs et masques. Une introduction à l'interactionnisme, Paris, Métailié, 1992, 192 p.

²⁴ Stéphanie Garneau, "Les mobilités internationales à l'ère de la globalisation. Une comparaison sociologique des carrières spatiales et des socialisations professionnelles d'étudiants français et québécois", Thèse de doctorat de sociologie, Université Lumière-Lyon 2, Faculté d'anthropologie et de sociologie, p.309.

²⁵ Pierre Bourdieu, "L'identité et la représentation", Actes de la recherche en sciences sociales, n°35, 1980, pp. 63-72.

ليس له -بما هو كذلك- وجود وهبي، يجب أن يرقى إلى موضوعية أسمى، تفسح المجال لهذه الذاتية كُبعد من أبعادها، فأعضاء المجتمع يعيشون وعي لا يعكس الحقيقة التامة لما يقومون به، ولكن يشكل مع ذلك جزءاً من حقيقة ممارستهم العملية"²⁶. مما يجعلها رهانا للسرعات الاجتماعية، لأنه ليس ممكناً أن تمتلك كل المجموعات الاجتماعية سلطة التماهي نفسها، ولأنها ليس لها نفس النفوذ لتعريف ذاتها وإنما من يملك النفوذ الشرعي هو المُتمكّن من ذلك، فمن خلال النفوذ الذي تمنحه لهم السلطة يمكنهم فرض تعاريفهم الخاصة لذواتهم وللآخرين²⁷.

بالإضافة إلى أنّ مجمل تعريفات المفهوم تشتغل كمنظومة تصنيف تُحدّد المواقع المتتالية لكل مجموعة، فالسلطة -أو السُّلط- الشرعية تمتلك القوة الرمزية لجعل الآخرين يعترفون بمقولاتها المرتبطة بتصور الواقع الاجتماعي، وبمبادئها وقيمها حول تقسيم العالم الاجتماعي، على أنها شرعية وعادية. ومن هنا تمتلك المقدرة على تشكيل الجماعات الاجتماعية منها الجماعة(ات) الطلابية-مُسَخِّرة لذلك ترسانة من آليات مؤسسات التنشئة الاجتماعية، خاصة المؤسسة الجامعية²⁸.

تعمل هذه الوكالات على بلورة تفاعلات (اندماج، توافق، تفاوض، نفور أو صراع)، ما بين القوالب النمطية الشرعية/الرسمية (القواعد والطقوس المتضمنة في المنهج المُعلن/الجلي والمنهج الخفي/المضمّر)²⁹، التي ترسم وتؤثت معالم الهوية (الوطنية، المجتمعية الشرعية) التي تروم غرسها في ثقافة الطلاب، والقيم والمعايير والانتماءات المؤهّلة لهؤلاء الفاعلين-موضوع التنشئة-للاندماج "الحسن" في المجتمع، والتي يعتقدون أنّها مناسبة لإنوجادهم واندماجهم، وللأهداف

²⁶ بيير بورديو، "بيير بورديو والسوسيولوجيا"، تعريب محمد بدودو، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، ع8، 1986، ص 89. 104.

²⁷ Pierre Bourdieu, op. cit♦.

♦ عن: دونيس كوش، "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، ترجمة: منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2007، ص156.

²⁸ تبقى المؤسسة التعليمية وفي مقدمتها الجامعة -في اعتقاد بورديو- المؤسسة المثلى التي تستثمر بكثافة ترسانة من الأشكال التّفقيديّة، فتؤثت اشتغالها بهالة من القواعد المعقدة، والتي تعمل عبر طقوس مأسستها على إنتاج وإعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي. فالحقل المدرسي أكثر الحقول إبداعاً للتفاوت الاجتماعي بل سنّده المُؤسس له والمُنظّم♦.

♦ بيار بورديو، جان كلود باسرون، 'إعادة الإنتاج، في سبيل نظرية عامة انسق التعليم'، ترجمة "ماهر تريمش"، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص 70.

²⁹ المنهج المُعلن: الذي تتبناه الدولة وتُرسّمه في دهاليز مؤسساتها التعليمية، ويُعدّ بتكليف منها، وتُقره كأداة- فاعلة وفعالة- للتربية والتعليم. تُسند هكذا مهمة للمعلم والأستاذ. أما المنهج الخفي: عبارة عن أنماط سلوكية وموقفية يكتسبها المتعلم، لا تُدرج بطريقة مُعلنة في المنهاج الرسمي. تتضمن قيماً ثقافية واجتماعية غالباً ما تُثير لغطاً حين الإعلان عنها. في حين يعرفه البعض، بأنّه مخرجات غير أكاديمية للمؤسسة التعليمية.

المختلفة المستويات المنشودة -خاصة السياسية منها- لأنّ "الهويات روابط حاسمة يحافظ صنّاع القرار على تمرير رعاياهم السياسيين بها. وتشكيل شخص (مواطن، مناضل) يمتاز بالتماسك الذاتي و'يمتلك هوية'، هو نتاج عملية تاريخية معيّنة، ألا وهي عملية تشكيل الدولة- الأمة الحديثة، كما تعتقد "كاثرين فيرديري Katherine Verdery".

"هوية" من ملامحها المأمولة، تكوين وتنشئة طالب: مجتهد، مثابر، يُراعي القواعد التنظيمية للفضاء الجامعي، يحترم ويفتخر، بل ويتفاخر برموز المجتمع (الدولة)، يخضع للأخلاق العامة والقوانين الرسمية، في مقابل ذلك، يُنبذ العصبية القبليّة والمناطقيّة والجهويّة، يتحاشى "الكلام الغير أخلاقي" (البذيء والفاحش والعيب والمحرم و...)، وغيرها من السمات المنشودة. لو استعرنا ثنائية "جمال غريد" نقول ملامح "الطالب الكلاسيكي L'étudiant classique" عوض "الطالب الشائع L'étudiant majoritaire"³⁰، الكثير الحضور -للأسف- في الفضاء الجامعي. والهوية الفردية للطالب التي يراها مناسبة لتواجده، فيجد نفسه -قسرياً- يعيش حالة صراع ومساومة وتفاوض بين سلطان الإكراهات المجتمعية، ومُستلزمات الدور الاجتماعي (كطالب وكشّاب)، وسُلطان المطالب التّمائيّة العُمريّة من جهة، وإجراءات الواقع المُروّج له من خلال وسائل الإعلام والاتصال المختلفة في إطار ما يُسمّى بمنتجات 'حضارة الصّورة'³¹.

ولُجّارة -أو مُدارة- هذا الصّراع والامتعاظ يبتدع الفرد (الطالب) إستراتيجيات هوياتية، مناسبة -في اعتقاده- للتّموضع الإيجابي والبارز، من خلالها يحاول الدّفاع عن صورته وكيانه

³⁰ يعتقد "جمال غريد" أن الجامعة الجزائرية تعرف تحولات عميقة نظراً للظروف التي تمر بها، ومن بينها التّعداد الطلابي الذي ما فتئ يتضاعف بشكل مُتسارع، مما أثر على عملية الانتقال من الكَم إلى الكيف، وأفضى إلى تشكل وانتشار أنماط ثقافية سلوكية جديدة، لم تعرفها الجامعة الجزائرية من قبل، فأصابها ما أصاب المؤسسة الإنتاجية، حيث ترسّخ شكل جديد =يمثل المجتمع الحقيقي. ومن بين المشاكل التي ظهرت بشكل جليّ العلاقة البيداغوجية بين الأستاذ والطالب، خاصة الأساتذة الذين تكونوا خلال الستينات، وفق نمط تعليمي متميّز، حيث طلق العديد منهم التعليم العالي، وهاجر بعضهم للخارج، ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم أمام طلبة من نوع خاص، متشبعين بثقافة خاصة - بعيدة نوعاً ما عن ثقافة الأساتذة- مما خلق نوع من الخلل العلاقتي بينهم، لا يقتصر هذا الخلل على مستوى اللغة فقط، بل حتى الرّموز، يتّضح بشكل =مذهل في تصحيح أوراق الامتحانات. من نتائج الوضع الجديد ظهور نموذج جديد للطالب، الطالب "الشائع"، الذي يتميّز بل ويُناقض نموذج "طالب السنوات الأولى" من الاستقلال، "الطالب الكلاسيكي" ♥.

♥ Djamel Guerid, "L'exception Algérienne, la modernisation à l'épreuve de la société", Alger, Casbah édition, 2007, p 289.

³¹ يؤكد "عبد الوهاب المسيري"، أنّ هناك عوامل تهدّد الهوية العربية، أهمها: - حضارة الصورة. - الدولة الصهيونية (لأنها تفترض تفتيت الهوية العربية). - تهديم اللغة الفصحى.

الاجتماعي، كما يعتقد "إدموند مارك لبيانسكي Edmond Marc Lipiansky". وفي نفس الوقت يعمل على تأكيد تَمَيُّزِهِ وَتَفَرُّدِهِ عن "الغير"، وانتزاع الاعتراف من "الآخر البعيد" (القائم على ترسيخ معالم الهوية الافتراضية، الأستاذ، الإداري، وباقي رموز الأبوة والمسؤولية)، و"الآخر القريب" (الطالب الزميل)، أو كما يسميه "جورج هيربرت ميد George Herbert Mead" بـ"الغير المُهم" و"الغير المعتمَم" ³². بهدف تقديم صورة مُتمَيِّزة، وتبرير مواقفه، بل الدفاع عما يُمَيِّزُه كـ"أنا" مُتَفَرِّدة بثقافتها، وانتماءاتها الخاصة. لأنَّ "الآخر" له دور فعَّال في تصريف سلوكيات وتمثلات الأنا ³³.

وفي ذات السِّياق، يؤكد "كلود ديبار Claude Dubar" بأنَّ الاستراتيجيات الهوياتية تتمخض نتيجة المواجهة التي تحتدُّ بين مفهومين حددهما "إرفين كوفمان Erving Goffman"، هما "الهوية الافتراضية/ المفترضة Identité virtuelle" القابلة دائماً لتَشكيل وتجسيم "الوصمة Stigmaté"، و"الهوية الحقيقية Identité réelle"، المُعَبِّرة عن الانتماءات الواقعية للفرد. من رَجَمِ هذه المواجهة بين الهويتين تَنَوَّلَد الاستراتيجيات الهوياتية Stratégies identitaires، بُغية التَّخفيف من هامش التَّبَاعُد والتَّصارع، والتَّضيق بينهما، حيث يكمن الرِّهان الأساسي في التَّوفيق والتَّصالح بين المجموعتين، فمن جهة يحاول الطَّالب إثبات وجوده بانتزاع الاعتراف بذاته (الفردية والجماعية)، ومن أخرى يحاول تقديم ذاته على حسب الصُّورة التي يعكسها الآخرون عنه.

فالهوية، تعمل على تَقْطِيبِ الذَّات مع البِنْيَةِ (ثقافة الطالب مع المؤسَّسات الرِّسمية المُكَلِّفة بالتَّنشئة، ومنها الجامعة)، بمعنى أنَّها تُضفي طابع الاستقرار-ولو الجزئي والمؤقت- على الذَّات والعوالم الثقافيَّة التي تتواجد فيها. غير أنَّ الدَّارسين يشيرون في أكثر من مناسبة، بأنَّ الأمور لم تُعَد كما كانت، حيث عرفت الهوية نوعاً من الوحدة والتَّوافق والاستقرار، بل أضحى تتعرَّض للتَّفَتُّت والانقسام. "الأزمة الهوياتية" كما يصفها "كلود ديبار Claude Dubar". كما أفرزت ما يسمي بـ"الهويات المُتَعَدِّدة"، أحياناً مُتناقضة، وعَسِيرة التَّوافق، بل و"قاتلة" على حدِّ تعبير "أمين معلوف". فتحوّلت (الهوية) إلى احتفال مُتنقِّل، حيث تَتَّخِذ ذواتنا هُويَّات مُتعدِّدة بتعدُّد الأزمنة والأمكنة (الفضاءات التَّنشئية والاجتماعية)، والظُّروف المحيطة، تجعلنا نعيش حالة تحوُّل وتزحزح مستمرِّ في مرجعيَّاتنا الهوياتية، ومن يعتقد غير ذلك فيجب إعادة تشخيصاته. وهذا ما

³² يجب التَّنبيه بأنَّ درجة الاقتراب والابتعاد والأهمية، نسبية ومُوقَّتة، وتختلف من شخص لآخر، فما هو قريب ومهم لي، بعيد وغير مهم عندك، والعكس صحيح، وما هو قريب ومهم لي اليوم، قد يبتعد عني غداً.

³³ في هذا المعنى كتب المفكر الأمريكي "بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin" "نظرات الآخرين لنا هي التي تُهدِّمنا.. ولو كان من حولي من العُميان، ما عدَّا أنا، لما احتجت لثياب أنيقة، ولا مَسْكِنٍ جميلٍ، ولا أثاثٍ فاخرٍ".

يؤكدده "ستيوارت هال Stuart Hall" بأنه إذا شعرنا بأننا نملك "هوية موحدة" من المهد إلى اللحد، فلأننا نكون قد بنينا قصة تبعت على الراحة أو 'سرداً عن الذات' يتعلق بأنفسنا، ذلك أن الهوية الموحدة، المتوافقة والمكتملة والمطمئنة، هي استيهام (توهّم).

وبما أن هناك ممارسات متعددة ومتنوعة في التعبير عن الهويات (الوطنية والفرعية والفردية)، تتموضع "الممارسة الكتابية" كاستراتيجية فعالة لذلك. لأن الكتابة عامة -بما فيها الجرافيتية Les graffitis³⁴- ليست كما يؤكد "روي هاريس Roy Harris" في كتابه "أصل الكتابة"، صدئ خطياً للكلام فقط، بل نظاماً آخر لتمثيل الأفكار، التي تمتلك استقلاليتها الخاصة، ومنه لا تغدو الكتابة مجرد حاملاً للكلام، بل ابتكاراً متميزاً أولجت البشرية جمعاء في عصر جديد، حققت من خلاله طفرة لم تعدها قبلاً. ومنه، لا تغدو الممارسة الكتابية مجرد وعاء للكلمة، بل ابتداءً ثقافياً مهماً، يساهم في تشكيل الثقافة الإنسانية³⁵.

من خصائصها كما يَصوِّرها "جاك غودي Jack Goody" في مؤلفاته "العقل الخطي" و"منطق الكتابة"، إمكانية تخزين المعارف، مما جعلها -بدون ريب- امتياز كبير أمام الثقافات الشفوية، فما هو مكتوب يسمح للفكر الإنساني بتخطي حواجز الزمان والمكان. زادت أهميتها بعد اختراع المطبعة خلال القرن السادس عشر، حيث ساهمت في "دمقرطة" حق المعرفة، وفعل/ممارسة الكتابة، بعدما كانت منحصرة لدى "ثلة" من الأشخاص، حيث شكّلت -ما يسميه الباحثون- بأرستقراطية الكتابة، ونشر "حضارة الكتابة" في "مجتمعات الكتابة"، حيث يترجع الأدب والفلسفة على عرشها. غير أن المتتبع لتمظهرات "الممارسة الكتابية" بأنواعها، يقتنع بأن هناك أشكال تُصنّف خارج السياق الرسمي لها-أي في اللارسمي- غالباً ما يُنظر إليها بنوع من التغافل والتهميش والدونية، رغم حضورها الواسع في حياتنا اليومية. تبدأ من الفعل الطفولي -المسعى بـ 'الخربشات Les gribouillages' والتي سيتم التفصيل فيها لاحقاً- إلى الفعل الكتابي الواعي، المقصود والهادف -

³⁴ بصفة عامة، تعرّف "الجرافيتي/الجرافيتيا Les graffitis" على أنها مختلف الكتابات والرسمات الغير رسمية التي "عُرِفَتْ" على "دعامات /مساحات (Les supports)" غير مخصصة لذلك، على نحو: الجدران وما شاكلها، الأعمدة، الأبواب، النوافذ،... باستخدام أدوات الكتابة التقليدية (كالقلم، الطباشير..)، أو المعاصرة، كالأصباغ وقننات الرذاذ والأقلام العريضة الصعبة المحو (à encre indélébile).

³⁵ Roy Harris, "The origins of writing", London, G. Duckworth, 1986. In: Canadian journal of communication, vol.13, n°3-4, pp.139.141. (Book Reviews, reviewed by: Ann McLeod, Port Coquitlam).URL:www.cjc-online.ca/index.php/journal/article/download/470/376. Consulted: 21/02/2009.

كالكتابة الغرافيتية Les graffitis - مروراً بتسجيل أرقام هواتف الزملاء أو الأحبّة، أو تدوين المواعيد المهمة في المفكرة أو عناوين ضرورية، إلى تدوين مشتريات الأسرة على علبه السجائر والشمّة، أو رسائل التّواصل أو تسجيل "سيدة البيت" لوصفات الطّبخ وإصاقها بمُحاذاة الثّلاجة، أو الكتابة على العُملّة النّقديّة،...

"ممارسات كتابية" ينعتها الإثنوغرافي "جان بيار ألبرت Jean Pierre Albert"³⁶ بالكتابة البيئية/ المَنزلية"(L'écriture domestiques)-كمقابل للكتابة المهنية /التعليمية L'écriture professionnelle- التي جعلها ميدان اهتماماته البَحثية منذ سنوات، بهدف استكشاف الوظيفة الهويّاتية لهكذا كتابة، وأهم إستخداماتها كعلامات هويّاتية مُميّزة للأفراد. في "منزل الكتابة" أو "كتابة المنزل" نهمُّ بتسجيل ما لا نتمتّى نسيانَه، -ويعتقد- بأنّها تمكّننا من مَنح وُجود موضوعي لأفكارنا ولوجودنا، وتنظيم أمورنا، حتّى ولو اختلطت بعض أوراقنا وقصاصاتنا بجانب الهاتف أو في جيوبنا. فالفعل الكتابي يسمح لممارسيه -الطلبة مثلاً- بتدعيم شعورهم الهويّاتي³⁷.

ويضيف آل الأنثروبولوجيا والسوسولوجيا أنّ "الكتابة" باختلاف أنواعها وأشكالها وحاملاتها تهدف إلى الإفصاح/التّعبير عن الانتماء الجماعي لكتابتها. إنّها تُعبّر كما يرى "جون ألبرت Albert Jean" في غالب الأحيان عن الهوية الشّخصية والعائلية والجماعية لأصحابها، فدَفَتَرُ ولادة الطّفل الذي تكتبه الأم بعناية، وشجرة الأجداد، وألبومات الصّور المكتوب عليها تاريخ ومكان التقاطها، كلّها ممارسات كِتَابِيَّة تَهْدَف لجعل العائلة موجودة منذ زَمَن (X temps)، ومُعَرَف وفقها (تاريخ الفرد والعائلة). ذلك لأنّ للكتابة "سلطة هويّاتية" تتعامل مع التّساؤل المركزي لعملية "البحث الهويّاتي"، من أكون؟. ممّا يستلزم إجابات مُقنِعة، تُترجم من خلال هذه الأخيرة -الكتابة-.

تطوّرت ممارسة/ظاهرة "الكتابة" حسب السوسولوجي "برنارد لايير Bernard Lahire"، بشكل مُلفت للانتباه خلال القرن التّاسع عشر، لصالح الذّكور أكثر من الإناث، نتيجة التّقسيم الاجتماعي للأدوار بين الجنسين، إذ اقتصرَت ممارستها على وظائف وأدوار مهنيّة وسلطويّة، يَشغلها (يحتلها) الجنس الذّكوري/الرّجالي، وما زال هذا التّقسيم مُسيطرًا إلى وقتنا الحالي. وقد لُوْحظ اليوم -حسب

³⁶ Jean Pierre Albert, "Etre soi: Ecriture ordinaire de l'identité", identité, lecture, écriture, sous la dir: Martine Chaudron et François de Singly, Paris, Bibliothèque Publique d'Information, 1993, pp.45-58. (Fiche de lecture par: Daniel Bornemann et Eudes Chigé).

³⁷ Jean-Pierre Albert, "Écritures domestiques", In: Manuscrit auteur, publié dans: "Écritures ordinaires", D. Fabre (dir.), 1993, pp. 37-94. URI: <http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/36/99/11/PDF/Ecrituresdomestiques.pdf> . Consulté le: 2/5/08.

نفس الباحث- أنّ النساء يُبدين اهتمامًا أكثر للاحتفاظ برُسومات وخرَبشات أطفالهنّ، مع اهتمامهنّ بدروسهنّ وواجباتهنّ المدرسية، ومنحه شكل "طقس مرور" و"انتقال أمومي" للمرأة المتزوجة، لذلك يجب التأكيد على الدور الفعّال 'للكتابه'- باختلاف أنواعها- في تشكيل الهوية الشخصية والاجتماعية.

بدوره إنكبّ "فيليب جون Fillippe Jone" على دراسة مُذكرات الفتيات خلال القرن التاسع عشر، ذات المحتوى الديني، ليخلص بأنّ هدفها تمحور في البحث عن الهوية والتساؤل المستمر حول الذات، مما دفع بعضهن لابتداع ذاتاً متميّزة. يَتِم كلّ ذلك عبر المسيرة الحياتية -التنشئية- التي يقضيها الفرد في دهاليز مؤسسات التنشئة الاجتماعية المتعدّدة (التقليدية والحديثة)، ولعل المدرسة (الجامعة) أبرزها. حيث تُمارس هذه الأخيرة تأثيرات مُهمّة في صيرورة نَحْتِ الهوية الذاتية والاجتماعية مُنذُ سببها، سواء من خلال التنشئة المقصودة (المُعلّنة أو المَخفية)، أو "التنشئة الصّامتة Socialisation silencieuse"، التي تفرضها "إيقاعات" العملية التعلّمية/التعلّمية التي يتفاعل معها.

ومنه، تُسمي الجامعة من بين الفضاءات التنشئية -المؤثّرة- التي تساهم في نَحْتِ ملامح الهوية الطلابية، إذ يعتقد بعض الدّارسين أنّ هذه المرحلة (الانتقال للجامعة) لها باعٌ كبير في "عملية الانتساب"³⁸، حيث يتحدّد الرّهان الأوّلي كما يعتقد "فرانسوا دوبي François Dubet" -خاصة خلال السّنة الأولى- في تحويل "الطّالب الثّانوي" إلى "طالب جامعي" يتحمّل مسؤولياته وفق هامش حرية أوسع³⁹، حيث تتقاطع مؤثّرات عدّة في هكذا عملية، إذ يتميّز الطالب الجامعي بخصائص عُمرية خاصة، أهمها المراهقة بمراحلها (المبكرة، الوُسطى والمتأخّرة)، مرحلة يقول عنها أهل الاختصاص بأنّها تعرف تَمَدّدًا مستمرًا في المجتمعات المعاصرة، وذات أهمية في تشكيل الهوية الاجتماعية الطلابية، حسب "فاليري إرليش Valérie Erlich"⁴⁰، هوية تتقاطع فيها ثلاث مستويات واضحة، تتشارك بينها لتُعرّف المجموعة الطلابية: الهوية التعلّميّة، الهوية الشّبابية والهوية المهنيّة.

³⁸ Alain Coulon, "Le métier de l'étudiant, l'entrée dans la vie universitaire", Paris, PUF, 1997.

³⁹ Régine Boyer, Charles Coridian, Valérie Erlich, "L'entrée dans la vie étudiante, socialisation et apprentissages", Revue Française de Pédagogie, n°136, juillet/aout/septembre, 2001, pp.97-105.

⁴⁰ Valérie Erlich, "L'identité étudiante: Particularités et contrastes", Manuscrit auteur, publié dans "Comprendre les jeunes, Direction scientifique: François Dubet, Olivier Galland, Ed: Eric

فالتألمب فف "مسفرة بآئه" عن هوفته فءآل فف ففآعلاآ أفقففة (مع نظرفئه من الطلبة، وباقف من ففآعل معهم آارج المآفط الجامعف)، وعمودفة (الأساآة والإءارففن وباقف القائففن على آءمة "الآرم الجامعف")، فآاول إآباء ذاآه وانآزاع الاعآراف منهم. فُآرآم ذلك من آلال سلوكفآاه القُولفة والفعلفة والإفمائفة، والرّمزفة الآقفافة، ك (اللّباس، قَصّة الشّعرف واللّكّنة..)، ونآآرآ ونقول و"الممارسة العرافففة". عفر أنّ العملفة لفسآ فسفرة الآآقفق، ولعلّ هذا قصده "ألان إفرنبرع Alain Ehrenberg" فف آآابه "الآعب من الذآآ" ⁴¹ بقوله "آم هف مّضنفة مسفرة البآآ عن الهوفة، إنّ الإآآآاب هو بلا شكّ، العرّض المرّضف الأآشء برورآً لهذه الصعوبة الآءفدة فف الآآءفد الشّآصف للهوفة".

مآلفاً، ففموقع الجامعة الآزائفة كإآءف أهم المؤسّساآ الاجآماعفة للبناء الهوفآف، آفآ فآرآ لأفرادها عامّة، ولشبابها آاصّة، ولطلابها بالأآص، معالِم "مآمفزة" للآماهف آراها مناسبة لهم. وقفماً ومعاففراً فف عالفها "آءائفة" (على الأقل على المسآوى النظرف والرّسف). أمآ على مسآوى الممارسة-بلعة السوسفولوجفا المّضمرّة والآقففة- فنعكس آقافة مآآمع فُءمن آقءفس- ما سمّاه البعب- ب"الآالوآ المآرم" المآشكّل من الءفن، الآنس، السفااسة ⁴²، وما ففرزه من ممارساآ "عفر سوفة" بالآسبة للإرادة الفردفة. ما ففضف بهم لمواجهة "الآناقص" بفن المرجعفاآ الآقفافة الفف آرّوّآها المؤسّساآ الآعلفمفة عامّة، عفر "المقرراآ الءرفاسفة" ⁴³، وبفن ما آرّوّآه مآآلف مؤسّساآ الآنشئة الاجآماعفة الأآرى، من (أسرة وآلفزفون ومآلاآ ورفاق. وباقف قنواآ "الآورة المعلومآفة"، آاصّة الأنآرنفآ بشبكاآها الاجآماعفة الفف ما فآآآآ آسآقآب وآسآلآف الآلاف بل الملافن من المنآسبفن، وآآمعّ ما عرّف بشباب الففس بوك Facebook"، و"آوفاآر Tweeter" و..المآمفز بثقافة آاصة.

فهناك من آهة مفل/رغبة هؤلآ إلى آآاوز الماضي بثقافته "الآقلفءفة"، وآآآف "واقعه المآزوم" عن طرفق الاآآراك مع الأآر-العرفف آاصة- فف "بعب" قفمه الآقفافة، لغآه ونمطه الاسآهلاكي

=Dechavanne,2004 ,pp.121-140.URI :<http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/08/42/20/PDF/Erlichcomprendre.pdf>. Consulté le: 12/11/2009.

⁴¹ Alain Ehrenberg, "La fatigue d'être soi. Dépression et société", Odile Jacob, 1998, (réed.2000), 414p.

⁴² ففآآآ البآآآ "بوعلف فاسفن" عن الآالوآ مع آآوفر العنصر الآالآ من السفااسة إلى الصراع الطبقف. ضمن "الآالوآ المآرم"، ءراسة فف الءفن والآنس والصراع الطبقف"، الطبعة الرابعة، (ط1 1973)، ءار الطلعة، بفرف، 1980.

⁴³ لأنّ الطالب لفس ولفء الجامعة فقط، بل فآآ فلفرفورة فمآ من "مرآلة النّمافز" إلى لآظة آآابآه للعرافففة.

بالدرجة الأولى، ومن جهة أخرى، رغبة هؤلاء (الطلاب/الطالبات) في التّشبّث ببعض قيم الماضي المجتمعي (الأسري، المحلي،...)، التي تشرّبوها خلال تنشئتهم، و "الدّفاع" عن هويتهم الثقافية، عن طريق التّمايز والاختلاف عن "الأخر"، وعن مقوماته الحضارية والاجتماعية والثقافية. وبعيئة - مؤقتة- تُدخّلهم في مفاوضات ومساومات ومشاحنات (واعية وغير واعية)، مع إكراهات القوالب المجتمعية سواء الداخلية (داخل التنظيم الجامعي) أو الخارجية، الموروثة أو المكتسبة.

ثقافةً، رسميةً وشرعيةً، تحاول ترسيخها هذه المؤسّسات لتصهر وتكوّن ملامح الهوية المفترضة رسمياً، مُدعمة ذلك بترسانة من وسائل الرّقابة والضّبط الاجتماعي، وما أكثرها في المجتمعات الثّالثية. في مجتمعات يصفها الباحث "عنصر العياشي" بأنها تتّسم بهيمنة الأحاديث بكلّ أشكالها، سياسية، أيديولوجية وثقافية. مما جعلها لا تستطيع تلبية مطالبه النّمائية وطموحاته وأحلامه وواقعه المُعاش، فيلتجئ إلى إستراتيجيات للتّخفيف من هكذا حالة، وفي الوقت نفسه يقدم ذاته وهويته -التي يعتقد أنّها مناسبة- بكلّ دوائر انتماءاتها (الإثنية، الجندرية، المحلية والعالمية...)، أمام سلطة الضّبط الاجتماعي.

ولأنّ "الكتابة" عامّة و"الغرافيتيا" خاصّة، وسيلة من وسائل التّعبير الهويّاتي، كما يؤكّده جلّ الباحثين، على نحو، "ألان فيلبو Alain Vulbeau"، "جون بيار ألبير Jean Pierre Albert"، "راول فيلا Raul Vella"، "فرانكلين بياطريس Fraenkel Béatrice". وردت معظم المضامين الغرافيتية عاكسةً لعلاقة (علاقات) الذات-الطلابية- بالأخر، ومؤشّرات لآثار إنوجاد فاعلها (صاحبها)، حيث تتموضع كنتيجة وبداية في نفس الوقت، نتيجة للثقافة السّابقة لِكاتبها-الطّالب(ة) في دراستنا- وفي ذات الوقت حاملة لمُقومات وإمكانيات تشكيل ثقافته -ومنه هويته- المأمولة، فهي الوصل بين ثقافة الماضي وثقافة الحاضر مع ثقافة المستقبل⁴⁴.

تعتبر "الكتابة"- بما فيها الغرافيتية- أقرب وأمكن للطالب-الجزائري- المُعرّف Le graffeur graffitiur باعتبارها أهمّ "رأس مال ثقافي" يمتلكه ويحدّق فيه، بكل سلاسة-ولأنّ كل طالب يتحكّم في ملكة الكتابة والقراءة- ورغم ممارسته الواسعة للكتابة (الرسمية) خلال المحاضرات والبحوث والامتحانات لأهداف مُحدّدة، إلاّ أنّه تفاعل معها بشكل جديد، ويحامل جديد، ولههدف متميّز جديد. يختلف عن مغزى الكتابة الرّسمية التي تلقاها خلال مساره التّعليمي، الذي رسمته له

⁴⁴ Jean-Jacques Latouille, "Entre l'individu et la société", Recherches & Educations, n°2, 2002.
URI: <http://rechercheseducations.revues.org/index276.html>. Consulté le: 09/5/11.

السُّلطة المشرفة على عملية التَّنشئة، من خلال صيرورة تعليمية تُرَاهِن على القراءة والكتابة، كقواعد ابتدائية لِبِناء ورسم ملامح الهوية الطَّلابية (من المنظور الرَّسْمِي). حيث يُنشَأ وفق كتابة مَجْبُولة على التَّزام الصَّمْتِ-الاضطراري- على بعض مستويات الوجود والكيونة الإنسانيَّة - للهوية الطَّلابية-. كتابةً، يرى فيها "جان بيار ألبرت Jean Pierre Albert" بأنَّها ذات دلالات عميقة في البحث الهويَّاتي، إذ تهدف إلى الإعلان وتأكيد انتماءات اجتماعية متعدِّدة. فعندما نكتب كلمة أو جملة، أو نرسم رمزاً أو شكلاً ما، إنَّما نرُومُ لِفَت انتباه الآخرين، وتأكيد انُوجداننا، ومنه هويتنا⁴⁵.

كثيراً ما نُعتت الكتابة(ات) الجرافيتية بِنُوعت عِدَّة، تَنشُرُك مُعظَمُها في صِفَّة الحُكم القِيَمي، المعياري والأخلاقي، سواء من السُّلطات الرَّسْمية أو عامَّة النَّاس، أو حتَّى بعض الدَّارسين. وهذا ما أشار إليه الباحث "كريغ كاستلمان Craig Castleman" سنة 1982، عندما أكَّد أنَّ ممارسة الجرافيتي كثيرًا ما أُلحقت وأُلصقت بها العديد من الأحكام القِيَمية المُعَمَّمة، المُسبقة، لا تستند لدراسات علمية⁴⁶. فغالبًا ما كانت-وما زالت- ممارسة/ظاهرة الجرافيتيا موضوع مرافعات علمية، ومناكفات سياسية، ومشاحنات أيديولوجية متنوعة، فإعتبرها بعض الباحثين والمسؤولين الإداريين والسياسيين نوعًا من الممارسة الغير رسمية/شرعية، بل شكل من أشكال التَّخريب والتلويث الحضري⁴⁷. في حين، رأى فيها البعض الآخر، نوعًا من أنواع "الفن" الإبداعي المعاصر، يستحق الاهتمام البَحْثي والرَّسْمِي، على نحو "هاورد بيكر Howard. Becker"(1963)، "بلاك فريد Blake Fred" (1981)⁴⁸، "ريموند غوزي Raymond Gozzi"(1989). رغم ذلك، مهما كانت وجهة النَّظر

⁴⁵ Jean Pierre Albert, *ibid*.

⁴⁶ رافَع عن الممارسة بأسلوب علمي، في كتابه:

Craig Castleman, "Getting up: Subway graffiti in New York", New York, MIT Press, 1984, 212p.

⁴⁷ Richard Luchmann, "Le graffiti comme carrière et comme idéologie", traduction: Jean-Samuel Beuscart, Loïc Lafargue de Grangeneuve, Claire Lemasne et Frédéric Vagneron), *Terrains & travaux*, 2/2003, n° 5, p. 76. URL: www.cairn.info/revue-terrains-et-travaux-2003-2-page-55.htm. Consulté le: 11/8/2009.

⁴⁸ Fred Blake, "Graffiti and racial insults: The archaeology of ethnic relations in Hawaii". In R. A. Gould & M. B. Schiffer (Eds.), *Modern Material Culture: The Archaeology of Us*, NY: Academic. pp.87-89. URL: http://www.anthropology.hawaii.edu/people/faculty/Blake/pdfs/1981_GraffitiandRacialInsults.pdf. Consulted: 8/5/2008.

التي نشكلها حولها تبقى الجرافيتيا ممارسة متجدرة في التاريخ، باعتبارها نوع من التواصل الإنساني المستمر في التواجد⁴⁹.

إنها "كتابة غير مُشْرَعَنَة وغير مُرْسَمَة"، إنتشرت وتكثفت على دعائم ووسائط متعددة -سيأتي التفصيل فيما لاحقًا- إستثمرها الطالب الجزائري بجامعة تلمسان- باعتبارها الرأسمال الوفير الذي يتحكم فيه بامتياز، عبّر من خلالها عن خصائص وملامح هويته الخاصة، والتميّزة (الفردية والجماعية). إنها استراتيجيته الهوياتية للتعبير عن انتماءاته الاجتماعية والثقافية. بكلمة واحدة لإثبات وجوده وتفرّده، لأنّ الانتماء لعالم الجامعة لا يتوقّف على التواجد الجسدي ضمن هكذا فضاء فقط، بل يتجاوزه كممارسة إنتماء هويّاتي خاص، يتأكّد عمليًا بالتفاعل اليومي بين الفاعلين، بوسائط وألعاب واستراتيجيات عدّة، ولعل الجرافيتيا أبرزها.

يعتقد الباحث المُتمرّس "ألان فيلبو Alain Vulbeau" أنّ من بين أسباب انتشار الظاهرة بالمجتمعات المعاصرة، إشكالية التّنشئة الشّبابية المُمارّسة من طرف مؤسّسات التّنشئة الرّسمية (خاصة المدرسة والجامعة)، التي "تفرض" على هذه الفئة أدواراً ومكانات مُسبّقة التّشكّل، دون إعطاء أهمية للأنا الشّبابي وخصوصياته، مما يدفع بهؤلاء -الممارسين- للبحث عن طرق خاصّة بهم للتعبير عن ذواتهم، ومنه عن مشاكلهم المعيشية، ومحاولتهم لخلق وتشكيل هويات مُتعدّدة، تُساعدهم على التّكيف مع الوضعيات الاجتماعية التي يجدون أنفسهم فيها يوميًا، وذلك من خلال نموذج جديد للتّنشئة، مُتكيّف مع عالم متغير، أين تكون الأدوار غير مُحددة مُسبّقًا. ولكن حسب الظروف المُعاشة، ومنه تتحول ممارسة الجرافيتيا إلى تنشئة شبابية مُتميّزة ومُميّزة⁵⁰.

إنها بمثابة سرد ذاتي/جماعاتي، حول وقائع وحيثيات الحياة اليومية للطالب، بأبعادها الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل. سردٌ فرديٌّ وجماعيٌّ لخصوصيات ومُعاناة "الذّات" الطّلابية، لذا يجب فهم وتفهم التّمثّلات والمعايير المُهندِسة للثقافة الطّلابية، ومنه للهوية الطّلابية، من خلال استقصاء وتحليل مختلف المضامين الجرافيتية التي إنتشرت بمختلف تضاريس جامعة أبي بكر

⁴⁹ Gross, Daniel D&Walkosz, Barbar & Gross, Timothy D, "Language boundaries and discourse stability: 'Tagging' as a form of graffiti spanning international borders", Institute of General Semantics, Gale, Cengage Learning, 1997. URL: <http://www.Freepatentsonline.com/article/ETC-Review-General-Semantics/20390463.html>. Consulted: 14/6/11.

⁵⁰ Alain Vulbeau, "Les Tags, spectres de la Jeunesse, histoire d'une nouvelle pratique urbaine", Annales de la Recherche Urbaine, Violence dans les villes", n°54 - mars 1992. <http://www.cdu.urbanisme.developpement-durable.gouv.fr/cdu/DATAS/annales/vulbeau.htm>. Consulté: 2/10/09.

بلقايد-الجيز المكاني للدراسة- من قاعات ومُدرجات، ومطاعم، ومحطات الحافلات، ومراحيض وإقامات جامعية، و... حيث جثت الكثير منها على دَعائم عِدَّة، كالجدران، الأعمدة، المناضد، الأبواب، النوافذ، الكراسي..). فرضت -وتفرض- نفسها على الباحثين كظاهرة اجتماعية بحثية، تحتاج للفحص والتّحقيق. فالمتبصر للفضاء الجامعي يلحظ التّواجد الكثيف لها عبر كامل الفضاءات والوسائط التي تُؤثّر هذا الأخير. كلّ هذا دفعنا لطرح مجموعة من الأسئلة فرضت وجودها على موضوعنا، ومنها:

- يا تُرى، ما مضمون هذه "الكتابات الجرافيتية" (الخربشات) المنتشرة بالوسط الجامعي؟
- وما الدلالات السّوسيو أنثروبولوجية التي يمكن إستشفافها من هكذا "مضامين"؟
- أليست هذه "الكتابات" تأكيداً على هويّة طلابيّة متميّزة؟
- ما أهمّ الأسباب الثّأويّة وراء إستفحال الممارسة الجرافيتية بالفضاء الجامعي؟
- ما دوافع إتجاه الطالب لهكذا كتابة هامشية؟
- أليست صياغة طلابية خاصّة لمعالم هويّاتية متميّزة عن ملامح "الهوية المَنشودة" من طرف المؤسّسات التّعليمية الرّسمية؟
- لماذا هذا الحضور المُكثّف "للمدنس" على مستوى مضامين هكذا "كتابات"؟
- ألا يمكن القول أنّ "الفعل الجرافيتي" يؤشّر عن كوجيطو جديد "أنا أُعرِفَت -أكتب الجرافيتيا- إذن أنا مَوْجُود" على صيغة الكوجيطو الديكارتّي "أنا أفكر إذن أنا موجود"؟
- ولمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة صغنا الإجابات المؤقتة (الفرضيات) التّالية:
- تعبّر هذه "الكتابات" عن مضامين مُهندِسة لثقافة طلابية خاصّة.
- تعكس هكذا "كتابات جرافيتية" أبعاد هوية طلابية متميّزة بانتماءاتها المتعدّدة.
- "الكتابات الجرافيتية" إستراتيجية هويّاتية للتّعبير عن ملامح الهوية الطلابية.
- إنتشرت "الجرافيتيا" لعدم توافر قنوات تعبيرية ملائمة للطالب للتّعبير عن خصوصياته الثّقافية.
- ظهرت "الجرافيتيا الطلابية" كردّ فعل لسلطة المنع والتّهميش⁵¹ التي يعاني منها الطالب في الفضاء الجامعي خاصّة والمجتمعي عامّةً.

⁵¹ يعتقد الباحث "ألان ميلو Alain Milon" أنّ ظاهرة الجرافيتيا ناتجة عن ظاهرة "التّهميش الحضري"، ذلك أنّ الشّخص المُهمّش ليس ذلك الذي يُمنع من الإقامة في إقليم معيّن، وإنّما الذي عمّلت الثقافة المجتمعية بإبعاده-عن قصد أو عن غير قصد-، فيلتجأ لوسيلة الكتابة الهيروغليفية الجرافيتية للردّ عليها، ومنه على الإقصاء والتّهميش.

- غلب المضمون "المدنّس" نتيجة الطابع التسلطي السائد في "علاقات" التّنشئة الاجتماعية المُمارَسة بالمؤسّسات التّنشئية المنوطة بهكذا وظيفة.
- إنبلّجت هذه "الكتابات" نتيجة إنحباس التّعبير الحر عن الخصوصيات الثقافية للطالب، بحجة الممنوع والحرام والعييب، المُترنّحة ما بين ثنائية المقدس والمدنّس.
- التّجأ الطالب "للفعل الجرافيتي" لإثبات إنوجاده وانتزاع الاعتراف الاجتماعي من "الأخر".
قبل الإندلاق في تفاصيل الاجابة حريّ بنا تعداد الأهمية العلمية والعملية لهذا الموضوع.
- ☒ الأهمية العلمية والعملية للموضوع: نعتقد أنّ مقارعتنا لهكذا موضوع -منذ سنوات- يعود لأهميته العلمية والسوسولوجية، لأنّ هذه "الكتابات الجرافيتية" حُبلى برسائل متنوعة، يمكن قراءتها من مستويات متعدّدة، من أهمها ما يلي:
- على المستوى الاجتماعي: تعتبر الجرافيتيا مرآة عاكسة لتلوينات الواقع اليومي للطالب/الشّاب الجزائري، إنّها "سيناريو يومي" لمُعاشه Le vécu، تعكس أشكال ونتائج تفاعلاته مع محيطه.
- على المستوى الثقافي: تعكس وتعبّر عن خصوصية ثقافية مشتركة -إلى حدّ ما- بين الطلبة، لتؤسّس بدورها لأبعاد هوية طلابية، تتميز عن باقي هويات الفئات الاجتماعية الأخرى⁵².
- المستوى الرّمزي: تكشف عن علاقة الطالب بمحيطه ورمزية نتائج تفاعله اليومي مع أقرانه ومع مسؤوليه، وطرق امتلاكه واحتلاله الرّمزي لردّهات الفضاء الجامعي، ولمساحات أدواته (دعامات الكتابات الجرافيتية) بطريقة عقلانية خاصة.
- المستوى الجمالي والفني: تعكس هذه "الكتابات" عناصر المخيال الاجتماعي للطالب، وخلفية الديكور المعتمّد في تصفيف وترتيب مرجعيات ثقافة المجتمع، حسب اهتماماته وشوّاغله وآماله.
- كما نزعّم، أنّ ما يمنح قيمة لبحثنا هو مقاربتنا لفئة ليست بالهيتّة، فئة الطلّبة التي غالبًا ما تُوصّف بـ"نُخبة المجتمع" و"قشّده La crème de la société"، إنّهم مُثقفو الغد.
- موضوع الهوية، موضوع كُثرت حوله السّجالات والمضاربات حتّى تحوّل إلى مُوضة بحثية كما يعتقد "إريك ديبان Eric Dupin"⁵³. حيث تنفرض الحاجة البحثية للهوية لسببين، الأوّل خارجي، بدأ مع تنامي الحديث عن ظاهرة العولمة وإفرازاتها، وتعدّد تعريفاتها على مستوى كل المجالات،

⁵² لأنّه لكي تكون "طالبًا" اليوم - حسب "ديدي فيشر Didier Fisher" - يعني أنّ تتميّز قدر المُستطاع عن باقي الفئات المجتمعية الأخرى، في ممارساتها الاجتماعية والثقافية.

⁵³ Eric Dupin, "L'hystérie identitaire", éditions Recherche Midi, 2004, 166 p.

والعمل على إعادة تنظيم العالم وفق نظام عالمي جديد. ممّا أدى إلى بروز نظريات تسير في سياق العولمة والتّأثير المترتبة عنها، على نحو نظرية "الوطن في الشّتات" للفيلسوف الفرنسي "إيف ميشو Yves Michaud"، التي يرافع فيها لضرورة بلوغ "هويات ديناميكية ومَرِنَة"، تقوم على الاختيار والمقارنة، بدلاً من الانتماء المباشر لوطن بعينه⁵⁴. كما تضاعفت أهميتها نتيجة المشكلات العرقية المتفاقمة في العقود الأخيرة.

أمّا الثّاني، فيتعلق بإنبعث توجيهين رئيسيين، يبدوان متعارضين إلى درجة ما. من جهة، الانبعث القوي لحركات الأصوليات الدّينية والطّائفية والعرقية والجندسانية (المثليين)، بتعدد انتماءاتها المجتمعية، التي تتبّنى تصورات نُكوصية للهوية، تقوم على انتماء واحد ووحيد (العرق أو العقيدة أو المذهب أو المنطقة...)، واعتبارها حقيقة مطلقة ومتعالية (بل ومقدسة)، وأنّها الأساس الوحيد الذي يُهندس هوية الفرد والمجتمع⁵⁵. وجهة ثانية، الموجة الصّاعدة لثقافة الحداثة، وما بعد الحداثة، التي تنطلق من أنّ سؤال الهوية أصبح مُتجاوزًا، وأنّها لا تُعدّو أن تكون مجموعة من الإسقاطات والتّخيلات الوهمية، التي يُضفيها الفرد على نفسه وعلى جماعته المحلية، ومنه على مجتمعه.

بالتّوازي، تتموقع ممارسة/ظاهرة "الكتابات الجغرافية"، كموضوع بحثي مهم وأصيل، ذلك لأنّها تمثل النّافذة -بل النّوافذ- التي نطلّ منها على مُنحنيات تغيّر الثقافة المجتمعية، ومنه للهوية وإعتلالاتها وأزماتها. كما تكشف لنا عن الوجه الخفي والمضمّر للمجتمع الجزائري عامّة، وللمؤسسة الجامعية خاصّة. "ممارسة" غالبًا ما لا يُنتبه إليها، أو يُنظر إليها بنوع من التّسامي والتّعالي والدّونية البحثية، لإعتبارها-رسميًا ومجتمعيًا- نوعٌ من السلوك الصّيباني، التّخريبي، بل لا أخلاقي. فالجغرافيتيا الطّلابية، مقياس موضوعي صامت وخفي، لمناخ ومُنْتجات "الحرم الجامعي" خاصة، ولثقافة الطّلابية بالأخص. بلغة الباحث الأمريكي "روبرت ج. ريسنر Robert .G. Reisner" إنّها "بارومتر Baromètre" لقياس حرارة المجتمع، ولطبيعة التّغيرات الاجتماعية، أو المواقف الوطنية، والأمزجة الشّعبية، ولأنّها تمكّننا من الحصول على معلومات ومؤشّرات ضرورية، للتّحقيق حول فشل السلوك الجامعي، وميكانيزمات الغبّاء التي تُعيق الفكر-يضيف ذات الباحث-⁵⁶. وعلى منوال تصريح أحد ممارسي الجغرافيتي، عندما قال "إذا أردت أن تعرف ما يحدث في أيّ مدينة فأنظر إلى كتاباتها

⁵⁴ Yves Michaud, "Des identités flexibles", Le Monde du 24 octobre 1997.

⁵⁵ "إشكالية الهوية"، مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية، 2007. بالموقع:

تاريخ الاطلاع: 2009/7/22. http://www.tanmia.ma/article-imprim.php3?id_article=12963

⁵⁶ Robert George Reisner, Lorraine Wechsler, "Encyclopedia of Graffiti", N. Y, Macmillan, 1974.

الجدارية"، نتجرأ ونقول "إذا أردت أن تعرف ما يُعتمَلُ داخل المؤسسة الجامعية - (بتلمسان) - فأنظر إلى كتاباتها الجرافيتية".

نذكر بدايةً، أنّ دراستنا المتواضعة لا تقدم دروساً من باب "يجب أن... أو" "كان بالأحرى أن.."، فهي لا تريد إحتقار ولا إعلاء الممارسة (الظاهرة)، بل تحاول - قدر المستطاع - تفهّمها كما هي في الواقع، برؤية علمية تنحاز عن الأحكام المسبقة والأخلاقية المعيارية، ومنه نرُوم تحقيق الأهداف التالية:

- محاولة استنطاق وتفكيك بعض بنيات المجتمع الجزائري، واستكشاف بعض تضاريسه - من بينها الجامعة-، لعُسرِ تَفَهْمِهِ. فهو مجتمع يتداخل فيه الحديث العقلاني بالتقليدي والواقعي والأسطوري. يتم ذلك من خلال الجامعة، التي لا تنقطع عن باقي المؤسسات الأخرى كالأُسرة والمدرسة المسجد و -"الزَنَقَة"-...إلّا أنّ إستنطاقنا لها إقتصر على مستوى "هامشي وصامت"، يتوارى عن أنظار أغلب الفاعلين، حتّى من داخل الفضاء الجامعي. من خلال ملامستنا لما أسماه الباحث "عبد الرحيم العطري"- في (صناعة النّخبة بالمغرب)- بمناطق الظّل والعتمة المسكوت عنها' بها. إنّها ممارسة 'الكتابات الجرافيتية' لدى الطّالب الجامعي، خاصّة في إرتباطها بمسألة الانتماء والتّماهي

- محاولة تفكيك ودحض أسطورة "عَبَثِيَّة" الفعل الجرافيتي عامّة، والفعل الجرافيتي الطلابي خاصة.

- كما نرُوم من خلال هكذا بحث رصد أحوال وأوضاع وتمثّلات وتماهيات فئة اجتماعية مهمة، وهي الشّباب الجامعي، بإستنطاق "آثارها الجرافيتية Traces graffitiques" الجائية والجاثمة بالفضاءات الفرعية الجامعية. ذلك لأنّ "الجرافيتي" في تصور "أندري غيلان André Guillain" "علامات" شّبابية - طلابية- يعبر ويكشف من خلالها عن هويته المُهدّدة بالإقصاء والتهميش وعدم الاستقرار⁵⁷.

⁵⁷ André Guillain, "L'enfance du geste : Ecriture et graffiti". In: Communication et langages. n°97, 3^{ème} trimestre 1993. pp. 46-52. <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/colan0336-15001993num9712455>. Consulté le :10/11/2011.

- تحديد بعض المفاهيم المرتبطة بالثقافة ومنه الهوية الطلابية، من خلال آثارها الجغرافية، ومحاولة تفهم ولفت إنتباه المجتمع (المسؤول والباحث)، لأهمية الظاهرة التي غزت مُدُننا ومؤسّساتنا بمختلف تضاريسها⁵⁸، لأنّها مؤشّرات قوية لما قد يحدث في المستقبل القريب.

- لا نروم من دراستنا تجريم أو توبيخ الفعل الطلابي (الممارسة الجغرافية)، وإنّما نتوخى الفهم العلمي فقط، واستكشاف المنطق المَسْتور لتبلور هذه الأخيرة، بعيداً عن هوى القَدح والإهانة والتّجريم، إستناداً إلى معرفة نسبية لا تنتصر لدوغمائية فارغة، بعيدة عن التعميم والقطع النهائي للتّناج⁵⁹. ومنه محاولة المرافعة لتسبيق المنطق العلمي على الأحكام المسبقة، التي غالباً ما تنُج عن مبدأ "وجدنا عليه آباءنا الأوّلين"، في تفهّم الظواهر الاجتماعية. ومنه عدم تصديق المثل الإفريقي القائل "ما دامت النّمور لا تمتلك مؤرّخها... فإنّ حكايات الصّيد ستبقى تُمجّد الصّيادين". ونحن نقول ما دامت الجغرافيتيا لا تمتلك باحثها فإنّ "موضة" الاحتقار و"الوصم La stigmatisation" ستبقى تلاحقها.

☒ خلفيات و دوافع اختيار الموضوع:

في الواقع، إنّهجنا بظاهرة "الجغرافيتيا" ليس وليد اليوم أو الأمس القريب، بل ترجع أولى إرهاصات التّفكير فيه إلى بداية سنة 1997، حينها كنّا في السّنة الثالثة علم الاجتماع (تربوي)، بجامعة السانبا بوهرا، وبالضّبط في مقياس (ملتقى التّدريب)، تحت إشراف الأستاذ المحترم "غريد جمال الدين". وفي حصّة تقديم العناوين المختارة، نظر إلي زميلي 'خيثر محمد' في لحظة شردتُ بنظراتي في طاولتي المملوءة بـ "خريشات" لم أفقه معناها آنذاك، وقال لي لِمَا لا، بنوع من السّخرية. وبعد تردّدنا عزمنا على طرحه للأستاذ، بعنوان: الخريشة على المناضد"، فبارك الاختيار، كما اقترح علينا الاجتهاد فيه ليكون مشروع مذكرة التّخرج، وبالفعل قمنا بتحويل العنوان بالوظيفة الأخرى للطّولة". ليتوقف الاهتمام -الرسمي- بالموضوع لسنوات عدّة، لأسباب خارجة عن نطاقنا، حتّى شاءت الإرادة الإلهية أن نُعاود البحث فيه في سياق التّحضير لشهادة الماجستير سنة (2005)، تحت إشراف الدكتور "بشير محمد"، وسمناها بـ 'الوجه الآخر للثقافة الطلابية من خلال الكتابات على الطّاولات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية نموذجاً"، بجامعةنا هذه. لتتطور وتختمر

⁵⁸ اقتناعاً برأي الباحثة الكندية "أ. سيلفا Aldina Silva" عندما كتبت عن الجغرافيتي -"كنت مُصابة بمرض خطير عندما مُنحتُ وقتاً قصيراً للعيش، صراعٌ منحي عُيوناً جديدة، وطريقة جديدة لتبصر المدينة من الداخل، والانتباه للأشياء الصغيرة، التي نراها ولا نلاحظها، لا نتبصرها على حقيقتها، على نحو الكلاب والقطط، والقمامة، والورود والجغرافيتيا".

⁵⁹ عملاً بقول "باروخ سبينوزا Baruch Spinoza" "ليس علينا أن نأسف أو أن نضحك أو نكره بل علينا أن نفهم".

الفكرة خلال الشُّروع في رسالة الدكتوراه بالعنوان المحدد -رغم إكراه الإجراءات الإدارية في تحويله- . ويمكن إجمال دوافع المُواصلَة فيما يلي:

• يندرج بحثنا ضمن محاولة هَزْمِ عُسْرِ المعاني السَّائدة حول الكثير من الظواهر الاجتماعية، التي غالباً ما تُوصف وفق أحكاماً معيارية أخلاقية.

• محاولة "التّماهي" مع مقولات كل من 'بول باسكون P. Pascon' و'بيار بورديو P. Bourdieu' و'ألان توران Alain Touraine'⁶⁰، وغيرهم من آل السوسولوجيا التي تتشارك في أن دور الباحث السوسولوجي هو فضح وتعرية الواقع وعدم المُهادنة معه.

• نفترض أنّ دراستنا تمكّنتنا من رصد بعض مؤشّرات التّغير الاجتماعي في المجتمع الطّلابي خاصّة، والمجتمع الجزائري عامة. ولن يتم ذلك دون الكشف عن تغيّرات فئة الشّباب والطلّاب. والمساهمة -ولو بأمرٍ يسيرٍ- في التّراكم المعرفي، الكمي والنّوعي، رصداً وتحليلاً، نقدًا وتأييلاً، لمجمل الظواهر المميّز لها.

☒ الاختيارات النظرية والمنهجية للدراسة:

بشكل عام، نعتقد أنّ دراستنا المتواضعة تتموقع ضمن الاجتهادات السوسولوجية التي تُراهن على المقاربة السوسولوجية النّقدية، كخيار منهجي لمحاولة فهم العالم الاجتماعي، وقد ركّزنا على ملامسة المسألة الهويّاتية الطّلابية في علاقتها بالممارسة الغرافيتية، بحُكم ما أصبح يَعرفه الموضوع من إهتمام متزايد -خاصة في المجتمعات الغربية- بُغية الرّفع من كفاءة الفئة الشّبابية عامّة، والطلّابية خاصّة، لِضمان إنخراطها الإيجابي في التّنمية الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية والثّقافية.

نحاول تجسيد ذلك وفق منهجية "تمتّين" القّطع مع الإسقاطات الانفعالية، القيمية والأخلاقية - قِلّة تربية- في التّعامل مع هكذا ظواهر اجتماعية. ففي قارّة التحليل السوسولوجي يتم دوّمًا القّطع

⁶⁰ يقول "بول باسكون P. Pascon" إنّ عالم الاجتماع - الباحث - هو بالضرّورة ذلك الذي تأتي الفضيحة عن طريقه". ويصرّح "ب. بورديو P. Bourdieu" إنّ علماء الاجتماع، أشبه ما يكونون بمشاعبين يفسدون على الناس حفلاتهم التّشكّرية". وبدوره يصرّح "ألان توران A. Touraine" إنّ علماء الاجتماع يزعجون فعلاً. من خلال هذه المقولات لأشهر سوسولوجيو العالم المعاصر، نستنتج أن الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع، تتمثّل في رفع النّقاب عن حقيقة ما يُعتمَل في المستوى العميق (الخفي) للمجتمع (الحقول الاجتماعية). من هيمنة وتهميش وإقصاء، وتبعية مُشرّعة. ومنه فالسوسولوجيا تقضح الانخداع والنّوهُم الذي يرباه الجميع، فيشكل في كل مجتمع، أساساً لأكثر القيم قداسةً وأخرى دَناسةً، وتعلّمنا كما يعتقد "مارسيل موس M. Mauss" بأنّ المجتمع يخدع نفسه على الدّوام".

مع "براءة الأشياء" -كما يوصي الباحث "عبد الرحيم العطري"- فليس هناك من فعل خارج الزّمن الاجتماعي، وليس هناك من ممارسة اعتبارية، منفصلة عن سياقات إنتاجها، وإعادة إنتاجها. كل الوقائع المجتمعية لها معنى مفترضًا، يتوجب البحث عنه باستمرار وبالبحاح، للكشف عن ما هو مُضمّر فيها، وهذا بالطبع لن يكون إلا باعتماد آلية التّساؤل اللّحوج.

"الكتابة الجرافيتية"-حسب افتراضاتنا- ليست ممارسة طلابية فردية خالصة منفصلة عن السّياسي والاجتماعي والاقتصادي والثّقافي. وليست ممارسة غير واعية وعبثية، وإنّما نعتقد بضمور خلفيات ثراوية وراء انكثابها، وانتشارها بهذا شكل ملحوظ، عبر مختلف التّضاريس المجتمعية الجزائرية عامة والجامعية خاصة. فثمة دوافع وأسباب مُتداخلة تفتّح على النّفسي العميق، والثّقافي والتّربوي، السوسيوسياسي وعلى الهوياتي أيضًا، هي التي تستثير 'الواقعة الجرافيتية' على هكذا شكل، فليس المُغرّفَت (الطالب) في النّهاية إلا لسان حال نفسه ومجتمعه.

☒ تنبيهات منهجية:

- يجب التّنبيه إلى أنّ موضوع البحث في الهوية يختلف عن البحث عن الهوية، فأما البحث في الهوية: فهو بحث معرفي، يَسْتَتَبِع فيه الباحث مراحل تَشكُّلها، وملاح تلوّنها، والوقوف على دينامياتها الفردية والجماعية، مع تبيين اعتلالاتها وأزماتها. إنّه بحث في وحدة الانتماء عمّا هو مشترك، في هذا الذي يتجلّى وكأنّه خاص وفردى، بحث عن الوحدة والتنوع، في كل ما قد يُؤدّي إلى التقارب والالتقاء حول ملامح مشتركة. أما البحث عن الهوية: فهو بحث قيبي أيديولوجي غالباً، وكأنّ الهوية مُنجزّة ولكّنها ضائعة، يجب إيجادها واسترجاعها. إنّه بحث ليس بريئاً، إنّما هو اختيار وانحياز، موقف لا ينفلّت من لون الإيديولوجي، بحث عن هوية يتصورها البعض في ذهنه، عن فردوس مفقود، يحاول يطابق ذلك مع ذاته، وهو في الواقع يحاول أن يُؤكّد ذاته على حساب ذوات الآخرين.

- قد يتساءل القارئ المحترم، لماذا لم نُحدّد بحثنا في نوع مُعيّن من أنواع أو أشكال الهوية، نجيبه:

- لإقتناعنا بالتّصور الذي يعتبر الهوية 'وحدة واحدة' لا تتجزّأ، بل تتألّف من انتماءات مُتعدّدة.
- لأنّ المضامين الكتابية-المادة الجرافيتية-وردت بصيغ ومُؤشّرات مُتشابكة، منها ما يُعبّر عن الهوية الإثنية-الانتماء الإثني-، ومنها ما يعكس الهوية المَناطقية أو الجّهوية، ومنها ما يعبر عن انتماءات أخرى، سيتم التفصيل فيها لاحقاً. ما فرض علينا التّعامل معها كما وردت، ومقاربتها دون تحويرها.

- لا نعالج في دراستنا كل أنواع الغرافيتيا، والتي صنّفها المختصون في ثلاثة أنواع رئيسة، الغرافيتيا التاريخية -وتُسمى أيضًا الكلاسيكية-، وهي عبارة عن كتابات ورسومات عُثِرَ عليها على جدران وأعمدة المعالم والمدن الأثرية القديمة، الطاسيلي،.. والغرافيتيا المكتوبة (مُبْتَغَى بَحْثًا)، ثمّ "الفن الغرافيتي/فن الشوارع Street Art"، أو كما يُسمّيه البعض "غرافيتيا الهيب هوب Graffiti Hip Hop"⁶¹، كثير الانتشار بالمجتمعات الغربيّة، تَمَكَّن من الارتقاء لِمَصَاف الإنتاج الفنّي -الرسمي- المتعارف على جودته الفنّيّة، استطاع إحتلال زوايا بالمتاحف وصلات العرض.

☒ الاختيار المنهجي:

تتموضع دراستنا ضمن الاتجاه الميكروسوسيولوجي، وضمن اختيارات المنهج الفهمي، الذي يُيسّر تفهم المعاني الكامنة وراء أفعال الأفراد الذين بمقدورهم التصرف بحرية -محدودة-، في مصائرهم، كما يعتقد "م. فيبر M.WEBER"⁶². كما اعتمدنا على المقاربة الثقافية (الثقافية) بُغْيَة إستجلاء أواليات إشتغال الممارسة (الظاهرة)، باعتبارها عاكسةً لَتَمَثَلَات وتصوِّرات وانتماءات الفاعلين (الطلبة المُعَرِّفَتين Les étudiants graffeurs /graffiteurs). حيث قمنا بإستثمار كامل المعطيات (الميدانية) المُتاحة قصد تحليل كُل وحدة غرافيتية (كلمة وجملة أو رمز و صورة)، بالتركيز على مضمونها واللغة المستعملة، دون إغفال طبيعة الحامل Support،..إلخ، قصد إستخلاص مميزات الحياة اليومية لهؤلاء الطلبة، باستجلاء أبرز خصائص ثقافتهم، والمميزة لَمَلامح وأبعاد هويتهم (ماتهم).

من حيث التقنيات، اعتمدنا بالدرجة الأولى على "تحليل المضمون"، كتقنية رئيسة تتمحور- حسب اعتقاد آل التخصص- على مسلمة مُؤدّاهَا أنّ لكل شخص/جماعة بصمته الفكرية التي تميّز شخصيته وتكشف عن ملاح هويته، ومن الممكن اعتبار السلوك اللّغوي للإنسان شفويًا كان أم تحريريًا (غرافيتيًا)، تعبير عن انتماءاته (هويته) وميولاته واتجاهاته. كما إستعنا بتقنيات مساعدة

⁶¹ استثمر بعض الباحثين المفهوم في دراساتهم، على نحو: ♥Lani-Bayle، و ♥♥Gautier Bichoff، ♥♥♥Miller..
♥Lani-Bayle, Martine, "Du tag au graff" art, Les messages de l'expression murale graffitée", Marseille: Ed: Hommes & Perspectives S.A., 1993.

♥♥ Gautier Bischoff, "Kapital ; un an de graffiti a Paris", Broche,200p.

♥♥♥ Miller, Ivor L., "Aerosol Kingdom, Subway painters of New York City", Canada, Jackson: University Press of Mississippi, 2002.

⁶² Max Weber, Économie et Société 1, Les catégories de la sociologie, Traduit de l'allemand par Julien Freund et al, la Librairie Plon en 1971,p28.

توزعت ما بين الملاحظة، وبعض المقابلات الفردية الغير مباشرة -خاصة عبر الانترنت- والتصوير الفوتوغرافي "للمادة المُغرَفَتَة".

استمرت حملة تجميع "المادة الجرافيتية" سبعة أشهر، مع الإشارة إلى أننا لم نتوقف عن ذلك، إذ كلما عثرنا على "كتابات" جديدة، نقوم بتسجيلها. فيما يخص التوقيت، بالنسبة للفضاءات الداخليّة (المدرجات وقاعات المحاضرات) أثناء سُغورها من الطلبة. أمّا بالنسبة للفضاءات الخارجيّة (الجدران الخارجيّة للإقامات، محطات الحفلات المجاورة للجامعة...) فتمّ خلال أوقات مختلفة⁶³.

يتوزع الإطار المورفولوجي للدراسة على ثلاثة فصول مُؤنَّثة بعناصر خضعت للانتقال التدريجي من العام إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، من الانساني العالمي إلى المحلي الجزائري، ثم الجامعي. وهكذا توزعت شواغلها على مقدمة عامة، بمثابة تععيد للإشكالية المدروسة، مع أهميتها البحثية، وأهدافها ودوافع الاستمرار فيها، مع الإشارة إلى اختياراتها المنهجية. لندرفها بفصل أول/تمهيدي يسرد أركيولوجيا "الممارسة الجرافيتية" وركائزها النظرية، عالمياً وعربياً وجزائرياً، وواقعها بين استراتيجياتة المكافحة والاستيعاب، من خلال ثلّة من الدراسات التي قاربتّها من زوايا متعدّدة. في حين يستعرض الفصل الثاني التّعيد المفاهيمي والمنهجي للدراسة، بتّسيج أبرز المفاهيم المُهندِسة لها، مع عرض مختصر لأهم المقاربات المعتمدة من المختصين في دراستها. لننتقل للفصل الثالث لإستجلاء أبرز ملامح الهوية الطلابية من خلال المُتون الجرافيتية، مع تذييله بإستنتاجات مركزة حولها.

لا ندعي أننا ألمنا بالموضوع بقدر ما نُقرُّ أننا أخطأنا في بعض محطاته. وعليه، فإنّ الأفكار التي سنطرحها تحتل "أكثر من تأويل"، وقابلة للنقاش والاختلاف، خاصة وأننا نتعامل مع موضوع الهوية، الذي يُجمع آل الاختصاص على تعقّده وتشابكه⁶⁴، وما يزيد الأمر عُسرًا ربطها (الهوية) بـ"الكتابات الجرافيتية"، حيث المتحدث (الفاعل) غائب وصامت، وفي ذات "اللحظة" حاضر من خلال "آثاره الجرافيتية Ces traces graffitiques". كما أننا واعون كل الوعي بأنّ كل "اجتهاد" حول

⁶³ للإشارة، بالنسبة لجمع الجرافيتيا الخاصة بالإقامات الجامعية، استعنا بمساعدة مجموعة من الطلبة، وهم مشكورين جزيل الشكر، نذكر منهم "خلوفي فاطمة الزهراء" بالنسبة للإقامات/عُرف الطالبات، والطلابين "دحو نور الدين" و"بلمقدم يحي" لإقامات الذكور، وذلك لسهولة دخولهما عُرف الطلبة لتجميع "الكتابات الجرافيتية".

⁶⁴ يصفها "إ. موران E. Morin" بأنها "ظاهرة معقدة".

الواقع الاجتماعي المعقد بظواهره، ليس سوى معرفة نسبية⁶⁵، ومحدودة، نظرًا لطبيعة الظواهر الاجتماعية المتسمة بـ"التغير المستمر" المزمّن. وعلى أساسه، نروم من هكذا دراسة متواضعة- تقديم قراءة لمستوى من مستويات ديناميات المجتمع الطلابي، الذي يعرف تحولات عميقة على مستويات عدّة، كالأدوار والعلاقات والقيم والممارسات، والذي يمد بتأثيراته على كامل النسق المجتمعي الجزائري. اجتهادُ نظنه إثراء للنقاش حول "ظاهرة" ما زالت بكُرا تمتلك ميزة العُدريّة البحثية بمجتمعنا (الممارسة الغرافيتية)، من حيث الدّراسة والتّحليل، وتلويّناتها بالفضاء الطّلابي وارتباطها بالهوية'. وعليه ورغم ميزتها المتواضعة، تبقى مقولة الفيلسوف الألماني "هيجل Hegel" التي يؤكد فيها أنه "لَطالماً كانت البدايات فقيرة، لِكثّمها مُهمّة"، محفزنا في هكذا "مغامرة بحثية" في مثل هكذا مواضع معقدة.

⁶⁵ مقتنعون بمقولة العلامة "ابن خلدون" التي يقول فيها: "وأنا من بعدها، موقن بالفُصُور، بين أهل العُصور، مُعترف بالعجز عن المُضَاءِ في مثل هذا القُضاء، راغب من أهل اليّد البيضاء والمعارف المُتسّعة الفُضاء، النّظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء، والتّعمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغناء".

الفصل الأول:

أركيولوجية الممارسة "الغرافيتية" وركائزها النظرية

- 1.1 . ترصد كرونولوجي علمي للممارسة:
- 1.1.1 . الغرافيتيا ممارسة إنسانية موعلة في التاريخ:
- 2.1.1 . بواكير الانهجاس البحثي بالممارسة في لونها المعاصر:
- 3.1.1 . الرحلة من نيويورك إلى أوروبا.. أؤربة الظاهرة:
- 4.1.1 . إرهابات الظاهرة بالمجتمعات العربية:
- 5.1.1 . أبرز خصائص الممارسة الغرافيتية:
- 2.1 . الممارسة الغرافيتية بين إستراتيجيات المكافحة والاستيعاب:
- 3.1 . التّنشئة الجامعية والممارسة الغرافيتية أّية علاقات ممكنة؟:

الفصل الأول: أركيولوجية الممارسة "الغرافيتية" وركائزها النظرية

نحاول ضمن الفصل التالي ترصّد تاريخ الفعل/الممارسة الغرافيتية، محاولين استجلاء أهمّ مظاهر وخصائص وتحولات الممارسة قديماً وحديثاً، عالمياً ومحلياً، من خلال مختلف الدّراسات المتعددة التّخصصات التي أُرخت لها. ومن ثمّة، فهم العلوم الإنسانيّة والاجتماعية لهكذا ظاهرة، منذ أن تلمّس الإنسان الأوّل بديهيات فعل (الخربشة) التي سبقت تاريخياً الكتابة (الغرافيتية التاريخيّة)⁶⁶. لنعرج على بعض حيّثيات رحلتها المعاصرة من أمريكا (المهد) إلى أوروبا، وباقي المعمورة، ومجالات التّأثير والتّأثر، وأهم الثّيمات التي طرحتها. لنقف بعدها على أهم ملامح الظّاهرة بالمجتمعات العربيّة-قديماً وحديثاً- على قِلة المراجع التي توقّرت لدينا. كل ذلك كمدخل تعبيدي لفهم الظّاهرة بالفضاء الجزائري عامّة، والجامعي خاصّة، وجامعة تلمسان بالأخص. لنُذيل الفصل بأهم المواقف المجتمعية -خاصّة الرّسمية- منها، وإستراتيجيات السّلطات للتّخلص منها، أو تمثّلها وصهرها في ثقافة المجتمع (الرسمية).

1.1. ترصّد كرونولوجي علمي للممارسة:

1.1.1. الغرافيتيا ممارسة انسانية موغلة في التاريخ:

تعتبر الكتابات (الغرافيتية)، ممارسة يومية غزت مختلف التّضاريس المجتمعية. قام بتوظيفها الفرد -العادي- للتعبير عن أمنيّاته ومكبواته وأحلامه. تعكس خصائص مجتمعاتها وموقعها، مما جعلها تتنوع من حيث الشّكل والمضمون، والفضاء التي انبجّت فيه، ومنه حسب القيم العُمريّة والجنسيّة والثّقافية لممارستها، وكذا نوعية الفّراغات العامّة، وفضاءات تواجد حاملاتها. غير أنّ بداياتها ليست وليد اليوم، وإنّما ترجع إلى محاولات اكتشاف البشر للكتابة. بل يعتقد بعض الدّارسين أنّها سبقت الكتابة نفسها⁶⁷، حيث نقش ورسم وكتب وخربش على وسائط مختلفة. مما جعلها تنحدر من "التّقوش الأثرية" حسب "ألان ميون Alain Milon".

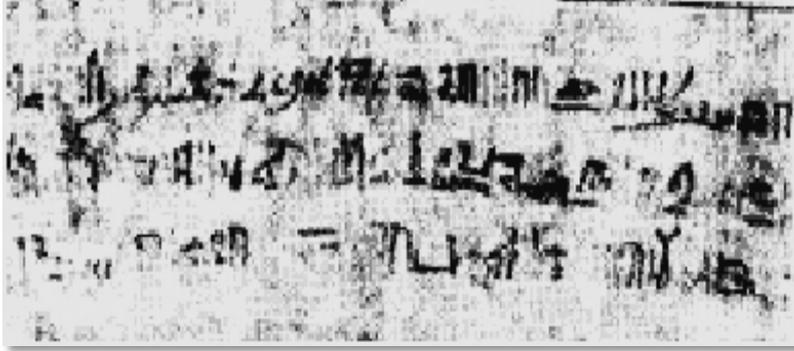
⁶⁶ ساهم العديد من الباحثين في فكّ شفرة هكذا "كتابات"، فمنهم من اعتبرها شكلاً من أشكال التواصل (المكتوب) القبلي (Communication tribale)، بين أفراد القبيلة الواحدة. ومنهم من فقّوها على أنّها قرائن جليّة تُورّخ لممارسات شعائر وطقوس دينية، لجماعات ولمجتمعات قديمة.

⁶⁷ The Economist, "Graffiti: The writing on the wall scribbles for thought", London. 16/12/2004.

In: <http://www.economist.com/node/3445153>. Consulted: 22/06/2009.

تعود إرهابات الاهتمام البحثي بالظاهرة إلى علماء الآثار والحفريات، لتفطّهم لأهميتها العلمية، إذ يمكن اعتبارها "مدونة رسمية وغير رسمية" تعكس خصائص الحياة اليومية لتلك الأقاليم، على نحو بقايا حضارة "المايا Maya" بـ"تيكال Tikal"، و"الأزتق Aztèque" و"الفرعنة" وكذا غرافيتيا الطاسيلي بالجزائر، 'الأكاكوس' و'المسّاك' بليبيا، و'لاسكو Lasco'، و'مغارة شوفي Chauvet' بفرنسا، أو 'Altamera' بإسبانيا و'الفيكينغ' بإيرلندا و'Serra da Capivara' بالبرازيل.⁶⁸

يعتقد علماء المصريات Les égyptologues - ومنهم الباحث المتمرس "ستفان جاكوبسون Staffan Jacobson" أنّ أول كتابة غرافيتية نُقِشت (غُرِفَت) بمحاذاة 'هَرَم سَقَارَة Sakkara Pyramid' بمصر القديمة، كُتبت منذ 3500 سنة، من طرف سائح (رَحَالَة) مَرَّ من هناك، كُتبت بالهيروغليفية، ومعناها "أنا مُعجَبٌ جدًّا بهَرَم الفرعون دجوزيرس Djosers"⁶⁹. انظر الصورة.

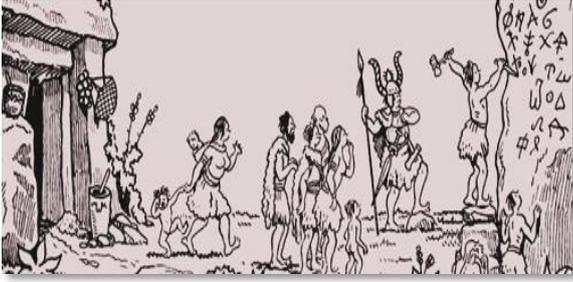


الصورة 1: "غرافيتيا تاريخية" على "هَرَم Sakkara Pyramid" بمصر.

أمّا "تيري مارتن Thierry Martens" (أستاذ بكلية الفن بجامعة "William Woos" بولاية "ميسوري Missouri") فيعتقد أنّ "الفن الجداري" يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث كان الإنسان البدائي يُحاكي بيئته المحيطة به، ليعبّر عن انفعالاته واعتقاداته الدّينية من خلال النُقوش والرسوم على جدران الكهوف والمغارات، وعلى الألواح والرّقم الحجرية. (انظر الصورة 2 و3).

⁶⁸ Renata Plaza Teixeira & Emma Otta & Siqueira José de Oliveira, "Between the public and the private: Sex differences in restroom graffiti from latin and anglo- saxon courtiers", Institute of psychology, University of São Paulo, Brazil, 2007, p4. URL: <http://www.ead.fea.usp.br/WPapers/2003/03-007.pdf>. Consulted: 11/8/2011.

⁶⁹ Staffan Jacobson, "A Brief history of graffiti research aerosol art archives lund", Sweden, 2001. URL: <http://www.rooketime.se/rooketime26.shtml>. Consulted: 12/10/2007.

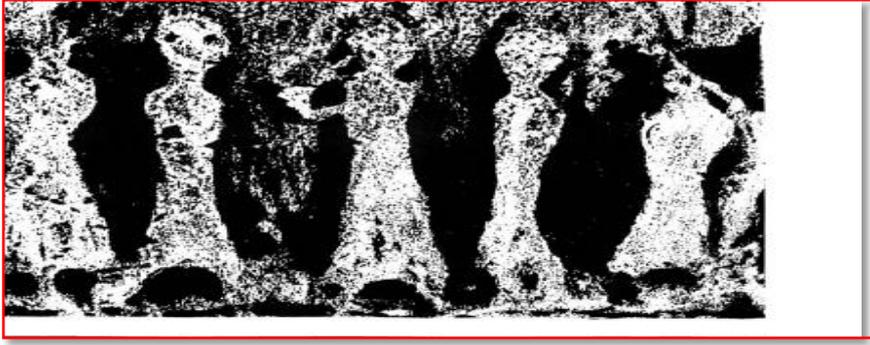


الصورة 2 : غرافيتيا تاريخية بمنطقة الطاسيلي. الصورة 3: زمرة أشخاص ينقشون الصخور⁷⁰. ويتحدث "سيمون باركر Simon Parker" على غرافيتيا تُورِّخ للعصر البرونزي، حيث مازالت جاثيةً بكهوف وقبور مدينة "جودا Juda"، و"الإنكا Inca" وغيرها من الحضارات البائدة. فالفعل الغرافيتي تزامن مع الإنسان الذي لم يستطع مقاومة رغبة تخليد أثره Sa trace، وبالتالي هويته، على ما يحيط به⁷¹. ففي "روما القديمة" -مثلا- بعد مَجِيئ المسيحية، ونظراً للقهر والاضطهاد والتضييق على المؤمنين، التَجَّأوا للجدران لتسجيل (تخليد) عقيدتهم في رموز دينية ونشرها للناس. أمّا في العصور الوسطى، كانت مراكز العبادة والكنائس والقصور شاهدةً على أنواع الاضطهاد والقهر المُسلَّط من طرف "محاكم التفتيش"-باللاتينية: Inquisitio Haereticae Pravitatis)، وحرّفيًا: التحقيق في البدع الهرطوقية- تجلّت في "الكتابات" التي تُرِكت على جدرانها ممن ذاق التعذيب قبل قتلهم (حكاية "Chemin de croix" عُثِر عليها على جدران قلعة " Selles à Combrai" الفرنسية⁷².

⁷⁰ جوزف صقر، "قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم"، لبنان (1)، من عصور ما قبل التاريخ حتى عهد المتصرفية، Editio Creps International، 1999، ص 10.

⁷¹ Gabriel Euan Canul & al, "Graffiti at the initial series group structure 5c35", Chichen tza, Yucata, Mexico. In: <http://www.famsi.org/reports/03101/82euancanul/82euancanul.pdf>. Consulted:5/04/10.

⁷² Serge Ramond, "Un patrimoine culturel oublié: Les graffiti", Revue archéologique de l'Oise, n°23, 1981, pp. 9-28. URI: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/pica0752-56481981_num2311152. Consulté le: 16/05/2008.



الصورة 4: غرافيتيا لخمسة أشخاص بدون أطراف عُليا (القرن 15/قَلْعَة Selles à combrai)⁷³.

يؤكد الباحث "دونيز بيراني Denise Pirani"⁷⁴ أنّ أولى الاهتمامات العلمية بالغرافيتيا، كانت من توقيع "أنطونيو بوزيو Antonio Bosio" خلال القرن XVII، حول "مدفنة سَراديب الأموات الرومانية Les catacombes romaine"، إلا أنّ أكثر المنشغلين بالغرافيتيا التاريخية الأب اليَسُوعي "رافايل غاروسي Raffaele Garruci"، حيث قام في منتصف القرن التاسع عشر بنشر دراسته حول 'روما' و'مومباي'، إذ يعتبرها البعض أهم الدّراسات المؤسّسة لِمَا أُصطلح عليه بـ 'Graffitologie' أو 'علم الغرافيتيا'. والصورة التّالية عيّنة من صور سَراديب "روما".



الصورة 5: غرافيتي من سَراديب الموتى بـ"روما" (ذات مَعْرَى دِيني)⁷⁵.

حول ذات الثَّيمَة إنكبّ "مارك ديريك Marc Derycke" على دراسة الكتابات الغرافيتية التي خلفها أصحاب المراكب Les bateliers، على مَرَفَأ الميناء⁷⁶، بالقرب من مصنع قديم بضفة نهر "La Seine". وأكثر الدّعَامات التي تَكثَّفَت بها الغرافيتيا الأعمدة الإسمنتية للمرفأ، غُرِفَتَت بقطران

⁷³ Ibid. p 12.

⁷⁴ Denise Pirani, "Transition démocratique et culture urbaine au Brésil: Le phénomène du graffiti", Cahiers du Brésil Contemporain, n°25-26, 1994, p.81-94. URI: <http://www.revues.msh-paris.fr/vernumpub/02-4-Pirani.pdf> .

⁷⁵ Les catacombes chrétiennes. URI :<http://www.vatican.va/romancuria/pontificalcommissions/archeo/francese/documents/rccomarcheodoc20011010cataccristfr.html>.2011/08/22.

⁷⁶ بلغت العينة 83 وحدة غرافيتية، يرجع تاريخ كتابتها إلى ما بين 1901 و 1979، بميناء:

.Port de Villeneuve-La- Garenne (Hauts-de-Seine)

الفحم وبالطلاء. ليخلص أنها ذات وظيفة تواصلية وتخليدية لأسماء العمال والشخصيات المشهورة في ذلك الوقت، سواء السياسية أو الفكاهية كعبارة "Vive Staline"، وأسماء المراكب والشركات⁷⁷. وبنفس السياق يُقارب "هيرلو تونبو Hurlo Thumbo" "الغرافيتيا التاريخية" إذ يعتبرها شكلا من أشكال الاتصال والتواصل، استخدمته المجتمعات للتواصل فيما بينها⁷⁸. أما في عصرنا الحالي -يواصل دُونز بيراني Denise Pirani- فقد هيمنت مجموعات الأقليات المُهمَّشة على ممارسة الغرافيتيا، للتعبير عن وجودها وكيانيتها⁷⁹. "إن هوية من يُقبل على ممارسة الغرافيتيا -ويقصد هنا الشباب البرازيلي- عبارة عن هوية تُعاني من الاضطهاد إنهم أشخاص ينتفضون من خلال الممارسة الغرافيتية، إنه جيلٌ إفتقد فضاءات التعبير الحر"⁸⁰.

2.1.1. بواكير الانهجاس البحثي بالممارسة في لونها المعاصر:

تشير الأدبيات بأن بواكير الاهتمام البحثي بالظاهرة بألوانها المعاصرة تعود إلى النصف الأول من القرن العشرين، وبالضبط لسنة 1928، حيث قدّم الباحث اللغوي الأمريكي "ألان وُلكر ريد Allen Walker Read"⁸¹؛ دراسة سردية للظاهرة، ركّز فيها على أبعادها اللغوية والاجتماعية، وذلك بتحليل المفردات اللغوية الإنجليزية المرصوفة على جدران المراحيض العامة، بغرب الولايات المتحدة وكندا. كتب قائلاً "تُكشّف لي بعدَ العديد من الزيارات التي قُمتُ بها للأماكن العامة، أن هذه المفردات والكتابات تُمثّل شكلاً من أشكال العلوم الفلكلورية، يجب أن تكون موضوعاً جيّداً للبحث من قِبَل علماء البَحْث اللُّغوي. نعتبرها مصادر لُغوية لِهَجِيّة، تعكس استخدام الفرد البسيط لتراثه اللُّغوي المحلي، وتوظيفه ا للهجة العاميّة للتعبير عن مفردات أقواله الخاصة، إذ أصبحت مصادر فلكلورية جديرة بالدراسة والتحليل".

⁷⁷ Marc Derycke, "Les graffitis bateliers :Empreintes, suspensions...nomination", Langage et société n° 103 , mars 2003, pp 79-115. URI: <http://www.cairn.be/article.Php?IDARTICLE=LS1030079& AJOUTBIBLIO=LS1030079>. Consulté le :11/10/10.

⁷⁸ من خلال كتابه الموسوم بـ "نافذة من الزجاج" "The Glass Windows".

⁷⁹ Op. cit. p 82.

⁸⁰ توصيف جاء على لسان 'Villaça Maurício' أحد مُمارسي الغرافيتيا. من المرجع نفسه، ص 89.

⁸¹ Classic American graffiti: Lexical evidence from folk epigraphy in western north America: A glossarial study of the lowelement in the English vocabulary, Waukesha, Wis: Maledicta, 1977
يعتبرها الدارسون أهم دراسة أرخت للظاهرة، دراسة سردية للمفردات التي جثت على جدران المراحيض العامة، بالغرب الأمريكي وكندا، جمعها أثناء رحلة طويلة، ابتدأها صيف 1928. لينشرها-على حسابه الخاص- سنة 1935(75 نسخة) مع ملاحظة في البداية يقول فيها "تداولها مقتصر على طلبة اللسانيات والفلكلور، وعلم النفس المرضي، وباقي التخصصات الاجتماعية".

أمّا بأوروبا، يعتبر المُصوّر والباحث الفرنسي "جيورج براساي" George Brassai⁸²، الذي وصفه "Henry Miller" بـ "عَيْنُ باريس L'œil de Paris"، من الأوائل الذين إنهجسوا بالموضوع، إذ همَّ مع نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات بتمشيط العديد من الشوارع والأزقة المهتمشة للعاصمة باريس، مُستجلبًا آلة تصوير ودفتري ملاحظات لتسجيل مكان تواجد الصورة الجرافيتية (الحاملات). لينشر عينة منها سنة 1933 بتعليق عنونه بـ 'Du mur des caverne au mur des usinée' بمجلة "Minotaure"⁸³ (المهتمة بالفن). والظاهرة حسب "براساي" قديمة قدم إكتشاف الإنسان للكتابة، إلا أنّ ما يُميّزها عن مثيلتها بلونها المعاصر، تفرُّدها بنوعية الحاملات Les supports وبمضامينها المُتَبَجِّحة. والصورة عينة من ذلك.



الصورة 6: عينة من الصّور التي جمعها، (عنوانها بصورة 'L'amour').

عرفت "الممارسة الجرافيتية" انتشارًا واسعًا، بتدحرجها تدحرج كرة الثلج Boule de neige لتعم مختلف الفضاءات والدعامات، حيث "شغلت" السلطات الرسمية، لما أضحت لها من تأثيرات سلبية- على المحيط العمراني. وللباحثين لاكتسابها عناصر وشروط الظاهرة العلمية. هذا ما دفع العديد من التخصصات العلمية للخوض في دراستها واستجلاء دلالاتها. بل أفضت لظهور مدارس بحثية إنهجست بها كموضوع ذو أهمية عالية. تشير المعالم البيبليوغرافية المتخصصة إلى تباين تصنيفات الباحثين للجرافيتيا، لخصوصها في صنفين أساسيين، كل واحد ينقسم لنوعين من الكتابات. أمّا التصنيف الأول فينقسم إلى:

⁸² اسمه الحقيقي "Gyula Halász" (1899-1984)، روماني الأصل، متخرج من مدرسة الفنون الجميلة بـ "بوداباست"، انتقل إلى ألمانيا ثم فرنسا 1924. عمل صحفيًا ثم مصورًا وباحثًا. مرتكزًا على اسم مسقط رأسه «de Brassó» إنتحل كُنية "Brassai". له العديد من المؤلفات أشهرها "Paris de nuit"، 1932 و "Graffiti"، 1960.

⁸³ Brassai, "Du mur des cavernes au mur d'usine", extrait du texte paru dans: Minotaure, n°3-4, décembre 1933. In: <http://membrane.tumblr.com/post/258400964/brassai-du-mur-des-cavernes-au-mur-dusine>. Consulté Le: 12/10/2010.

❖ النّقوش الجدارية (الكتابات الصّخرية): التي تركها بنو جلدتنا، منذ الإنسان القديم، فما فقهناهُ عن حياة أسلافنا، يرجع في جزءٍ منه لما تركوه لنا من هذه الكتابات الجدارية (بومباي، الطاسيلي..). يصفها بعض الدّارسين بلغة العصب "مُدُونات الماضي Les blogs du passé".

❖ الجرافيتيا المعاصرة: تعود معالمها الأولى إلى منتصف السّتينات، عندما زأوَج الشّباب الرّافض للأوضاع القائمة بين وسائل الكتابة التّقليدية والاكتشافات المعاصرة، مثل عُلْب البَخّاخ (الرّذاذ Spray bottle)، "للغَرْفَتَةِ" على أيّ سطح يمكنه حَمَل آرائهم وأفكارهم. سُيِّ صنف منها بـ"فن الرّش / الرّذاذ Spray Art" (نسبة لعلبة الرّذاذ) التي يسّرت كتابة واستدامة المُراد من الرّسالة الجرافيتية. لتتطور الممارسة لظاهرة اجتماعية تكشف المُستور والمُضمر "للمُعاش". ما جعل أحد ممارسيها يصرّح قائلاً "إذا أردت أن تعرف ما يحدث في مدينة ما، فأنظر إلى كتابات جدرانها". وأمّا التّصنيف الثاني، فينقسم إلى:

❖ الكتابات العامّة: وتضمّ الأسماء والرّموز التي كُتبت أو نُقِشت أو رُشّت على الجدران الخارجية، والأشجار واللّوحات الإشهارية والأنفاق (الأماكن العامة المفتوحة)، ترنو التّعبير عن الهوية الشّخصية والجماعية، كما يعتقد "مارك. ج. شواتز Marc J Schwartz" و"ج. ف. دوفيدو John F Dovidio"⁸⁴.

❖ الكتابات الخاصّة: وتضمّ تلك "الكتابات" المنتشرة على مختلف جدران المراحيض، أو الجدران الدّاخلية للمنازل، المصاعد.. (الأماكن الخاصّة المُغلقة)،-تقسيم على أساس فضاءات تواجدها- غالباً ما يعكس هذا النّوع بعض التّصوّرات الشّخصية الأكثر خصوصية (الحميمية). تاريخياً، انتشرت الممارسة خلال الحرب العالمية الثانية، للتعبير عن رفض الوضع القائم في المناطق ذات الواقع الدراماتيكي، وكمقاومة للمُستعمر. فعكست أفكاراً مُغايرة (معادية) للسلطة الحاكمة. فانتشرت الشّعارات الشيوعية والنّازية المناوئة للرأسمالية أحد أوجهها أثناء وبعد الحرب، حيث غدا الجدار أرحب فضاء للتّعبير والتّحريض. إلّا أنّ الأمر تعرّز في بُعده الفتيّ حينما أُخترعت قنينة الصّباغة (الرّش) أو "بَخّاخ البُوِيَه La bombe aerosol" فانتشرت على حيطان المدن وجنّبات الأنفاق والمُترويات وعربات القطارات. تصف هكذا حالة، أستاذة الأدب الألمانيّ في جامعة برلين الدكتورّة "أ. هوك Ulrike Hawk"، أنّ "الفن الجرافيتي" فن معاصر انتشر خلال السّتينات

⁸⁴Marc J Schwartz.& John F Dovidio,"Reading between the lines: Personality correlates of graffiti writing", Perceptual and Motor Skills, vol 59(2), Oct 1984, 395-398. Cited in: Staffan Jacobson, "The international dictionary of aerosol art", Department of Art History and Center of Youth Research, Lund University, Sweden, 1999. URL:[http://www. Djingsis.se/memb/ovre/aerosolart/ index.html](http://www.Djingsis.se/memb/ovre/aerosolart/index.html). Consulted: 19/9/2009.

والسبعينات⁸⁵ على جدران الجامعات، حيث تطورت لتعَمَّ العربات والحافلات والقطارات، أستخدمت مختلف الألوان والدُهان، لتتنظم كتعبير مباشر عن مفاهيم سياسية واجتماعية⁸⁶. يُجمع الباحثون على أنّ أول ما ظهرت الممارسة في لونها المعاصر بداية السبعينات(1971)، حينما نُشرَ مقال بجريدة "New York Times" يتحدث عن فَنِّي يُقال له "Demetrais"، يوناني الأصل، كان يشتغل كموزّع بضائع، أُشْتَهِرَ بِـ"عَرَفَتِ" إسمه المُنتَحَل بِمُعْظَمِ شوارع "Washington Hughes" (الحي الشمالي لـ"Manhattan")، حيث قام بتوقيع كُنْيَتِهِ المفضّلة "TAKI 183"⁸⁷ على شاحنة المثلّجات التي كان يسوقها، ومنه على جدران وواجهات العِمَارَاتِ ووسائل النّقل⁸⁸. كما يتحدث بعضهم عن شخص يُدعى "Julio 204"⁸⁹.

أما الدّراسات السيكولوجية فقد اعتبرت "الممارسة الغرافيتية" تجسيدا للربّعة الغريزية للكتابة، وتفريغ الشُّحنات المكبوتة، وإلى ميول "غير سوي" بإشارات محدّدة، وغير محدّدة الاتجاه، مثل السّب والشتم، أو التّلهي برثّ الأصبغ -كفن على الجدار- يمارسه الهوّا والمحترفون، غالباً ما ينطلق من الأحياء الفقيرة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية ترعرع "فن الغرافيتي" نتيجة "ديناميكية" الأحياء ذات الغالبية السّوداء، استثمرت رسوماتها ورموزها للإعلان عن ملكية "العصابات" للشّارع، خاصة "حرب العصابات الحضرية" *Guérilla urbaine*. فيعتبرها "كيم سوجين Kim Sojin" وسيلة فعّالة للتّخلص من القلق والاضطراب، إذ يتمكّن الفاعل من التّنفيس عن مشاعره وعواطفه بطلاقة، وبدون مواجهة إكراهات نظام الضّبط الاجتماعي⁹⁰.

⁸⁵ تُلقبُ هذه العشرية بالعصر الدّهبي للغرافيتيا لإننتشارها المُهول أفقيًا وعموديًا (مختلف الأجناس والأعمار، الفئات والطبقات)، حيث برزت أشكالًا وتقنيات غير مألوفة، كاستخدام تقنية "Stencil". ولانتزاعها الجزئي للشرعية.

⁸⁶ "صحيفة الجدران"، جريدة الفرات، يومية سياسية لمؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة، سورية، 06/10/10. <http://furat.alwehda.gov.sy/archive.asp?FileName=25696417620061010000424> 08/02/21

⁸⁷ TAKI: الاسم الذي انتحلّه. و183: رقم الشّارع الذي يقطن به.

⁸⁸ Frank Popper, "Ecrire sur l'art : De l'art optique à l'art virtuel", ed: l'Harmattan, coll. histoires et idées des arts, 2007, p 165. URI:<http://www.editions-harmattan.fr/index.asp?navig=catalogue&obj=livre&no=23682>. (Google aperçu), consulté le: 18/7/2011.

⁸⁹ Abarca, "What's graffiti, what's post graffiti. Julio 204 and Daniel buren in the spring of 1968", URBANARIO Studying urban art, 2012. URL:<http://urbanario.es/en/archives/198>. Consulted: 2/7/12.

⁹⁰ Kim Sojin, "Chicano graffiti and murals", The neighborhood art of Peter Quezada (Folk Art and artists series), Published, University Press of Mississippi, USA, 1995.

ET: "Vital signs: Signage, graffiti, murals and "Sense of place" in Los Angeles". (Ph.D.Thesis, Folklore and Mythology.) UCLA, Los Angeles, 1997. 322p. In: <http://www.hiphop-network.com/articles/graffitiarticles/graffitibibliography.asp>. Consulté le: 22/13/2010.

بدوره اعتبرها كل من "إرنيست أبل Ernest .L. Abell" و"بروكلي باربارا Barbara Brukley E."⁹¹ ظاهرة نفسية بالدرجة الأولى، لأتمها طريقة تواصل شخصي، غير خاضع للإكراهات الاجتماعية اليومية التي تُعيق وتُثبِّط التَّواصل العادي الحسن. كما تمَّت مقاربتها في علاقتها بالتحليل النَّفسي، من خلال مقولات "س. فرويد S. Freud" في الأنا، والعقل الباطن والظَّاهر، والأنا الأعلى. وكذا دلالة المفردات، وعلاقتها بمفهوم الحياء والممنوع والمحرم مجتمعياً. هذا ما جعل "كامينر إلان Kaminer Ellen" تصف مُمارسي الغرافيتيا بـ"المَرَضَى الاجتماعيين Les sociopathes"⁹². مما دفع بعض الباحثين لإستثمارها (غرافيتيا الجدران) لمعالجة المرضى التَّفسانيين في المستشفيات، بتحليل العلاقة بين الجدران العذراء (الخالية من الكتابات)، ونوع المضمون الغرافيتي الجائم عليها. ودراسة درجة الإثارة والانتباه التي تدفع وتُفَنِّع الشَّخص الغير مُمارس لإِتخاذ موقفاً اتجاهها، إمَّا بالسَّلب أو بالإيجاب.

في حين انهجس بها (ممارسة الكتابة(ات) فريق آخر إرتكازاً على بُعدها الثَّقافي السوسيو أنثروبولوجي، وعليه فإنَّ دراسة وتحليل مثل هكذا ظواهر يتموضع في مجمل التَّحليل العام للثقافة، وبالخصوص الثقافة الغير رسمية (الثَّقافة الشَّعبية والهامشية الفئوية). فالظاهرة حسب "إرنيست أبل Ernest Abell" مُمثل حقيقي ليس للثقافة فقط، بل للعقلية/الذهنية التي تطرحها، والتي تعكس المشاكل المجتمعية. وعليه فهي تُمثل إنتاجاً اجتماعياً يعكس قيماً ثقافيةً لواقع المجتمع، الذي تعيش وتنمو فيه. وعلى أساسه، يمكن الجَزم أنَّ السَّائد في "الكتابات"، ينزوي تحت ما يفكر فيه أفراد المجتمع. وفردية الكتابة وإن عُبِّرت عن تمثَّلات فردية، إلاَّ أنَّها مرتبطة بالواقع المعيشي لهذا الفاعل، فهي تُمثل "سيرة ذاتية Autobiographie" لمُمارسيها، بصفته عضواً في المجتمع.

من منطلق قريب، اجتهد بعض الأنثربولوجين بتحليل المنتج الاجتماعي/الفلكلوري للكتابات، بهدف استجلاء التَّغيرات والتَّحولات الاجتماعية التي لحقت بالعادات والتقاليد والأعراف، التي تُوثِّتُ

⁹¹ Alison Barnes, "Graffiti: Overground archaeology or environmental crime?", St Bride Library, 2005. URL: <http://www.stbride.org/friends/conference/temporarytype/overgroundarchaeology>. Consulted: 11/20/09.

⁹² Sociopathe : مفهوم يستخدم في التحليل النفسي يعبر عن اضطرابات في الشَّخصية، أهم عرض العدوان ضدَّ المجتمع من خلال سلوكيات عنيفة. ويقدر المختصون أنَّ 3% من الرجال و 1% من النساء يعانون منه.**

**Philippe Psy, "Les sociopathes sont parmi nous", 06/12/2006. URI: <http://psychotherapeute.blogspot.com/2006/12/les-sociopathes-sont-parmi-nous-06.html>. Consulté le: 11/02/2009.

الثقافة العامّة للمجتمع. من أبرزهم "ألان دنديز Alain Dandise" الذي وصّف المكونات الفلكلورية الشعبيّة، وألحق هذه (الشّعارات) بقائمة العناصر الثقافيّة المُشكّلة للثقافة العامّة للمجتمع. والتي تضمُّ حسب "شريف كناغمة" -الذي نقلها عنه- كل من الأساطير، الخرافات، القصص الشعبيّة، الحرائز، الألبان، الترانيم، التّعويذ، التّبريكات، اللّعنات، الشّتائم، السّبب، الإيحاء، المُقامرة، وأسماء الأماكن، والمواقع، والملاحم الشعبيّة، وما يُكتَب على القبور والسّيّارات والياقِطات وأغاني الأطفال وأغاني الكبار، نداءات الباعة وما إلى ذلك. أمّا "الأوو بريتان Olowu Britain"، فيعتقد بأنّ الجغرافيتيا إستراتيجية للتعبير عن رفض وكسر قيود الأنظمة التسلّطية⁹³. ووسيلة للمعارضة السياسيّة على مستوى الأفكار لإسماع صوت المعارضة للمجتمع لأنّها وسيلة اتّصال جماهيري فعّالة وسهلة، كما يعتقد "Lyman Chafee"⁹⁴.

كما نجحت الأنثروبولوجية "س. فيليبس Susan A. Phillips" من تأليف دليل شامل، لرموز وألفاظ خاصّة بالجماعات الممارسة للجغرافيتيا⁹⁵. حيث تصّف هذه الأخيرة بأنّها أضحت من أقوى اللّغات والخطابات الثقافيّة لعصرنا. لإرتباطها بالتّغير السّياسي والإثني والفنيّ للمدينة، تُستخدم على المستوى الفردي لإعادة تحديد المكانة الاجتماعيّة والسياسيّة للفاعل داخل المجتمع. حيث ترتقي فوق التّوصيف السّاذج من طرف البعض، على أنها شخَبَطات وخربشات صبيانيّة، لتكون حلّاً عبقرياً وإبداعياً للجّرمان، الذي يُعانيه هؤلاء. أمّا على المستوى الجماعي، فتستخدم "الجماعات" الفعل الجغرافيتي بُغية تحديد وتعريف ذاتها (هويتها) بالفضاء الذي تتواجد فيه⁹⁶.

1.2.1.1 "غيتوهات Ghettos نيويورك" مَهْدُ الظّاهرة:

تعتبر مدينة "نيويورك" المَهْدُ الذي ترعرعت فيه الممارسة بأبعادها المعاصرة، أرخت بتأثيراتها على باقي المدن الأمريكيّة، ومنه إلى أوروبا وباقي أصقاع العالم⁹⁷.

⁹³ Nicholas Bryden & Eric Mehlberg, "Bathroom walls speak out: A exploratory study of restroom graffiti", Humboldt State University. April 24, 2000. In: <http://users.Humboldt.edu/jverlinden/319Web/examples/2003/BathroomWalls.pdf>. Consulted: 20/05/2011.

⁹⁴ Bradley J. Bartolomeo, "Cement or canvas: Aerosol art & the changing face of graffiti in the 21st century", Union College, Schenectady NY, USA-2001. In: <http://www.graffiti.org/faq/graffiti-is-part-of-us.html>. Consulted: 11/12/2010.

⁹⁵ Susan A. Phillips, "Wallbanging, graffiti and gangs", University of Chicago Press, 1999, p 414.

⁹⁶ Ibid, p.177.

⁹⁷ Michel Kokoreff, "Des graffitis dans la ville", In: Quaderni.n°6, Hiver 88/89, pp.85-90. URI: <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/quad0987-13811988num611892>. Consulté le: 25/03/09.



الصورة 7: "غيتوهات" نيويورك مَهْد الظاهرة⁹⁸.

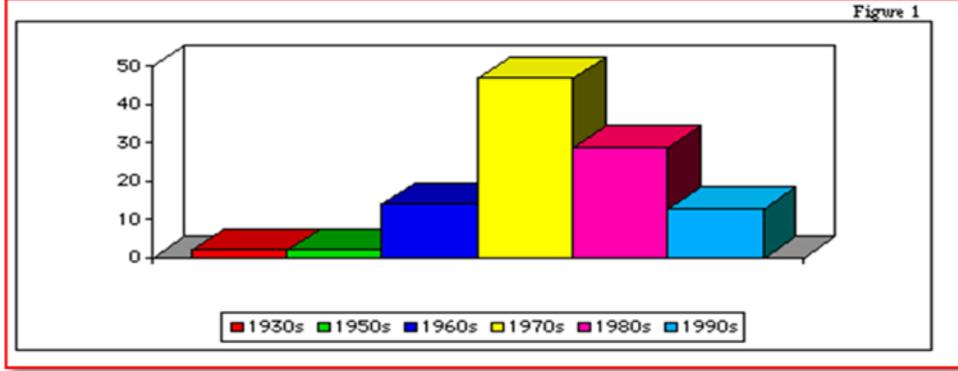
مما دفع المنهَجِسُون لتكثيف محاولاتهم البحثية قصد تَفْهَمِهَا، حتَّى أضحَت الظاهرة موضوع العديد من الدراسات الأكاديمية، خاصَّة الأمريكيَّة (مَهْدُ الظاهرة)، وبالأخص "مدرسة نيويورك" بربادة الباحث "روبرت ريسنر Robert Reisner"⁹⁹.

حيث قاربت "الممارسة" في بعدها التَّعبيري والقي المعاصر، المُعبر عن "الرِّفض والتَّمييز الاجتماعي"، خاصة في الأحياء الشَّعبية من خلال "مُشاحنات غرافيتية" بين الشَّبَاب المراهق. كما اشتهرت بإستثمارها لمفاهيم العلوم الاجتماعية (الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس،..). ركزت خاصة على الطَّابع المعلوماتي الذي يتركه "المُغرِف Le graffeur"، والذي يعكس واقع المجتمع، لذا كان الأساتذة القائمين على هكذا دراسات ينصحون طُلَّابهم، بضرورة فحص الظاهرة في حاضرها وماضيها، للوقوف على تطوُّراتها، ويطلبون منهم -خلال الدروس العملية التطبيقية- ضرورة جمع كل الكتابات المتوافرة والمنشرة على جدران المدينة، ثم تحليلها ومناقشتها فيما بينهم. تُجمَع الدِّراسات التي لامست الظاهرة خلال السَّبعينات أن الدَّوافع الأساسية للممارسين من وراء هكذا "فعل" هو إنتراع حق الشَّهرة، وإسماع الرأى الخاص، والتمييز بين الأقران، وإعطاء معنى لوجوده الاجتماعي، وإظهار مدى الشَّجاعة التي يتميَّز بها في تحدِّيه للسلطات المجتمعية-خاصة الرِّسمية-. ومما شجَّع إستفحال الممارسة بالمجتمع الأمريكي تبلور الثقافات الجزئية/الفرعية، خاصة "الهيپ هوب Hip hop" بتلويناتها المختلفة. ذلك لأن نمو وانتشار الظاهرة عمودياً وأفقياً، جعل المهتمين ينتمون لأبعاد أخرى إرتبطت بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهؤلاء الفاعلين، دفعتهم للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، بطُرُق شتَّى أدَّى إلى بروز أشخاص مُتميِّزين نُعتوا ب'فناني الغرافيتي Graffiti Artist'. تمرّدوا على مبادئ الفن الكلاسيكي (الرِّسيمي) المتداول في المتاحف، وصلات العرض الرّاقية. حيث لاذوا للشَّارع لإبراز فَنِّهم الخاص' في الهواء الطلق، وعلى

⁹⁸URL: <http://thewritingsoflollaloverdose.blogspot.com/2012/08/chapitre-21-wasted-youth.html>.

⁹⁹ Robert Reisner, "Graffiti: Two thousand years of wall writing", (1st ed.1964), New York, Cowles Book Company, 1971, 204 p.(1st ed.1964).

الجدران، ووسائل النقل، واللافتات الإشهارية الرسمية... لتتحول المدينة لفضاء، بل "مَحَجَّ" للمهتمين والباحثين عن مُتعة الغير مألوف¹⁰⁰. وقد تَتَبَّع السوسيوولوجي "Jane M. Gadsby" تطور الاهتمام البَحْثي بالظاهرة منذ الثلاثينات إلى التسعينات من القرن الماضي، ليخلص للنتائج الموضَّحة في الشَّكل.



الشكل رقم 1: تطور الدراسات الخاصة بالجرافيتيا من 1930 إلى 1990¹⁰¹.

يتجلى من خلال المدرج التكراري تدحج نسبة الانهجاس العلمي بالظاهرة (عدد البحوث والدراسات)، من مستوى أدنى إلى مستويات أعلى، رغم بدايتها المحتشمة بداية الثلاثينات إلى الخمسينات، ذلك لأنها مرحلة توصف بمرحلة الطفولة بالنسبة لحياة الجرافيتيا. أما الستينات ونظرًا لعدّة أسباب، ابرزها إفرازات الثورة الطلابية ماي 68 التي إنتقلت عدواها للعديد من المجتمعات. ليسجل عقد السبعينات قفزة معتبرة في عدد الدراسات المختلفة والمتقاطعة التخصصات، التي قاربت الجرافيتيا في أبعادها المتعددة. لتراجع خلال الثمانينات نظرًا لثمرات السياسة "القمعية والرديعية"، التي اعتمدها السلطات المحلية بالعديد من الدول، بصيغ مختلفة. سياسات مستوحاة من مرجعيات نظرية مختلفة، من أبرزها نظرية "النافذة المكسورة The Broken Windows theory"، ومبدأ درجة "التسامح صفر Tolérance Zéro"، بالتوازي مع سياسة الاحتواء والمهادنة.

ويعتقد المتابعين أنّ هذه الإجراءات استطاعت "محاصرة" الممارسة لفترة محدودة، بتشتيتها للفاعلين، إلا أنّها لم تصمد طويلاً. إذ ما فتئت أن عادت مجدداً وبقوة، من خلال ما أسماه البعض

¹⁰⁰ يصف ذلك "إريك فيليسبريت Felisbret Eric" بقوله بأنّ عدد كبير من الممارسين كانوا يحجّون للمدينة، وأنّه لأمر جيّد أن يذكّر أحدهم في سيرته الذاتية أنّه رسم يوماً ما على أحد جدران مدينة نيويورك.

♦ "Graffiti New York", ed: Abrams Books, 2009.

¹⁰¹ Jane M. Gadsby, "Looking at the writing on the wall: A critical review and taxonomy of graffiti texts", 1995.

بـ "عدوى/وباء الغرافيتيا Epidémie de graffiti"¹⁰² لتَمَسَّ مختلف الشرائح الاجتماعية والجنسية والعُمرية، داخل أمريكا وخارجها¹⁰³. تنظيرياً، يتحدث المختصون عن اتجاهين رئيسين: الاتجاه الأول: الذي استلهم مضامينه من طيف الحياة الثقافية العامة، مكنته من استعطف العديد من الفاعلين، تجسّد ذلك من خلال الإقبال المَهول على هكذا "منجزات فنيّة"، سواء محلياً أو خارجياً، إذ أضحت "نيويورك" قبلة مقدسة، حتى وصفها البعض بـ"مكة الغرافيتي Mecque La du graffiti"، يَحُجُّ إليها سنويًا الآلاف من الممارسين والباحثين والسُّياح، وجامعي التُّحف، والمُصوِّرين الذين يلتقطون مباشرة ما ينجزه أبناء المدينة¹⁰⁴.

أمّا الاتجاه الثاني، والذي أُعْتَبِر امتدادًا للحركة الفنيّة في المدينة، والمدن الأخرى، وفيما بعد للحركة العالمية ككل (أوروبا خاصّة). فقد ارتبط بثقافة الشُّباب المراهق الرافض، المُتمرّد على ما هو تقليدي. كما ارتبط بحركات فنيّة موازية، على نحو (الراب Rap، ورقص الشوارع "البريك دانس Break- Dancing" (التعبير الجسدي لموسيقى الراب)، وما إلى ذلك.

إلا أنّ كلا الاتجاهين حافظا على الطابع العام لثقافة "الهيپ هوب Hip Hop"، التي ساهمت وسائل الإعلام في تسويقها بين الفئات الاجتماعية المختلفة، خاصّة عن طريق السينما، وبالأخص فيلم "قتال الشوارع"، الذي عالج الظاهرة بنقل هذا الإبداع العام، وشهّر به عالمياً، من خلال تعظيم وأسطرت رموز وشعارات الحُلم الأمريكي، التي تجسّد في منجزات (تمثال الحرية، ناطحات السحاب، الجسور، الأنفاق، القطارات..). مما يَسرّ احتلالها لمدن عالمية، نحو: باريس، سيدني، لندن، برلين، برشلونة...

2.2.1.1 "سوهو Soho" منبع آخر للممارسة الغرافيتية:

يُصنّف مركز "سوهو Soho"¹⁰⁵، ضمن أبرز المراكز التي أسّست لهكذا ممارسة، خاصّة في مَلَمَحها الفنّي (المعاصر). حيث تحوّلت لمركز إشعاع، "سَحْر/فَتْن" الكثير ممن رَغِب في اكتساب

¹⁰² وصفها رئيس بلدية نيويورك السيد "Ed. Koch" بـ"الطاعون السّريع الانتشار".

¹⁰³ Mireille Van Wilderode, "Epidémie de graffiti dans le métro bruxellois", La Libre Belgique, 10/03/1989, pp.1-6.

¹⁰⁴ Elisabeth Chanard, "Art urbain - Barcelone, la Mecque du graffiti ?", Le petit journal, 01/4/09. In: <http://www.lepetitjournal.com/barcelone/38881-actualitarcelone-francophonie-graff-ice-colectivo.html> . Consulté le :1/6/2012.

¹⁰⁵ اسم حي بمدينة 'هيوستن Houston'.

تقنيات ممارسة "الفن الجرافيتي"، مما أكسبه شهرةً وسُمعةً عالميتين¹⁰⁶. وإن اعتبره البعض امتداداً للإرهاصات التي بدأت بنيويورك، إلا أنه قدّم رؤيةً مختلفة عن الأصل، علّل عليها "دافيد روبنسون David Robinson" (مُصور الشوارع) في متن دراسته التي دامت عشر سنوات¹⁰⁷، إنه جس بإفريقيا لاعتقاده بأنّها تُمثّل مَهْدَ الإنسان الأوّل، وما زالت تعتبر معرضاً مفتوحاً لكل التفسيرات عن حياته في مختلف مناحيها، لما تزخر به من آثار ثقافية. وذلك لما يتميز به سكانها من ارتباطهم بالأبعاد الثقافية في حياتهم اليومية، إذ نلاحظها في البيوت، الأسواق والمعابد... استثمارها كمرجعية للعديد من أعماله. شَغَفٌ جعله يهتم بحي "سوهو" لترصّد معالم 'الجرافيتيا' على جدرانها، محاولاً تحديد معاييرها الفنيّة والثقافية التي أسّس عليها الفاعلون منجزاتهم. واستكشاف مميّزات الفن المُتمّاهي في تغيرات الحياة اليومية، لأنّه لا يتصور لوحةً أو رسماً بمعزل عن واقعه المعيشي.

ساهم "د. أندرسون" في توسيع مفهوم "الجرافيتيا"، إذ تدجّج في تحليلاته من الكتابة إلى الفن إلى التصوير، إذ ميّز بين معنى الكتابة "Graffiti" والتصوير "Murals"، الأولى تختص بالتعبير الكتابي والثاني بالرسم في بُعدِه الفني الجمالي. بالإضافة إلى الألوان المُستخدَمة، حيث يستخدم الكاتب عُلب الرّش، التي تُمخى بسهولة. أما الثّاني يستخدم الفرشاة والألوان في رسم لوحاته. كما أن الكتابة قد تخلّق في بعض الأحيان إزعاجاً للمقصودين من الرسائل، عكس الرسومات التي تعكس - في الغالب- صُوراً ومواقف جميلة، تَسرُّ وتُثير فضول النّاظرين إليها، لتتحوّل لِتُحفّظ تُضفي طابعاً جمالياً على المكان. وإن وُجد العديد ممن سبقوه في ذلك، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، أعمال كل من "ميكائيل كامبن Michael Kampen"¹⁰⁸، في دراساته "بغواتيمالا"، و"ألان ولكر ريد Allen W. Read" عن جرافيتيا المراهيض.

كما تطور "فن الكولاج L'art du collage"¹⁰⁹ الذي نشأ بألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وتطوّر ليُشكل تياراً فنياً له مكانته ضمن الإطار العام للجرافيتي¹¹⁰. يتم فيه استثمار قُصاصات

¹⁰⁶ Gregory J. Snyder ♥♥, "Graffiti lives: Beyond the tag in New York's urban underground" Coll: Alternative Criminology Series, ed: New York University Press, 2009, p 52.

♥♥ أستاذ علم الاجتماع و الأنتروبولوجيا بكلية "Baroche" جامعة "New York".

¹⁰⁷ David Robinson, "SOHO walls: Beyond graffiti", New York, Thames & Hudson, 1990, 96p.

¹⁰⁸ The graffiti of Tikal, Guatemala. estudios de cultura Maya 9, México, 1978, pp.155-180.

¹⁰⁹ بالإضافة للتصوير، تشكل ما سمّاه "أندرسون" "الستانسيل Stencil". ويَعرفه بأنّه الفن الذي يُعبّر عن اتجاهات المجتمع المدني، وينقل تفاصيل وهموم حياته، يتميز بالبساطة والتكرار والابتعاد عن التعقيد، إذ من غير المعقول، التّطرق إلى مواضيع =معقدة، في مجتمع تُسيطر عليه الهواجس اليومية، إضافة إلى حتمية الاصطدام بالسلطات الأمنية، أي الخوف من الاعتقال جعلت موضوعات هذا النمط الفنيّ تطرح مواضيع مرتبطة بالحاجات اليومية للأفراد.

الجرائد والمجالات والكتب، لإنتاج "فنّ ناقد وساخر"، خاصّة في مضمونه السياسي. كما يميّز بالحركية المستمرة، إذ ما يلاحظه المرء اليوم من "رسائل" قد لا يُدركه غداً، إمّا يُستبدل تمامًا، أو يخضع لتحويلات وتطويرات وإضافات جديدة، تخلق لمساتٍ فنيّة رائعة، برسائل معبّرة. يعتبره بعض الباحثين مفتاح التّغيير. مع بداية السّبعينات (1972)، بدأ الإطار الشّرعي-الرسمي يتشكل تدريجيًا، من مؤشرات ذلك إعلان الباحث السوسولوجي "هوغو مارتيناز Hugo Martinez"¹¹¹ رفقة زملائه (الأمركولانيّين) بقسم علم الاجتماع (جامعة نيويورك)، عن إنشاء "إتحاد فناني الغرافيتي United Graffiti Artists (UGA)، الهدف منه الدّفاع وترقية الممارسة في أبعادها الفنيّة، والبحث عن طرقٍ -رسميةٍ- لِشَرَعَتِهَا، والتعريف بجوانبها الفنيّة الرّاقية، من خلال تنظيم تظاهرات مختلفة رسمية بموافقة بلدية نيويورك، لإحتواء الطّابع اللّاشعري للممارسة. استطاع هذا الاتحاد كسب ثقة بعض المسؤولين لقبول أعمال بعض الشّباب، واستخدامها لتزيين وترشيق عربات القطارات والواجهات برسومات ذات أبعاد جمالية فنية (بطبيعة الحال وفق الدّوق الرّسمي)¹¹². وبدأت أسطورة المؤسّسين تتبلور وتتناسط، وحيّز الاعتراف يتوسع، فذاع صيتُ بعضهم، على نحو: "Keith، futura 2000، Freddy Fab، Lee Five Quinones، Taki 183، Haring"¹¹³. إذ تمكّنوا من عرض أعمالهم في الأروقة والدور والصّالات المخصصة للفن المتعارف عليه (الفن الرّسمي)، واستعطاف الكثير من المستهلكين والمعجبين بهذا النوع. إذ صار مطلوبًا لتزيين واجهات المحلات، المنازل، المقاهي، المطاعم،... "فالغرافيتيا ليست كلّها تخريب"، فكرة التي عمل على تسويقها مُناضلي الممارسة. على نحو الصورة التالية لمعرض للغرافيتيا.

¹¹⁰ للاستزادة يمكن الرجوع لـ:

Pierre-Jean Varet, "L'Art du collage dans tous ses états", préface de Guy Savel, éditions Art colle, 2010, 140 p.

¹¹¹ نشر مطلع 2007 كتابه: "Graffiti NYC", Prestel Publishing, 152 p، جمع فيه أجمل اللوحات الغرافيتية التي عُرفت بمدينة نيويورك.

¹¹² في ديسمبر من نفس السنة وفقّ الاتحاد في تنظيم أول معرض رسمي للمنتوج الغرافيتي، بـ "City college s Eisner Hally"، لتتبعها خلال السنة الموالية نشاطات متعدّدة ركّزت على وسائل الإعلام، قصد التّشهير الإيجابي للغرافيتيا، فقد خصصت جريدة "News Week" صفحات طووال بالألوان، لمقال تحدث عن بعض الممارسين وإنتاجاتهم (الفنية). لتليها سنة 1975، التي لُقبت بسنة الاعتراف الرّسمي، حيث انتزعت الغرافيتيا اعتراف بعض المسؤولين (الفنّيين)، بمنحهم لقب 'أحسن فنان' لممارس يُدعى "Bama" خلال معرض "L'Artist space gallery" بـ "سوهو". حيث بيعت بعض إنتاجاته بأثمان باهضة، تراوحت ما بين 1000 و3000 دولار.

¹¹³ توفي سنة 1990، من الذين اشتهروا بالغرافيتيا (الفنية)، بيعت إحدى لوحاته الغرافيتية سنة 2007، بـ: 2.8 مليون\$. أما "Futura 2000" فقد بيعت له خلال نفس السنة لوحة تعود لـ 1983 بـ: 23.545 €.



الصورة 8: معرض "للفن الغرافيتي" بمتحف أمريكي.

نُشرت العديد من المقالات والدراسات التي لامستها في أبعادها الفنية، إذ نقرأ لـ"روني باسرون René Passeron" بأنّ غرافيتيا ميترو "نيويورك" و"باريس" عبارة عن أشكال لفن جماعي، يَجِدُ فيه المجتمع المُهمَّش (خاصة بالضواحي)، أفضل طريقة للتعبير عن خصوصياته، وملاذًا للعيش الثقافي المناسب¹¹⁴. وبالفعل تمكنت الممارسة من احتلال مساحات مهمة بالشوارع الأمريكية، حتّى بلغت أوجها. فيصف لنا "جاك ستيوارت Jack Stewart" -أحد مؤرّخي الممارسة- الوضع بمدينة "نيويورك"، خلال السبعينات قائلاً "عرفت مسألة الغرافيتيا على القطارات والمترويات، أزمة حادة، حتّى اعتقد بعض ممارسيها أنّ نهايتها أوشكت، ذلك لأنّ الطريقة الوحيدة لوصولك لِعربة من العربات من أجل وضع بصمتك، هي أن تُنظف أو تمحو عمل شخص آخر، خاصة بعدما توقفت السلطات عن حملاتها التنظيفية بسبب الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالمدينة"، حيث عاشت الممارسة مرحلة ثورية Revolutionary phase¹¹⁵.

بدورهم إنكبّ آل السوسيولوجيا على تحليل وتفسير الممارسة/الظاهرة، بربطها بإشكاليات متعدّدة. فأجمعوا على أنّ هكذا ممارسة في أوّل تَبَلُّورها، تُمارَسُ من طرف عامّة المجتمع، حيث وجد (الممارسون) في الجدران وسيلة لإنزاع الاعتراف والتعبير الحر، عن مكنوناتهم وأفكارهم، وإفراغها على وسائط مختلفة، والتي تُوحى بـ"قلق اجتماعي" صرف، نتيجة الظروف المُعاشة، أو لخصوصية الأنساق الاجتماعية (الأسرية، المدرسية،..)، هذا ما جعل بعضهم ينعتها بـ"فن الطبقات المحرومة والفقيرة".

يؤكد ذلك "كرين كاستلمان Craig Casteman"¹¹⁶ بأنّ العديد من الدراسات التي أُنجرت خلال هذه الفترة أجمعت على أن المُعْرِفَتين غالبًا ما ينتقون أماكن غريبة (عالية، مكشوفة)، والتي

¹¹⁴ René Passeron, "Collectif art", Encyclopædia Universalis, 2011.(DVD).

¹¹⁵ Jason Dax Woodward, "How to read graffiti", 1997. <http://kasino.com.au/masters/index.html>.
Consulted: 32/7/2011.

¹¹⁶ "Getting Up: Subway graffiti in New York" The MIT Press Publisher, 1984, p212 .

يعتبرونها أمثل طريقة للبروز والشهرة. ويذكر أسماء بعض 'المُدمين' على الغرافيتيا على نحو "SOULI" الذي إعتاد كتابة اسمه في أعالي العِمارات، حيث لا يستطيع مُعظم النَّاس الوصول إليه ومَحْوِه. و"BAMA" الذي غرقت لِقَبَهُ على قِمَّة جبل بشمال مدينة "Nieva" بنيويورك. وما يَسَّر انتشار المُممارسة، واستجلاب فئات اجتماعية مختلفة (مستهلكة) هو طابعها المجاني، فلا تحتاج لنقود أو سيّارة أو بطاقة ائتمان، أو معارف خاصّة لتتمتع بها.

في سنة 1988 أنجز "ريشارد لوكمان Richard Luchmann" دراسةً حول الظاهرة، مازجَ منهجياً بين الملاحظة بالمشاركة والمقابلات التي أجراها مع خمسة وعشرين فنّاناً غرافيتياً مشهوراً بـ"نيويورك"¹¹⁷، ليكشف عن الأوجه الخفيّة للشّوارع، ويخلص بأنّه عالم خطير جدّاً، إذ يمكن للخطر أن يصيبك من حيث لا تحتسب، إمّا من دَهس قطارات الاتجاه المعاكس، أو من التوقيف العنيف للشّرطة، أو من ردود فعل عصابات الغرافيتي. كما وقف على نظام المساعدة والتوجيه الذي يتلقاه المبتدأ في الغرافيتي من مُعلمه في الممارسة، قصد تلقينه أساسياتها، من تقنيات التجسيد إلى حيل التكتّم والفرار من الشّرطة. والهدف الأسمى للممارسين يتمثل ترك أثر يُخلد ويُشهر لهويتهم الجديدة المُميّزة، حتّى يرتقوا لمكانة "ملوك الغرافيتي".

أما دراسة السوسولوجي "غريغوري سنايدر Gregory J. Snyder" التي أُجريت في منتصف التسعينات، والتي استغرقت عشر سنوات، حيث انتهج الباحث¹¹⁸ مقارنة زاجت بين السوسولوجيا والأنثروبولوجيا، بهدف تتبّع إرهابات "ثقافة الغرافيتي La culture du graffiti" وفكّ شيفرات الرّسائل المنتشرة على وسائط عدّة. ومحاولة استنتاج تعريفهم و تمثلاتهم للظاهرة. من جانب التقنيات المستعملة، تراوحت ما بين المقابلة والملاحظة بالمشاركة، حيث إنغمس في عالمهم، وأصبح مُمارساً للغرافيتيا، إذ غرقت إسمه عديد المرات على وسائط عدّة، كما يذكر في دراسته¹¹⁹. ومن نتائجها:

• انتشرت "ثقافة الغرافيتي" تزامناً مع "ثقافة الهيب هوب La culture hip hop" خلال السبعينات.

¹¹⁷ حسب الدراسة أغلب الممارسين، ذكور من أصول افريقية وأمريكولاتينية من فئة المراهقين.

¹¹⁸ Gregory J. Snyder : أستاذ علم الاجتماع الحضري بجامعة نيويورك .

¹¹⁹ Gregory J. Snyder , " Graffiti Lives: Beyond the tag in New York's urban Underground ", Ed: New York University Press,2009, 252 p.

- لا يرتبط الفاعلون في الجرافيتيا بروابط الانتماء كاللغة، مكان الولادة، السن، الجنس، الطبقة الاجتماعية، وإنما بما يُنتجونه من جرافيتيا، مشكّلين هويّاتهم جرافيتياً. التي غالباً ما تتمحور حول تبجيل وتقديس أسمائهم (الفردية والمجموعاتية)، مع التعبير عن آمالهم في قضايا تخصهم.
- الظاهرة حسب الممارسين ليست "باباً" للانحراف والجريمة، بل طريقة للتعبير الفني الرّاق، ومطيّة لتحقيق المكانة المرموقة، محلياً وإقليمياً، وحتىّ دولياً.
- ترتقي الممارسة الجرافيتية لتكون فناً ديموقراطياً، لأنّها من طرق التعبير الديموقراطي عن الأفكار.
- تُؤسّس الممارسة- حسب اعتقاده- لثقافة فرعية مُتميّزة، وتكشف عن ملامح هوية فاعليها. يعبر عن ذلك بقوله -بتصرف- "يلجأ الممارسون للكتابة الجرافيتية لإنترع الاحترام والتقدير لأفعالهم، حيث "يُعرّفون" في أماكن يعتقدون أنّها أكثر ملائمةً للعرض، وللمجال البصري للمارّة- والتي يمكن مشاهدتها بسهولة-. وليست درجة الفوضى هي التي تُحدّد المكان المُختار للكتابة، بل سهولة إدراك المنتوج المكتوب، وبُعده عن الأماكن السهلة التّظيف للسلطات".
- غالباً ما ارتبطت الممارسة الجرافيتية بالظروف والأحداث المجتمعية، المحلية والإقليمية والعالمية، فمثلاً، كانت لأحداث 11 سبتمبر صدى على الممارسة، استجلبت معالمها الباحثة المُتمرسّة في تاريخ وأنثروبولوجية وسيميولوجية الكتابة "بياتريس فرانكلين Béatrice Fraenkel"¹²⁰، من خلال مقارنة سيميولوجية للكتابات المنتشرة بالقرب من مكان التّفجيرات، بذات المدينة. حيث قامت بترصد كل ما كُتب على وسائل مختلفة عن الأحداث، خلال حيز زمنيّ لم يتعدّى الأسبوعين. وبعد التحليل استنتجت أنّ المضامين تنوعت ما بين الأعلام (الرّيات)، الزهور، الشّموع، وغيرها من الرموز الدلالية المُعبّرة على الجِدَاد والحزن وفق الثقافة الأمريكية، وفي مقدمتها الجرافيتيا. لتخلص أنّ المجتمع الأمريكي عامّة و'النيويوركي' خاصّة، يعيش حالة حزن عميق، عبّر عنها من خلال غرقت كلمات مُعبّرة على نحو: الجِدَاد، الموت، اللّحد، التّضحية، التضامن، الله يحفظ أمريكا... بالإضافة لأسماء من ماتوا في الحادث. من خصائص الممارسة -أيضاً- أنها جماعية، إذ كل شخص يمكنه أن يتحول إلى كاتب، بتوقيع بسيط. هذا ما يؤسّس لمراسيم "الحفل المدني" الذي من خلاله يعبر المُغرّفتين عن حقوقهم كمواطنين. ويستعيد للمدينة بعدها السّياسي والطقوسي والاحتفالي. إنها "كتابات جنائزية Ecriture funéraire" تُخلّد إعلانات التعازي واحترام الأموات بكتابة أسمائهم، كرمز للاحترام والتذكّر.

¹²⁰ Anne-Marie Bertrand, "Béatrice Fraenkel, Les écrits de septembre New York 2001", Paris Textuel, 2002, 160p. <http://bbf.enssib.fr/consulter/bbf-2003-01-0141-004>. Consulté 11/02/11.

لم تقتصر الممارسة على احتلال الفضاءات المفتوحة بالمجتمع الأمريكي، بل غزت أيضاً الأماكن المغلقة، كالمراحيض بأنواعها الخاصة والعامة، حيث اعتبرها الباحثون فضاءات جرافيتية جدّ مهمة. تجلّت في دراسات عديدة، منها دراسة "نيكولاس بريدن Nicholas Bryden" و"إريك ميلبارغ Eric Mehlberg" والتي تُصنّف في خانة الدّراسات الاستطلاعية الأصيلة، التي اهتمت بـجغرافيتيا المراحيض (Latrinalia)¹²¹، حيث قام الباحثان بجمع المادة المنتشرة بمراحيض جامعة "Humboldt State University". وافترضاً أنها تمثل شكلاً من أشكال التّواصل بين الأفراد. ليتمّ تَفْيِئُها وفق مبدأ المحتوى. وبعد التّحليل استنتجا أنها (الكتابات) نوع من اللّغة الخاصة، المُشَقَّرَة¹²²، تُستخدَم للتّواصل، كلغة بديلة عن لغة الرّسائل والصّحف الرّسمية، تُعبّر عن احتجاج الفاعلين على الظلم و التّمييز¹²³.

بدوره يعتقد "مايكل ولش Michael Walsh" أنّ "الجغرافيتيا القديمة" تشترك مع المعاصرة في أنّها تهدف لِتَخْلِيدِ وسرْمَدَةِ أثرِ فاعليها، وإخطار الآخر بذلك¹²⁴. لتتميّز عن نظيرتها التاريخية بأنها تحولت لـ"صوت المتمردين The voice of rebellions"، أغلب مُمارسها ذكور، تتراوح أعمارهم ما بين إحدى عشرة وثلاثين سنة، مع حضور نسبي للإناث. لم تُعد خاضعة للأسطورة التي سَوَقَتْها وسائل الإعلام المُؤدّجة، والتي ترى أنّ الممارسين مُنحدرين من مناطق حضرية فقيرة مهمّشة، لعدم صحّة ذلك. لأنّ الدّراسات الحالية بالمجتمع الأمريكي تُؤكّد أنّ كُتّاب الجغرافيتي ينتمون للطّبقة الوسطى والطّبقة المُتمكّنة (العليا). استخدموا الجغرافيتيا للتعبير عن رفضهم "للنماذج" التي تُفرض عليهم في إطار التّنشئة الاجتماعية.

3.2.1.1. المجتمع الكندي وانتقال "العدوى":

عرفت كندا بدورها انتشار "العدوى" الجغرافيتية بمختلف تضاريس مدنها، على نحو "Sherbrooke" و"Toronto" و"Montréal"، الملقبة بـ"العاصمة الوطنية للجغرافيتيا"، حيث عمّت الشجر والحجر، والمعدني والخشبي من الوسائط والدّعائمات. رغم ذلك، تبقى محاولة تلمّس

¹²¹ نفس الأمر قاربه الباحثة "Raina Williams" في دراستها "Latrinalia - Bathroom wall writing".

¹²² يُصفاها "إ. كاماشو Eduardo Cmacho Hubner" بالهيروغليفية المعاصرة "Hiéroglyphe contemporains".

¹²³ Nicholas Bryden & Eric Mehlberg, "Bathroom walls speak out: An exploratory study of restroom graffiti", 2003. URL: http://users.humboldt.edu/jverlinden/319Web/examples/2003/Bathroom_walls.pdf. Consulted: 10/02/2010.

¹²⁴ أما عالمة الاجتماع الأمريكية "Sherri Cavan" فتعتقد أنّ الفرق بين "الجغرافيتيا التاريخية (Les fresques) والجغرافيتيا العادية (Le graffiti) (يتمثل في كون الأولى تعكس تاريخ النخبة L'élite، بينما الثانية تاريخ العامة).

إرهاصات الممارسة بذات المجتمع صعبة الحصر، لتجذرهما، لتتطور مع حاجاته للفعل الجرافيتي. على نحو الصورتين التاليتين.



الصورة 10: دعوة صريحة للجرافيتيا .
(واجهة باب مستودع 1999)¹²⁶.

الصورة 9: جرافيتيا تعود 1943،
على جذع شجرة مُعَمَّرَة¹²⁵.

إنشغل العديد من الباحثين الكنديين بها في دراساتهم المتباينة التخصصات والمقاربات، حيث أطلقت مجموعة من الباحثين صبراً للآراء¹²⁷ حول تصور المواطن الكيبكي (الكندي) للجرافيتيا، فتمّ استجواب 101 شخص (80 امرأة و 12 رجلاً)، تتراوح أعمارهم ما بين (12 و 59 سنة)، جاءوا من الجهات الأربع لمقاطعة 'كبيك'، بطرح عليهم سؤالين أساسيين. الأول: هل تعتبر الجرافيتيا فناً أم لا؟. فصرح حوالي 87% من المستجوبين بأنهم يرون فيها نوعاً من أنواع الفن، بشرط احترام المحيط والممتلكات الخاصة والعامة، لذا يجب على الممارسين طلب الإذن مسبقاً من أصحاب العقارات. أما الثاني: هل أنت مع أم ضدّ ترسيم الجرافيتيا كفن؟. كشفت النتائج أن 40% مع ترسيم الجرافيتيا كفن. مع إبداء بعض المخاوف من أن عملية التّرسيم قد تؤدي إلى الانتشار الواسع لها، يتعسّر التّحكم فيها. في المقابل صرّح 60% بأنهم ضدّ ترسيم الممارسة، باعتبارها من أشكال التلوث (تلوث بصري Pollution visuelle)¹²⁸.

وفي سياق مجاور، قام الباحثين "جون بيتس John. A. Bates" و"ميكائيل مارتن Micheal Martin"¹²⁹ بدراسة حول جرافيتيا المراحيض العامة، الخاصة بالنساء والرجال،

¹²⁵ http://commons.wikimedia.org/wiki/File:Graffiti_Here_Please.jpg. Téléchargé le :2/7/10.

¹²⁶ المصدر نفسه. وللاستزادة من أنواع الجرافيتيا الكندية:

http://www.google.com/images?btnG=Search&hl=en&oi=image_result_group&sa=X&q=canada%20Graffiti&tbn=isch .

¹²⁷ Carol-Ann Bilodeau, "Les québécois et le graffiti". URI: <http://urbain-arts.blogspot.com/p/les-quebecois-et-le-graffiti.html>. Consulté le: 25/07/2011.

¹²⁸ Ibid.

¹²⁹ John A. Bates & Micheal Martin, "The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes", The journal of sex research, 2011. URL: <http://urbain-arts.blogspot.com/p/les-latrinalias.html>. Consulted: 12/07/2011.

بمدينة Sherbrooke حيث قاما بتجميع حوالي 57 لأثريناليا (38 من مراحل النساء، و19 من مراحل الرجال)، خلال حيز زمني امتد من 2/17 إلى 4/13 من سنة 2010. ثم عملا على تقيمتها إلى فئات غرافيتية بلغت الثمانية فئات، رصدتها كما يلي، لأثريناليا جنسية، أغاني، طلب توجيهات ونصائح، دعوة للحوار، آراء سياسية، رياضة، حُب. وبعد التحليل استنتجا أن النساء أكثر من كُتِب عن الجنس والحب، بالمقارنة مع غرافيتيا الرجال (18 مقابل 11 الوحدة). ويعود ذلك للإعتقاد الشائع في المجتمع الكيبكي بأن الرجال ومنذ قرون اعتادوا على التعبير المحدود عن مشاعرهم ورغباتهم الجنسية مقابل حرمان المرأة من حق التعبير الحر عنها، وحساسيتها للإشاعات تجعلها تُعزف أكثر.

وتشير دراسة سابقة لـ"جوانه فار Jo Annh Farr" و"كارول غوردن Carol Gordon" (1975) إلى أن نسبة الغرافيتيا الخاصة بالجنس والحب تضاعف مقارنة ما توصلت إليه دراسة "ألفرد كينسي Alfred C. Kinsey" سابقا، حيث قفزت النسبة من "25% إلى 40% بموازاة مع تطور ثقافة تحرر/تحرير المرأة (ثورة النساء التي فرضت ذاتها خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي)، بالمقارنة بكتابات الرجال. حيث اكتسبن "جُراً" التعبير العلني عن ذلك. بل بلغت حدّ السّماجة والفضاحة في التعبير عن الجنس، بلغة لا تخضع لضوابط كلامية. هذا ما يُمكنهنّ من التّنفيس عن قَلْبِهِنَّ ورَغْبَاتِهِنَّ. في المقابل سادت غرافيتيا الرياضة أكثر عند الرجال من النساء. بينما وردت باقي المضامين متقاربة¹³⁰.

أما دراسة "لويز غوتيه Louise Gauthier" المتخصصة في علم الاجتماع الثقافي والحضري، بجامعة "Concordia" بمونتريال وصاحبة أوّل رسالة دكتوراه¹³¹ تيمّتها "غرافيتيا الهيب هوب Graffitis hip-hop" بكندا، فخلصت إلى أنّ من بين أسباب تراجع "الغرافيتيا السياسية" مقابل انتشار "غرافيتيا الهيب هوب" بـ"مونتريال"، خلال عقد التسعينات من القرن العشرين ما أسمته بإعادة تشكل ملامح الهوية الثقافية الكيبكية، نتيجة ظاهرة عولمة الثقافة. وركزت على عربات

¹³⁰ Adam Trahan, "Identity and ideology: The dialogic nature of Latrinalia", Internet Journal of Criminology, 2011. pp.1-8. URI: http://www.internetjournalofcriminology.com/TrahanIdentityand_IdeologyThe%20DialogicNatureofLatrinaliaIJCSeptember2011.pdf. Consulted: 27/2/2012.

¹³¹ Louise Gauthier, "Writing on the run: The history and transformation of street graffiti in Montreal in the 1990s", Thèse de doctorat, Graduate Faculty of Political and Social Science of the New School for Social Research, New-York, 1998 .

القطارات واعتبرتها بمثابة "أنترنت معدني/صلب Steel internet" استخدمه الممارسون (فناني الشوارع Street Artists) في تسفير رسائلهم الجرافيتية لمسافات أطول وأبعد¹³².

1.3.1.1. الرحلة من نيويورك إلى أوروبا.. "أوربة" الظاهرة:

سنحاول في هذه الجولة استعراض ولو بصورة مختصرة الكيفية التي انتقلت بها الظاهرة (الطوطم Totem الأمريكي الجديد للشباب)، إلى بعض العواصم الأوروبية، كباريس، لندن، برلين، موسكو، ومديد،... مع تسجيل خصوصية كل عاصمة (مجتمع).

إنّ بداية الانشغال الأوربي بالممارسة (الظاهرة) بدأ مع مجموعات السياح الذين أفتنوا بمنجزات الشباب الأمريكي. إذ تشير الأدبيات المؤرّخة أنّ أول رصد للأعمال المشهورة بالمهد حدث من خلال محاولة قام بها أحد المهتمين الإيطاليين بهذا (الفن)، تضمّنت أعمالاً لأسماء لامعة بنيويورك. نُشرت هذه المجموعة سنة 1978، وتبعها مجموعات أخرى، لمُنهّجس هولندي (جامع التّحف)، يُدعى "ياكي كورنبيلت Yaki Kornbilt"، حيث عمل على تجميع أهم الأعمال الجرافيتية لفنانين استطاعوا إيصال أصواتهم للآخر من خلال منجزاتهم. وإجراء مقابلات مع عائلات من ماتوا، وقد أثمرت جهوده بتنظيم معرض في مدينة "نوتردام Notherdam" الهولندية لمجموعة من الإنجازات الأمريكية، فكانت البداية من هناك، لتعمّ شوارع وزقاق أوروبية مختلفة منها:

1.3.1.1. بريطانيا وخصوصيات الظاهرة:

رَكَزَت معظم الأدبيات التي كُتبت حول الظاهرة على الجانب الكتابي (الكتابات الحضرية Les écrits urbains)، الذي طغى على مُتُون المضمون الجرافيتي، التي غزت تضاريس المدن البريطانية في (الشوارع، واجهات المحلات، اللوحات الإشهارية، إشارات المرور،...) جُلّها طرحت خصوصيات الواقع المعيشي للشباب بتعدّد مستوياته، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الأخلاقية والثقافية. فَعَرَضَت مُشكل الجنس وما حَوَى، كما سَاجَلَت حول إشكالية الدين والعلمانية. تداخلت فيها لهجات الأحياء والمدن والأحياء، عاكسةً قيم ومعايير ثقافة شبابية صاعدة وواعدة بتحوّلات جذرية للقيم الثقافية البريطانية المحافظة. ومن بين الفضاءات التي عَشَعَشَت بها الممارسة، الفضاء الجامعي، حيث كتب أحد الطّلاب بجامعة "سُسسُكس Sussex" في جنوب إنجلترا، ما يلي:

"لقد استشهدت في الامتحان النهائي بكارل ماركس ورَسَبْتُ في الامتحان".

¹³² Electronic Resources, "Writing on the run: The history and transformation of street graffiti in Montreal in the 1990s". URL: <http://sunzi.lib.hku.hk/ER/detail/hkul/3629233>. Consulted: 22/8/11.

فَعَقَّبَ عليه طالب آخر، فكتب أسفل ذلك: "أنا استشهدت بآدم سميث ورسبت في الامتحان أيضا". ثم أضاف طالب ثالث، بقلم عريض: "أنا أوردت اقتباسًا من الإنجيل ورسبت في الامتحان النهائي". وقال رابعهم: "أنا استشهدت بما قرأته مكتوباً على الحيطان ونجحت!"¹³³. وكتب آخر "المحاضرة هي وسيلة لنقل المعلومات من ملاحظات الأستاذ إلى دفتر الطالب من دون أن تمر عبر دماغ أيٍّ منهما". وكانت طالبة أخرى قد "عَرَفَتَتْ" في مكان آخر: "حاربوا البطالة. أشغلوا الشرطة بالمزيد من الجرائم".

هذه عيّنة من الكتابات الجرافيتية التي احتلت مساحات ودعامات الشوارع والمؤسسات بالمُدن البريطانية، كلٌّ حسب خصوصية الفضاء الذي تتواجد فيه. وفي مقدمتها فضاءات التجمعات، كالفضاء الجامعي، أين أضحت "الممارسة الجرافيتية" نوعًا من "الهوس" اليومي لشريحة معتبرة من الشباب البريطاني. "هوسٌ" جعل أحدهم يكتب "يا لَيْتَهُمْ يَبْنُونَ الجدران من خُبْزٍ، لأستطيع أن أطوف حول الكرة الأرضية وأنا أعيش عليها"¹³⁴. "عدوى" اضطرت العديد من المؤسسات الجامعية البريطانية، لدفع الثمن الغالي¹³⁵. تباينت الرسائل من وراء الكتابات ما بين الشخصي والجماعي، المحلي والعالمي، كرفض الحروب التي يفتعلها السياسيون ورجال العسكر. والصورة تلخص ذلك.



الصورة 11: لوحة جرافيتية بـ "South Bank of the Thames in London".

¹³³ خالد القشطيني، "للحيطان لسان"، جريدة الشرق الأوسط، العدد 11018، 27 يناير 2009. موقع الجريدة: <http://www.aawsat.com/leader.asp?sec...article=504920>، تاريخ الاطلاع: 2009/07/12.

¹³⁴ ليلي ديبلي، "الأدب الجرافيتي". <http://forums.dai3tna.com/showthread.php?t=16115> بتاريخ: 10/01/11.

¹³⁵ أكد تقرير لجامعة Sussex لسنة 2010، أنّ تكاليف إزالة وتنظيف الجرافيتيا والعلكة، كلفها حوالي £ 35.000، ما يُعادل تجهيز 1000 مكتبة بأخر المؤلفات، أو تشغيل أساتذة مساعدين لتخصّصات عديدة. بدوره قدّر إتحاد الطلبة الإنفاق السنوي على الجرافيتيا بلغ £ 25000، من المفروض أن تُنفق على خدمات طلابية.♦

♦ Bulletin-University of Sussex Newsletter, Writing on the wall?.URL:<http://www.sussex.ac.uk/pressoffice/bulletin/28apr06/article11.shtml>. Consulted: 12/07/ 11.

رفض للحرب ولعنة للسياسة (2005)¹³⁶.

كما احتلت الجرافيتيا المراهض، حيث استفحلت "موضة الكتابة". فبولج الشخص لقضاء حاجاته يُخرج قلمه لـ"يُخربش" على الجدار والباب والمغسل. مما اضطرت السلطات العمومية لوضع "أبواً مُعلّقة" بها دفاتر وأقلام رصاص، داخل كل مراهض، وفي أعلاها جملة مكتوب عليها "إذا كنتم ممن يُفضّلون الكتابة على الجدران، نُقدّم لكم الأحسن (ورق أبيض)", حتى أضحت الدفاتر والأقلام من شروط تجهيز المراهض، تُفرض في دفاتر الشروط الخاصة بالمناقصات المُعلّنة لشركات النظافة.

اهتمت الباحثة "نانسي ماكدونالد Nancy Macdonald" بدراسة مقارنة بين المُمارسين بمدينة "لندن" ونظرائهم بـ"نيويورك" (2001)¹³⁷. من نتائجها أنّ للجرافيتيا دوراً فعالاً في تشكيل الهوية الذكورية التي تُميّزهم عن الإناث، إذ من خلالها يمكن للممارس أن يشكّل خصائص ذكوريته بإحتكاكه المباشر والدائم بنظرائه، مما يُكسبه قيم التّحدي والشّجاعة والإقدام والاندفاعية، التي يتّصف بها- غالباً- الذكور أكثر من الإناث.

أمّا "إيان سانكلار Ian Sinclair" فخلص من خلال دراسته للجرافيتيا بمدينة "لندن"، أنّها نتاج للتّهميش المُمارس من طرف المؤسسات الاجتماعية، اتّجاه المنتسبين إليها. كما إنتقد الآراء التي تعتبرها هروباً من الظّروف الرأسمالية، لأنّ حتى استراتيجيات محاربتها تخضع لمنطق العقلية الرأسمالية. كما فكّك العلاقة المعقدة التي تربطها بالفضاء المدني الحضري¹³⁸. هذا بالمجتمع البريطاني، أمّا عند الجار الأيرلندي فقد انتشرت بتضاريسه لتؤكّد وتُجدّد رفضه لتواجده البريطاني على أراضيه، كما عكست الصّراع الديني الذي استفحل بين البروتستانت والكاثوليك، خاصة بـ"Belfast". "الأحد الدّموي"، ومطالب "IRA"¹³⁹.

¹³⁶ مصدر الصورة: <http://commons.wikimedia.org/wiki/File:Sblondon-elecgraffiti05.jpg> تاريخ

الإطلاع: 2011/8/22.

¹³⁷ Nancy Macdonald, *The graffiti subculture: Youth, masculinity and identity*, Palgrave Macmillan, 2001, 272p.

¹³⁸ Lachlan MacDowall, *"The graffiti archive and the digital city"*. In: Danny Butt, Jon Bywater and Nova Paul (eds), *Local Knowledge and New Media Practice*, Cambridge Scholars Press, 2008. <http://www.graffitistudies.info/digital.htm>. Consulted: 20/10/09.

¹³⁹ Francesca Cozzolino, *"Les murs ont la parole, un exemple de prise de parole sur le mur. Les peintures murales d'Orgosolo"*, *Rivista di discussione culturale*, n°8, 2008, pp.30.31.

2.3.1.1. فرنسا والطابع الاحتجاجي للممارسة :

نشير أنّ الظاهرة بفرنسا في أبعادها التاريخية ليست وليدة الأمس القريب، بل سجّل الباحثون العديد منها في دراساتهم. ولن نغوص في الماضي البعيد لاستجلاب الدلائل والقرائن للبرهنة على ذلك، وإنّما نستشهد ببعض آراء المفكرين المرموقين، على نحو "فيكتور هوغو" Victor Hugo، الذي أعرب عن إعجابه الكبير بكتابات غرافيتية وجدها على جدران بمنطقة "woodprints". ينسحب الأمر نفسه على "بالزاك" Balzac "فقد عبّر في متن روايته "Ferragus"، بـ "Revue de Paris" سنة 1833، عن اهتمامه بالغرافيتيا التي كُتبت على شارع "Pagevin". أمّا "ريتيف دولا بروتون" Rétif de La Bretonne فقد أشار في متن مذكراته¹⁴⁰، أنّه "عزفت Graffiter" يوماً ما على جدران مدينة باريس¹⁴¹. يُلقب الباحثون هذه الفترة بفترة الكتابة الرومانسية¹⁴².

ويبدو أنّ سياسة القهر واضطهاد الغرافيتيا ليست وليدة النصف الثاني من القرن العشرين، بل ترجع إرهاباتها إلى 1833. حيث يذكر لنا الباحث "Sheon" أنّ الدورية الساخرة "Caricature" نشرت في ذات السنة صوراً لطفلين تمّ تأنيبهما بسبب رسميهما لصورة كاريكاتورية للملك "Louis Philipe" على إحدى جدران باريس¹⁴³. كما أشارت الدراسات إلى وظائفها البراغماتية العملية، على نحو ما ورد في الصفحة 19 من كتاب "دونيس ريو" Denys Riout وآخرون، أنّ المُتشردين والسُرّاق خلال القرن الثامن عشر، كانوا كثيراً ما يضعون -يكتبون- علامات مُشَفِّرة على أبواب وجدران المنازل التي يمكن اقتحامها للسرقة أو لممارسة الدعارة، وفق لغة مُعينة تُبيّن أنّ صاحب

¹⁴⁰ Rétif de la Bretonne, "Mes inscriptions (1779-1785)", Journal (1785-1789), Houilles, Editions Manucius, 2006, pp. 31-32.

¹⁴¹ يعتبر "De La Bretonne Rétif" بين الكتاب الفرنسيين الذين اتخذوا من الغرافيتيا وسيلة لتسجيل حضورهم بالفضاءات الخاصة، فقد أشار الكاتب في مؤلفه السالف الذكر، أنّه عزفت على جدران العديد من المدن التي زارها، منها باريس، وجزيرة "l'Ile Saint-Louis" التي مكث بها حقبة من الزمن، حتّى لُقّب أطفالها بـ "Le Griffon"، ومعناها "الشخص الذي يَخْدشُ الصخرَ بِمِثْقَفٍ".

¹⁴² Ian Ashley & al, "Graffiti at UBC: A Sociological analysis of graffiti". <https://circle.ubc.ca/bitstream/handle/2429/28729/GraffitiatUBC.pdf?sequence=1>. Consulted: 10/01/10.

¹⁴³ وتذكر المراجع بأنّه في 1808 أصدر "تابليون بوناپارت" أمراً بتهديم "La tour de Temple" أين تمّ سجن العائلة الملكية بعد الثورة، حيث عُثِرَ على غرافيتيا على جدار إحدى زنازانات السجن، من توقيع البنّيت الكبرى للملك "Louis XVI" الأميرة "Marie Thérèse"، نوردها باللغة الفرنسية للحفاظ على دلالتها المُعبرة.

" Marie Thérèse Charlotte est la plus malheureuse personne du monde. Elle ne peut obtenir de savoir des nouvelles de sa mère, pas même d'être réunie à elle quoiqu'elle l'ait demandé mille fois. Vive ma bonne mère que j'aime bien et dont je ne peux savoir des nouvelles. O mon Dieu, pardonnez à ceux qui ont fait mourir mes parents, Ô mon père veillez sur moi du haut du ciel. Ô mon Dieu, pardonnez à ce qui ont fait souffrir mes parents».

البيت غائب، أو أنّ المنزل يَقطنُهُ النَّساء فقط وسهل الاقتحام من السّطح. كما أشارت بأنّ أوّل وَصْفٍ لهذه الرُّموز المشقّرة كان خلال القرن: XIX بالنّمسا من طرف "كاتب الضّبط" "كارمير Karmeyer"¹⁴⁴.

تركزت الدّراسات على منتصف القرن العشرين باعتباره بداية انتشار الممارسة بالتجمعات السّكنية، خاصة من طرف الأقلّيات التي كانت تقيم بالأحياء الشّعبية، وتضم فئات الفقراء السّود والمهاجرين متعدّدو الإثنيات، خاصة "الشّباب" منهم. حتّى أضحت "باريس" من البُورّ الغرافيتية المهمّة في العالم، بعدما تحولت الغرافيتيا لوسيلة مباشرة لرفض قيود وسلاسل نظام الضّبط والانضباط المجتمعي، والبحث عن الحرية. لاحظ الصورة التالية (أنظر الحيز الأصفر).



الصورة 12: "ممنوع المنع"/محطة المترو "Ledru-Rollin" (باريس) أبريل 2011)¹⁴⁵.

فضائيين أساسين كانا مسرحًا لتفشي الظّاهرة، الأحياء الجامعية والأحياء السّكنية (HLM) التي يقطنها العمال الأجانب، إذ صرّح بعض المهاجرون الذين تمّ استجوابهم خلال دراسات ما ملخصه 'بأنّك إذا أردت أن تتعرّف على ما يجري في العالم من أحداث، فعليك أن تنزل إلى محطة المترو المُقابلة للحي الجامعي، مُلتقى الطّلبة الوافدين من مختلف أنحاء العالم، خاصّة في فترة الغداء أو العشاء، فتقرأ على الجدران المُتاخمة مختلف الأحداث العالمية مرفقة بتعليقات الطلبة'. أمّا بالأحياء العمال المهاجرين فقد انتشرت الغرافيتيا المعبّرة عن حالات الشّعور بالاغتراب والتّمييز العنصري والإحباط الذي يعيشونه. كما انتشرت نداءات "عنصرية" لمجموعات مناهضة لوجودهم وإقامتهم، خاصة من طرف اليمين المُتطرف. كما اعتبرت ستينات القرن الماضي فترة حاسمة في التّاريخ للظاهرة-كما اسلفنا الذكر- ففي مطلعها (1960) نشر "براساي Brassai" كتابه

¹⁴⁴ Denys Riout & Dominique Gurdjian & Jean Pierre Leroux, "Le livre du graffiti", ed: Syros Alternatives, 1990, p19. In: <http://www.editionsalternatives.com/site.php?type=P&id=115>. Consulté le : 4/05/2011.

¹⁴⁵ عنوان الصورة استقيناها من العبارة التي انتشرت خلال ثورة ماي 68 بفرنسا على جدران جامعة السوربون " Interdit " d'interdire. للاستزادة يمكن الرجوع للملحق رقم 4 الخاص بغرافيتيا ماي 68.

"Graffiti" ثمرة ثلاثون سنة من البحث حول الظاهرة، حيث قدّم الغرافيتيا كـ"فن راقٍ"، باعتراف مشاهير "الفن الرّسّي" على نحو "بكاسو"¹⁴⁶.

أ. الثورة الطلابية "العصر الذهبي" للكتابات الغرافيتية:

تعتبر الثورة الطلابية لسنة 1968 بفرنسا أوضح دليل يستند إليه الباحثون¹⁴⁷ في حديثهم عن هكذا ظواهر اجتماعية. حيث يعتبرونها مُطلقاً هاماً في تاريخ فرنسا ككل-وفي تاريخ ظاهرة الغرافيتيا بالأخص- إنّها "الأسطورة" التي يصفها السوسيولوجي "هينري موندراس Henri Mandras" بالثورة الفرنسية الثانية". فتموّعت الحركة الطلابية كقوة اجتماعية، يَسَرّت للباحثين فهم أهم التحوّلات العميقة التي حدثت للمجتمع الفرنسي خلال القرن العشرين¹⁴⁸. يصفها "سعد الدين إبراهيم" بقوله "إنّ سنة 1968 وضعت حدّاً فاصلاً في تاريخ السّياسات الديمقراطيّة، فسنوات التّوفيق الهادئة، والتّكامل والتّرويض وصلت أخيراً إلى نهايتها، وظهرت موجات جديدة من التّعبئة والتّعبئة المُضادة، أخلّت بتوازن عدّد من الدّيمقراطيات الغربيّة، وبرز جيل جديد تحدّى ما دعا إليه أفراد الجيل الأوّل وأساليهم. إذ أنّ الانفجار العنيف للقوى الجديدة لم يتحدّى نماذج ونظريات الخمسينات وأوائل السّتينات فحسب، بل فرض أيضاً إعادة تقييم أساليب جمع البيانات واستراتيجيات تحليلها"¹⁴⁹. ثورة خلّخت وزلّلت الأنماط التّقليدية للمجتمع، وخلّفت نتائج هامة على مختلف الأصعدة. والصورة التالية تختزل ما حدث.



الصورة 13: الثورة الطلابية ماي 68. شارع Gay-Lussac باريس (وضعنا "الغرافيتيا" في حَيِّزٍ، لإبرازها)¹⁵⁰.

¹⁴⁶ قال عنه الفنان "بيكاسو Picasso" بأنّه أهمّ الكتب التي قدّمت الغرافيتيا باعتبارها فناً راقياً، بطريقة رائعة.

¹⁴⁷ من بينهم: "م. تورني Maurice Tournier"، و"م. روهان Marc Rohan" و"أ.فيلبو Alain Vulbeau".

¹⁴⁸ Cohen Yolande & Weil Claudie, "Les mouvements étudiants : Une histoire en miette", le mouvement social, n° 120, 1982, pp.3-11.

¹⁴⁹ سعد الدين إبراهيم، "تأمل الآفاق المستقبلية لعلم الاجتماع في الوطن العربي: من إثبات الوجود إلى تحقيق الوعود"، نحو علم اجتماع عربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1986، ص ص. 346. 347.

¹⁵⁰ الصورة من موسوعة: ©1993-2005. © Microsoft ® Encarta ® 2006.

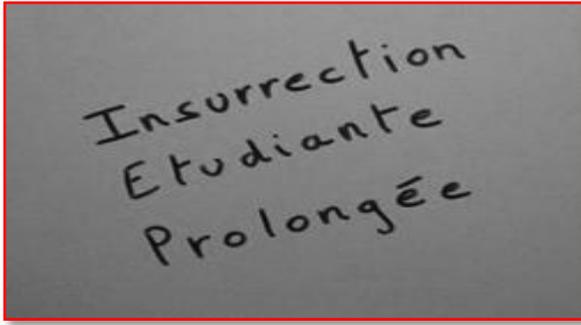
تموّعت "الكتابات الجرافيتية" كمؤشّرات قوية عن أحداث ومطالب الفئة الطّلابية، حيث انتشرت بمختلف الفضاءات والدّعامات. شغلت الباحثون علّماً تكشّف لهم 'الوجه الخفي' لها، والأسباب الثّأوية وراء هكذا "سلوك عنيف جداً"¹⁵¹. حيث أستخدمت للتّبشير لأفكار وقيم ثقافية جديدة، تنوّعت الرّسائل الطّلابية ما بين المطالب السياسية والاجتماعية والجنسية...¹⁵². كتاباتٌ انفجرت ضدّ ميكانيزمات اشتغال النظام (التقليدي) للمجتمع وللجامعة¹⁵³، مطالبةً بإعادة النّظر في علاقات السّلطة القائمة. وبالتالي أضحت هذه "الأيقونات الجرافيتية" كاشِفةً عن أفكار وآراء مجموعات طّلابية، تعيش ظروف قهرية واجتماعية وثقافية مُزرية. ومن بين الشّعارات التي جُمعت من على الجُدُر وما شاكلها، نقرأ العينة التالية:

"si vous avez des problèmes écrivez sur les murs"

« Abolition de l'aliénation

« Abolition de la société de classe »

« Ecrivez par tout »¹⁵⁴.



الصورة 14: دعوة للمقاومة الجرافيتية. الصورة 15: إصرار على مواصلة التّمرد الطّلابي¹⁵⁵

يصف "مارك روهان Marc Rohan" في متن كتابه "Paris 68"¹⁵⁶، الكتابات الجرافيتية بأنّها بسيطة، هدفت لتوصيل المقصود بطريقة مباشرة، مع ترجمات لبعض الكلمات للإنجليزية، ولم

¹⁵¹ رغم ذلك ساهمت هذه الثورة حسب اعتقاد "د. فيشر D. Fisher" بشكل قوي في إحداث تحوّل ثقافي لم يسبقه مثيل، إذ انتقد الأحكام التي ألصقت بها، خاصة تلك التي تذكر بأنّها ذات أبعاد سياسية.

¹⁵² نفس الأمر حدث بالمجتمع البرتغالي خلال ثورة القرنفل "la révolution des Œillets" (أبريل 1974)، ضد الديكتاتورية.

¹⁵³ كتب أحد الطلبة بكلية "Nanterre" نرفض أن نكون كلاب حراسة للمدينة، (يقصد إطارات وموظفين).

¹⁵⁴ للاستزادة يمكنك الرجوع للملحق رقم 4: غرافيتيا ماي 68.

¹⁵⁵ للاستزادة من النماذج المكتوبة يمكن الرجوع للملحق رقم: "Graffiti de Mai 1968" بالموقع الإلكتروني:

<http://metakiller.aceboard.fr/10517-489-23325-0-TOUTE-EPOQUE-SLOGANS-CHOC.htm>.

¹⁵⁶ Marc Rohan, "Graffiti, posters, newspapers and poems of the may 1968 events", London, Impact Books Ltd, 1988, 142p.

يكن الهدف سوى إبلاغ الرسائل إلى أصحاب الحل والربط، بعيداً عن التلاعب بالألفاظ، مع وجود بعض الكتابات التي تدعو للتّعقل والحكمة.

أما "موريس تورني Maurice Tournier"، فقد قارب الظاهرة من خلال كتابه الموسوم بـ "Les Mots de Mai 68"¹⁵⁷، حيث عمّد لتجميع العديد من المفردات والكلمات التي كُتبت استخدامها خلال الأحداث، مع تركيزه على المفردات السياسية والاجتماعية. ليخلص إلى أن الثورة الطلابية لم تُحدث تغييرات على المستوى البنيوي والمادي فقط، بل وقع ذلك أيضاً على المستوى اللغوي، لذا يمكن وصفها بالثورة اللغوية/اللسانية". فتحوّلت الجرافيتيا حسب "ريمون غالوا Raymond Gallois" لوسيلة فعّالة للتعبير الشخصي والجماعي، نظراً للظروف التي سادت المجتمع الفرنسي خلال الستينات من مظاهرات ضدّ الحرب، واضطرابات سياسية. ثورة خلخلة القواعد التقليدية القائمة، على مختلف الأصعدة. قواعد من شيمها التضييق -آنذاك- على ملكات التعبير الحر عن المكبوتات، ولعل الصورة التالية تلخص أهم مطلب شبابي (طلابي) في تلك الحقبة.



الصورة 16: تكميم الأفواه يُقلق الشباب¹⁵⁸.

بدوره اجتهد الباحث "حسان تليلي" في استجلاء بعضاً من مظاهرها، ضمن نظرية الاتصالات، وربطها بما سمّاه بـ'المقال/الخطاب الجداري Le discours mural'. وخلص بأنّ هذا الأخير يعكس آراء الشرائح الاجتماعية والأقليات المُهمّشة، التي لم يتسنّ لها التعبير الحر عن مكبوتاتها وآرائها، عبر قنوات التعبير الرسمية التقليدية، كالصحف، المجلات، التلفزيون، الإذاعة. مما جعلها وسيلة مباشرة لرفض قيود وسلاسل نظام الضبط المجتمعي، والبحث عن التحرر، فكانت الجرافيتيا وسيلة لذلك. وبأنّ "الجرافيتيا الفرنسية" شأنها شأن باقي المجتمعات الأوروبية الأخرى، عبّرت عن مشكلة الكبت الجنسي، والقضايا العامّة المرتبطة بالمشاكل التي يعاني منها الشباب (الطلاب والمهاجرون). الذين تمكنوا من إيصال آرائهم 'أحسن' من أولئك الذين انتهجوا 'الكتابة'

¹⁵⁷ Maurice Tournier, "Les mots de mai 68", Presse Universitaire du Mirail, 2007, 128 p.

¹⁵⁸ مصدر الصورة: <http://www.bregail.fr/archives2008/200805-Mai-1968.php> تاريخ التحميل: 09/2/9.

بالطرق الرسمية، الصحف، المجلات، الرسائل، البيانات... ذلك لأن الرسالة الجرافيتية تتسم بالاختصاص والقدرة على التبليغ المباشر للمعني، فليس هناك مقدمات ومعايير وقواعد يجب الإلتزام بها، كالرسائل الكلاسيكية، التي تستلزم مقدمة وتوسيع وخاتمة.

ب. وماذا عنها نهاية القرن العشرين؟:

في موضع آخر، يربط "ألان فيلبو Alain Vulbeau"¹⁵⁹ انتشار الظاهرة بإشكالية التنشئة الشبابية، الممارسة من طرف مؤسسات التنشئة الرسمية (خاصة المدرسة والجامعة)، التي تفرض على هذه الفئة أدواراً ومكانات مُسبقة التّشكيل (القَوْلبة)، دون إعطاء أهمية كافية لنا الشبابي وخصوصياته. مما يدفع هؤلاء للبحث عن طرق خاصة بهم للتعبير عن ذاتهم، ومنه عن مشاكلهم المعيشية، ومحاولتهم لخلق هويات متعددة، تساعدتهم للتكيف مع الأوضاع الاجتماعية، التي يجدون أنفسهم فيها يومياً، وذلك من خلال نموذج جديد للتنشئة الاجتماعية، متكيف مع عالم متغير، أين تكون الأدوار غير مُحددة مُسبقاً، ولكن حسب الظروف المُعاشة. ومنه تتحول الممارسة إلى تنشئة اجتماعية شبابية مُتميّزة ومُميّزة. يتم من خلالها نسج معالم هوية خاصة "هوية التّجاوز L'identité de dépassement"¹⁶⁰، وتبني الهوية الطّيف/الشّبح L'identité fantôme، تُمكنهم من تجاوز الواقع المُعاش بطريقتهم الخاصة، في مملكة الشّارع، حيث يعتقدون أنهم همّ "الملوك" فيها.

هذه الكتابات تساهم في تَجْيِيرِ محيط الفضاء المدني الذي يمتلكونه. هذه المراقبة الرّمزية للفضاء المدني، كثيراً ما تتراءى بكثافة بمدخل الميترويات وجنّبات محطات النقل، حيث يتم تَسْفِيرِ وترويج ملامح وعلامات الهوية الشّبح - الغير مفهومة للعامة- فردية كانت أو جماعية، يتم ذلك من خلال "الطّاق Tag"¹⁶¹ الذي يتضمن أسماء الجماعات. ويشير الباحث أنّ أوّل خطوات مقارنة الظاهرة، ضرورة الدّهاب إلى ما وراء هذه "الضّوضاء البصرية Le vacarme visuel"، والتّعامل معها على أنّها كتابة ذات معنى ومغزى يجب استكشافه. وبالتالي استكشاف ثقافة وهوية

¹⁵⁹ Alain Vulbeau, op.cit.

¹⁶⁰ Maurice Tournier, "Alain Vulbeau, Du tag au tag, In: Mots, juin 1991, n° 27, pp.117-118. In: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/mots_0243-64501991num2711617.

Consulté le :21/1/2009.

¹⁶¹ الطّاق/الطاغ/ الطّاك Tag: كناية عن توقيعات وإمضاءات سريعة "تُعرفت" على الحاملات، لتعكس اسم أو لقب أو كنية الفاعل الفردية أو الجماعية، أشهر "طاق" لـ "Taki 183".

مُمارِسها -الغرافيتيا- الذي يُلقبُه بـ"Scriptambule"¹⁶²، يحاول من خلال كتابات -غرافيتيا التّوقيع- الخاص به، التّعبير عن هويته الخاصّة، وذلك من خلال أسماء وألقاب لا يفقهها إلا من يَنْتَسِب لجماعته. ومن أمثلة ذلك حسب "A. Vulbeau": TAKI 183, JUNIOR 161, IRON MIKE, WASP, COOL HERE, FRANK 207, JULIO 204, MOE TR, ...SIN I, SAGE, BAMA¹⁶³.

ويَرْجِع أصل الظّاهرة حسب¹⁶⁴ لممارسة مستورة (وافِدَة) من أحياء مدينة 'نيويورك'، بداية العقد السّابع من القرن الماضي، أين بدأت مجموعات من شباب الأحياء الشّعبية خاصة زُمَر الشّباب السّود والإسبانيين والمكسيكيين، استخدام كل ما هو مُستوي للتّعبير عن مكبوتاتهم (العاطفية، السّياسية، العرقية، الدّينية، الجنسية...)، وإفرازها في شكل كلمات وصُور ورُموز هزلية ومثيرة، حيث اضطرتهم أوضاعهم المادية والاجتماعية للّجوء للتّعبير عن مَقْتهم لها، أمام استفحال اللّامساواة والتّمهيش والاستبعاد. واختلاق استراتيجيات خارجة عن إطار الثّقافة العامّة (الرّسمية). كانت الأنفاق والمترويات السبّاقَة في احتضانها، رغم ذلك ساهمت في اخراج تشكيلات إبداعية (صور ورسومات وتلوينات) ارتقت -في نظر البعض- لمرتبة العمل الفنّي. لها مكانتها المرموقة ضمن الإطار العام للأدب وللّفن الرّسمي. إذ بعدما كان يُنظر للممارسة كفعل غير حضاري، استطاع فَيَصَلُّ من الفاعلين -لكنهم قلة- إيجاد لأنفسهم "مكانة" ضمن الإطار العام للّفن، من خلال مُنجزات استطاعت استلهاهم ذوق المجتمع. غير أنّ الإشكال حسب "ألان فيلبو A. Vulbeau" ليس في تَقَبُّل وشَرَعَنَة بعض أوجه الممارسة، وعرض عيّنَة منها في صالات العرض الرّسمية، ولكن الأهم يتعلق بالجانب السّياسي والاجتماعي. هل فتحنا فعلاً قنوات الإنصات والاتّصال معهم، أم لا؟.

في محطة أخرى، يصف "مارتين لاني بايل Martine Lani-Bayle" هكذا ممارسة، بـ"فن مُتَشَرِّد Art vagabond" يهدف لخلخلة الحدود التّقليدية التي تفصل بين المركز والضّاحية،

¹⁶² Le Scriptambule :est un objet intelligent, créé par LOEIL (laboratoire objet espace intelligent langage) de l'Ecole d'Art d'Aix en Provence en 1997. qui se déplace lentement sur un sol sans accident, capable d'observer son environnement immédiat et de communiquer sa situation à l'aide =d'une caméra embarquée. Sa tâche essentielle est de tracer au sol son passage à l'aide d'un outil de marquage, et d'exécuter un graphe à partir d'un texte.

يعرفه بأنّه ذلك الشّخص "التّائه/ الهائم Un errant" الذي يَسْخَر و يَزْدَرِي من القيم الحضريّة لمدينته، حيث يدنّسها ولا يلي لها أيّة أهميّة، يقارباها بنوع من الغرّبة، يعبر عن ذلك بالفعل الغرافيتي، فينشر كتاباته على الفضاءات العامة والخاصة، التي يمكنه بلوغها، حيث يجتهد في انتقاء أماكن تجسيد كتاباته، على نحو محطات وسائل النقل، وبعض الأماكن العسيرة البلوغ للعديد من الأشخاص، ويهدف من وراء 'فعله' إمتلاك الفضاء الحضري، والتّعبير عن تيهانه.

¹⁶³ Alain Vulbeau, ibid.

¹⁶⁴ يرجع تاريخ أوّل مقال عن الظاهرة بالمجتمع الفرنسي حسب "ألان فيلبو A. Vulbeau" إلى سنة 1986.

وتفسير هُموم الممارسين عبر وسائل النقل المختلفة. مما يُضفي إلى التداخل وإلغاء الحدود التقليدية، وتكسير الجو المُقدّس لقيمة المركز بُولُوجِ قِيَمَة الضاحية فيه، بما تحمله من ملامح العيش المتواضع في غالب الأحيان¹⁶⁵. أما السوسيولوجي "ألان ميلو Alain Milon"¹⁶⁶ فقط لاحظ بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية- كما يذكر في مَتْنِ أطروحته الثانية للدكتوراه في علم الاجتماع، التي تمحور موضوعها حول تاريخ الفن¹⁶⁷- انتشاراً واسعاً للغرافيتيا عبر مختلف زوايا الشوارع والأنفاق والمترويات، التي بدأت بها سنة 1983 لتتدفق خارجها- بعد ثلاث سنوات- مما حقّزه لإستجلاء أواليات إستغالها. وبعد عملية تجميع المادة الغرافيتية، كَتَّفَ مقابلاته مع العديد من الممارسين، ذكر بعضهم، (Dee Nasty ، Bando ، Miss Tic ، Jérôme ، Mesnager). ليستخلص أنّ الظاهرة مؤشّر قويّ عن اختلال وظيفي حضري *Dysfonctionnement urbain*. يُتعامل معها رسمياً باعتبارها نوعٌ من أنواع التلوث المدني. يحاول من خلالها 'المُغْرِفِيتْ Le Graffeur'، الذي وَسَمَهُ بـ "الغريب L'étranger"، المفهوم الذي نَحَتَهُ "جيورج زيمل G. Simmel" باعتباره "نموذج سوسيولوجي *une forme sociologique*" يتموقع خارج القوانين المُتعارَف عليها اجتماعياً، ما دام حاول -ويحاول- حَصْخَصَة الفضاءات العامّة، الشّارع، الوسائل النقل، المترويات... التي ليست مُلْكَاً لأحد، بطريقة غير قانونية.

إنّها فضاءات عامّة حَصْخَصَهَا (شَيَّهَا) عن طريق الغرافيتيا -كما يقول- قد تُضفي بصاحبها لِحَدِّ الإصابة بمرض "هوسُ الكتابة Graphomanie"، وهو مرض سلوكي يتّصف فيه المريض برغبة قوية، مَهُوسَة للكتابة المستمرة على كل ما يَجِدُهُ¹⁶⁸. للإشارة يجب التّفريق بينها وبين "Agraphia" بالفرنسية "Agraphie" تعسّر الكتابة، ومعناها فقدان القدرة على الكتابة.

في لحظة أخرى، برع الباحث "بيار برتونسكي Pierre Bertoncini" من خلال موضوع رسالة الدكتوراه، تخصص أنثروبولوجيا، الموسومة بـ "الغرافيتيا والإقليم الكورسي"¹⁶⁹. حيث انطلقت

¹⁶⁵ Martine Lani-Bayle, " Du tag au graff 'art-Les messages de l'expression murale graffitée", Marseille, Ed. Hommes et perspectives, 1993, p41.

¹⁶⁶ Alain Milon, "L'étranger dans la ville: Du rap au graff mural", Sociologie d'aujourd'hui, Paris, PUF, 1999, 145 p.

¹⁶⁷ "L'Art de la conversation dans les manuels de savoir-vivre des XVII^e et XVIII^e siècles".

¹⁶⁸ Alain Milon, "Tag et graff mural, visage et paysage de la ville", Les Annales de la Recherche Urbaine, n°85, pp.140-147. URI : [http://www.annalesdelarechercheurbaine.fr /IMG/pdf/Milon ARU85.pdf](http://www.annalesdelarechercheurbaine.fr /IMG/pdf/Milon_ARU85.pdf). Consulté le :22/6/ 10.

¹⁶⁹ Pierre Bertoncini, Graffiti bombé et territoire Corse (1973-2003), thèse de doctorat d'anthropologie, l'Université de Corte, 2005.♣♣

من سؤال أساسي: ما علاقة الغرافيتيا بالقضية الثقافية الكورسية؟. ليطم صياغة فرضية مفادها أنّ الغرافيتيا المتناثرة بالمدينة هي انعكاس للصراعات بين المجموعات المتنافسة. للإجابة عليها اعتمد منهجية تقاطعت فيها مناهج الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، حول مسألة اللغة والثقافة الكورسية. لتخلص أن الغرافيتيا هي فعلا نتيجة العلاقات الصراعية بين الجماعات المتنازعة بالجزيرة. ومن أكثر المضامين الغرافيتية انتشارًا بالمدينة ما يسميه بـ"الغرافيتيا الوطنية Graffitis nationaliste"، بلونها الكورسيكي، مما جعلها وسيلة فعالة للتعبير عن خصوصيات الهوية الكورسيكية. تجسّدت من خلال تعابير وكلمات ورموز تدور في فلك الحرية والتحرّر. أبرزها كلمة "Libertà"، التي احتلت الجهات الأربع من الجزيرة.

لا تُكتب الرسائل الغرافيتية المُراد توصيلها بشكل عبثي، وإنّما يتم انتقاء أمكنة استراتيجية لوضعها، كمفترق الطرق، محطات القطارات، الحافلات ومداخل العمارات. بعضها -الغرافيتيا- يعود حسب المناسبات، ذكرى الاحتفال بالأعياد الوطنية، أو ذكرى وفاة شخصيات وطنية (القوميين). يُصنّف الباحث الفئات المُمارِسة إلى أربع فئات أساسية، فئة الطلاب، فئة المنظمات الشبابية، وفئة المنظمات النقابية، خاصة خلال الحملات الانتخابية للمجالس العمالية-وفئة مُناصرى فِرَق كرة القدم.

في الختام، نشير إلى أشهر محاكمة معاصرة بفرنسا كانت الغرافيتيا سببًا لها، تلك التي أُستخدِمَ فيها الدَمَ لَعَرَفَتَهَا. والمتمثلة في محاكمة المواطن المغربي "عمر رَدَاد Omar Raddad" البُستاني، الذي أُتِّمَ بِقَتْلِ مُشْغِلَتِهِ الفرنسية "Ghislaine Marchal" بتاريخ 24 جوان 1991، حيث عُثِرَ عليها مَيِّتَةً بِرُذْهَةِ مَنَزْلِهَا بمنطقة "Mougins". حيث تَمَّتْ إِدَانَتُهُ بِالسِّجْنِ لمدّة 18 سنة بِهَمَّةِ القتل العَمْدِي¹⁷⁰، إرتكازًا على العبارة الغرافيتية المكتوبة بجانب الجُتَّة، تقول "عمر قتلني Omar m'a tue". كَثُرَ السِّجَالُ حول القضية، ومن بين من إقتنع بِإِرْءَاتِهِ الكاتب "Pierre-Emmanuel Vaugrenard" الذي أُجْرِيَ تحقيقًا خاصًّا، تحول فيما بعد إلى كتاب، ثم إلى فيلم سنة 2011 بنفس العنوان¹⁷¹.

♣♣ = نُشِرَتْ سنة 2010 في كتاب بعنوان:

"LE TAG EN CORSE, analyse d'une pratique clandestine, Paris, L'Harmattan, 2010".

¹⁷⁰ لكنه أُفْرِجَ عنه بعد أربع سنوات وثمانية أشهر، نتيجة عفو الرئيس "جاك شيراك Jacques Chirac" بعد إلاح الملك "الحسن الثاني"، مُقَابِلَ نفس الطلب لحق شخص مغربي فرنسي مسجون بالمغرب. ثم أُعِيدَ فَتْحُ التحقيق من طرف "مجلس إعادة النظر في الأحكام الجنائية" بتاريخ 2000/2/2، بإِشْرَاقِ خِبرَاءِ الخَطِّ، لِلتَّحَقُّقِ ما إذا كان الخط هو حقيقة للسيدة المقتولة، ليخلصوا لصعوبة تحديد ذلك. وبعد تحليل "ADN" من شعرات وجدت بباب الردهة أُعلن أنها ليست للمتهم.

¹⁷¹ تحولت سنة 2011 إلى فيلم بوليسي بعنوان "Omar m'a tuer" إخراج "[Roschdy Zem](#)" وتمثّل "[Sami Bouajila](#)".

3.3.1.1. برلين محطة أخرى للظاهرة:

تعتبر ألمانيا حقلاً خصباً للجرافيتيا المعاصرة، سواء على مستوى الممارسة أو البحث العلمي، جعلت العديد من الشباب الألمان (الشرقيين والغربيين)¹⁷²، يُبدعون فيها. ويؤكد مؤرّخوها أنّها تعود إلى بداية الستينات، بعدم تشييد جدار برلين (جدار العار) سنة 1961 للفصل بين أبناء الشعب الواحد، فصلاً مادياً ورمزياً وثقافياً. وبينما مُنِع سكان ألمانيا الشرقية من الاقتراب من الجدار سُمِحَ لمواطني الغربية بالدُنُومنه، والتعبير جرافيتياً عن كل آرائهم وأفكارهم وآمالهم، التي توحى بالتباهي بالعظمة الغربية. حدث هكذا "فعل/ممارسة" ب"تواطؤ" السلطات المحلية التي انتزعت بسياستها لقب "الحكومة المتحرّرة"، والمنفتحة على حرية التعبير، تجسد ذلك ب"قبول" الشباب المُنبره آنذاك بالقيم الأمريكية المُسوِّقة ضمن أفلام "Beat Street" و"Wild Style"¹⁷³ بالكشف عن خصوصياته الثقافية" (المضادة في غالب الأحيان) حيث لُقبت برلين "بعاصمة الحرية".



الصورة 17: "جدار برلين" مكسُو بالجرافيتيا (الجانِب الغربي 1986)¹⁷⁴.

يُشير النُّقاد إلى أنّ معظم الدراسات السوسولوجية، النفسية واللِّسانية خلال الثمانينات¹⁷⁵، ركّزت في غالِها على الجرافيتيا السياسية، ومَرَد ذلك لطبيعة المناخ السياسي السائد آنذاك، حيث عرفت الساحة السياسية الألمانية إنبعاث قَوي لحركات ومُنظمات عدّة، منها حركات السلام، منظمات مكافحة الأسلحة النووية، حركة الإيكولوجيين (حزب الخضر Les vers)، الحركات

¹⁷² منهم: "Jumbo" و"Kreuzberg" و"Shek" و"Dane" و"Maxim" وغيرهم.

¹⁷³ "Le graffiti allemand chassé de son jardin d'Eden", en ligne: 23/10/2009. <http://panoramaurbain.wordpress.com/2009/10/10/le-graffiti-allemand-chasse-de-son-jardin-d%E2%80%99eden/> . Consulté le: 27/07/2011.

¹⁷⁴ مصدر الصورة: <http://de.wikipedia.org/wiki/Bild:Berlinermauer.jpg>، بتاريخ: 2011/7/5.

¹⁷⁵ تُعتبر مراكز البحث الألمانية رائدة في الدراسات المرتبطة بالظاهرة، لكن صعوبة اللغة حالت دون بلوغها، رغم محاولاتنا المتكررة في ترجمة بعضها ألياً.

النسائية،... أفرزت هذه الديناميكية أنماط سلوكية تعبيرية متنوعة، كان من بينها الممارسة الجرافيتية، التي استخدمت لنشر وتسويق شعارات وأهداف كل حزب ومنظمة.

كل هذا ساهم في إثارة السؤال العلمي، فظهرت دراسات جادة حاولت استكشاف مبررات وجود واستفحال هكذا ظاهرة، نذكر منها دراسة "هارد & ألو 1984" Müller 1985¹⁷⁶، و"نيومان Neumann 1986" و"كريزر Kreuzer 1986". أما اليوم، فالأمور تغيرت كما يعتقد "برندهارد فون تريك Bernhard van Treeck" إذ نلاحظ حضور محدود للجرافيتيا السياسية، مما يعكس تراجع نشاط وفعالية الأحزاب السياسية والمنظمات، وما ندرَ منها من توقيع مجموعات فرعية تأثيرها محدود، خاصة الشباب المراهق ومجموعات الأتراك¹⁷⁷.

على مستوى البحث عن "الشَّرْعَنَة" والاعتراف الرسمي، واحتذاءً واقتداءً بالتجربة الأمريكية، أعلن "بيتر كروزر Peter Kreuzer" رفقة مجموعة من رواد الجرافيتيا الأوروبية، سنة 1987، بـ "Munich" عن تأسيس "الاتحاد الأوروبي للجرافيتي (EGU) European Union Graffiti"¹⁷⁸. لكن رغم ذلك لم تتوقف سياسة "الردع والمتابعة". وبعد تزييب جدار برلين توجّه الجيل الثاني من المُعْرِفَتِينَ إلى محطات الأنفاق والمترويات، حيث تَفَشَّت الممارسة لِتَغزو العديد من تضاريس المدن الألمانية، أغلبها يعكس مطالب وآراء لم تجد لها مكانًا في سُلَم التَّليِّيَّة المجتمعية. جعل بعض الدّارسين الألمان ينجسون بجوهرها، خاصة في السّنوات الأخيرة -لم نستطيع الإطلاع على أغلبها لفقرنا للغة الألمانية- باستثناء بعض المحاولات من خلال ترجمتها ببرامج الترجمة الآلية " Google Traduction"، "professionnel Systran". وإن كانت الترجمة غير كاملة إلاّ أنّها قَرَّبَت لنا بعض الأفكار العامة.

على نحو فعاليات "المؤتمر العالمي لمكافحة الجرافيتيا" بتاريخ 2005/4/8، حيث دُعي إليه 200 باحث ومسؤول إلى "برلين"، التي قال عنها أحد مُنظِّمي المؤتمر بأنّها حبلت بأكثر من 50000 وحدة جرافيتية، وبأنّها من أكثر المدن العالمية معاناةً منها. إذ تمّ إيداع أزيد من 8000 شكوى لدى مصالح

¹⁷⁶ يَصِفُ الجرافيتيا على "أنّها أثر فردي وحَدَث اجتماعي في ذات الوقت".

¹⁷⁷ Sybille Metze-Prou & Treeck Bernhard van, "Pochoir, Die Kunst des Schablonen-Graffiti", Schwarzkopf, 2000, pp. 154 -155. En français : "L'art du graffiti de pochoir", ed: Schwarzkopf, 2000, pp. 154/155.

¹⁷⁸ Nadine Boese, "Graffiti Linguistik-Server Essen(LINSE)", Universität GH Essen, Fachbereich 3, FuB 6, 2003,p7. In: <http://www.linse.uni-due.de/linse/esel/pdf/graffiti.pdf>. Consulté le: 5/9/2011.

الأمن المختصة. وبلغت تكلفة التنظيف 50 مليون € عام 2004. فإحتدم النقاش حول الطرق المناسبة للتعامل معها بين مناصرٍ لتطويرها وشرعنتها، ومُنافِحٍ للقضاء عليها. فَخَرَجَ العشرات من الممارسين والمدافعين عنها في مظاهرات أمام مَقَرِ المؤتمر، رافعين شعارات مناهضة للسياسة المتبعة في التعامل معهم، وأنَّ محاربتهم أمر غير عادل، ولا يمكن التنازل عنها لأنها "مدرسة الحياة"، وبأنهم ليسوا مجرمين لِيُرَدَّعُوا¹⁷⁹.

مقابل سياسة "الرَّدع" انتهجت السلطات استراتيجية الاحتواء، بـ"شُرْعَنَة ومباركة" بعض الأعمال التي تدنو معاييرها من الذوق الفني الرسمي، أو التي تُستخدم في أغراض سياسية وتاريخية واقتصادية، على نحو جرافيتيا جدار الفصل، التي نقلت بعض أجزاءه المَكسُوة بالجرافيتيا لأماكن عامة لعرضها. من ذلك.



الصورة 18: قطع من "جدار برلين" المُعَرَّفَتِ الصورة 19: أجزاء "للجدار" مغطاة أمام البرلمان الأوروبي (بروكسل)¹⁸⁰. بالجرافيتيا بساحة Postdamer¹⁸¹.

4.3.1.1. جرافيتيا "موسكو" و "الثقافة الهامشية":

إن تَلَمَّس الممارسة الجرافيتية بالمجتمع الروسي -والسوفيياتي سابقاً- ليس بالعمل اليسير، ذلك لأنها ليس وليدة اليوم، ولا الأمس القريب، بل تعود إرهاباتها إلى العصور الغابرة، من خلال مخلّفات الإنسان في مَعَاوِرِ وكهوف عديدة، على نحو مغارات "كريف Kiev"، وفضاءات العبادة والقصور والسُجون.. أما اليوم فكثيراً ما تشير أدبيات الموضوع إلى انتحار الشاعر الروسي "سيرغي

¹⁷⁹ La Libre Belgique, Un congrès mondiale contre les graffiti. In : www.Lalibre.be/société/divers/articles/214373/uncongrès-mondial-contre-lesgraffiti. Consulté le: 13/5/2010.

¹⁸⁰ <http://fr.wikipedia.org/wiki/MurdeBerlin#AvantlaconstructionduMur.281945-1961.29>.

¹⁸¹ <http://panoramaurbain.wordpress.com/2009/10/10/le-graffiti-allemand-chasse-de-son-jardin-d%E2%80%99eden/07/8/>. Date de téléchargement : 1/5/11.

ألكسندر يسنين "Sergei Alexandrovich Yesenin"¹⁸²، الذي عرّفَت قبل موته بيّتين شعريين
بِمادّة مُلوّنة يقول فيهما: ليس جديد أن نموت في هذه الحياة
وليس أكثر جدّة أن نعيش.

سنحاول باختصار تلمّس خصائصها من خلال عمل الباحث المتمرس فيها "جون بوشنل John
Bushnell"¹⁸³. الذي يُعتبر أبرز المهتمين بدراسة التطور والتغير الاجتماعي والوقوف على محتواه
الثقافي وعلاقتها بالغرافيتي، حيث كانت "الكتابات Les graffiti(s) المُنشِرة بزقاق وردهات
مدينة "موسكو" المادة الأولى الخصبة لذلك، مبتعدًا -قدر الإمكان- على الطابع التّجميحي للمادة،
ليقارنها بمثيلاتها بمناطق أخرى من المعمورة، بعدما موضعها في بعدها الأركيولوجي من خلال
مكتشفات "مغاور كييف Kiev"، والمعابد والبيوت القديمة.

من حيث المسؤولية ألقى اللوم على النظام السوفيّاتي، الذي تجاهل انتشارها وأسباب تواجدها،
خاصّة الثّقافية منها، المرتبطة بجذور الثّقافة الشّعبية الغربية (خاصة "عصابات" وفرق الموسيقى).
عملياً، بدأ بنسج علاقات "حميمية" مع جماعة ممارسين تُلقب نفسها بـ "Snake-écrivains"،
كمحاولة منه للكشف عن الدوافع الثّأوية وراء "ممارستهم" -الغير قانونية-. إذ إنه جس بالبحث عن
العلاقة بين "نظام المدينة" و"الكتابة الغرافيتية"، ليؤكد تواسّج العلاقة بينهما. وكذا إيجاد إجابات
مُقنعة لدوافع انتشارها، في ظل "ثقافة القمع" التي اتّصف بها النظام الشيوعي لحرية التفكير،
وهوامش الحرية التي منحها الثقافة الرسمية للشعب، ودور الأجهزة الأيديولوجية في تكريس ثقافة
ليست بالضرورية ثقافة المجتمع.

أمام هكذا أوضاع، حاولت الغرافيتيا باعتبارها كتابات شبابية رافضة للوضع الجديد البحث
عن سُبُل لإخراج مكتوباتها، ولو خارج الإطار الرّسمي. تجلّت ملامحها في تلك التي عمّت واجهات
السّيّارات الخاصة من توقيع "العصابات Les gangs" الشّبابية، وتصوير أطرافها حسب أذواقها،
بلغات مُتعدّدة خاصة الروسية والإنجليزية، أوائل الثمانينات. حيث انتشرت ثقافة الموسيقى
الغربية الشّبابية، الثّائرة على المجتمع وقيمه المُهيمنة، على نحو فرقة "Rockand roil" وغيرها،
والتي احتضنها الشّباب بمضمونها الغنائي والثّقافي المُعبّر عن خصوصيات "الأنا" الشّبابي المُتميّز،

¹⁸² إسمه الروسي "Сергей Александрович Есенин" (1895-1927) شاعر ساخر، انتحر وعمره ثلاثون سنة. له
العديد من الانتاجات الشعرية، منها "Goodbye, my friend, good bye" 1925.

¹⁸³ حلّ "John Bushnell" ظاهرة الغرافيتيا الروسية، من خلال دراساته حول ممارسي الظاهرة بمدينة "موسكو"، نشر
نتائجها في كتابه الموسوم بـ: "Moscow graffiti, language and subculture" Routledge, 1990, 192 p.

حتى وإن وُجِدَت صعوبة في فهم محتواها في البداية. لترتفع "حُي" الكتابة بين المجموعات وحوّلت الجدران وما شابهها لِمَسْرَحِ مَفْتُوحٍ لِلصِّراعِ بينها، لعرض رموز تُمَجِّدُ "طَوَظْمِهَا الْمُبَجَّلِ" (المُعْنَى، المُمَثِّل، الرِّياضي).

للإشارة، استقصى "ج. بوشنل J. Bushnell" العلاقة بين الجغرافيتيا وشباب العصابات بمدينة "شيكاغو" أيضاً، مستعيناً بمساعدة السُّلطات الرِّسْمِيَّة، حيث مدَّته بالكثير من الوحدات الجغرافيتية التي جُمِعت قبلاً. والتي ربطها بقيمهم الثَّقافية في إطار "الثَّقافة المضادة Contre-culture"¹⁸⁴، ومقارنتها بنظيرتها بمجتمعه، والتي ربطها بتحوّلات النظام السياسي الرُّوسي، وطريقة معالجته للظاهرة. إذ استنتج أنّ الممارسة تنتشر في المجتمعات التي تأوي الجماعات المُتَمَرِّدة على النظام الثقافي الرسمي خاصة في مواسمها الغنائية والاحتفالية، مركزاً على صِفَتها الهامِشِيَّة - التَّهْمِشِيَّة-. تفاعل هذه المتغيرات أفرز ما سمّاه بـ"الثَّقافة الحضريَّة الهامِشِيَّة"، التي لأمسها دون فصلها عن الظُّروف والتَّحوّلات الداخليَّة والخارجية، التي طرأت على سياسات الحزب الحاكم، خاصة في "معضلة" حرية التعبير. واهتدى لِاستِجلاء الحدود المشتركة بين الثقافة الهامِشِيَّة ومكوناتها، وتاريخ "الكتابة الجغرافيتيَّة" العامَّة. فمن خلال هذه الأخيرة نستطيع تَفْهَمُ مكونات المجتمع الهامِشي، والقيم والمعايير المُشكِّلة لثقافته (خاصَّة عند المراهقين)، ومدى قُرْبِهِ أو بُعْدِهِ عن خصائص ثقافة المجتمع.

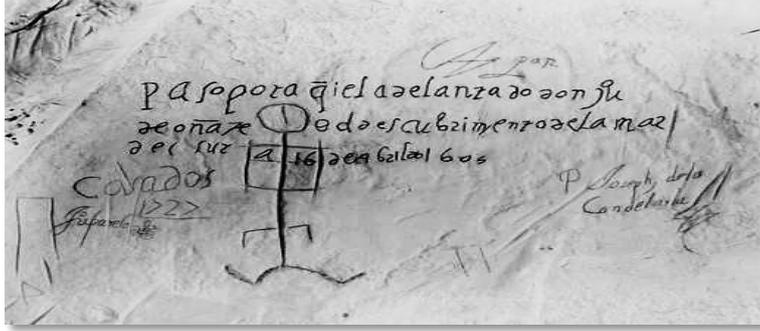
من المعروف أنّ أيّ نظام رسمي في أيّ مجتمع كان، يستثمر كل مجهوداته بُغْيَةً رفع و"تقديس" راية ثقافته وهويته الوطنيَّة، بخلق ميكانيزمات وآليات عدَّة لترسيخها بين كافَّة الفئات الاجتماعيَّة، مقابل ذلك يجتهد في تصوير "نموذج الآخر" (الغربي) على أنّه ساذج، وبعيد عن الواقعية، واحتقار ثقافته. فكل ما هو "روسي" هو جميل ومُعَبَّرٌ ومُبَجَّلٌ، وكل ما هو غربي- أمريكي- فهو ذَمِيمٌ ومُعتَلٌ ومُدنَّسٌ. إلّا أنّ الممارسة الجغرافيتية خَلَخَلت الموازين، بالاستخدام الواسع لِلغة الإنجليزية خاصة - أيقونة أيَّة هوية وطنيَّة- ومنه للقيم الثَّقافية الغربيَّة (الأمريكية). وإن استطاعت هذه المجموعات أن تَبْتَدِعَ لُغَةً تُمَيِّزُهَا سوسيوولوجيا، إذ لم تكن لغة إنجليزية أكاديمية فُحَّة، نظراً للأخطاء الكثيرة في تراكيها اللُّغوية، وكأنَّهم أرادوا تشكيل "معجمهم" الخاص بهم، بعيداً عن كل ما هو رسمي، فهذه

¹⁸⁴ **الثَّقافة المضادة Contre-culture/Contreculture**: ظاهرة ثقافية ظهرت بشكل جليّ مع ستينات القرن الماضي، ويُقصد بها مجموع الممارسات الثقافيَّة لجماعة ما، تُعارض أو تُضاد قيم الثقافة -الأيديولوجيا- السائدة والمُهَيْمِنَة. تبحث عن ترسيم وشرعنة قيم ومعاييرها الثقافيَّة (المحليَّة، الفنيَّة، الجليليَّة...). على نحو السود بالولايات المتحدة بُعيد الحرب العالميَّة الثانية، التي رفضت الإدماج القصري على حساب خصوصياتها الثقافيَّة.

"اللغة" أوضحت إشكالاً لم يفهمه حتى الطلاب الروس، الذين تعلموا الإنجليزية الرسمية بالجامعات، المتعارف على قواعدها النحوية. لغة لا "تُفقه" إلا من طرف موقّعيها.

5.3.1.1 إسبانيا محطة متأخرة للجرافيتيا:

بطبيعة الحال الجرافيتيا -التاريخية- ليست وليدة أمس القريب بإسبانيا، وإنما تعود بداياتها إلى عصور سابقة، حيث تطورت إلى أن أخذت ألوانها المعاصرة. والصورة التالية تجسّد لنا لحظة من لحظات تطورها.



الصورة 20: جرافيتيا تاريخية لـ1605، بمتحف "El Morro National Monument"¹⁸⁵.

يُجمع مُتتَبِعُو الظاهرة على أن وُلوج الممارسة بشكلها المعاصر للمجتمع الإسباني بدأ مع مطلع الثمانينات، حيث تجاوزت طابعها "التّخريبي"، لتظهر إنجازات متنوعة، مُتأثّرة بخصائص الجرافيتيا الأمريكية "الفن الجرافيتي". فانتشرت بالمدن الإسبانية، وزاد الإقبال عليها، خاصة من طرف بعض "الرّسامين التقليديين" لأنّها مؤشّر ايجابي على حدّاتهم الفنّية. لكن، مع بداية التّسعينات تراجعت الممارسة بالعديد من المدن لتتّحصر في بعض الأماكن، خاصة الأحياء الشّعبية الفقيرة والمهاجرين. نتيجة مردودية سياسة الرّدع التي أتت أكلها وثمارها، لكن ليس كل حينٍ. إذ ما فتّنت أن عادت بقوة مطلع القرن الواحد والعشرين، بمضامين جديدة تتلاءم والسّلع الثّقافية المُسوّقة، خاصّة أغاني الرّاب والهييب هوب.

كان وراء هكذا "إنتشار" تنامي تسويق الصّناعة الأمريكية المُروّجة لهذا النّوع من الفن- الذي كان إلى عهد قريب يُصنّف في خانة اللّارسمي¹⁸⁶- والتي اعتمدت على الجرافيتيا لإستدراج وإستثارة "المستهلكين" للإقبال على مُنتجاتها الجرافيتية. وفق مبدأ "حلال علينا حرام عليكم"، حيث تمّ استخدام اللّارسمي (الرّاب والجرافيتيا) لتسويقه عبر الرسمي (مؤسسات الإنتاج والتّوزيع الرسمية)،

¹⁸⁵ مصدر الصورة، بتاريخ 2011/7/5:

http://home.nps.gov/applications/hafe/hfc/npsphoto4h.cfm?Catalog_No=hpc%2D000158

¹⁸⁶ يُعزّي بعض المحلّلين هذا السلوك إلى نتائج العولمة الثّقافية، فما كان هامشي غير شرعي أضحي اليوم كذلك.

من أجل إستجلاب المنفعة (الريح). فَرَاغَ هؤلاء (المستهلكين) على الجدران وما شاكلها للتعبير عن هذا الإفتتَان بهؤلاء "المُغنيين" الذين شعروا أنهم يحملون جزءًا من معاناتهم ويستشرفون آمالهم. وذلك بِنَسْخِ أسماءهم وصُورهم وعناوين أغانيهم أو مقاطع منها.

كما انتشرت 'كتابات سياسية/وطنية' بمنطقة "كاتالونيا Catalonia" تطالب بالانفصال والاستقلال عن إسبانيا، وتُشهِرُ لمعالم هويتها الوطنية الخاصة ("كاتالونيا دولة"، "تحيا كاتالونيا مستقلة"...). للإشارة باقي البلدان الأوروبية لم تحد عن القاعدة، حيث انتشرت الممارسة الجرافيتية بمختلف التّضاريس، خاصة في لونها المعاصر الفني. هذه بعض المحطات العالمية للممارسة، ننقل اللّحظة لإستجلاء ملامحها بالمجتمعات العربية عامة والجزائري خاصة.

4.1.1. إرهابات الظاهرة بالمجتمعات العربية:

والآن سنحاول تَلْمُسُ إرهابات الممارسة الجرافيتية بالمجتمعات العربية عامة، الجزائري خاصة. بالوقوف على جذورها التّاريخية أولاً، ثمّ مؤشّراتها المعاصرة ثانياً.

1.4.1.1. جذورها التّاريخية:

يُرجع بعض الدّارسين إرهابات الظاهرة بالمجتمعات العربية إلى العصر العباسي بعد إقامة نظام العَسَس -مرافبة حرية الاشخاص-، بينما يتراجع آخرون كرونولوجياً، ويؤكدون أنّها تعود لعصور ما قبل التّاريخ، تجلت في التّقوش الجائمة على الصّخور والكهوف والمغارات، على نحو جرافيتيا منطقة الطاسيلي بالجزائر، أو "المَسَاك" بليبيا و'هَرَم سَقَاة Pyramid Sakkara بمصر... لكن، ما يلاحظ عن الدّراسات الخاصة بالظاهرة عربيًا نُدرتها الجليّة، ما عدا قلّة تُعدّ على أصابع اليد، وأكثر من ذلك حتّى هذه القلّة معظمها من إعداد باحثين أجنب.

2.4.1.1. وضعيتها المعاصرة من خلال أشهر الدراسات:

تعتبر دراسة السوسولوجي المصري الدكتور "سيد عويس" من أولى الدّراسات في هذا المجال، وسَمَّها بـ"هُتَاف الصّامِتِين: ظاهرة الكتابة على المَرَكبات في المجتمع المصري المعاصر"، إذ تَرَصَّد ظاهرة الكتابة على السيّارات ما بين 1967 و1970 (عَقِب النَّكْسَة). وجمّع بعض الأمثال الشّعبيّة التي 'كتَبَهَا' السّائقون بُعيد النَّكْسَة على سيّاراتهم الخاصّة¹⁸⁷ (ألف عبارة)، ليُصنّفها إلى ثلاثة أشكال، الأشكال الشّعبيّة، تَضَمَّنَت مقاطع من الأغاني المصريّة الشّعبيّة، وتحذيرات وأمثال ونصائح،

¹⁸⁷ بدوره نشر أستاذ علم الاجتماع "علي المكاوي" دراسته "ظاهرة الكتابة علي العملة الورقية" أرجع فيها أسباب تفشي الظاهرة إلى تزايد تعدّد فرص الكسب والانفتاح على العالم الخارجي خلال سبعينيات القرن العشرين، كانت سببًا في أنّ تتحول العملة الورقية لعنصر ثقافي جديد ضمن عناصر العادات الشّعبيّة، كاحتفال بالسبوع، وعيد الميلاد، والزواج....

والأشكال الدينية، المتضمنة لدعوات وإبهالات وآيات قرآنية وإنجيلية وأحاديث نبوية، وأشكال أخرى، تنوعت ما بين النزوات والمواقف الشخصية كدرء الحسد والعين والخوف، وحب الوطن، فلسطين...¹⁸⁸.

أما أستاذ علم الاجتماع الدكتور "شريف عوض" فقد أرجع أسباب تفتي الظاهرة إلى الكبت (السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي، الجنسي)، الذي يعيشه المواطن المصري، كبت تحول إلى حالة التفريغ عن الذات في شكل تعبير كتابي. بالإضافة إلى أسباب ثقافية متجذرة في البيئة الثقافية المصرية التي تدفعه لمحاولة تخليد ذاته، أمام انهجاسه المزمين بالآخر، إذ يحاول أن يوصل له رسالة 'أبعد عن طريقي'. ويضيف بأنه يمكن للمسئولين أن يتعرفوا على مشكلات المجتمع من خلال هذا النوع من التعبير. لكن غم ذلك، سقط في شرك الأحكام القيمية، حينما اعتبرها (الظاهرة) سلبية لا تعدو كونها مألوثات بصرية.

تنفرد دراسة "جون.أ.بايتز John A. Bates" و"مايكال مارتن Maechal Martin" بإحدى الجامعات العربية (سنة 1980)، بمراحيض الطالبات والطلبة، حيث استجمعا جُلّ الكتابات الجائمة على الرُكائز المتواجدة بها. معتمدين على المنهج المقارن للمقارنة بين "غرافيتيا الذكور" وغرافيتيا الإناث". لأتتها مؤشرات فعالة لـ"مواقف" محددة حول العديد من المسائل. ليستنتجا أنّ نسبة الإناث اللواتي يلجأن لممارسة الغرافيتيا أكبر من نسبة الذكور¹⁸⁹. والمضمون الأكثر حضوراً عندهنّ هو موضوع "الجنس والعاطفة"¹⁹⁰. جاءت نتائجها مُغايرة لنتائج بحث سابق للباحثان "روبرت أوجين ليتل Robert Eugene Little" و"ماري آن شبل Mary Ann Sheble"، شمل 382 وحدة غرافيتية، خلصت أنّ نسبة الذكور الممارسين للغرافيتيا تتساوى مع نسبة الإناث¹⁹¹. تمت معالجة النتائج ارتكازاً على نظرية التنشئة الاجتماعية على أساس الدور الجنسي La théorie de la socialisation des rôles sexuels. والآن سنترصدّها من مجتمع لآخر بنوع من التفصيل.

¹⁸⁸ كمال سالم عوض، "مكتوب على جدران التوك توك♥"، بحث اجتماعي ساخر، مصر، السلسلة الثقافية كتاب اليوم، ص19-20-21.

♥التوك توك tuk-tuk، مركبة نارية ثلاثية العجلات (Auto Rickshaw)، مركبة "الريكاشة" اليابانية القديمة التي كان يجرها سائقها. تستخدم للتنقل بالأجرة. تنتشر بالبلاد الآسيوية والعربية، كمصر والسودان. تتسع لراكبين أو ثلاثة بالمقعد الخلفي.

¹⁸⁹ John A. Bates & Michael Martin, "The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes", The Journal of Sex Research, vol 16, 4, 1980, pp. 300-315.

¹⁹⁰ عكس نتائج دراسة "سيد عويس" (خلال السبعينات)، حيث سجلت غياب شبه تام لهذا النوع من الكتابات .

¹⁹¹ Robert Eugene Little & Mary Ann Sheble, "Graffiti vandalism: Frequency and context differences between the sexes", American Journal of Criminal Justice, 11, 1987, pp. 217-226.

أ. الوظيفة "الأيدولوجية" للجرافيتيا اللبنانية:

من أبرز الباحثين الذين تفتنوا للظاهرة وتجلياتها في المجتمع اللبناني، "خليل أحمد خليل" الذي عمّد لتجميع وتحليل تلك الكتابات التي انتشرت بكثافة بعد أحداث 1975-1976، وإن كانت إرهاباتها قد وُجدت قبل ذلك، حيث إتخذتها الأحزاب والطوائف والميليشيات اللبنانية كوسيلة تعبيرية، طرحت من خلالها هُومومها العقائدية والأيدولوجية ومفاهيمها السياسية. ولكن مع بداية الحرب الأهلية تنامت الظاهرة كالفطرِ Pousser comme des champignons إذ مسّت معظم المدن والقرى اللبنانية، لتتحول إلى ظاهرة شعبية.

فعلى حدّ تعبير "خليل أحمد خليل".."فإنّ لبنان المتقدم عربياً وعالمياً بصحافته الوردية، صار في مقدمة بلدان العالم من حيث الصحافة الجدارية، بكافة مظاهرها الكتابية والمُصصقات المكتوبة على الجدران والشّارات المرسومة¹⁹². كما تميّزت الظاهرة في المجتمع اللبناني بكونها حوّلت الجُدروما شاهها، من كونها مُتنفّساً للمعارضة فقط، إلى جدار للجميع، فمن اليمين إلى اليسار إلى الوسط إلى اللأمُنتمين، وفي المقابل بدأت "الكتابات العقائدية" تَخْتفي، لتعوضها كتابات سياسية. وقد صنّفها الباحث إلى:

الكتابات الشّعبيّة: تشكلت لتعبّر عن بعض ملامح الهوية الشّعبيّة، مع تغييب مقصود للجهة المُوقّعة لها، كما استخدمت الأمثال والحكم، الرّموز الشّعبيّة والتقاليد.. في ممارسة الانتقاد السياسي والاجتماعي للواقع اليومي، لتعكس مدى السُخط على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (خاصة سياسة الحكومة)، كما دعت للوحدة الوطنية.

الكتابات اليساريّة: طرحت قضايا أساسية عكست نظرة الاتجاه اليساري وفصائله لما يُعتمَل في الساحة السياسية. كما ركّزت على حيثيات تطورات القضية الفلسطينية. من أبرز مفاهيمها الجماهير، السّلطة الرّجعية، السّلاح، المقاومة...

الكتابات اليمينيّة: لُقبت أيضا بالكتابات الطائفية، لم تكن معروفة قبل الحرب، وتميّزت باتجاهات أربعة: الدّعاية، التّعبيّة، التّعصب والعداوة للعروبة¹⁹³. كما يمكننا استجلاء وظيفة "الكتابات الجرافيتية" في تحديد وتسييج الصّراع الأيدولوجي والعقائدي، خاصة خلال الحرب

¹⁹² خليل أحمد خليل، "الشعارات والصحافة الجدارية في كتابه مبني الأسطورة"، دار الحداثة، بيروت، 1979، ص242-251.

¹⁹³ المرجع نفسه، ص245.

الأهلية اللبنانية 1975-1990، من دراسة قام بها "ميكائيل دافي Michael .F. Davie"¹⁹⁴. التي حلّت من خلالها العديد من "الكتابات" المنتشرة بالمدن اللبنانية، وبالأخص بالعاصمة "بيروت"، الجاثية على الجدران والأبواب وواجهات المحلات.. وخلص بأنّها (الغرافيتيا) بمثابة مُحدّيات ومَعالم جغرافية تفصل بين المناطق الجغرافية، ومنه المناطق الأيديولوجية التي تُسيطر عليها المجموعات. إذ بإمكان المتأمل لهكذا غرافيتيا، أن يدرك من يُهيمن ويُسيّر هذا الإقليم. وما هي مرتكزاته العقائدية والأيديولوجية للجماعة أو الحزب أو الميليشيات المُهيمنة عليه¹⁹⁵. عرفت الممارسة تطورًا ملحوظًا، حتّى أن بعض اللآفتات بلغت في ارتفاعها ما بين ثلاثة إلى ستة أمتار، مع إضاءتها ليلاً، كعلامة تُحدّد معالم هوية المُسيطر على الإقليم.

وُبُعِد الاجتياح الإسرائيلي للبنان (عام 1982)، طرأ تحوُّلٌ في المضامين الكتابية التي احتلت الجدران، وواجهات المحلات، الأعمدة الكهربائية و..إلخ. استعرض الباحث "بسام حجار"¹⁹⁶، بعض مظاهرها، لِيستنتج أنّ الجدار وما شابهه أضحى يُمثل ذاكرة شعبية، تخزن وقائع ثورة الشَّعب، واحتجاجاته على الوضع القائم. إذ تعتبر مدينة "صيدا" من بين الفضاءات الخصبّة التي احتضنتها إبان الاجتياح الإسرائيلي، حيث انتشرت العديد من الرّسائل المباشرة لأبناء الوطن وللعدو الإسرائيلي، مُطالبَةً كل أطراف الشَّعب بالمقاومة، بكل الوسائل (بالإضراب والمقاطعة والقتال). ومازالت الذاكرة الشَّعبية تحتفظ بحكاية المُعرّفت "أبو حيط" الذي سَطع لقبه بشوارع "صيدا"، وشكّل أسطورة للكتابات الجدارية اللبنانية. ورغم يفاعه سنّه -في ذلك الوقت (14 سنة فقط)- إلاّ أنّه استطاع رُفقة مجموعة من المراهقين أن يوصل بلاغاته، ويترك بصماته في أغلب شوارع المدينة، رغم كثرة الأخطاء الإملائية واللغوية في الكتابة، والمزاوجة بين العاميّة والفُصحي واللّهجات المحلية.

ومن هنا، يمكن القول أنّ مضامين الغرافيتيا في ظل الاحتلال طرحت مفاهيم مُغايرة لما كان في السّابق مثل الثّورة، الشّهادة، الإضراب، المظاهرة والتّحية للشّهداء وإدانة العلماء والرُّعاء على تماطلهم وعلى صمّتهم. ونفس المشاهد الكتابية، لُوحيّت خلال الاعتداء الأخير على لبنان (2006)، إذ انتشرت كتابات غرافيتية تدعوا للمقاومة والاتحاد ضدّ العدو الصهيوني، مع الدّعاء والتّرحم

¹⁹⁴ Michael .F. Davie, "Les marqueurs de territoire idéologiques à Beyrouth, (1975 – 1990), Affiche Urbaine/ Ndeg.02, (Groupe Eidos et DOS et Maison des Science de la ville Tours), Département de Géographie, Université François-Rabelais, 1992.

¹⁹⁵ بنفس المقاربة، قامت الصحفية اللبنانية "ماريا شخورة" بجمع الشّعارات التي عمّت جدران المدن اللبنانية خلال الحرب الأهلية، في كتاب عنوانته بـ: "حرب الشّعارات، لبنان 1975-1977"، الصادر عن دار النهار، 1978.

¹⁹⁶ بسام حجار، الشّعارات على الجدران، حروب الغثيان و أخطاء الإملاء، الحياة، عدد 9557، 1989.

على الشّهداء، خاصّة من فصيل "حزب الله"، كما اكتسح اسم زعيم حزب الله "حسن نصر الله" الفضاءات الحضريّة والقروية. هذا بالمجتمع اللبناني، فماذا عن المجتمع الفلسطيني؟.

ب. الممارسة الفلسطينية و"غرافيتيا المقاومة":

تعود ممارسة الكتابات الغرافيتية بلونها المعاصر إلى منتصف ستينات القرن الفائت، حيث اتخذتها المنظمات الفلسطينية وسيلة للتّشهير بشعاراتها الأيديولوجية، مستثمرةً مختلف الوسائط (الحديدية، الإسمنتية، الخشبية)، لنشر أخبار نضالها السّياسي والعسكري ضدّ المحتل الصّهيوني. كما أستخدمت لإعلان أخبار مواعيد المظاهرات والتّجمعات وأماكنها، إنّها وسيلة الإعلام الحجريّة عند الباحثين¹⁹⁷.

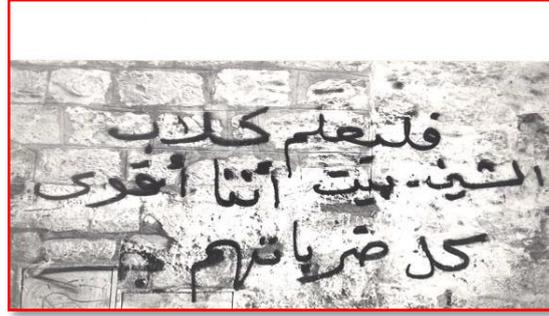
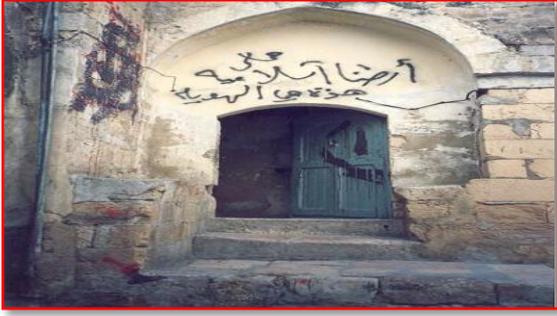
لكن، بعد إنطلاق شرارة الانتفاضة الأولى (1987)، همّت حركات أخرى لإستثمار الكتابة الجدارية للتّشهير بمبادئها الأيديولوجية السّياسية، أبرزها لحركتي "حماس"، "الجهاد الإسلامي"، التي غالباً ما كانت تتصدّر رسائلها بالشّعارات التاريخيّة والآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، وبعض مقاطع الأناشيد والأشعار الإسلاميّة، وتُذيلها بتوقيع "حُراس المسجد الأقصى". كتابات تصفّ الانتفاضة بأنّها انتفاضة "إسلامية"، "مباركة"، وبأنّها "ثورة مساجد" و"حرب عقائدية"، وأنّ إستمرارها "قَدْرَبَانِي"، شعاره "الله أكبر"، وأنّ الإسلاميين هم الذين "فجروها".

ومن أسباب إستفحال الظاهرة بالمجتمع الفلسطيني غياب/تغييب وسائل الإعلام، التي لم تستطع النّفادَ إلى الرّأي العام، نظراً للملاحقات الشّريسة لسلطات الاحتلال لها، واعتقال صحفها، وإغلاق مَقَرَّاتها، وتشديد دائرة الرّقابة عليها لمنعها أو تأخير نشرها. هذا ما خلصت إليه دراسة "بول ستانبيرغ Paul Steinberg" و "أ. أوليفي A. Olivier" حول غرافيتيا زمن الانتفاضة الأولى، بأنّ من أهم دوافع إلتجاء الفلسطينيين لها، فقدانهم لوسائل التّعبير الحر. فكانت لهم الجدران ملاذاً للتّعبير عن مشاعرهم وانتفاضتهم ضدّ المحتل الإسرائيلي¹⁹⁸. حيث يُلجّ الباحثان على الأهمية العلميّة للغرافيتيا الفلسطينية بقولهما "أصبحت قراءة الكتابة على الجدران ضرورة لا غنى للفلسطينيين عنها، فبعدما سُدّت في وجوههم جميع قنوات الاتّصالات الرسميّة بشكل مُحكّم، أخذوا ينقلون أفكارهم ورموزهم عبر الوسيلة العريقة، وإن كانت فضّة، ألا وهي الكتابة على

¹⁹⁷ د. أنمار مطاوع، "الكتابة على الجدران.. وسيلة الإعلام الحجريّة"، جريدة عكاظ، العدد 2261، 2007/8/26.

¹⁹⁸ Paul Steinberg & Olivier .A, "The Graffiti of the Intifada: A Brief Survey, Jerusalem, Passia Palestinian Academic Society for the study of International Affairs, July 1990, 56 p.

الجدران"¹⁹⁹. هذه عيّنة، الأولى رسالة موجّهة للشرطة الإسرائيلية (الشّين بيت Shin Bet)، والثانية تأكيد لهوية المجتمع الفلسطيني في نظر 'حماس'.



الصورة 21: الرسالة موجّهة "للشرطة الإسرائيلية" لصورة 22: حماس: "هذه أرضنا الشّين بيت shin Bet".
اسلامية الهوية"²⁰⁰.

كان الجدار-وما ناب عنه- المَلأذُ الفَعَال لنقل مُجريات الواقع المُعاش، فإكتسب وظيفة إعلامية بامتياز، جعلت بعضهم يصفه بـ"جريدة الشّارع"، وأضحّت المنظمات المحلية تستخدمه لتوصيل الرّسائل التي لا تستطيع إيصالها عبر وسائل الإعلام المعهودة، فكانت استراتيجية تكرار الشّعارات فعّالة لأنّها تُمثل إحدى علامات الوجود والقوة في منطقة معيّنة، على نحو شعار "فتح مرّت من هنا" أو "حماس في كل مكان"، هذا ما أجج التنافس والصّراع بينها، جعلت البعض يحرص على مسح أو تلطّيح أو تشطّيب شعارات البعض الآخر²⁰¹. تشير بعض التحقيقات أنّ أعمار المُكلّفين بهكذا مهمة خطيرة (كتابة الشّعارات) تتراوح ما بين 13 و35 عاماً، مع تسجيل حضور مكثّف للفئة العُمرية 16-25 سنة، تتميّز بمستوى تعليمي مقبول. أمّا صياغة الشّعارات تتم وفق توجّهات

¹⁹⁹ Ibid. p.2.

²⁰⁰ الصورة من العينة التي جمعها الباحثان، من المرجع نفسه، ص47.

²⁰¹ بلغ ذروته سنة 2002، حيث أثير جدل حول أهميتها إثر وقوع أحداث عنف ليلة عيد الفطر، أدّت إلى سقوط قتلى وجرحى، بسبب شجار بين مؤيدين لبقائها (حركة حماس)، ومعترضين عليها (فتح). بين من يرى فيها ملامح للانتفاضة، ومن يعتبرها وسيلة تجاوزها الزمن. حيث قرّرت اللجنة العليا للقوى الوطنية والإسلامية على تنظيم يوم الثلاثاء (17-12-2002) حملة وطنية لتنظيف الشّعارات المكتوبة على الجدران، بدعوى أنّها وسيلة انقضى مفعولها، بل تسببت في إزهاق أرواح أبرياء. في المقابل رفضت حركة حماس التّوقف عنها بدعوى أنّها رمز من رموز الانتفاضة، إذ صرح "إسماعيل هنية" لـ"شبكة إسلام أون لاين. نت" قائلاً: إن هذه الخطوة تهدف لتوجيه سهم جديد إلى واحدة من مظاهر الانتفاضة الشعبية بعد مُضي عامين من الفداء والتضحية. وأنها وسيلة من وسائل إعلام الانتفاضة وصوت الشعب الفلسطيني، تجدد حيويته يومياً، وتنتقل للشّارع الفلسطيني أولاً بأول أخبار المقاومة وأنشطتها. في الجانب المقابل أكد أمين سر حركة فتح "أحمد حلس" أنّ =الكتابة على الجدران إحدى وسائل إعلام الانتفاضة في وقت لم يكن للفصائل وسائل أخرى. أمّا الآن فقد أصبح لكل فصيلة =عدّة وسائل، وأصبح للفضائيات متنسّع للفصائل لتعبّر عن مواقفها، وأي بيان يُنشر بسرعة البرق، إضافة للعديد من الوسائل التي تغنيها عن الكتابة على الجدران. (ياسر البنا، خلافاً فلسطينية على الجدران، غزة، 2002، موقع إسلام أون لاين.نت).

القيادات الميدانية. أثناء الكتابات تنقسم المجموعة إلى مجموعتين الأولى تقوم بالكتابة والثانية بالحراسة²⁰². مستخدمين عُلب الدُّهان، الأقلام العريضة، أو المسامير،..لتجسيها بخط عريض، على نحو الصورة التالية.



الصورة 23: "الجدار" صحيفة حركات المقاومة.

كما حظيت الممارسة الجرافيتية الفلسطينية باهتمام بعض الدارسين الفلسطينيين، نذكر من بينهم "محمد سليمان" في كتابه "إعلام الانتفاضة"²⁰³، حيث نَعَتَهَا بـ"صحافة الجدران"، عكس كافة مجالات الحياة الفلسطينية، مع طُغيان الطابع السياسي على مضامينها، إذ تُعبّر القوى السياسية الفلسطينية باختلاف منابعها الإيديولوجية عن آرائها ومواقفها اتجاه السياسة الإسرائيلية، والمطالبة بضرورة الصُّمود ومواصلة الانتفاضة مع إضفاء عليها أي الانتفاضة- طابع التَّقديس. ويعتقد الباحث أنّ صحافة الجُدُران تَتَّسِمُ بالإيجاز والبلاغة التَّرشيدية والإعلامية. وكل الجدران بالنسبة للانتفاضة صفحات للكتابة، تُوزَّع بطريقة تناسب مع هدفها، فَشِعَارَاتُ المقاومة والصُّمود تتركز في الأماكن العامّة، مثل أبواب المحلات التَّجارية وجدران البيوت. أمّا الشِّعَارَاتُ السِّلْبِيَّةُ والرَّسُومَاتُ الرَّمْزِيَّةُ فغالبًا ما تكون على جدران المراحيض العامّة أو حاويات القُمَّامَةِ. وعن أهميتها يقول: إنّ صحافة الجدران تعتبر من المواضيع الرئيسة التي تشغل بال الاحتلال، حيث أصدرت إدارة الحكم الإسرائيلي عدداً من الأوامر العسكرية، ومنها الأمر العسكري 1260 الذي يعاقب بالسَّجن لمدة خمس سنوات، أو غرامة مالية 1500 شيكل (ما يعادل 330 دولاراً)²⁰⁴. وكرد فعل كَتَبَ الجنود الصَّهْيَانِيَّةُ على قُمَّصَانِهِمْ عبارة "وُلِدْنَا لِنَمُوتَ" بالعِبْرِيَّة.

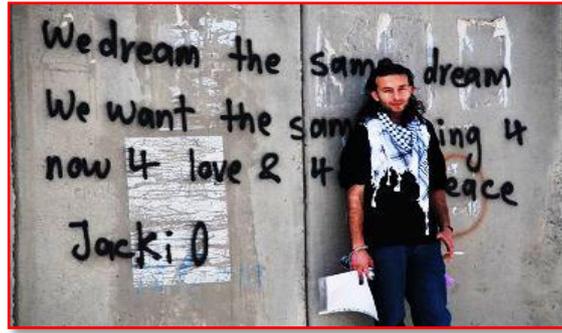
²⁰² الانتفاضة الفلسطينية الأولى/انتفاضة الحجارة". موقع الانتفاضة الفلسطينية الثالثة. www.3rdintifada.com.

²⁰³ سليمان محمد، "إعلام الانتفاضة تكاملية الأداء، فاعلية الإنتاج"، النهضة برس، نيقوسيا، 1991.

²⁰⁴ جمال الزرن، "الكتابة على الجدران والفضاءات الاتصالية" المهمشة"، صحيفة الأيام البحرينية، 2006/9.

<http://jamelzran.jeeran.com/archive/2006/11/124253.html> تاريخ الاطلاع 11/07/25.

خلال السنوات الأخيرة، برزت مجموعات شبابية²⁰⁵ تتماهى مع قيم ثقافة "الهييب هوب" العالمية، التي تجعل من الغرافيتيا ركنًا أساسيًا لثقافتها. تُحاول هذه الفرق الشبابية إيصال صوتها إلى باقي المجتمع الفلسطيني وإلى باقي العالم. إذ تمكنت من تشكيل هويتها المتميّزة. حيث يُعالج الشباب المُعْرِفَت²⁰⁶ في كتاباته المشاكل اليومية للشعب الفلسطيني، من الانقسام بين "فتح" و"حماس" إلى الاعتداءات الصهيونية على الأرض والعباد²⁰⁷. وعلى منوال العبارة التي تقول، مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد، كان لإنشاء جدار الفصل العنصري دور في تفعيل الممارسة الغرافيتية، إذ تحول لمكان خصب، سواء الفلسطينيين أو الأجانب (خاصة الأمريكيين والأوروبيين) منددين بسياسة الاحتلال والتّمييز العنصري



الصورة 24: غرافيتيا جدار الفصل العنصري من توقيع Jacki 0. الصورة 25: لوحة غرافيتية من توقيع فنان الشوارع الإنجليزي "Banksy" سنة 2005²⁰⁸.

ويقول عنها "محمود أقبيني" بأنّ "ظاهرة الخربشة على الجدران في التّجمعات السّكانية الفلسطينية، ظاهرة يرى فيها البعض أكبر من كتابات أو رسومات لِتزيين المكان، بل هي تعبير عن مكّامن اللاشعور لدى جيلٍ كاملٍ تَرَبَّى على القمع والاضطهاد، في ظلّ احتلال قاهرٍ، اغتصب الأرض والزّمان والمكان والهوية الفلسطينية. وما استتبعه من تردّي للوضع الدّاخلي مع الأسف الشّديد، إنّه الصّراع الدّاخلي، الذي دفع الشباب الفلسطيني إلى الشّعور بالاعتراب، مما أدى لظهور معلّمين

²⁰⁵ من بينها فرقة "صوت لا يقهر Ivoice" و"الكتيبة 5". تتواجد هذه الأخيرة في السّاحة منذ أكثر من 12 سنوات (إلى غاية 2011). تتوع في عملها ما بين الغناء والغرافيتي، أول جدارية لها تناول جدار الفصل العنصري.

²⁰⁶ من بين من برع في ذلك، شاب يُدعى "عبد الرحمن اليافاوي" من "يافا". 'عُرِفَت' العديد من اللوحات الغرافيتية بالمخيمات، أغلبها يعالج قضية حق العودة، من أهمها 4 لوحات كبيرة، ضمن جدارية بطول 160 مترا، تُعتبر أكبر جدارية في العالم العربي إلى غاية 2009.

²⁰⁷ هاني نعم، "جداريات تحكي عن العيش الصعب في المخيمات الفلسطينية.. وتبشر بالعودة"، جريدة السفير، العدد 11247، 16 آذار 2009.

²⁰⁸ <http://fr.wikipedia.org/wiki/Fichier:MrCana.Copyright2008...BanksiCopyright2008.jpg>.

Téléchargé le : 12/8/11.

أساسيين في التكوين السيكولوجي لهذا الشاب: الشعور بعدم الانتماء وتجسد المواطنة. من أسبابها "ثقافة الممنوع" ومقص الرقابة الإعلامية²⁰⁹.

في الختام، يجب الإشارة إلى أنّ ممارسة الكتابات الجدارية لم تقتصر على الفلسطينيين فقط، بل استخدمها الإسرائيليون أيضاً- الجنود والمستوطنين والعُمَّلاء-، خاصّة التي كُتبت زمن الانتفاضة الأولى والثانية، تتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي. سنسوق عينةً منها كما ساقها الباحثان "إبراهيم محمد" و"طارق محمد" في دراستهما²¹⁰:

"الحجر بالحجر" طريق رام الله نابلس. "الدم بالدم" طريق رام الله نابلس.

"ترانسفير- ترحيل الفلسطينيين" طريق رام الله عين يبرود.

وفي موضع آخر كتب الجنود الصهاينة على جدار إحدى المدارس العربية، عبارة: "أرض إسرائيل الكاملة". كتابات توجي للإسرائيليين بأن الفلسطينيين هم "المعتدون"، لذا يجب على الإسرائيليين الرّد على هذا "الاعتداء" بقوة.

ت. من الكويت إلى العراق الغرافيتيا وسيلة لمقاومة الاحتلال:

◆ **بداية من الكويت:** بُعيد احتلال العراق للكويت انتشرت كتابات على الجدران، تُندد بالحدث، على نحو: "لا للحكومة المؤقتة"، 'نعم لحكومة الكويت الشرعية'، 'الموت لهُدَام العراق'، 'عاش الشيخ جابر'، 'نعمل آل الصباح'، 'الموت للغازي المعتدي'، 'لا للاحتلال!.. تمكنت هذه الكتابات من تأجيج وتحريض الشعب الكويتي بطريقة فعّالة، مما أفاضت جُنود الطاغية' -الكلام للدكتور "محمد الدّمخي"، مؤلف كتاب "كويتي تحت الاحتلال"، فألقوا القبض على كل شخص يحاول أن يترك شعاراً، وسلّطوا عليه أشدّ العقوبات، إمّا يهدم بيته أو حرقه، أو حتّى إعدام صاحب البيت المكتوب عليه. ونشر "الدّمخي" وثائق مهمّة موجهة من مدير عام مكتب أمانة سِر القطر "محمد زمام عبد الرزاق" إلى المجرم "علي حسن المجيد" بتاريخ 1990/9/9. تُؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، تمسك أهل الكويت بقائدهم وأميرهم الشيخ "جابر الأحمد الجابر الصباح". كما تأمر الوثيقة المُوقّعة من طرف (المجرم) "سبعأوي إبراهيم"، مدير جهاز المخابرات، يهدم أو حرق كل منزل يُكتب على جدرانهِ شعار الكويت أو صورة الأمير.

²⁰⁹ محمود أقبيني، "ظاهرة الكتابة على الجدران: وإن اعتبرها البعض سلبية فلها ما يبررها"، شبكة فلسطين الإخبارية، 10/8/5.

<http://bzq-62-219-0-179.static.dcenter.bezeqint.net/index.php?option=comcontent &task=view &id=55226&Itemid=146>.

تاريخ الاطلاع: 2010/07/8

²¹⁰ إبراهيم محمد، طارق محمد، "شعارات الانتفاضة"، المركز الفلسطيني للإعلام، فلسطين، 1991، ص 153.

لعبت الكتابات الحائطية دوراً كبيراً أيام الاحتلال العراقي، فكانت بمثابة البوق الإعلامي الكبير للمواطن الكويتي، في ظل غياب/تغيب قنوات الإعلام الرسمي. ويجدر بالذكر أنّ السفارة الأمريكية بالكويت في مبناها القديم المُطل على شارع الخليج العربي قد غصّت -بعد تحرير الكويت عام 1991- بشعارات وعبارات الشكر والعرفان لأمريكا، وبوش الأب، مما حدا بإدارة السفارة بتثمين ذلك الأمر، وقامت بحفظ جزءٍ منها (الشعارات المكتوبة)، بتغليف الجدران بمادة النايلون، حمايةً لها من عوامل الطقس والتعرية.

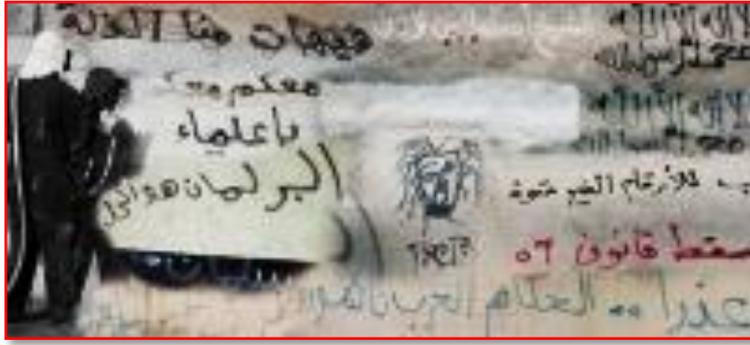
◆ ثمّ العراق حيث الجدار "مُدونة سياسية" بإمّياز:

يذكر الدكتور "محمد صادق محمد الكرياسي" في متن بحثه²¹¹ أنّ كتابة الشعارات الجدارية أو الحائطية وسيلة من وسائل المعارضة السياسية، وقد يظن البعض أنّ هذا الأسلوب حديث، غير أنّ إرهاباته تعود إلى أهل بغداد، إذ عبّروا من خلالها عن معارضتهم للسلطة العباسية، خاصّة في عهد الخليفة العباسي "المتوكل". ويصف ذلك بقوله "أنّه لمّا شاع ظلم" المتوكل"، وذاع خبر هدمه قبر سبط رسول الله (ص) بين الناس، كتب أهل بغداد ولأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، عبارات شتم على الحيطان، ومنذ ذلك اليوم أُستُخدمت كتابة الشعارات على الحيطان". كما شهدت الأيام الأولى من سقوط العاصمة "بغداد" شيوع أبرز شعار يدعو للوحدة العراقية "لا شيعية ولا سنية..وحدة وطنية". وبعدها انتشر شعار "مرحباً بالحرية".

كما شهدت جدران شوارع المدن العراقية في فترة لاحقة من سقوط بغداد، انتشار كتابات (إعلانات) تُعلن عن تشكيل أحزاب جديدة، واستعادة النشاط السياسي للتي كانت محضورة. وقد عمّدت جلّ الأحزاب والمنظمات الجديدة إلى تسويق وتسفير أفكارها وأهدافها باستخدام "الصحافة الجدارية"، والتي يمكن اعتبارها مؤشر (Indice) قويّ من مَناشير ظاهرة الظلم التعبيري والإعلامي، الذي يعيشه المجتمع العراقي في التعبير عن آرائه، بكل حرية²¹². وهذه عيّنة متعددة الدلالات والمعاني، تشهد على انتشار الممارسة الجرافيتية أيام الاحتلال الأمريكي:

²¹¹ كتابه الموسوم بـ: "ديوان القرن الثالث" ضمن سلسلة مجلدات دائرة المعارف الحسينية، عرض: نضير الخزرجي، إصدارات جديدة: تنضيد قوافي الوجدان في ترشيد المعارضة السياسية، شبكة النبا المعلوماتية، 2007، الموقع: www.annabaa.org تاريخ الاطلاع: 2010/12/12.

²¹² ينسحب الوضع على أغلب المجتمعات العربية، مع تفاوت الحال.



الصورة 26: إستغاثات سياسية على جُدُر مدينة بغداد.

يعتقد الباحث "جيورج زياد" أنّ من أكثر المضامين الجرافيتية انتشارًا بُعيد الاحتلال الأمريكي للعراق، المضامين السياسيّة. ويؤكد ذلك بقوله "أصبحت بغداد مدينة للكتابة الجدارية، إذ تستفيد الأحزاب السياسيّة -أزيد من 100 حزب- من حالة الفراغ السياسي الذي يعيشه العراق من دون حكومة مُنتخبة أو برلمان أو دستور..."²¹³. كما برزت كتابات تجسّد حالات الانقسام والتشرذم المجتمعي بين الطوائف والأحزاب، ومؤيدي التّدخل الأجنبي ومعارضيه،.. بكلمة واحدة، عكست فوضى وفتنة المجتمع العراقي التي مازال يدفع أثمانها.

ث. مؤشّرات الظاهرة بالمجتمع الجزائري:

بعدما اجتهدنا في ترصّد أهم خصائص ظاهرة الكتابة(ات) الجرافيتية (الجدارية) بالمجتمعات العربية، وخلصنا بأنّها ظاهرة قديمة جديدة معاصرة وبأنّها كانت وما زالت- وسيلة فعّالة لمقاومة الاستعمار. سنحاول تلمّس بعض مؤشّراتها بالمجتمع الجزائري.

◆ ملامح "الممارسة" خلال الفترة الاستعمارية:

تعود الملامح الأولى للكتابة الجدارية بالمجتمع الجزائري لبقايا الإنسان الأول، من خلال ما تركه من كتابات ونقوش صخرية بمنطقة الطاسيلي الأهمّار، "منطقة تاغيت"، "تيوت" وغيرها. والتي مازالت شاهدة على خصوصيات الحياة اليومية لتلك الحقبة²¹⁴. غير أنّ التّاريخ الأوّل للظاهرة، بمفهومها المعاصر، يمكن إرجاعه للفترة الاستعمارية الفرنسية، وبالضّبط لبدايات تشكّل الحركة الوطنية الرّافضة للوجود "الإستدّماري"، باختلاف وخلاف توجّهاتها، عبر مختلف المدن الجزائرية.

²¹³ George Ziyad, Iraqi Graffiti, World Press. 2003. Retrieved July 13, 2004. In : <http://www.worldpress.org/Mideast/1688.cfm> . Consulted:5/7/2009.

²¹⁴ للاستزادة يمكن الرجوع لكتاب:

Henri Lhote, " A la découverte des fresques du Tassili", (1^{er}éd1958), Arthaud, 1992,221 p.

حيث استعرض فيه الباحث وفريقه مئات الصّور الصّخرية التي أُكتشفت منذ 1933، بلغ ارتفاع بعضها سِتّة أمتار .

وحسب ما تناقلته الذّاكرة الشّعبية وبعض هوامش التّحقيقات التي عالجت مواضيع تاريخية مغايرة (لإنعدام الدّراسات)، أنّ أوّل تجلّي لها بدأ مع تَشكّل النوادي الرّياضية المحلية (الجزائرية المُسلمة)، التي اُلْتَفَّ حولها الأنصار، من مختلف الشّرائح الاجتماعية. حيث كانت البداية مع نادي "مولودية الجزائر" الذي تأسّس سنة 1921، ليلة المولد النبوي الشّريف، إذ ظهرت أصوات تُنادي بضرورة تفعيل لغة الاعتزاز والافتخار به، أمام الأندية الفرنسية الأخرى "الكُفّار"، فكان للجغرافيتيا صَوْتها، فانتشر اسم "المولودية El mouloudia" باختلاف اشكاله على الجدران، الأعمدة، الواجهات... إلخ، خاصّة بالأحياء الشّعبية. ويُفسّر المؤرّخون هكذا سلوك بأنّه فعل وطني يهدف للتّعبير عن التّميّز والافتخار بالذّات (الهوية) الوطنية أمام الآخر "المُسْتَدِمِر"، ينسحب الأمر ذاته على أسماء الملاكمين والعدائين الجزائريين الذين قهّروا الأوروبيين.

ومع تطور الممارسة النّضاليّة للحركة الوطنية أصبحت الجدران وسيلة مهمّة للتّعبئة العامّة للمُناضلين. ففي انتخابات عام 1947، عمّلت الأحزاب الوطنية كل مجهوداتها مُستخدمة الفعل الجغرافيتي لإستقطاب واستعطاف مختلف الشّرائح، وتعريفهم بالاختيار الأمثل للقوائم الجزائرية. ومع تسارع الأوضاع بعد الحرب العالمية الثانية، واتضح مدى وفاء فرنسا بوعودها للشعب الجزائري، من خلال ردّها على "احتفالات" 8 ماي 1945 التي راح ضحيتها أزيد من 45000 شهيد. انتشرت كتابات تُؤكّد عدم جدوى العمل السّياسي مع "المُسْتَحْرِب"، وحتمية تغيير هذا الأسلوب بالكفاح المسلح والرّد عليه باللّغة التي يفقّهها.

كما تكثّفت بُعيدَ انطلاق الثّورة التّحريرية، إذ اُكتسح "المناضلون" الجدران-وما شاكلها- بأخبار الانتصارات المُحقّقة، وعبارات التّرحيب بالثّورة، والتّرحم على الشّهداء، والتّشهير السّلبى بأسماء الحركي والعملاء. تمّ ذلك وفق منطق "جغرافيتيا الإشاعة" الكثيرة الاستثمار في مثل هكذا ظروف. فتحوّلت الجغرافيتيا لوسيلة مقاومة، أو كما يسميها "فيليب أرتيار Philippe Artieres" و"باول روداك Pawel Rodak" بالمقاومة الجغرافيتية²¹⁵. وأضحى اسم "جبهة التحرير الوطني FLN" وفيما بعد "الحكومة المؤقتة GPRA"، جاثمًا على كل مساحة يمكنها استضافة الحروف الثلاثة والأربعة

²¹⁵ Philippe Artieres & Pawel Rodak, *Écriture et soulèvement, résistances graphiques pendant l'état de guerre en Pologne*, (13 décembre 1981- 13 décembre 1985), Genèses, (Sciences sociales et histoire), n° 70, ed: Belin, 2008, pp. 120.139. URL: <http://www.cairn.info/revue-geneses-2008-1-p-120.htm>. Consulté le: 18/05/2009.

وتمجيدِها والاعتزازِ بها بعبارة "VIVE FLN"، "VIVE GPRA"²¹⁶. وعبارة "الجزائر مسلمة" ردًا على "الجزائر فرنسية". كما عكست الغرافيتيا "التّصدع" والانشقاق الذي حدث بين الأحزاب الوطنية، خاصة أزمة "حزب الشعب" 1953. خصوصيات تجعلنا نصف الغرافيتيا الجزائرية ب"الغرافيتيا النّضالية". وهذه صور مأخوذة من الفيلم السّالف الذكر.



الصورة 27: شاب جزائري أمام وحدة غرافيتية عن "FLN"²¹⁷.

وبتشديد الرّقابة الاستعمارية على الصّحف الوطنية وتوقيف العديد منها أخذت الجدران مَكانتها ووظيفتها الإعلامية، بكل ما يجري في السّاحة الوطنية (انتصارات المجاهدين). مما اضطرّها لتخصّص فرّقًا خاصّة لمتابعة الفاعلين (الجناة)، ورصد مكافئات مالية لمن يرشدها لمُقترفي هكذا "كتابات منحرفة" من الأطفال والمراهقين-وكأننا أمام التّجربة الفلسطينية مع الاحتلال الصهيوني. حيث تمكنت من القبض على بعضهم، سُجنوا بِتُهمة الانتماء إلى "كُتّاب الجدران". بعدما صُنّف هذا الفعل في خانة الجُنْح التي يُعاقبُ عليها القانون الفرنسي-بالجزائر- بِشِدّة، ليس لِكونها تُشوّه المنظر العام للمدينة بل لأنّها أضحت وسيلة تُؤلّبُ النّاس على التّمرد على السّلطة والنّظام العام، وتنشر الإشاعات الكاذبة. أُفتتنت السّلطات الفرنسية بالممارسة كثيرًا، مما اضطرّها لِتكثيف وتنويع سياساتها الرّدعية، ففي سنة 1960، جاء في تصريح رئيس بلدية العاصمة، لجريدة "Le Journal d'Algérie"، بأنّه خَصّ ميزانية مُعتبرة لمحاربة ما أسماه "الأعمال التّحريضية في الأماكن العمومية"، التي يَقترُفها مُناضلو FLN (الفلّاقَة، الخارجون عن القانون،...).

²¹⁶ في إحدى لقطات الفيلم الصّامت "Images d'Algérie" سنة 1964، عرض لنا المخرج الهاوي صُورة لِغرافيتيا على جدار بشوارع القصبة، مكتوب عليها بالفرنسية، باللون الأسود: "GPRA (Gouvernement Provisoire de la République) Algérienne" ليُرَدّ عليه آخر -لأنّ الخَط مُختلف عن الأوّل- "GP NON".

²¹⁷ الصورة من نفس الفيلم "Images d'Algérie" مُنقّاة من:

<http://base.atelierdesarchives.com/index.php?urlaction=doc&iddoc=168979> بتاريخ 11/7/5.

بالموازاة مع ذلك، استخدم "المُعَمَّرُونَ" ذات الوسيلة للتعبير عن مواقفهم المعارضة والرافضة لسياسة الجنرال "شارل ديغول" بالجزائر، خاصة عند تفاوضه مع FLN. حيث انتشرت كتابات مُعادية للمفاوضات، ومطالبة بضرورة توقيفها -حالا- وإلغاء قرار الاستفتاء حول تقرير المصير. فانتشرت عبارات "منظمة الجيش السري"²¹⁸، برمزها "O.A . S" بمحاذاته عبارة "L'Algérie est française et le restera", وعبارة "vive le peuple algérien nous sommes l'avenir", و"نداءات" (حوالي 150 صورة) أخرى التقط بعضها "ب. بورديو P. Bourdieu" خلال تحقيقاته حول المجتمع الجزائري آنذاك (1958-1960)، على نحو العبارات التالية: "Ralliez-vous à la France", "vous respectez le couvre feu les tueurs vous guettent", "Oui de Gaulle... من مختلف الشوارع"²¹⁹. كما إنتشرت عبارات تُطالب بإقامة نظام شبيه بنظام جنوب إفريقيا، وتُحذّر الحكومة من الرضوخ لاستفتاء تقرير المصير. بل، وضرورة إيقافه فوراً. فَرَدَّ عليها الشعب الجزائري بالمثل بنشر عبارات تُمجّد "الجزائر جزائرية"، و "لن تكون فرنسية أبداً"(باللغتين). وهذه وحدة منسوبة لمنظمة "O.A . S".



الصورة 28: جغرافيتها منظمة "O. A. S" بالعاصمة (LA FRANCE REST. O.A.S)²²⁰. ارتقت الممارسة لِطَقْسٍ من طُقوس التَّعبئة والتَّوعية بالنَّسبة للجميع، فمن أهم الوسائل التي اعتمدها جبهة التَّحرير الوطني، في توعية الشعب الجزائري للاستفتاء (المصيري) الذي تقرّر مطلع

²¹⁸ منظمة إرهابية فرنسية، ضمت أكثر من 3000 مجرم، تأسست في 1961/02/10 بإسبانيا على يد كل من "Jean-Jacques Susini" و "Pierre Lagailarde". قُتل ما بين 1700 إلى 2000 شهيد. ومن بين مجازرها الثقافية إحراقها للمكتبة المركزية بجامعة الجزائر بأزيد من 600.000 كتاب.

²¹⁹ Anne-Laure Anizan, "Pierre Bourdieu. Images d'Algérie, une affinité élective, jeu de paume hors les murs", château de Tours, 16 juin au 4 novembre 2012. La revue numérique du Centre d'histoire de Sciences Po, Histoire@ Politique, n°14, pp.1.8. <http://www.histoire-politique.fr/index.php?numero=14&rub=comptes-rendus&item=384#hautpage> . Consulté le: 15/11/2012.

²²⁰ مصدر الصورة: موسوعة (DVD."Microsoft ® Encarta ® 2006),

شهر جويلية 1962، الكتابة الجدارية، ذلك أن السَّوَادَ الأعْظَمَ من الجزائريين أُمِّيَنَ. وكان لِزَامًا عليهم الاختيار بين كلمتي "Oui" أو "Non"، فأُسْتُخْدِمَ الجدار وما شابهه، لتقريب كلمة "Oui" ورَسْمِهَا وترسِيخِهَا في ذاكرتهم، بِتكرار كتابتِهَا آلاف المَرَّاتِ "votez oui"، لِعَدَمِ الوقوع في الخطأ في اليوم المشهود. في المقابل استمر أعضاء منظمة الجيش السري في ترهيب الشعب، وتكثيف سياسة الوَعِيدِ، بِأَنَّهَا سَتَنْفِذُ عمليات لم تشهدها الجزائر من قَبْلِ، يوم الاقتراع، فمن أراد الحياة فليبقى بِدَارِهِ، ولا يَدْنُو من مراكز الاقتراع.

لم تنحصر الممارسة الكتابية على الفضاء الجزائري المحلي، بل عرفت انتشاراً واسعاً بفرنسا، سواء من طرف الجزائريين أنفسهم، أو من الفرنسيين الرافضين للاستقلال (السلطات والمواطنين)، منها الرسالة -المعبّرة- "ici on noie les algériens" على جسر "Saint-Michel"، بِنهر "La saine" ألتقطت خلال مظاهرات 1961/10/17 التي راح ضحيتها المئات من الجزائريين²²¹.



الصورة 29: "ICI ON NOIE LES ALGÉRIENS" جسر "Saint-Michel"²²².

◆ مآل "الممارسة" بعد الاستقلال:

بُعِيد الاستقلال تراجعت ممارسة الكتابة الجدارية، باستثناء بعض البقايا لمنظمة الجيش السري، تُؤرِّخ لمرحلة عسيرة عاشها المجتمع الجزائري، أو بعض "الشَّخَبَاتِ الصِّبْيَانِيَّةِ" التي لا ترتقي لشروط الظاهرة البحثية من المنظور السوسولوجي. لكن، ما فَتَبَّتْ أن عادت ملامحها الأولى

²²¹ بنفس العنوان تم عرض الفيلم الوثائقي "هنا نغرق الجزائريين" (90 دقيقة)، بقاعة "الموقار" بالعاصمة، بتاريخ 2011/10/22 للمخرجة الفرنسية- من أصول جزائرية- "ياسمينه عدوي" تعالج فيه موضوعاً -تقول عنه- أنه من الطابوهات في فرنسا، والتمثّل في جرائم 17 أكتوبر 1971.

²²² الصورة في الأصل صورتين منفصلتين قمنا بتعديلها في صورة واحدة ("ici on noie les Algériens")◆.

◆Vincent Lemire et Yann Potin, "ICI ON NOIE LES ALGÉRIENS", Fabriques documentaires, avatars politiques et mémoires partagées d'une icône militante(1961-2001),Genèses 49, déc. 2002, pp.140-162.

تلخص أحداث 1961/10/17 الدموية، التي راح ضحيتها مئات القتلى و+1000 جريح، و14.094 موقوف.

مع بداية الثمانينات، خلال اضطرابات ما عُرِفَ بأحداث "الربيع الأمازيغي الأول"، لتتطور منتصف الثمانينات وتَشَتَّدَ خلال أحداث "أكتوبر" 1988²²³، أو "أحداث الخبز" كما يُسميها البعض. والتي أُعْتُبِرَتْ مُؤَشِّرًا واضحًا للاختلال الوظيفي للأنظمة السياسية والاقتصادية والثقافية المعتمدة من طرف النِّظام (الحزب الواحد آنذاك). انتفاضة شعبية أفضت -سياسيا- إلى تعديل الدِّستور، واعتماد التَّعديل السِّياسي وتوسيع هامش حرية التَّعبير، وصدور قانون الإعلام 1990. كُلهَا متغيرات ساهمت في استثارة الحاجة للكتابة الجغرافية الاحتجاجية والمطلبية، تُوحى بما سَمَّاه الباحثون بِعَوْدَةِ "صحافة الجدران"، إذ سجلت المجموعات والحركات المعارضة والمُوالية مَواقفها وآرائها ومطالبها، بدءًا بضرورة رحيل من أوصلوا البلاد لهذه الوضعية. كما رَدَّ عليها مساندو النظام، حيث تَمَوَّضَت الجغرافيتيا كوسيلة فعَّالة للدَّعاية السياسية والجِزيَّة، سواء للمعارضين أو المتعاطفين. حدث ذلك في خِصَم حالة من الاحتقان والانسداد السياسي، التي تبعها إنفلات أمني لا نظير له في تاريخ الجزائر المستقلة. فَمُعْظَم الكتابات التي رُصِدَت على الجدران، الأعمدة، الواجهات، المحلات...، سواء كانت "علمانية" أو "إسلامية" أجمعت على فساد النظام وعجزه، فعمت كتابات ضد رموز النظام وسياساته وإخفاقاته²²⁴. وقبيل الاقتراع صرَّح الرئيس "شادلي بن جديد" بأنَّه مُستَعِد لإستدساخ التجربة الفرنسية التي اتَّخذها الرئيس الفرنسي آنذاك، وكان يسارياً، والبرلمان والحكومة يمينياً، وهو خطاب لطمأنة أنصار FIS، فَجَاء الرَّد عليه سريعاً بواسطة الجدران، بأنَّه كالجاهل الذي يلعب بالنار.

كان "حدث" فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS)، بِمُعْظَم المجالس البلدية -تجاوزت 900- في أولى انتخابات محلية "تعددية" في تاريخ البلاد، بتاريخ 1990/7/12، منعرجاً هاماً في حركية المجتمع الجزائري عامة، وفي التَّاريخ لظاهرة الجغرافيتيا خاصَّةً، إذ لَعِبَت الجدران وما شابهها، وظيفة الصحافة الإعلامية، الإشهارية والتَّشهيرية، إبان الحملة الانتخابية وبعدها، بين الأحزاب المُتسَابِقَة (المُتَنَاحِرَة) على الكراسي، حيث عمَّت عبارات " VOTEZ.X. "، " VOTEZ .Y. "، "إنتخبوا الإسلام"، "لا بديل عن الأصل"،...، وغيرها. وبُعِيدَ "الفوز" سادت عبارات تبشِّر بِمُتَى التَّغيير، على نَحْو "بلدية إسلامية"، "العدل"، على جدران الشُّوارع، خاصَّة في البلديات التي فازت بها جبهة

²²³ Semmar Abderrahmane, « Lorsque les murs d'Alger parlent », 4/1/09. URI: <http://www.lemague.net/dyn/spip.php?article5641>. Consulté le :5/8/10.

²²⁴ يتحدث الدارسون عن "الجغرافيتيا كصوت مضاد للسلطة" (السلطة المضادة)، عرفتها كثير من المجتمعات، على نحو الثورة المكسيكية، التي عرفت انتشاراً واسعاً لها تُدين بقوة ممارسات النظام الحاكم، وبيرومانيا مع "تشاوسيسكو".

الإنقاذ، وحين سُئِلَ عددٌ من الأتباع عن فَحْوَى تَصْرُفَاتِهِمْ، أَجَابُوا بِأَنَّهُ شُكْرٌ وَثَنَاءٌ لِلسَّكَّانِ، وَتَمَيِّزُهُمْ
عَنْ بَاقِي البَلَدِيَّاتِ الأُخْرَى الَّتِي لَمْ تَمُنَّحْ صَوْتَهَا لِلإِسْلَامِ.

لكن، بعد "توقيف المسار الانتخابي" واعتقال أعضاء قيادة جبهة الإنقاذ، انتشرت على نطاق واسع كتابات سياسية عنيفة على الجدران- وما شاكلها-، في مناطق مختلفة من الوطن، تتوعد النظام على فعلته، على نحو عبارة "إمّا الإفراج أو الانفجار"، "حذاري"،...رسائل تحذيرية صارخة باستخدام العنف، إذا لم يُدْعِن لمطالبهم. والإفراج عن قياداتها التي لم تُسْتَثْنَى من الكتابات التي ظهرت آنذاك، على نحو: "يا علي يا عباس الجبهة دائما لأبأس"، (إشارة إلى علي بلحاج وعباسي مداني)- أكثر قيادي FIS شعبية آنذاك- كما سادت كتابات معارضة تُنادي بإنقاذ الجزائر قبل قَوَاتِ الأَوَّانِ، مِنْ خِلالِ إِسْتِغَاثَاتِ "أُنْقِذُوا البَلَادَ"، "أُنْقِذُوا الجَزَائِرَ"، "Sauvez l'Algérie".

كما انتشرت مضامين غرافيتية تُنادي بضرورة مقاطعة الانتخابات البرلمانية، المقررة في 26 ديسمبر 1990، خاصة من توقيع التيار العلماني، الذي تَوَصَّلَ فِي تَحْلِيلَاتِهِ المُسْتَبَقَّةَ إِلَى نَتِيجَةِ مَفَادِهَا أَنَّ هَذِهِ الِانتِخَابَاتِ سَتَفُوزُ بِهَا جِبْهَةُ الإِنْقَاذِ، خَاصَّةً بَعْدَ حَبْسِ قِيَادِيهَا. وَمِنْ بَيْنِ تِلْكَ العِبَارَاتِ "لا لإيران في الجزائر"، "أوقفوا زحف الفاشية"، "لا للأصولية" "أنقضوا الديمقراطية"، "أنجدوا الوطن"...رسائلٌ مُوجَّهَةٌ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى لِلْمَوْسَسَةِ العَسْكَرِيَّةِ "الجيش"، كَوْنَهَا القُوَّةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي بِإِمْكَانِهَا الوُقُوفُ فِي وَجْهِ الجِبْهَةِ الإِسْلَامِيَّةِ لِلإِنْقَاذِ. وَمَعَ بَدَايَةِ تَفَاعُلَاتِ المَأْسَاةِ الوَطْنِيَّةِ وَانْدِلَاعِ الحَرْبِ الأَهْلِيَّةِ -وَإِنْ كَانَ البَعْضُ لَا يَحْبِذُ هَكَذَا تَوْصِيْفَ- مَطْلَعِ 1992، وَمَا تَرْتَبُ عَنْهُ مِنْ تَفْسُخٍ لِلنَّسِيْجِ الاجْتِمَاعِيِّ عَلَى مَخْتَلَفِ الأَصْعَدَةِ، تَنَامَتِ المُمَارَسَةُ الغِرَافِيَّتِيَّةُ، حَيْثُ عَمَّتْ كِتَابَاتُ تَبَايَنْتِ مَا بَيْنَ أَسْمَاءِ وَأَلْقَابِ بَعْضِ الأَشْخَاصِ، عَلَى نَحْوِ، عَبْدِ القَادِرِ شَبُوطِي، عَبَاسِي مَدْنِي، عَلِي بِالحَاجِ، أَوْ التَّنْظِيمَاتِ الرَّسْمِيَّةِ وَالغَيْرِ رَسْمِيَّةِ، مِثْلَ "الحركة الإسلامية المسلحة" "MIA" وَفِيهَا بَعْدَ "GIA" وَ" AIS"...وَنِدَائَاتِ لَوْقِفِ العِنْفِ، وَحَمَامِ الدَّمِ، وَحَقْنِ دِمَاءِ الجَزَائِرِيِّينَ، عَلَى نَحْوِ "أوقفوا الحرب"، "كفانا قتالا"، "القاتل والمقتول في النار فتوقفوا"، "اتقوا الله في العباد"... فِي مَنْتَصَفِ التَّسْعِينَاتِ أَعْلَنَ الرَّئِيسُ "اليمين زروال" عَن عَزْمِهِ تَنْظِيمَ انْتِخَابَاتِ رِئَاسِيَّةٍ مُسَبِّقَةً، كَخَطْوَةٍ لِأَجْلِ إِخْمَادِ المَأْسَاةِ، فَظَهَرَتْ مَجْمُوعَاتُ شَبَابِيَّةٍ تَجُوبُ المَدْنَ لِيلاً، فِي وَقْتِ حَظَرِ التَّجَوُّلِ، وَتَخُطُّ رِسَالَتِ تَهْدِيدِ وَوَعِيدِ لَهُ، مِنْهَا "يا زروال ستموت"، "لن تعيش"، "لن نقبل"...

كثيراً ما أُسْتِخْدِمَ "دَمُ الجَزَائِرِيِّينَ" فِي المُمَارَسَةِ الغِرَافِيَّتِيَّةِ، فِي وَاحِدَةٍ مِنْ -أَشْهُرِ- المَجَازِرِ الَّتِي اقْتَرَفَتْهَا "الجماعات الإرهابية" بِمَنْطِقَةِ بُوْفَارِيكِ -الَّتِي رَاحَ ضَحِيَّتُهَا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ شَخْصًا- كَتَبَ أَحَدُهُمْ

على الجدار بدم المقتولين عبارة "الجماعات الإسلامية المسلحة السنية السلفية الموحدة"، لتعرف "موضة" الكتابة بالدم رواجاً بالعديد من المواقع التي أرتكبت فيها.

مع مطلع القرن الواحد والعشرين بدأت نار الفتنة تخمد، حيث أثمرت سياسة "الوثام المدني"، والتي تطورت لمبادرة المصالحة الوطنية بعد مجيء السيد الرئيس "عبد العزيز بوتفليقة"، أولى نتائجها الايجابية. في المقابل انفجرت احتجاجات أحداث "الربيع الأمازيغي الثاني" 2001 بمنطقة القبائل، مما اضطر قوات الأمن للتدخل. تسبب ذلك في مقتل التلميذ "ماسينيسا كرماح"، أدى إلى اشتعال المنطقة بكاملها في انتفاضة شعبية، راح ضحيتها العشرات من القتلى والجرحى، من الجهتين. وكان للفعل الجرافيتي حضوره أيضاً، حيث كتب أحد الشباب (كمال) يوم 2001/4/27، قَبْلَ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بدمه كلمة "liberté" على جدار إحدى المقاهي، إلتقطتها آنذاك العديد من القنوات التلفزيونية، التي كانت حاضرة لتغطية الأحداث. بالإضافة للعديد من العبارات التي تُطالب بالحرية ومعاقبة من قتله، بلغات مختلفة (الأمازيغية والفرنسية والعربية)²²⁵.

في الواقع، لم تُغادر الممارسة الجرافيتية الساحة المجتمعية منذ زمن، فهي حاضرة عبر مختلف تضاريس مجتمعنا، إلا أنها تعرف فترات ازدهار، تتزامن مع ارتفاع درجات الحمى الاجتماعية والسياسية والأمنية، نتيجة الأحداث والأزمات المتعاقبة على الجزائريين. وهذه عينة منها، متباينة المضامين، ما بين الجرافيتيا السياسية، التعليمية، الرياضية، الإسلامية والسّاخرة. جمعها الباحث "بلقاسمية محمد السعيد" نهاية 2007 من على جدران مدينة "تيزي وزو".



الصورة 30: تجسيد حرية التعبير بكل اللغات (تيزي وزو 2007)²²⁶.

²²⁵ Farid Ailat, "Le grand malaise", Jeune Afrique, 5/5/2008. URL : <http://www.Jeuneafrique.com/Article/LIN04058legraesiala0/>. Consulté le : 22/7/2010.

²²⁶ Belkacemi Mohand Saïd, Kabylie: Les graffitis sur les murs de Tizi-Ouzou ne disent pas de belles choses 2007. In: <http://kabylie.unblog.fr/2007/09/18/kabylie-les-graffitis-sur-les-murs-de-tizi-ouzou-ne-disent-pas-de-belles-choses/>. Consulté le : 15/08/2011.

خلال السنوات الأخيرة حاولت -وتحاول- الممارسة الغرافيتية التّموضّع والتّماهي مع بعض مرجعيات الحركة العالمية لحركة "الهييب هوب Hip Hop" التي غزت كل المجتمعات العربية، والتي بدأت في اكتساب هامش من الشّرعة الرّسمية، من خلال عدد من اللقاءات والمهرجانات التي تُقام تحت الوصاية- ببعض المدن الشّمالية، على نحو المهرجان الرّابع لموسيقى "الهييب هوب" الذي أُقيمت فعالياته بقاعة "الوئام Concord" بمدينة سيدي بلعباس، في شهر 2009/9. جمعت بعض فرّق الرّاب الجزائرية²²⁷، وبعض مُمارسي الغرافيتيا في لونها الغربي "Graffiti Art". حيث مازال نَفَرٌ من الشّباب المُنهَجس يحاول البحث عن مكانته ضمن تراتبية الألوان الفنّية المُرسّمة، إذ تمكنت مجموعة من "الطلبة الممارسين" من إنجاز "لوحة غرافيتية Une fresque" تحت جسر سيدي الجيلالي بذات المدينة. وهذه عيّنة من بعض الصّور المحلية، التي أنجزها بعض الشباب الجزائري، (من مدينتي بسكرة وتيزي وزو على التوالي)²²⁸، نوردتهما لتقريب الفهم.



الصورة 31: لوحة غرافيتية من توقيع المُلقب بـ "Biltag"²²⁹. الصورة 32: "لوحة غرافيتية" لِشخص يُدعى "G. S. Jocker" (في حاشيتها أسماء لمغنيات ولأشخاص آخرين)²³⁰.

وهذا ما حاول التّدليل عليه فريق بحث من قسم علم الاجتماع بجامعة الجزائر بإشراف الباحثة "فاطمة أصدیق"، من خلال دراسة قام بها حول الظاهرة (الغرافيتي على جدران العاصمة). باعتباره (الغرافيتي) نوع جديد من "الفن" يعكس سلوكيّات ورسائل ذات مضامين اجتماعية وثقافية مهمّة. ركّزوا على المستوى "التّصويري الفنّي" للممارسة معتمدين على المقاربة

²²⁷ نذكر بعضها: "Zonka génération de Tizi ousou", "Street live d'Oran", "Moderne Gnawi Moh".

²²⁸ رغم العوائق الكثيرة التي تعترضهم، أولها غلاء ثمن علبة البّخاخ (الرّزاذ) التي بلغ ثمنها (حتى نهاية 2012) ما بين 400 و500 دج.

²²⁹ مصدر الصورة: <http://www.fatcap.org/graffiti/88662-biltag-biskra.html> تاريخ الاطلاع 11/08/19.

²³⁰ الصورة: <http://www.fatcap.org/graffiti/111058-g-s-jocker-tizi-ouzou.html> بتاريخ: 11/08/19.

الفنية والجمالية²³¹. ولكن، رغم تبلور بعض معالم "الفن الجرافيتي" الجزائري، إلا أن الكتابات الجرافيتية (طابعها الكتابي) مازالت الأكثر حضورًا، خاصة بالفضاءات المغلقة، وهذه ميزة من مميزات الممارسة بمجتمعنا.

كثيرًا ما أُرقت الكتابات الجرافيتية السلطات المحلية البلدية والولائية، خاصة خلال مناسبات رسمية، كالزيارات الميدانية للمسؤولين، فتضطر لتنظيفها، خاصة تلك التي تحمل مضامين سياسية من إهانات وسباب للمسؤولين. وتبقى الكتابات الجرافيتية ممارسة يومية للشباب العربي والجزائري، حيث عادت بكثرة خلال ما سُمي بـ"الربيع العربي" أو "الثورات العربية"، "الانتفاضات العربية". بدأت تُقلق وتُختلق المشاكل والنزاعات بين الأفراد والمؤسسات. والمتبع للصحف الوطنية يلحظ تلاحق الأخبار عن ملاحقات قانونية لمرتكبيها. نذكر على سبيل المثال تلك الكتابات الجرافيتية التي إنتشرت على جدران وواجهات الطرقات الكبرى بمدخل ومخارج ولاية "عنابة"، وكذا الساحات العمومية (ساحة الثورة وساحة "أليكسيس لومبارغ")، وواجهات "الكورنيش الساحلي" للمدينة، مُستهدفةً الأمين العام لنقابة عمال أرسيلور Arcelor، بتاريخ 2010.07.10. حيث تطورت القضية وتمّ إلحاقها بمصالح الأمن التي استدعت بدورها سبعة أشخاص للتحقيق معهم.

حيث ذكرت "الشروق اليومي" أنه تمّ توقيف ثلاثة أشخاص ليلة الأربعاء إلى الخميس، بقلب المدينة وهم يلطخون المقاعد الصخرية، والجدران الإسفلتية، بكتابات تحمل سبًا وشتمًا وتجريحًا وقذفًا في شخص الأمين العام لنقابة عمال مركب الحجار والمكتب النقابي ككل. منها عبارات "خاين وولد حركي" بعد مسح اسم النقابي، و"زخيس وكلب وما يسواش" وغيرها من العبارات المبتذلة. مما حرك بعض الأشخاص للدعوة لضرورة وقف هكذا (مَهزلة) فورًا، وضرورة الإطاحة بـ"العصابة" التي تُدبر هذه العملية "الدنيئة القذرة"²³². وقبل ذلك، نقرأ في جريدة "الخبر" في عددها 4718 بتاريخ 2006/6/1 الخبر التالي: البيوض بالنعامة، الدرك يحقق في الكتابات الحائطية ضدّ رئيس البلدية. وبذات الصحيفة نقرأ بتاريخ 2006/1/29 في عددها 4869، كتابات حائطية تشيد بالإرهاب في جيجل"، حيث أُلقت مصالح الدرك على الفاعل²³³. أو "السجن للمتورطين في الكتابات الحائطية المسيئة للمسؤولين والهيئات والأشخاص"، جريدة الشروق اليومي "2010/11/19".

²³¹ Les graffitis des murs d'Alger décortiqués, Culturel djazair, Paru le: 01/11/2008. URI: <http://www.cultureldjazair.org/article.php?cat=8&id=118> . Consulté le :22/1/2009.

²³² أحمد زقاري "تطورات الكتابات الحائطية المسيئة لأمين نقابة عمال أرسيلور، الشروق اليومي، ع10/7/10، 2990.

²³³ وغيرها الجرائد الوطنية، مع تسجيل نسبة اهتمام أكثر بالممارسة "كمشكل" لـ"EL WATAN" و"LIBERTE".

غالباً ما كانت الجرافيتيا وسيلة مُمكنة -وَمُمكنة- لإرسال نداءات الاستغاثة "S.O.S"، وُلِّفت انتباه السلطات الرّسمية. فنقرأ مثلاً بعد زلزال 2003، على إحدى جدران عمارة مُهدّدة بالسقوط، يحي "حسيبة بن بوعلي" بالعاصمة عبارة "نحن منكوبون". ونقرأ أيضاً يحي 17 أكتوبر 1960، ببلدية جسر قسنطينة بالعاصمة على جدار بناية، عبارة "اذهبوا إلى بريطانيا فإن بها ملكة لا يُظلم عندها أحد"، دعوة للهجرة (الحرقّة) بكل الطُّرق. وكتب ثالثٌ بالدَّارِجَة "كُرْطُونًا في رُوما خيرٌ من فيلًا في الحُومَة". ورابعٌ "أين أنتم يا عرب غزة تحترق..."

تأسيساً على ما سبق، نستنتج أنّ الممارسة بالمجتمع الجزائري عرّفت تدرّجاً من حيث الفضاء والمضمون، حيث بدأت إرهاباتها (المعاصرة)-خلال الفترة الاستدمارية- بالفضاءات المفتوحة، الشوارع، واجهات المحلات، الجسور،...تمحورت مطالبها حول تيمّة الاستقلال وما يُضفي إليه. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الفضاءات المغلقة بشكل مُكثّف²³⁴، بالجامعات، السجون، الثكنات العسكرية، (المراحيض...)، بمضامين تركّزت خاصّة حول الجنس والأوضاع المعيشية "المزرية".

ج. "الثورات العربية" من الكتابة على الجدران إلى الكتابة على الجدران:

◆ الجرافيتيا استراتيجية فعّالة "للانتفاضات" العربية:

إنّ المتتبع للأحداث العربية الأخيرة يلاحظ تنامي -غير مسبوق- لثقافة الاحتجاج العنيف، الفردي والجماعي، بلغت ذروتها من خلال تقليعة (موضة) "الانتحار حرقاً *L'immolation par le feu*"، على الطريقة البوعزيزية (نسبةً لمحمد البوعزيزي). الذي أحرق نفسه احتجاجاً على حالته المزرية-الفقر+ الإهانات المتكرّرة من طرف الشرطية (النظام)- والتي ألهمت الثورة الشّعبية في تونس، حيث انتشرت بالعديد من الدّول العربية على نحو: مصر، اليمن، البحرين، الجزائر، المغرب،... لامست الشرائح المتوسطة والدّنيا، من الجنسين وبإختلاف الأعمار، وكُرة الثلج مازالت تتدحرج. انتهت بعضها بإطاحة الأنظمة الحاكمة فيها، كان محرّكها شباب لُقّبوا "بشباب الشبكات الاجتماعية"، "Youtube.. Facebook"، و"شباب الفيس بوك".

لم نُعرج عليها لأجل تحليل أسبابها ولا نتائجها لأنها تحتاج لأبحاث عدّة. وإنّما لتلمس مؤشّرات تنامي ظاهرة الكتابات الجرافيتية بها، بشكل جعلنا نحارّ حول ما نسجله وما نتركه، لكثرتها، إذ عرفت انتشاراً مهولاً، نتجرّأ ونسميها "التّسونامي الجرافيتي"-إن صحّ التّعبير-. ولعل ما تشترك فيه

²³⁴ مع حفاظها على فضائها التقليدية خلال "العشرية السوداء".

هذه الانتفاضات تسجلها لنداءات (كلمات وعبارات ورموز وصور) على الجدران وما شاكلها، تتقاطع في عبارة "إرحل dégage"، و "الشعب يريد إسقاط النظام"، وكذا عبارات توجي بالتعطش للحرية والعدالة والعيش الكريم. فكانت "انتفاضة الإطاحة بنظام "بن علي" في تونس محطة مهمة في التّاريخ للممارسة الجرافيتية العربية المعاصرة، ذلك لأنّها رافقتها كتابات كثيرة على جدران شوارع المدن التونسية. ذات مضامين تكاد تتّفق على مطالب التغيير السياسي والاجتماعي، ومشاركة في "ضرورة التّخلص من النظام وحاشيته"، على غرار "الشعب يريد إسقاط النظام"، و"إرحل Dégage". وبعيداً انتحار الشاب "محمد بوعزيزي" سادت عبارات تُمجّده وتدعوله بالرحمة، "مات موة الشهداء"، بل وجعلته "أسطورة مؤسّسة Mythe fondateur" للانتفاضة التونسية وحتى العربية منها.

إنهجس الباحث "عبد الباسط التواتي"²³⁵، ب"الحدث" فَمَشَّطَ تضاريس بعض المدن التونسية، لتجميع 890 وحدة جرافيتية، حيث عرضها بدار الثقافة "ابن خلدون" في معرض فردي بالعاصمة التونسية، اختار له عنوان "حديث الجدران"، إنطلق يوم 3/13 إلى نهاية ذات الشهر من 2011. و"اللوحة الجرافيتية" التالية عبارة شهيرة منتقاة من آخر خطاب ألقاه الرئيس، "أنا فهمتكم".



الصورة 33: أحد شعارات الانتفاضة التونسية بالعاصمة. الصورة 34: رفض الديكتاتورية (حي التضامن بالعاصمة)²³⁶

أمّا في مصر، المهد الثاني للانتفاضات العربية، فلم تختلف كثيراً عن نظيرتها التونسية، إلاّ بالأسماء المُراد منها أن "ترحل"، حيث انتشرت منذ الساعات الأولى من الاعتصام بساحة "التحرير" كتابات ورسومات وشخبطات تطالب برحيل "مبارك" وزبانيته، على نحو، "إرحل"، "Go out"، "يسقط النظام"، "أريد أن أرى رئيساً جديداً قبل أن أموت"،...كلّها تنضوي فيما يمكن تسميته

²³⁵ دكتور مختص في طب العمل، وحاصل على إجازة في الفنون التشكيلية.

²³⁶ المنجي السعيداني، "تونس: حديث الجدران، معرض يؤرّخ لمطالب الثورة"، جريدة الشرق الأوسط، الجمعة 12 ربيع الثاني

1432 هـ 18 مارس 2011، العدد 11798.

بالغرافيتيا "المعادية" والمناهضة لمبارك. وُبُعِدَ استقالة الرئيس خرج ألوف المصريين للتعبير عن "نشوة" انتصارهم على "العهد الفاسد" كما يصفونه. غرافيتياً، إنتشرت عبارات تُمَجِّد "شهداء الثورة" مثل "خالد سعيد"، الذي قُتل بضربات أعوان الشرطة في مقهى أنترنت في متنزه الإسكندرية²³⁷. كما تكثفت عبارات التّحية والشّكر والعرفان للقوات المسلحة لموقفها مع الشّعب، ففي مدينة الإسكندرية مثلاً، همّ مجموعة من الشباب بتجسيد اللوحة الغرافيتية المتعددة المضامين التالية.



الصورة 35: "لوحة غرافيتية" على "الكورنيش الثغر" بالإسكندرية²³⁸.

فضلاً عن عبارات ورسومات تُبرز فضل وسائل الاتصال المعاصرة، خاصّة القنوات الفضائية "الجزيرة"، وشبكة الانترنت ومواقع التّواصل الاجتماعي في إنجاح الثورة المصرية.



الصورة 36: فعالية مواقع الأنترنت في استوقاد الثّورة المصرية²³⁹.

أمّا في ليبيا، تمازجت الألوان بين الرسم والكلمات لتعكس مطالب شرائح واسعة من المجتمع الليبي، مطالب احتلت مساحات واسعة من جُدُر المدن والقُرى، على نحو: "نحن لا نستسلم"، "نحن لا نطمح إلا للحرية والعدالة الاجتماعية"، و"الموت لأجل ليبيا"، "يسقط القذافي لتبقى ليبيا في

²³⁷ أوردت الرواية العديد من وسائل الإعلام المصرية والعربية والأجنبية.

²³⁸ ليلي خليل، "كورنيش الإسكندرية.. جدارية فنية كبيرة لثورة 25 يناير"، أبناء الإسكندرية المصورة APN، 2011.

²³⁹ تاريخ الاطلاع: 2011/08/22، <http://alexnews.files.wordpress.com/2011/03/>

المرجع نفسه.

القمة". وعبارات تؤكد على وحدة ليبيا وعاصمتها طرابلس، منها "عاشت ليبيا حرة مستقلة"، و"لا شرقية لا غربية...ليبيا وحدة وطنية.. طرابلس عاصمة أبدية"، و"ليبيا حرة.. يسقط الطاغوت"، خاصة على جداران "باب العزيزية" رمز النظام (البائد).



الصورة 37: التأكيد على الوحدة الليبية²⁴⁰. الصورة 38: رفض سياسة 'فرق تسد'²⁴¹.
 أما في باقي الأمصار العربية كاليمن والبحرين-والمغرب بنسبة أقل- فلم تجد المضامين الجرافيتية عن سابقاتها، إذ أجمعت الكتابات التي انتشرت بأماكن مطروقة وبادية للعيان، على المطالبة بالحرية والكرامة، والإصلاح السياسي والاجتماعي، وضرورة تجاوز عقلية القرن الماضي في تسيير مجتمع القرن الحالي، ولن يكون ذلك في اليمن- حسب مضمون الجرافيتيا- إلا برحيل "علي عبد الله صالح" وحاشيته. والصورة التالية تتحدث عن المطلب.



الصورة 39: شارع الرئيس بمدينة المكلا اليمنية (2011)²⁴².
 وكذلك المؤشرات في البحرين، بعد اندلاع الاحتجاجات (حركة 14 فبراير 2011)، غصت الجدران والواجهات بالكتابات، على نحو ما حدث في "قرية السهلة" أين غصت جدرانها بسُيولٍ من الشعارات المحرّضة على العودة لـ"ميدان اللؤلؤة"، بعد تفريق قوات الأمن للمحتجين، والتّنديد بأحكام الإعدام والتّعسف الذي واجهت به السّلطات مطالبهم. وبعد ساعات، تهاطلت قوات الأمن

²⁴⁰ مصدر الصورة: <http://freemisirata.com/up/download/0debcf8837.html>، تاريخ الاطلاع: 4/ 8/ 11.
²⁴¹ جمال السباعي، "جداريات الثورة..رسائل الثوار"، تاريخ النشر الإلكتروني: 2011/5/7. على الموقع: <http://www.freemisirata.com/vbnow/content.php?r=341>، تاريخ الاطلاع: 2011/7/19.
²⁴² مصدر الصورة: <http://aldhlapres.blogspot.com/2011/04/blog-post28.html>، بتاريخ: 2011/7/11.

لمحو الكتابات "الاحتجاجية/المطلبية"، وتُعيد "الفعل" بإرفاقها شعاراتها مناقضة، على نحو، "تسقط إيران المجوس"، "الموت لشباب السهلة"، "مبروك الإعدام" وغيرها. في اليوم التالي، استيقظ الأهالي على شعارات احتجاجية جديدة، وعلى إيقاع "كتابات" أجهزة الأمن. أستمَرَ المشهد لأيام بين كَرٍّ وفَرٍّ²⁴³. تلخصت المطالب في العينة التالية.



الصورة 40: حتى المساجد لم تسلم من "عدوى" الغرافيتيا²⁴⁴.
الصورة 41: "أسطرة" مراكز الاحتجاج.

في سوريا، شاءت الأقدار أن تكون "الغرافيتيا" "شرارة L'étincelle" الانتفاضة الشعبية، حيث تحدثت وسائل الإعلام العربية والأجنبية -خاصة الصّهيونية- عن (رمز الثورة) في سورية "مصطفى عياش" ابن مدينة "درعا"، عمره لا يتجاوز الرابعة عشرة، الذي خرج من المدرسة أثناء فترة الاستراحة رفقة زملائه (الأربعة عشر تلميذاً) للعب، فهمّوا بكتابات- شخبطات على جدران المدرسة، تأثراً بما تبثُّه القنوات الفضائية. ومن بين ما كتبوا عبارات "نريد حرية"، و"إمنحونا حياة أفضل"، و"جاك الدور يا دكتور"،...ليتّم اعتقالهم بعد وقت قصير، من طرف قوات الأمن

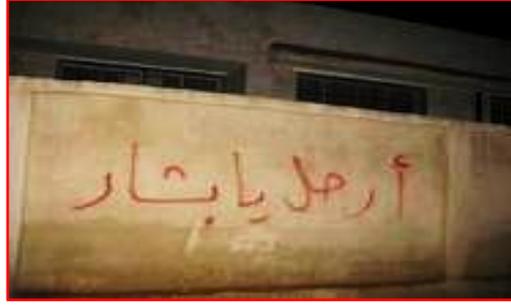
²⁴³ الكتابة على الجدران في ميزان الفتاوى (بعد الانتفاضات العربية):

= عند أهل السنة والجماعة: يقول سماحة الشيخ الدكتور "ناجي العربي" (خطيب جامع عجلان، البحرين):التعدي على حقوق الآخرين بما يضرها من دون استئذان أو موافقة أصحابها، وهذا أمر معلوم ضرورة من الدين بأنه غير جائز، بل هو صورة مندرجة في صور إتلاف أموال الآخرين، لأن هذه الكتابة تضر بأصحاب هذه المواضع التي يكتب عليها مما يؤدي إلى تشويه صورتها الجمالية التي يرغب بحكم الفطرة والعادة المتأصلة المتمكنة في النفوس المرعية من قبل الشرع، يضاف إلى ذلك أن هذا يرتب على صاحب هذه المواضع/الحيطان، ضرورة إعادة طلائها أو صباغتها، ملاحظة للصورة الجمالية وإبعاداً للنفس عن مواضع التهمة حين تكون الشعارات المنسوبة مشمولة على ما قدمناه.

- عند الشيعة الإثنا عشرية: قال الشيخ محمد حسين فضل الله (عالم دين لبناني) عندما سئل عن الاحتجاج بالعنف والحرق والمظاهرات؟. فأجاب: هذا الأسلوب موجود في كل مكان. كنت في ذلك الوقت ضدّ هذا العنف وحرمته حتى إنني حرمت الكتابة على الجدران لأنّ صاحب البيت قد لا يقبل بالكتابة على جدران منزله. قبل مدة حرمت إحراق الدواليب باعتبار أنّه يُسيء للبيئة ويؤذي الناس. موقع <http://www.fajrbh.com/vb/showthread.php?t=27005> بتاريخ: 11/08/28

²⁴⁴ مصدر الصورة: <http://www.fajrbh.com/vb/showthread.php?t=27005>، تاريخ الاطلاع: 11/08/26.

السورية، حدث ذلك قبل ستة أسابيع من انطلاق الانتفاضة السورية²⁴⁵. تبرّكاً بشخصية "الرجل البخاخ" الذي ذاع صيته بعد بثّ حلقة من حلقات المسلسل الكوميدي "بقعة ضوء" (2008)²⁴⁶. حيث يهّمُ شاب بالتعبير عن سخطه بالكتابة الجرافيتية، مستخدماً "بخاخاً أسوداً". حيث بدأ حملته ضدّ رمي القمامة في مدينته. ومن تلك اللقطة أُلقِيَ به لقب "الرجل البخاخ"، لتلاحقه السلطات وتزجّ به في زنزانة ذات جدران بيضاء مع عبوات "البخ" ليملاً جدرانها بالكتابات، رغم حرص الحارسان على مَحْوِ ما كتبه. ومنذ ذلك اليوم أضحي هذا "اللقب" يطلق على كل شابٍ يمارس الجرافيتيا²⁴⁷. وما زالت الممارسة الجرافيتية ترافق الاحتجاجات إلى يومنا هذا (يوم تصحيح تقرير الفصل 2013/1/28). بعبارات "الشعب يريد إسقاط النظام"، بالإضافة لأسماء (الشهداء) والمعتقلين.



الصورة 42: الفاعلين كُثُر والمطلب واحد²⁴⁸.

وما يقابلها من جرافيتيا "الشبيحة" ورجال الأمن على منوال "ربكم بشار"، وشعار "ما منجبتك ما منجبتك إرخل عنا أنت وحزبك"²⁴⁹، وهذه عينّة مما كتبت.

²⁴⁵ سمدار بيبري، "عندكم يحل قول كل شيء وعندنا سيطر الخوف"، صحيفة يديعوت، 11/4/29. شبكة الاتحاد العربي،

ترجمة الصحف العبرية. <http://www.kulalhaqiqa.com/print.aspx?id=24583>. تاريخ الاطلاع 11/08/28.

²⁴⁶ للاطلاع على حلقة "الرجل البخاخ" من المسلسل المذكور (10 د و 50ث)، أنظر الموقع التالي:

<http://www.youtube.com/watch?feature=endscreen&NR=1&v=4fxTaAZ3Ej4>

²⁴⁷ ريماء مروش، "حرب الجرافيتي في سوريا"، المترجمون السوريون الأحرار، 27 أبريل 2012. عن:

Rima Marrouch, "Graffiti krieg in Syrien", 27/4/2012. URI: <http://www.reitag.de/autoren/arabien-von-unten/graffitikrieg-in-syrien>. Consulté le : 2/8/12.

²⁴⁸ موقع الصورتين: <http://hanibaael.wordpress.com/2012/03/28>. تاريخ النسخ: 12/7/28.

²⁴⁹ "حرب الشعارات تنطلق على الجدران.. بين «بخاخى» الثورة والنظام"، جريدة الشرق الأوسط (لندن)، ع 11964، 11/8/31



الصورة 43: واجهة محل/ لا بديل عن "الأسد
 (مناصرى الرئيس السوري)²⁵⁰.

كما إنتشرت كتابات "مُغْتَرِبَة" تفاعلت مع الأحداث العربية بالعديد من الدّول الأوروبية-منها فرنسا- تُشيد وتُحرّض على مواصلة الانتفاضات²⁵¹، وتحتجّ على تعاملها معهم بقسوة، فضيقت على التّونسيين الفارين من بلادهم، ورفضت استقبالهم ومنحهم تراخيص الإقامة، بل وضغطت على دول أوروبية أخرى .



الصورة 45: جرافيتيا القنصلية الفرنسية بـ"Turin" يوم 4/5/2011/²⁵².

خلاصة، إنّ "الفعل الجرافيتي" بالمجتمعات العربية يكتسب قيمة وبعداً رمزياً مهمّاً، باعتباره "مرآة من نوع خاص"، تعكس مستويات واقع المجتمعات، وتكشف الوجه الخفي والمُستتر (المسكوت عنه Les non dits) والمُعَيَّب من اعتلالاتها. إنّّه يعبّر عن احتجاجات ومعاونة الأفراد وتطلّعاتهم، ومُلامِسُ للإنسان في جوهر إنسانيته وكيونته: الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية. إنّ الثورة (الانتفاضة) التي حدثت في تونس ومصر...، تجاوزت تأثيراتها المجال السياسي والاجتماعي إلى الثقافي الجرافيتي تخصيصاً. وستبقى- الجرافيتيا- تُلَامِسُ يوميات الفرد ورُدود أفعاله لما يحدث أمامه.

²⁵⁰ المصدر نفسه.

²⁵¹ للاستزادة أنظر الملحق رقم 5.

²⁵² تعبيراً عن تضامنهم مع إخوانهم التونسيين الممنوعين من دخول أوروبا. الصورة من الموقع التالي : <http://juralibertaire.over-blog.com>، تاريخ التحميل: 2011/9/23.

5.1.1. أبرز خصائص "الممارسة الجرافيتية":

من خلال ترصّدنا للأهم الدّراسات والأبحاث -التي تمكنا الوصول إليها- والتي لامست الظاهرة، خاصّة من زاويتها السوسيو أنثروبولوجية، إستنتجنا مجموعة من الرّؤى والخصائص اتّفق حولها فصائل الدّارسين، نوردّها فيما يلي:

- كنوع من أنواع الانحراف.
- كنمط للاتصال و التّواصل.
- كجزء من الثّقافة الشّعبية.
- كتعبير عن ثقافة فرعية متميّزة، ومنه هوية متميّزة ومميّزة.
- كإعكاس لحالة التّمييز العرقي والاثني، ومنه الاجتماعي.
- وسيلة من وسائل التّعبير السّياسي.
- كشكل من أشكال التّعبير الفني (الأكثر حضورًا في متون الدّراسات الأمريكية والغربية).
- الجرافيتيا عبارة عن "كتابة هيروغليفية معاصرة"²⁵³ حسب "إدواردو هوبنر Eduardo Hübner".

نعود ونذكّر بأنّه لا يمكن ملامسة ومقاربة الظاهرة من مستوى واحد، وإنّما ضرورة يجب الأخذ بعين الاعتبار باقي الأبعاد الأخرى، لأن الجرافيتيا ظاهرة جدّ معقدة، ومُتقاطعة المستويات والأبعاد.

²⁵³ Eduardo Camacho- Hübner, "Je suis Mxx, et toi ? – Moi ? Xiiimxv", espaces Temps, Mensuelles, 03.03.2006. [Url :http://www.espacestems.net/document1867.html](http://www.espacestems.net/document1867.html). Consulté le : 14/02/2010.

2.1. الممارسة الغرافيتية بين إستراتيجيات المكافحة والاستيعاب

نحاول ضمن الصفحات التالية ترصد أبرز الاستراتيجيات التي أعتُمدت في مكافحة ظاهرة الغرافيتيا، مع الاستشهاد بأمثلة واقعية لتكاليف "خيالية"، واجتهادات عالمية للحدّ منها. وذلك بمحاربتها بكل الوسائل الدّعائية والرّدعية، فمن الحملات الإشهارية المناهضة لهذا السلوك إلى المتابعات القضائية، إلى تضيق الخناق على المُمارسين وملاحقته من طرف فِرَق أمنية خاصّة. حيث احتلت -ومازالت- "ممارسة الغرافيتيا" المراتب الأولى ضمن الانشغالات المُقلّقة للسلطات المحلية، لمختلف المدن العالمية (خاصّة الأمريكية والأوروبية والأسترالية). نتيجة "الأثار السلبية" التي تنتج عنها. فحاولت استيعابها، ليس لتفعيلها لصالح فاعليها، وإنّما للقضاء عليها، أو على الأقل للحدّ منها. فما حدث كَرَدَ فعلٍ على تنامي الممارسة كان عكس ما هو مطلوب، فَعَوُضَ إقتراب أهل الحلّ والرَبِطِ وَمَالِكِي وسائل الإكراه من الفاعلين (المُغَرَفَتِين Les graffeurs) لمحاولة تفهّم الدّوافع الثّأوية وراء هكذا إقبال هِسْتِيرِي عليها، إرتأت إنتهاج "السُّبُل التقليدية" في معالجة المشكل، من خلال إعلانهم "الحرب" عليها.

إلّا أنّ هذه الأخيرة لم تَخْمُدَ إلى يومنا هذا، بل تفاقمت خسائرها المادية والنّفسيّة والاجتماعية - وحتّى البشريّة-. مما أدّى لإحتدم السّجالات بين الباحثين حول علاقة المجتمع ومواقفه من هكذا سلوك قديم- جديد، و"خطره" على الدّوق والأمن العام. فظهر من ينادي بضرورة محاربة هذا السّلك المَشِين والغير حضاري، وبمعاقبة كل من يُضَبَطُ في حالة تَلَبُّس. ما شجّع السّلطات المحلية على إطلاق حملات تنظيف جدران المترويات وعربات القطارات. وتبعها شركات تضرّرت كثيراً من الظاهرة، إذ قامت بتسخير إمكانيات ضخمة، مالية وبشرية لذلك. فمثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، تمّ تجنيد أزيد 1000 عامل لتنظيف 6245 قاطرة، و465 محطة قطار، بتكلفة مالية قدرت بـ52 مليار\$. ما بين سنة 1984 إلى 1989، واستقرّ متوسط الإنفاق السنوي حوالي 12 مليار\$²⁵⁴. ووصل الأمر إلى حدّ تجريم امتلاك الأداة "عبوة البَخ Les bombes de peinture" ابتداءً من جانفي 2006. وتمّ تحديد السنّ القانوني لإمتلاكها بـ18 سنة

²⁵⁴ حيث قفز المبلغ الإجمالي لمحاربة الغرافيتيا -سنة 2002- حسب تقرير جمعية "American Beautiful" بالو. م. أ.

إلى حوالي 12 مليار\$.

بدل 21²⁵⁵. ويعتقد الباحث "تيم كروسويل Tim Cresswell"²⁵⁶ أنه نتيجة هكذا حملات تراكمت

في العديد من اللغات، أوصاف -سلبية- متعدّدة للجرافيتيا، منها ما يلي:

• أنّها تلوّث بصري. • تخريب مقصود. • مؤشّر للعنف وللأمن. • الجرافيتيا شكل من أشكال

الانحراف. • إنّها المرض الحضري، بل العدوى الحضريّة التي يجب تطييبها.

• إنّها السرطان المتقدم في جسم المجتمع، على حدّ تعبير "ميكائيل والش Michael Walsh"

على غلاف كتابه "Graffito"²⁵⁷.

• بل "الفيروس" الذي استفحل في الجسم المجتمعي، حسب "بوب بريان Bob Bryan". إذ

يصفها بالفيروس الذي تسرب لكامل مستويات الوعي، ومثله مثل أغلب الفيروسات لا يمكن

الكشف عنه إلاّ بعد استفحاله في كامل الجسم، فتصعب معالجته والقضاء عليه.

كما سجّل "كاستلمان Castelman" عام 1982، ملاحظة أكد من خلالها، أن ظاهرة الجرافيتيا

كثيرا ما أُلصقت بها الأحكام القِيَمِيّة المُعَمَّمة، المُسبقة، لا تستند لدراسات علمية. ونفس السّياق

يشير "إريك فيليسبيرت Eric Felisbret" إلى أنّ السّلطات المحليّة -بنيويورك- تعاملت مع

الجرافيتيا باعتبارها عملاً تخريبياً يُشوّه البِنَايات ويُخفّض قيمتها الشّرَائِيّة²⁵⁸.

يعتقد بعض المهتمين، أنّ الجرافيتيا مع نهاية القرن العشرين أضحت ظاهرة ديموغرافية، إذ ما

فَتَيْتَتْ تَتَّسع يوماً بعد آخر، مما جعل تكلفتها في ارتفاع مقلق. ففي سنة 1992 أنفقت مدينة "لوس

أنجلس Los Angeles" حوالي \$15.000.000، من أجل تنظيف جدرانها وواجهات محلاتها.

وكمحاولة إستراتيجية للحدّ منها أُطلقت حملة "Tolerance Zero" مع بداية 1994، حيث صُنِّفَ

هذا الفعل في خانة الجُنْح، يُعاقب عليه القانون وبشِدّة، وأدرج ضمن التلوث البصري Pollution

Visuelle. وتراكمت صفات التّقبيح والدّم للممارسين، ونعتهم بالأشخاص الغير المتحضّرين، والغير

²⁵⁵ La Libre Belgique, "La guerre des graffitis à New York", Mise en ligne le: 17/01/2006.

<http://www.lalibre.be/culture/arts-visuels/article/262955/la-guerre-des-graffitis-a-new-york.html>. Consulté le:12/02/2011.

²⁵⁶ Ilse Scheepers, "Graffiti and urban space", (Thesis), University of Sydney (Australia), 2004.

www.graffiti.org/faq/scheepers_graf_urban_space.html. Consulted :22/06/2009.

²⁵⁷ Michael Walsh, "Graffito", Pub: North Atlantic Books, 1996, p84.

²⁵⁸ يعتبر "Eric Felisbret" من أقدم مؤرخي الظاهرة، أمضى أزيد من أربعين عاماً من البحث في الفن الجرافيتي، آخرها:

Graffiti New York, Ed: Harry N. Abrams Inc, USA, 2009, 340 p.

المسؤولين كما يؤكده "جو أوستان Joe Austin"²⁵⁹. بل أُعلن عن فِرَقٍ خاصّةٍ لشرطة الغرافيتيا، مُزوّدة بكلاب ألمانية مُدرّبة على ملاحقة الفاعلين (المجرمين)²⁶⁰، ومن ثمّة تقديمهم للعدالة قصد المحاكمة. ففي سنة 2005 تمّ توقيف 2230 "مُمارس" بالمدينة، بتهمة التّخريب الغرافيتي، 93% منهم تمّ توقيفهم سنة 2004. أمّا "واشنطن" فأُنفقت خلال 2007، أزيد من \$ 800.000 لنفس العملية.

لقد "وُصِّمت" الغرافيتيا بالسُّمعة السيّئة، وخرجت عن دورها التّضالي، حين تراكمت عليها الضّغوط الاجتماعية والقانونية، الداعية بضرورة التّخلص منها، ومعاقبة مرتكبيها، باعتبارها ظاهرة تخريب، وتشويه للممتلكات العامة والخاصة، بل ومصدر إزعاج غير مرغوب فيه، وأنها تعديّ صارخ- على قُدسية حق الملكية (الفردية والجماعية). هذا ما أفضى لعلاقة متوتّرة بين الممارسين والسّلطات، أفرزت ما يسميه "Austin" بـ"الأزمة الحضرية Urban Crisis"²⁶¹. مما اضطر البلديات إلى محاربتها، وتغليظ العقوبات على فاعليها. فها هو رئيس بلدية "شيكاغو" يُصدر تعليمات بفتح مكتب البلدية على مدار 24 ساعة، لِتلقّي أيّة مكالمة هاتفية لمن أراد تقديم شكوى على الطّلاءات المزعجة، وأنّ مكتبه على استعداد لإستخدام المُذنبات لمحوها.

أما في مدينة "نيويورك" مهّد الممارسة -كما أسلفنا الإشارة- والتي دأبت شاحناتها الثّلاثين تَفقُد الشّوارع يوميًا، بكرةً وأصبلا، بُغيةً رشّ مزيجاً من المياه والمواد الكيماوية، بهدف تنظيف ما عُرفت على واجهاتها. وتشير الإحصائيات التي أعلنت عليها السّلطات المحلية سنة 1989 تجاوز نفقات التّنظيف 150 مليون \$، موزّعة على 80000 ساعة عمل. أمّا في سنة 2008، واصلت مجهوداتها التي بذلتها الفرق المتخصّصة، إذ قامت بتنظيف 8496 وحدة غرافيتية، مقابل 5990 وحدة خلال السّنة السّابقة (2007).

ليرتفع سنة 2009 إلى ما يزيد عن 8500 وحدة غرافيتية. إلّا أن الظّاهرة كما يؤكّد رئيس البلدية "مايكل بلومبرغ Michael Bloomberg" في تنامي مستمر، رغم تشديد الإجراءات الوقائية

²⁵⁹ Joe Austin, "Taking the train: How graffiti art became an urban crisis in New York city", New York, Columbia University Press, 2001, 400 p.

الكتاب عبارة عن دراسة أنثروبولوجية قام بها الباحث يمكن تصفحها على الموقع الإلكتروني التالي: <http://www.questia.com/PM.qst?a=o&d=100791175>. تاريخ الاطلاع: 11/06/2010.

²⁶⁰ يعتبر رئيس مدينة "نيويورك" السيد "كوش Koch" الذي ترأس البلدية خلال نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، من أشهر المسؤولين الذي اعتمدوا على الكلاب المُدرّبة للإطاحة بالمُغرفتين.

²⁶¹ Joe Austin, op .cit. p 5.

والردعية. على نحو منع بيع بخاخة رشّ الأصباغ إلى الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثامنة عشرة سنة. ولم تجد سلطات ولاية " فيلاديلفيا" عن القاعدة، إذ خصصت برنامجا طموحا كمحاولة للحدّ من انتشارها، حيث شيدت سنة 2007 حوالي 2000 جدار للتعبير الحر لهؤلاء مع تفعيل سياسة الردع والمتابعة. إلا أنّ "الحرب" حسب "إريك فيلسبري Eric Flisbert" لم تقضي على رسامي الغرافيتيا بل بعثرتهم فقط، وزادت الظاهرة ضراوة سنة بعد أخرى، رغم تشديد العقوبة في حالة تلبس، بسنة سجن نافذة، وغرامة بـ \$1000.

1.2.1. نظرية "النوافذ المكسورة" كمرجعية لمحاربة الغرافيتيا:

تعتبر نظرية "النوافذ المكسورة Broken Windows" إحدى المرجعيات المهمة في مكافحة الممارسة "المنحرفة/الإجرامية" عامّة، والغرافيتية خاصّة، هندسها الباحثين "جيمس ويلسون James Q. Welson" و"جيوورج كلينغ George. L. Killing"²⁶². إذ كثيرا ما ساجلا عن فعاليتها في تقييد الأفعال الإجرامية في بواكيرها، ومن بينها الكتابات الغرافيتية. إذ كثيرا ما دافعا عن فعاليتها في محاضراتهم ومؤلفاتهم، وعن معادلتها الرئيسية التي ترى أن "الفوضى تجذب الجريمة، وأن الجريمة هي النتيجة الحتمية للفوضى".

فإذا إنكسرت نافذة ما، في مكان ما (المدينة أو القرية)، ولم يتم إصلاحها في حينها، ففي مؤشر واضح ومجلبّة قوية لإستثارة الفعل الإجرامي، الذي يبدأ بالتخريب. بل إنها بطاقة دعوة لهكذا فعل. فإذا كسرت نافذة ولم تُصلح في حينها، فالنتيجة التالية هي تكسّر باقي النوافذ. لماذا؟، لأنّ الرسالة المُرسلة من تكسيرها، أنّ لا مالك ولا مسؤول عن هذه النافذة (البيت، العمارة، أو المؤسسة..)، أو أنّه لم يابّه ولم ينزعج لهكذا فعل. فتبدأ الأطماع تتلاحق، وتدبّ الفوضى، وتستقطب كلّ من يميل لممارسة الانحراف. ولإستباق ذلك اقترح المنظران بأن تُصلح كل نافذة كسرت أو تشققت، لأنّه قد تنقلب المعادلة إذا لم تُصلح. فإذا أهملت أضحت مؤشرا للأشخاص "الغير الصالحين" بأنهم مسؤولو المكان، فيمسي وكرا للجريمة والانحراف. لذا يجب تفعيل القاعدة المشهورة "الوقاية خير من العلاج"، بالإسراع في معالجة الأمور التي نعتقد أنّها صغيرة وهامشية.

²⁶² أول ما ظهرت معالم هذه النظرية من خلال مقال نشره الباحثان تحت عنوان:

"Broken Windows: The police and neighborhood safety. 1982, (Fenêtres cassées. La police et la sécurité du quartier.

نضجت النظرية ونشرت في كتاب بعنوان:

G. L. Kelling & Catherine Coles, "Fixing Broken windows: Restoring order and reducing crime in our communities", 1996.

ويؤكد الباحثان يمكن لنفس المبادئ النظرية أن تنسج على أمور الاقتصاد والخدمات، فإذا بقيت -مثلا- مراحيض مطعم "Berger King"، بدون 'ورق التنظيف'، مما يدل على رداءة التسيير الداخلي للمطعم، وعدم الاكتراث لحاجات الزبائن، مما يجعل الزبون يستنتج أن الطعام لا يحضّر بطريقة لائقة، مما يرشّح احتمال حدوث أخطار صحية، ما دام الإهمال وصل حتّى للمراحيض. لأن المشاكل حسب العالمان تتراكم كـ"كُرّة الثلج Boule de neige"، "نعتمد أن الأمور الصّغيرة هي التي تُحدِث الفرق الشّاسع في عالم الأعمال"، يصرح "ولسون" و"كلينج".

بُوّئت هذه النّظرية في محاربة الجرافيتيا تحت اسم نظرية "الجدار المُعرّفت Le Mur tagué"، الذي إذا ترك دون تنظيف حال إكتشاف الحروف أو الكلمات الأولى، بل حتّى الشّخبطات الأولى، تحوّل لفضاءٍ مُستثيرٍ للممارسة، حيث يصبح كمحفز قويّ لإقبال باقي الأفراد "الممّسوسين" بالممارسة. وفي ذات الوقت كمؤشّر واضح لعجز السّلطات المحلية عن التّحكم في الفضاء المدني ككل، مما يُحفّز المراهقين للتّهافت عليها. وقد يحدث العكس، إذا تمّ تشديد وتوسيع عملية الملاحقة، بتنظيف كل جرافيتيا لحظة ميلاده، مما يوحي بالحضور القوي لها بالمكان. مُعظم الانتقادات التي وُجّهت لهذه النّظرية، أجمعت على القيمة العلمية لها، مع بعض التّحفّظات فيما يتعلق بالمبالغة في الاهتمام بصغائر الجُنح، مما قد يُفوّت ويُلهمي عن الاهتمام بالجرائم الخطيرة.

من بين السّباقيين في استثمار مبادئ هذه النظرية لمحاربة الجرافيتيا، رئيس بلدية "نيويورك" "ج. ليندساي John Lindsay" حيث أعلن عن أوّل عملية ضدّ الممارسين، أعلنها "حرّاً مفتوحة"، صيف 1972، ونشر ندائه عبر وسائل الإعلام المحلية، ملخصاً في: "يا سكان مدينة نيويورك، هُبُوا لمساعدة مدينتكم الرّائعة، دافعوا عنها، وحافظوا عليها بمساندتكم لنا في حربنا ضدّ هؤلاء السّفلة، الجُبّناء، المرضى".

ولكن، رغم التّضيق الشّديد على ممارسي الجرافيتيا إلا أنّهم استمروا في "نضالهم". حيث زاد الخناق عليهم خلال الثّمانينات والتّسعينات، واشتدّت سياسة الرّدع. فها هو رئيس آخر لنفس البلدية (نيويورك) السيد "رودولف جيولياني Rudolph Giuliani" يعلن بداية 1994 عن نيّته في تصعيد العمل المشترك للحدّ من انتشار الجريمة، خاصة الكتابات الجدارية. فأطلق بمساعدة محافظ شرطة المدينة السيد "وليام براطون William Bratton" سياسة ردعية، سُميت بـ"التّسامح صفر Zero tolerance/"Tolérance zéro"، حيث طُبّقت قوانينها على كل الجرائم، بدءاً بالمخالفات البسيطة ووصولاً لأخطرها، مع التّركيز على 'جريمة الجرافيتيا'، التي شوّهت -حسبه-

المنظر العام للمدينة، ومحاولة بلوغ نتيجة "مدينة أكثر أمنًا ونظافة". وبالفعل تحققت بعض مراميها، حيث تشير الإحصاءات (الرسمية) إلى تراجع نسبة الجريمة بمختلف أنواعها، بما فيها الغرافيتيا، خلال السنوات الأولى التي عرفت تصعيدًا في تطبيقها إلا أنها لم تستطع القضاء عليها. ولعلّ من أبرز التجارب الرائدة في محاولة إستئناس الممارسة، نذكر:

◆ تجربة مؤسسة "برنامج الفن الجداري":

في مطلع سنة 1984، قرّر عمدة مدينة "فيلاديلفيا" تأسيس فريق خاصّة لمحاربة الفاعلين، لتتحول إلى مؤسسة "PAGN"²⁶³ ترأسها آنذاك الفنانة والنّاشطة الاجتماعية "جين غولدن Jane Golden"²⁶⁴، التي أطلقت مشروع "برنامج الفن الجداري Mural Arts Program"²⁶⁵. مهمتها الأساسية تحويل الجدران من مساحات مُستباحة للخربشة والتّخريب الغرافيتي إلى لوحات فنيّة، تُزيّن الجهات الأربعة للمدينة. بالإضافة إلى إعادة تأهيل الشّباب المُمارس، الذي إمتهن الغرافيتيا كوسيلة للتعبير عن رفضه لثقافة المجتمع. لتفعيل ذلك تمّ إنشاء منظمة تُطلق على نفسها اسم "مجموعات (عصابات) الغرافيتي Graffiti Gangs"، تضمّ شبابا من مختلف الأقليات العرقية. تهدف إلى إعادة تأهيلهم، بحيث تيسر لهم الانخراط الإيجابي في حركة جماعية تُحوّل البُعد النّاقم والسّلي في ممارستهم إلى فعلا خلاقًا، ذو طابع فنيّ جمالي، يُستثمر في تزيين المدينة²⁶⁶. والملاحظ اليوم على استراتيجية السّلطات الأمريكية أنّها ما زالت تشتغل بعقلية سبعينيات القرن العشرين، حيث تزواج بين الاستدراج "الانتقائي" وتشديد الاجراءات الرّذعية مع تفعيل الحملات المضادّة.

أ. مدى فعالية الاستراتيجية الكندية:

تعتبر "كندا" من بين الدول الرائدة في محاربة الظاهرة من خلال العديد من الاستراتيجيات، تباينت ما بين سياسة الرّدع والعقاب -أسوة بسياسة الو.م.أ- وحملات التّوعية والمُهادنة. لم تُؤت سياسات الرّدع أكلها (الحديث من انتشار الظاهرة)، فتعلت أصوات تدعوا لضرورة

²⁶³ (PAGN): Philadelphia Anti-Graffiti Network .

²⁶⁴ صرّحت ذات يوم، تعليقًا على فكرة البرنامج، قائلة " في البداية بدا الأمر نُكته بالنسبة لسكان المدينة، وكان غير مشجع على الإطلاق،.. فكرت مليًا لكن سرعان ما اتضح لي أن الحل يكمن في تنمية الحس الجمالي في هذا الفن".

²⁶⁵ البرنامج ما زال ساري المفعول إلى يوم اطلاقنا على الموقع، توسعت اهتماماته إلى توعية السجناء الذين سُجنوا لأسباب الغرافيتيا، وقد قام البرنامج بتنفيذ 2100 لوحة فنيّة عبر كامل المدينة. أنظر الموقع التالي: <http://muralarts.org/about> ، تاريخ الاطلاع: 2011/07/25.

²⁶⁶ مرح البقاعي، "عصابات الغرافيتي...والجداريات"، الحوار المتمدن، العدد 1023، 2004. الموقع الإلكتروني: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=26837 . تاريخ الاطلاع: 2009/09/18.

الاستعانة بلغة التوعية والحوار المفتوح، حيث صرّح مستشار مدينة "Montréal" السيد "ريمون كاري Raymond Carrier" أن السلطات أنفقت الملايين من الدولارات لمحاربة الظاهرة، إلا أنّها أهملت الطريقة الجوّارية مع هؤلاء، بضرورة إقناعهم بالإقلاع عنها. وهذا ما قد يُضفي لاشتعال فتيل العنف، إذا أخذ السّكان زمام المواجهة ضدّ الممارسين. لأنّ كل مواطن قد يقفني عصا 'فولف' أو 'بيززل' لمواجهةهم، دون إخفاء خوفه من استعمال الأسلحة البيضاء أو النارية.

ومن بين أهم المشاريع التوعوية التي أُعلن عنها بمدينة "Montréal"، مشروع "Café-Graffiti"، الذي انطلق مع بداية 1997، كمحاولة جادّة لِنسج علاقات تواصل ما بين السلطات ومجموعات الشّباب المُمارِس للهِيب هوب Hip Hop، وعلى رأسها الغرافيتيا- في بُعدها الفني- وللعقد لقاءات تشاورية، حول القضايا التي تُعيق طموحاتهم، وكفضاء لتلاقح الأفكار، لتطوير فَنهم المتعدّد الأبعاد (البريك دانس، الرّاب، والغرافيتي). في المقابل، تمّ تيسير عمل المركز من طرف السلطات المحلية، بُغية تحسيسهم بمخاطر ومُخلفات الممارسة، ومحاولة الالتفاف على هؤلاء (المُتمردين)-حسبها-. وبالتنسيق مع التوجّه الجديد للمدينة، استطاع هذا الفضاء تفعيل بعض المشاريع الطموحة والجذّابة للشّباب من بينها: وضع جدران خاصّة لمُمارِسِي الغرافيتيا، للكتابة عليها بكل حرية²⁶⁷. تمويل مشاريع جماعية هدفها جمع شمل الشّباب ومواطني الأحياء من أجل التعارف والتّفاهم والتّقارب في التّصورات. في سنة 2002، تمّ توقيف ميزانية التّدخل الوقائي حول الظاهرة بسبب قناعات رئيس البلدية الجديد، لتتخلص من الغرافيتيا المنتشرة. رغم استمرارية "المقهى الغرافيتي" في أداء وظيفته التّحسيسية للشّباب.

وكشف تقرير لشركة النقل بـ"مونتريال" سنة 1999، أنّ المساحة التي تحتلها الغرافيتيا في محطّاتها، تتعدّى 8827م²، (ما يعادل مساحة ملعبين لكرة القدم الأمريكية). وتكاليف تنظيفها كلّفها \$ 541 كندي للمتر المربّع الواحد، وقد يتضاعف بالمساحات المُستعصية. وفي سنة 2005 احتلت مدينة "كاتينو Gatineau" الصّدارة فيما يتعلق بـ"التّدخل الغرافيتي"، حيث خصّصت اثنتي وعشرين جداراً، للممارسة الغرافيتية (المسموحة)، إضافةً إلى ثمانية جدران مُتنقلة، لإحياء التّظاهرات الثقافية، مُدعّمة بفرقة تَدْخُل تُساعد الشّباب في كل الطّروف.

أمّا بمدينة "كبيك Québec" فتمّ الإعلان عن مشروعين رائدين للشّباب الممسّوس بالممارسة،

²⁶⁷ كتب عنه أحد مسؤوليه "Raymond Viger" يقول، بأنّ "مقهى الغرافيتي Café-Graffiti" أصبح عائلة جديدة لمنتسبيها، يستقبل الشّباب الزّامي لبناء هوية جديدة، تتوافق مع قدراته وطموحاته الإبداعية. من موقع المقهى:

<http://www.cafegraffiti.net/historique.html>

الأول بالتعاون مع دار "Maison Dauphine" كمحاولة لمساعدتهم لتنظيم منتج الجرافيتي الفني، كاستراتيجية لترشيد الممارسة. والثاني بالتعاقد مع منظمة "Carrefour jeunesse- emploi" للعاصمة، لتنمية القدرات الشبابية. وفي ذات الوقت توعية المواطنين بضرورة تنظيف المساحات المُعْرِفَتِ عليها، والبحث معاً عن حلول أكثر تحضراً وملاءمة. حتى أصبحت محاربة الظاهرة مؤشراً للتباهي بين السلطات المحلية، بل وبرنامجاً انتخابياً يُسْتَنْجَدُ به لِحَشْدِ الأصوات واستعطاف المنتخِبِينَ. فهذه مدينة "كبيك" تعلن عبر وسائل الإعلام بأنّها نظّفت سنة 2006، في 44 يوماً فقط- ما مساحته 11000 قَدَمٍ مُرَبِعٍ، حيث تمَّ إزالة حوالي 13000 وحدة جرافيتية، أُستخدِمت فيها أحدث منتجات التَّنْظِيفِ الجرافيتي²⁶⁸، بفضل مجموعة التَّنْظِيفِ "Graffiti" ²⁶⁹. كما خصّصت ثانوية "Collège Jean -de – Brébeuf" جريدة طلابية، بعنوان "Graffiti" جرافيتي، حيث سُمِحَ للطلّبة بالتعبير الحر عن كل ما يدور في أذهانهم.

وفي نفس السِّياق أطلقت الفنانة الكندية "جووال ترومبلاي Joëlle Tremblay" عبارتها المشهورة "الفن الذي يجمعنا"، إذ قامت بعدة جولات للمدارس والجامعات للاستفسار حول حاجات وتطلعات ورغبات الطّلاب. ومن ثمَّ ترك لهم الحرية في الكتابة، وفق قاعدة أخلاقية تتلخص في "أصغني وألزم الصّمت". تلخصت مهمّتها في مساعدة كل طالب يُمارس الجرافيتيا في الكشف عن هويته الإبداعية، في فضاءٍ غالباً ما يختزل الشّخص لِيُصْبِحَ مجرد مستهلك. ومن بين التّقنيات المعاصرة التي استثمرتها السلطات في حملاتها الرّدعية والتّوعوية، الأنترنت، حيث خصّصت مواقع إلكترونية للإعلان عن خدمات تنظيف الجرافيتيا، ولتحسيس وتوعية المجتمع المدني، والشباب الممارس بمخاطر الظاهرة مجتمعيّاً²⁷⁰.

حتى الفضاء المدرسي والجامعي لم يسلم من (العدوى)، مما رفع تكاليف التنظيف لمستويات مُقلّقة ومُكلِّفة، حيث أشارت "جوناتان وودوار Jonathan Woodward" إلى أنّ فاتورة التَّنْظِيفِ في مدرسة "Vancouver school Board" (بمدينة "Vancouver" الكندية)، بلغت سنة

²⁶⁸ على نحو مادة "5000 Deletum" تستخدم لتنظيف الجرافيتيا، تمَّ اكتشافها من طرف مجموعة من الباحثين المكسيكيين، بقيادة "Victor Castano" جامعة مكسيكو سنة 2003. ومحلول "Wipe –N-Renew"، يُعبأ في دلاءٍ سعيتها 3.79ل، و23ل. على مستوى المؤسسات المنتجة نذكر الشركة الألمانية "Montana"، وشركة "Spanish Montana" بإسبانيا.

²⁶⁹ اسم لمشروع أطلقته السلطات لمحاربة الجرافيتيا. رصدت له مبلغ 23000 \$ كندي، يُشرف عليه مسؤول على أعمال التنظيف، ومساعدتين نفسانيين واجتماعيين. للاستزادة يمكن الرجوع للموقع الإلكتروني:

<http://www.quebecurbain.qc.ca/categorie/graffiti/page/2/>

²⁷⁰ نذكر على سبيل المثال موقع: "Goodbye Graffiti" www.goodbyegrffiti.com

2003، \$150.000 كندي. مما اضطرّها لفرض عقوبات ماليّة، بلغت الغرامة فيها \$ 500 كندي لكل طالب يُضبط يمارس الغرافيتيا، كمحاولة لخفض التكلفة. بالإضافة، لفرض السلطات المحلية للمدينة على كامل المؤسسات بتنظيف جدرانها وواجهاتها في مدّة لا تتجاوز عشرة أيام من ظهورها، وإلا تُعاقب المؤسسة بـ\$100 كغرامة عن كل يوم تأخير²⁷¹. أمّا المؤسسة الجامعية، فأنفقت إدارة جامعة "Colombia Britannique" سنة 2003، أزيد من \$145000 لتنظيف الغرافيتيا، باستخدام مواد كيميائية باهظة الثمن. هذا ما أفضى لرفع التّنفقات التي كان من المفروض إنفاقها على خدمات وتجهيزات أخرى.

ب. خصوصيات المعالجة البريطانية "للممارسة":

اختلفت المعالجة البريطانية نوعاً ما-في البداية- عن مثيلاتها الأوروبية، حيث خصّصت لهؤلاء أماكن ومساحات للتعبير الحر عن كل ما يدور في عقولهم، وزوّدتهم بالأدوات اللازمة بشرط ألا يتعدّوا هذه الأماكن "المخصصة". ومع ذلك، لم تتوقف الظاهرة، حيث بلغت تكلفة التنظيف سنة 1989 حوالي \$ 800.000 في ذات السنّة، على مستوى المدن، ارتفعت فاتورة المحافظة على أنفاق لندن، خلال 1997، إذ تعدّت \$25.000.000. مما اضطرّها إلى تكثيف حملاتها الإشهارية المضادّة للغرافيتيا بالمترو، على نحو العبارة التي أطلقها -مؤخراً- على خلفية مقاعد القطارات. والصورة التالية توضح ذلك.



الصورة 46: "غرافيتي، ومحطتك القادمة تكون السّجن"²⁷².

وكرد فعل لهكذا "سياسات ردعيّة" تشكلت جمعيات تنادي بضرورة احترام حرية التّعبير،

²⁷¹ "Vancouver school board had 10 staff over 150,000\$", In: Vancouver Sun, 17/12/2010.

<http://www.canada.com/vancouvernews/news/westcoastnews/story.html?id=b5818ba7-2b73-4178-9964-406409532646> . Consulted: 11/5/2011.

²⁷² الصورة من: <http://www.tijuana.fr/pub-anti-graffiti-metro-6295.htm> بتاريخ: 2012/2/5.

وإفساح المجال للشباب لتفريغ مواهبهم بأساليبهم الخاصة، على ما ذكرته "ج. بوسنر Posner Jill" في كتابها "Spray it loud" 1982²⁷³، عن جمعية أسترالية للدفاع عن الممارسين، وقد وضّحت المؤلفة الطريقة المثلى للتصرف في حالة القبض على المُعْرِفَت، والوسائل القانونية اللازمة، كطلب المحامي، حيث يحاكم الفاعل بتهمة تدمير الممتلكات العامة التي تصل إلى (التجريم) قانونياً.

ت. المحاولات الفرنسية للحدّ منها:

الغرافيتيا، ممارسة يعاقب عليها القانون الجزائري الفرنسي، ففي المادة 1-322 الفقرة 2 من قانون العقوبات، تنص على "إن أيّ كتابة، أو خطّ علامات أو رسومات على الواجهات، أو السيّارات، أو الأماكن العامة، أو العقارات الحضرية، دون الموافقة الرسمية المسبقة، تُعَرِّض فاعلها لعقوبة مالية تقدر بـ: 3750 €، ولعقوبة العمل للمصلحة العامة، إذا ترتّب عنها خسائر طفيفة".

في البداية كان تعامل السلطات معها خاضع لطبيعة المضمون، إذ أُعتبرت المضامين السياسية الشُّغل الشّاعل للسلطات، ويجب بذل كل الجهود لِطَمَسِها، بينما أُعتبرت الكتابات الأخرى بمثابة تعبير عن فضول شخصي. لكن مع تفاقم الظاهرة في منتصف الثمانينات عبر مختلف المدن الفرنسية، في مقدمتها العاصمة "باريس"، لخصوصية أنفاق مترو باريس، اضطرت السلطات البلدية لرفع درجة "التهديد الغرافيتي"، فكثفت عملياتها الرّدعية بتخصيص فرق خاصّة، مُدجّجة بآلات ومعدات ومواد تنظيف الكتابات. والإعلان عن مناقصات وطنية لإنشاء مؤسسات خاصّة، أوكلت لها مهمة المتابعة الدائمة والتنظيف المستمر، خاصّة لـ "مترو باريس"²⁷⁴.

استفحلت الظاهرة وتراكمت الشكاوى على السلطات القضائية، فمع بداية سنة 1990 قامت شركة النّقل "R.A.T.P" بإيداع شكاوى عدّة ضدّ مجهولين، لإتلافهم ممتلكاتها الخاصة بتلطيخ قاطراتها، والتي كلفتها خسائر معتبرة. وتبعتها شركات النقل الأخرى، بتخصيص مبالغ هائلة لمحاربة الآفة، فـشركة "SNCF"، رصدت 50 مليون € سنوياً، لتنظيف قاطراتها والمحطات التابعة لها، وجنّدت أعوانها للهدف المذكور، كل هذه الجهود بذلت تحت بُندٍ معلن 'الحفاظ على الذّوق العام'.

²⁷³ Liz Wells, "Photography: A critical introduction", third edition, Routledge edition, 2004, p 212.

(Google books).

²⁷⁴ على نحو مؤسسة "Electro Painters"، بلغ رقم أعمالها 19 م. فرنك فرنسي -آنذاك- تضم 60 عاملاً، أبرمت مع شركة R.A.T.P عقداً للتنظيف اليومي لهياكلها، لتجني أرباحاً بلغت سنة 1989 ما قيمته 450 000 فرنك.



الصورة 47: عامل شركة "HTP-anti-graffiti" في مهمة تنظيف "الفوضى الجرافيتية" (باريس 2009)²⁷⁵. كما طالبت السلطات من السكان مساعدتها بتنظيف واجهات منازلهم، بل فرضت على أصحاب المحلات إزالة هذه المظاهر والامتناع عن دعوة الممارسين لزخرفة واجهات محلاتهم، عكس ما كان مسموح به في السابق، لرسم لوحات فنيّة، قصد الإعلان والإشهار لسلعهم وخدماتهم. ففي سنة 1999 رصدت السلطات مبلغ تجاوز 103 مليون €، لتنظيف الأماكن المغطاة بالكتابات²⁷⁶. تمّ إنفاقه وفق ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: تمّ تفعيل حملة تنظيف ما مساحته 240000 م².

المرحلة الثانية: التنظيف الدوري لكل كتابة جديدة في مدة لا تتجاوز 12 ساعة.

المرحلة الثالثة: أوكلت مهمة التّنظيف لمؤسّسات خاصّة بالتعاون مع المصالح البلدية.

ويعتقد "ألان فيلبو Alain Vulbeau" أنّ السلطات أخطأت عندما تعاملت مع الظاهرة باعتبارها تلوينًا وتخريبًا للمنظر العام للمدينة²⁷⁷. ففي مدينة "Grenoble" مثلا، اعتمدت السلطات المحلية في مُحاربة الظاهرة على شعار "تنظيف جرافيتيا اليوم يساعدنا للقضاء على جرافيتيا الغد"، مع تكثيف الملاحقات الميدانية والقانونية للممارسين. رغم ذلك، يلخص نائب رئيس البلدية المكلف بالنظافة، النتيجة الزاهنة للسياسة المتبعة بقوله "منذ عشر سنوات كان بإمكاننا التعامل مع الوضع، أمّا اليوم كَبُرَ الصَّبِي ولم يَعُدْ بإمكاننا حَمْلُهُ وحدنا"²⁷⁸.

²⁷⁵ مصدر الصورة :

<http://www.paris.fr/pratique/aides-allocations-demarches/services-en-ligne/graffiti-et-affichage-sauvage/rub9685stand2574port23869>. Date de téléchargement: 2011/09/4.

²⁷⁶ فعلى سبيل المثال، استنفذ ميترو باريس سنة 1989، 35 مليون فرنك فرنسي، أضيفت إلى 14 مليون سنة 1988.

²⁷⁷ Alain Vulbeau, op, cit.

²⁷⁸ Benjamin Pradel, "Entre institutionnalisation et clandestinité: Le graffiti ou l'hydre à deux têtes", In: "C'EST MA VILLE !, de l'appropriation et du détournement de l'espace public, sous la direction de: Nicolas Hossard & Magdalena Jarvin, ed: L'Harmattan, 2005, pp.177-188. (Google Books).

وبالموازاة مع التّضيق على الممارسين، حاولت السّلطات تبني سياسة المُرجب بممارستهم الثقافية، بل والاعتراف ببعض الأعمال، و إيلاجها لدور العرض الرسمية. سياسة وُجّهت بانتقاد العديد من الفاعلين السياسيين والإداريين، وحتى الباحثين، على نحو "جون لويس هارويل-Jean-Louis Harouel"²⁷⁹ الذي رأى في الغرافيتيا نوعًا من "الثقافة المضادة"²⁸⁰، ونوع من أنواع "اللافن"، التي أفرزتها موجة ما بعد الحداثة، النَّاتجة عن تأثيرات الثقافة الأمريكية التي استقبلناها بدون غربة ولا نقد، والتي تدخل في سياق "أمركة الثقافة L'américanisation du culture". ويُضيف بأن سياسة الاحتواء والاعتراف التي تحاول المؤسسة الفنيّة تقديمها²⁸¹، لا تغدو أن تكون ديماغوجية، لا طائل منها.

ث. الفلسفة الألمانية في مكافحة الممارسة الغرافيتية:

يصف رئيس شرطة مدينة "برلين" "ماركو موريتس Marco Maurits" هذه الرّسومات بأنّها "مخالفة قانونية"، أكثر مرتكبها الشّباب، الذين يتراوح سنهم بين 14 و20 سنة، بصورة جماعية. وأضاف- أنهم سيَتوقّفون يومًا ما عن ارتكاب مثل هذه المخالفات بحُكم نُضجهم وتحمّلمهم لمسؤولية أعمالهم، وسيبتعدون عن "العُلب البَخَاخة" التي يستعملونها لتلوّث واجهات المنازل والجسور ووسائل النّقل، ليتم تويّ الممارسة من طرف جيّل جديد. فهي ظاهرة تتوارثها الأجيال، وهكذا، ستبقى أعمالنا تدور في حلقة مفرغة. وأضاف أن "المُغرفيتين" يمتلكون نظامًا متطورًا وجهاز إنذار مُبكر، خاصّة من خلال التّواصل عبر الأنترنت، بتبادل المعلومات والخبرات، وتحركات رجال الأمن، والفترات التي يجب الاحتراز فيها، أو الإقلاع عنها لمُدّة مُحدّدة.

ولأنّ الغرافيتيا لم تمس سوى الأحياء المحدودة المستوى المعيشي، بل أصابت "العدوى" حتّى الأحياء الرّاقية، اضطر مالكي السّكنات والعقارات الخاصّة لاقتناء أغطية خاصّة لِلصّقها على واجهات منازلهم، بهدف منع المُغرفيتين من الكتابة عليها، لأنّها غير ملائمة لذلك. مما رفع الفاتورة السنوية للأضرار والنّفقات إلى أكثر من 25 مليون €. ويضيف قائلا، أنّه تتواجد بـ"برلين" وحدها أزيد من 100 عصابة يتعدّد أفرادها ما بين 5 و6 أشخاص، لكل واحدة منها هويّتها الخاصّة، تتجلّى من خلال إسمها الخاص، وبصمّتها ورُسوماتها المُتميّزة. تعيش حالات صراعٍ دائم، مزدوج،

²⁷⁹ Jean-Louis Harouel, *Culture et contre-culture*, Paris, Quadrige, PUF, 1998, p.18.

²⁸⁰ كما عبّر "جون بودريار J. Baudrillard" عن ذات التصور واعتبر الغرافيتيا نوعًا من الخطابات الفجّة، لا فنّ فيها.
²⁸¹ برزت معالم هذه السياسة بشكل واضح مع مطلع عام 1989، حيث حاولت إستجلاب الشّباب المُمارس إلى المتاحف وصلات العرض الرّسمية، و تبني ممارساتهم النّقافية (الغرافيتية).

من جهة مع قوات الأمن، ومن جهة ثانية مع العصابات المنافسة.

عبثاً، حاولت سلطات مدينة "برلين" فكَّ لُغز المُغْرِفِيتِ الاستفزازي "بانسكي BANSKY"، الذي دَوَّخَ السُّلطات الأوروبية عامَّةً. حيث أشتهر برسوماته الصِّدامية الممزوجة بالسُّخرية، وِبَرَعٍ في تَغْيِيبِ هويته الحقيقية (الرَّسمية). ولِلإِطاحَةِ بِالْممارسين رصدت السُّلطات مكافئة مالية قدرها €1200 لكل شخص يقدم معلومات دقيقة عن أيِّ "مُغْرِفِيتٍ". وقدَّر ذات المسؤول عدد ممارسي الغرافيتيا ببرلين وحدها حوالي 8000 شخص من كل الجنسِيَّات. ونظراً للكلفة الباهظة للظاهرة سخرت السُّلطات المحلية إمكانيات ضخمة لملاحقتهم حيث تمَّ نصب كاميرات مراقبة في كل زاوية، بالإضافة لتكثيف دوريات للشرطة الليلية، التي أعلنت سنة 2005، عن أول طائرة هليكوبتر من نوع (BGS)، مزوَّدة بكاميرات عالية الكَشْفِ (الأشعة فوق الحمراء)، لملاحقة هكذا ممارسين ليلاً، بالعاصمة "برلين"²⁸².

ج. أمَّا في المدن الإيطالية:

فقد أطلقت السُّلطات المحلية للعديد من المدن الإيطالية، خاصة مدينة "روما" دراسة حول الظاهرة، لتخلص إلى أنّ حوالي 7000 م²، من مساحة المدينة مَكْسُوءة بالكتابات الغرافيتية. فبدأت بتكثيف حملاتها التَّوعُويَّة، وتنظيم ملتقيات علمية، تمحورت مواضيعه حول الظاهرة، وسبُل الحِدِّ من انتشارها، كما حرصت على تفعيل مسابقات بين المدارس والثانويات (الطلبة)، سُميت بمسابقة "Stop graffiti"، كما تمَّ إلصاق الآلاف من الملصقات الإعلانية ضدَّ الغرافيتيا، ونشرها حتَّى على أكياس و عُلَب الحليب.

ح. الغرافيتيا والاجتهاد الأسترالي الرَّسْمِي:

بلغت تكاليف مكافحة الظاهرة بالمدن الأسترالية حسب الكاتب العام لوزارة المحيط، أزيد من 200 مليون دولار أسترالي سنوياً. ففي جهة أستراليا الغربية وحدها، بلغت تكلفة تنظيفها سنة 1993، أزيد من ستة مليون \$ أسترالي²⁸³. بالمؤسسات أنفقت شركة "PTA" للنقل العام لأستراليا الغربية ما قيمته 2,5 مليون \$ سنوياً، أي 6,850 \$ يومياً²⁸⁴. ممَّا حَدا بالسلطات لتكثيف سياسات

²⁸² "Des hélicoptères contre les graffitis, Info Soir, 10 - 04 - 2005.

²⁸³ Ted Nines, "Diversion and graffiti abatement programs— A new direction", University of Waikato. In : <http://www.zdocs.net/DIVERSION-AND-GRAFFITI-ABATEMENT-PROGRAMMES--DOC.html> . Consulted : 10/06/2011.

²⁸⁴ Myra Taylor & Ida Marais, "Does urban art deter graffiti proliferation?, An evaluation of an Australian commissioned urban art project", The University of Western Australia. Papers from

الرّدع والاحتواء، وتخصيص فرق خاصّة لمتابعة (الجُنّاة). بالموازاة حاولت استيعاب الممارسين بِشَرَعَنَة بعض الفضاءات المحدّدة مسبقاً لذلك، لكن لم تتمكن -كغيرها من الدول- من القضاء عليها. بل ظهرت وتعالّت أصوات تُؤمّن باستحالة القضاء عليها، لأنّها حياة المجتمع. إذ يقول "جيورج ستوارس George C. Stowers" أنّه لا يمكن توقيف انتشار ظاهرة الغرافيتيا لأنّها جزءٌ من وجودنا، تعبّر عن دلالة مجتمع ديناميكي، وتقاليد إنسانية، حيث يترك الأشخاص علامات لإثبات وجودهم، بذلك المكان، ولأنّهم يشعرون بضرورة الحضور والبقاء الدائم²⁸⁵. ويقول عنها "غريغوري ج. سنايدر Gregory J. Snyder" بأنّها أضحّت ظاهرة ثقافية عالمية تدّمغ الفضاء الحضري، وتضمّ آلاف الممارسين²⁸⁶. خلاصة، يمكن التمييز بين خمسة فئات "متفاعلة" مع الظاهرة، يتباينون في تمثّلاتهم وأحكامهم عليها:

- الممارسون أنفسهم (المُعزّفِتون Les graffiteurs/ graffeurs).
- الأشخاص الرّافضون والسّاخطون عليها (لأنّها مؤشّر على السّلوك الهيجي ونقص التّربية والتّحضّر).
- الأشخاص المُتفهمون للغرافيتيا، وبعض أسر الفاعلين، إنّها "ترمومتر Thermomètre" لقياس أمراض المجتمع والدولة، التي تُعشّش في الأعضاء الفرعيّة للجسم المجتمعي، من بينها النّسق التّعلّيمي، كما يؤكّد "ألان. ميلون Alain Milon".
- الإداريون والسّياسيون المتفهمون، لأن الظاهرة فنّ راقٍ يجب احتضانه وترسيمه.
- الإداريون والسّياسيون الرّافضون لها (لأنّها تخريب وتعدّي صارخ على حق الملكية الخاصة، وهُدْرٌ للمال العام، بل شرٌّ يجب القضاء عليه).

خ. بعض الرّؤى العربيّة حول الممارسة:

عربيّاً، غالباً ما يُنظر للممارسة -الخريشة²⁸⁷- على أنّها ظاهرة ممقوتة نابغة من "قلّة التربية"، وتخلّف ونقص في التّحضّر والتّمدين، بل والتّدين، تُمثّل مُنحدرّاً سلوكياً سيّئاً، دون الإكتراث

the British Criminology Conference, 2009 . URL: <http://britsoccrim.org/volume9/4.Taylor09.pdf> . Consuled:2/9/2012.

²⁸⁵ Stowers, George C. "Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art", Fall, 1997. URL: <http://www.graffiti.org/faq/stowers.html>. Consulted: 22/01/10.

²⁸⁶ Gregory J. Snyder, "Graffiti Lives, Beyond the tag in New York s urban underground", ed: New York University Press, 2009, p8. (Google Books).

²⁸⁷ بدءاً باسمها "الخريشة Le gribouillage"، الأكثر حضوراً في توصيفها، والخريشة كما اشرنا سابقاً ذات دلالة انتقاصيه وتصرف صدياني طائش.

بأسبابها الحقيقية. فالأحكام القيمية الأخلاقية هي الأكثر حضوراً في الحديث عنها - إن كان هناك حديث جاد- حتى من طرف "النخبة". نذكر على سبيل المثال لا الحصر رأي المستشار القضائي "صالح بن سعد اللحيدان" (نُشر بجريدة الحياة السعودية، بتاريخ 2010/5/28)، حيث صرح بأن "هذه الكتابات عبارة عن كتابات طائشة، ظاهرة تنم عن قُصورٍ في الفكر البشري، خصوصاً لدى الشباب، وبأنها لا تجوز شرعاً، لما يترتب عليها من إيذاء للآخرين، ومن خسائر مادية، سواء في الممتلك العام أو الخاص.

جزائرياً، من الناحية القانونية للظاهرة، يؤكد الأستاذ المحامي "نور الدين ميسه" أن قانون العقوبات يعتبرها "جنحة" تمسّ الأماكن العمومية والأشخاص والأسر والآداب العامة، فالمادتان 330 مكرر و333 من القانون تعاقبان بالحبس من شهرين إلى سنتين وبغرامة مالية من 500 إلى 2000 دج، كل من ارتكب فعلاً مُخلّاً بالحياء، وكل من صنع أو وَزَع أو لصَق أو عرض أو طبع أو حرَّر أو رسم أو صوّر... أو شرَّع في هذه الأفعال لأيّ شيء مُخل بالحياء. إضافةً للتبعات المدنية للتعويض عن الأضرار²⁸⁸.

في الختام، يجب لفت انتباه القارئ أنّ أغلب الدّراسات الغربية التي لامست الظاهرة ركّزت على بعدها الفنيّ (الجمالي)، والتّعامل معها باعتبارها فنّاً معاصراً عُرف بـ"الفن الغرافيتي Graffiti Art"، أو التّصويري (نسبة للصّورة الغرافيتية Graffiti figuratif). أمّا بمجتمعنا فالسّواد الأعظم من الوحدات الغرافيتية التي جمعناها وفحصناها تجيد نوعاً ما عن النمط الغربي (الفنيّ). هذا لا يعني غياب اللّمسة الفنيّة لدى الطالب، بل حضرت -نسبياً- من خلال التّنتُح في زخرفة الأسماء، ورسم الصّور. لكن أغلبها -كما ذكرنا- يطرح البُعد المكتوب (الكلمة والرّمز)، ويعبّر عن مطالب ومعاونة اجتماعية وثقافية و"أزماتية"، فردية وجماعية. بالإضافة لإرهاصات/تقليد نمط "الهييب هوب"، على نحو الصّورة أدناه.

²⁸⁸ عاشوري ميسه، "استفحال ظاهرة الكتابات الحائطية على جدران مدينة الوادي"، الشروق أون لاين، 2012/06/19.

بالموقع: <http://www.echoroukonline.com/ara/mobile/articles/132870.html> . تاريخ الاطلاع:

2012/7/14.



الصورة 48: بَشائر موجة "الهييب هوب" الجزائري.

بعدها تتبعنا البعد التّاريخي للممارسة/ الجرافيتية عبر محطاتها العالمية والاقليمية والمحلية،

ننتقل الآن للحظة تأصيلها مفاهيمياً ومنهجياً.

3.1. التَّنشئة الجامعية والممارسة الجغرافية أية علاقات ممكنة؟

نجهتد ضمن الفصل التالي استجلاء اهمية المؤسسة الجامعية في العملية التَّنشئوية، بالوقوف على مفهومها ووظائفها الأساسية، مع التوقف عند الجامعة الجزائرية، واستوضح خصوصيات الفضاء الجامعي عامة من خلال بعض الدراسات الرائدة، وكذا علاقاتها -اليومية- ب"الممارسة الجغرافية".

1.3.1. أهمية المؤسسة الجامعية في التَّنشئة الاجتماعية:

هناك قصة طويلة يفخر بها رؤساء الجامعات-خاصة الأوروبية منها- في محاولة تبريرهم قواعد الجامعة المعاصرة، والتي تشير إلى أنّ من بين الثمانين مؤسّسة التي ما زالت قائمة منذ العصور الوسطى إلى وقتنا الحاضر، هناك ستون جامعة. أمّا بقية المؤسسات الأخرى فقط كانت خاضعة للسلطة الكنسية. قصّة تَنفَتِح على تأويلات مختلفة حيث تُؤشّر على عِبَر متعدّدة، من بينها أن الجامعة وُجدت منذ أمدٍ بعيدٍ، حيث استطاعت التّكيف مع مختلف الأنظمة والضغوط المتلاحقة²⁸⁹. مما يجعلها المؤسسة الرائدة في إحداث التغير الاجتماعي، ومنه إستدامة المجتمعات. مَلَكةٌ رشّحتها لتكون من أهم -وأخطر- المؤسّسات الاجتماعية، نظرًا لما أنيطت به من مهام تربوية، علمية، سياسية، اقتصادية وتنشئوية، تتصدّرها مهمة تكوين وتأهيل الرأسمال البشري، علميًا ومهنيًا وفكريًا وسياسيًا وثقافيًا، رافدةً بذلك مختلف القطاعات الإنتاجية والمجالات المجتمعية بما تحتاجه من قوى بشرية مؤهّلة، لدفع عجلة التنمية الاجتماعية الشاملة.

كما تعتبر فضاءً مهمًا من فضاءات التَّنشئة الاجتماعية، وإعادة التَّنشئة الاجتماعية La resocialisation²⁹⁰. لا يَقل دورها في ذلك إن لم يَزِد عن دور الأسرة وباقي الوكالات التقليدية. ذلك أنّها تسهر على تعليم وتلقين الوافدين إليها، أنماطًا سلوكية مُتميّزة ومختلفة -في الغالب- عن

²⁸⁹ روجر كنج وآخرون، "الجامعة في عصر العولمة"، ترجمة: فهد بن سلطان السلطان، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 2008، ص 23.

²⁹⁰ إعادة التَّنشئة La resocialisation: يقصد بها عملية إستكمال أو تصحيح بعض النّقصات في التَّنشئة السابقة (الأولية)، تصحيح ضروري، قد يُفَعَل من طرف المجتمع، كما يفعلُه الشّخص ذاته. يحضر كثيرًا عندما ينحرف الشخص عن معايير وقيم المجتمع، فيتمّ تصحيح الانحراف الذي أصاب سلوكاته. وتتضمن "العملية" حالتين متباينتين، حالة إنسحاب وحالة إستقبال، فأما الانسحاب، يعني إنسحاب الفرد من فضاء معيّن (الثانوية مثلا)، ومنه التّخلي عن بعض عناصره النّقافية، مُقابل ذلك، يَستقبَل مُستلزمات الفضاء الجديد (الجامعة مثلا)، فيَقَع فيما يُسميه الباحثون "تداخل السلوك"، أي، يعيش في الجامعة حاملاً معه سلوك الثانوية، فتعمل الجامعة على "تذويب" التّداخل، وإكسابه سلوكات مناسبة له.

تلك التي يَتَمَثَّلُها في محيطه المحلي. إضافة لتكليفه مع مجموعة الأدوار الاجتماعية -المستقبلية- التي يُحَضِّرُ لها، من أجل دمجها في النظام الاجتماعي. بالإضافة لدورها الهويّاتي، حيث تأخذ التَّنشئة الاجتماعية بأساليبها المتنوعة أهمية بالغة، في زمن بدأت فيه المجتمعات تتلمّس مخاطر وجودها، وتُلمِّم أطراف هويتها، إزاء 'عَصْفِ' التَّغْيِرات العالمية المتسارعة، لتتبوأ دورها التاريخي الجديد كصَمَامٍ آمن وأمان، يمنح المجتمعات قُدرة مُتجدِّدة على تشكيل هويتها، والمحافظة على إنوجادها، وإعادة إنتاج ذاتها وقيمها الحضارية في وجه التَّحوُّلات الإنسانية الجديدة²⁹¹. يعتقد "تالكوت بارسونز Talcott Parsons" بأن التعليم العالي عمومًا، والجامعي خصوصًا، جزء مهم في بنية المجتمعات الحديثة، وذو وظائف أساسية، تتصدَّرها وظيفة التَّنشئة الاجتماعية، وتوزيع الأفراد على النظام التعليمي المهني، وتقديم المعرفة وتعميم العوامل التي تقوم عليها المشاركة الوجدانية في البُنى الاجتماعية الحديثة. ويردف "ت.بارسونز" أنّ دورها لا يتجاوز دور المؤسَّسات الأخرى فحسب، بل ويُكَمِّله في تنمية 'السلوك الاستقلالي' للطلاب الجامعي، أكثر مما تقوم به الأسرة والمدرسة.

تتموقع المؤسسة الجامعية في الصِّدْارة، إنها القاطرة التي تجر المجتمع، خاصة في عصر العولمة، وذلك لأن جوهر فكرتها ومُبْرِرَ وجودها منذ ظهورها وحتى الآن -على الرغم من لِحْق فكرتها من تغيرات- تَبقى فضاء 'الامتياز الفكري'، وصناعة الفكر، وانتقاء النِّخبة، واكتشاف الحقيقة ونقلها، مما رَشَّحها لتكون من الوكالات الفاعلة في تطوير المجتمعات، من حيث كونها ناقلة أو مُراجعة للمَعْلُوم، ومُستكشفة للمَجْهول، ومُنْقِبة في الحاضر ومُعْطياته، وساعية لاستشراف المستقبل وبدائله، ومُتجاوزة حدود المكان (المحلي) إلى آفاق العلاقات القومية والعالمية. بل أن فكرتها أصبحت فكرة مُعَوْلَمة، وَيَنْدُرُ أن نجد مجتمعات (حديثة) تَنعِدِم فيها الجامعة. إننا نعيش ما يُسميه بعض الباحثين بـ"الانفجار الجامعي Le boom universitaire".

وَتُعد الجامعة أهم المؤسسات الاجتماعية التي تؤثر وتتأثر بالجو الاجتماعي المحيط بها- مهما اتَّسع هذا المحيط- فهي من صُنْع المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى، أدواته في صنع قياداته الفنيّة والمهنية والسياسية والفكرية. ومن هنا كانت لكل جامعة رسالتها التي تتولى تحقيقها. فذات المؤسسة في العصور الوسطى تختلف رسالتها وغايتها عن نظيرتها في العصر الحديث وكذا المعاصر،

²⁹¹ للاستزادة يمكن الاطلاع على دراسة: د. علي وطفة، د. علي شهاب، "السّمات الديمقراطية للتَّنشئة الاجتماعية في المجتمع الكويتي المعاصر: دراسة في الخلفيات الاجتماعية لاتجاهات طلاب المرحلة المتوسطة نحو أسلوب التعامل الديمقراطي للوالدين"، مجلة جامعة دمشق للعلوم التربوية، المجلد 17، ع 1، 2001، ص. 211-269.

ومنه نجزم أن لكل نوعٍ من المجتمعات جامعته التي تناسبه²⁹².

وانطلاقاً من الأهمية المركزية للجامعة فقد أمست موضوعاً "جذاباً" للعديد من الأطروحات والدراستات المختلفة في أطرها النظرية وإحالاتها التخصصية، من أجل مقارنة وفهم هذه المؤسسة وإعتلالاتها، فكرةً ودورًا، وثقافةً و هويةً. حيث يُجمع أهل الاختصاص على اعتبار التصور "النابليوني" للجامعة- من أولى التصورات الحديثة التي طُرحت كمحاولة لإبراز وتفعيل الوظيفة الاجتماعية للجامعة. فالى جانب وظيفتها في التدريس ونشر المعرفة، أعطى هذا المفهوم أدواراً جديدة، أهمها، الإسهام في تحقيق الاستقرار السياسي والانسجام الأيديولوجي، بين شتى أفراد المجتمع، وهو ما يتحقق بدوره بقيام الجامعة بتوفير نظام تعليمي وتدريبى مُوحد، ومن ثم فوظيفة الجامعة الأساسية هو مد المجتمع بقيادات مُدرّبة مهنيًا وثقافيًا.

بالنسبة للباحث في علم الاجتماع، الجامعة مؤسسة اجتماعية، يجب ملاحظتها في بعدها الداخلي والخارجي من حيث علاقاتها مع باقي المؤسسات الأخرى، المُكوّنة للمجتمع. ففي البعد الداخلي يجب الوقوف على ما يميّز العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات المهندسين لها. كما يجب تلمس الروابط المُتاحة بين الوظائف والأدوار، خاصّة الغايات الجليّة أو المُضمرة المُسطرة من طرف الثقافة التنظيمية للمؤسسة. فنتساءل مثلاً، ما هي القيم المقصودة والغير مقصودة التي تتحكم في مسارات الجامعة وفي سياستها المُنتهجة لتحقيق أهدافها المتعددة؟. كما يمكننا استجلاء علاقات التفاعل الاجتماعي بين الفاعلين، من منافسة وتشارك وصراع ومناورات سياسية.. التي تطبع تسيير وإدارة المؤسسة، على نحو العلاقات بين الطلبة والأساتذة والإداريين، أو بين الطلبة والطلبة، أو بين الأساتذة أنفسهم، وغيرها من التقاطعات العلاقاتية التي يمكن أن تحدث- وهذا ما نرومه/تغيّاه من تحليل المضامين الجغرافية- بمعنى آخر على الباحث في السوسيولوجيا ملاحظة التنظيم الجامعي في بنيته وفي علاقاته الاجتماعية، وفي قيمه وتوجّهاته الثقافية²⁹³.

أمّا خارجياً، تتموقع كل جامعة في وسط ذو علاقات هامة مع الثقافة المجتمعية، التي تسمُ باقي المؤسسات الاجتماعية الأخرى (السياسية -الأكثر تأثيراً- الاقتصادية، الدينية، التربوية...). وضعية تفرض على الباحث تفهم العلاقات القائمة بين الجامعة وسائر البنى على حسب السياقات

²⁹² عبد الرحمن العيسوي، "تطوير التعليم الجامعي العربي"، الإسكندرية، منشأة المعارف، ص10.

²⁹³ Hervé Carrier, "L'université entre l'engagement et la liberté", Paris: Presses de l'Université Grégorienne, 1972, p 20.

الأيدولوجية المُتواجدة²⁹⁴. ونعتقد أن دراستنا المتواضعة تتموقع في كِلا البُعدين -الداخلي والخارجي- ذلك أنّ الكتابات الجرافيتية هي إنعكاس لما يُعتمَلُ في المحيط الدّاخلي للجامعة، والذي بدوره يؤثر ويتأثر بباقي المؤسّسات الاجتماعية الأخرى، سواء الرّسمية أو الغيررسمية.

أ. وظائف المؤسسة الجامعية:

من مميزات عصرنا تعدّد الاهتمامات وتشابك الأمور وتلاحق التغيرات، والتحديات المتسارعة، والمستمرة على مختلف الأصعدة، الاجتماعية والسياسية والعسكرية، المعرفية والتكنولوجية، الثقافية والهويّاتية. مما جعل وظائفها متعدّدة ومتشابكة. تحوّلات دفعت المختصين لطرح وإبلٍ من الأسئلة، من أهمها: ما هي أهم التحوّلات السوسولوجية التي حدثت للجامعة على المستوى الداخلي والخارجي، والتي غيرت أدوارها ووظائفها الاجتماعية والثقافية التقليدية؟.

يجيب المفكر "هارفي كاريير Hervé Carrier" بأنّ الجامعة المعاصرة تعرف تحوّلات في وظائفها وأدوارها، حيث كانت وظيفتها -في الماضي- وظيفة اجتماعية. فالجامعة المسيحية مثلا، إقتصرت دورها في تكوين 'رجال الدين' يسخرون للكنيسة، ولخدمة القصر الملكي. أما الجامعة الليبرالية فأمست تُؤطّر الكوادر اللازمة للقطاعات الإنتاجية المختلفة، مع الحفاظ على ميزتها في تكوين نُخبة المجتمع. فلم تعد وظيفتها مقتصره على تقديم خدمات عامّة للمجتمع. فالملاحظ في العقود الأخيرة تنامي وعي جديد فيما يتعلق بالمسؤوليات الاجتماعية للجامعة. إذ تُحاول رسم معالم صورة مُغايرة لما هي عليه، أصبحنا نتحدث كثيرا عن المسؤولية الاجتماعية للجامعة، أكثر من السابق، ولما يجب أن تكون عليه في السّياق المجتمعي الأكثر ديناميكية. فبعدها كانت لقرون طويلة قضية نخبوية، تحولت اليوم لمشكلة عامة (مجتمعية). ولعل الاضطرابات وحالة الاحتقان التي شهدتها -وتشهدها- هذه المؤسّسة خلال النّصف الثّاني من القرن العشرين، في العديد من الأمصار والمدن على نحو: (باركلي، طوكيو، باريس، روما، مدريد، برلين، مكسيكو، كِنشاسا،..). مؤشرات واضحة لثورة ثقافية واجتماعية قوية، ما فتئت تكتسح باقي المجتمعات- على نحو ما شهدته الجامعة الجزائرية منذ ثمانينات القرن الماضي، وما يحدث في السنوات الأخيرة، (خاصة موسم 2010-2011).

ذلك أنّ الجامعة لم تُعد تلك المؤسّسة المعزولة، المُوقرة، التي غالبًا ما يلتحق بها سوى "النّخبة" (باختلاف معايير إنتقاء النّخبة)، بل أمست شأنًا عامًا. "لقد ولى زمن الانعزال والوقارُ بالنّسبة للجامعة" يؤكد "هارفي"²⁹⁵. فالجامعة المعاصرة تحولت إلى مؤسّسة عامّة، شئنا أم أبينا.

²⁹⁴ Ibid. p. 21.

²⁹⁵ Ibid. p. 26.

وهذا ما يفرض عليها ضرورة التكيّف مع المحيط المحلي والإقليمي وحتىّ العالمي. وبالتالي، أن تتعلم كيف تُؤثّر ثقافتها مع مراعاة الديناميات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي يحتضنها. ضرورة عبّر عنها "م. جيبونس Michael Gibbons" - الأمين العام لمنظمة 'جامعات منظمة الكومنويلث'- بقوله "إذا لم تتأقلم الجامعة سنضطرّ لتجاوزها"²⁹⁶.

يُشبهه المفكر الألماني "هامبولدت Humboldt"²⁹⁷ الجامعة بالرّبان الذي يقود السفينة، والنّعمة التي تُكسبُ سيمفونية الثقافة الانسجام والتكامل²⁹⁸. ويتفق الباحثون على أن دراسة "بييار بورديو Pierre Bourdieu" و"جون كلود باسرون Jean-Claude Passeron" الموسومة بـ "الورثة Les Héritiers" 1964- أول دراسة حول المجتمع الطلابي- إذ تُعدّ مُسايَرة جادّة للتّغيرات التي شهدتها المجتمع الفرنسي آنذاك، إذ تطرق إلى مجمل التّمايزات الطبّقية التي يعيشها، وما الجامعة إلا صورة تعكس ما يُميّزه من هيمنة ثقافة بعينها.

عرفت دراسات "بورديو" و"باسرون" رواجاً واسعاً في السوق البحثية لسنوات عدّة، إلا أنّها لم تسلم من الانتقادات، حيث قدم "ألفي غالوند Olivier Galland" نقداً لكتاب "الورثة" في متن كتابه "Les jeunes"²⁹⁹، مُتسائلاً إذا كان "بورديو" و"باسرون" قد فسّرا الوسط الطّلابي انطلاقاً من الانتماء الاجتماعي، فما الذي جعل شريحة طلبة الطبقة البورجوازية تشارك بقوة في "الثّورة الطّلابية" سنة 1968؟. ليجيب بأن كتاب "الورثة" يجب أن يُحدّد في سياقه التّاريخي. أمّا "ريمون بودون Raymond Boudon" من خلال كتابه "L'inégalité des chances, la mobilité sociale dans les sociétés industrielles"، فيعتقد أن الانسجام الذي كان قائماً بين الجامعة والنظام الاجتماعي قد تحطّم، بسبب تضاعف وتزايد عدد الطلبة الجامعيين، ونتيجة التغير السريع الذي طرأ على المكون الاجتماعي للجامعة. بدوره يؤكد "فرانسوا ديبي Francois

²⁹⁶ تُعرَى هذه العبارة -العنيفة نوعاً ما- إلى "Douglas Hague" في نص بعنوان:

Beyond universities : A new republic of the intellect, والذي تحوّل فيما بعد إلى "دليل مقدس" لكل من

يريد إنشاء "جامعة خاصة"، تنتهج منطق اقتصاد المعرفة المُعولم، دافع عنها في كتاب جماعي، سنة 1994:

"The new production of knowledge: The dynamics of science and research in contemporary societies.

²⁹⁷ Alexander von Humboldt 1769-1859 مُنظر مشروع إصلاح التعليم العالي بألمانيا، بداية القرن التاسع عشر.

²⁹⁸ HUSSEN , "Les fondements de la pédagogie", 1933, p.33. Cité par " SZCZEPONSKI" .

نقلاً عن: محمد العربي ولد خليفة، مرجع سابق، ص 178.

²⁹⁹ Olivier Galland, "Les Jeunes", 6^{éd}, Repères, Paris , La Découverte, 2002 , 124p.

"Dubet" أنّ الجماعة الطلابية تتحدّد وتُعرّف من خلال العلاقة التي تنسجها مع دراستها. وهنا يجب البحث عن أسس وملامح الهوية الطلابية، ومسار تجربة الطالب داخل الجامعة، إذ على خلاف العديد من الباحثين، فهو لا يعتقد أن الطلبة يتحدّدون بأصولهم الاجتماعية، ولا بما تُخوّله لهم الجامعة من فرص عمل، بل بمدى تفاعلهم مع العملية التعليمية/ التعليمية. حيث يركّز في تحليلاته على ثلاث وميكانيزمات أساسية: الاندماج الطلابي. الموهبة الفردية للطلاب. المشروع الذي يطمح الطالب تحقيقه.

كما يتحدث آل التخصص عن الانخراط القسري لفرد -طالب- القرن الحالي في متاهاتها وعواملها الافتراضية شبكاتها العنكبوتية، وعن تنامي ظاهرة الإدمان التلفزيوني³⁰⁰، نتيجة الانجاس المُلفت لقنوات (فضاءات) تنشئية جديدة³⁰¹ على نحو، وسائل الاتصال والإعلام الرقمي (القنوات الفضائية، الانترنت، الهواتف النقالة (iPhone، وBerry Black..))، التي تموّعت لتنافس القنوات التقليدية الأسرة والعائلة³⁰²، المدرسة، المؤسسة الدينية...مما أدى لتشكّل وبروز ثقافات فرعية متعدّدة، التي تحاول إثبات شرعية إنوجادها في السّاحة المجتمعية، ومنه تقيّد لنماذج سلوكية وقيم ومعايير خاصّة بها، ومنه الإعلان عن تماهي يتّباين عن التّماهي الذي ترّوم غرسه مؤسسات التنشئة الرّسمية. هذا ما أفرز نوع من الصّراع، إتخذ مسار معلن وغير معلن (مضمرة)³⁰³.

ب. التنشئة الاجتماعية الجامعية وظيفية مضمرة، صامتة:

يعتقد "هارفي كاريير Harvé Carrier" أنّ مفهوم التنشئة مُتعدّد المعاني، لخصها في ثلاث:
• المعنى الاقتصادي القانوني: تعني نقل ملكية خاصة إلى ملكية القطاع العام. تتم العملية إمّا عن طريق تأميم المؤسسات "Nationalisation des entreprises"، أو من خلال تجسيد نظام

³⁰⁰ ماري وين، "الأطفال والإدمان التلفزيوني"، ترجمة: عبد الفتاح الصبحي، عالم المعرفة 247، الكويت، 1999، 306.

³⁰¹ في مقابل حالة 'التقاعد المُسبق' لوكالات التنشئة الاجتماعية، خاصة (الأسرة).

³⁰² استحضّر هنا مثل إفريقي قديم وُضِع كعنوان لكتاب وزيرة الخارجية الأمريكية الحالية -2012- "هيلاري رو دهام كلينتون Hillary Rodham Clinton"، نشرته في تسعينيات القرن الماضي، بعنوان :

"Il faut tout un village pour élever un enfant, Édition : DENOËL . 1996, 356p.

³⁰³ إنطلاقاً من هذه الوضعية العلائقية بين المؤسسات الرّسمية والمجموعات الاجتماعية، طوّر الباحثون مقاربات نقدية للتنشئة الاجتماعية مكنتهم من الكشف عن الوجه الخفي لهكذا عملية. سمحت لهم بتعريفها من زاوية نقدية، نقرأ مثلاً- تعريف الباحث المغربي "عبد الرحيم العطري" لها "بأنّها لا تُعدو سوى تدجين اجتماعي للأفراد في ظلّ مؤسسات مختلفة المقاصد والوسائل. إنها صيرورة مجتمعية لإنتاج "الاجتماعي" الذي يريده مالكو وسائل الإكراه".

المجموعات التي تُسائر تطبيق النظام الاشتراكي.

• المعنى النفسي الاجتماعي: تدل على الصيرورة التي من خلالها (يتمهى S'identifie) الفرد أو المجموعة مع ثقافة جماعة ما. وغالبًا ما تُستخدَم كلمة 'التثقاف L'acculturation' كمرادف للتنشئة الاجتماعية، ذلك أن الفرد يتثقّف مع المحيط الذي يتواجد فيه، ويتفاعل معه.

• المعنى الأيديولوجي أو المعياري: تأخذ معنى الإشادة بعملية نقل بعض الممارسات والأعمال ذات المصلحة العامة، وجعل المؤسسة كطرف مسؤولٍ أمام الرأي العام. ولعل هذا ما يفسر لنا إستقبالها لأعداد هامة من الطلبة، أكثر من السابق، بما يُسميه البعض بـ"الفيضان الطلابي"-من هنا تتضح أيديولوجية وفلسفة الجامعة في التنشئة³⁰⁴. حيث يلخص العديد من المتخصصين وظائفها الأساسية، فيما يلي:

• إعداد الموارد البشرية لمختلف القطاعات.

• المساهمة في عملية التنشئة الاجتماعية، ونقل الثقافة (الوطنية الرسمية). ومنه تعمل على صياغة وتشكيل "وعي طلابي" مُتّزن.

• تناول قضايا ومشكلات المجتمع والعمل على خدمته وتنميته³⁰⁵.

تشتغل عملية التنشئة الاجتماعية في الفضاء الجامعي عبر مسارين تربويين رئيسيين:

• مسار تربوي/تعليمي يتلقاه الطالب الجامعي عبر المادة العلمية ومُحتواها الثقافي، الذي يفترض أن يعلمه ويديره على الحوار، وتبادل الأفكار، واحترام الرأي الآخر، حتّى لو كان مخالفاً لرأيه، والاعتزاز بانتماءاته الوطنية، والاستعداد لتبادل الأفكار مع الآخرين دون إقصاء أو تهميش. فكل شيء في الحياة حتّى ما يُعدُّ من الثوابت العلمية يقبل الرأي والرأي الآخر. ونستذكر هنا قول الإمام "الشافعي" 'رأي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب'.

• مسار تربوي/تعليمي سلوكي يتعلمه الطالب الجامعي من خلال سلوك الفاعلين الذين يشغلون وظائف في البناء التنظيمي للجامعة، أو من خلال الطلبة الزملاء.

تشارك المؤسسة الجامعية في صيرورة البناء الهويّاتي الخاصة بمُنْتَسِبِها (الطلبة)، من خلال التنشئة الاجتماعية التي تُعتمَل داخلها، سواء المقصودة (المعلنة والمخفية)، أو التنشئة الصّامتة التي إستجلى -بعض- أواليات اشتغالها الباحث "بارنارد لايير Bernard Lahire". إذ يلج الطالب للجامعة وهو مُحمَل بعناصر ثقافية وملاحح هويّاتية محلية، إنّها ثقافة 'ما قبل الجامعة'، لينتقل

³⁰⁴ Ibid. pp. 23-24.

³⁰⁵ محمد منير مرسى، "التعليم الجامعي المعاصر قضاياها واتجاهاته"، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1977، ص 24.

لمرحلة جديدة بالنسبة إليه، من حيث المكانة و الدور الاجتماعي " طالب جامعي" - وليس ثانوي- مرحلة يُلامس فيها ثقافة المؤسسة الجامعية، في بعدها التّنظيمي الرسمي (القوانين التّنظيمية)، والغير رسمي (الأعراف التي رُسّخت من طرف الفاعلين الاجتماعيين وفق ما يُسميه "ميشال كروزي Michel Crozier" و"إرهارد فريدبارغ Erhard Friedberg" بقواعد باللّعب السياسيّة. أو ما يُسميه "ألان مونشبلون Alain Monchablon" بالفلكلور الطّلابي "Folklore étudiant"³⁰⁶ الذي يُعتمَل من خلال مَراسيم طقوس الإدماج والإندماج والاستدماج، كالحفلات (Les booms)، العلاقات المتعدّدة -ونُضيف الكتابات الغرافيتية- تتقاطع وتتشارك هذه الممارسات في نَحْتِ وتشكيل مَعالم الهوية الطّلابية، هوية لها مُميّزاتها وخصوصياتها. أما "سيمون مارجنسون Simon Marginson"³⁰⁷ فيتحدث عن الأدوار الكبيرة للجامعات كونها فضاءات يتم فيها التعلم والمنح الدراسية، وتشكيل الهوية وتغيير الدّات. فضاءات معقّدة مترابطة مع الواقع الاجتماعي والسياسي...مما يجعلها تتأثر بالقيم والمعتقدات المنتشرة بالمجتمع. كل ذلك يؤكّد أنّ الجامعة وباقي المؤسسات التعليمية مسؤولة عن تعليم الشّبّاب الجامعي أنماطاً سلوكية جديدة تختلف في الأغلب عن تلك التي يتمثّلها في محيطه الأسري، زيادة على تكيفه مع الأدوار المهنيّة والاجتماعية التي يفرضها التغيير الاجتماعي، ودمجه في النظام الاجتماعي الجديد، ولتحقيق تضامنه معه من خلال الارتباط به عقلياً وعاطفياً، هذا على المستوى النظري، أما في الواقع فقد يحدث غير ذلك.

أما "إفان إيلش Ivan Illich" فيعتقد أنّ لمدارس اليوم أربعة واجبات أساسية هي: تقديم الرّعاية التّأديبية، توزيع النّاس وفق أدوار مهنية محددة، تعليم القيم المهيّمنة، اكتساب المهارات والمعارف المقبولة اجتماعياً. رغم ذلك يبقى أكثر ما يجري في قاعات المدارس -حسبه- لا علاقة له بمضمون الدّروس، فالمدارس تتوّخى تلقين المتعلم "الاستهلاك السّليبي"، أي القَبُول الطّوعي الخاضع للنظام الاجتماعي السّائد³⁰⁸. وفي ذات المسألة يؤكّد الباحث المغربي "الدكتور المصطفى حدية" بأنّ

³⁰⁶ Laurent Frajerman, Jean-Philippe Legois, Alain Monchablon, Robi Morder(dir), "Cent ans de mouvements étudiants", Histoire de l'éducation, 1/2009, n°121, pp.116-119. URI: www.cairn.info/revue-histoire-de-l-education-2009-1-page-116.htm.11. Consulté le: 10 /7/12.

³⁰⁷ أشهر كتبه التي فكّك فيها علاقة التعليم العالي بالعولمة وإفرازاتها، كتابه الجماعي الموسوم ب:

"Simon Marginson & al, Higher education in the Asia-Pacific: Strategic responses to globalization", (Coll: Higher Education Dynamics), pub by Springer, 2011, 496p .

³⁰⁸ أنتوني غيدنز، مرجع سابق، ص560.

الحياة الاجتماعية - يقصد بالمغرب³⁰⁹ ويمكن إسقاطها على المجتمع الجزائري- التي يعيش فيها تلامذتنا تخضع على الصعيدين التَنَشُّوي والتربوي إلى مَنحى إستيعابي آلي، أكثر منه إندماجي، مما يجعلهم محرومين من إمكانية التعبير عن اعتراضهم إزاء المعايير الاجتماعية، إذ يتواجدون ضمن منظومة تنشئة اجتماعية أسرية من النوع الاستيعابي الآلي. وبالنظر إلى كون المؤسسة التعليمية تعيش في غمرة سيرورة مُتأزّمة مما جعلها تعاني من مشاكل ذات طابع بنيوي ومؤسّساتي، أفرزت تنشئة هَشَّة أفضت لبلورة "هوية مبتورة ومشوهة"³¹⁰.

ت. الطالب والجامعة: لا نُؤلّد طالبة بل نُصبِّزُ كذلك:

لا يستطع أحد أن يتغافل عن طول المدة الحياتية التي يقضيها الطالب في الفضاء التّعليمي، عبر مختلف مؤسّساته التّعليمية (بدءًا من دور الحضّانة، إلى الابتدائية والإكمالية ثمّ الثانوية، وصولاً للجامعة). هذا ما يُرشّح هكذا فضاءات ليكون لها تأثيرات فعّالة في بناء شخصيته، وبالتالي هويته. إمّا بالإيجاب أو السّلب. تأثيرات على مختلف أبعاد شخصيته (العقلية، النفسية، العاطفية، الاجتماعية، الأخلاقية والاجتماعية...). حقيقة يجب أخذها بعين الاعتبار، لا على مستوى مهام النظام التّعليمي فقط، وإنّما على مستوى الممارسة البيداغوجية اليومية للفاعلين في هذا الحقل، من أساتذة ومساعدين تربويين، وإداريين، وربط ذلك بالمحيط. ذلك لأنّ الطّالِب يعيش أكثر الفترات المضطربة من حياته بدهاليز الفضاء المدرسي عامة، والجامعي خاصة. إنّها فترة المراهقة، باعتبارها مرحلة اللّاستقرار، لتلاحق التّحوّلات المُفاجئة على مستوى الوظائف الفيزيولوجية، النفسية، العقلية والعلاقاتية. مرحلة تتميز بفقدان الأمن النّفسي، نتيجة "عدم وضوح" معالم هوية شخصية مُتميّزة، تُكسبه الاطمئنان النّفسي والاجتماعي.

بالإضافة لتلاحق "التساؤلات" حول "الأنا" و"الآخر"، ومدى تبعيّة كل طَرَفٍ للثّاني. هذا ما يُدخله في سيرورة البحث عن الدّات، فيتصادم مع الآخرين، خاصّة فئة البالغين المسؤولين عن إكسابه "الهوية المَنشُودة". ومنه، فالطالب لا يُؤلّد طالبًا، وإنما يُنشأ لذلك. ويتم ذلك من خلال ما يسميه "أ.كولو Alain Coulon" بطقوس الانتساب *Les rites d'affiliation*، إذ يُعرّف الانتساب بأنّه شكل من أشكال التّنشئة الاجتماعية المدرسية، والتي تبدأ مع الأيام الأولى من وُلوج الطالب للحياة الجامعية بعد "انتزاعه" لشهادة البكالوريا (مرحلة الغرابة *L'étrangeté* كما يصفها الباحث)³¹¹.

³⁰⁹ لا نعتقد أنّنا نحدد كثيرا على ذات الوضع التعليمي بمجتمعنا.

³¹⁰ المصطفى حدية، "التنشئة الاجتماعية بالوسط الحضري بالمغرب"، مطبعة رابانيت ماروك، 128 صفحة.

³¹¹ Alain Coulon, "Le Métier d'étudiant. L'entrée dans la vie universitaire", Paris, PUF, 1997.

لكن، لن يكون هذا الإنتساب تنازلياً فقط، من الأعلى إلى الأسفل، من المُنشئين إلى المُنشئين. بل -قد- يحدث أن تنعكس العملية، فالطالب (الفاعل) ليس شخصاً مُتلقياً فقط، بل يمكنه أن يُؤثر في ذات الصيرورة، رغم تأثيرات الوظيفة الأيديولوجية للمؤسسة (استدماج وتَدجين وَالجِهما)، خاصة الشَّباب المتعلم، وفق "الأهداف والمرامي والغايات" -كما تسمُّها المناهج الرّسمية-³¹². يحدث ذلك بِوَصْمِهِم-إيجابياً- بمجموعة الصّفات الفكرية والسلوكية والاجتماعية والثقافية التي تتناسب- أو يُعتقد أنّها تتناسب- مع قيم ومعايير الثقافة الرّسمية.

ولعل من بين تأثيرات الطالب على وسطه الجامعي "تحويله" للفضاءات الفرعية (المكتبة، المصلّيات...)، أو لوظائف عناصرها من (كتابة، قلم، طاولة، جدار...)، من أجل التعبير عن ثقافته وهويته المتميّزة. وكأنّه اختلق وظيفة كامنة -وثانية- للعناصر التي تُؤثّرته، عاكساً إختلالات وظيفية للصيرورة التّشثوية/التعليمية. عموماً، لو تتبّعنا إرهابات الممارسة الجغرافية بالحقل الجامعي العالمي لتوصلنا لحقيقة تكاد تكون مؤكدة، وهي تواجدها به منذ أن ولجّه الطالب، لارتباطه بِمَلَكَة الكتابة، وظروف تعايشه مع إكراهات، وتفاعلاته مع من يُهندِس هذا الفضاء.

مخرجات المؤسسة الجامعية محدّدة مسبقاً من خلال الأطر الحاملة للشهادات الجامعية التي تأهلهم لسوق الشغل، ومنه لتحقيق الإندماج المهني والاجتماعي. ولكن من بين المنتجات الغير مُعلن علمها، والغير مُهتمّ بها، المنتج الجغرافي، فلا يمكن تصور مؤسسة جامعية بدون كتابات جغرافية، رغم أنّها محظورة قانونياً. فنقرأ مثلاً على جدار جامعة "جنيف Genève" جغرافيتيا يقول فيها "مُغرِفُها" "Bologne, je cogne..". وسجّل آخر على جدار جامعة "السوربون Sorbonne" (خريف 1969) نصيحة -من ذهب- "Si vous avez des problèmes écrivez sur les murs"، وغيرها من اللّمسات الطلابية التي تظهر هنا وهناك عبر كامل الفضاءات الجامعية، بإختلاف أمصارها وأعمارها. ولعل أسبقها تعبيراً -كظاهرة اجتماعية طلابية بإمتياز- كتابات ماي 68 بفرنسا³¹³.

³¹² يلخص ذات الوظيفة الباحث المغربي "محمد جسوس" بأسلوبه الخاص بعبارته "إنهم يريدون خلق جبل من الضّباع" ♦

♦ نقلا عن: عبد الرحيم العطري، "ملاحظات حول الهوية والانتماء هنا والآن"، ورقة مقدمة لندوة "الهوية والانتماء في ظل

تحديات العولمة"، المغرب، 2007. موقع "دروب" <http://www.doroob.com/archives/?p=23630>. تاريخ

الإطلاع: 2009/7/22.

³¹³ للاستزادة أنظر الملحق رقم 4: جغرافيتيا ماي 68.

سنوياً، يتم تنظيف الجدران والمناضد وباقي الحاملات الجرافيتية من هكذا "أذران"³¹⁴، كما يسميها بعض أصحاب القرار. غير أننا نعتقد بأن الجرافيتيا ليست في حد ذاتها ذرناً، بقدر ما هي مؤشّر قويّ على "الأذران" التي تُعكّر الممارسة التعليمية/التعلمية فيها، ومنه باقي الممارسات المجتمعية خارج الوسط الجامعي. فمن منا من لم تقع عيناه على "كتابات" ما، ذات محتوى محدّد، غالباً ما تنتظم في خانة "الغير مسموح" به، إمّا قانونياً، شرعياً أو عُرفياً.

2.3.1. الجامعة الجزائرية، تأسيسٌ وأدوار واعتلالات:

يعود تأسيس الجامعة الجزائرية إلى العهد الاستعماري الفرنسي، حيث تمّ إنشاء سنة 1859 أوّل مدرسة عليا في الطب والصيدلة، لتليها مدارس الحقوق والعلوم والآداب. تمّ تجميعها سنة 1909 تحت اسم 'جامعة الجزائر'، لتجسيد الفلسفة الفرنسية في "تدجين الجزائري"، رغم الأصوات المُنادية بعدم جدواها في الجزائر. ليتم فيما بعد توسيع التسيج الجامعي بإنشاء مدارس أخرى، الفلاحة والبوليتيكنيك وملحقات لجامعة الجزائر (بالعاصمة). ففي سنة 1950 تمّ افتتاح ملحقة بوهران وأخرى بقسنطينة³¹⁵. وفق نظام تَلْفِيقِي صَمَمْتِه الإدارة الاستعمارية ليخدم نُخبة من المستوطنين الأجانب³¹⁶.

عُرفت نسبة الطلبة الجزائريين تَهَقُّراً، حيث انحصر عددهم خلال موسم 1948-1949 في 282 طالبا، من مجموع 4639 طالبا، ليتزحج إلى 442 طالبا من مجموع 4913 طالبا، خلال موسم 1951-1952. وقُبيل اندلاع الثورة التحريرية انتقل عددهم إلى 503 طالبا، من ضمنهم 22 طالبة. وبمعاناةٍ إرتفع عددهم إلى 814 طالباً لموسم 1959-1960، ثم 1372 طالبا سنة 1961-1962³¹⁷. ولن تعرف القاعدة التعليمية (عدد الطلبة) زيادة مهمة، إلاّ بعد الاستقلال نتيجة الرّغبة السياسية والمجتمعية في التأمين التعليمي، ولتلبية الاحتياجات الكبيرة للكوادرن، لتلبية حاجات الاقتصاد الوطني الموروث من المستعمر، والمنشود من خلال برامج التنمية. حيث تزايد عدد الطلبة خلال عشرية واحدة، بنسبة مذهلة، قفز من 3000 طالب عام 1963 إلى 200.000

³¹⁴ نشير إلى تزامن دراستنا مع فترة تشييد وتجهيز وإعادة تأثيث هياكل جامعية متعددة، مما يعني طلاء متجدّد -ومتكرّر -

للوحدات والجدران، وتأثيث القاعات والمدرجات بمناضد و كراسي ومكاتب، ...

³¹⁵ حسن رمعون، "الجامعة نتاجاً ورهاناً مؤسساتياً: حالة الجزائر والعالم العربي"، مجلة إنسانيات، ع6، سبتمبر - ديسمبر، 1998، ص ص. 51-63.

³¹⁶ محمد العربي ولد خليفة، مرجع سابق، ص 187.

³¹⁷ Djamel Guerid, "L'exception Algérienne, la modernisation à l'épreuve de société", Casbah édition, 2007, p. 252.

طالب عام 1972. لتتعمم الإصلاحات -كمياً- أكثر خلال السبعينات بهدف ربط الجامعة بالقطاع الاقتصادي وحاجات التنمية³¹⁸، حيث بلغ عدد الطلبة خلال 2009-2010 ما يعادل 1.164.137 طالباً³¹⁹. يتوزعون على شبكة جامعية وفق التقسيم التالي: ست وثلاثون جامعة. ستّة عشر مركزاً جامعياً. ملحقتان جامعيتان. ستُّ مدارس تحضيرية وقسمان تحضيريان مدمجان³²⁰.

يحدد القانون الأساسي بوضوح أهم الأدوار التي تُناط بها الجامعة الجزائرية، يمكن تلخيصها في:

- تكوين أكبر عدد من الإطارات لتلبية حاجات قطاعات التنمية، باستخدام أكثر الوسائل فعالية.
- أن يصبح التكوين واحداً من الاستثمارات الأساسية السريعة المردودية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبأقل تكلفة ممكنة.
- ينبغي أن تنعكس مقومات الشخصية الوطنية (الهوية الجزائرية) في مضامين التكوين³²¹.

أ. أبرز مشاكلها:

أشار الباحثون للمشاكل-الشبه المزمّنة- للجامعة الجزائرية منها:

- غياب الوضوح في الأدوار والوظائف.
- عدم ملاءمة الفضاءات المكانية وانسجامها مع التخطيط المالي.
- ضعف التنسيق بين الجامعة والقطاعات الإنتاجية المهمة بالبحث.
- التعامل مع الباحثين وفق سُلّمهم التراتبي بدل كفاءاتهم وخبراتهم.
- التداخل بين الكفاءة العلمية والتربوية، وربط الجانب البيداغوجي بالخدمة الإدارية، ما أدى إلى ضعف العمل الإداري والعلمي معاً³²².

نعتقد أنّ "الظاهرة الغرافيتية" بمؤسساتنا التربوية عامة والجامعية خاصة، في انتشار "مستثير"، فالمتبصر لهكذا "فضاءات" يلحظ "عزوها" لأغلب الدعامات والحاملات المؤنثة لها. هذه بعض خصائص وتحولات "الممارسة/الظاهرة الغرافيتية" قديماً وحديثاً، عالمياً ومحلياً، حاولنا ترصّد أبرز خصائصها معتمدين على أشهر الدراسات المتعددة التحل العلمية، التي أرخت لها.

³¹⁸ لحسن بوعبد الله، محمد مقداد، "تقويم العملية التكوينية في الجامعة"، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998، ص 5.

³¹⁹ Djamel Guerid, "L'université Algérienne à 100 ans", Quotidien d'Oran, 17/1/2010.

³²⁰ موقع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. http://www.mesrs.dz/arabe_mesrs/indexa.php

³²¹ ولد خليفة محمد العربي، مرجع سابق، ص 208.

³²² المرجع نفسه، ص 35.

الفصل الثاني:

التّعيد المفاهيمي والمنهجي للدراسة

- 1.2. التّأويل المفاهيمي للهوية والانتماء والتّماهي
- 2.2. مفهوم "الاستراتيجيات الهويةّية"
- 3.2. "الهوية الطّلابية"
- 4.2. ما الثّقافة وما مكّوناتها؟
- 5.2. الهوية والثّقافة... أيّة علاقات ممكنة؟
- 6.2. "الكتابة" إستراتيجية هويّية بامتياز
- 7.2. المراهقة.. فترة الانهجاس بالهويّة
- 8.2. عشر مقاربات منهجية لدراسة الظاهرة الجرافيتية

الفصل الثاني: التّعيد المفاهيمي والمنهجي للدراسة

نستعرض في هذا الفصل أهم المفاهيم المُسيّجة للإطار المفاهيمي لدراستنا، باستجلاء أهم المصطلحات المؤثّثة لها. إنطلاقاً من تعريفات أهم القواميس والمعاجم والموسوعات المتخصّصة، وكذا إسهامات المفكرين والباحثين من خلال دراسات وأبحاث رصينة. في البدء، سنُلامس مفاهيم الهوية، الانتماء، التّماهي، وتمفصلاتها المفهومية. ومن ثمّة نعرّج على مفاهيم الثقافة وتفرعاتها، والكتابة ومستوياتها (بما فيها الجرافيتيا)، مروراً بمفهوم المراهقة باعتبارها مرحلة بحث هويّاتي بامتياز، مع الإشارة لرمزية أهم "دعامة جرافيتية Support graffitique" المتمثلة في "الجدار".

1.2. التّائيل³²³ المفاهيمي للهوية والانتماء والتّماهي:

كتب المفكر "أمين معلوف" قائلاً "علّمتني الكتابة أن أحذر الكلمات، فتلك التي تبدو أكثرها شفافية هي في أغلب الأحيان أكثرها خيانة، أحد هؤلاء الأصدقاء المُزيّفين، هو بالتحديد كلمة "هوية". فجميعنا يعتقد معرفة ما تعنيه هذه الكلمة، ونستمر بالثّقة بها حتى عندما تبدأ هي بقول العكس بِمَكْرٍ³²⁴. إنّها لا تكفُّ أن تكون عُرضةً لعواصف التّفسيّرات والحركات الإعرابية على حدّ تعبير الباحث "سليم مطر". تتشاكل مفاهيم الهوية والانتماء والتّماهي في تقاطعات عدّة، إذ غالباً ما يُستخدَم أحدهما مكان الآخر في الأدبيات الاجتماعية المعاصرة، فإشكالية الهوية والانتماء والتّماهي، تُطرح بين القضايا الساخنة في المجتمع المعاصر، وفي هذا الفصل سنحاول محاصرة هذه التقاطعات. فما الهوية؟، وما المداخل الممكنة للاقتراب منها؟، ما مستوياتها؟ وما أشكالها التي استخلصها أهل الاختصاص، في خضم

³²³ التّائيل **: عملية لسانية تعتمد المقارنة بين الصّيغ والدلالات لتمييز الأصول والفروع. ومن ناحية أخرى عملية تاريخية حضارية، لأنها تستعين بدراسة المجتمعات والمؤسسات وسائر العلوم والفنون للبتّ في القضايا اللسانية، بالإضافة إلى مقارنة الألسن لمعرفة أنسابها وأنماطها، لأن اللسان الذي يكون فرعاً تكون ألفاظه فروعاً. يكون التّائيل بدراسة أصلها التاريخي، بتتبع تطور "الكلمة" من خلال الوثائق والمخطوطات، وأحياناً تاريخ المجموعات البشرية الناطقة بهذه الكلمات.

** يسمّى كذلك، التّأصيل والإثالة، وعلم التّجذير، وعلم تاريخ الألفاظ ("الإيتيمولوجيا L'étymologie"). وتعني كلمة إيتيمولوجيا حقيقة الكلمة أو أصلها، إذ تتكون من مقطعين يونانيين الأول Etymos وتعني الحقيقة، والمقطع الثاني logos اللفظ المشترك المستخدم هنا بمعنى الكلمة، وهو فرع من فروع اللسانيات يدرس أصل الكلمات، ونهج تطورها، ومقارنة المتشابه منها في لغات تنتمي لعائلة لغوية واحدة.

³²⁴ أمين معلوف، "الهويات الفاتلة، قراءات في الانتماء والعولمة"، ترجمة د. نبيل محسن، سورية، ورد للطباعة والنشر والتوزيع،

التغيرات والانفتاحات المتواصلة والمتسارعة التي تعرّفها المجتمعات المعاصرة؟. ربما يكون من الأجدى دومًا طرح هكذا أسئلة، ونحن نهتمُّ بمقاربة "الفعل التعبيري الهوياتي"، من خلال "الفعل والممارسة الجغرافية" للطالب الجامعي الجزائري، بجامعة تلمسان.

1.1.2. الهوية وسجل التعريفات:

رغم أن ثيمة "الهوية" حديثة في الأجندة البحثية، إلا أنها قائمة كظاهرة "تفكيرية/تأملية" منذ الفلسفة الاغريقية -بل وقبلها-. أما في أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت التحولات في الهوية منوطة بعمليات التصنيع والتّمدّن (الحداثة)، وبما أملاه ذلك عليها من استشارة العديد من التساؤلات لترسيم وإعادة ترسيم حدود الهوية المُستجدة. ومنذ ذلك الحين اجتاحت هذه "الكلمة" مختلف الحقول المعرفية والمجتمعية حتى أضحت دارجة الاستعمال، يستعملها العام والخاص على عواهن الكلام، وكأنها لازمة مُستَهجَنة في الكلام.

استفتح المفكر الفرنسي "أ. ميكشيلي Alexi Mecchillili" كتابه "Identité" بقوله: "يوظّف مفهوم الهوية، في مجال العلوم الإنسانية، كمفهوم شمولي على نحو متزايد وفقًا لدلالات مجازية بالغّة التنوع، وإزاء هذه الإشكالية تنبدي ضرورة العمل على شرح ذلك المفهوم، وتحديدته عبر دراسة تحليلية لعناصره المُكوّنة، وذلك إذا أُريد له حقًا أن يُصبح مفهومًا إجرائيًا"³²⁵. تحريضٌ علمي صريح من أجل مقاربة واستكشاف الهوية، والوقوف على أواليات اشتغالها، التي تهدف لإنتاج وإعادة إنتاج أشكالها ومستوياتها المتداخلة. هذا ما نرؤمه من هكذا دراسة (الهوية الطلابية من خلال الكتابات الجغرافية). يعتبر مفهوم "الهوية(ات)" من المفاهيم السّجالية التي عرفت منذ تبلورها نقاشات حادّة، تضخمت بشأنها المقاربات والدراسات، حيث عرفت خلال التسعينات "انفجار بحثي حقيقي" في العلوم الاجتماعية³²⁶. حيث تتجدّد السّجلات بشأنها كلّما برزت تيارات ثقافية مُغايرة، إلى درجة دفعت السوسولوجي والمؤرّخ الفرنسي "ألفرد غروسر Alfred Grosser" يُعلق على هكذا حالة، بأنّه قليل من المفاهيم التي حظيت بالتّضخيم الذي عرفه مفهوم الهوية³²⁷. ما جعلها تتناثر على ضفاف العديد من النّحل المعرفية، سواء في العلوم الإنسانية أو العلوم الاجتماعية، كالسوسولوجيا والأنثروبولوجيا

³²⁵ ألكس ميكشيلي، "الهوية"، ترجمة علي وطفة، دمشق، دار الوسيم للخدمات الطباعية، 1993، ص 11.

³²⁶ Zygmunt Bauman, "Identité et mondialisation", 2002. In: Yves Michaud, "L'individu dans la société aujourd'hui", Paris, Ed Odile Jacob, p. 55-70.

³²⁷ Alfred Grosser, "Les identités abusives", Le monde 28/1/1994. <http://www.lemonde.fr/cgi-bin/ACHATS/acheter.cgi?offre=ARCHIVES&typeitem=ARTARCH30J&objetid=31326>.

Consulté le : 12/3/2010.

وعلم النفس وغيرها، الأمر الذي عَسَرَ عملية تطويقها معرفياً، بل ضربت من المجازفة الفكرية المنفتحة على العديد من الاحتمالات، ما رَشَحَهَا لتكتسب طابعاً تَوْجُسياً بالنظر لتعدد التعاريف والتوصيفات. وليس غريباً، أن يُعلن "غوتلوب فريجه" Gottlob Frege³²⁸ بأن المفهوم لا يقبل التعريف، وذلك لأن كل تعريف يحد ذاته "هوية". إنّه مفهوم مزعج حقاً، هكذا افتتح الباحث "Georges Labica" مقالته "A quoi sert l'identité?". رغم ذلك اجتهد المهتمون بتقديم تعريفات متباينة نحاول توضيح بعضها.

أ. "الهوية" كلمة واحدة بمعاني متعددة؟:

أورد الباحث "سليم مطر" حكاية عن أربعة مهاجرين من بلدان المغرب العربي، قرّروا يوماً وضع إكليل من الزهور عند المكان الذي أُسْتُشِهد فيه رفيقهم الجزائري، أثناء مظاهرات الطلبة في باريس منذ بضعة أعوام. وفي طريقهم إلى المكان تجادل هؤلاء الشبان عن العبارة التي سيكتبونها على الإكليل. فقال أحدهم: باسم الجالية العربية، فَرَدَ عليه الآخر مُعْتَرِضاً: باسم جالية 'الشمال إفريقية'، أمّا الثالث فقد طالب باسم 'الجالية المغاربية'، والرابع أصرّ: باسم 'الجالية الإسلامية'، حتى احتدم الجدل وتطوّر إلى شجارٍ، أدى إلى تَمَزُّق الإكليل، وخَرَاب المشروع³²⁹. إنّه مثال واضح لمدى "تأزم" إشكالية الهوية (ات)، التي إنخرط فيها الإنسان المعاصر، حيث عرفت تطوراً متبايناً من مجتمع لآخر، ومن جماعة لأخرى ومن فرد لآخر. جعلت إشكال إبراز الانتماء(ات) من الهواجس المزمّنة لكلاهما، هوسٌ تعيشه المجتمعات الإنسانية بحدّة في عصر العولمة، أدخلها في سجالات وصراعات مباشرة وغير مباشرة، دون الوصول لاتفاق يُرضي الجميع، وصلت إلى مستوى المفهوم في حد ذاته، إذ اختلف -بل تخالّف- المفكرون في تعريف "الهوية". نذكر في البداية بأننا نأخذ برأي كل من "ساسجا Sasja" و"باكيو Bakhiu"- باحثان في الشؤون السياسية والدولية- أنّ عملية الضمّ والاستيعاد (التهميش)، هما جوهر إشكالية تعريف الهوية في أيّ مجتمع³³⁰.

فالهوية في اللغة العربية، مشتقّة من حرف الرّباط "هو"، والذي يعني ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره. والهوية كعَيْنِيَّة، الشّيء عَيْنُهُ، نفسه، شيء واحد بعَيْنِهِ. أمّا في اللاتينية من لفظ (Idem)، ويقابله في الإنجليزية "Sameness"، ويعني 'الشّيء نفسه' (الهوية التّطابُقيّة/الوحدانية)، ومن جهة

³²⁸ "Friedrich Ludwig Gottlob Frege" (1848-1925) رياضي وفيلسوف ألماني، انشغل بالمنطق والفلسفة.

³²⁹ سليم مطر، "الذات الجريئة، إشكالية الهوية في العراق والعالم العربي" الشرقمتوسطي، الطبعة الرابعة، جنيف-بغداد،

مركز دراسات الأمة العراقية - ميزوبوتاميا، دار الكلمة الحرة، ص 181. من موقع :

http://www.salim.mesopot.com/index.php?option=com_content&view=article&id=93:2010-07-

[13-08-53-45&catid=35](http://www.salim.mesopot.com/index.php?option=com_content&view=article&id=93:2010-07-13-08-53-45&catid=35). تاريخ الاطلاع : 2011/03/24 . ♣ دورية موسوعية تعني بإحياء الهوية الوطنية العراقية.

³³⁰ الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، المجلد الأول، ص 821.

ثانية الهوية كذاتية (في اللاتينية "Ipse"، في الإنجليزية "Selfhood". يُسمّىها "بول ريكو Paul Ricœur" "الهوية الكيفية". هذان المكونان لا يختزل أحدهما الآخر، كما هو الحال عند "إ.كانط E. Kant" بالنسبة لمقولي "الكمية والكيفية"، غير أنّ هذا لا يعني أنّهما غريبان أحدهما عن الآخر³³¹. يُعرّفها "المُعْجَم الوسيط" فلسفياً، بأنّها: حقيقة الشّيء أو الشّخص التي تُميّزه عن غيره. وفي تعريفه لمصطلح "الهو"، من منظور التّصوف، أنّها "الغيّب الذي لا يصحُّ شهوده للغير كغيّبِ الهويّة المُعبّر عنه كُنْهاً باللاتعِين، وهو أبطنُ البواطن". ويُضيف المُعْجَم معنى آخر للهويّة، حين تُلحق إلى كلمة "بطاقة"، أو تُوصف بالنعْت "الشّخصية"، لتجعلنا نحصل على المصطلح "بطاقة الهويّة"، أو "البطاقة الشّخصية"، المتداولين حديثاً، فيذكر أنّ "الهويّة بطاقة يثبتُ فيها اسمُ الشّخص وجنسيته ومولده وعمله". في حين يعرفها "LE PETIT ROBERT" بعدّة معاني:

- الهوية، خاصية موضوعين فكريّين مُتماثلين (الهوية الكيفية).

- ميزة لما هو مَوْحَد(الوحدة)، كَهويّة نَجْمَة اللَّيْل و نجمة الفجر.

في علم النفس، الهوية الشّخصية، ميزة كُلّما يتجلى مُتماثل للنفس، على سبيل المثال: المشاكل النفسية لهوية الأنا. العلاقة بين مصطلحين مُتماثلين، صيغ تُعلن عن هذه العلاقة، مبدأ الهوية: ما هو مَوْجُود مَوْجُود، وما هو غير مَوْجُود فهو كذلك³³².

كما يقدمها "معجم المصطلحات الفلسفية" بأنّها ميزة ما هو مُتماثل، سواء تعلّق الأمر بعلاقة الاستمرارية التي يقيمها فرد ما مع ذاته، أو من جهة العلاقات التي يربطها مع الوقائع المختلفة الأشكال. ومن هذا المنطلق تصبح الهوية الثقافية ذلك الفعل الذي يجعل من واقع ما مُساوياً أو مُشابهاً لواقع آخر، من خلال الاشتراك في الجوهر. للإشارة، العديد من الفلاسفة المسلمين القدامى (الفارابي، الكندي، ابن رشد، ابن سينا، وغيرهم)، قد استعملوا لفظ 'هوية'، المنحوتة من الضمير 'هُو' بوصفه مُقابلاً للفظة "أستين" في اليونانية، للدلالة على وُجود المعنى الذي أقرّه "أرسطو" لمفهوم الوجود³³³. وقد أضاف هؤلاء إلى (هُوهُو) أداة التعريف، وضَمُّوا 'هاء' فيها، لتتشكل كلمة (الهُوهُو)، ويُطلقونها على ما يُطابق الشّيء من كل وَجِه، أيّ على الشّيء المُماثل والمطابق والمجانس لشيء آخر. وقد تُرجم

³³¹ بول ريكو، "الذات عينها كآخر"، ترجمة: د. جورج زيناتي، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، 2005، ص. 253-254.

³³² Paul Robert, "Le Petit Robert 1, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue Française", rédaction: A. Rey et J. Rey- DEBOUVE, Paris, 1989, p 957.

³³³ خلدون النقيب، "المشكل التربوي والثورة الصامتة"، بيروت، مجلة المستقبل العربي، 1993، ص 42-49.

هذا (الهُوهُو) العربي كما وَرَدَ في كتبهم إلى اللاتينية بـ'Identicus'، وتعني 'Identical' بالإنكليزية، و'Identique' بالفرنسية. ثم اشتقوا من هذا (الهُوهُو) مصدرًا صناعيًا 'الهُوهُوية'، ثم جعلوه 'الهُوهُوية'، لِخَفَّةِ إنذلاقه على اللسان³³⁴.

وتأسيسًا على المقاربة الفلسفية، تعبّر الهوية عن حقيقة الشيء المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميّزه عن غيره، كما تعبّر عن خاصية المطابقة أي مطابقة الشيء لنفسه أو لمثيله، وبالتالي، فالهوية الثقافية لأيّ مجتمع هي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والملامح التي تميّز حضارته عن غيرها من الحضارات³³⁵. ومن غير المعقول تصور مجتمعًا أو جماعة بدون هوية، أو نَقْتَنَع بما يَعتقده المفكر "داريوش شايعان Daruysh Shayegan" أنّ الهوية صورة مغلوبة للذات، عندما كتب: "وما نُسمّيه الهوية الثقافية ليس للأسف سوى وَهْمٌ، أو إن شئتُم صورة مغلوبة للذات"³³⁶. أو ما عبّر عنه المفكر "المهدي المنجرة" بأنّ سؤال من نحن؟، قد تحوّل إلى سؤال تَرَفِّي، فالسؤال الحقيقي هو سؤال البقاء.

أما في العلوم الاجتماعية، تعتبر "الهوية" من المفاهيم الاستراتيجية حسب الباحث الإسباني "ج. جيمينا ز Gilbeto Giménez". إذ يعرفها "قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية" بأنها:

- معادلة تكون صحيحة عند أية قيمة للمتغيرات التي تشملها، فمثلا: (س²-ص²)=(س-ص)(س+ص)، تكون صحيح عند أية قيمة تعطى لكل المتغيرين: س، ص.

- حقيقة الشيء من حيث تميّزه، عن غيره وتسمى أيضاً وحدة الذات.

- عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته الشخصيّة (الهوية الشخصية).

- الذاتية السيكولوجية لها خصائص خادعة قد تكون ذاتية أو موضوعية.

- الهوية في المنطق، يعني الموجود هو ذاته، أو هو ما هو عليه³³⁷.

سوسيولوجيًا، يعرفها "Dictionnaire de Sociologie" بأنها كلمة تنحدر من الجذر اللاتيني "idem" (Le même)، الذي يدل على التّوحد والاستمرارية. وتعني الهوية أيضًا، كُلمًا أُعَرِّفُ به ذاتي،

³³⁴ ابن رشد، "تفسير ما بعد الطبيعة"، تحقيق موريس بوبجس، الطبعة الثالثة،. المجلد الثاني، دار المشرق، بيروت، 1983، ص 557.558.

³³⁵ عباس الطائي، "آفات اللغة والهوية"، بالموقع: www.ahwazstudies.org، تاريخ الاطلاع: 10/06/02.

³³⁶ داريوش شايعان، "أوهام الهوية"، ترجمة محمد علي مقلّد، بيروت، دار الساقي، 1993، ص 127.

³³⁷ مصلح الصّالح، "الشامل قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية"، انجليزي-عربي، الرياض، دار عالم الكتب للطباعة والتوزيع، 1999، ص 265.

وكل ما يُعَرَّفُني به الآخرون. وترتبط الهوية دائماً بعلامات ورموز تستخدم لإثبات تشابه الأفراد فيما بينهم، مقابل تحديد التمايز عن الآخرين³³⁸. ختاماً نشير أن أغلب التعريفات السابقة تتفق في معاني مشتركة للهوية، وهي "الخصوصية والتّمييز والتّفرد عن الآخر".

2.1.2. إستقصاء جينياالوجي لمفهوم الهوية:

مما سبق، نجد أنفسنا مضطّرين للتّساؤل عن تاريخ "الهوية" وتعرّجاته الدّلالية، من خلال إستقصاء أوّلي للجهود الفكرية التي حاولت تحديده، إنطلاقاً من مرجعيات فلسفية وسوسيو أنثروبولوجية متباينة، أغلبها غربية. لأنّ كل مقارنة للسوسيولوجيا عند العرب-حسب جمال الدين غريد- تتوقف أولاً على الفهم الصّحيح لشروط تأسيسها الأصلي في الغرب، وبصفة أدق في تأسيسها الأوروبي، أولاً وتأسيسها الأمريكي ثانياً³³⁹. فالْمُسْتَقْصِي لسيرورة -وصيرورة- الأفراد والمجتمعات يَسْتَشْفِ مؤشّرات جليّة لحضور للهوية وتمفصلاتها عبر تعرّجات التاريخ الإنساني كُله، حيث إتخذت المجتمعات باختلاف أمصارها، معالم وسمّات ثقافية للتأشير بها على هويتها. تدحرجت هذه التّأشيريات الثقافية الهوياتية على مَرِّ الحِقَبِ التّاريخية، بين التّجلي الواضح، أو الانكماش والنكوص البين، أو حتّى الإندثار والزّوال، بالنّسبة لبعض الجماعات والمجتمعات، الّهم إلاّ بعض المؤشّرات المحدودة تُورّخ للهوية "كانت هنا"³⁴⁰.

إلاّ أنّ المترصد لتاريخ الهوية يُلحظ ارتباط ميلادها بالمتنّ الفلسفي الإغريقي، حيث يعتقد فصيلٌ من المُهْتَمِّين أنّ إرهاباتها توضحّت مع "سقراط" عندما قال "أعرف نفسك بنفسك"، في حين يرجعها فصيلٌ آخر إلى فلاسفة ما قبل سقراط مثل "بارميدس Parménide" و"هراقليطس Héraclite"، حيث إنشغلوا بمسألة الهوية والغيرية، وكيف يُمكن التوفيق بين الهوية والتّغير؟. موقِفان مُتباينان، وسَمَهما "كلود ديبار Claude Dubar" بالموقف الجوهريّ والموقف الوجودي (الإسماني). فأما الأوّل، أرهص له الفيلسوف "بارميندس Parménide"، ويُعرّف بـ"اتجاه الأساسيين"، ويرتكز تعريفه للهوية بالاعتماد على ما يُسمّيه "القُدرة على البقاء فوق حواجز الأمان وتُرهُات المكان"، وذلك لأنّ "الكينونة

³³⁸ Pierre Ansart, "L e ROBERT.Dictionnaire de Sociologie", Coll: Dictionnaires Le Robert / Seuil, Ed:Le Robert ,1999,(le mots: Identité), p. 264.

³³⁹ جمال الدين غريد، "الزرع الإشكالي للسوسيولوجية في العالم العربي حالنا مصر والجزائر"، ص67-83. نقلاً من كتاب: "علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر"، تنسيق وتقديم: عبد القادر لقعج، أعمال الملتقى الوطني حول علم الاجتماع، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر: أية علاقات؟، وهران: 4، 5، 6 ماي 2002، دار القصة للنشر، الجزائر، 2004.

³⁴⁰ ولعل بقايا مجتمعات "المايا" و "الأزتيك" و"الطاسيلي" لخير مثال على ذلك.

خالدة، وما سواها ليس كذلك. "يَسْتَنَدُ على الإيمان بوحدة وثبات وسكون الجوهر والماهية، جَوْهَرِ سَرْمَدِي بِإِستِعارة تعبير "أفلاطون"، فهوية الكائنات هي ما يَبْقَى دون تَغْيُرٍ رغم التَغْيِرَات التي تحدث. فمفهوم الهوية مفهوم قَارٌّ وثابتٌ عبر الزَّمان والمكان. وأمَّا الثاني، يعتليه الفيلسوف "هيراقليطس Héraclite"³⁴¹ الذي كتب في القرن السَّادس قبل الميلاد، بأنَّ كُلَّ شيءٍ يَتَحَرَّكُ، وليس هناك جَوَاهِر خالدة بل مَوْجودات مُمكنة. تتغيَّر على حسب السَّيرورة التَّاريخية والاجتماعية للفرد وللجماعة. لخص ذلك في مقولته "لا يسبح الإنسان في مياه التَّهرذاته مرتين".

تَتَجَرَّأُ وسائل "المُمائِلة" - حسب "كلود ديبار Claude Dubar" - إلى نوعين، المُمائِلات التي يمنحها الآخرون (الهويات للغير)، والمُمائِلات التي يمنحها الشَّخص لذاته (هويات الذات). ويمكن لكل شخصٍ أن يَقْبَلَ أو يَرْفُض التَّعريفات التي يُعرِّف بها، كما يمكنه تعريف نفسه بطريقة تَخْتلف عن التعريف الذي يَمَنحه الآخرون له³⁴². وهذا ما نعتقده من خلال الممارسة الجرافيتية الطلابية، إذ يُحاول الطالب (ة) تعريف هويته بطريقة وبمرجعيات متميِّزة. فالهوية، مثلها مثل الثقافة، تُبْنَى وتَتَشكَّل من خلال سيرورة ديناميكية غير قارَّة، تمتد من المَهْد إلى اللَّحد، حسب تفاعلاتنا مع محيطنا الطبيعي والمجتمعي. إنَّها نتاج لسيرورة ديناميكية ولتفاعلات اجتماعية وتاريخية، مَرَبِطُها الحقول الاجتماعية بكل مستوياتها ودوائرها. "تفاعلات" يتولَّد عنها تشكيل معاني وقيم ومعارف وخبرات مشتركة بين أفراد هذا المجتمع، تُضفي لِترسيم ميزات وخصوصيات مُتفَرِّدة ومُفَرِّدة للفرد والجماعة والمجتمع، حيث يَسْتَدخِل (يتمثَّل) هكذا قيم ومعايير مُميِّزة لثقافة مجتمعه - طوعاً أو قسراً - لِإستكمال "هويته"، التي يتقاسمها مع باقي أفراد مجموعته (باته). يَصطلح أهل الاختصاص على هكذا عملية بالتَّنشئة الاجتماعية أو الثقافية التي تُرَسِّخ "الانتساب".

بدأ التَّعامل مع مفهوم "الهوية" بأكثر جَرَفية علمية، منذ تَساؤلات "روني ديكارت René Descartes"، حيث شاع الافتراض القائل بأنَّ "النَّفْس (الأنا أو الذات)، تتموضع على أنَّها مصدرٌ مُستقل للمعنى والفعل. لِيعلن أنَّ الأمر الوحيد الذي لا يمكن أن يَشكَّ فيه هو أنَّه موجود، ويَتَّخذ هذا الوجود شكلاً "جَوْهَر مُفكَّر". حيث إنتشرت الفكرة لتتحوَّل لقاعدة افتراضية أساسية للرَّأسمالية. ومع ذلك، بدأ الشَّك يَتَسع إبان القرن الثامن عشر، حيث لاحظ "دافيد هيوم David Hume" أنَّ مَضامين وَعِيه تتضمَّن صُورًا مُتعدِّدة (أو إنطباعات حِسِّيَّة)، عن كل شيء يُفكر فيه، سواء أكان هذا

³⁴¹ من الناحية التاريخية الاتجاه الهيراقليطيسي - إن صح التعبير - تبلور خلال القرن السادس قبل الميلاد، إذ استبق الاتجاه البارمينيديسي الذي تبلور بعده بحوالي قرن.

³⁴² كلود ديبار، "أزمة الهويات، تفسير التحول"، ترجمة رندة بعث، المكتبة الشرقية، 2008، ص 16-17.

في صورة إدراك حسي مباشر، أم في صورة استدعاء للذاكرة. و أنّ النفس ليست أكثر من حزمة من الانطباعات الحسية، تعّبرها تغيّرات مستمرة، كلما اكتسب الفرد خبرات جديدة، أو استرجع خبرات قديمة. مع نهاية القرن التاسع عشر، استثار "إميل دوركايم E. Durkheim" اعتراضًا على النزعة الرأسمالية، التي تُسلم بأولوية الفرد على الجماعة، ليؤكد أنّ الفرد ليس سوى نتاجًا للمجتمع، وليس المجتمع هو نتاج الأفراد. وأنّ الفهم الحديث للشخصية الفردية -ومن ثمّ فهم البشر لأنفسهم- إنّما هو نتاج ثقافة مُعيّنة.

أمّا المدرسة "التفاعلية الرمزية L'interactionnisme symbolique" بريادة "شارل كولي Charles Cooley" و"جورج ه. ميد George H. Mead" فقد انشغلت كثيرًا بالمفهوم، في إطار التفاعل الاجتماعي، من خلال العمل على تفسير الأنساق الرمزية المشتركة، المهندسة لوعي الفرد. في كتابه "L'esprit, le soi et la société"³⁴³، بيّن هذا الأخير كيف يكون للتفاعل الاجتماعي الدور الأساسي في تشكيل والحفاظ على الهوية، وبأنّه لا يمكننا أن نكون على ما نحن عليه دون أن ننتمي لمجموعة لها مواقف تضبط الجميع، ولا يمكننا الشعور بالهوية دون أن تكون لنا مواقف مشتركة مع أفراد آخرين. ويعني ذلك أنّ إدراك الذات هو نتاج للعلاقات بين "الأنا المادية Moi" و"الأنا العارفة Je". فكل شخص يُدرك هويته بتبني وجهة نظر الآخرين، وجهة نظر المجتمع الذي ينتمي إليه.

وبالرغم من ذلك، لم يستخدم أنصار التفاعلية الرمزية مصطلح "الهوية" في البداية، وإنّما تحدثوا عن "الذات Soi" لتنتقل من الاشتغال على-الذات- إلى الاستعاضة بمفهوم الهوية، خاصة بعد نشر الباحث "إرفين غوفمان Erving Goffman" لمؤلفه "ندوب الجراح: ملاحظات حول التعاطي مع هوية ناسفة"³⁴⁴، حيث يؤكد أنّ النفس هي مُحصّلة لتفاعلات معيّنة، وذلك على أساس أن مدارك الفرد و اتجاهاته وأساليب سلوكه تتغيّر كلما تغيّر الأشخاص المحيطون به. ومهما اختلفت المدارس الليبرالية والاشتراكية، فقد شكّل كل من العقل والعلم والعمل قواسمها المشتركة.

³⁴³ تمّ نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة 1934، ليترجم و يُعاد طبعه مرّات عديدة، آخرها 2006.

³⁴⁴ العنوان الأصلي Stigma♣: notes on the management of spoiled identity, 1963 (كما تُرجم به: آثار الجراح:

ملاحظات على أسلوب التعاطي مع هوية مُدمّرة).

♣ تُرجمت كلمة "stigma" الإنجليزية/Stigmate الفرنسية إلى العربية بـ"الوصمة"، يعرفها "أنتوني جيننز A. Giddens" بأنّها أية خصيصة فيزيقية أو اجتماعية يُعتدّ أنها تُقلل من شأن الفرد.

من جهته برع الكندي "شارل تايلور Charles Taylor" في كتابه³⁴⁵ "أصول الأنا الحديثة"³⁴⁶، أن يتتبع إرهابات الهوية الحديثة-والفردانية- من خلال تاريخ الفلسفة وتاريخ العقلية، ليخلص بأن "للحوية الحديثة" تركز على ثلاثة أبعاد أساسية:

1- إكتشاف السريّة الداخليّة (القديس "أغسطين"، "مونتيني"، "ديكارت"، و"جون لوك". حيث بدأ الإنسان شيئاً فشيئاً يتعلم أن ينظر إلى نفسه بإعتباره "أنا" باطني).

2- تثمين الحياة العادية (مع إعطاء دور مهم للبروتستانتية، لأنها تُثمن الحياة المادية/العملية عبر تقديس: العمل، وصناعة الأشياء المفيدة في الحياة، والأسرة، والزواج...).

3- علمنة المجتمع، وكان من المفروض ألا تُحطّم الفردانية التي تُميّز مجتمعاتنا الحديثة (الروابط الاجتماعية بين الناس).

ويعتقد "ش. تايلور" أنّ 'الاعتراف' في المجتمعات التي تعيش تعددًا ثقافيًا، قد ارتقى إلى مرتبة الحاجة الملحة، وذلك للعلاقة الضرورية ما بين الاعتراف³⁴⁷ والهوية. والأطروحة الأساسية التي يتقدم بها التيار الجماعاتي-والذي يُعتبر من أهم زواده- وهي "أن هويتنا تتشكل جزئيًا بالاعتراف أو بغيابه، وكذلك بالإدراك الخاطئ والسّي الذي يملكه الآخرون عن هويتنا"³⁴⁸. إن عدم الاعتراف أو الاعتراف الغير المطابق أو المشوّه يمكن أن يُعدّ ظلماً، ويُمكن أن يُشكّل نوعًا من الاضطهاد، وذلك بتأثير وسجن شخص، أو مجموعة أشخاص، في نوع من الوجود الخاطئ، أو المشوّه، أو المُختزل. ويضيف أنّ الإنسان كائن اجتماعي وكائن أخلاقي في الوقت ذاته، وعليه، لا يمكن له تحقيق السعادة خارج جماعته الثقافية.

³⁴⁵ Charles Taylor, *Les sources du Moi. La formation de l'identité moderne*, Éditions du Seuil, (coll. La couleur des idées), 1998, 712 p.

³⁴⁶ كما تُرجم الكتاب ب: منابع الذات، تشكل الهوية الحديثة.

³⁴⁷ الاعتراف: مفهوم سياسي وأخلاقي يحيل إلى معنيين، أمّا الأول فيتصل بمطالب خاصة بجماعات اجتماعية مختلفة. وأمّا الثاني فيصف شرعية مختلف المواضيع السياسية والأخلاقية. استعمل المعنى الأول "تايلور" واستعمل المعنى الثاني "أكسل هونث Axel Honneth". لكن جدير بالتوضيح، بأنه إذا كان مفهوم 'الاعتراف' يشير إلى 'الأقليات'، فإنّ الأقلية لا تعني دومًا قلة العدد (هذا ما تشير إليه حالة النساء أو السود/الزنج، على سبيل المثال). وهذا ما يؤكد الفيلسوف الفرنسي "جيل دولوز Gille Deleuze" بقوله: "إنّ الأقلية والأغلبية لا تتميز بالعدد. فالأقلية يمكن أن تكون أكبر من الأغلبية، من حيث العدد، وبالتالي فإنّ الأقلية تعني بالفعل وضعية-حالة، منزلة-. وليس المقصود وضعية من هو قليل، وإنما وضعية الذي فُرض عليه وضعية القاصر، وذلك وفقاً لمفهوم "Kant" للقاصر الذي لا يستطيع أن يقود نفسه من دون أن يتم توجيهه".**

** Gille Deleuze, *Pourparlers*, Paris, Minuit, 1996, p.234-235.

³⁴⁸ Charles Taylor, *Multiculturalisme, différence et démocratie*, Paris, Flammarion, 1992, p 41.

ومنه يخلص إلى أنّ تشكيل الهوية الفردية/الذاتية لا يمكن أن تتم خارج نظام اجتماعي وأخلاقي (ثقافي) معيّن. وحلّل ذلك بإسهاب في كتابه "مَنابع الذات، تشكل الهوية الحديثة"، حيث تتضمن هذه الأخيرة في اعتقاده عمليتين أساسيتين هما: عملية إكتشاف "الذات/الأنا"، أي مقدرة الفرد على إدراك ذاته الخاصة، وعملية الاعتراف بالذات/الأنا، من قِبَل الآخر/الغير، وهذا ما يُؤمّن للفرد وضعية ومكانة ضمن بيئته الاجتماعية التي يتواجد فيها.

أ. "إريك إريكسون Erik Erikson" نَاحِثُ المَفهوم:

لا يستقيم الحديث عن مفهوم الهوية بدون الرجوع - قصداً- للمنجز الإريكسوني، إذ يُعتبر أوّل من نَحَتَ المفهوم، وأولجّه عيادة علم النفس الاجتماعي، بعدما إكتشف أفكار "المدرسة الثقافيّة L'école culturaliste" (مدرسة الثقافة والشخصية). حيث تركز المقاربة "الثقافية" على فكرة تقديم "الهوية" على أنّها واحدة ومتعدّدة، ممّا يعني تمايزها واختلافها من ثقافة لأخرى. وهذا ما حاولت "مارغريت ميد M.Mead" تبريره من خلال نتائج دراساتها، المتعلقة بالثقافة والهوية الجنسية L'identité sexuelle. والتي تبدو -حسبها- أكثر الهويات وضوحاً وجلاءً لارتباطها بمعطيات بيولوجية، خاصة بالرجل والمرأة، والتي تنكشف للعيان من خلال مظاهر اللباس والجسم والهيئة.

يعرفها "إريكسون" بأنّها "مشروع زمري يَبنيه الفرد في علاقاته المَتمَيّنة مع الجماعات الاجتماعية التي يتواجد فيها. وأنّ "هوية الأنا" تتطور من الامتزاج التدريجي لكل الهويات. أمّا "الهوية السلبية" فهي تلك الهوية التي يتبناها الشخص بهدف مواجهة ومعاكسة "الهوية" التي يأملها الأهل والمجتمع -أهل الحل والربط والأمر والنهي-. حيث اجتهد في تَخَطّي الحيز النظري الفرويدي بتأكيد على أهمية التفاعلات الاجتماعية في بناء شخصيات الأفراد، مُتَعَرِضاً لتطور الهوية بموازاة مع التّطور العُمري، ومحللاً "أزمة الهوية" ضمن نظريته الارتقائية. حيث استنتج أن الهوية الشّخصية تتشكل عبر ثمانية مراحل تُقابلها ثمانية مراحل سِنِيّة³⁴⁹، خاصة "المرحلة الخامسة" (مرحلة البلوغ والمراهقة 13-18، بداية الرُّشد، والإحساس بالهوية، مقابل الخلط في الأدوار، وهي إعادة التّكامل بين أهداف الماضي والحاضر والمستقبل. ففي مرحلتي المراهقة والشّباب المبكر يظهر بُعد نفسي اجتماعي، طَرَفُه الإيجابي تحديد الهوية، وطرفه السّليبي نَشَتُّت في ممارسة الدّور. في هذه المرحلة يتساءل الفرد عمّن هو؟. ومن

³⁴⁹ نَحَتَ مفهوم "أزمة الهوية" في أربعينات القرن العشرين، وشرحه في كتابه "الهوية والشباب والأزمة Identity: Youth and Crisis" الذي نشره عام 1968.

سيكون؟. ومن هنا، يعيش أزمة صراع بين تحديد الهوية وغموضها³⁵⁰. ومنه فإنّ "الأزمة" التي يعيشها الشباب هي "أزمة هوية"، أزمة "من أنا؟". مما يضيف إلى خلخلة جُل مفاهيمه السابقة عن تصوّره لذاته³⁵¹. فنجاحه المنشود يتجسّد في إكتشافه لهويته، أمّا الفشل فيتمثل في حالة إرتباك الدّور³⁵². كما يؤكّد بأنّه لا وجود للهوية إلّا من خلال مجموعة أحاسيس ذات صلات عميقة بها، وهي:- الشّعور الذاتى بوحدة الشّخصية.- الشّعور بالوحدة والاستمرارية الزمنية.- الشّعور بالمشاركة العاطفية. - الشّعور بالاختلاف. - الشّعور بالثّقة الوجودية. - الشّعور بالاستقلال. - الشّعور بالمراقبة الذاتية. - الشّعور بالتّقدير بالقياس للآخرين.- الشّعور بعمليات التفاعل والتّكامل وقيم التّقمص والتّوحد³⁵³.

ب.العوامل المؤثّرة في تشكيل الهوية:

استنبط آل علم النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع ثلّة من العوامل التي لها تأثير مباشر وغير مباشر في تشكيل هوية الأفراد والجماعات، نلخصها فيما يلي:

خصوصية البيئة الاجتماعية: يؤكّد آل السوسولوجيا على أنّ أزمة الهوية، تتباين في شكلها ومضمونها من مجتمع لآخر، ومن ثقافة لأخرى، وأن المراهق يعكس في أزمته الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي يعيش فيها. فالأزمة لا تكون فقط إستجابة لتحوّلات داخلية للفرد، بل تحدث كإستجابة لإختلالات بيئية يعيش فيها. ومنه فتفسير الأزمة يجب البحث عنه في هذه الظروف الاجتماعية التي تحيط بالمراهق.

العوامل الحضارية: يجد المراهق نفسه مُحاطاً باتجاهات وآراء ومصالح مُتضاربة. وبالرغم من تركيز الحضارات على إكتساب الفرد الهوية، وإحساسه بقيمته عن طريق نسج علاقات وثيقة بالآخرين، عن طريق المشاركة في الهوية الجماعية، إلّا أنّها تُركز على هوية الفرد، وإكتسابه الشّعور بذاتيته بوصفه شخصاً مُتميّزاً، إلى أن يكتسب هوية فردية، وهوية جماعية على السّواء.

³⁵⁰ بشير معمريّة، إبراهيم ماحي، "أبعاد السلوك العدواني وعلاقتها بأزمة الهوية (لدى الشباب الجامعي)"، أبحاث ومقالات، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، العدد4، أكتوبر-نوفمبر - ديسمبر 2004.

³⁵¹ أمّا "بول جودمان Paul Goodman" فيرى في أزمة الهوية إحساس بالضّياع في مجتمع لا يساعده في فهم من هو؟، ولا تحديد دوره في الحياة، ولا يوفر له فرصاً يمكن أن تعينه في الإحساس بقيمته الاجتماعية.

³⁵² أسعد شريف الأمانة، وائل فاضل علي، "أزمة الهوية والاعتراب لدى بعض أفراد الجالية العراقية المقيمة في السويد" مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة في الدنمارك، دورية علمية محكمة نصف سنوية، ع3، ص.52-66.

³⁵³ أليكس ميكشيللي، مرجع سابق، ص 72-73.

طبيعة العلاقة بالوالدين: من أهم المشكلات التي يعاني منها المراهق في نطاق حياته الأسرية، ما يتعلق بموقفه من والديه، و بموقف والديه منه، فكّما كانت العلاقة بينهما علاقة "طيبة"، وقائمة على التّفاهم والحنان، كلّما كانت عملية إكتساب الشّعور بالهوية "عادية".

التّنميط الجنسي والهوية الجنسية: يعتقد الباحثون أنّ السلوك الصادر عن الرجل والمرأة، يُترجم طبيعة الهوية الجنسية، ومعناها إدراك الفرد وتقبّله لطبيعته البيولوجية الجنسية. فالصّراعات في الهوية الجنسية تؤدّي إلى خلق مشكلات حادّة، تَعترض وتُعطلّ تشكل "الشّعور بالهوية".

العوامل الصحية: تعتبر الحالة الصحية البدنية والنفسية، محدّدًا هامًا في كيفية تمثّل الفرد لذاته.

ت. تفحص "المفهوم" سوسولوجيًا:

لهوية تعريفات متعدّدة حسب العلم الذي تُبحث فيه، والباحث عندما يتعامل معها، فإنّه يتعامل مع مفهوم قلق من النّاحية النظرية، يُثير أسئلة أكثر مما يُقدم إجابات. هذا ما جعل العديد من الباحثين يصنّفونه ضمن أكثر المفاهيم شائكيّةً، لما يُثيره من إشكاليات عديدة، بدءًا بالتعريف مرورًا بالأشكال والمستويات، وإنهاءً بالعناصر والمقومات، وترتيبها حسب الأهمية.

إكتسح المفهوم في بضعة عقود مُجمل العلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد فرض نفسه حتى غدا بمثابة كلمة "سحرية"، بل 'شِعَارًا طُوطَمِيًّا' يَحُلّ جُلَّ الإشكاليات المطروحة حسب "فرانسوا لابلانتيه François Laplantine"³⁵⁴، وذلك في تحليل حقائق جدّ متنوعة، مثل علم نفس الأفراد، تحولات الأديان، والعلاقات بين النساء والرجال، وموضوعات الميّن، والحياة الأسرية، والهجرة، والصّراعات العرقية³⁵⁵.

عرفت إشكالية "الهوية" انتشارًا ملفتًا ضمن الدراسات الأنثروبولوجية والسوسولوجية خلال الستينّات، خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية³⁵⁶ -مهد الاجتهادات المعاصرة حولها³⁵⁷. وبالتحديد مع

³⁵⁴Jean-Paul Resweber, "François Laplantine, Je, nous et les autres", Paris, Le Pommier, 1999, 156p. URI: <http://leportique.revues.org/index415.html>. Consulté le : 12/11/2009.

³⁵⁵ كاترين هالبيرن، "مفهوم الهوية: تاريخه وإشكالاته"، ترجمة وتعليق: الدكتور إلياس بلك، مجلة الكلمة. www.kalema.net/v1/?rpt=587&art. تاريخ الاطلاع: 10/9/5.

³⁵⁶ Brubaker R, "Au-delà de l'«identité»", Actes de la recherche en sciences sociales, 2001/3, 139, pp. 66-85.

³⁵⁷ يعتقد "تود جيتلان Todd Gitlin"، بأنّ عاطفة الانتماء لمنط هويّاتي مُتفرد عرفت تزايدًا مُلفتًا، إذ يذكر من خلال إحصاءات ما بين 1980 و1990، إرتفاع الأمريكيين الذين صرّحوا رسمياً بأنّ انتماءاتهم ترجع لأصول الهنود الحمر بنسبة 225%، كما تضاعفت نسبة الذين صرّحوا بأن أصولهم أكادية²¹ مرة في نفس الفترة.**

ارتفاع سَقف مطالب الهنود الحمر والأفارقة بضرورة بتطبيق المساواة، والاعتراف بكياناتهم الاجتماعية والثقافية، لينتشر استثمارها بمختلف التّضاريس المجتمعية، السياسية، الجغرافية، الدّينية والثقافية. حتّى أضحى من الصعوبة حسب "فيليب كليزون Philip Gleason" تحديد التّصور المرجعي لكل استخدام للهوية³⁵⁸. وفي تشخيصه لأسباب تنامي الإنهاس المُتزايد بالمفهوم صرح "بيتر وَايد Peter Waid" "أنّ ارتفاع وتيرة "نزعة الهويات"³⁵⁹ في القرن العشرين إنّما يعود إلى تنامي مشاعر الارتباط العضوي بين مجموعة بعينها من الأفراد، واشتراكها في اللغة أو التاريخ أو الأرض، وكذا في تصاعد الحركات السوسولوجية السياسية عند الشّعوب، تزامناً مع ارتفاع وتيرة العولمة³⁶⁰.

فقضية الهوية من القضايا الرئيسة في الدّراسات الثقافية/الثقافية، ذلك لأنّها تلامس السّياقات التي ينتهجها الأفراد والجماعات لتشكيل وبناء هويّاتهم، والبحث عن سُبُل -فاعلة- للتعبير عنها وحمايتها. إذ تعتمد هكذا مقاربات على الاتجاهات الفكرية التي تُشكّك فيما يُسمّى بالتّصورات التقليدية للهوية. حيث تفترض أنّ الدّات شيءٌ مُستقل بنفسه، نظراً لكونها ثابتة، ومُستقلة عن المؤثرات الخارجية. فهي عبارة عن ردّة فعل لشيء خارجي ومختلف عنها (عن الآخر)³⁶¹.

غالباً ما يُستعان بمفهوم "الهوية الثقافية L'identité culturelle" في الدّراسات السوسولوجية، الذي نَحْتَهُ "إريكسون Erikson" بداية الخمسينات، حيث رَشَحَهُ ليكون من أكثر المواضيع طَرَقاً (بحثاً). وبالفعل تحوّل إلى مفهوم عملي كثير الاستخدام، مما جعله يواجه وضعيات معقدة ومتداخلة، قُورِبَت من زوايا متعدّدة (قياس الهوية، انتشار اللغة الثقافية، الخصائص المتعدّدة الأبعاد وديناميكية الهوية، هوية الأشخاص المُرتحلين...). زادت جدّة الانهاس به -كما يعتقد "Samuel Huntington"- بُعيد الحرب الباردة، حيث عرفت تغيّرات عميقة ومثيرة في هويات المجتمعات.

يمكن مقارنة "الهوية" سوسولوجياً من زوايا متعدّدة. فبشكل عام، تتعلق الهوية بفُهومات الأشخاص وتمثّلاتهم لِذَوَاتِهِمْ، ولما يعتقدون أنّه مُهمّ في حياتهم، إستناداً إلى مصادر مُعيّنة، مثل

= **Catherine Halpern, "Faut-il en finir avec l'identité?", Sciences Humaines, n°151, juillet 2004.

URI:http://www.scienceshumaines.com/index.php?lg=fr&id_article=4240#12. Consulté le 8/2/10

³⁵⁸ Ibid.

³⁵⁹ يتحدث "إريك ديبان Eric Dupin" عن "عصر هستيريا الهوية" في كتابه:

"L'hystérie identitaire", ed: Cherche Midi, 2004, 220 p .

³⁶⁰ مرح البقاعي، "بين البيولوجي والثقافي.. سينما الهويات"، مجلة أدب وفن (مجلة ثقافية إلكترونية)، تاريخ النشر

الإلكتروني: 07/9/09. <http://www.adabfan.com/cinema/712.html>، تاريخ الاطلاع: 11/04/13.

³⁶¹ "أندرو إدجار" و"بيتر سيدجويك"، مرجع سابق، ص 555.

الجُنوسة والجنسية، الإثنية والطبقية وغيرها من المتغيرات. ويميّز الباحثون بين نوعين من الهوية: الهوية الذاتية والهوية الاجتماعية. وكلاهما مُتعالقان بهِمزات وَصل عديدة. وعموماً، فإنّ الإنسان لا يلي مختلف هويّاته الأهمية ذاتها، ولكنه يُغلبُ بعضها على بعض، وقد تنتظم لديه في سُلّم انتماء يتدرّج من الأقصى إلى الأدنى-ترتيب مؤقت- وهنا قد تجد جماعة ما نفسها مُتَّفِقة على إعطاء وزن أكبر لهوية مُعيّنة، وهذا ما يُورثها شعوراً قوياً بالتمييز عن الآخرين.

من جهته، يعرفها عالم الاجتماع " مانويل ماستلز Manuel Castel" بأنّها "سيرورة إنبناء معنى فعل مُعيّن، انطلاقاً من مُعطى ثقافي، أو من مجموعة مُنسجمة من المعطيات التي تحظى بالأولوية، بالمقارنة مع باقي المصادر، تتشكّل من خلال "التخصّص"، تعتبر مصدر المعنى بالنسبة لهم. لماذا؟ وبماذا؟، يحدّدان المضمون الرّمزي للهوية الثقافية المشكّلة ودلالاتها، سواء بالنسبة لمن ينتسبون إليها أو المبعدين عنها"³⁶². ويصفها "أنتوني غيدنز Anthony Giddens" بأنّها "تلك السّمات المُميّزة لطابع الشّخص أو الجماعة. تنشأ كل من الهوية الشّخصية والجماعية بواسطة عناصر الصّياعة الاجتماعية. هكذا، يمثل اسم الشّخص واحداً من أهم عناصر الهوية الاجتماعية. فالإسم جزءٌ مُهم من تفرّد الشّخصية. كما أن اختيار الاسم يُعد شأناً مُهمّاً أيضاً بالنسبة لهوية الجماعة. فعلى سبيل المثال، تُعدّ الهوية القومية نتاجاً لما إذا كان الشّخص إنجليزياً أو فرنسياً أو أمريكياً وهكذا دواليك"³⁶³.

كما تعبّر عن علاقة(بات) اجتماعية تتغيّر باستمرار، وترتدي في شروط مختلفة معاني متعدّدة، باختلاف الفاعلين والظروف والزّمان والمكان. إذ يمكن للفرد أن ينتمي على مدار حياته إلى عدّة هويات اجتماعية، انطلاقاً من تغير قناعاته وظروفه، فبإمكانه أن يغيّر دينه أو جنسيته، أو حتّى اللغة أو اللّكنة (اللّهجة) التي تَعوّد عليها، أو انتماءه السياسي. فالفرد لا ولن يكون 'هُوَ' دائماً في كل الحالات والمواقف الحياتية. ويعتقد "إمانويل مونييه Emmanuel Mounier" في مؤلفه 'حول الشّخصانية'، بأنّ السّمة الأساسية للشّخص هي هويته، هوية تتشكّل عبر نموه وتطوره من خلال علاقاته المتنوعة والمتداخلة مع الغير القريب والبعيد. حيث تكون اللّغة - بما فيها الكتابة الجغرافية في اعتقادنا-

³⁶² يعتبر مؤلف "مانويل كاستلز" "الاقتصاد والمجتمع والثقافة: عصر المعلومات Economy, : The Information Age Society and Cultur" والذي نشره في ثلاثية توزعت عبر: "صعود المجتمع الشبكي Network Society" (1996)

و"سلطة/قوة الهوية The Power of Identity" (1997) و"نهاية الألفية End of Millennium" (1998) قاعدة مرجعية

في الفهم السوسولوجي لواقع مجتمعات القرن الواحد والعشرين من مختلف الجوانب، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

³⁶³ أنتوني جيندز، "مقدمة نقدية لعلم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون، كتب عربية، جامعة القاهرة، مطبوعات مركز

البحوث والدراسات الاجتماعية، 2002، ص261.

الحامل للمعطيات الأولية لتشكّل الأنا، ونمو الوعي بالذات. لا تظهر الهوية مع الشّخص منذ الولادة، بل تتشكل من خلال سيرورة التنشئة الاجتماعية، كما يؤكد "كلود ديبار C. Dubard"، ولهذا تَنبَلُجُ مُبَكَّرًا إشكالية الهوية عند الطفل، خاصة إذا كان ينمو في وَسَطِ تَغْيِبٍ -أو تَغْيَبٍ- فيه المرجعيات الهويّاتية. لذا يُسَوَّقُ أحيانًا، بأنّ مشكلة الهوية مشكلة اليافعين، فكل شخص يقدم نفسه كـ"أنا"، ويُضفي على تجاربه الشّخصية طابعاً ذاتياً، حيث يُمرّكز تفكيره وحديثه وسلوكاته حول 'أنا'.

في مقام آخر، يشير الباحث "ستيوارت هول Stuart Hall" ضمن بحثه "من يحتاج إلى الهوية؟"، إلى أنّ الهوية هي "الفكرة التي لا يمكن أن نفكر فيها اليوم بالطريقة القديمة نفسها، لكن من دونها لا نستطيع أن نفكر في العديد من المسائل الأساسية، وبأنّ هذا المفهوم قد تغيّرت دلالاته في الأبحاث المعاصرة. لذا، نجده يُقارِبها من خلال تمييزه بين ثلاثة مستويات مُتباينة. أمّا المستوى الأوّل فسَمّاه 'بالذات التّنويرية': تتعامل هذه الأخيرة مع الإنسان بصفته ذاتاً تمتلك نزعة مركزية بالكامل، وفرداً موحداً يمتلك العقل والوعي والفعل. وتتألف نقطة الارتكاز لديه من لُبِّ (جوهر) داخلي يظهر مع الولادة، ويتجلى مع نُموّها، في الوقت الذي تُحافظ فيه الذات على جوهرها دون تغير. ومنه فإنّ نقطة المركز لذات الفرد "هويته".

أمّا المستوى الثّاني، يسمّى بالذات السوسولوجية، تعكس التّعقيد المُتنامي للعالم الحديث، وإدراك أن هذا اللب الداخلي للذات لم يكن مستقلاً ومُكتفياً بذاته، وإنّما تتشكّل نتيجة العلاقة مع "آخرين مهمّين"، تموضّعوا كوسطاء (فاعلين في مؤسّسات التنشئة الاجتماعية)، مُهمّتهم الاجتهاد في نقل القيم والمعاني والرّموز و...-بكلمة واحدة نقل الثقافة- من الفضاء الذي تتواجد فيه الذات. ويُقرُّ "هول" بأنّ التّفاعليون الرّمزيون هم من طوّروا الفهم التّفاعلي للهوية والذات، حيث تَنبني الهوية من خلال التّفاعل بين الذات والمجتمع. مع بقاء لُبِّ داخلي (جوهر)، يُشكّل الأنا الحقيقية. تبقى هذه الأخيرة في تَغْيِيرٍ مستمر نتيجة الحوار الدائم مع العوالم الثقافية الخارجية والهويات المُقدّمة من طرفها (الهوية الرّسمية المنشودة من المجتمع)، "الهويات المُشرّعة Les identités légitimantes" التي تستثمرها المؤسّسات في عَقْلَنَة وشرعنة هيمنتها، بلغة "مانويل كاستلز".

انطلاقاً من هذا التعريف السوسولوجي للهوية، يتّضح الدور الأساسي لها -حسب هول Hall- في رَدْمِ الهوة القائمة بين 'الداخل' و'الخارج'، بين العالم الخاص والعوالم العامة، إذ نحاول باستمرار التّماهي مع الهويات الثقافية المُتاحة، ونستبطن في الوقت ذاته المعاني والمعايير والقيم المُميّزة لها -الهوية الثقافية-. معتقدين أنّها جزء من أنفسنا، تُيسّر لنا التّكيف مع الوسط الموضوعي الذي نتواجد

فيه، إنَّها تُضفي الاستقرار على الدَّوات والعالم الثقافي والاجتماعي الذي تتموضع فيه. غير أنَّ الرِّياح لا تجري دائماً بما تشتهي السِّفن، ذلك أنَّ ما كان يُعرف بالهوية 'المُوَحَّدة والمستقرة' قد وُلِّي، وطَفَح نموذج ما يسمِّيه العديد من المحللين ب'الهويات المتعدِّدة'³⁶⁴. هويات متناقضة في بعض الأحيان، نتيجة التَّدهور والتَّغير البنيوي والمؤسَّساتي لهويات العالم الخارجي (المجتمع ومؤسساته التقليدية). وضعية أفضت إلى تعدُّد وإقبال الأفراد على تماهي أكثر إنفتاحاً وتحوُّلاً، أنتج ما سمَّاه "س. هول" ب"الدَّات المابعد حدثية"، من أهم خصائصها أنَّها غير ثابتة، تتشكَّل وتتحوَّل بصورة مستمرة، في علاقتها مع النُّظم الثقافيَّة التي تتلامس معها³⁶⁵.

• لكن، هل الهوية ثابتة أم متغيرة؟

يتَّخذ الأشخاص هويات متباينة، بتباين الأزمنة والأمكنة، والظروف، والمراحل العُمريَّة، ممَّا يُؤدِّد هوية غير قارَّة، وغير مُنسجمة مع الدَّات -الطَّلابية-. إذ نشعر بهويات متناقضة تدفعنا باتجاهات مختلفة. ممَّا يؤدي إلى جعل "تماهياتنا" في تغيُّر مستمر، رغم شعورنا بامتلاك هوية مُوحَّدة على طول السِّيرة الحياتية. تبدأ عملية تشكيل الهوية بالأسرة ثم تتعدَّد وتستمر بالانشاط والتَّكثُّر، ولن تتوقف إلا بولوج الانسان اللَّحد. فينتهي الشَّخص لهويات متعدِّدة، بتعدُّد الأدوار والمكانات التي يشغلها. رغم ذلك تبقى -دائماً- هوية واحدة فعَّالة، وهويات أخرى مُبعثرة في الوعي، لكنها ضامرة أو غير مُفعَّلة. تبقى -الهويات الضَّامرة Les identités latentes- في حالة إستعداد، نتجرَّأ ونسمِّيه ب"السُّبات الهويَّاتي". بمعنى أنَّها قابلة للاستثارة في أوقات الحاجة إليها، حيث تعود للظُّهور، وربَّما بشكل مُلفت للنظر، إن لم يكن غير معقول (تُضفي للعنف)، 'الهويات القاتلة' كما يصفها 'أمين معلوف'.

بدوره حاول "إدوار سعيد" نَسج خيوط نظرية كاملة حول مسألة الهوية، حيث أشار لإستحالة وجود هوية صافية، بأنَّ كل الهويات "مركبة" من عناصر مختلفة، وتراثات مُتغايرة. فالهوية ليست ثابتة ولا جامدة ولا نهائية، عكس ما نَتَوَهَّم، وإنَّما تمتاز بالحيوية والديناميكية، تغتني بإستمرار من عناصر ثقافية متجدِّدة. بدوره يصفها "سالم حداد" على أنَّها ظاهرة إنسانية مُلازمة للكائن البشري، تكون ضامرةً في حالة كُموُن في الظُّروف العادية، الخالية من الصِّراعات³⁶⁶.

وانطلاقاً من التَّصور الوظيفي للهوية، يميِّز الباحثون بين تصورين لمعناها:

³⁶⁴ وإن كُنَّا مطَّلعين على الرِّأي المختلف، الذي يعتقد بأنَّ الهوية واحدة، والانتماءات هي المتعدِّدة (أمين معلوف).

³⁶⁵ ستيوارت هول، "حول الهوية الثقافيَّة"، ترجمة بول مطر، إضافات لعلم الاجتماع، ع2، ربيع 2008، ص 137. 184.

³⁶⁶ سالم حداد، "صراع الهوية بين الأنا والآخر: المغرب العربي نموذجاً"، المغرب، الأطلسية للنشر، 2000، ص 332.

➤ التّصوّر الستاتيكي (المَاهَوِي)، الذي يعتبرها، شيء اكتمل وانتهى وتحقق في الماضي، في فترة زمنية معينة، أو نموذج اجتماعي معيّن، وإنّ الحاضر ما هو إلا محاولة إدراك هذا المثال وتحقيقه.

➤ التّصوّر التّاريخي والديناميكي، حيث الهوية شيء يتم اكتسابه وتعديله باستمرار، وليس ماهية ثابتة، أي أنها قابلة للتّحول والتطور، متجدّدة "العناصر" تبعاً للظّروف التي يعيشها الفرد والمجتمع. كما يطرح البعد المزدوج للهوية إشكالاً حقيقياً بفعل ازدواجيتها ما بين الفردي والجماعي. فملاحظتها من خلال أبعادها الفردية يقود إلى الاعتقاد بوجود كائن مطلق غير مُتغيّر في الزّمان، مع ما يعنيه هذا الموقف من ملابسات. أمّا في حالة مُلامستها في بُعدها الاجتماعي، فيتعدّد الإشكال أكثر، فمن المستبعد أن يكون أفراد مجموعة ما مُتماثلين كلياً، حيث يتّصفون بنفس ملامح الهوية. هذا ما يجعلنا أمام ما يسميه "ألان تورين Alain Touraine" بالوجه المُزدوج للهوية، فهي من جهة ذات بعد فردي، ومن جهة أخرى تعبير عن إنتماء لخصائص جماعية.

من هذا المنطلق، يقف السوسولوجي "كلود ديبار Claude Dubar" عند مفارقةٍ أساسية، كثيراً ما تُواجه ما يسمّى 'بالهويات الجماعية'، إنّه البُعد المُميّز الأَحادي، والبعد المشترك، وكيفية الفصل بينهما. بمعنى آخر، إنّ جماعة ما لا تُعترف بالوجود المُميّز لأفرادها إلاّ من جهة تماثلهم. وهذا ما يستلزم عملية مزدوجة، تتّجه من جهة إلى تقليص التّمايزات الدّاخلية للجماعة، ومن جهة أخرى لتعميق الخصائص المُميّزة لها، عن الآخرين. إن تمايز جماعة ما بهويتها لا يعني تطابق أفرادها بالتّمام. لأنّ التّماس الوحدة والتّجانس والتّماثل الكامل، هو التّماسٌ لخاصية التّخجّر والجُمود، لأنّ الهوية الحَقّة هي تطابق الهوية مع الاختلاف، كما يعتقد "هيجل". تأسيساً على ما سبق، نستنتج أنّ الهوية ليست ثابتةً، بل متغيرةً حسب الوعاء الزّمكاني، وتصرفات وسلوكيات الفاعلين.

• وهل هي واحدة أم متعدّدة؟

يجيب "أمين معلوف" في مقدمة كتابه المشهور "الهويات القاتلة" بأنّ الهوية لا تتجزأ أبداً، ولا تتوزّع أنصافاً أو أثلاثاً أو مناطق مُنفصلة. ويواصل "أنا لا أملك هويات عدّة، بل هوية واحدة مُكونة من كل العناصر التي شكّلتها وفق 'مُعايَرة' خاصة، تختلف تماماً من رجل وآخر"³⁶⁷. إنّها هوية مُركبة، إذ يعرفها بقوله "هويّتي هي ما يجعلني غير مُتماثل مع أيّ شخص آخر"³⁶⁸. نظراً لتعدّد الفضاءات التي يتفاعل معها الفاعل التي تفرض عليه استخدام صورة من الصّور الهوياتية، التي تتوافق مع المجموعة

³⁶⁷ أمين معلوف، مرجع سابق، ص 7 - 8 .

³⁶⁸ المرجع نفسه، ص 14 .

التي يتفاعل معها. من جهة أخرى، ينتهي المرء -طوعاً أو كرهاً- لمجموعات متعدّدة، لِكُلِّ منها خصوصياتها الثقافية والهوياتية. بدءاً بالأسرة ومروراً بجماعة الرفاق وزملاء الدراسة، ووصولاً لمجموعات الشغل، أو العطالة القسرية، وغيرها.

بالإضافة إلى أنّ الشخص ذاته يمكنه "الانتساب" لمجموعات وأدوار متعدّدة في نفس الوقت، فهو جزائري مسلم ومزابي، إطاراً بمؤسسة اقتصادية ومُريدًا لطريقة ما، وباحثاً في تاريخ الطّرق الصّوفية بالجزائر، وأباً لخمسة أطفال، ومُتطوّع في الهلال الأحمر الجزائري. ونفس الأمر بالنسبة لطالبة جامعية يمكن أن تتعدّد إنتماءاتها، فهي طالبة تدرس بكلية الطب، من أصول أمازيغية تقطن منطقة "تزارا" بندرومة، وناشطة بالاتحاد الطلابي الحر بجامعة تلمسان، متزوجة وأم لطفل، وتنتسب لجامعي الطّوايع البريدية...

إذن، كل فرد يمكنه أن يتّصف بانتماءات متزامنة، ومتدرجة ومتعدّدة. هذا ما جعل بعض أهل الاختصاص يتحدثون عن "الهويات المتعدّدة Les identités multiples"، (الهوية الشخصية 'الذاتية'، الهوية الاجتماعية 'الموضوعاتية'، الهوية الثقافية، الهوية الإثنية والعرقية، والهوية المهنية والهوية الطلابية)، وغيرها من الهويات. إننا نُمائل "المُهرّج"، توصيفُ الحَقّه الفيلسوف الفرنسي "ميشال سيراس Michel Serres" بالفرد المُتعدّد الأبعاد، المُهرّج الذي يرتدي لباساً مُفصّل من قِطع قُماش مختلفة اللّون والشّكل، مُحاكَةً فيما بينها لتُشكل ثوباً واحداً، يرتديها طول حياته. حيث يُميّز الباحثون بين ثلاث مستويات أساسية للهوية، الهوية الفردية والهوية الجماعية والهوية الوطنية، فأما الهوية الفردية تميّز الفرد عن باقي الأفراد الذين ينتمون إلى نفس المجتمع، من خلال مجموع السّمات المُميّزة لكل فرد.

أما الهوية الجماعية، فتُميّز بين مجموع الأفراد الذين يُكوّنون كُلاً لا يتجزّأ، يجمعه الانتماء الإيديولوجي نفسه، والنّظرة إلى العالم والأشياء عينيها، كأن يكونوا منخرطين في حزب معين، له قناعاته وبرامجه الخاصة، التي تجعله مختلفاً عن باقي الأحزاب الأخرى، رؤيةً ومنهجاً، لأنّ كل فرد منخرط في حزب ما "ينخرط" -بالضرورة- في رؤيته. مما يرشحه ليختلف عن أفراد منتسبين لحزب-أو جماعة أخرى- في ذات المجتمع. أما الهوية الوطنية (المجتمعية)، هي كل ما يُميّز شعباً عن شعب آخر، إنتماءً وسياسةً، ومُواطنَةً وتنشئة اجتماعية. تعتبر هذه الأنواع الثلاثة مسلمات لا بد من الأخذ بها، واحترامها في التميز، وإثبات الخصوصية الفردية والجماعية والوطنية.

يستدعي طرح مفهوم الهوية، التأمّل العميق في العديد من المفاهيم والنماذج الاجتماعية التي تَواشَجَت فيه ومعه³⁶⁹، نذكر على سبيل الذكر لا الحصر: الثقافة، القيم والمعايير، الدور والمكانة، التنشئة الاجتماعية والتعليم، الطبقة الاجتماعية والعُمريّة، المجتمع المحلي والمنطقة والوطن، العرق والجنس، الإعلام والاتصال، والتفاعل الاجتماعي... فتداخلت التّصورات الثقافية. وازدادت كثافة المَصَاديق -مفردها الماصدق- الدّهنية، التي جعلت من منطقة الهوية تتنازع على ساحتها مفاهيم تُسَيِّجُ حدودها، بإطارات محددة، ومعرفة ثقافياً واجتماعياً.

مما سبق، استخلص الباحثون براديفغمين أساسيتين تتحرّك فيهما وبينهما الهوية. الباراديفغم الأول: يُرافِعُ ضدّ المقاربات التي تتعامل مع الهوية -خاصة الشخصية- على أنها جوهر باطني، يمثله كل من "ك. ماركس" و"إ. دوركايم"، ويُقارب الهوية ليس باعتبارها حائزة على طبيعة باطنية وأصلية لكائن، بل على العكس من ذلك، بوصفها حصيلة اندماج هذا الكائن ضمن مجتمع معين، وتمثل بطريقة ذاتية أساليبه في الشعور والفعل والتفكير.

أما الباراديفغم الثاني: يجتهد في تَوْخي مسارات بنائية للهوية، من خلال منظور تفاعلي وبعيد كل البعد عن 'الماهوية'. ولكنه لا يُغالي في طلب اندماج الشخص بالحياة الاجتماعية، بل يتّخذ مسافة منها، ويضعها موضع حوار وجدل، ويكتفي بإعادة مَوْضَعَة الفرد في المجتمع، وإعادة نَمْدَجَتِهِ وفق السّمات الاجتماعية لهذا الأخير. مما يجعل الفرد فاعلاً قادراً على تشييد فضاء بينه وبين المرجعيات الهويّاتية التي يعتمد عليها من أجل بناء وتشكيل هويته³⁷⁰. يكاد يتّفق الجميع على أنّ "إريكسون" ناحِت مصطلح الهوية، إلا أنّ هذا لم يمنع المؤرّخ "فيليب كليزون Philip Gleason" من ترصّد مسارات أخرى لتوسيع استخداماته، كاستِجْراءِ مصطلح "التّماهي L'identification"³⁷¹ كمفهوم إجرائي للهوية، بعيداً عن التحليل النفسي.

³⁶⁹ يعتقد "غاستون باشلار" أن أية كلمة لا تُشكل مفهوماً علمياً في حدّ ذاتها، وإنّ ما يمنح هذه الكلمة معنى علمياً محدّداً هو علاقاتها بالمفاهيم الأخرى.

³⁷⁰ زهير الخويلدي، 'هوية الشخص وثقافة الآخر'، ملقى ابن خلدون للعلوم والفلسفة والأدب. النشر الإلكتروني: 10/3/1. من:

http://ebn-khaldoun.com/article_details.php?article=317، تاريخ الاطلاع 11/8/4.

³⁷¹ تُرجم مفهوم Identification إلى اللغة العربية بعدة كلمات، منها: التّوحد، التّقصص، التّكثُّه والتّماهي (ترجمات تداخل فيها النفسي مع الاجتماعي). كما يعني تحقيق الدّاتية، أي اكتساب هوية معينة. ويعرفه "أ. ميكشيللي Alex Muchielli" بأنّه مفهوم يتضمّن دلالتين أساسيتين، فهو يشير إلى فعل "التّعريف Identifier"، ويعني تحديد شيء ما بالاستناد إلى بعض المؤشرات والدلالات بغرض تَقْيِيْتِهِ في إطار فئة من المعارف المُحدّدة. أمّا الدلالة الثانية تدل على فعل التّوحد مع شخص آخر

• وما المقصود بالتماهي L'identification ؟ :

إنّ "التماهي" يتوازي مع التمايز، إذا اعتبرنا أنّ الهوية دوّمًا محصلة صيرورة تماهٍ، في وضعية علائقية. إذ يمكن أن تتطور إذا ما تغيّرت الوضعية العلائقية، لذا يوصى بعض الباحثين باعتماد "التماهي L'identification" كمفهوم إجرائي للتحليل عوض "الهوية"³⁷². فإنحصر سؤال الهوية ببُعد الانتماء، وعُدّ الانتماء إلى مثل هذه الجماعة -أي ثقافة مشتركة- الشرط الأساس للتعبير عن الذات³⁷³. ولذا ينصح بعضهم بالتركيز على عملية التماهي والانتماء، وليس البحث عن هوية ثابتة، لأنّ الأخيرة تكاد تكون أمرًا مستحيلًا.

كما يعرف "محمد عاطف غيث" التّوحد- أو التّقمص- بأنّه عملية اجتماعية سيكولوجية، تنطوي على تمثّل وإستدماج قيم أو معايير أو توقعات أو أدوار اجتماعية، متصلة بشخص أو أشخاص آخرين، والتعبير عنها في السلوك والتّصور الدّاتي. وعندما يتّوحد الفرد بجماعة ما، فإنّه يستدمج مصالحتها ومستوياتها السلوكية وتوقعاتها، وتعتبر هذه العملية ذات أهمية في تحقق السلوك الإنساني السّوي. كما أنها لا تقتصر على مرحلة الطفولة وحدها، ولا يُمثل ميكانيكًا دفاعيًا فقط، فقد يتّوحد الرّاشدون مع غيرهم، وكذلك الأطفال. ويتم ذلك خارج نطاق القلق والحب، وضمن عملية تنمية الذات، والتّوافق الاجتماعي السّوي. والتّوحد مِيلٌ أو إتجاه نحو التقليد والمحاكاة، أي عملية تقليد سلوك شخص أو موضوع، أو حالة التّقمص الوجداني والارتباط العاطفي بموضوع ما.

يُستخدَم المصطلح في الدراسات الاجتماعية ليشير إلى بعض العلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها الشخص وتتصل بالأدوار الاجتماعية والجماعات الاجتماعية، فالمرء يتّوحد (يتماهى) مع دور اجتماعي مُعيّن عندما يستدمجه ويتبناه في الوقت نفسه، بوصفه دورًا خاصًا به، يحاول جاهدًا أن يكتسب مهاراته الضّرورية التي تجعله يتوافق مع معاييرها. ويُقال أيضاً أنّ المرء يتّوحد بجماعة اجتماعية إذا إستطاع أن يستدمج نسق الأدوار السّائدة فيها، وإعتبر نفسه كأحد أعضائها³⁷⁴. إستخدمنا المفهوم في سياق المعنى الأخير بشكل كبير، دون إستبعاد المعاني النّفسية. والانتماء حضور مجموعة متكاملة من

=أو شيء ما، بمعنى تمثّل الفرد لمجموعة سمات فرد آخر أو سمة من سماته. (أليكس ميكشيللي "الهوية" ترجمة "علي وطفة"، دار الوسيم للخدمات الطباعة دمشق، 1993، ص52).

³⁷² René Gallissot, "Sous l'identité, le procès d'identification", l'Homme et la société, (nouvelle série), n° 83, pp. 12-27.

³⁷³ طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، "مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع"، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2010، ص 702.

³⁷⁴ محمد عاطف غيث، "قاموس علم الاجتماع" دار المعرفة الجامعية، 2006، ص 208.

الأفكار والقيم والأعراف والتقاليد، التي تتغلغل في أعماق الفرد، فَيَحْيَا بِهَا وَتَحْيَا بِهِ حَتَّى تَتَحَوَّلَ إِلَى وُجُودٍ غَيْرِ مَحْسُوسٍ، كَأَنَّهُ الْهَوَاءُ الَّذِي تَنْفَسُهُ وَلَا يَرَاهُ³⁷⁵.

ومنه ف"التّماهي" عملية تمكّن الفرد من تشكيل هويته، بتماھيه مع مرجعيات "الجماعة" التي يتفاعل معها، بتمثّل منظومتها القيمية والثقافية، من خلال 'الدّور' المحدّد له. ولعل هذا ما حفّز "مانويل كاستلز M. Castels" لَتَوْصِيفِ الْهَوِيَّةِ بِأَنَّهَا مُسَلْسَلٌ إِنْبَاءٌ مَعْنَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ، انْتِطَاقًا مِنْ مُعْطَى ثِقَافِيٍّ، أَوْ مَجْمُوعَةٍ مَنْسَجَمَةٍ مِنَ الْمَعْطِيَّاتِ، وَالَّتِي تَحْظَى بِالْأَوْلَوِيَّةِ بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ بَاقِي الْمَصَادِرِ.

• اشكالية عناصر الهوية:

إنّ توصيف هوية مجتمعٍ أو جماعةٍ أو فردٍ ما، يستلزم الرجوع إلى جملة من العناصر والمكونات³⁷⁶. رغم عُسْرِ هَكَذَا عَمَلِيَّةٍ، لِأَنَّهَا تَنْطَوِي بِالضَّرُورَةِ عَلَى إِغْرَاءَاتٍ أَيْدِيُولُوجِيَّةٍ، قَدْ تُطِيحُ بِالْبُعْدِ الْمَنْهَجِيِّ وَالْمَوْضُوعِيِّ لِلْبَحْثِ، وَلَعَلَّ هَذَا مَا يُفَسِّرُ تَبَايُنَ عُنَاوِينِهَا وَتَرْتِيبِهَا مِنْ بَاحِثٍ لِآخَرَ، وَمِنْ نَظَرِيَّةٍ لِآخَرَى. تتشكل -وتُبْنَى وَتَبْنَى- هوية كل شخص حسب "أمين معلوف" من جَمَهْرَةٍ مِنَ الْعُنَاوِينِ، لَا تَقْتَصِرُ بِالطَّبَعِ عَلَى تِلْكَ الْمَدُونَةِ عَلَى السِّجَلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ. بل هناك بالنسبة للغالبية العظمى من الناس، الانتماء إلى تقليد ديني، وإلى عائلة (أكثر أو أقل اتساعًا)، وإلى مهنة ومؤسسة ووسط اجتماعي ما. ولكن القائمة أطول من ذلك أيضًا، ويُفترض أنها غير محدودة. ويتابع توصيفه "إذ نستطيع أن نستشعر انتماء أكثر أو أقل قوة إلى ريفٍ أو قريةٍ أو حيٍّ أو عشيرةٍ أو فريق رياضي أو مهني أو جماعة من الأصدقاء"³⁷⁷. ولعل من برع في تلخيص عناصر الهوية الباحث "أليكس ميكشيللي"، في متن كتابه "الهوية Identité"، نوردها وفق الترتيب الموالي:

أ. عناصر مادية وفيزيائية تشتمل على: الخيارات: الاسم، الموضوعات، الأموال، السكن، الملابس.

القدرات: القوة الاقتصادية والمالية والعقلية.

التنظيمات المادية: التنظيم الإقليمي، نظام السكن ونظام الاتصالات الإنسانية.

الانتماءات الفيزيائية: الانتماء الاجتماعي والتوزيعات الاجتماعية والسمات المورفولوجية الأخرى.

ب. العناصر التاريخية: وتتضمن: الأصول التاريخية: الأسلاف، الولادة، الاسم، المؤسسون، أصل القرابة، الأساطير الخاصة بالتكوين والأبطال الأوائل.

³⁷⁵ عبد المنعم المشاط، "التعليم والتنمية السياسية" مستقبل التربية العربية، القاهرة، المجلد الأول، ع1995، 2، ص17.

³⁷⁶ وإن كنا قد أشرنا إلى بعضها في متن التعاريف السالفة للهوية، نعيد استعراضها للتفصيل أكثر.

³⁷⁷ أمين معلوف، مرجع سابق، ص 14.

الأحداث التاريخية الهامة: المراحل الهامة في التطور، التحولات الأساسية، الآثار المميزة، التربية والتنشئة الاجتماعية.

الآثار التاريخية: كالعقائد والعادات والتقاليد، والعقد الناجمة عن عملية التطبيع، أو القوانين والمعايير التي وُجدت قبلاً.

ت. العناصر الثقافية النفسية: النظام الثقافي: يتضمن المنطلقات الثقافية، العقائد، الأديان والرموز الثقافية والأيدولوجيا ونظام القيم الثقافية، ثم أشكال التعبير المختلفة من فن وأدب. العناصر العقلية: النظرة إلى العالم، سمات التقاطع الثقافية، الاتجاهات المغلقة، المعايير والعادات.. النظام المعرفي: السمات النفسية الخاصة واتجاهات نظام القيم.

ث. العناصر النفسية الاجتماعية: أسس إجتماعية: من إسم ومركز، عُمر وجنس، مهنة وسلطة، واجبات وأدوار وانتماءات اجتماعية.

القيم الاجتماعية: الكفاءة، النوعية والتقديرية المختلفة.

القدرات الخاصة بالمستقبل: القدرة والإمكانية، الإثارة الاستراتيجية، التكيف ونمط السلوك.

يعتقد "ميكشيليلي" بأن أي شخص يريد تقديم نفسه أو جماعته، أو شخص آخر أو جماعته، عليه أن يختار من السمات الأنفة الذكر في الفئات المحددة³⁷⁸. وعليه، تتشكل الهوية من مكونات ثابتة نسبياً، وأخرى متغيرة، حسب الشكل "الإيجابي" الذي تُحدده حركية المجتمع وتفاعله بمحيطه الخارجي³⁷⁹.

2.2. مفهوم "الاستراتيجيات الهويةية":

نظراً لتعدد الهوية نحت واستتباً بعض الدارسين (Lipiansky et ses collègues) مفاهيم/ مصطلحات أكثر ديناميكية، أشهرها "الاستراتيجيات الهويةية Les stratégies identitaires"، و"الديناميات الهويةية". حيث يركز مفهوم "الاستراتيجيات الهويةية" على فكرة تتعامل مع الفرد كفاعل إجتماعي يمتلك "هامش من المناورة Une marge de manoeuvre"³⁸⁰، حيث يستثمر

³⁷⁸ أليكس ميكشيليلي، مرجع سابق، ص 19-20-21 .

³⁷⁹ إبراهيم القادري بوتشيش، "حول مفهوم الهوية و مكوناتها الأساسية". من الموقع:

<http://histoire.maktoobblog.com/1152534-> . تاريخ الاطلاع: 2009/6/14.

³⁸⁰ المناورة: هي ظواهر إخفاء وإبراز الهويات، إذ بإمكان الفرد طمس الهوية التي يحملها، للهروب من التمييز أو النقي أو حتى من التصفية الجسدية، أو الإبادة الثقافية. مثلما وقع لجماعة "الماران Marranes" وهم يهود شبه الجزيرة الأيبيرية، اعتنقوا ظاهرياً الكاثوليكية في القرن الخامس عشر، للنجاة من الاضطهاد والإبعاد، لكنهم ظلوا أوفياء لعقيدتهم الأصلية. وبذلك استطاعت هويتهم اليهودية الانتقال بشكل سري من جيل لآخر، حتى تمكنت من الظهور من جديد بشكل علني. (أورد المثال "دونيس كوش" في كتابه السالف الذكر).

موارده (رأسماله الاجتماعي، الثقافي، الرمزي) ، بطريقة استراتيجية على حَسَبِ الوضعية التي يتواجد فيها، ووفق مصالحه المادية والرمزية التي تستلزمها وضعيته التفاعلية، حيث يمكنه القيام بـ"اختياراته" وتفعيل استراتيجياته الهوياتية في وجه إكراهات الوسط المؤسّساتي الذي يتفاعل معه³⁸¹. غير أنّ إمتلاكه لهامش المناورة لا يعني التّحكم التّام في هويته، لأنّ "الآخرين" يفرضون عليه تصوراتهم لها، على حسب "جيورج ديفرو George Devereux". وباعتبارها رهان صراعات اجتماعية على حدّ تعبير "بيار بورديو P. Bourdieu". غير أنّ هذا لا يستلزم بالضرورة الوعي التّام³⁸² بالغايات المنشودة من طرف الفاعلين-حسب نفس المفكر-.

وفي لحظة أخرى، يمكن تعريفها على أنّها مجموع الإجراءات المُتَّخَذَة على أساس إفتراضات مُسبقة لسلوك الآخرين في سياق قوانين اللعبة السياسية الاجتماعية -بلغة "م. كروزي M. Crozier" و"إ. فريدبارغ E. Friedberg". كما يمكنها أن تتجلى كإنجازات جماعية لتُعبّر عن تحركاتهم وسلوكياتهم وردود أفعالهم على هكذا لعبة. للإشارة يتغيّر هذا التكيف من يوم للآخر، على حسب تغيّر الوضعيات والرهانات المنشودة. فلا وجود لهوية في ذاتها دون إستراتيجيات إثبات وجودها³⁸³. ويعتقد الباحثون أنّه لا يمكن تحديد المفهوم إلّا بتحديد ثلاثة عناصر أساسية، وهي:

- ✓ الفاعلين: سواء كانوا أفراداً أو جماعات (في دراستنا الطالب(ة)/الطالبة.
- ✓ مُراعاة الوضعية التي يتواجد فيها هؤلاء الفاعلين، وعلاقات القوة القائمة بين الجماعات ومناورات الآخرين، (الحياة الجامعية بكل تفاعلاتها الأفقية والعمودية).
- ✓ الأهداف والغايات المنشودة (بالنسبة للطالب).
- ✓ والغاية: التّعبير عن ثقافته وهويته.

3.2. تعريف "الهوية الطلابية":

يعتقد "روبي موردر Robi Morder"³⁸⁴ أنّ من بين أسباب الإنهjas العلمي بالفضاء الطلابي، اتّساع الشّبكة الجامعية، والذي أدّى بدوره للاتساع القاعدة العددية للطلبة، وتحوّلاتها، خاصّة نهاية

³⁸¹ Fabrice Gutnik, "Autour des mots: Stratégies identitaires. Dynamique identitaires", RECHERCHE et FORMATION, n°41, 2002, pp.119-130.

³⁸² الوعي: كلمة تعبر عن الحالة العقلية التي يكون فيها العقل بحالة إدراك وتواصل مباشر مع محيطه الخارجي عن طريق منافذ الوعي التي تتمثل عادة بحواس الإنسان الخمس.

³⁸³ دونيس كوش، "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"، مرجع سابق، ص 165 - 166.

³⁸⁴ رئيس "مجموعة البحث حول الحركة الطلابية GERME".

الستينات. ممّا أفضى لارتفاع الطلب الاجتماعي للتعليم الجامعي من طرف مختلف الشرائح الاجتماعية. لِيُوَازِيه تنامي الحاجة البحثية لإستجلاء خصائص هذه الفئة الجِدّ هامة في البناء المجتمعي، ظروفها التّعليمية والمعيشية، طُرُق إدماجها واندماجها، مهنيًا واجتماعيًا، خصائص ثقافتها وملامح هويتها -أو هوياتها-. فبرزت العديد من الدّراسات المختلفة والمتقاطعة التّخصصات، الفردية والجماعية، المنتسبة لمراكز بحث معترف بمصداقيتها العلمية دوليًا، ولعل من أشهرها -حسب رأيه- دراسات "مرصد الحياة الطّلابية (OVE) L'Observatoire de la vie étudiante"، بفرنسا³⁸⁵، الذي أشرف على العديد منها، نذكر على سبيل المثال دراسة عن "التّمايز في الأصل الاجتماعي وأثره على المستقبل المهني للطالب"³⁸⁶.

وعليه، يمكن تعريف "الهوية الطّلابية" إنطلاقًا من مستويين أساسيين، مستوى الهوية الفردية، وتعني مجموعة الخصائص الجسدية والنفسية والعقلية والعُمريّة، والفئويّة والاجتماعية والثقافية (بما للمفهوم من شّحنات دلالية سوسيوولوجية وأنثروبولوجية)، من حيث القِيَم والأذواق والمشاعر والاعتقادات التي يتميّر بها كل طالب(ة) بين نُظراءه من الطلبة (داخل الفضاء الجامعي)، والتي تخضع لمتغيرات متقاطعة، كالسنّ (المراهقة بمراحلها)، الجنس، التخصص الأكاديمي، الأصل الاجتماعي والثقافي... إذ تتكامل فيما بينها لتأثّر وتُنَبّي الشّعور بهويته المُنفردة والمُتفردّة، والتي عبّر عن بعض ملامحها جغرافيتيًا. ومستوى الهوية الجماعية (الجماعية Groupale)، وتضم مجموع السمات المشتركة التي تميّز الجماعة(ات) الطّلابية -كفئة مُتميّزة- عن غيرها من فئات المجتمع الجزائري، سواء عن مجموعات الشّباب الغير جامعي (الشّباب العاطل-أو المُعطل- الشّباب المشتغل، الشّباب المغترب...)، أو عن باقي فئات المجتمع، كفئة الرّاشدين (Les adultes)، داخل الوسط الجامعي، من أساتذة وإداريين، أو خارجه من أولياء ومسؤولين.

مما سبق، تشتمل "الهوية الطّلابية" على التّمييز عن الآخر، والمطابقة للنفس وللتمثيل، أيّ لخصوصية الذات، بما يتميّر به الطالب(ة) كفرد عن "الآخر" الطالب(ة)، و"الآخر" الغير طالب. وفي نفس الوقت، ما تميّز به المجموعة الطّلابية كجماعة مُتفردّة ومُتميّزة عن باقي المجموعات الأخرى، عبّر عنها من خلال الفعل (الممارسة) الجغرافية كما نفترض.

³⁸⁵ يمكن الاطلاع على المزيد من الدراسات بـ: <http://www.ove-national.education.fr>

³⁸⁶ Thierry Come, Robi Morder, et al, "Rapport pour l'observatoire de la vie étudiante , état des savoirs: Les engagements des étudiants, formes collectives et organisées d'une identité étudiante", juin 2009, 130 p.

تعتمد مقاربتنا للهوية الطلابية في علاقتها (علاقتها) مع الممارسة الجغرافية من منظور موضوعه لا الهوية في صفتها الثابتة، بل من حيث أنها وعي بالذات، يتشكل منذ السنوات الأولى من عمر الإنسان، نتيجة سيورة التنشئة الاجتماعية³⁸⁷، بما فيه من تنشئة تنظيمية تروم من خلالها المؤسسة الجامعية ترسيخ فيه خصائص "هويتها المنشودة". نفترض أنّ تفاعله معها إنعكس من خلال "الكتابات الجغرافية"، التي بدورها كشفت عن أهم آرائه وانتظاراته وتمثلاته. وترجمت بعض ملامح ومعالج هويته -جغرافيتياً- من خلال التعبير عن الانتماءات المتعددة والمتقاطعة، ما بين العام والخاص، 'الأنا' و'نحن' و'الآخر' و'الهم'، الفردي والجماعي المحلي والجهوي، الوطني والإقليمي، العالمي والخصوصي. لكن، يجب التذكير بأنّه لا يمكننا إستجلاء كامل السمات الهوياتية للطالب(ة)، لأننا عندما نريد تعريف طالب ما، فإنّ ذلك يتطلب منا التوقف عند مجموعة من الخيارات العديدة المرتبطة بالعناصر المحددة لهويته، على نحو: العمر، الجنس، المقاس، الوسط الأسري والعائلي، المجتمع المحلي، الفضاء المدرسي، التخصص، الاتجاهات، القيم والمعايير، العلاقات الاجتماعية، الأذواق الفنيّة،... إلخ. وهذا ما يَضَعُنا أمام عملية عسيرة نوعاً ما، إذ كشفت معظم الدّراسات أنّ هناك تجدد مستمر في تبلور وتشكّل عناصر الهوية، الفردية والجماعية، خاصة في زمن العولمة بكل أبعادها، مما يرفع درجة التعقيد في مقاربتها مقارنة علمية.

4.2. ما الثقافة وما مكوناتها؟

لم تذكر "الثقافة" في مُتون القواميس -القديمة والحديثة- بمعناها الحالي، إلاّ لمّا. فيعرّفها "لسان العرب" في المجلد العاشر، بـ: "يُقال ثَقِفَ الثّيء، وهو سرعة التعلم". ويُعرّفها "مجمع اللغة العربية" بأنها "العلوم والمعارف والفنون التي يُطلَبُ الحَدَقُ فيها". أمّا في اللغات الأجنبية، أُشتقت من اللفظ اللاتيني "Cultura"، ومعناه العناية بالحقل الزراعي وبالماشية، وللإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة³⁸⁸. أُستعملت لأول مرة في اللغة الفرنسية في نهاية أواخر القرن الثالث عشر. ومن معانيها، قطعة الأرض

³⁸⁷ الوعي بالذات: يُعرفه أنطوني جينز A. Giddens في كتابه "مقدمة نقدية لعلم الاجتماع"، ص401، " بأنه وعي المرء بتميز هويته الاجتماعية، باعتباره شخصاً مستقلاً عن الآخرين، ولا يولد البشر مُحَمَلين بالوعي بذواتهم، بل إنهم يكتسبونهُ نتيجة للتنشئة الاجتماعية في المراحل المبكرة من العمر. ويُعدُّ تعلم اللغة ذا أهمية جوهرية للعمليات التي يتعلم من خلالها الطفل أن يصبح كائناً واعياً بذاته.

³⁸⁸ للاستزادة يمكن الرجوع إلى:

Philippe Bénétou, "Histoire de mots, culture et civilisation" travaux et recherches de sciences politique, 35, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, Paris, 1975,124p.

الزراعية وفلاحتها، وبذرها وحصادها... إلخ، وما ارتبط بخدمة الأرض³⁸⁹. لتنتشر الكلمة في اللغات الأوروبية لتشمل تنمية الأرض، بالمعنى المادي والحسي، وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي. مع فلاسفة العصر الحديث، أوضحت تعني مجموعة عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات³⁹⁰. حيث فرضت في معناها المجازي في سوق التداول المفاهيمي، إذ تم إدراجها في "قاموس الأكاديمية الفرنسية" في نشرة 1718، وقُرنت بمُضاف يدل على موضوع الفعل، على نحو 'ثقافة الفنون' و'ثقافة الأدب' و'ثقافة العلوم'³⁹¹. 'للثقافة' تعريفات عديدة، ولاسيما حين نغرق في التعاريف المولعة بالإحصاء وذكر عناصرها، كميًا وحسابيًا. فمنذ نَحَمّا -اصطلاحًا- خلال القرن الثامن عشر، ساهمت في تذكية مُجادلات حامية الوطيس (علمية وأيديولوجية) بين المفكرين، مما أفضى لبلورة مئات التعريفات، تدرجت من التعريف المعياري إلى التعريف الوصفي التحليلي. كما تُعرّف على أنّها نسق معنوي ورمزي، أو على حدّ تعبير "كليفورد جيرتز C. Geertz" نمط من المعاني المتضمّنة في رموز، والمنقولة تاريخيًا، وهي نسق من التّصورات المتوارثة المُعبّر عنها في أشكال رمزية، وعن طريقها يتصل الناس بعضهم ببعض، ويواصلون ويُثَمّون معرفتهم واتجاهاتهم نحو الحياة. وإذا كانت الثقافة تتألف من أنماط ثقافية، مثل الدين والأيديولوجيا، والحس العام، والفن، ونحو ذلك، فإنّ هذه الأنماط هي الأخرى أنساق من الرموز تتّحد، وتتكامل كلٌّ منها مع الأخرى³⁹². يسرد الدكتور "نبيل علي" في كتابه³⁹³، معالم التّحوير التي لحقت بمفهوم "الثقافة"، حيث تجاوزت 150 تعريفًا، منذ القرن الثامن عشر³⁹⁴. تؤكّد في مجملها أنّ الثقافة تجمع بين كونها مُنتجًا وإنتاجًا، ولم يتمكّن الكاتب من استعراض كل التعريفات، لذا صنّفنا على النحو التالي:

³⁸⁹G. Ignasse et M-A. Genissel, "Introduction à la sociologie", Paris, ed. Ellipses, 1999, p.75.

³⁹⁰ قسطنطين زريق، "في معركة الحضارة"، بيروت، دار العلم للملايين، 1964، ص 33-34.

³⁹¹ دونيس كوش، مرجع سابق، ص 17-18.

³⁹² محمد عاطف غيث، "قاموس علم الاجتماع"، الإسكندرية، مطبعة الانتصار، 1988، ص 110-111.

³⁹³ نبيل علي، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم 265، 2001.

³⁹⁴ على منوال العالمان "كلايد كلوكهون Clyde Kluckhohn" و"أ. كروبر Alfred Kroeber" اللذان أحصيا أزيد من

164 تعريفًا للثقافة، في كتابهما "Culture: A critical review of concepts and definitions" (1952).

= بل يتحدث "Annie-Claude Coze" و"Yvan Potin" عن 300 تعريف موزّع بين الأنثروبولوجيا والإنتولوجيا

وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي. ♦

♦ Annie-Claude COZE & Yvan POTIN, "La culture d'entreprise", CREG – veille

informationnelle – communication, 2005-2006. In web: <http://www.creg.ac-versailles.fr/IMG/pdf/CULTUREDENTREPRISE-Fondamentaux.pdf> . Consulté le: 2/6/ 12.

الثقافة نسق اجتماعي: قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية.

الثقافة أيديولوجياً: الثقافة بصفها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ذاته ومجمعه، وبصفها أيضاً معيار الحكم على الأمور.

الثقافة بوصفها إنتماء: تعبّر عن التراث والهوية، وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية. الثقافة باعتبارها تواصلًا: من خلال نقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال. الثقافة بصفها دافعاً ومُحفزاً على الابتكار والإبداع والنضال ضدّ القهر والتّصدي للظلم. الثقافة بوصفها حصداً متجدّداً: يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتفاعل معه وإدماجه في الحياة.

1.4.2. الثقافة بين الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا:

يعتبر تعريف الأنثروبولوجي "إدوارد بيرنيت تايلور Edward Burnett Tylor" في مسهله كتابه "الثقافة البدائية Primitive culture" (1871)، أوّل تعريف اصطلاحي للثقافة بمعناها الأنثروبولوجي قائلاً "أنّ الثقافة أو الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وغيرها من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"³⁹⁵. وإذا كان "تايلور" أوّل من اقترح تعريفاً مفهوماً للثقافة، فهو ليس أوّل من استخدم المصطلح في علم الأناسة. بل تأثر مباشرة نظرائه الألمان، لا سيما "غوستاف كلیم Gustav Klimm" الذي كان يستخدم كلمة 'Kultur' بمعنى موضوعي، لا سيما حينما يتحدث عن الثقافة المادية، وهو ما كان مخالفاً للتقاليد الرومانسية الألمانية -آنذاك-.

هيمن التّصور "التايلوري" على تصورات علماء الأنثروبولوجيا، ولم تظهر الاختلافات المتناقضة إلاّ منذ منتصف القرن العشرين. مما أثار انتقادات له، على نحو أنّ "تايلور" لم يضع تمييزاً بين الثقافة والتنظيم الاجتماعي، كما يعتقد رواد الأنثروبولوجيا الأمريكية، مثل "كلايد كلوكهون Clyde Kluckhohn" و"ألفرد كروبر Alfred Kroeber" و"ألان بيلز Alan R. Beals" و"هاري هويجر Harry Hoijer"³⁹⁶. أمّا "آدم كوبر Adam Kuper" فقد اشتهر بعبارته "ليست هناك ثقافة"، وأنّها وسيلة للاضطهاد والتّمييز ضدّ الآخرين، وأنّ معظم المدارس الأنثروبولوجية تنشأ وتضمحل عاكسة

³⁹⁵ Taylor, E, B "Primitive Culture", London, 5 th, ed,1913, p 3.

نقلًا عن: عاطف وصفي، "الأنثروبولوجيا الثقافية"، بيروت، دار النهضة العربية، 1971، ص 66.

³⁹⁶ عاطف وصفي، "الأنثروبولوجيا الثقافية"، بيروت، دار النهضة العربية، 1971، ص 66.

التيارات الفكرية السائدة في زمنها..". هذه أبرز مضامين رسالته التي تضمنها كتابه "The Culture: anthropologist's account" الذي تمّ ترجمته إلى اللغة العربية³⁹⁷.

ليعرف المفهوم توسّعاً وتعمّقاً على يد علماء الاجتماع، حيث أُسْتُبِيَّ لِيُشِيرَ إلى طريقة الحياة التي تتمكّن جماعة بشرية من تأسيسها، لتكون مقبولةً لدى السّواد الأعظم من أفراد هذه الأخيرة، وهي طريقة تتضمّن أساليب الإدارة وآلياتها، وأنماط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، ومنظومة الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، واللغة، وأساليب العيش بما يتضمنه من مسكن ومأكل ومشرب، ومن علاقات، وأنظمة سلوك توجه عملية التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين العالم ككل³⁹⁸.

كان للأنثروبولوجيا الثقافية وقعاً مؤثراً في الدراسات السوسولوجية-خاصة الأمريكية³⁹⁹- مستندين إلى تعريفات آل الأنثروبولوجيا⁴⁰⁰. ففي 1946 أسّس "تالكوت بارسونز Talcott Parsons" قسم العلاقات الاجتماعية في جامعة 'Harvard'. متأثراً في ذلك بـ "إميل دوركايم" و"ماكس فيبر" و"الفرد فيبر" هذا لم يمنعه من تقديم إنتقادات لهم، فيما يتعلق بجينالوجيا الثقافة والحضارة، وقد بنّاها على أساس العلوم الاجتماعية، متأثراً بـ "برونيسلو مالينوفسكي Bronislaw Malinowski". ليؤسّس نظرية للفعل الاجتماعي الذي كان أقرب إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية من "فرانز بواس Franz Boas" في الأنثروبولوجيا الأمريكية، والذي أطلق عليها "الهيكلية الوظيفية". حيث استعرض نظريته للفعل في كتابه "النظام الاجتماعي The social system"⁴⁰¹. من خلال أربعة أنساق للفعل وما يُماثلها من أنساق اجتماعية:

³⁹⁷ آدم كوبر**، مرجع سابق، ص 10.

^{**} نشر "آدم كروبر" (1876-1960) أكثر من 600 منتج علمي، تنتزع ما بين (كتب ومقالات ومراجعات للكتب في الأنثروبولوجيا وعلم الآثار واللسانيات). (عن موسوعة "The Columbia Encyclopedia" الرقمية).

³⁹⁸ عبد الرّحمن بسيسو، "الثقافة والهوية أو "الثقافة ومعرفة الدّفاع عن الهوية"، مدونة أولية تستهدف إثارة التفكير وإطلاق حوار فكريّ شجاعٍ وخالقٍ، وزارة الثّقافة مشروع الخطة الاستراتيجية للثقافة الوطنية ورشة عمل خاصة بمناقشة مسوّد الخطة غزة، 2005، ص 2.

³⁹⁹ نذكر على سبيل المثال: "Albion Woodbury Small"، "Robert Park"، "Ernest Watson Burgess"، "William Fielding Ogburn".

⁴⁰⁰ دونيس كوش، مرجع سابق، ص 81.

⁴⁰¹ وصفها-النظرية- "غي روشر Guy Rocher" (1974) بأنها تُشبه الصناديق الصّينية، حينما تفتح صندوقاً منها تجد أنه يحوي صندوقاً آخر بداخله، وهذا الصندوق بداخله صندوق أصغر وهكذا". (إيان كريب، "النظرية الاجتماعية، من بارسونز إلى هابرماس"، ترجمة محمد حسين غلوم، الكويت، عالم المعرفة، العدد 1999، 244، ص 72.

- النسق العضوي، ينظم العلاقات مع العالم الفيزيقي ويتكيف مع البيئة.
- نسق الشخصية، يتكون من الخصائص الفردية التي تؤثر على أدائها في العالم الاجتماعي، يحدد أهداف النسق.
- النسق الاجتماعي، يحتوي على أنماط وحدات التفاعل الاجتماعي، وخصوصا المكانة والدور الاجتماعي، يُحدد أشكال التضامن، ويُولد مصادر و مرجعيات الولاء، ويُحدد معالم السلوك السوي ويفرض الضوابط على الأفراد و الجماعات.
- النسق الثقافي، يضم القواعد والقيم التي تنظم العمل الاجتماعي بشكل رمزي. يمد الفاعلين بالدافعية من خلال المعايير والقيم والإيديولوجيات.
- أما "جان بيار فارني Pierre Varnier" فيعرّفها بأنّها "كُلية مُعقدة من المعايير والعادات وقوائم السلوك والتّمثل، إكتسبها الإنسان بصفته عضواً داخل المجتمع، وكل ثقافة هي ثقافة فريدة ومُوضّعة جغرافياً واجتماعياً، وموضوع للتعبير الخطابي، داخل لغة معطاة، وعامل لتعيين هوية الأفراد والجماعات، وتميّزهم عن الآخرين، كما أنّها عامل لتوجيه الفاعلين في علاقاتهم ببعضهم، وفي علاقاتهم بمحيطهم"⁴⁰². ومن هنا تتضح أهمية "الثقافة" ومكانتها. حيث عبّر عنها "ستيوارت تشيز Stewart Chaise" بقوله "إنّ مفهوم الثقافة عند آل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا أضحي الحجر الأساس في العلوم الاجتماعية"⁴⁰³. كما قدّم علماء الاجتماع مفهومهم للثقافة باعتبارها (أمشاج من أنماط صريحة أو ضمنية من السلوكات المكتسبة من خلال الرّموز.
- خلاصةً، يمكننا التّسليم برأي "غاي روشي Guy Rocher" الذي يعتقد أنّ المفهوم (الثقافة) في علم الاجتماع ينزوي تحت نمطين من التعريفات، من جهة تعريف شامل مرتكز على الإرث الأنثروبولوجي، يقابل الثقافة بالطبيعة. ومن جهة أخرى تعريف أكثر تقييداً وأقرب للمعنى المتداول، حيث تدل الثقافة على مجال الفن والممارسات المرتبطة بإنتاج واستهلاك "المنتجات الثقافية" (الموسيقى، الكتب، المعارض، السينما،...إلخ).

**نشر "كروبر" (1876-1960) أكثر من 600 منتج علمي، تتوزع ما بين (كتب ومقالات ومراجعات للكتب في الأنثروبولوجيا

وعلم الآثار واللسانيات). (عن موسوعة "The Columbia Encyclopedia" الرقمية).

⁴⁰² جان بيبير فارني، "عولمة الثقافة"، ترجمة عبد الجليل الأزدي، دار القصة للنشر، الجزائر، ص 20-19.

⁴⁰³ سامية حسن الساعاتي، "الثقافة والشخصية"، بيروت، دار النهضة العربية، 1983، ص 27.

• تباين تعداد عناصر الثقافة:

يعتقد "حسن الفقي" أن الثقافة العربية تتضمن تسعة وعشرين عنصراً، جاءت كما يلي: "القيم، الدين، الأدب، الفن، العلم، الفلسفة، اللغة، العادات، التقاليد، النظم، الاتجاهات، المعايير، التكنولوجيا، الأخلاق، المفاهيم، الأيديولوجيا، التراث الاجتماعي، الخبرات، المعارف، الانطباعات الوجدانية، الآراء، المعتقدات، الأفكار، نظم العلاقات، القيادة، الحرب، السلوك، المثل العليا، والأعراف"⁴⁰⁴. في حين عرفت الثقافة الغربية خمسة وعشرين عنصراً، ميّزتها عن غيرها، وهي المعارف، المعتقدات، الفن، الأخلاق، القانون، الأعراف، العادات، التكنولوجيا، التقاليد، الأسرة، النظام الاجتماعي، الملكية، الحكومة، الحرب، القيم، الأدب، الدين، الأفكار، المشاعر، السلوك، الحرف، الاتجاهات، اللغة، الموضة والبيدع"⁴⁰⁵. مما جعل المختصون يميّزون بين: الثقافة الفكرية، النتاجات الأدبية والفنية والقانونية، وجميع الخطط التي ترسم مفاهيم المجتمع.

الثقافة المادية: كل ما أنتجته الصّور الفكرية، وتمّ تجسيده كوقائع ملموسة أو مصنوعة، وتشمل كل النتاجات البشرية المادية، من حراك إجتماعي وإنتاج تقني.

الثقافة الروحية: وتشمل كل المعتقدات الروحية من أديان ومعتقدات، أعراف وتقاليد التي يعطيها الإنسان دورها التّحكّمي في شؤون حياته المختلفة، وان كانت بدرجات متفاوتة⁴⁰⁶.

• تبلور "الثقافات الفرعية":

إنبجست نتيجة تقاطع وتراكم العديد من الدّراسات حول الثقافة، الكثير من المفاهيم المجاورة لها، ولعل من أبرزها مفهوم "الثقافات الفرعية" "Sous –cultures"⁴⁰⁷. التي أوّل ما ظهر كموضوع بحثي بالمجتمع الأمريكي، بإعتباره أخصب فضاء تبلور فيه، لتنوّع وتعدّد مجموعاته العرقية والإثنية والاجتماعية، والتي أفضت لتعدّد انتماءاته الثقافيّة.

⁴⁰⁴ حسن الفقي، "الثقافة والتربية"، الإسكندرية، 1967، ص 9.

⁴⁰⁵ Kingsley Davis, "Human Society", Macmillan, 5th edition, 1953(First ed 1948), p. 24.

نقلاً عن: د. غزوان هادي، "الرشوة في معجم الثقافة المجتمعية: قراءة في الشخصية العراقية وثقافتها الفرعية"، مجلة مدارك، السنة الثالثة، العدد التاسع والعاشر، مجلة فصلية تصدر عن مؤسسة مدارك للبحوث والدراسات، 2009. من موقع المجلة: <http://www.madarik.org/mag9-10/12.htm>. تاريخ الاطلاع: 2010/8/23.

⁴⁰⁶ المرجع نفسه.

⁴⁰⁷ يُفضل بعض الباحثين استخدام لفظ "ثقافة جزئية/ مُشتقة" Subculture لتحاكي الخلط والالتباس الذي يمكن أن يقع بين الثقافة الفرعية والثقافة الدنيا).

يعتقد علماء الاجتماع بأنّ "الثقافات الفرعية" تبرز في معظم المجتمعات المُنقسِمة إلى طبقات وفئات اجتماعية وإثنية متدرجة. فكل مجتمع يتفرّع إلى جماعات فرعية، ولكل منها ثقافتها المتميّزة (الفرعية). فيتحدثون مثلاً عن: ثقافة المهاجرين، ثقافة الشّباب، أو ثقافة المراهقين، ثقافة الطلبة، ثقافة الأميين، ثقافة المُعَرَّبين، ثقافة المُفْرَنسِين، أو مُشجعي كرة القدم، أو ثقافة المثليين،... بل أكثر من ذلك، بتدقيق الملاحظة في بنية الثّقافة الفرعية الواحدة، نلاحظ تراكم ثقافات جزئية أصغر منها، حتّى نصل إلى ثقافة الفرد الواحد، ومن خلال هذه الأخيرة نتمكن من الوقوف على القيم والمعايير المُهندِسة للثقافة العامّة للمجتمع.

وعليه، تشير الدّراسات أنّ طُفُوح الثقافات الفرعية الجزئية/التّحتيّة Sous- /Subcultures (cultues)، ارتبطت بظاهرتي التّحضر والتّمدّن التي عرفتها المجتمعات المعاصرة، لأنّ تمرکز السكان في المناطق الحضرية وضواحيها أفضى إلى اتّساع فجوة اللاتجانس بينهم، وبالتالي تلاشي العلاقات الشّخصية بينهم، وتنامي هامش التّباين (التفاوت) الاجتماعي الذي أفضى بدوره إلى ظاهرة الاغتراب، والتّفكك الاجتماعي، فضلاً عن انتشار مظاهر الباثولوجيا الاجتماعية.

واستناداً لما سبق، تساهم "الثقافات الفرعية" في تفعيل أنساق سلوكية اجتماعية، خاصة بمجموعات فرعية، مما يجعلها تتّوضع كاستراتيجيات دفاعية لها أمام هيمنة-وغطرسة- الثقافة المُهيمنة. بالإضافة إلى الرغبة في تحقيق المزيد من الاعتراف والتّقدير، من خلال قدرتها على تقديم حلول -وهمية أكثر منها واقعية- لتناقضات كامنة في النظام الاجتماعي، الاقتصادي والثقافي، وما ينطوي عليه من صراعات اجتماعية، إثنية ودينية، عُمرية وفئويّة. كما تسمح "الثقافات الفرعية" لمُنْتَسِبيها -الطلبة مثلاً- بالتّعبير عن ذواتهم (هويّاتهم)، بشكل مُتحرر-ليس دائماً- من قيود العُمر والفئة والطّبقة والدين و... ومن إكراهات الميراث الاجتماعي من (عادات وتقاليد). كما تطرح الثقافات الفرعية أيضاً، إسهامات واضحة لحلّ المشكلات الاجتماعية، من خلال طرحها لقيم ومعايير اجتماعية تشكلها بنفسها، بعيداً عن القوالب النّمطية للثقافة المُهيمنة.

2.4.2. الثقافة الطّلابية ثقافة فرعية "مُتميّزة": يعتبر علماء الاجتماع مفهوم "الثقافة

الطّلابية La culture estudiantine/étudiante" من أبرز المفاهيم المُهندِسة للفضاء الجامعي⁴⁰⁸. دُرِسَ من طرف العديد منهم، على نحو "هاورد بيكر Howard Becker" و"بلانش جير Blanche

⁴⁰⁸ للإشارة يتحدث بعض المختصين عن المفهوم في صيغة الجمع، أي عن "الثقافات الطّلابية Les cultures étudiantes" للتمييز بين ثقافات الجماعات الطّلابية داخل العالم الطّلابي نفسه، والتي تظهر نتيجة تباين في الجامعة، التخصص الأكاديمي، الجنس،... التي غالباً ما تطفو أثناء البحث عن "الإعتراف".

Geer" و"أنسلم ستروس Anselm Lo Strauss"⁴⁰⁹، وغيرهم من رُواد "مدرسة شيكاغو" العريقة، دون تجاوز أبحاث "بيار بورديو P. Bourdieu" و"كلود باسرون Jean-Claude Passeron". تتشكّل "الثقافة الطلابية" حسب "Howard Saul Becker" نتيجة الصّراع الكامن (Latent) بين جماعة الأساتذة والإداريين مع جماعة الطلبة. وكرد فعل لأنماط التّكيف مع ضغوطات وإكراهات المسار الدّراسي. ولاحظ أنّ الطلبة من خلال تفاعلهم الدّراسي شكّلوا قيم ومفاهيم مشتركة، كرد فعل على طبيعة الأوضاع المُعاشة، ولتحقيق أهدافهم المنشودة، مما شكّل نوع من "التّوافق العملي" من أجل إستيعاب الوصفات التي يستطيعون من خلالها شُغل أدوارهم الاجتماعية كطلبة. وهذا ما وُلد لديهم تصوّرات وتمثّلات قعدت لهويتهم الثّقافية المُتميّزة، والتي يعرفها "بيكر Becker" بأنّها مجموع التّصورات المشتركة بين الطلبة حول مشاكل وصعوبات وإكراهات التّمدرس. بالإضافة لكل الأسئلة المرتبطة بطريقة حفظ المظهر (اللُوك Le Look)، وكيفية إنتقاء اللّباس (النّوع والشّكل واللّون). واستراتيجيات (حِيل) إختلاق علاقات عاطفية مع الجنس الآخر، وأساليب التّعامل والتّحائل على الأساتذة، مع تحديد فوارق التّعامل مع كل أستاذ، (كيفية الإجابة في الامتحانات، المقاييس التي يجب التّركيز فيها، والمقاييس المضمونة).

يرتبط تبلور الثقافات الفرعية (الجزئية) بصيرورة التّنشئة الاجتماعية المُمارسة في المجتمع، فكُلما تحققت وترسّخت قيم النّمط التّنشئوي المنشود، كلما إنحصر هذا النوع من الثقافة، والعكس ممكن، باعتبارهم شبابًا ليسوا كباقي الشّباب كما يعتقد "ر. موردرد Robi Morder"⁴¹⁰. بدوره

⁴⁰⁹ بالتعاون مع زميلهما "إفريت هوغاز Everett C Hughes" نشروا كتابًا بعنوان:

Boys in white: Student culture in medical school, published by University of Chicago Press, 1961, 454 p.

♥ الكتاب عبارة عن دراسة سوسولوجية لشباب "البدلة البيضاء" بكلية الطب، أجريت سنة 1961 من طرف الباحثين أنفسهم، تلمسوا من خلالها حيثيات الحياة اليومية لطلبة كلية الطب بجامعة "Kansas"، أوقاتهم، مجهوداتهم، حيلهم مع أساتذتهم، "ثقافتهم الكامنة"، علاقاتهم بالجنس الآخر من الزملاء والمرضى، صداقاتهم وعداءاتهم، تمثلاتهم للقيم الطبية من خلال احتكاكهم بزملاء لهم في مستويات أعلى، وطموحاتهم المستقبلية. ("Google Books").

⁴¹⁰ Thierry Côme & Robi Morder, *Les engagements des étudiants, formes collectives et organisées d'une identité étudiante*, Rapport pour L'Observatoire de la Vie Etudiante, (Etat Des Savoirs), Juin 2009, p.14. In : http://www.ove-national.education.fr/medias/files/publications/dc_45_rapportove150609.pdf. Consulté le :4/6/11.

استنتج "بيار مايول Pierre Mayol" سبع ركائز أساسية، تُميّز ثقافة الشباب المُتمدِّرس (الطلبة)، وهي (نَسُوقُهَا كما وردت)⁴¹¹:

- 'استحالة العيش من دون موسيقى': (سَامُوت' تصريح عدد كبير من الشَّبَاب المُسْتَجَوِب).
- 'ثقافة الشَّقَّة La culture d'appartement': حوالي 90 % من الشَّبَاب الذي تتراوح أعمارهم ما بين (12-25) سنة، يمتلكون على الأقل جهاز من الأجهزة التالية (تلفزيون، كمبيوتر،...).
- 'ثقافة الصورة': يترع الشَّبَاب على مُسْتَهْلِكِي الانتاج القائم على أساس الصورة (السينما والمجلات).
- 'السَّفَر': سواء السَّفَر الحقيقي (الشَّبَاب يسافرون أكثر من آبائهم وأمهاتهم، عندما كانوا في نفس العمر)، أو السَّفَر الخيالي/الإفتراضي من خلال الأغاني، القصص والانترنت.
- 'امتلاك ذات العَجَلَتَيْن': تَحْتَل الدَّرَاجَات ذات العجلتين، باختلاف أنواعها وأشكالها، علامة جَدْب لهؤلاء، إِيَّهَا رَمَز التَّحَرُّر من الزُّمَرَة الأُسْرِيَة.
- 'الفضول الفكري': أغلب الإحصائيات تشير إلى تعطش الشباب للمعرفة بكل أصنافها ومضامينها.
- 'رَفْض العمل المطلوب' حتى ولو كان إلزامياً، إذ يعتقدون أن الحرية يجب التَّمَتُّعُ بها لأقصى درجات التَّمَتُّع (Profité le maximum).

ومنه، يمكن تعريف "الثقافة الطلابية" إجرائياً على أنها: أُمُشَاجُ (أخلاق) من القيم والمعايير والسلوكيات والتصورات والحركات ورُذُود الأفعال التي تتصف بها الفئة الطلابية، وتميَّزها عن باقي الفئات الاجتماعية الأخرى، والتي يتواصلون ويتكيفون من خلالها مع "الأخر"، يُمثله في الوسط الجامعي الأساتذة والإداريون والمستخدمون وخارجياً، مع باقي الفاعلين الاجتماعيين (الخدمة العسكرية). تتشكّل هكذا 'ثقافة' نتيجة التفاعل اليومي بينهم، داخل الفضاء الجامعي، إذ بولوج الطالب الفضاء المذكور يكون قد وُلِّجَ عالماً جديداً بجديّة فاعليه وثقافته الخاصة، وبجديّة معالِمه ومعايير التَّنَشُّوِيَة ومرجعياته الهويّاتية. ممّا يَضْطَرُّه للبحث عن كفاءات للتأقلم مع هذا الوسط. ونظراً لخصوصيات المرحلة السِّنِّيَّة التي يَمَرُّ بها-خاصة المراهقة المتأخرة- والتزامات/إكراهات المحيط الذي يتواجد فيه، يدخل في تفاعل يومي، يفرز نسيج من العلاقات الاجتماعية، تختلف عن سابقتها بالوسط الثَّانَوِي والأسري والمحلي. نسيجٌ علاقتي يتم ربطه مع الآخر (الغير محلي في أغلب الأحيان)، ومع تطور هذه العلاقات تتشكل قيم ومعايير مشتركة، تُهَنْدِسُ الثقافة الطلابية.

⁴¹¹ Pierre Mayol, "Les univers culturels des jeunes", in: R. Boyer & C. Coridian (coor), "Modes de vie collégiens et lycéens", INRP, Sciences Humaines, n° 109 - Octobre 2000. <http://www.scienceshumaines.com/les-sept-piliers-de-la-culture-jeunefr762.html>. Consulté le: 20/01/2010.

لكن رغم تشاركتهم في خصائص ثقافة طلابية مُتقاربة الملامح بينهم، إلا أنّ هذا لا يعني عَدَم وجود ثقافات جزئية/فرعية⁴¹²، تتباين من مجموعة لأخرى، بل من طالب لآخر، قائمة على أساس جنسي (أنثوي أو ذكوري)، أو إثني أو جهوي/مناطقي، أو دراسي تخصصي (أكاديمي). ذلك أنّ جميع الثقافات مهما اختلفت تصنيفاتها تبقى مُنشِكة إحداهما بالأخرى.

5.2. الهوية والثقافة...أية علاقات ممكنة؟:

استخلص الدّارسون طبيعة العلاقة الممكنة بين الهوية والثقافة، حيث يعتقد فصيلٌ منهم أنّ الثقافة هي التي تُؤثّر أركان الهوية، لأنّها تمنح الاسم والمعنى والصّورة، والتي تجعل جماعةً ما مُتميّزة أو مختلفة عن غيرها من الجماعات. فيلخص "عبد العزيز التويجري" بصورة أدقّ العلاقة بينهما، بقوله "ثمّة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة، بحيث يتعدّر الفصل بينهما، إذ ما من هوية إلا وتختزل ثقافة، فالثقافة في عمقها وجوهرها هوية قائمة الذات.

وقد تتعدّد الثقافات في الهوية الواحدة، كما قد تتنوّع الهويّات في الثقافة الواحدة، وهذا ما يُعبّر عنه بـ"التنوع في إطار الوحدة"، فقد تنتهي هوية شعب من الشّعوب إلى ثقافات متعدّدة، تمتزج عناصرها وتتلاقح مكوناتها، فتتبلور في هوية واحدة، وعلى سبيل المثال، فإنّ الهوية الإسلامية تتشكل من ثقافات الشّعوب والأمم التي دخلها الإسلام، سواء اعتنقه أم بقيت على عقائدها، فهذه الثقافات التي إمتزجت بالثقافة العربية الإسلامية، وتلاقحت معها، هي جماعٌ هويات الأمم والشّعوب التي انضوت تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية"⁴¹³.

تُحيل الهوية الثقافيّة إلى أمر أكثر اتّساعاً يرتبط بـ"الهوية الاجتماعيّة"، فالهوية بالنّسبة إلى علم النفس الاجتماعي أداة تُمكن من التفكير في تمفّصل النّفسي والاجتماعي لدى الفرد، إنّها تعبّر عن محصّلة التّفاعلات المتنوعة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي، قريباً كان أو بعيداً. إنّ هوية الفرد الاجتماعيّة تتميز بمجموع انتماءاته المتقاطعة، من جنس مُعين، وسنّ محدد، وطبقة اجتماعية، أو مجتمع ما، إلخ. حيث تُمكنه -الهوية- من انتزاع مكانة لذاته ضمن تراتبية مكانات النّسق الاجتماعي، وفي ذات الوقت يُحدّد له الآخرون مكانته الاجتماعيّة. على أنّ الهوية الاجتماعيّة لا تتعلّق بالأفراد

⁴¹² أول ما ظهر "المفهوم" في دهاليز مخابر مدرسة شيكاغو، على يد منظرها الكبير "ألبيير كوين Albert K. Cohen" في كتابه "Delinquent boys : The culture of the gang"، 1955. حيث تتشكّل الثقافة الفرعية عندما تُواجه جماعة ما نفس الصّعوبات في الاندماج الاجتماعي، وتتميّز بألفة وحُسن مُعاشرّة قوية داخل الجماعة.

⁴¹³ عبد العزيز بن عثمان التويجري، "الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة". من الموقع:

وحسب، ذلك أنّ لكل مجموعة هوية تتناسب مع تعريفها الاجتماعي، ذلك التعريف الذي يمكن من تحديد موقعها ضمن الكل الاجتماعي (الهوية المجتمعية)، من خلال الإستدماج والإقصاء في ذات الوقت، إنّها تُحدّد مميّزات أعضاء المجموعة، وفي نفس الوقت تُميّزها عن باقي المجموعات الأخرى.

على المستوى الثقافي، فإنّ الانتماء إلى مجتمع ما، هو أمر ذو أهمية حيوية، لدرجة أن الأشخاص غالباً ما يُهيئون للقتل أو الموت (التّضحية) من أجل هذه المسألة (الجنود اليابانيون إبان الحرب العالمية الثانية، العمليات الاستشهادية عند الفلسطينيين..)، لأنّ الثقافة تعبر عن الهوية والشّخصية المميّزة لكل مجتمع. حيث تتداخل الهوية بالثقافة ليشكل معاً الهوية الثقافية (الوطنية أو القومية).

كتب الدكتور "بيتر وَايد Peter Wade" (المتخصّص في علم الأجناس) وصاحب كتاب "العرق والطّبيعة والثقافة من منظور أنثروبولوجي"⁴¹⁴ يقول: "يسعى الأفراد من خلال إنخراطهم في الحركات الثقافية لمجتمعهم إلى تحقيق غاية منشودة، وأحد أهمّ غايات الحراك الثقافي في مجتمع ما، هي تشكيل هويات ثقافية مُتمايزة، تنسجّب فيها العديد من صور العلاقات الإنسانية، وسيمياء الأصول لمجموعة بشرية بعينها". ويضيف قائلاً "ليس من الخطأ قراءة مظاهر السلوك البشري في منظور التّصنيفات العرقية، لكن يجب التّمييز هنا، أنّ المعايير البيولوجية تتأثر بشروط البيئة، وتتفاعل معها، وتتغير تبعاً لتطوّرها، وهذا يعني أنّه لا تَفُوقُ أبدي وقاطع لعرق بشري على آخر. وبالتالي لا فوقية أو تبعية لثقافة بعينها على أخرى على المدى الطويل"⁴¹⁵. إذن، الثقافة أصل الإحساس والشّعور بالانتماء الفردي لجماعة ما، والجماعي لمجتمع ما، والمجتمعي للمجتمع الإنساني ككل. لكن، رغم ارتسام وُشائج جدلية فريدة من نوعها في طبيعة العلاقة بين المفاهيم والأشياء بين الهوية والثقافة. ورغم تجاذبهما تقاطبهما وتكاملهما في آنٍ واحدٍ، فليس من السهل خلط أحدهما بالآخر، إذ يمكن للثقافة أن تعمل بدون وعي للهوية، بينما يمكن لإستراتيجيات الهوية أن تعالج الثقافة أو تغييرها، وبالتالي لا يبقى هناك شيء مشترك مع ما كانت عليه في السابق⁴¹⁶.

تأسيساً على ما تقدم، يمكننا القول أنّ الثقافة في جانب مهم من مكوناتها ودلالاتها، عبارة حقول من الخبرات والتّجارب والمنجزات المؤطرّة لغويّاً، وجرافيتياً ومعرفياً، والتي يمكن من خلالها تمييز أبعاد وملامح هويات الفاعلين. وربما تكون اللغّة -والكتابة لغّة- بوصفها "مؤسّسة المؤسّسات" -كما يصفها

⁴¹⁴ Peter Wade, "Race, nature and culture: An anthropological perspective", Pluto Press, 2002, 160p.

⁴¹⁵ نقلاً عن: مرح البقاعي، "بين البيولوجي والثقافي.. سينما الهويات"، مرجع سابق.

⁴¹⁶ دونيس كوش، مرجع سابق، ص 147.

"عبد الرحمن العيسوي" مؤلف كتاب "الثقافة والهوية- هي التي تُسَيِّجُ إِنْتماءات الأفراد لثقافة(ات) معيّنة. وربما تكون علاقة كل فرد بلغته هي جوهر العلاقة التي تُساعده على تَمَلُّك ثقافة معينة، وهو الأمر الذي يعني أنّ التمكن من اللغة -المكتوبة- مدخل لا غنى عنه للتّمكن من الثقافة، وأنّ الأشكال الكتابية ليست مجرد أنظمة وأشكال فحسب، وإنما هي عوالم بشرية، وبيوتٌ مكتنزةٌ بأشكال الحياة، أيّ بالثقافة⁴¹⁷.

وارتكازاً على هذا التّسييح المفاهيمي، يمكن تعريف الهوية الثقافية للجماعة بأنّها جميع السّمات المُميّزة للأفراد والجماعات، كاللّغة والدين، التّاريخ والعادات، التّفاليد والقيّم وأنماط العلاقات الاجتماعية، وطرائق التّفكير، وسُبُل السلوك. وغيرها مما يحفظ للجماعة شخصيتها المُتجدّدة، عبر مختلف العصور، وتُميّزها عن غيرها من المجتمعات. وموضوع دراستنا (الهوية الطلابية) التي تُميّز الطالب عن غيره، وذلك حسب المستويات السّابقة التّوضيح، فهوية الطالب لا تنفصل عن هوية جماعته، ومجتمعه، حيث يَسْتلهم فِهْمَه ومبادئه من المجتمع (المحلي والإقليمي والإنساني) الذي يتفاعل معه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

6.2. "الكتابة" إستراتيجية هوياتية بامتياز:

1.6.2. تعريف "الكتابة":

يُميّز علماء ظاهرة الكتابة بين عهدين أساسيين في تطورها، العهد الماقبل التاريخ، الذي لم يصلنا عنه أيّ سجل مكتوب، عصر مُوغل في القِدَم. والعهد التّاريخي، الذي وصلتنا منه وعنه بعض السّجلات المكتوبة (المنقوشة). يستمد لفظ الكتابة معناه من الأصل اللّاتيني 'Ekrityr' ومعناها تمثيل الكلام والفكر بواسطة الدّلائل، تضم هذه الأخيرة كل أنواع الكتابات، سواء الكتابة التّصويرية (Pictographie نسبة إلى الصّورة)، أو الكتابة الحروفية أو الكتابة الأيديوغرافية (Idéographie)، أو الكتابة الفُتولوجية (الصّوّاتيّة)، أو الخريشة أو الغرافيتيا⁴¹⁸.

عرّفت مفردة 'كتابة' في العديد من اللّغات المعاصرة الكثير من التّحوير. عربياً، أمست محصورة في التعبير عن بعض المعارف العلمية الاجتماعية، أو بعض فنون القول كالشّعر والرواية والمسرح، التي تَعَدّت جميعها المرحلة الشّفاهية إلى المرحلة الكتابية. هذا دون إغفال ذكر التّلاقي مع بعض المعاني

⁴¹⁷ عبد الرّحمن بسيسو، "الهويّة الثقافية ليست بنية مغلقة" (حوار حول كتابه: "الثقافة والهويّة")، المشاهد السياسي، أسبوعية

سياسية جامعة، العدد 843، 2012/6/23.

⁴¹⁸ Dictionnaire Petit Robert, p. 603.

الخاصة، بكلمتي 'Ecriture' أو 'Ecrit' الفرنسيتين، سواءً بصيغة المفرد أو الجمع. وبنفس الشكل مع الكلمة الإنجليزية 'Writing'، التي تصل إلى الإشارة إلى الكتب المقدسة، كـ "الإنجيل"⁴¹⁹.

يُعرف "جيبورج باتاي George Bataille" الكتابة بأنها وسيلة تأجيجية، تأجيج جُرح الحياة، أي تأجيج الجُرح الذي هو الحياة". ويُعرفها الكاتب الألماني "فرانز كافكا Franz Kafka" بأنها "إنفتاح جُرح ما". أما الباحث "بنعبد العالي عبد السلام" فيُعرفها في كتابه "الكتابة بيدينا" (دار طوبقال 2009 بأنها "فضاء هويات، فضاء البيئيين، يُخفي من وراءه أسماء مُتعددة (أفراد، جماعة، مجتمع)"⁴²⁰. كما يصفها "ج. ماري مايس Jean Marie Maes" بأنها حوار مع الآخر حول موضوع ما". فالكتابة نوع من المهديّ والمُسكّن، للأمراض النفسية والفزيولوجية، حيث أفصحت العديد من الدّراسات أهميتها العلاجية، نذكر على سبيل المثال دراسة أجريت بجامعة "جورج تاون Georgetown" خلصت إلى أنّ الكتابة تُخرج مرضى السرطان من كآبتهم، كونها تُيسّر التعبير عن لواعج القلب، وتُخفف من حدّة الشّعور بالألم والوحدة.

من الناحية التاريخية تذكر الدّراسات بأنّه قبل أن تصبح الكتابة شأنًا عامًا وملكية جماهيرية في شكل ما يُعرف اليوم بالكتاب⁴²¹، إبتداءً من تاريخ إختراع المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، وقبل أن تُصبح مجالاً للصّراع بين القوى السّياسية والإيديولوجيات، رسمية كانت أو معارضة، محافظة أو تقدّمية.

كانت أثناء اختراعها -في الألفية الرابعة قبل الميلاد- عبارة عن أداة -إمّياز- مُحكّرة من قبيل السّلطة، وفئات صغرى من الكهنّة والمُسكّنين، المكلفين بتحرير ونشر القرارات الملكية⁴²². و"أداة للهيمنة والدّعاية لأيديولوجيا نُخبة محصورة العدد"⁴²³. وهذا ما يؤكده كل من "جيل دولوز G. Deuleuze" و"ميشال فوكو M. Foucault" بأنّ اللّغة، وخاصة المكتوبة، كانت ومازالت

⁴¹⁹ وردت كلمة 'الكتابة' في القرآن الكريم "حوالي ثلاثمائة وتسع عشرة مرة.

⁴²⁰ أغلب التعاريف المعاصرة للكتابة تشير إلى أنّه يرتبط بشرطين أساسيين هما الإبداع والاختلاف وفي هذا المعنى تصب جُلّ التعريفات التي قدمها المعاصرون للكتابة، فيعرفها "جاك دريدا" باعتبارها اختلافاً ♥ وتحدث "نزار قباني" عنها باعتبارها "عملا انقلابياً" ♥♥، وكذلك فعل الناقد "عبد الله الغدامي" الذي تحدث عن الكتابة باعتبارها عملا تحريضياً ومضاداً ♥♥♥.

♥L'Écriture et la différence, Éditions du Seuil, 1979.

♥♥ "الكتابة عمل انقلابي"، بيروت، منشورات نزار قباني، 1975.

♥♥♥ الكتابة ضد الكتابة، بيروت، دار الآداب، 1991.

⁴²¹ Albert Labarre, "Histoire du livre", ed, PUF, 6^{ème} édition, 1994, 127 p.

⁴²² Henri Jan Martin, "Histoire et pouvoirs de l'écrit", Albin Michel, 1996, p 39.

⁴²³ Ibid. p, 42.

وسيلة، أو شكلاً من أشكال السّلطة، ذلك لأنها وُضعت لِتُنشر- وشرَعنة- المراسيم الصّادرة عن الحكام، وللحفاظ على سجلات الدُّيون والانتهاكات التي قد تحدث⁴²⁴.

من أهم وظائفها، إلى جانب الوظيفة التجاريّة المحاسبية، وظيفة سرد وتخليد حياة ذوي السّلطة والنّفوذ والجاه، ككتابة الأنساب، والمعارك والتّحالفات والإصلاحات التي كانت تحدث لهم وبفعلهم، وهذا بسبب ارتباط الكتابة ببلاط السّلطة. وتقوم وظيفة الدّعاية والتّمجيد للأشخاص الذين يصدرون أمر الكتابة. وهذا أمر يصدّق على حضارات أمريكا الماقبل كولومبية، كما على حضارات الصين ومصر وبلاد الرافدين، إذ يتعلق الأمر بكتابات ذات وظيفة دعائية بعيداً عن سرد الوقائع والحقائق التاريخيّة⁴²⁵. ومع تطور المجتمعات بدأت الكتابة تعرف إتساعاً وانتشاراً وتعدّداً في الأدوار والوظائف، إذ أضحت لها وظيفة إعلانية تتمثل في نشر ملامح الحياة الاجتماعيّة والسياسية والدّينية. من خلال هذا التعريف، يمكننا أن نلامس بعض جوانب الممارسة الكتابية، حيث يتموقع إشكال حادّ حول نشأتها وأصلها الجينيولوجي، ممّا أفضى لتضارب آراء الباحثين، ما بين مصدرها الصّيني أو المصري الفرعوني (الكتابة الهيروغليفية)، أو نشأتها السّومرية، وإن أجمعت الآراء على ردها إلى السّومريين، إذ يُعتقد أنّهم من اخترعوا الكتابة منذ حوالي 3400 سنة قبل الميلاد⁴²⁶. فالكتابة السّومرية هي أم الكتابة. لكن هذا لا يقصي فعالية الكتابة الصّينية ولا الهيروغليفية في التّأريخ للظاهرة⁴²⁷. ومهما اختلف الباحثون في الظهور المتزامن من عدّمه، لكل من الكتابة الصّورية التي يُعكّس فيها رسم ما، شيء ما، أو موضوع ما بصورة تشخيصية، أو الكتابة الفِكروغرافية، حيث يعكس فيها رمز ما كلمة ما، إلا أنّهم أجمعوا على أنّ الإنسان كائن مُتميّز عن باقي الكائنات ببعده الرّمزي⁴²⁸. مما جعله يبحث عن كيفية لتجسيد هذا البعد الرّمزي، فاخترع "الكتابة" بأنواعها، ثم أدرك الكتابة

⁴²⁴ Crispin Sartwell, "Graffiti and Language". In: www.crispinsartwell.com/grafflang.htm Consulté le: 10/5/2011 .

⁴²⁵ Achille Weinberg, "Un tremplin pour la pensée", Revue: Sciences Humaines, n°109, octobre 2000, p 22.

⁴²⁶ Ibid. p .23.

⁴²⁷ إلا أنّ هناك من يعتقد بأن معرفة الخط والكتابة أمر توفيقى، بمعنى أنّ الله حين خلق "آدم" بثّ فيه أسرار الحروف، فخرجت على لسانه فنون اللّغات، وكانت من معجزات آدم تكلمه بجميع اللغات التي يتكلم بها أولاده إلى يوم الدين. وقيل أنّ الخطوط كلّها أنزلت على "آدم" في إحدى وعشرين صحيفة. (ابن خلدون، "المقدمة"، القاهرة، ص 332). ويُعتقد أنّ أول من وضع =الكتابة والخط هو "آدم"، إذ كتبها في الطين وطبخه قبل موته بثلاثمائة عام، ثم بعد ذلك أختون' (النّبي' إدريس)، وممن أشتهر بمعرفتها النّبي نوح' و'إسماعيل' عليهما السلام.

⁴²⁸ من بين تعريفات الكتابة، بأنّها رمز الرّمز، رمز باعتبارها تصويراً حرفياً، أو رسماً للكلمة، ورمز للواقع النفسي والاجتماعي للفاعل، كالحنن أو الفرح أو الامتناع.

الألفبائية اليونانية، التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وإن كانت بداياتها مع الفينيقيين بألف عام ق.م.

ف"الكتابة" خاصية ثقافية اكتسبها الإنسان في وقت متأخر من تاريخه، ولا تزال بعض الجماعات تفتقر لها. وقد أجمع المؤرخون على أنّ الإنسان لم يخترع الكتابة إلاّ في فترة متأخرة من تاريخ المجتمعات. في البدء تشكلت الكلمة ملفوظة منطوقة مسموعة، وكان على الإنسان أن ينتظر رَدْحًا من الزّمن كان مقداره خمسين ألف سنة، قبل أن يبدأ في تمثيل كلامه المسموع برموز خطية مرئية. ومن دون الكتابة لا يستطيع "العقل الكتابي" أن يفكر على النحو السليم، فلقد غيّرت شكل الوعي البشري أكثر من أيّ إختراع آخر، لأنّها خلقت سميّ ب"لغة طليقة من السياق"⁴²⁹. بالكتابة تحفظ وتُحصّن الذاكرة الجماعية، وتُصاغ صورة الذات المجتمعية والفردية في تشكّلاتها اليومية. فقد كانت الكتابة سببًا في حفظ ملامح الشعر العربي ما قبل الإسلام، من خلال شعر المعلقات، لأنّ الشّعْر- نوع من الكتابة- مرآة عاكسة للواقع بإتجاهاته واعتلالاته.

كما حضرت الكتابة أيضًا إبان تنزّل القرآن الكريم، حيث كان يكتب حين نزوله، على ما توفر آنذاك من وسائط، حيث كُتِب على العَسَب واللِّحاف، والرِّقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف، والأضلاع. وانتشرت الممارسة بعد توسّع حدود الامبراطورية الاسلامية خاصة في عهد الأمويين والعبّاسيين. لكن مع تطور الأوضاع بدأت الكتابة تتموضع كبديل عن الذاكرة، إذ كان لابد من حفظ المرجعية الإسلامية بكل مضامينها. وتحصين الذاكرة الجماعية، وصياغة صورة مُستجدة للذات والهوية العربية⁴³⁰. إنتشرت -وما زالت- على وسائط عِدَّة، منها ما هورسعي، يدخل في إطار الكتابة الرّسمية المرتبطة بإرادة السلطة القائمة، ومنها ما هو غير ذلك، على نحو، النُّصَب والجدران وشواهد القبور والأضرحة، سواء كُتبت على الحجر أو الجصّ أو الخشب. أوراق البُردي والكتب المقدسة، باختلاف مللها وعُصورها. أو على المسكوكات والنُّقود. وعلى الآثار المنقولة، كالفخار (الأطباق والسرج

⁴²⁹ والتر أونج، "الشفاهية والكتابية"، ترجمة حسن البنا عز الدين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع182، 1994، ص129.

⁴³⁰ نشير هنا لدراسة الباحث "Frédéric Imbert" حول "غرافيتيا آيات قرآنية" (Le Coran des pierres) والتي ضمت

العديد من الوحدات الغرافيتية التي كتبها أصحابها (الحجاج) على جَنَبَات الصَّخُور والكهوف والممرات وجدران القصور، بالعديد من المناطق العربية على نحو العربية السعودية، النّجف، سوريا، الأردن، لبنان، فلسطين..♦

= ♦ "Le Coran dans les graffiti des deux premiers siècles de l'hégire", Université de Provence/ I.R.E.M.A.M., Aix, Koninklijke Brill NV, Leiden, 2000 Arabica, tome XLVII, pp.381.390. <http://www.jstor.org/stable/4057557>. Consulté le :4/7/2012.

والأواني)، والخواتيم، والموازين والزجاج والأخشاب والأواني النحاسية والسيوف والدروع، الأقمشة والطروز والآلات.

لكن، لماذا يلتجئ الإنسان لفعل الكتابة؟

ربما لن نجد جواباً مستفيضاً لهكذا سؤال، أكثر مما نجده في النص الذي أجاب فيه "رولان بارث Roland Barthes"، صحفية إيطالية سألته نفس السؤال، ذات يوم من سنة 1969، ما جدوى الكتابة؟، فردّ قائلاً: "ليس في وسعي إلا أن أعدد الأسباب التي أتصور أنني أكتب بدافع: فأنا أكتب إشباعاً للذة، وهي كما نعلم لذة غير بعيدة عن الإفتتان الإيروتيكي. أكتب لأن الكتابة تُخلخل الكلام، وتَهزّ الأفراد، وتقوم بعمل نَعجز عن تَبين مصدره. أكتب كي أَحقق "موهبة"، وأنجز عملاً مميّزاً، وأحقق إختلافاً وأحدث فُروقا. أكتب كي يُعترف بي، وأكافأ، وأكون موضع حُبٍ واحتجاج وتأييد. أكتب كي أنجز مهام إيديولوجية، أو ضدّ الأيديولوجيا. أكتب بإيعاز إيديولوجيا مُدسّرة، وتقسيمات مُناضلة، وتقويمات مُستديمة. أكتب إرضاء لأصدقاء، ونيكايّة بأعداء (تَشقياً فيهم وإغضاباً لهم). أكتب مساهمة في إحداث سُروخ في المنظومة الرّمزية لمجتمعنا. أكتب إبداعاً لمعاني جديدة، أي لِقوى جديدة، للتمكّن من الأشياء بطريقة جديدة، ولخلخلة تَسلُطِ الدلالات والعمل على تغييره.

وأخيراً، أكتب إثباتاً للقيمة العليا لفعالية تَعُدديّة لا دوافع من ورائها، ولا أهداف ترمي إليها، ولا تعميم تَسْتهدِفُه، شأنها في ذلك شأن النص ذاته"⁴³¹.

• **بعض خصائص الكتابة:** للكتابة خصائص متنوّعة، لخصها الباحث المتمرس "أحمد شراك"⁴³² على النحو التالي:

الكتابة المؤسسية المُعلنة (الجليّة):

هي تلك الكتابة التي تتحوّل من حالة الإضمّار (المخطوط الشّخصي أو الجماعي)، إلى وضع التّجلي العلني (من خلال النّشر والتّوزيع والاشهار)، ومنه وُلوجها/إيلاجها لحقل التّداول الثقافي الرّسمي، الذي يستقبل -وفق شروط محددة سلفاً- كل منتج فنيّ، أدبي أو علمي، من كتب أو مجلات أو معارض

⁴³¹ عبد السلام بنعبد العالي، "جدوى الكتابة"، 2009. من: <http://www.alawan.org> تاريخ الاطلاع 11/03/31.

⁴³² أحمد شراك، "الغرافيتيا والكتابة"، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 411، تموز 2005.

<http://www.awu-dam.org/mokifadaby/411/mokf411-007.htm> تاريخ الاطلاع: 2009/7/30.

فنية... إلخ. حقلٌ يعجّ بفاعلين ينسجون علاقات إجتماعية متميّزة، نابغة من طبيعة الحقل الثقافي (المُهيمن)، على أساس الرأسمال الثقافي، حقل يتشكّل من كل الفاعلين سواء أولئك الذين يعملون على إخراج المنتج الثقافي، من الظل إلى الضوء، من ناشرين ومطبعيين وموّرّعين وكُتّيبين، أو مسؤولين على المتاحف وقاعات العرض، الذين يُروجون لهكذا منتج، إمّا على صعيد الإشهار الثقافي (من صحافة مكتوبة، مسموعة ومرئية ورقمية)، وإمّا على صعيد النقد (النقاد)، وإمّا على مستوى القراءة والتلقّي (المستهلكين)، من أساتذة وطلبة... إلخ. دون إغفال دور المُقرّرين، الذين يسمّون المنتج بالعلامة الرّسمية المؤسّسية - صالح للاستهلاك من عدمه-.

الكتابة المؤسّسية الغير مُعلّنة (المضمرة):

صنّف من أصناف الكتابة، تابعة للمؤسّسة الرّسمية، كالكتابة المدرسية أو الجامعية (الأكاديمية) المُمارَسة وفق تقاليد ومراسيم محدّدة سلفًا، ومنظمة في مناسبات معيّنة (في الفروض والامتحانات والبحوث). أو الكتابة الأكاديمية الجامعية التي تتميز بكونها مُضمّرة إلّا أنها لا تُنشر - تُسوّق - بسبب منطق ثقافة المؤسّسة التّعليمية، الذي يكمن في جعلها وسيلة تقويمية لمدى إستيعاب الطّلبة للرأسمال التّعليمي، أو في مَنح المكافئة العلمية بالنّسبة للكتابة الأكاديمية الجامعية (مثلما هو حالنا). وغالبًا ما لا تجد هذه الأخيرة فرصة لنشر لخصوصيتها التي قد لا تستجيب لمبدأ "الاستثمار الثقافي" وفق آليات السّوق الثقافيّة، ولذوق الفئة المُتمكّنة، حيث تبقى حبيسة زُفوف المكتبات. وللكتابة المؤسّسية الغير مُعلّنة مميّزات عدّة، لخصّها ذات الباحث (أحمد شراك)⁴³³ كما يلي:

الإجبارية والإكراه: غالبًا ما يُرافق الامتحانات (الاختبارات) بإعتبارها من أهم طقوس المرور rites des du passage، التي تميّز ثقافة المؤسّسة التّعليمية، شعور بالتوتر والإكراه في تحرير الإجابة المطلوبة، ممّا يدفع (يُكرهه) المُمتَحَنين لبذل كل الجهود للإجابة، بكل الطرق و الوسائل، قد يكون للسلوك المنافي (الممنوع) والمشاكس حضورًا لافتًا (كالغش في الامتحانات)، وقد يصل الأمر إلى درجة إرجاع ورقة الإجابة بيضاء ناصعة.

ميزة التّكرار: تعتبر صفة التّكرار من الطقوس الجليّة في الممارسة الكتابية، أي إعادة إنتاج الثّقافة المدرسية (الجامعية)، وفق سمات وأوصاف مُحدّدة ومُنقاة سلفًا، وذلك بإستعراض المعلومات كتابيًا، وفق مقاييس لغوية مُحدّدة مُسبقًا، من طرف الوصاية السّاهرة على المؤسّسة الرّسمية. وفي هذا يصرح "رولان بارث Rolan Barth" قائلاً "..والحال أن اللّغة التي ترسّو في

⁴³³ أحمد شراك، المرجع نفسه.

السُّلطة...هي حسب وضعها لغة تكرر، وكل المؤسسات الرّسمية للغة هي آلات تكرر (المدرسة، الرياضة، الإشهار، الأعمال الجماهيرية، والأغنية...) "434.

مبدأ التّقويم: يعتبر مبدأ التّقويم (التّقييم) أساس الكتابة التّعليمية (الجامعية)، إذ يُحدّد مدى إستيعاب المعنى (الطالب -وبعض المرّات الأستاذ-) للمادة المقدّمة (من خلال البرامج والمناهج والتعليمات)، إمّا إيجابياً أو سلبياً، حسب تقدير السُّلطة المُقوّمة (المصحّحة)، الأستاذ أو الإداري. ومن هنا يبدو واضحاً أن هذه الكتابة ليست كتابة حرّة، ولا إبداعية، بل هي كتابة هادفة و مُوجّهة وصّامّة، ليس لها الحقُّ في النّقد أو المُعارضة، تتأسس على ثقافة إنتاج وإعادة إنتاج قيم ثقافة الصّمت، التي تجتهد المؤسّسات التّعليمية على غرسها وتُرسخها في أذهان التلاميذ/الطلبة، من خلال أليات سيرورة الالقاء والتّلقين اليومي، خلال الفصول الدّراسية، مع الاستعانة بمبدأ الثّواب والعقاب، في الفروض والامتحانات، لإرضاء وتحقيق مطالب الثقافة الرّسمية، فالمجتهد والمتفوق هو ذاك الذي يتمثل -أحسن تمثيل- آداب المؤسّسة التّعليمية. يتم ذلك دون تخصيص مساحات كافية للتعبير الحر، الدّاتي أو الجماعي، لمّا يدور في أذهان هؤلاء التلاميذ/الطلبة.

2.6.2. "الكتابات الغرافيتية" وهيمنة المحمّل الغربي:

أ. في معنى "الغرافيتيا":

قبل الإندلاق مع مسارات التّفهم السوسولوجي لظاهرة الكتابات الغرافيتية، يتوجّب علينا إعادة مفهوم "الغرافيتي" إلى لحظة إكتشاف شروطه التّاريخية وتطوراته الدّلالية، التي إستنتجها المختصون. فكلّمة "غرافيتي Graffiti" ⁴³⁵ في بنيتها ودلالاتها الحالية إيطالية الأصل والفصل، مشتقة من فعل "Graffiare"، ويعنى (يخدش ويكشط). ولجت سوق التّداول المعجمي في القواميس الإنكليزية سنة 1851. لِيَنْفَرِضَ المصطلح ضمن القواميس الفرنسيّة -تدريجياً- حيث وردت مفردة "Graffito" سنة 1886، وقبلها كلمة "Graffite" سنة 1878 ⁴³⁶. ذكرت عنها قواميس التّجدير وتعليل أصل الكلمات والألفاظ أنّها ذات أصول لاتينية ويونانية وإيطالية، أين إكتسبت دلالاتها النّهائية. مع مرور الوقت

⁴³⁴ رولان بارث، "لذة النص"، ترجمة فؤاد الصفا والحسين سحبان، المغرب، دار توبقال، 1988، ص 44 .

⁴³⁵ و تُكْتَبُ أيضاً: " Graff " و "Graf". (لا توجد قاعدة مضبوطة).

⁴³⁶Romain Sahut, *Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain*, IUTBM, 2002-2003 p3.

عرفت إنزيّاحات دلالية متعدّدة على مستوى الدلالة والمعنى والاشتقاق⁴³⁷، بعدما كانت تدل على تلك الكتابات التاريخية التي تركها الإنسان القديم على الكهوف والمغارات.

بنوع من التّأثيل المفصّل، يحضر المفهوم في لغات العالم بئى ومَعاني مختلفة⁴³⁸، لكنها متقاطعة في دلالة مشتركة. ففي اللّغة الإغريقية نجد كلمة "Grapheim" تعني "يكتب، يرسم وبعض المرات يُلون". أمّا في اللّغة اللّاتينية فأصل الكلمة يعود لكلمة "Graphium" وتعني: يُخْرِش، يَخْدُش، وَيَكْشُط⁴³⁹. في حين نجدها في اللّغة الإيطالية مشتقة من مفردة "Sgraffito" وتعني "يَخْدُش، وَيُخْرِش". تطور اشتقاقها إلى "Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti". ومعناه "كَتَبَ وَخَدَشَ أَوْ حَمَشَ أَوْ حَكَّ سَطْحاً"⁴⁴⁰. بشكل عام تُشير كلمة "غرافيتي Graffiti" في اللّغات الأوروبية إلى أيّ كتابة أو رسم أو نقش أو خَدَش، أُنجِز باليد على الجدران⁴⁴¹.

من الجانب الصّرفي للمفهوم اختلف المنظرون حوله، ففي اللّغة الإيطالية كلمة "Graffiti" تعني مجموع كلمة "Graffito". هذا التّمييز الذي إحترمته "الموسوعة الإنجليزية L'encyclopédie Anglaise"، وحادّت عنه "الموسوعة الأمريكية L'encyclopédie Américaine"، إذ تتحدث فقط عن "Graffiti". ولم تُقَم القواميس الفرنسية بِفَرْنَسَة المفهوم، بل حافظت على أصله، وأضافت "S" لمجموع الكلمة "des Graffitis". أخذ به البعض ورفضه البعض الآخر. قبله "دنيس ريو Denys Riout"⁴⁴²، ورفضه بشكل كامل "براساي Brassai" (Graffiti). في حين يتحدث "ماك لين Mac Lean" عن "Graffite" (غرافيتي مفرد)، و"plusieurs Graffiti" (الغرافيتي في الجمع)⁴⁴³. في دراستنا أخذنا برأي "Brassai".

⁴³⁷ Ex: Les dérivés graffitique (adj.), graffitiste (adj.), graffiteur, se (subst.),...sont des néologismes récents appartenant à la langue spécialisée.

⁴³⁸ للوقوف على المفهوم في أهم لغات العالم أنظر الملحق رقم 2 .

⁴³⁹ Pierres Philosophales, "Photo graffiti(es) d'Expressions Murales", Collectif des 12 Singes, 2010, 150p. In:http://photograffeurs.over-blog.net_eBook. Consulté le 13/9/11.

⁴⁴⁰ Romain Sahut, op.cit.p.4.

⁴⁴¹ LAROUSSE, Dictionnaire Encyclopédique Illustré, p 707.

⁴⁴² Denys Riout, et al, "Le livre du Graffiti", Paris, édition Alternatives, 1990, p 10.

⁴⁴³ أما "الغرافيتولوج **Grafitologue**": فهو الباحث الذي يَنهَجُ بدراسة تقنيات وتاريخ ومصطلحات وفلسفة وممارسي الغرافيتيا. أُستخدم المصطلح لأول مرة في 'بروكسل' سنة 2003، من طرف "Monzon du Tas" - ممارس و باحث في الغرافيتيا- "خلال إحدى اللقاءات حول الظاهرة.

تذكر الأدبيات التاريخية والسوسولوجية أنّ أوّل استخدام للمفهوم في الدّراسة العلمية، كان من طرف الباحث "أبي كاروسي Abbé Garruci"، في دليله الموسوم بـ"غرافيتيا مومباي Graffiti de Pompéi" سنة 1859، وإن وُجِدَت إرهاباتها قبل ذلك بكثير، على مستوى الفعل والممارسة. مع منتصف القرن العشرين، أضحت كلمة "غرافيتي/غرافيتيا" تُستخدم في العديد من اللّغات لتدلّ على كل مختلف الكتابات والرسومات المترابطة التي "تُعرَفُ" على الجدران، وما شاكلها من الدّعامات (Les supports)، غير مخصصة لذلك، بإستخدام أدوات الكتابة التقليديّة أو المعاصرة، كالأصباغ والرّذاذ... تباينت السّجلات والمناكفات حولها، إذ يُرَقِّمها البعض لدرجة العمل الفنيّ، بينما يحتقرها ويُدنّسها البعض الآخر، ويُزِيلها لِدَرَكَة الفعل التّخريبي (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامة والخاصة. ففي قاموس "Le Robert" -مثلاً- تدلّ الغرافيتيا على: كل كتابة أو رسم مخطوط أو منقوش على الحيطان، وعلى جَنَبَات آثار المدن. وفي معناها العام، كتابة أو رسم رَكِيك على الجدران، والأبواب العمومية أو الخاصة، أو حَرَبَات (شَخَبَات) ساقطة -وفاحشة- Des gribouillages obscènes.

ويعرفها معجم "المنار"، على أنها رسومات أو كتابات غير رسمية على الجدران، أو هي رسم أو كلمات، تُحَفَر أو تُكْتَب أو تُخَدَش أو تُنْقَش على أسطح صلبة، خاصةً الجدران. وهي أيضاً كلام بسيط منقوش على الجدران، أو حاجز أو سطح آخر، مثير للعواطف والذكريات⁴⁴⁴. وقد عرّفت بعض المعاجم الثنائية كلمة "Graffiti"، بأنها كتابات مُجَوْنِيَة على الجدران، تنتشر في الأماكن العامة والخاصة (المراحيض). تأسيساً على ما سبق، يتّضح أنّ أغلب القواميس الغربية (الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية)، أجمعت على أنّ كلمة الغرافيتي، أصلها إيطالي، وتعني مختلف الكتابات والرسومات الجائئة على الجدران أو ما شاكلها، كُتبت بطريقة غير رسمية.

على مستوى التّعريفات الإجرائية، تعرفها الباحثة الكندية "دونيس بيلودو Denyse Bilodeau" بأنها إسقاط فيزيائي للتّصورات الفكرية لفاعلها، تَهْدَف لِإِمْتِلَاك -رمزي- غير شرعي (Une ré/appropriation symbolique) للمكان العام، وفق "منطق غرافيتي Logique graffitique" معيّن، لأنّ "الممارسين" لا يُعْرَفُتُون أيّ شيءٍ في أيّ مكانٍ، أو في أيّ وقتٍ، بل يتَحَيَّنُون أوقاتاً مُناسِبة، وأفكاراً هادِفة، تتضمن إهانات وشتائم وسبابٍ، وفخرٍ وتَبْجِيل مستثمرين "كلمات" ذات مغزى

⁴⁴⁴ حسن الكرّمي، "معجم المنار"، إنجليزية عربي، 1970.

محدّد⁴⁴⁵. غالبًا ما عُوِّمَتِ الجرافيتيا باعتبارها ممارسة منحرفة، حيث أُقْرِنتِ بها أوصاف ذات دلالات سلبية، كـ "التّخريب Vandalisme"، أو "التّحطيم والتّكسير والإتلاف Iconoclaste"⁴⁴⁶.

أما عربيًا، بالرّجوع إلى المعجم العربي "لسان العرب" لا وجود لكلمة "جرافيتي". وما يقترب من هذا المعنى (الجرافيتي= نجده في مفردة "خَرِبْشَة" و"خَرِبَاش"، أي إختِلاطٌ وصَخَبٌ. ومنه يُقال: وَقَعَ القومُ في خَرِبْشٍ وخَرِبَاشٍ، أي إختِلاطٍ وصَخَبٍ. و"الخربشة" بمعنى إفساد العَمَلِ، والجِتاب ونحوه. ومنه يُقال: كَتَبَ كِتَابًا مُخَرِبَاشًا، أي مُفَسِّدًا، والخَرِبْشَة والخَرْمَشَة: الإفساد والتّشويش⁴⁴⁷. وليس بعيدًا عن ذات المعنى، نقرأ في "القاموس المحيط": خَرِبَشَ الكتاب، أفسده. رغم ذلك عَمَدت بعض التّرجمات إلى استعمال مرادفة كلمة "الجرافيتي" بـ"الخربشة"⁴⁴⁸. لكن ما علاقة الجرافيتيا بالخربشة؟.

يعتقد أهل الاختصاص أنّ "الخربشة" مستوى من مستويات الكتابة، يمكنها أن تُصنّف في خانة الجرافيتيا، لكنّها تتميز عنها. إذ غالبًا ما تتجلى خلال ممارسات الأطفال (سلوك صبياني)، سواء أثناء فترات اللّعب واللّهُو، أو الجِدِّ والتّعلّم، حيث تُعتمَد في تعليم الأطفال أساسيات الكتابة، كتمارين حركيّة لزيد لتحسين ملكة الخط والكتابة (السّنة التّحضيرية). كما تتشكل كفعل ناتج عن حالة شبه شعورية، أو لاشعورية، عند التلاميذ والطلّاب -وكل من يمتلك أجدياتها (الكتابة)- خلال أوقات الدّراسة، كمؤشّر لعدم تفاعل الطّالب مع الأستاذ (لأسباب مختلفة). فيُخَرِبِشُ الطالب خَرِبَشَاتٍ غالبًا ما تتضمن دلالات مُهمّة، وغير مفهومة -في بعض الأحيان- حتّى من طرف مُعْرِفِيهَا.

ويعتقد الدكتور "إيهاب عبد الرحيم محمد" "أنّه عندما يشعر الشّخص بالملل في قاعة الاجتماعات أو المحاضرات، أو أيّ مكان آخر، يلجأ للخربشة على ورقته أو طاولته، حتى يُكوّن بقعة سوداء، حمراء..

⁴⁴⁵ Raphaëlle Proulx, "Variations colorées d'une pratique mondialisée: L'appropriation culturelle du graffiti hip hop à Montréal et à São Paulo", Ph.D. en Anthropologie département d'anthropologie, Faculté des arts et des sciences, 2010, p.8.

⁴⁴⁶ Bilodeau Denyse, "Les murs de la ville, les graffitis de Montréal?", ed: LIBER, 1996, 202p♦

♦ الكتاب في الأصل عبارة عن رسالة دكتوراه في الأنثروبولوجيا، جامعة "L'AVAIL". قاربت فيها الباحثة الجرافيتيا المونترّيالية، وفق منهج سوسيوأنثروبولوجي لرسم صورة شمولية لجرافيتيا مدينتها. الموقع الإلكتروني: <http://www.cheneliere.info/cfiles/complementaire/IPMSH9782765025375/ExtraitentrevueDenyse>
<http://www.cheneliere.info/cfiles/complementaire/IPMSH9782765025375/ExtraitentrevueDenyse>
Bilodeau.pdf، تاريخ الاطلاع: 2009/01/11.

⁴⁴⁷ ابن منظور المصري، "لسان العرب"، بيروت، دار صادر، المجلد 6، ص 295.

⁴⁴⁸ نعتقد أنّ لفظ (الخربشة) يقترب في معناه من لغة الجس المشترك أكثر منه للعلمي لشحنته الدلالية الإنتقاصية لها.

من الخربشة⁴⁴⁹. وبعد بُرْهَةٍ يُبْصِرُ ما خَرَبَشَ، وقد يَتَعَجَّب وَيَنْدَهَشُ مما تَرَكَ. فالخربشة عملية أقلّ وعياً من الكتابة، وغالبًا ما تكون فردية، تتراوح ما بين تلك الأشكال والرّسومات المُزخرفَة والمُنمّقة والتّافهة⁴⁵⁰. غير أنّنا لو تفحصنا هذه الخربشة، نلاحظ تكرار ظهور بعض الكلمات، الرّموز، الأشكال، مما يؤكّد أنّ هكذا فعلٍ ليس من العَبَث، وليس من الملل فقط، بل له وظائف نفسية مهمة، تأتي في مقدمتها وظيفة التّنفيس والتّخفيف من التّوتر والضّجر.

وهكذا يبدو أنّ "الخربشة" في اللّسان العربي مرتبطة أوّلاً وأخيراً بما هو مخطوط بِمُتُون الكُتُب وما شاكلها، أي بالإنتاج المطبوعي الرّسمي. إلّا أنّ الإفساد والتّشويش هو حكم قيميّ معياريّ، إتجاه كتابة مُعيّنة، لا تروق للكتابة الرّسمية (المؤسسات الرّسمية)، فَتَسْمُها/تَصِمُها بِصِفاتِ عِدّة، من مَفْسَدَة للأخلاق والآداب والقيم...إلخ). ومُشوّشة للقيم الثّقافية المقدسة (رسمياً واجتماعياً). ولعلّ في التّاريخ العربي والعالمي أمثلة يَتَعَسَّرُ حصرها في هكذا موضع، على نحو البيت الشعري لشاعر مجهول الاسم "عَرَفْتَهُ" على جدران قصر الخليفة "المأمون"، يقول فيه:

يا قَصْرُ جُمِعَ فِيكَ الشُّؤْمُ وَاللَّؤْمُ ❁❁ مَتَى يُعَشَّعِشُ فِي أَرْكَانِكَ البُؤْمُ.

غير أنّ المُتَبَصَّرَ للظّاهرة سوسيلوجياً يلحظ غير ذلك، وهذا ما جعلنا - الكلام للباحث "أحمد شراك"- نستعين باللفظ اللّغوي "Graffiti"، وتعريبه بـ "الغرافيتيا" للدلالة على كل الكتابات والرّسومات والأيقونات والصّور والتّشكيلات، في أيّ فضاء، وعبر أيّة وسيلة أو أداة خارج الأعراف

449 الخربشة أو الشّخبطة، مرادفها بالفرنسية "Gribouillage et Griffonnage"، وبالإنجليزية "Doodles". بعض القواميس تُرادف الغرافيتي بالخربشة على المستوى اللغوي. في حين يميّز معجم "Le Petit Robert" بين كلمة "Graffiti" والكلمتين المذكورتين (Gribouillage et Griffonnage) حيث تدلان على الكتابة الغير مقروءة بشكل جيّد، والتي يَتَعَسَّرُ قراءتها (الوصفات الطبية) ❁. ❁. 891. Dictionnaire Petit Robert, p.

450 هذا لا يعني بأنّها فعل عبثي لا فائدة من دراسته، إذ كشفت بعض الدّراسات عن أهميته في إستجلاء بعض الأسرار الخفية لشخصية فاعليها، على نحو دراسة أمريكية أُجريت بكلية الدّراسات النفسية بجامعة "بوسطن"، خلصت لنتيجة مفادها أنّ الشّخبطات العشوائية والرّسوم المُبهمة (الخربشات)، لها أهمية قصوى في الكشف عن كثير من أسرار شخصية مُوقّعيها. فصرح الدكتور "روبرت هاريسون Robert Harrison" المشرف العام على فريق البحث، إنّ هذه الخربشات نوع من (أحلام اليقظة) البصرية، تُيسِّرُ لنا كشف المُضمّر من شخصية أصحابها♥. وفي ذات البحث تؤكد "سوزان ألدريج Susan Aldridge" بأننا عندما نشعر بالملل في اجتماع طويل ومُمل، من المحتمل أنّ تأخذ قلمك وتتهمك في رسم خطوط أو رسوم، وربما مربعات أو مثلثات أو أسهم. وهو ما نسميه بالخربشات، وهي عملية أقلّ وعياً من الكتابة المتعارف عليها، إنّها عملية فردية تماماً، لكنها تعكس درجة من التفكير المنطقي، على الرغم من غرابة هذه الرموز، حتّى بالنسبة لصاحبها نفسه. هذا ما دفع بعض الباحثين النفسانيين لزيادة التركيز عليها، لفهم بعض المرضى النفسيين، وتشخيص أمراضهم. ومن بين أشهر الجامعات التي انشغلت بـ"الخربشات" جامعة سيدني الأسترالية. يُستعان بها في تشخيص أمراض عدّة، كالغُصاب، الوسواس القهري...

♥ Claire Ruud, "The fine art of doodling", The Phoenix, In print, Volume 126, March4, 2004.

المؤسسية. بالإضافة، إلى أن كلمة 'خربشة' في اللغة العربية تحمل شحنة إنتقاصية، وإشارة دونية، ولا تحيل إلى الوسائل والدعائم (Les supports)، التي تشير إليها المعاجم والقواميس الأجنبية⁴⁵¹.

"قصور مفاهيمي" دفع ثلثة من المنهجيين بالممارسة على نحو الدكتور "خليل أحمد خليل" إلى تعريبها بـ"الكتابة على الجدران"⁴⁵². في حين ذهب آخرون كالباحث "أحمد شراك" للاستعانة باللفظ "Graffiti"، وتعريبه بـ"الغرافيتيا"⁴⁵³. وقد إنتشر استخدام هذه التسمية في العربية منذ ذلك الوقت -رغم أنها تسمية غير دقيقة، لأن الـ "غرافيتيا" قد تدل على رسوم أو نقوش جدارية كذلك-. أما في دراستنا وبعد الترجيح بين هذه الترجمات والمرحلة الاستطلاعية لمضامين المادة المكتوبة، إستقر إختيارنا على مصطلح "الكتابات الغرافيتية" لأن الجانب المكتوب أكثر تواجدًا بمضامين الغرافيتيا الطلابية، ولأنه يتضمن كل مستويات الغرافيتيا.

مما سبق، نقول أن الغرافيتيا نصّ وشهادة، ولكنها أيضًا فعل وممارسة يومية تستلزم ترك أثرٍ Une trace، للغير (للمارة/ للقارئ). بلغة "بيار برتونسكي Pierre Bertoncini" إنها عبارة عن إمتلاك رمزي (Une appropriation symbolique) لفضاء معين (مهما ضاق أو اتسع)، يكون قد فقده في مجتمعه⁴⁵⁴. ذلك لأن هكذا ممارسة تسمح لممارسيها باللهو واللعب بالحدود العامة (سواء الحدود الرمزية أو الثقافية)، وإعادة تشكيلها. أضحت من "أقوى" اللغات الثقافية، كما تعتقد الباحثة "سوزان فيليبس Susan Phillips"، حيث يلتجأ إليها "الممارسون" لإعادة تحديد مكانتهم الاجتماعية والسياسية مجتمعيًا⁴⁵⁵.

ب. خصائص "الكتابة الغرافيتية":

من خلال المرحلة الاستطلاعية والتعريفات المعجمية السابقة لمفهوم -الغرافيتي-، استنتجنا مجموعة من الخصائص التالية: على مستوى التواجد (الحيز المكاني):

⁴⁵¹ أحمد شراك، "أسئلة الغرافيتيا من الدلالات إلى الخطاب" الموقف الأدبي، مجلة شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب دمشق، العدد 3954، آذار 2004.

⁴⁵² خليل أحمد خليل، "مبنى الأسطورة"، بيروت، دار الحداثة، 1979، ص 226.

⁴⁵³ أخذنا برأي الباحث "أحمد شراك" لاعتقادنا أنه أكثر حمولةً وشحنةً ودلالةً تعبيرية لتوصيف الممارسة/الظاهرة.

⁴⁵⁴ Pierre Bertoncini., Graffiti et littoral: Les Signes de la littoralisation du territoire Corse, Actes du colloque international pluridisciplinaire, Le littoral: subir, dire, agir", Lille, France, 16-18 janvier 2008.

⁴⁵⁵ Susan Phillips, Wallbanging, graffiti and gangs in Los Angeles Chicago, The University of Chicago Press, 1999, 383.p.(Google Books).

• تَعَدّد فضاءاتها: بقليل من البصيرة السوسيوولوجية، يمكننا أن نلاحظ التّواجد الواسع، للكتابات الجرافيتية عبر العديد من فضاءات المجتمع، الشّوارع، المؤسّسات العسكرية، العقابية، الاقتصادية، الإدارية والتعليمية، بما فيها الجامعة بكل تضاريسها (الحيز المكاني لدراستنا).

• تنوع حاملاتها ودعاماتها: من مميزات الكتابات الجرافيتية غزوها لكل مساحة ودعامة (إسمنتية، معدنية وخشبية) لإحتواء وحدة جرافيتية، من أهمها: عربات القطارات، الحافلات، الجدران، الأعمدة الكهربائية والهاتفية، واجهات المحلات، المكاتب والمناضد التعليمية، الهواتف النّقالة، مقاعد الحافلات، صناديق البريد، مخادع الهاتف، حواشي الطرقات (الأرصفت)، إشارات المرور، واجهات المحلات، وحتى أوراق النّبات (الصّبّار)، وأجساد الحيوانات⁴⁵⁶.

• تباين أنساقها التّعبيرية من خلال مستويين:

- المستوى المكتوب من خلال (الكلمات، الأسماء، الجمل، العبارات، الرموز...إلخ). وهو الأكثر حضورًا في دراستنا.

- المستوى الغير مكتوب (المرسوم)، تجلّى ذلك في (الرسومات، الأشكال الهندسية، المنحنيات، الدوائر، ...إلخ. كما نلاحظ مستوى "مختلط" يستخدم فيه الاسلوبين معًا (كلمة + صورة).

• سمّتها الهامشيّة/المهمّشة: غالبًا ما تُوصف وتُصنّف في خانة السلوكات والظواهر الهامشية -بل المهمّشة- ذلك لأنها تعتبر خطابًا وممارسة لا تنضوي تحت شرعيّة الخطاب الرّسمي.

• مجهولية موقّعيها (فاعليها): غالبًا ما لا يُعرف "مُعرِفُ" الكتابة، حتّى وإن عُلمت الفئة الاجتماعية -وهذا هو حال دراستنا- لكن، حتّى وإن علمنا أنّ الفاعلين هم الطلبة، لا يمكننا التّحديد المباشر والمحدّد للفاعل.

• سيادة المضامين "المناقضة" لقيم الثّقافة الرّسمية (المهمّينة) وطغيان الطابع المُدنس على المُقدّس (بالمعنى السوسيوولوجي للمفهومين)، مما حدّا بِمَنَدُوبِ المجتمع الرّسمي لوصفها بممارسة تخريبية وتدميرية يجب اجتثاثها.

• خصوصيات المضامين الجرافيتية نابعة من خصوصية الفضاءات التي تتواجد فيها، وهذا ما يفسر تنوع أشكالها وأحجامها. فالكتابة في الأماكن العامّة، (الشّوارع، وسائل النّقل، لن تكون ذاتها بالأماكن الخاصة (المراحيض، مراكز الحراسة بالثكنات العسكرية، السّجون ...).

⁴⁵⁶ للاستزادة أنظر الملحق رقم 1.

ت. أهم الأشكال الجرافيتية:

◆ الجرافيتيا التاريخية **Graffiti historique**: تؤشّر على تلك الكتابات والرسومات القديمة التي تركها الانسان القديم على مختلف الصخور والكهوف والمقابر و...مازالت جاثية بمناطق مختلفة من المعمورة على نحو، الطاسيلي، بومبي، ألتاميرا،...ويعتبر "سارج راموند Serge Ramond" أول من أسّس متحف خاص سُمّي في البداية بـ"متحف الجرافيتي التاريخي" Musée des Graffiti "Historiques"، ثم بمتحف ذاكرة الجدران "Musée de la Mémoire des murs" سنة 2000، بمنطقة "Verneuil-en-Halatte" بمقاطعة "L' Oise" الفرنسية، ثمرة أربعون سنة من البحث في مجال الجرافيتي.

◆ الطاغ (الطاك Tag): مصطلح معاصر النشأة، أصله أنغلوسكسوني، معناه العام "البطاقات Les étiquettes" التي تُلصق على الحقائق، يُكتَبُ عليها 'اسم' صاحب الحقيقة. ويعني أيضاً التوقيع أو الشعار الخاص بشخص معين. يعرفه "ألان فيلبو Alain Vulbeau" بأنه كتابة مُكرّرة عشرات المرّات لإسم أو لقب أو كنية مستعارة، أو شعار فردي أو جماعي، على الجدار أو ما ناب عنه⁴⁵⁷. يهدف إلى خلخلة وتجاوز مُحدّدات الهوية المتعارف عليها، وتكثيفها حسب الأوضاع والظروف التي يتواجد فيها الفاعل. يساهم في خلق هوية مرّنة ديناميكية، تتسم بالتعدد الهويّاتي. من ميزاته:

- غالبًا ما يرتبط بمرجعية بطولية Héroïque، تجعل من الأبطال والمشاهير نجوم إقتداء وتماهي.
- لا يستغرق وقتًا طويلا في إنجازه.
- من مرتكزاته الفنيّة، تبديل مواضع الحروف، مثل "aize" وتحويلها إلى "eze"، أو "aze" إلى "eize".
- من إستراتيجيات نشره وتسويقه عبر الفضاءات، تكراره عشرات المرّات على وسائط متنوعة.

◆ الجرافيتيا المعاصرة **Graffiti Moderne**: وهي كتابات ورسومات مرتبطة بثقافة "الهيپ هوب Hip Hop"⁴⁵⁸ المتألّفة من العناصر التعبيرية التّالية، "Break Dance" تعبير بدني (جسمي)، "الراب Rap" تعبير لغوي لفظي، و"الجرافيتي graffiti" تعبير كتابي. ظهرت على يد الشباب الافريقي الأمريكي نهاية الستينات.

⁴⁵⁷ تمّ إدراج كلمات: "Tagueur, Tagueuse, Taguer" في قاموس "Le Petit Robert" سنة 1988.

⁴⁵⁸ معنى كلمة: Hip: التّنافس Compétition، أما كلمة: Hop : يَقْفِز (to hop). وتعني أيضا مُخالفة الوضع القائم/السائد بشكل فاضح.

◆ **الغرافيتيا المَعكوسة Graffiti Reverse**: شكل من أشكال الغرافيتيا، إنتشر خلال السّنوات الأخيرة⁴⁵⁹ - وإن وُجدت إرهاباتها كممارسة من قبل- على يد البريطاني "بول كورتيس Paul Curtis" الملقب بـ "Moose". الذي أُشْتَهِرَ بعدم إستخدامه للطلاء أو وسائل الكتابة المألوفة في الممارسة الغرافيتية، وإنّما عكس ذلك بتنظيف الجدران أو زُجاج الواجهات والنوافذ بقطعة قماش (إسفنجة). أسلوب يعتمد على نفس الدّعائم المعروفة في الغرافيتيا، لكن يتم بموجها تنظيف الملوّث (الغبار، الطمي،...)، المتراكم على أسطح الزّجاج (السّيّارات، النوافذ،...)، والجدران، خاصّة بالفضاءات التي تكثُر فيها حركة السّير، أو الأشغال العامة. فيتم مَحْو وتنظيف جزءٍ من الواجهة، مع الاحتفاظ بكلمات، جمل، رسومات، تخدم الرّسالة المراد تبليغها. من بين ما تُلقَّب به الغرافيتيا المعكوسة: غرافيتيا المحيط، الغرافيتيا الإيكولوجية، الغرافيتيا المستدامة. أُستخدِمَ من طرف العديد من الشّركات التّجارية لتشيير بمنتجاتها، على نحو شركة "Microsoft" (أنظر الملحق رقم 1). في مجتمعنا الجزائري تعتبر كلمة "إغسلوني" التي غالباً ما نلّفها على الزّجاج الخلفي للسّيّارات، أكثرها شيوعاً وتمثيلاً لهذا النوع.

◆ **غرافيتيا المراحيض (لاتريناليا Latrinalia)**: نَحَتَ المصطلح من طرف الأنثروبولوجي الأمريكي "ألان دنديز Alan Dundes" لِتوصيف نوع من الغرافيتيا الخاصّة بالمراحيض، أُجْرَاهُ باسم (Latrinalia)⁴⁶⁰. وذلك في سياق دراسته حول غرافيتيا المراحيض، والموسومة بـ "Here I sit : A study of American Latrinalia"، لينتشر إستخدامه العديد من الأبحاث، من بينهم الباحث البرازيلي "بلازا راناتا تكسيرا Plaza Ranata Teixeira" الذي قارب الظّاهرة من خلال مقارنته بين العديد من الكتابات الغرافيتية، التي جمعها من دول شتّى. وقد إنتقد "إيرنست آبل Ernest Abell" هذا التعريف إذ يعتقد بأنّه لا حاجة لنا بمصطلح جديد ما دام جوهر المصطلح الذي أوْرَدَه "أ. دنديز" يدل على الظّاهرة نفسها دون تداخلات جديدة⁴⁶¹.

⁴⁵⁹ و تسمى أيضا "الطاك المنظّف Clean tag".

⁴⁶⁰ للاستزادة أدخل الموقع: <http://www.itsallinthehead.com/home.html>.

⁴⁶¹ Abell, E.& Buckley .B. "The hand writing on the walls. Toward. a sociological and psychological of Graffiti ", Greenwood Press, 1977.

ث. مرجعيات الخطاب الجرافيتي:

ج. يلخص الباحث المتمرس "أحمد شراك" مرجعيات الخطاب الجرافيتي كما يلي⁴⁶²:

خطاب لغوي: لا يمكن تصور خطاب دون لغة، إذ هي وسيلة التعبير والتوصيل والتواصل بين الفاعلين والآخر (بين المرسل و المرسل إليه)، ولن يتأتى ذلك إلا بالاستعانة بالخطاب الأدبي (من شعر ورواية وسيرة ذاتية)⁴⁶³. أو الخطاب الأيديولوجي أو الديني، السياسي أو الجنسي والرياضي...

خطاب فني متميز: لإرتباطه بالممارسة الفنية والتصويرية الشعبية، خاصة ما عُرف " بثقافة الهيب هوب Hip Hop"⁴⁶⁴ المتضمنة للرقص وموسيقى الراب والكتابة الجرافيتية، والتي استطاعت أن تغزو العديد من المجتمعات بلونها الأمريكي، بل وتمكنت من إنتزاع تأشيرة الرّسمي، وأضحت تُقام لها مهرجانات سنوية في أغلب المجتمعات، حتّى بالمجتمعات الحديثة العهد بها.

خطاب مُتعدّد الدلالات والمضامين، يعكس الواقع اليومي المعاش، وقد ينقده أو يرفضه. خطاب يعكس وضع المجتمع، من خلال طرح قضايا ومشاكله انطلاقاً من مستوى الفرد أو الجماعة، التي تمارس هكذا فعل، حيث أضحت هذه الممارسة تُؤسّس لقيم ومعايير ثقافية خاصّة بفئة ما-غالبًا ما تكون مُهمّشة-، إمّا سياسيًا أو اجتماعيًا أو ثقافيًا. وهذا يعني أنّ الخطاب الجرافيتي يعمل على التعبير عن رفض جزئي أو كلي للثقافة الرّسمية، بل كثير من الأحيان يعمد إلى إعادة تشكيل الخطاب الرّسمي بطريقة هامشية، ومتميّزة بتميّز هذه الفئة الاجتماعية.

في الختام، نشير إلى أنّه كثيراً ما لازم/تلازم النظرة الدونية والتحقيرية والتأثيمية الممارسة الجرافيتية. فمعظم التعريفات المطروحة للتداول تشترك في وصم هويتها بالتخريب والانحراف وحتّى التجريم والتّعدي على الممتلكات العامة والخاصة. سواء من حيث التّسييح المفاهيمي (التعاريف)، أو ثقافة "الوصم (Stigmatisation)" الملحقة بالفاعل/الممارس (المنحرف، المهتمّش، الخارج عن القانون، المجرم...). خاصّة من طرف مندوبو المؤسسات الرّسمية، واعتبارها مؤشراً واضحاً للانحراف يجب على آل الرّسالة القانونية والقوة العمومية مقاومتها.

⁴⁶² يعتبر "أحمد شراك" من بين الباحثين العرب الأوائل الذين إنهجسوا بالممارسة الجرافيتية في المجتمع المغربي تحصلنا على مقاله المحدّد لاحقاً، ولكننا لم نصل لكتابه الذي نشره 2009، إلا بعد صياغة التقرير النهائي لدراستنا.

⁴⁶³ المترصد لتاريخ الأدب العالمي يكتشف أنّ العديد من الشعراء والأدباء استعملوا الجرافيتيا في كتاباتهم، منهم: 'فيكتور هيغو' و'بالزاك' و'نيكولاي'. وكتب ر. دولا بروتون Restif de La Bretonne، كتابا بعنوان 'تسجيلاتي Mes inscriptions'.

⁴⁶⁴ ثقافة "الهيب هوب": نابعة من حركة أمريكية المنشأ بالأحياء الشعبية للسود، نتيجة التهميش واللامساواة احترفت الموسيقى كوسيلة رفض ومطالبة بتحسين الظروف المعيشية، واستعملت "الراب" و"البريك دانس" (وهو نوع من الرقص السريع). والجرافيتيا للمطالبة بضرورة التحرر من عبودية الآخر (الأبيض).

3.6.2. "الكتابات الجرافيتية الطلابية"⁴⁶⁵:

تأسيساً على ما سبق، يمكن تعريفها إجرائياً، بأنها "الآثار الطلابية" التي تجلّت بأكثر من لغة، من خلال كل كلمة أو جملة أو رمز، أو شكل هندسي أو صورة، متباينة الأحجام والألوان، مرسومة أو منقوشة أو مخدوشة -المُوقَّعة/ المُغرَّفَتَة- يدوياً من طرف "الطالب(ة)/ الفاعل". إستخدم في تجسيدها وسائل متعدّدة من (طباشير، أقلام، فحم، شمع، بُراز وأدوات حادّة..)، على وسائط ودعامات Supports متباينة (جدارية، خشبية ومعدنية)، كالجدران والأبواب والأعمدة والمناضد والطاولات، المكاتب والكراسي وما شاكلها...تكتّفت بمختلف تضاريس الفضاء الجامعي (التلمساني). سوسيوولوجياً، نفترض أنّها تجلّي لثقافة ومنه لهوية طلابية مُتميّزة، عبّر عنها جرافيتياً على وسائط ودعامات مُخصّصة لغير هكذا وظيفة أو دور. كتابات تنقل وتعكس المعاش اليومي، من حياة الطلبة الفاعلين (الأسرية، الجامعية والمجتمعية)، في أبعادها المختلفة، فهي (أي الكتابات) صورة/صور للحياة العامّة والخاصة لهذه الفئة، ومنه لتفكير المجتمع ككل، يمكن تشبيهها بـ "Le Tatouage" الذي يُؤشّر على ملامح هوية المؤسسة الجامعية، ومنه هوية فاعليها.

4.6.2. الجرافيتيا وإكراهات الدّعائم:

غالبًا ما تُبنى "الكتابة" وتتطور من خلال خضوعها أو تمرُّدها على الواسطة التي تتمظهر عبرها. فبالنظر إلى تاريخها الطويل، نلاحظ أنّها تخضع للخصوصية والإمكانيات التي تمنحها الأداة التي تتمظهر من خلالها. ثم ما أن تلبث أن تتمرّد مُعتنقةً وسائط أخرى أكثر مُواءمة للتعبير عن محيطها الاجتماعي، وما يُعتمَل فيه من تحولات. وعملية الخضوع -والإخضاع- والتمرد هذه مُرتبنة بشكل كبير بالتطور الاقتصادي والتّقني والثقافي الذي يُحدّثه المجتمع. والذي يُؤثّر في الكتابة، ويعمل على تثويرها، وبالتالي استِؤْلاد أشكال تعبيرية جديدة، ومنه وسائط وحاملات مُتجدّدة.

ففي الحضارات القديمة إكتفى الإنسان بالتّصوير، مُستخدماً مجموعة من الرّموز يَبْنُها في رسوماته التي كانت تُعرّفُ على الجدران الجِصِيّة للكهوف. لِيَتحوّل من الرّسومات الجِصِيّة إلى النّقش على التّمائيل، وهذا التّمط من الرّخرف الجرافيتي وُجِدَ أيضاً على بعض الأُصص - والرّهريّات- ولوحات

⁴⁶⁵ نلفت انتباه القارئ الكريم، أنّه بعد تردّدنا في انتقاء المصطلح المناسب، استقر اختيارنا على التنوع في استعمال المصطلحات ما بين (الكتابات، الجرافيتيا والكتابات الجرافيتية)، لكن، ليس كاستبدال دلالي، وإنّما قصد التنوع وتحاشي تكرار نفس المصطلح. واستعمالنا لمصطلح "الكتابات" أكثر يرجع لأنّ كل التعاريف تشاركت في استخدام نفس الكلمة (الكتابات)، وبأنّ الجرافيتيا "كتابات" غير رسمية. بالإضافة إلى طبيعة معيّناتنا الميدانية التي يغلب على مضامينها المستوى المكتوب من (كلمات، أسماء، جُمَل..).

النُّدُور. كما هو الحال مع حضارة 'الدَّانُوب'. وتَمَّ التَّخْلِي عن هذه الوساطة مع حضارة بلاد التَّهْرِين، التي عرفت إختراع أوَّل كتابة مُصَوَّرة على ألواح "أوروك" والمسمَّاة "المسمارية"، والتي تنوعت فيها أشكال الوثائق الأدبية والقانونية المكتوبة.

أما في عصرنا الحالي فَرَعَمَ تَقْنِين وتَرْسِيم وسائط الكتابة في شَقِّهَا الرَّسْمِي، الورق والسِّجَّلات،.. انتشرت هكذا -غرافيتيا- على دَعَامَات وحَامِلَات خاصَّة، حَادَتْ عَمَّا "تعارف" عليه المجتمع (الرسمي)، حيث غزت هذه الوسائط مُحدِّثة "فوضى بصرية" كما يُلقَّبها بعض أصحاب الحَلِّ والرِّبْط. وضعُّ جعلنا نفترض أنه كلما تطورت التَّقْنِيَّة، تطورت الوساطة ومعها الأشكال الكتابية.

◆ مفهوم الجدار ورمزيته:

لا يستقيم الحديث عن ظاهرة الغرافيتيا دون الخوض في حاملاتها ودَعَامَاتها (Les supports). وفي مقدمتها الجدار. فما علاقته بالغرافيتيا؟ تُشتق كلمة "جدار Mur" من الفرنسية من لفظ "Murus" اللاتينية، التي تعني الجدار المحيط بالمدينة، لتميَّزه عن "Moenia" الأسوار الحربية، التي أعطت كلمة "Murailles"، وعن لفظ "Paries" جدران البناء، التي أفرزت كلمة "Paroi". انجازٌ ينتمي إلى أعرق البقايا والإنجازات الإنسانية، كجدار الصَّيْن العظيم، وأوَّل ما بُني "الجدار" قديمًا من الخشب (مدينة باريس "لوتيسيا" قديماً⁴⁶⁶)، لتتطور مواد بنائه إلى الحجر والطَّين، ثم الإسمنت والحديد، والزَّجاج. أُستخدِم الجدار كمنظومة دِفاعية ضدَّ الغزاة، فوظيفته البدائية كانت -وما زالت- تشمل على معاني الجِماية والحِفاظ على المِلكية، فبُني الجدار والحائط والسُّور والسِّيَّاج، والحِصن والطُّوفَة، بهدف الاحتماء والحماية والدِّفاع، إننا امام "الوظيفة الاحتمالية La fonction "sécurité".

كثيرًا ما لازمت الكتابة -بعد إكتشافها- الجدار، فالمتبصِّر في تاريخ المجتمعات يَقف على تطورات العلاقة بين هذين البعدين من حياة الإنسان. تجسَّدت من خلال ما تركه الأسلاف من فن الكهوف، برسوماته المحفورة والمنقوشة على جدرانها. أمَّا في المجال الفنِّي، تأخذ مفردة "الجدار" معنى اللوحة. عندئذ تخرج كلمة الجدار من إطارها التعريفي العام -الحائط- إلى إطار المكان الذي يحمل هوية للفن التشكيلي. لذا يتحدث آل الفن عن مفهوم "الجدار الفنِّي"، فتصبح كلمة جدار دالة على "الهوية الفنِّيَّة" لصاحبها ولجماعته ومجتمعه. فيصبح لكل مجتمع جدارًا يحمل ملامحه، ويؤكد خصوصياته.

⁴⁶⁶ عند بناء جدار "Le mur des fermiers généraux" سنة 1784، بطول 24 كلم وارتفاع 3 أمتار. انتشرت عبارة مفادها

"le mur murant Paris rend Paris murmurant".

وصحيح أيضاً أنّ الجدار لن يبقى ثابتاً على ثيمات قديمة محدّدة، بل يتجدّد حسب الظروف المعاشة. ومن هنا يتحول المفهوم إلى ثقافة، تحمل خصوصيات مرحلة معيّنة، وتؤشّر لواقع معاش، وعندئذٍ يمكن مقارنته مع جدران عالمية أو عربية⁴⁶⁷.

لكن قد يتساءل البعض عن سبب تخصيص جهداً لهكذا كلمة -جدار⁴⁶⁸- رغم حضورها العادي في فضاءاتنا المتعدّدة. لأنّ الجدار-كما يعتقد الباحثون- يُمثّل معطى سيميوطيقياً، بوصفه شفرة ثقافية تفتح أمام الكثير من الاحتمالات، والانقسامات المتقاطعة التي تختلف باختلاف زوايا إستقراءها. فالجدار ليس بناء ترابي أو خشبي أو معدني فقط، وإنّما يتجاوز ذلك، إنّه رمز التّاريخ الإنساني، وُجد منذ الأزل، حيث عكس-ويعكس- ويسرد لنا تاريخ بانيه وساكنيه ومُلامسيه و"حيطيسيه" (من كلمة حيطيسط الشّبابية). نتحدث عن "وظيفته الهوياتية La fonction identitaire" كما تعتقد "هيلان ياش Hélène Yèche"⁴⁶⁹.

ولأنّ آثار الماضي تتخلّد وتنتسرمّد من خلال نتاجات الممارسة الجرافيتية ذلك لأنّها تحاول سرّمدّة الحضور الإنساني في ذات المكان، حضورٌ تتعدّد أشكاله ومستوياته. ومن هنا يكتسب الجدار دوراً آخر زيادة على دور الاحتماء. إنّه شريط يُسجّل عليه مُنحَى سيرورة التّغير الاجتماعي للفرد والمجتمع. وفضاء "محبوب/مرغوب" للتعبير عن كلّ ما يختلج الصّدر ويستكنّ العقول، يساعد على التّنفيس عن الدّات، ويتحول رمزاً للملاذّ والإلتجاء. يؤكد ذلك "براساي Brassai" بقوله "الجدار ملاذاً لكلّ مَقْمُوعٍ ومَنْبُودٍ ومُضْطَهَدٍ"⁴⁷⁰. وللجدار تمثّلات عديدة في المخيال الاجتماعي الجزائري، حيث كان وما زال مُتَكأً وحامياً للشّباب "الحيطيسط" في "قتل الوقت"، وحامياً لصفقات -رسمية وغير رسمية- للبيع والشّراء، تحوّل إلى حاملاً لهُمومه وآهاته من خلال الفعل الجرافيتي.

⁴⁶⁷ ياسين النصير، "عنف الفرشاة.. مقالات في الفن التشكيلي، رمزية الجدار في الفن"، لاهاي - هولندا، المكتبة الإلكترونية العراقية، 2002.

http://www.iraqiwriter.com/iraqiwriter/Iraqi_Electronic_Library/yasin_alnusair_2/yasin_alnusair_2_2.htm ، تاريخ الاطلاع: 2011/08/24.

⁴⁶⁸ تم اختيار "الجدار" من بين الحاملات الجرافيتية الأخرى لأنّه أكثر الوسائط حَمُولَةً للكتابات الجرافيتية. ولأنّ أغلب الدراسات التي قاربت ظاهرة الجرافيتيا، أجمعت على أسبقيته في احتضانها منذ الأزل.

⁴⁶⁹ Hélène Yèche "Le paradigme du Mur dans le monde contemporain: Évolution et perspectives 1989-2009". Cahiers du MIMMOC - Mémoire(s), Identité(s), Marginalité (s) dans =le Monde Occidental Contemporain, n°5,2010. [URI:http://cahiersdumimmoc.Edel.univ-poitiers.fr/index.php?id=381](http://cahiersdumimmoc.Edel.univ-poitiers.fr/index.php?id=381). Consulté le : 13/07/2012.

⁴⁷⁰ Jean Pierre DE LARGE, "Dictionnaire des arts plastiques modernes et contemporains" (citation de Brassai). Editeur : Gründ, 2001 , p. 122.

و"الجدار المُعْرِفَت" عليه بالنسبة لـ"فرانسوا شرييور François Schreuer" فضاء تعبيرى وتواصلى، يجعل المدينة أكثر حيوية وجمالية، حيث لا نُقلَق عند انتظارنا للحافلات، وكل مجتمع يَمنع منعاً باتاً أفرادَه من الجدران يدفعهم للجنون. وإذا دخلت لمدينة ما ولم تجد جدرانها مَكسُوةً بالجرافيتيا، فأجزم أنها مدينة مَيَّتة⁴⁷¹. وفي الجدار يجد السّياسي أو المتعاطف معه الواسطة المناسبة التي يكتب عليها شعاراته، بُغية تَسويقها لمن يَقْتَنع بها. كل ذلك وأكثر، جعل الجدار حاملاً لذاكرة فردية وجماعية ومجتمعية بامتياز⁴⁷². ومنه يمكن الاستنتاج أنّ الجدار مرآة عاكسة لكل ما يُختلج في ذهن ونفس الفرد (الطالب) من أحلام وتطلعات وهموم ومشاكل وحيل... تجسدت في أشكال تعبيرية رافضة، عابثة ومختلصة فُرَصَ البوح بها. فهي نمط من أنماط إثبات الذات، وإن بطريقة غير مُتعارف عليها في تقاليد الثقافة التّنظيمية للمؤسسات المجتمعية-الجامعية.

ختاماً، يجب التذكير بما يسميه بعض الباحثين بالجدران اللامرئية، التي تتواجد في فضاءاتنا الاجتماعية (فكرية، ثقافية، هوياتية...)، إذ غالباً ما تفصل بيننا كأفراد وجماعات، جدران غير مرئية تُحدُّ من التفاعل الاجتماعى الفعّال، ومنه التّعاش الاجتماعى الايجابى، بعيداً عن أعراض الصّراع الجهوى، والتّمييز الجنسى والقبلى والفئوى⁴⁷³. إنّنا أمام عودة الجدران. Le retour des murs. كما تشير "Hélène Yèche".

7.2. المراهقة.. فترة الانهجاس بالهوية:

تُعدُّ "المراهقة" من أكثر مراحل النّمو إثارة للشّباب، والباحثين في مجال العلوم النفسية والاجتماعية، لما لها من طبيعة خاصّة من حيث اتّساع مساحتها التي تحوي جُملة من التّغيرات الجسمية والنّفسية والانفعالية والاجتماعية، تكون بمثابة مؤشّر على بناء جديد قد بدأ يتفّتح. ولا شك أنّ فشل المراهق في تحقيق مطالب وتحديات مرحلته يجعله يشعر بالاعتراب، بمعنى تَشَتَّتِ الأنا أو الشّعور بعدم تعيين الهوية.

⁴⁷¹ François Schreuer, "De la couleur sur les murs", novembre 2006. <http://francois.Schreuer.org/articles/20061100tag>. Consulté le:11/01/2009.

⁴⁷² جعلت -مثلاً- كل من "Serge & Marie Thérèse Ramond" يُؤسّس متحف "ذاكرة الجدران" Le Musée de la mémoire des murs "جمعا فيه الآلاف من المنتجات الجرافيتية التاريخية (الرسمية) والمعاصرة (الغير رسمية). للاستزادة أنظر الموقع: <http://memoiremurs.pagesperso-orange.fr/graffiti.html>.

⁴⁷³ كتب "إبراهيم محمود" مقالا لقي رواجاً ملفتاً بعنوان: "الجدران اللامرئية: العنصرية ضدّ السّود: عنصريّاتنا المتزاحمة، 2009. فسّر ما سماه بـ"العنصريّات الفلكلورية" التي نتغنى بها دون أن نعيّ أنها جدران لا مرئية نساها في تثبيتها في مجتمعاتنا.

يَتَّفِقُ معظم علماء النفس والاجتماع على أنّ كل مرحلة عُمرية تتأثر بما قبلها، وتمهد لما بعدها من المراحل. كما أنّ كل مرحلة تحتاج إلى تكيّف من نوع خاص، يختلف عمّا كان الفرد قد تَعَوّد عليه قبلاً. فالمرحلة فترة عُمرية تبدأ بنهاية مرحلة الطفولة المتأخرة، تتباين من مجتمع لآخر، بل حتّى في المجتمع الواحد، من طبقة اجتماعية لأخرى، تبعاً للظروف الاقتصادية والثقافية. فقد تنعدم في المجتمعات البدائية-كما أشارت إليه "مارغريت ميد M. Mead"- بينما تطول في المجتمعات الحديثة⁴⁷⁴.

والمرحلة ليست ظاهرة جديدة، لكنّ الجديد فيها هو الطريقة التي أضحت تُترجم بها. ووفقاً لآل الاختصاص نُواجه اليوم نوعاً جديداً من المراهقة، إذ تبدأ هذه الأخيرة في سنِّ أبكر، على الأقل ظاهرياً، وتمتدّ إلى مرحلة متأخرة. يصبح الصّغار أحياناً مراهقين قبل سن البلوغ، فيتحولون إلى رجال صغار، أو نساء صغيرات ظاهرياً. يعود ذلك-حسبهم- إلى النزعة العامة للحفاظ على الشّباب، إلى حدّ أن الفرق بين الأجيال يتضاءل تدريجياً. من حيث التّحقيب يقسم الأستاذ "أحمد فؤاد الشربيني" مرحلة الشّباب (المراهقة) إلى أربعة مراحل فرعية، وهي:

مرحلة المراهقة: تمتد من 12-15 سنة تقريباً، يصاحبها تغييرات فسيولوجية.

مرحلة اليُفوع: من 15- 18 سنة، فيها استمرار النضج الجسدي.

مرحلة الشّباب المبكر: من 19- 21 سنة، وفيها تتّجه التّغييرات الوجدانية والنفسية نحو الاستقرار.

مرحلة الشّباب البالغ: من 21- 30 سنة تتم فيها عمليات النضج العضوي والقدرة على التكيف مع

ظروف الحياة⁴⁷⁵.

يفترض بعض علماء النفس (الطفولة والمراهقة)، أمثال "آرنولد جيزل Arnold Gisel" أن أسباب المراهقة تعود إلى ما يتعرض له المراهق من ظروف اجتماعية واقتصادية، وعوامل وراثية أحياناً، وهذه الظروف لها تأثير كبير على مرحلة الطفولة السّابقة، فالطفولة التّعبئة، والدّلّال الرّائد، والقسوة، والحرمان، والمرض، والجهل، والفقر، وفقدان أحد الأبوين أو كليهما، ونقص الغذاء، أو تحكّم بعض الدّوافع اللاشعورية، والعُقد السّابقة في تصرفات الآباء اتجاه الأبناء. إلخ.

كل ذلك يؤدي إلى العديد من المشاكل والأزمات الشّخصية والفكرية والاجتماعية والوجدانية والجسمية. بدوره يصف "ستانلي هال Stanley Hall" هذه المرحلة مرحلة أزمات ومحن، وأنّها متعددة المشكلات-المُستثارة مجتمعيًا- ولا يمكن للمراهق تجنّب ذلك بيسرٍ.

⁴⁷⁴ عباس محمود عوض، "المدخل إلى علم نفس النمو: الطفولة-المراهقة-الشيوخة"، دار المعرفة الجامعية 1999، ص 139.

⁴⁷⁵ أما "ج. ستانلي هال G. Stanley Hall" فيعتقد أنّها تدوم حتّى السنّة الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين.

أما الأنثروبولوجيون فيشيرون إلى أنّ مشكلات المراهق نتاج للقيود التي تفرضها الحضارة (الثقافة) التي يتربّى فيها الفرد. بدوره يؤكد رائد السوسيولوجيا المعاصرة "ب.بورديو P. Bourdieu" أنّ الشّباب ظاهرة اجتماعية وتاريخية، تستمد جذورها الاجتماعية من الوضعية الانتقالية التي يعيشها الشّباب، فهي بالأساس ثقافية وليست طبيعية، وهي تتفاوت وتختلف من مجتمع إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، وحيث داخل المجتمع الواحد⁴⁷⁶. فالعلاقة بين الشّباب والمجتمع تُمرّ أساسًا عبر المؤسّسات التربوية، بواسطة ما يُؤطّر (يُضخّج) المجتمع الشّباب، ويُحدّد لهم حقوقهم وواجباتهم، فعبهما تتحقق "اجتماعية الفرد La sociabilisation de l'individu" على حدّ تعبير "إ.دوركايم". ويلخص المختصون المشكلات التي تعترض المراهق بصفة عامة، في الأنواع الآتية: مشكلات أسرية وعائلية، اقتصادية، مادية، صحّيّة وعضوية، دينية وخلقية، التعامل مع وقت الفراغ، مشكلات تتعلق بمستقبله التعليمي والمهني، مشكلات سياسية، نفسية، عاطفية، جنسية وأخرى مدرسية، أكاديمية.

يشكّل هكذا عبور (انتقال) من مرحلة إلى أخرى- من الثانوية إلى الجامعة - فترة أساسية من الوجود لأنه يسمح للطالب (المراهق) ببناء معالم شخصيّته، إذ تُعتبر الأسرة والمدرسة والأصدقاء من بين الفضاءات التي تؤثر-إمّا سلبيًا أو إيجابيًا- في تشكيل هويته. وكنتيجة تكاد تكون حتمية، يتعرض المراهق في رحلة بحثه عن معالم هويته، لما يُسمّى بـ"أزمة المراهقة". مما -قد- يولّد أزمة هويّة عنيفة، ظاهرة أو خفيّة. لذلك، يعيش المراهق فترة حدّاد على طفولته الماضية، ويشعر بضرورة فعل خطوة باتجاه عالم جديد (عالم الرّاشدين). يخطو البعض هذه الخطوة عبر بعض ما حوله بالتّمرد عليها، في حين يكتفي البعض الآخر بالانطواء على نفسه (مراهقة انسحابية).

يُجمع علماء النفس على أنّ مرحلة المراهقة تعرف طفرة نوعية في عملية التّشخّص، إذ يعتقد "Pierre Tap"، بأنّها فترة مهمة للتّماهي L'identification⁴⁷⁷. وأنّ أعسر المهمّات التي تواجه المراهق هي تطوير هويته الدّاتية، لتكون أكثر استقرارًا. أمّا "جيمس مارسيا James Marcia" فوضع أربعة مكانات للهوية: تحقيق الهوية؛ وتمثّل في تعهد الفرد بأداء عمل من الأعمال، قد وقع عليه

⁴⁷⁶Entretien avec Anne-Marie Métaillé, paru dans: «Les jeunes et le premier emploi», Paris, Association des Ages, 1978, pp.520-530.Repris in: «Questions de sociologie», Editions de Minuit, 1984, Ed. 1992, pp. 143-154.

⁴⁷⁷ Pierre Tap, " Masculin et féminin chez l'enfant", Saint-Marc Claude, Revue française de pédagogie, v 79, n° 1, 1987,pp. 96 .98. In: <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/rfp0556-78071987num7912421t1009600002>. Consulté le: 18 7/2011.

الاختيار من بين اختيارات عديدة، ويقضي هذا الأخير وقتاً كافياً لتحديد هدفه من الحياة، واعتبار الذات والقيم التي يعتقد بها، ولديه تعهد شخصي يُناضل من أجل تحقيقها.

تعويق الهوية: وتخص الشخص الذي لا يتعهد بشيء معين يلتزم به، وليس لديه إحساس بأزمة الهوية، لكنه يعتمد على الأهداف والمعتقدات التي أُقترحت من طرف الآخرين، دون وضع اعتبارات للخيارات الممكنة الخاصة به.

انتشار الهوية: يعاني المراهق صاحب الهوية المنتشرة من أزمة الهوية، وليس لديه تعهد لخطة ما من خطط الحياة، أو إرساء مبادئ عامة. عادة ما يتصف بالتقدير المنخفض للذات والعلاقات مع الغير.

تعليق الهوية: تتعلق بالشخص الذي يميل إلى البحث عن هويته الشخصية، حيث يحاول التوصل إلى ذلك، غير أنه يصطدم بمعوقات عدّة، ذلك لأنه يتصف بإعطاء وعود وتعهدات والتزامات أعلى من إمكاناته الشخصية⁴⁷⁸. ويعتقد "مارسيا" أنّ معظم الأفراد يتوصلون إلى تحقيق هويتهم -جزئياً- خلال المراهقة المتأخرة، خاصة خلال التعليم الجامعي⁴⁷⁹.

حتى لو كانت المراهقة ظاهرة خاصة بالمراهق، إلا أنّها تؤثر وتتأثر بمحيطه بكل دوائره. إذ غالباً ما يسعى المراهق خلال "الأزمة التّرجسية" إلى لفت الانتباه لإيجاد مكانته ضمن الآخرين، فيحاول التّميّز عنهم مع أنّه يبقى بحاجة إليهم لتحديد إطار هويته. فقد يعترض على كلّ شيء، ويبحث عن حدود لتصرفاته وسلوكاته، بهدف اختبار مدى مقاومة محيطه (الأسرة وما ينوب عنها في التنشئة، كالمدرسة والجامعة)-إنّه أمام تحديات تشكيل هوية أناه-. يحاول معرفة إذا كانت الحدود التي تُرسَم له حقيقية أم زائفة، ومدى صمود الفاعلين الآخرين أمام مخالفاته (المقصودة والغير مقصودة). قد يعرض نفسه للمخاطر ويأتي بتصرّفات تستحق العقاب. غالباً ما يذهب المراهقون إلى ما وراء حدود المعقول لاختبار قدراتهم وتأكيداً لإنجاحهم. غالباً ما تُوسَم/توصم المراهقة بسِمات اجتماعية، تنتشر وتتقاد مع مرور الوقت في توصيف من يَلجونها، إذ تشكلت في التّصور الاجتماعي المهيمن -الجزائري ومنه العربي-، فكرة شائعة مفادها أن تكون مُراهقاً هو في حدّ ذاته أن تكون مُختلفاً، بل أن تكون غريباً، ومُتمرّداً في سلوكياتك. وبمقدار ما تزداد النّظرة إلى الفرد على أنّه غريب، بمقدار ما يزداد النّظر إليه على أنّه مراهق. وهذا ما يزيد من حدّة المُعاناة.

⁴⁷⁸ د. بشرى احمد العكايشي، "تشكل هوية الأنا والتحديات الثقافية التي تواجه الشباب الجامعي"، كلية التربية للبنات، جامعة

بغداد، مؤسسة الفكر العربي، 2010. الملخص على موقع المؤسسة: <http://www.arabthought.org>.

⁴⁷⁹ Helen Bee, Denise Boyd, "Psychologie du développement: Les âges de la vie", 2^e éd, Ed: De Boeck, 2003,p 275.

8.2. عشر مقاربات منهجية لدراسة الظاهرة الجرافيتية

سنحاول الآن ترصد أهم المقاربات الميتودولوجية التي ابتدعها واستتبها الباحثون، لأجل استنطاق المنتوج(ات) الجرافيتي(ة)، واستجلاء مستوياته المضمرة، سواء في الفضاءات المغلقة أو المفتوحة. مما جعلها-ظاهرة الجرافيتيا- تتموضع بين عدة تخصصات علمية، نذكر من بينها، تاريخ الفن، الأركيولوجيا، الأنثروبولوجيا، علم الفلكلور، علم اللسانيات، علم الإجمام، علم النفس، التحليل النفسي، علم الاتصال، علم الاجتماع -بإختلاف تخصصاته (علم الاجتماع الحضري، الثقافي، التربوي، علم الاجتماع الفن،...)-، لأسباب متنوعة كما يعتقد "شيبال دين Scheibel Dean"⁴⁸⁰.

رغم ذلك، يُجمع الدارسون للجرافيتيا على واجهتهم لعوائق أساسية تعترض أي باحث يتجرأ على دراستها، أبرزها إشكالية المقاربات المنهجية الملائمة، مما اضطرهم لصياغة وتبنيّت عدة مقاربات لتيسير مقاربتها علمياً⁴⁸¹، من أبرزها:

➤ المقاربة الثقافية Culturaliste :

كثيرا ما استخدم آل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا هكذا مقاربة في محاولات استجلاء أواليات إشغال الممارسة (الظاهرة)، باعتبارها عاكسة ومعبرة عن تمثلات وتصورات جماعة اجتماعية معينة، أو جماعة إثنية محددة. حيث يتم استثمار كامل المعطيات المتاحة قصد تحليل كل كلمة أو شعار أو جملة أو رمز أو صورة، بالتركيز على اللغة المستعملة، نوع الحامل Support ومضمون المادة... إلخ. قصد الكشف عن مميزات الحياة العادية اليومية لهذه الجماعة أو الجماعات، من خلال إبراز خصائص الثقافة الخاصة بهم كمجموعة متميزة، والمسئلة حول ملامح هوية هذا الخطاب الجرافيتي. وهوية هذه الثقافة التي ينتمي إليها سواء تعلق الأمر بثقافة الضد، ثقافة النخب، الثقافة الجماهيرية، الثقافة الفئوية... إلخ.

يعتبر "جون بوشنل Jean Bushnell"⁴⁸² من أشهر الباحثين الذين فعّلوا وطوّروا هذه المقاربة في حقل العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، حيث ركّز في دراساته على المادة الجرافيتية لتبيان ما هو مهم بالنسبة لسكان العاصمة "موسكو Moscou"، خاصة الجماعات الشبانية (Les

⁴⁸⁰Scheibel Dean, "Graffiti and film school culture: Displaying alienation", Communication Monographs, 61, 1994, pp. 1-19.

⁴⁸¹ نشير أن كل المقاربات باستثناء "المقاربة الحضرية" ملخصة من مقال الباحث "Jane M. Gadsby" ♦

♦ Jane M. Gadsby, Looking at the writing on the wall: A critical review and taxonomy of graffiti texts, 1995. In: <http://www.graffiti.org/faq/critical.review.html>. Consulted: 4/7/10.

⁴⁸² Jean Bushnell, Moscow Graffiti, Language and Subculture, Boston, 1990.

(gangs) المشكّلة من الفاعلين الجرافيتين. حيث إستخدم الكتابات 'كبارومتر' لقياس أثر التّغير الاجتماعي على حياة الأفراد والجماعات، واستخلاص أهم السمات الثقافية المشتركة والمُميّزة، ذلك لأنّها تعكس طبيعة المجتمع الذي أفرزها. ونفس المنحى ذهب إليه "طوني كوهان Tony Cohan" (1975)⁴⁸³ حينما قارب الظاهرة كتمثيلات هامة للثقافة الخاصة /الفرعية La culture spécifique⁴⁸⁴.

➤ مقارنة النوع/ الجندر Le genre

يعتقد بعض الباحثين بأنّه ما دامت المراحيض تفصل بين بني البشر على أساس النوع والجنس (ذكور، إناث)، يمكننا دراسة جرافيتي المراحيض Restroom graffiti، بالتركيز على مبدأ النوع (نوع المضامين) دون التركيز على موقعها (حاملاتها)⁴⁸⁵. إلا أنّ هذه المقاربة تبحث عن أوجه التشابه بين الكتابات على أساس النوع، بدل تركيزها على أوجه التباين والاختلاف. تمكّن كل من "جين كيلسو Jane Kelso" و"برونر إدوارد Bruner Edward" (1980) من إحصاء العديد من الدّراسات الكميّة حول الظاهرة، واستخلصا بأن هناك إختلافات وتباينات تركز على مُتغير النوع (الجندر)، أي التباين بين الكتابات الذّكورية والكتابات الأنثوية⁴⁸⁶. كما إستنتج "أنج ليوندري Ange Leandri" بعض أوجه التباين بين الجرافيتيا النّسائية (الأنثوية) والجرافيتيا الرّجالية (الذّكورية)، تتّصف الأولى بمضمونها المُحتشّم والعاطفي الحساس، أمّا الثانية، فتتميز بالفُحش والسّماجة والعُدوانية. كما تُصنّف دراسة الباحث "ألوي بريتان Olowu Britain" ضمن هذه المقاربة، حيث قام بدراسة سنة 1983، إستجمع خلالها مجموعة من الكتابات الجرافيتية من المراحيض الخاصة بالطلبة الجامعيين (ذكور)، المنتسبين لبعض الجامعات البريطانية ونظيرتها النّيجيرية، وقارن بينها، ليستنتج أنّ أكثر الكتابات حضورًا بالمراحيض النّيجيرية، تلك التي تُعبّر عن الاعتقادات الخُرافية والروحانية Superstition and animism. ما العينة البريطانية فأكثرها انتشارًا جرافيتيا المثليين

⁴⁸³Cesaretti, Gusmano, Street writers: A guided tour of chicano graffiti, Los Angeles, CA , Acrobat Books, 1975.

⁴⁸⁴ للتذكير، اعتمدنا في دراستنا هذه على المقاربة الثقافية بالدرجة الأولى.

⁴⁸⁵ يمكن التفصيل في المسألة بالرجوع الى:

Arnold Arluke & Lanny Kutakoff & Jack Levin, "Are the times changing?, An analysis of gender differences in sexual graffiti, sex roles", vol 16, n° 1-2, 1987, pp. 1-7.

⁴⁸⁶ Bruner, Edward M. & Jane Paige Kelso, "Gender differences in graffiti: A semiotic perspective", Women's Studies International Quarterly, n° 3, 1980, pp.239-252.

Homosexuality، التي غابت في عينة المراحل التجريبية⁴⁸⁷. إلا أن هذا النمط من التحليل كثيراً ما يُهمل الأوجه الأخرى للظاهرة، كالثقافية، أو طبيعة الدّعاء.

➤ المقارنة اللّسانية/ اللّغوية : Linguistique :

من خلال ما يعكسه العنوان يتضح أن هذه المقاربة، تجعل اللّغة أساس تحليلها للظاهرة، حيث أُجريت بعض الدراسات اللّسانية الأصيلية حول الموضوع، انطلقت من مسلمة تتعامل مع النصّ الجغرافي كغابة من الرّموز لها دلالات وأبعاد متعدّدة، تؤشّر على -محاولة- إمتلاك رمزي للفضاء الحضري. فعمل كل من "دافيد لاي David Ley" و"رومان سيبريويكي Roman Cybriwsky" على مقارنة الظاهرة وفق المقاربة اللّغوية اللّسانية، ليخلصا إلى أن الجغرافيتيا عبارة عن مُحدّدات إقليمية تفصل بين مناطق السّيطرة الخاصة بكل عصابة من عصابات الجغرافيتي⁴⁸⁸. كما نشرت "سيلفيا غريدر Sylvia Grider"⁴⁸⁹ دراسة عن مُنتجات المجموعات الشّبابية بالأحياء الشّعبية، وخلصت إلى أن نوع اللّغة المستخدمة، هجين من اللّغة الأمريكيّة والمكسيكيّة لحماية رسائلهم الخاصّة بهم من الآخر، إنها تُشابه لغة الإشارة المُستخدم في العمل العسكري. لتليها دراسة الباحث "ألان وولكر ريد Allen Walker Read" بعنوان "Classic American Graffiti" 1977.

➤ المقاربة الفولكلورية : Folklorique :

تعتمد هذه المقاربة على جمع أكبر عدد ممكن من الوحدات الجغرافيتية، ليتم التّركيز فيها على الأبعاد الفولكلورية، من خلال تحليل مضامين المعطيات، أو تحليلها من خلال المساحات المتعدّدة الجبلي بالمنتوج الجغرافيتي. حيث سافر "أريد A. Read"⁴⁹⁰ نهاية العشرينات عبر العديد من المتنزّهات

⁴⁸⁷ Emma Otta & Paulo Reinhardt Santana, "Musa Latrinalis: Gender differences in restroom graffiti", Psychological Reports, Institute of Psychology, University of Sao Paulo, 1996, pp.78,87. In: http://www.ip.usp.br/portal/images/stories/Articles/1996OttaLafraya_HoshinoTeixeiraVallochiSantanamusalatrinalis.pdf. Consulted:17/07/2011.

⁴⁸⁸ David Ley; Roman Cybriwsky, "Urban graffiti as territorial markers", Annals of the Association of American Geographers, vol. 64, n°.4. (Dec.1974), pp. 491-505. URL: <http://links.jstor.org/sici?sici=0004-5608%28197412%2964%3A4%3C491%3AUGATM%3E2.0.CO%3B2-H>. Consulted:12/1/2009.

⁴⁸⁹ Grider, Sylvia Ann. "Con Safos: Mexican-Americans, names and graffiti," published in Journal of American Folklore, Vol. 88, pp.132-142, 1975. In: <http://www.graffiti.Org/faq/graffitibiblio.html>. Consulted: 14/2/2010.

⁴⁹⁰ Allen Read Walker, "Classic American graffiti: Lexical evidence from folk epigraphy in western north america: A glossarial study of the low element in the English vocabulary", publisher: Maledicta (Waukesha, Wis. USA),1977,83p. In: <http://www.getcited.org/pub/101667479>. Consulted:12/05/2010.

(الحدائق) العامة بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث سجّل الكثير من الكتابات الفلكلورية، التي وجدها على الجدران والأشجار، المقاعد، الأبواب،..إلخ. مع التركيز على تاريخ الكتابة، ودعامة (support) الكتابة، كان هدفه فقط حفظ هذه الكتابة للمستقبل. تعكس الجرافيتيا حسب هذه المقاربة خصائص الفنون الشعبية لكاتبها.

➤ المقاربة الكميّة Quantitative :

تتميّز هكذا مقاربة ببعدها التّصنيفي الإحصائي، حيث يهدف الباحثون من خلالها إلى تصنيف المنتج الجرافيتي على أساس النوع، أو المحتوى، أو أيّ معيار آخر، يمكن التّمييز به بين هذه الكتابات. تمكّن كل من "ميكائيل مارتن Michael Martin" و"جون باتس John A. Bates"⁴⁹¹، من استخلاص ستة عشر نوعاً من الجرافيتيا، المتباينة، التي غزت الحرم الجامعي بمدينة "Massachusetts"، وكان تقييمهما الإحصائي للمادة المجموعة على أساس عدّد الإجابات بـ "نعم" أو "لا"، حول موضوع مُحدّد يُختار قبلاً. لتكشف أنّ الطالبات أكثر ممارسةً للجرافيتي من الطلاب، خاصة في المراحل حول مسائل جنسية.

➤ المقاربة الفنيّة والجماليّة Esthétique :

تركّز هذه الأخيرة على الأبعاد الفنيّة والجماليّة للمنتج الجرافيتي (خاصة ما يسمى "بالفن الجرافيتي Graffiti art"، تجتهد لإستظهار خصائصه الجماليّة الفنيّة، لتسليمها بوجود أوجه تشابه بين الفن والجرافيتيا. حيث قام كل من "كيرك فارنيدو Kirk Varnedoe" و"غوبنيك آدم Adam Gopnik"⁴⁹² بتفعيل مقارنات وموازات هامة بين "فن الجرافيتي" والأعمال الفنيّة المرسمّة (المُشْرَعَنَة)، للعديد من الفنانين المعروفين (رسمياً). وغالباً ما تُدعم الدراسات التي تستثمر هكذا مقاربة تحاليلها بصور 'راقية' من المنتج الجرافيتي، يمكن مُجاراتها بفن "بيكاسو Picasso" و"ليوناردو Leonardo" و"موني Monet"⁴⁹³. بدوره يتساءل الدكتور "جورج ستوار George C. Stowers"، قائلاً: لنفترض أنّ أحد هؤلاء الفنانين، كان حيّاً ونزل بجانب مَنْزلك لرسم تُحفّة فنيّة

⁴⁹¹ Michael Martin, John A. Bates, "The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes", Journal of Sex Research, vol16, 1980, pp.300.315. In: <http://www.informaworld.com/smpp/content~db=all~content=a918465630~frm=titlelink>. Consulted: 10/2/2008.

⁴⁹² Varnedoe, Kirk and Adam Gopnik, "High and Low: Modern art, popular culture", New York: Museum of Modern Art, 1991.

⁴⁹³ George C. Stowers, "Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art", 1997. In: <http://www.graffiti.org/faq/stowers.html>. Consulted: 20/10/2009).

- جميلة، فهل تمنعه؟. ربّما تَبَايَنَت رُودُ الأفعال، لكنني أزعج -الكلام للدكتور- أنّ الأغلبيّة سَتُرَجَّب بذلك.
- كما تتموضع مثل هذه الدّراسات في سياق "سوسيولوجيا الفن Sociologie de l'art".
- من خلال إطلاعنا على العشرات من الدّراسات التي إعتمدت بالدّرجة الأولى على هذه المقاربة، إستنتجنا مجموعة من "الأوصاف" التي أُلْحِقَت (وُصِمَت) بها الممارسة/الظاهرة الجرافيتية، منها:
- الجرافيتيا عبارة عن "فن الشّوارع".
 - تعبّر عن "الفن الغاضب".
 - بل "الفن المتمرّد/ المتشرّد" حسب "لاني بايل Lany Bayle".
 - "الفن المُشاكِس".
 - "فَن الرُّذَاز Spray Art" (نسبةً لعلبة الرُّذَاز التي يَسَّرَت انتشار الممارسة خلال نهاية السّبعينيات).
 - "فَن الطبقات المحرومة والفَقيرة والمُهْمَشَة".

➤ مقارنة الدّوافع Motivationnel:

لماذا يلتجئ الأشخاص إلى الكتابة الجرافيتية؟، ما الدّوافع الثّاوية وراء ذلك؟ وما أسباب ذلك؟. أسئلة وأخرى متشابكة، تروم هذه المقاربة للإجابة عليها، بالتركيز على الدّافع الفردي للفعل. فإستجلاء هكذا دوافع فردية، يُمكننا من إستخلاص الدّوافع المشتركة بين الأفراد، ومنه الدّافع العام، الذي يمثّل نقطة تشارك قيم ثقافية بين الجماعة المُمارِسة للجرافيتيا. العديد من الباحثين في علم النفس والسوسيولوجيا إستثمروها، من أمثال "إرنست آبل Ernest L. Abel" و"باربارا باكلي Buckley".

Barbara E⁴⁹⁴، و"ريجينا بلوم Regina Blume". تصنّفت الباحثة "ر. بلوم Regina Blume" (1985)، دوافع الالتجاء للممارسة الجرافيتية، في فئات تضمّنتها مختلف الدّوافع المُندسّة وراء الفعل الجرافيتي، لخصتها في مجموعتين رئيسيتين، تتفرّع منهما ثماني مجموعات فرعية⁴⁹⁵. قمنا بترجمتها من خلال الرّسم البياني التالي:

⁴⁹⁴ Abel, E & Buckley, B. "The handwriting on the wall: Toward a sociology and psychology of graffiti", Westport, Greenwood Press, 1977, 156 p.

⁴⁹⁵ Regina, Blume, "Graffiti: Discourse and literature". Ed, T. A. Van Dijk, (vol:3, (Critical Theory), Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins Publishing Company, 1985. pp.137-148.



الشكل رقم 2: دوافع الفعل الجرافيتي حسب "REGINA BLUME" (الصورة الخلفية عينة من جرافيتيا ماي 68 بفرنسا).

إلا أن ما يؤخذ على المقاربة أنها تفتح الباب على مصراعيه للذاتية الباحث في التفسير والتأويل.

➤ المقاربة الوقائية Préventive :

تشكلت هذه المقاربة نتيجة نداءات "رافضي الجرافيتيا" من سياسيين ورجال أمن ومواطنين تضرروا منها (خاصة في كلفتها التنظيفية). أين اعتبرت الممارسة "مرض اجتماعي خبيث (سرطان)" يستوجب المعالجته السريعة والعميقة، للقضاء عليه بكل الطرق. ويعتبر "فرانك كوفيلد Frank Coffield"⁴⁹⁶ من أشهر ممثلي هذا الاتجاه، من خلال مؤلفه الذي يقترح من خلاله العديد من الكيفيات المختلفة للحدّ والوقاية منها ببريطانيا، كالحملات التّحسيسية، التربية المدنية، تنظيف الجدران، تشديد العقوبات...). كثيرا ما تتشارك هذه المقاربة مع مقاربة أخرى تسمى:

➤ المقاربة المدينية/ الحضريّة Urbaine :

تنطلق هذه المقاربة من محاولة تفهم العلاقات الممكنة بين الخطاب الجرافيتي والفضاء المدني، بطرح التساؤل التالي: هل يعتبر الخطاب الجرافيتي خطاباً مدينيّاً، أم خطاباً مُتميّزاً؟. حيث يعتقد الباحثون في الموضوع أنها (الجرافيتيا) إنتشرت بهكذا طريقة نتيجة الإختلالات الوظيفية للمؤسسات

⁴⁹⁶ Frank Coffield, "Vandalism & graffiti: The state of the art", Publisher: Calouste Gulbenkian Foundation (London), 1991, 128 p.

الحضرية والمدينية التي أفرزت ظواهر اجتماعية متعددة كالتهميش والاقصاء الحضري. وغالبًا ما تُموضع هذه الدراسات ضمن السوسولوجيا الحضري La sociologie urbaine .

➤ المقاربة العامية/الشعبية Populaire:

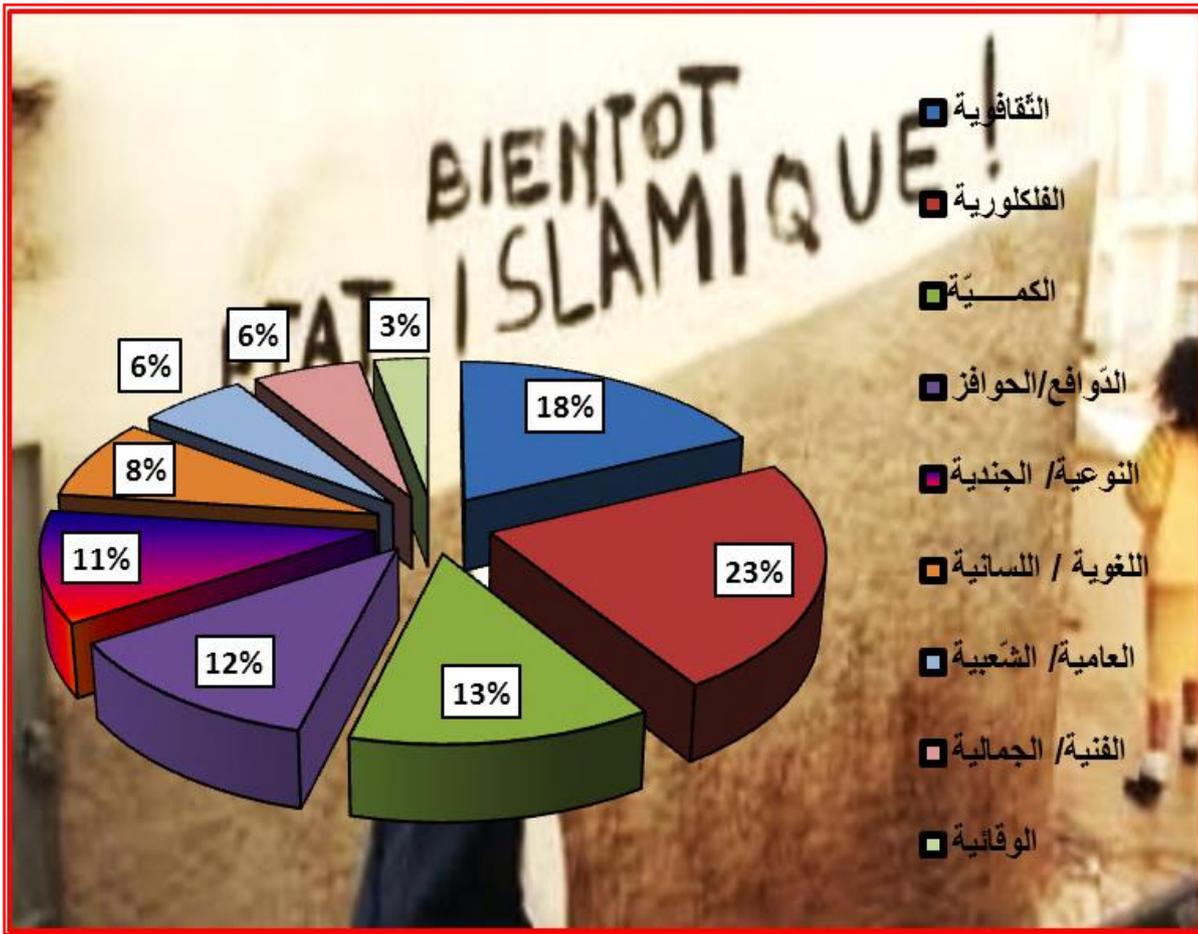
تعتبر كتب السخرية والفكاهة من بين أنواع المؤلفات التي لها رواج كبير بين أفراد المجتمع، بإختلاف خصائصهم الاجتماعية والثقافية، نظرًا لميزتها الترفيهية والتنفيسية، ما جعلها أكثر شعبية أمام باقي المنتج المعروض في السوق الثقافية. وضع شجع بعض جامعي المنتجات الجرافيتية من تكيفها وفق قواعد السوق من بالإعتماد على مقارنة عامة تنتقي المواد على حسب رغبة الباحث والمستهلك في التسلية والتفكّه.

تعرضت لانتقادات عديدة جعلتها من المقاربات البعيدة عن العلمية، بالمقارنة مع سابقتها. إذ يعتبرها البعض سوى تجميع للجرافيتيا بكل أنواعها، بهدف تسلية القارئ لا غير، أي دون الغوص في تحليل مغزاها الممكن، عوض استجلاء مدلولها السوسولوجي أو السيكولوجي أو الأنتروبولوجي حيث تخضع في جمعها لذاتية الباحث في اختيار الكتابات المسلية لا أكثر. من بين من يمثلها الباحث "ج. روبرت كولومبو John Robert Colombo" في مؤلفين له (1983/1975)⁴⁹⁷.

ولتوضيح الأمر أكثر نستعرض المقاربات السالفة -ما عدا المقاربة المدينية/الحضرية- من خلال ترجمة الشكل الذي صاغه الباحث "جين كادسي Jane M. Gadsby" لبيّن المقاربة الأكثر استخداماً في البحوث (107) التي إنتقاها كعينة لدراسته⁴⁹⁸.

⁴⁹⁷ John Robert Colombo, " Colombo's little book of canadian proverbs, graffiti, Limericks and other vital matters", compiled by; Peter Whalley & David J. Shaw , Hurtig Pub, 1975, 143 p.

⁴⁹⁸ Jane M. Gadsby , op, cit.



الشكل رقم 3: نسبة استخدام كلّ مقارنة حسب "Jane M. Gadsby"⁴⁹⁹

من خلال الرّسم البياني يتبين لنا الحضور الشّبة واسع للمقاربة الفلكلورية (بنسبة 23%)، وتليها المقاربة الثقافيّة (بنسبة 18%)، ثم تردفها المقاربة الكميّة التي لقيت رواجاً خلال سبعينات القرن الماضي، بينما تكاد تغيّب المقاربة الوقائيّة، ربّما لعدم فعاليتها اتجاه الفاعلين الغرافيتين. لكن، يجب الإشارة إلى أنّ معظم الدّراسات (خاصّة الأمريكيّة والكنديّة)، اعتمدت أكثر من مقارنة منهجية لتفكيك أواليات اشتغال الظاهرة. فعلى سبيل المثال دراسة الباحثة "دايفيس كاثرين Davies Catherine"، التي زاوجت بين مقاربات عدة، بين المقاربة التّوعوية/الجنديّة والمقاربة، ومقاربة الدّوافع. وفي ذات السياق يشير الأمريكي "Jane M. Gadsby" إلى أنّ أعتى الباحثين يُقرّون بأنّ الدّراسات التي لها أكبر مصداقية علمية، تلك التي تستثمر أكثر من مقارنة. في الأخير، نرجو أنّنا تمكنا من التّعميد المفاهيمي والمنهجي لدراستنا، رغم إدراكنا أنّ هكذا عملية تبقى مسألة خلافية وجدالية، ومتعدّدة الأبعاد والمرجعيات النظرية والابستمولوجية.

⁴⁹⁹ الصورة (الكتابة) الخلفية للتمثيل الدائري، مأخوذة من على جدار بمدينة جزائرية، تزامن ذلك مع حُصّي تشريعات 2012.

الفصل الثالث:

ملاح الهوية الطلابية من خلال المُتون الجرافيتية

1.3. إشكالية تصنيف الكتابات الجرافيتية

2.3. تجليات الهوية الطلابية من خلال المضامين الجرافيتية

3.3. مضامين الكتابات الجرافيتية الطلابية

4.3. مُستثيرات الممارسة الجرافيتية بين الدافع والحافز

5.3. ملاح الهوية الطلابية بين سرّ المكبوت وسحر المكثوب

الفصل الثالث: ملامح الهوية الطلابية من خلال المُتون الغرافيتية

نستعرض في فصلنا التالي أهم أبعاد وعناصر الهوية الطلابية التي استخلصناها من المضامين الغرافيتية، ومنه استجلاء أهم الدوافع الثأوية وراء انتشارها (الغرافيتيا) بالوسط الجامعي. لكن قبل الإندلاق في إستعراض ذلك، يفرض علينا أن نتحدث عن أبرز إشكالية في مقارنة ممارسة الغرافيتي، منذ تبلورها كظاهرة بحثية نهاية ستينات القرن الماضي، ألا وهي "التصنيف/التفئة La catégorisation" الخاصة بالمضامين الغرافيتية Les contenus graffitiques، التي أُرقت الدارسين، باختلاف نحلهم المعرفية، ومن ثمة نحدد "أساس التصنيف" الذي اعتمدناه في دراستنا.

1.3. إشكالية تصنيف الكتابات الغرافيتية

كثيراً ما يتحدث المختصون عن المعوقات المنهجية و الابستمولوجية في مقارنة الظواهر الاجتماعية عامّة، وظاهرة الغرافيتيا خاصّة. إذ تعتبر معضلة تصنيف وتّفئة المضامين، من بين الصّعوبات التي أُرقتهم، نظراً للتداخل الذي يكتنفها، في مؤشر تصنيفها، ما بين أساس الفئات الاجتماعية أو المهنية⁵⁰¹، أو الطبّيقية أو الجنسانية أو... ما بين غرافيتيا أنثوية/نسائية مقابل ذكورية/رجالية؟، أم العُمريّة، ما بين غرافيتيا طفولية، مقابل غرافيتيا الشباب والكهول أو المُسنّين، أو غرافيتيا التلاميذ نظير غرافيتيا الطلبة، أم غرافيتيا عابري السبيل مقابل غرافيتيا المُقيمين، أو غرافيتيا المسجونين والمنحرفين والضّالين والمتشردين مقابل غرافيتيا الأشخاص المُنضَبطين والمتحضرين. أو غرافيتيا الأدباء والشّعراء والفنانين مقابل غرافيتيا الناس العوام؟... أم على أساس غرافيتيا فردية/شخصية (لشخص واحد)، مقابل غرافيتيا مشتركة (لشخصين)، أو جماعية، أسوة بتصنيف المؤلفات "المُرسّمة" فردية، ثنائية وجماعية)، أم على أساس "وسائل الكتابة" و "نوع الرّكائز والحاملات Les supports"⁵⁰².

ومن أشهر التّصانيف في الموضوع، على سبيل المثال تصنيف "هيربرت كوهل" Herbert Kohl⁵⁰³ إجتهد في تّفيتها على أساس الوسائل والرّكائز، ليستنتج ثلاثة مجموعات رئيسية:

⁵⁰¹ كثيراً ما وُجِدَت غرافيتيا لأصحاب جِرف ومِهَن متعدّدة، كالبحارة، الجنود، الرّعاة، العمال الموسميّين، رجال الدين،...
⁵⁰² أم على أساس خصوصية الفضاء الذي تتواجد فيه الغرافيتيا (داخلية خاصة، خارجية عامة)، أم على معيار طبيعة الشكل والبنية (مكتوبة وتصويرية)، أم على أساس شكل التوقيع (كما فعل العديد من الأدباء والمفكرين، على نحو (فيكتور هيغو، بلزك، و بيرون...)). أم على أساس نوعية الموضوعات والثيمات المُتضمّنة.

⁵⁰³ Herbert Kohl, "Names, graffiti and culture", Urban Review, April, 1969, vol 3, n°5, pp. 25-37.

أ. الجرافيتيا المحفورة (المنقوشة): وتضمّ "الكتابات" المنقوشة نتيجة خدشٍ أو نقشٍ رؤسوماتها وأشكالها، باستخدام وسائل حادة، كالمثقف (Le poinçon)، أو السكين وما شاكله. ويرى أنّ هذا الصنف من الجرافيتيا هو السباق من حيث التواجد والانتشار، تَمَّظَهَر في بدايات الحقب التاريخية الغابرة (ما قبل التاريخ)، حيث احتلّ الصّخور، الجدران، القلاذات...

ب. الجرافيتيا المكتوبة بمادة مُلوّنة: على نحو، الفحم، الطباشير، قلم الرصاص، الطلاء، والدم، الذي أُستعمل خلال التّراعات والمعارك. على نحو ما حدث في مدينة "لشبونة" في انتخابات أبريل 1908، أو ما تركه الشّاعر الروسي "سيرغي يسنين" السالف الذّكر، أو قضية المغربي "زّداد عمر" الذي أُتهم بقتل مُشغلته، أو ما رافق المأساة الجزائرية (العشرية السوداء)، خاصة إبان المجازر، إذ وُجِدَت كتابات متعدّدة المضامين أُستخدم فيها 'دم' الضحايا، (أنظر تاريخ الممارسة).

ج. مواد مختلفة: وتضمّ مجموعة الرّكائز المتنوعة، التي تجتأ عليها الجرافيتيا، كالألبيسة (القمصان، المناديل)، والإشارات والصّفائح المعدنية...⁵⁰⁴. غير أنّ التّصنيف -الذي تقدم به الباحث- وإن كان قد ركّز على ما يُميّز الجرافيتيا من النّاحية المادية (أي الوسائل والحاملات والفضاءات)، إلّا أنّه يبقى غير كافٍ- في نظر بعض الباحثين- إذ يطرح إشكالاً إبستمولوجياً مزدوجاً، من جهة، بتداخل التعريف بالتّصنيف، ومن جهة ثانية، بالجانب المتودولوجي (المنهجي) في مقارنة هكذا خطاب، الذي لا إعتراف مؤسّساتي به، إذ يتحوّل إلى خطاب يّتيم -بل لقيطٍ بتوصيف "أحمد شراك"- غير أنّه يفرض ذاته على السوسولوجي بضرورة مقارنته مقارنة علميةً، باعتباره خطاب يُشكّل "ممارسة جليّة" بالنظر لكثافتها. ولتأثيرها في تشكيل الدّهنيات والسلوكيات، ومنه الثّقافات والهويات المميزة للأفراد والجماعات المُمارِسة، والتي لم تجد طريقها للتّعبير المُشرّعن.

وكمحاولة لتصحيح هذا "العطب المنهجي الإبستمولوجي" اجتهد الباحثون لإبتداع تصنيفٍ يرتكز على مبدأ "المضمون/المحتوى (s) contenu (s) Le(s)". اعتمده العديد منهم، على نحو الباحثة "فرانكلين بياتريس Fraenkel Béatrice" التي فيّئت المضامين على أساسه، لتخلص لأربعة مضامين رئيسة: جرافيتيا فوضوية، جرافيتيا وطنية، جرافيتيا سياسية وجرافيتيا بورنو جرافية،

504 كما أُلّف "هيربرت كوهل_Kohl Herbert_ كتاباً أُعْتَبِرَ آنذاك مرجعاً أساسياً (نادراً) لأيّ باحث المهتم بدراسة الجرافيتيا، وسمه ب: "Golden Boy as Anthony cool", New York: Dial Press. 1972, 177 p".

جنسية⁵⁰⁵ بدوره صَنَّف "جاك ستيوارت Jack Stewart"⁵⁰⁶ الغرافيتيا إلى خمسة فئات: غرافيتيا الأسماء والألقاب، غرافيتيا الغرام، غرافيتيا الفَاحِشَة والبَدِينَة، الغرافيتيا الفكرية، الفُكاهية والحِكم والموَاعِظ، ثم الغرافيتيا السِّياسية والاجتماعية والدينية. في حين ركَّزها "فرانك بوبر Frank Popper"⁵⁰⁷ -بمدينة "باريس"- في أربعة فئات: الغرافيتيا الجَنسِيَّة والجَنسانِيَّة (الرَّغبة في التعبير عن المكنون الجنسي، أو الانتماء لمجموعة ما، كالمثليين Les homosexuels). غرافيتيا الموت (أسئلة عن معضلة الموت). الغرافيتيا السِّياسية. وغرافيتيا الهوية الفردية (تجسّدت من خلال "الأثر" الذي يحاول أن يُسَرِّمَدَ "الأنا")⁵⁰⁸.

أمَّا السوسولوجي "بريوير ديفون Brewer Devon" فيعتقد أنّ المضامين الغرافيتية -خاصة "غرافيتيا الهيب هوب Graffiti Hip Hop"- تتضمن أربعة قيَم رئيسة، هي: الفخر والإعتزاز. السُّلطة والقوة. التَّمرد. التَّعبير الفَنِّي. جُلِّها مضامين تؤشِّر على وضع شبابي مُحْتَقَن، مَحرومٌ من حقوقه. هذا ما جعل شباب الطبقات المحرومة أكثرها ممارسةً للغرافيتيا⁵⁰⁹. لِتُقَلِّصَها الباحثة الفرنسية "كلار غينشات Claire Guinchat" إلى نوعين فقط: غرافيتيا "رُذُودَ الفِعل (Les réactifs)", وغرافيتيا "تَحْيَلِيَّة/ وهمية (Les imaginaires)"⁵¹⁰ وبنفس العَدَد صَنَّفَت الألمانية "كاترين فيشر Katherine Fischer" الغرافيتيا التي جمعتها من بمراحيص طالبات جامعة "بون Bon" (2009)، إلى صنفين:

▪ غرافيتيا مُهذَّبَة: موضوعيَّة، تطرح مسائل عامَّة للنِّقاش، وتحترم "كتابات" الآخرين.

⁵⁰⁵ Fraenkel Béatrice, " La délinquance lettrés des graffeurs de New York", Tribu, n°10, pp.15-23. In :Musique/Patrimoine, des expériences culturelles urbaines", Marseille, SHADYC-CNRS/EHESS, 2008.<http://centre-norbert-elias.ehess.fr/docannexe.php?id=559>. Consulter le: 11/1/09.

⁵⁰⁶ Jack Stewart,"Subway Graffiti: An aesthetic study of graffiti on the subway system of New York City, 1970-1978". New York University, N.Y. 1989. 604 p. (أطروحة دكتوراه في تاريخ الفن).

⁵⁰⁷ Frank Popper, "Ecrire sur l'art : De l'art optique à l'art virtuel", L'Harmattan, 2007, p 164.

⁵⁰⁸ في حين يُقَيِّمُها "إ. لوكار Edmond Locard" المتخصص في علم الإجرام، إلى ثمانية فئات: - الغرافيتيا السياسية. - الغرافيتيا البُرْازِيَّة Scatologiques:(خاصة بالمراحيص).- الغرافيتيا الفاحشة Obscènes: وتضم التفكير الشَّهْوانِي ونداءات لممارسة الجِنس المِثْلِي، وعروض لبائعات الجنس).- الغرافيتيا الخاصة بصور فاحشة (أعضاء تناسلية). - الغرافيتيا الإجرامية. - غرافيتيا السَّجون والمعتقلات. - الغرافيتيا التَّاريخية الأركيولوجية. - الغرافيتيا الدِّينية.

⁵⁰⁹ Pamela Dennant,"The emergence of graffiti in New York city", London, Thames Valley University, American Studies Project,1997.URL: <http://www.hiphop-network.com/articles/graffitiarticles/emergenceofnycitygraffiti.asp>. Consulted: 11/8/2009.

⁵¹⁰ Claire Guinchat, "La vie graffiti", CAES magazine,(CNRS),n°67,avril-mai-juin,2003,pp.28.31.

▪ غرافيتيا مُبتدلة: صارخة، ترتبط بالجنس والعاطفة والشتم للآخرين⁵¹¹.

للإشارة، بعد تَلْبُّعنا وإحصائنا لأهم الدّراسات الغربية -حسب إمكانياتنا- المتعلقة بالظاهرة، استنتجنا أنّ عدد الفئات الغرافيتية التي توصل إليها الباحثون تجاوز الثلاثين فئة⁵¹². أمّا في دراستنا، إعتدنا على أساس "المضمون (s) Le(s) contenu"، التّصنيف "الموضوعاتي Thématique" كما يسمّيه البعض، والذي اعتمده العديد من الباحثين الضّالعين في المجال المبحوث، حيث تُفَيِّ المعطيات الغرافيتية على حسب الثّيمات المُتضمّنة فيها، على نحو، غرافيتيا تاريخية، غرافيتيا دينية وسحرية، غرافيتيا جنسية وبورنوغرافية، وغرافيتيا فنيّة/جمالية، وغرافيتيا سياسية وأيديولوجية، وغرافيتيا عجائبية، وغيرها من الأنواع، على حسب المَنّ المبحوث والمجتمع المدرّوس. صنّفناها على أساس الموضوعات والمسائل و"المعضلات" التي تشغل الطالب/الشّاب الجزائري، والتي يطرحها التّفاعل اليومي بين حاجاته (الطالب(ة)، وإكراهات الفضاءات الذي يتواجد فيها، لتشكل تمثّلات تراكم نتيجة التّنشئة الاجتماعية، السّابقة والحالية. تتجلى نتائجها في سلوكياتٍ وتصرفاتٍ وأفعالٍ وتمثّلاتٍ تتلاحق لتشكل نسق ثقافي، يميّزهم عن غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى (هويته)، نفترض أنّ بعض ملامحها تجلّت من خلال "الممارسة الغرافيتية".

نستعرض هكذا مضامين من خلال "الوحدات الغرافيتية" التي جمعناها من فضاءات ووسائط متعدّدة، والتي هي نتاج طُلّابيّ بامتياز، يعكس أهمّ أبعاد الثقافة والهويّة الطّلابية، التي تحاول إنتراع الاعتراف الرّمزي (العمودي والأفقي)⁵¹³ من الفاعلين في الحقل المجتمعي الجزائري. حاولنا تقديم الأنواع والمسائل المطروحة بمدى كثرتها وانتشارها (تكرارها) على الحاملات.

⁵¹¹ Michelle Martin, "German student gest degree in latrine literature", 2009.

URI: <http://www.du-world.de/dw/article/0.4540624.00html>. Consulted: 27/09/2010.

⁵¹² ملاحظة: يجب التّنبه إلى أنّ عملية ترتيب المضامين الغرافيتية تختلف من مجتمع لآخر، ومن مؤسسة لأخرى، ومن فضاء لآخر، ومن زمن لآخر، فلو اعتمدنا -مثلا- على دراسة "ك. بوبر Frank Popper" نلاحظ أنّ المضمون الجنسي/الجِنساني = يتصدّر الترتيب، بينما تتصدّر المضامين التّعليمية (التّحرّاز) الترتيب بالمؤسسة الجامعية (حيّز دراستنا). وحتى داخل نفس الفضاء (الجامعة)، تتباين المضامين حسب خصوصية كل فضاء فرعي، وحسب الدّعامات والزّكائز.

⁵¹³ العمودي: من الفئات العُمريّة الأخرى (أطفال، كهول، شيوخ)، خاصّة جيل الكبار (الراشدين). أمّا الأفقي: من الفئات الشّبابية القريبة (من غير الطلبة الجامعيين)، وحتى بين الطلبة من الجنسين.

2.3. تجليات الهوية الطلابية من خلال المضامين الجرافيتية

نُروم من هذا العنصر تقديم "المادة الجرافيتية" التي جمعناها، ثم جمعناها على أساس الفضاءات والدعامات. لنتقل إلى تفتيتها على أساس "المضمون"، الذي اعتمدناه في تحليلنا للكتابات الجرافيتية. ومن ثمة نحاول توضيح كل "مضمون" على حدى، مع تقديم أمثلة، ومحاولة تبرير دوافع إنتشارها، واستجلاء أهم الدلالات الممكنة إستشفافها من هكذا محتويات.

✓ بدايةً، ما خصوصيات عينة الدراسة؟

بلغت عينة دراستنا 763 وحدةً جرافيتيةً، وهي عينةٌ مُتعمّدة ومقصودة، لأننا انتقيناها اعتمادًا على درجة وضوحها ويُسرِّقِراءتها، من على مختلف الحاملات، واستثنينا الوحدات العسيرة القراءة (التي قد تدنو من مستوى الخريشة الغير مفهومة)، والتي سماها "هنري كالي Henri Calet" ب"الكتابات العسيرة فكّ التّشفير"⁵¹⁴ في حين، يجب الإشارة لوجود عينة غير مباشرة، والتي أخذت بالحسبان خلال عملية التّحليل، ذلك أنّ هذه "الكتابات" انعكاس لممارسة فئة طلابية، تتميز بخصائص عُمرية تتراوح ما بين ثماني عشرة وأربع وعشرين سنة، مع بعض الاستثناءات التي تجاوزت هذا المجال السني، تتّصف بخصائص ثقافية وهوياتية مُتميّزة عن باقي فئات المجتمع.

✓ الخطوات العملية للدراسة:

وفق منطق الانطلاق من العام إلى الخاص، ومن المجرّد إلى الملموس/الملاحظ، وذلك بالتدرج بين العُدّة النظريّة والحصيلة الحقلية الميدانية، التي تُتيحها الأدوات السوسولوجية. من الإشكالية والفرضيات والمفاهيم المُهندسة لها، وأهم الإجهادات السابقة، والملموس/الملاحظ (المادة/الوحدة الجرافيتية، الكتابات). ولتحقيق هكذا مبتغى حاولنا المزج بين التّحليل السوسولوجي والحفر الأركيولوجي التّاريخي حول الظاهرة، محاولين ترصّد إرهاصات الفعل الجرافيتي منذ البدء، والوقوف على مختلف الجوانب التعبيرية له، مع تحديد وضبط مفاهيم ومصطلحات الدراسة ومحاولة تبيّنها وأجرائها وفق حدود هذه الأخيرة. إنطلاقاً من مراجع أغلبها غربية (إنجليزية وفرنسية)، مما يُحيل لندرة الدّراسات العربية، والمحلية (الجزائرية) حول الظاهرة، رغم الحضور القوي الذي باتت تُسجله على مستوى النّسق السّوسيو تربوي والحضري، وتواجدها السوسولوجي-كظاهرة فرضت وجودها- لم يُوازيه حضور على مستوى البحث بمجتمعاتنا، بإستثناء بعض المحاولات الرائدة (نشير بالتحديد لعمل الباحث المغربي "أحمد شراك"، واجتهاد الباحثين "محمد ابراهيم" و"محمد طارق".

⁵¹⁴ Carine Trévisan, "Ce qu'ont dit les murs de Fresnes", Le Temps des Médias 2005, n°4, pp.90.100.

وبعد اختيار الموضوع والافتناع بالاستمرار فيه، وقرنا الوسائل اللازمة للعملية وفق المراحل التالية:

• توفير آلة تصوير رقمية، ودفتر ملاحظات.

• ترصد كل عمل (بحث، مقال، تعليق) له علاقة بالظاهرة، من كتب ودراسات، والتي وللأسف لا يمكن وصفها إلا بالمحدودة جداً، خاصة العربية منها، لمحدودية إمكاناتنا بالحصول عليها من خارج الوطن. كما حرصنا على تتبع كل صغيرة وكبيرة عن الظاهرة من خلال القنوات الفضائية (ARTE France3، الإخبارية السعودية⁵¹⁵، CANAL +، France 5⁵¹⁶، وبعض القنوات الألمانية رغم عدم فقهنا للغة (حرصنا على تسجيل عناوين وأوقات البرامج الخاصة بالموضوع، ثم العودة إليها عبر شبكة الانترنت، ومن ثمّ ترجمتها باستخدام "المترجم الرقيي").

• الإبحار في مواقع الانترنت التي تهتم بالممارسة -رغم أنّ أغلبها يستعرضها في بعدها الفيّ-. لكن يجب الإشارة إلى خدمات رقمية -نعتقد أنها مهمّة لكل باحثٍ- تقدّمها أشهر مواقع البحث، على نحو: "Google Books" و"Google Scholar" و"Actualité Google" و"Yahoo! Questions Réponses".... حيث يتم نشر آلاف الملفات (كتب/مقالات متعددة الاختصاصات -مع تحديد عدد الصفحات المعروضة للقراءة-.

• كما حرصنا على تكثيف الاتصالات والنقاشات مع العديد من الأشخاص، باختلاف مستوياتهم العلمية (أساتذة، طلبة، مسؤولين محليين، رجال أمن، أشخاص عاديين)، لإستجلاء آرائهم عن الممارسة. وفي ذات الوقت عمدنا على توسيع شبكة مُتنامية من الاتصالات مع مُستخدمي الانترنت Les internautes بخدمة "Alerte Google" و"Google Chat" التي سمحت لنا بنشر تساؤلاتنا الأولية حول الموضوع، لأكبر عدد من المهتمين، سواء المعنيين المباشرين أو الفضوليين. حيث كانت ترسل التعليقات والأخبار والدراسات والمقالات المستجدة حول الموضوع لحظة نشرها (Mise en ligne) إلى موقعنا الإلكتروني (Email(s) ، ومنتدى (Identité : Blog graffiti) الذي أطلقناه.

⁵¹⁵ ناقشت إحدى حلقات برنامج " برسم الصحافة"، موضوع "الغرافيتي"، حيث استضافت ثلاثة مُمارسين أجمعوا على اعتبارها نوعاً من التعبير عن الذات.. لأنّ الشّباب المُمارس يعاني "أزمة هوية"، بين مجتمع شديد المحافظة، مقابل الانتشار الواسع لتقنيات الإعلام و الاتصال، وما تنشره من قيم ثقافة التّحرر. وبين مسؤولين يتحدثون معه بأسلوب أكل عليه الدّهر وشرب، وفضاءات مفتوحة على عالم متحرّر من الضوابط الاجتماعية.

⁵¹⁶ Ex: L'émission «Entrée Libre », Street Art : Apelle de la rue, 31/01/2012 (20:00). (L'aspect artistique du phénomène).

• بالموازاة مع ذلك عمَدنا لإستكشاف كل تضاريس المؤسَّسة الجامعية التي إنتشرت بها "الكتابات الجرافيتية" قصد تجميعها.

• خلال عملية تجميع المادة الجرافيتية دأبنا على تسجيل وتصوير كل وحدة جرافيتية، ثمَّ كتابتها في دفتر، مع تسجيل مكان وتاريخ إتقاطها، تَفادياً لِفساد الصُّور الملتقَّطة (الكليشييه Le cliché). تركزت عملية تجميع المادة الجرافيتية في فترة زمنية دامت سبعة أشهر، مع الإشارة إلى أننا لم نتوقف عن ذلك، بل سجلنا كل ما لاحظناه. واستعننا ببعض الطلبة لتجميع "جرافيتيا" الأحياء الجامعية (ذكور وإناث)، (خاصة الأماكن "المستعصية" الوُلوج، كغُرَف الطلبة والطالبات)⁵¹⁷.

• عملنا على تسجيل "الوحدات الجرافيتية" وفق أداة "قائمة المراجعة/الفحص (Liste de Chekclist -vérification)"⁵¹⁸ والتي ضمَّناها العناصر التالية: رقم الوحدة الجرافيتية لتيسير عملية التّصنيف فيما بعد، تاريخ تسجيلها، مكان تواجدها (الكلية، القسم)، تحديد الفضاء (المكتبة، القسم، المرحاض، الجُهو،...)، الحاملات (جدار، عمود، باب، نافذة، غيرها...)، أداة الكتابة (طباشير، قلم، علبة رَش، فحم، دخان الشَّمع، آخر)، الشكل (مكتوب، مرسوم، مزيج)، البنية الجرافيتية (كلمة، جملة، صورة، مزيج..)، اللون (أسود، أبيض، أحمر، أزرق، متعدد الألوان).

1.2.3. توصيف مكثّف لخصائص الوحدات الجرافيتية:

سنحاول في الآن، تقديم توصيف مرَكز لبعض خصائص الكتابات الجرافيتية، بدءًا من الفضاءات والدِّعامات، مرورًا بأدوات الكتابة المُستعمَلة، وأهم الألوان الوارِدَة، وانتهاءً ببِنية الوحدات وأهم اللّغات واللّهجات الحاضرة بها. مُدَيِّلين ذلك بمجموعة من الأشكال والرّسومات البيانية (مدرّج الأعمدة، المدرّج الدائري النّسبي)، لتوضيح الشرح والتحليل.

أ. فضاءات الكتابات الجرافيتية:

أول ما يُلاحظه المتبصّر للكتابات الجرافيتية إحتلالها للعديد من الفضاءات، حيث توزّعت ما بين الأماكن المفتوحة والمغلقة، نذكر من بينها: السّاحات الدّاخلية، المدرّجات وقاعات المحاضرات، بهو Les halls الكليات والأقسام، المكتبات، المطاعم الجامعية (خاصة بأروقة إنتظار إستلام الوجبات)، المراحيض، الإقامات الجامعية، محطات الحافلات (رَكزنا على المحطّات التي يقف

⁵¹⁷ أخصّ بالذكر الطالبة "خلوفي فاطمة الزهراء، بلمقدم يحي، جلطي مريم، حاج محمد كريمة، دحو نور الدين).

⁵¹⁸ Une liste de vérification, ou check-list, est une opération consistant à vérifier méthodiquement les étapes nécessaires d'une procédure pour qu'elle se déroule avec le maximum de sécurité. Cette opération se déroule généralement à voix haute et/ou en cochant une liste écrite de procédure.

عندها الطلبة)، أو ما يمكن تسميته "بمناطق الانتظار" (مكان الطّابور، محطة الحافلات، قاعة المحاضرات، المراحيض...، نقدم أهم هذه الفضاءات من خلال الشّكل التّالي:



الشكل رقم 4: الفضاءات التي إنتشرت بها "الكتابات الغرافيتية" بالجامعة

ب. تعدّد الحاملات / الدّعامات Les supports:

احتلت "الكتابات الغرافيتية" العديد من الدّعامات المُتباينة الشّكل والحجم، العمودية والأفقية، الإسمنتية والمعدنية والخشبية. قمنا بترتيبها (في الشّكل الموالي)، على حسب درجة إنتشارها، أيّ من الدّعامات الأكثر حَمُولَةً لها إلى الأقل، نذكر من بينها الجدران، الأعمدة (الإسمنتية والحديدية)، خَلَفِيّات الأبواب (أبواب القاعات، العُرف الخاصة بالطلبة داخل الحي الجامعي)، المناضد (العادية والخاصة بالإعلام الآلي) والكراسي، السّلام الحديدية والإسمنتية، الرّجاج (النّوافذ)، سُقُف العُرف، صناديق إطفاء الحرائق، لافتات التّوجيه (عليها أسماء الكليّات والأقسام والمكاتب) جذّوع الأشجار،... إلخ. للإشارة، عثرنا على "دعامات" تراكمت عليها "الكتابات" عبر الأيام والسّنون، فركّزنا على البارزة منها.

بصفة عامّة، إستثمر الطالب جدران المؤسّسة الجامعية - وما شاكله من وسائط- من أجل التّعبير عن آرائه وآماله وطموحاته، وأهاته. بكلمتين، عن ثقافته وهويته المتميّزة. حيث تزيد قوّة وفعالية الغرافيتيا حسب "ميشال دو سيرتو Michel De Certeau" عندما تتواجد مُباشرةً على

واجهات وجدران المؤسسة المقصودة من الخطاب، أو بالقرب منها⁵¹⁹. حاولنا توضيح أهم الحاملات التي استقينها منها الوحدات الجرافيتية من الفضاءات السالفة الذكر، على النحو التالي.



الشكل رقم 5: حاملات الكتابات الجرافيتية

ملاحظة: الصور الخلفية لسلام (Métro Saint-Ambroise) بباريس، منسوخة من الموقع التالي http://fr.wikipedia.org/wiki/Fichier:Tag_metro.jpg بتاريخ 09/12/11. أما باقي الخلفيات مأخوذة من عينة البحث.

ت. تباين أدوات الكتابات الجرافيتية:

تعددت وسائل الكتابة الجرافيتية، من فضاءٍ لآخر، جُلِّها لم يجد عن الوسائل المعتمدة في الكتابة الرسمية⁵²⁰ كأقلام (الرصاص، الجافة، أقلام اللباد (Les feutres)، قلم التصحيح Le correcteur)، والطباشير، الفحم. وبعضها انفردت به الممارسة الجرافيتية على نحو: الرذاذ/البخاخ 'Spray'، دُخان الشمع المُشتعل، أوراق النبات الأخضر، الثمار (قشور البرتقال)، الأدوات الحادة (السكين، المدور، مقص الأظافر)، المناديل الورقية، استخدمت في الكتابة على الزجاج المُتراكم عليه الغبار (يُسمى هذا النوع بـ "الجرافيتيا المعكوسة Revers Graffiti"، وأخيراً -بشكل محدود- البُرَاز في (المراحيض).

⁵¹⁹ Michel De Certeau, "L'invention du quotidien, art de Faire", Paris, éd: Union général d'éditions, 1980, 374p.

⁵²⁰ بإستثناء بعض كتابات المراحيض (Latrinalia) التي كُتبت بالبُرَاز.

ث. الألوان الأكثر حضورًا:

تباينت ما بين اللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق والأخضر، كل الألوان النَّاصعة الواضحة التي تُبرز الرِّسالة المُراد إيصالها للآخر. مع تسجيل درجة ذكاء عملي في الكتابة من حيث إختيار اللون المناسب للقلم مع لون خلفية الوسطة الملثمة.

ج. بنية الوحدات الغرافيتية:

تعددت الوحدات الغرافيتية⁵²¹ من حيث الشُّكل (البنية)، ما بين الكلمات والجمل، الحروف والرَّموز، الرسومات والأعداد، مع الإشارة إلى إستعمالها متشاركةً ومتقاطعة في بعض الأحيان. لكن الغالب هو 'الكلمة'.

ح. أهم لغات/ لهجات المضامين الغرافيتية:

يُجمع آل السوسولوجيا على اعتبار اللُّغة أكبر تجلٍ للهوية (الفردية والجماعية)، وحافظ للثقافة. ذلك لأنَّها تساهم في توحيد مرجعيَّاتهم الفكرية والايديولوجية والثَّقافية، ومنه الهويَّاتية. هذا ما جعلها تشتغل على مستوى وظيفيتين أساسيتين، وظيفة التَّواصل ووظيفة تمثّل المحيط (العالم، الآخرين) للمتحدثين بها، سواء على مستوى الأفراد، الجماعات، الدول والمجتمعات⁵²².
غرافيتياً، تنوّعت "لغة" الكتابات ما بين اللُّغة العربية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وبشكل محدود نسبياً اللُّغة الأمازيغية، إضافةً للّهجات المحلية والعامية (الدَّارجة). هذا لم يمنع من "موضة" الخلط والمزج اللُّغوي-الذي سيتم توضيحها لاحقاً- مع تسجيل حضور ملفت للُّغة الفرنسية والإنجليزية، خاصّة في مضامين الغرافيتيا العاطفية والغرامية، وغرافيتيا تقدير الذات، والمجموعات وغرافيتيا الصِّراع.

⁵²¹ نقصد بالوحدة الغرافيتية: كل كلمة أو جملة، أو رسم، أو رمز، أو صورة، ذات معنى مُحدّد، كُتبت (عُرِفَتْ) منفصلة ومستقلة عن الوحدات الأخرى على دعامة مُتعدّدة من لُذُن الفاعلين بالفضاء الجامعي.

⁵²² سوسولوجياً لكل مجموعة اجتماعية لغتها/ لهجتها العامية (L'argot) المتميّزة.

3.3. مضامين الكتابات الجرافيتية الطلابية

والآن سنحاول استعراض أبرز أبعاد ومضامين الهوية الطلابية التي إنبجّت من خلال المُتُون (المضامين) الجرافيتية التي استقينها من العينة المتحصّل عليها من مختلف الدّعامات والوسائط. لكن قبل ذلك نشير لبعض الملاحظات:

• جُلّ الصّور التي إتخذناها كخلفيات للأشكال والرّسومات البيانية، عبارة عن وحدات جرافيتية، بعضها مُنتقى من عينة دراستنا، والبعض الآخر من "جرافيتيا عالمية"⁵²³.

• الصّور التي انتقينها لتكون في المَثَن قُمتنا بتعديلها من حيث الوضوح والحجم لتيسير قراءتها.

• سيلاحظ القارئ أنّ تسمية فضاءات (الأقسام) بجانب العينة المعروضة في المَثَن، تنوّعت ما بين التسمية القديمة والتسمية الجديدة بعد إعادة تقسيم جامعة تلمسان -الحيز المكاني للدراسة- إلى كليات وأقسام وشُعَب جديدة.

• كما سيكتشف العديد من الأخطاء اللّغوية والنّحوية والصّرفية في الوحدات الجرافيتية الآتية. تَعَمَدنا نقلها كما "كُتبت/عُرِفَت" من طرف الفاعلين (الطلبة) للمحافظة على بنيتها ومعانيها ودلالاتها المُراد التعبير عنها. ولأنّ تحويلها يُخلّ بالموضوعية في التّعامل مع المادة الجرافيتية.

انطلاقاً من مقولة الباحث المُتمرّس "محمد محمود" المؤكّدة بأنّ "الخطاب الخربشي المُسيّج بالجدار المؤسّسي، خطاب هادف، يرنوا إلى الاطلاع بتبليغ رسالة معيّنة"⁵²⁴. عملنا على استخلاص هذه الرّسائل الجرافيتية، التي تباينت من حيث الدّعامات والشّكل، والعدد والمضمون. فبعد تجميع المادة الجرافيتية، حصلنا على عينة، إجتهدنا في تصنيفها على أساس المضمون، وذلك إقتداءً بالعديد من الباحثين الذين إنتهجوا الاختيار ذاته، نذكر منهم "جون بوشنل John Bushnell"⁵²⁵، "طوني كوهان Tony Cohan"⁵²⁶، "كارل بونيسو Carl. A. Bonuso"⁵²⁷، "جاين غادسبي Jane Gadsby"⁵²⁸. لتتّصل على إحدى عشرة فِئَةً (11)، وَسَمناها كما يلي: جرافيتيا التّحرّاز،

⁵²³ بالنسبة للصور الجرافيتية العالمية، قُمتنا بتحديد المصدر الذي استقينها منه.

⁵²⁴ محمد حمود، "قراءة في خطاب هامشي..."، مجلة الحياة الثقافية التونسية، وزارة الثقافة التونسية، عدد مزدوج 67/68، 1994، ص44.

⁵²⁵ John Bushnell, "Moscow graffiti: Language and subculture", Boston, Winchester Mass: Nuwin Hyman, 1990, 263 p.

⁵²⁶ Tony Cohan, "Street writers: A guided tour of Chicano graffiti", 1975.

⁵²⁷ Carl A. Bonuso, "Graffiti", Today's Education, n° 65, 1976, pp. 90-91.

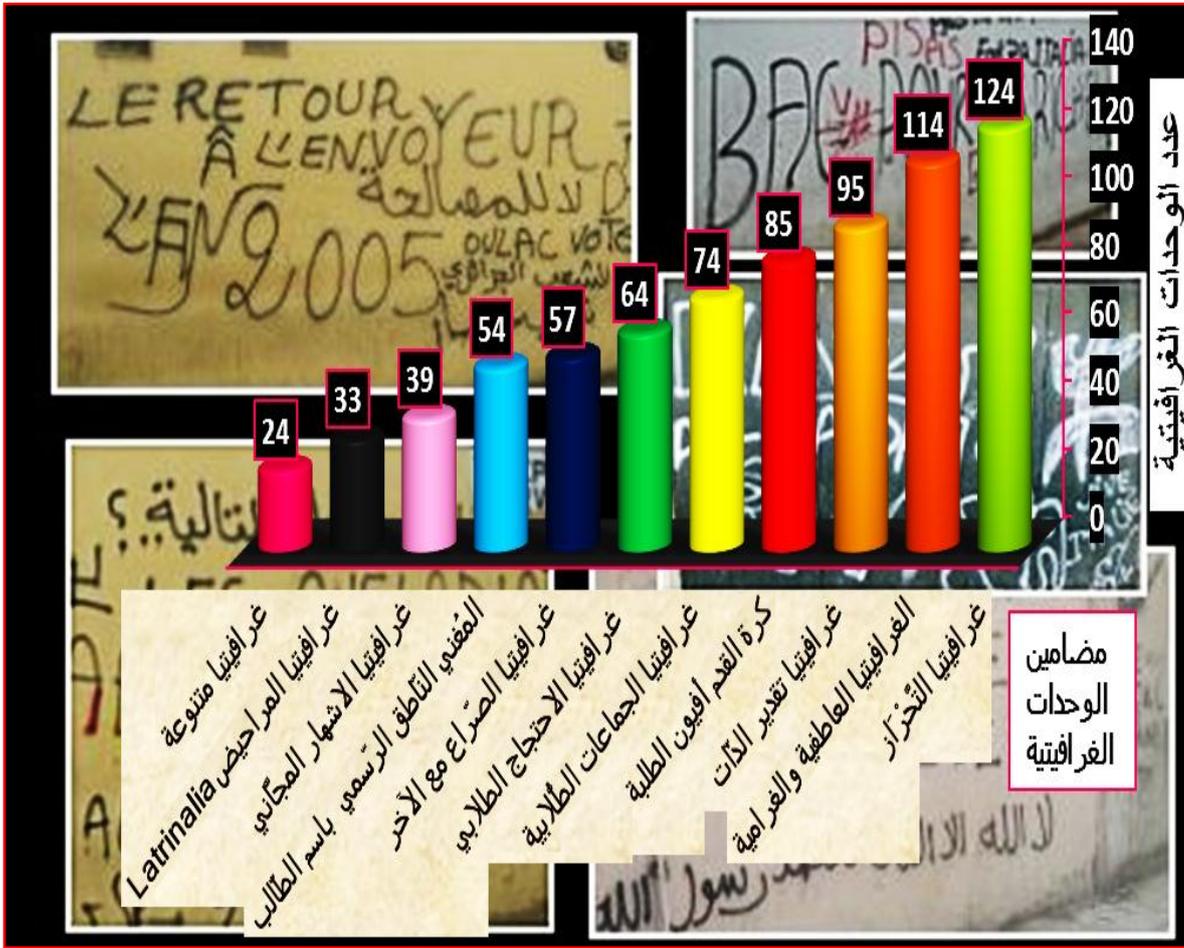
⁵²⁸ Jane Gadsby, "Taxonomy of analytical approaches to graffiti", 1995. In: <http://www.graffiti.org/faq/appendix.html>. Consulted: 22/02/2009.

الغرافيتيا العاطفية والغرامية، غرافيتيا تقدير الذات، غرافيتيا كرة القدم "أفيون" الطلبة، غرافيتيا الجماعات الطلابية، غرافيتيا الاحتجاج الطلابي، غرافيتيا الصراع مع "الأخر"، غرافيتيا "المُعني" الناطق الرسمي بإسم الطالب، وغرافيتيا الإشهار المجاني، غرافيتيا المراحيض Latrinalia و غرافيتيا متنوّعة (كتابات متنوعة لم ترتقي لفئة مستقلة).

بدايةً، نذكر بأن أشكال "الكتابات الغرافيتية" على جذوع الأشجار والجدران وغيرها، تتموضع كصورة من صور تمظهر الكيان الاجتماعي في بعده الوجودي، الذي يكشف نوازع العواطف والانفعالات والمكبوتات والمواقف في قالب تعبيرى مُتحرّر، مُنفلت من السلطة الرقابية، إستناداً لأسلوب خطابي، تواصلية، يتوسّل بالرمز والعلامة (الغرافيتيا) التي تنزاح عن كل الأسناد الورقيّة.

لذا ارتقت هكذا "ممارسة" لتشكّل حقلاً خصباً من حقول التنقيب والحفر في الذات الإنسانية والطلّابية- من لدن المؤرّخين والأنثروبولوجيين وعلماء النفس والاجتماع، لكونها لازمت التطور البشري منذ الرسومات الأولية والخربشات والنقوش البدائية على الصّخور، وجنّبات المغارات، فإنّ عمليات التّحقيب والتّصنيف والترتيب المتعلقة بهذا حقل شائك وشاسع، أصبحت من قواعد تقطيع المّتن وحصره كمبحث محدّد قابل للدراسة العلمية. فتموضعت الكتابات الغرافيتية ك"كاشف" و"باروميتر" لتحصّس المشاكل التي يعاني منها الطالب داخل الفضاء الجامعي وخارجه. إنّها "سُلّم رِشتر Richter" يقيس الهزّات الاجتماعية قبل وبعد حدوثها (ارتداداتها). فالكتابات الغرافيتية عبارة عن تماهي مُتعدّد الأبعاد، تماهي محلي، وآخر مناطقي، وثالث وطني وإقليمي، ورابع عالمي. يؤشّر على رغبة إنتزاع الإعتراف والإقرار العلني بانتماءات مُعيّنة. والشكل التّالي يوضّح أبرز المضامين الغرافيتية، وترتيبها حسب "عدد الوحدات الغرافيتية" (العينة)⁵²⁹.

529 يجب الإشارة إلى أن خصوصية الفضاء كان لها دورٌ فعّال في تحديد نوع المضمون الغرافيتي.

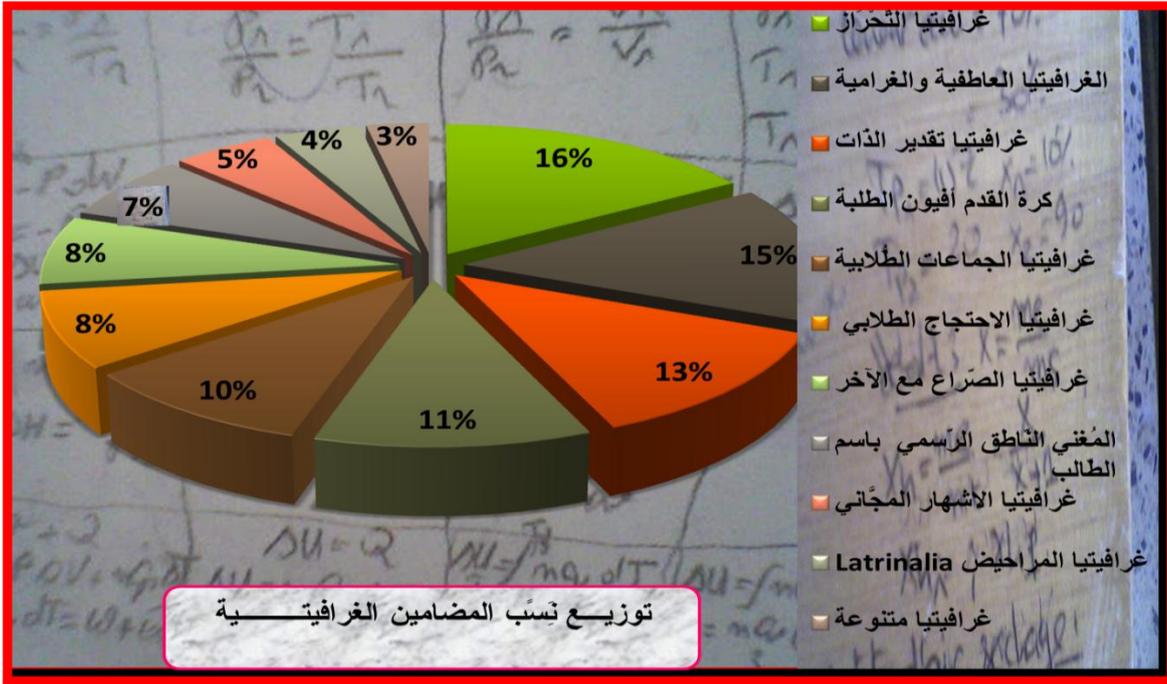


الشكل رقم 6: ترتيب "المضامين الغرافيتية" على أساس عدد الوحدات

ملاحظة: الصورة الخلفية لجدار مكسو بالغرافيتيا بمدينة "تيزي وزو" -أوردناها سابقاً- منسوخة من المرجع التالي⁵³⁰.

يتبين لنا من خلال الشكل التالي الحضور الملفت والقوي لغرافيتيا التَّحْزَار، والغرافيتيا العاطفية والغرامية، وكذا غرافيتيا تقدير الذات، قمنا بترتيب الوحدات الغرافيتية من الأكثر تواجداً إلى أقلها (من اليمين إلى اليسار). ومن أجل تقريب وتدقيق المضامين قمنا بحساب نسبة كل مضمون على جدى، من المجموع الكلي للكتابات الغرافيتية، والشكل رقم 7 يوضح ذلك.

⁵³⁰ Belkacemi Mohand Saïd, "Kabylie: Les graffitis sur les murs de Tizi-Ouzou ne disent pas de belles choses2007". URL: <http://kabylie.unblog.fr/2007/09/18/kabylie-les-graffitis-sur-les-murs-de-tizi-ouzou-ne-disent-pas-de-belles-choses/>. Consulté le : 15/08/2011.



الشكل رقم 7: توزيع نسب المضامين الجرافيتية.

ملاحظة: الصورة الخلفية مأخوذة من عينة الدراسة. ولأن سنحاول استعراض المُتُون

الجرافيتية بنوع من التفصيل. بداية بـ

1.3.3. جرافيتيا "الثَّحْرَازِ":

تترجَع كتابات 'الثَّحْرَازِ'⁵³¹ على عرش المضامين الجرافيتية، إذ بلغت نسبة 16% من مجموع الوحدات الجرافيتية. وعمَّت هذه الكتابات أغلب تضاريس المؤسسة الجامعية، مع حضورها الملفت بكليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وكلية الحقوق، وكلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، والطب والصَّيدلة أكثر من الكليات الأخرى (كلية علوم الهندسة و التكنولوجيا). لكن لماذا؟ سؤال يبقى مؤجلاً.

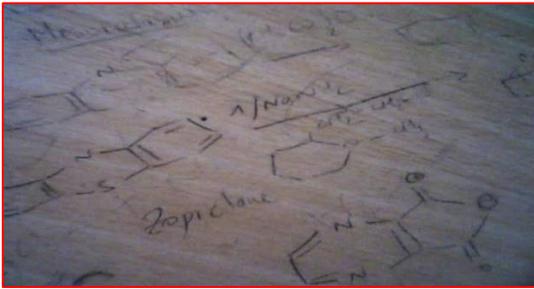
⁵³¹ "الثَّحْرَازِ": عملية النقل (Le copiage) الجزئي أو الكلي للمعلومات الأكاديمية، التي يحتاجها الطالب للإجابة في الامتحانات، بهدف "النجاح" في المادة/المقياس، على وسائط مُتعدِّدة، بعضها يُهنِّدُ الفضاء التعليمي/الجامعي (خاصة الطاولة، الجدار، العمود، خلفية الكرسي،..)، والبعض الآخر جزء من جسم وهندام المُمتَحِن، (اليَد، الذراع، الفِجْد، المندبل،..). ترتبط هكذا ممارسة بظاهرة أوسع هي ظاهرة 'الغش في الامتحانات' الذائِعة الصَّيت بجامعاتنا- وحتى بالجامعات الأجنبية، لكن بِنسَبٍ متباينة-. تعرف -اليوم- انتشار أسلوب جديد، يسمِّيه بعض الباحثين بـ "الغش الإلكتروني"، حيث تستثمر فيه آخر صيحات وسائل الاتصال الرقمية المُتاحة، من بينها، الهواتف النقالة (البلوتوث Bluetooth، MMS، SMS، kit، iPhone، man... و"الثَّحْرَازِ" كممارسة، ومنه كثافة يتمثله الطالب خلال تنشئة خاصة، إذ يُفترض على مُمارسيها التَّعَرُّف على آخر التقنيات المُتاحة، وأشهر وأنسب عبارات التبرير إذا تمَّ الإمساك به من طرف المُراقِب. كما يستلزم التَّحضير المُسبق وفق مبدأ تَعَاوُنِي مُحَكَّم، حيث يتم تقسيم الأدوار بين الجماعة الطَّلابية. حتَّى أن بعضهم- كما تذكر الدراسات- يلجؤون لتشكيل 'لجان أزيمة' عن بُعد، مُتكونة من طُلاب يُلتَجَأ إليهم عن بُعد بوسائل الاتصال المتطورة.

سنستعرض عيّنات من هذه المضامين، مع الإشارة إلى أنّنا لم نتمكن من التقاط صور فوتوغرافية واضحة لهكذا نوع غرافيتي، إلاّ ما ندر، نظرًا لِصِغَرِبلِ تَصْغِيرِ- الكلمات والجمل والفقرات "المغرّقت" على الحامِلات كحيلة لإخفائها عن الأستاذ المراقب يوم الامتحان، فعمدنا نقلها خطيًا. لو أردنا وضع "ترتيب أوّلي" للكليات حسب تواجد "غرافيتيا التّحراز"، نلّفها أكثر حضورًا، بكلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، تليها كلية الأدب واللغات، ثمّ كلية الطب والصّيادلة، وبعدها كلية الهندسة والعلوم الدّقيقة. والسؤال يبقى مؤجّلًا لدراسات أخرى. لماذا هكذا ترتيب بالضبط؟. ومن بين الوحدات الغرافيتية التي عبّرت عن المعنى المقصود نقرأ⁵³²:

الو. رقم 1: "الإشكالية هي...." طاولة/ قسم علم الاجتماع.

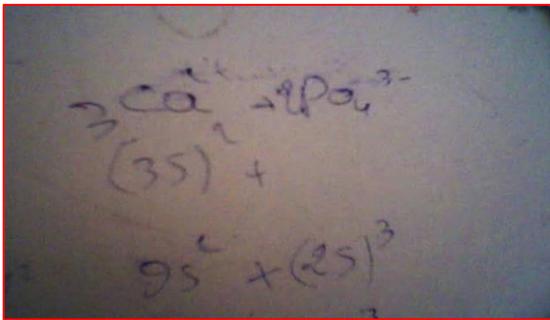
الو. رقم 2: "أنواع المناهج الكمية والكيفية" عمود إسمنتي/ ذات المكان.

الو. رقم 3: "مكونات النفس عند فرويد..." خلفية كرسي/ شعبة علم النفس.



الو. رقم 5: طاولة/ الهندسة الإلكترونيّة.

الو. رقم 4: طاولة/ كلية الصيدلة.



الو. رقم 7: عمود/ قسم الكيمياء.

الو. رقم 6: طاولة/ الهندسة الميكانيكية.

الو. رقم 9: طاولة/ قسم الفيزياء.

الو. رقم 8: جدار/ قسم الفيزياء.

⁵³² تعمّدا التّركيز على مضامين لها علاقة بعلم الاجتماع، كمنبهات للأساتذة الكرام. خاصة مقياسي المنهجية والاحصاء.

بل عثرنا على كتابات تُعتبر -على الأقل في الخطاب الجغرافي- "الصِّفر" من شيم "الرُّجولة"، حيث نقرأ: الو. رقم 10: "يا أخذ الصِّفر لا تحزن فإن الصِّفر من شيم الرجال" طاوله/المكتبة المركزية. لكن ما سبب هذا الانتشار المهول؟. يندرج 'فعل' التَّحْرَاز ضمن ظاهرة أشمل، كثيرا ما أُرقت المسؤولين والباحثين على حدٍ سواء، بُغية إيجاد حلول لها، أو على الأقل التَّخفيف من حدّة انتشارها المهول، إنّه "الغش في الامتحانات". غير أنّ التّقارير والدراسات أجمعت عكس ذلك⁵³³. لكن ما المقصود بالغش في الامتحان؟.

يُعرّف "الغش" على أنه نوع من التَّحَايَل والخداع الذي ينتهجه "المتعلم/المتحقّن" (مهما كان مستواه) حيال "إحياء طقوس" الاختبارات والامتحانات والمسابقات، للإجابة على الأسئلة المطلوبة، قصد الظّفر بنتائج مقبولة، مؤشّرها "النقطة La note"، وبالتالي "النّجاح" -أو "التّبلاع"⁵³⁴- والانتقال للمستوى الأعلى، أو الحصول على الشّهادة. رسمياً هكذا "سلوك" ممنوع ومرفوض، تُعاقب عليه قوانين المؤسسة التّعليمية. للغش أنواع من أشهرها:

- الاستعانة بالغير أثناء الامتحانات، وهو التّوع الأكثر حضوراً، ويُعرف في بعض الأدبيات باستراتيجية التنسيق مع الآخر (الطالب، الأستاذ، أو شخص من خارج الجامعة..).
- إنجاز الواجبات والتّمارين المنزلية من قبل الأهل أو الأقارب والأصدقاء بدل المتعلم.
- النّسخ "الكامل" لدراسات ومذكرات أخرى، ما يُعرف بـ"القرصنة الأدبية والعلمية Le plagiat" وفق ثقافة "Copier /coller"، سواء من نفس الجامعة أو من جامعات أخرى، أو من الأنترنت.

⁵³³ في بريطانيا جاء في صحيفة "Daily Mirror" لشهر فيفري 2010، أنّ الوكالة البريطانية لمراقبة الامتحانات OFQUAL سجلت خلال السّنة الماضية أزيد من 4500 محاولة غش، خلال امتحانات الشّهادة العامة للتعليم الثّانوي GCSE، وشهادة "المستوى A-Level" (التي تعادل شهادة البكالوريا عندنا)، أغلب حالات الغش (حوالي 1897 حالة)، أُستخدمت فيها وسائل متنوعة (الهواتف النقالة، الآلات الحاسبة، القواميس الإلكترونية والحوليات. أمّا في اليابان، فتحدثت الصّحف عن تسجيل 4 حالة غش متتابعة لطالب يبلغ من العمر 19 سنة، خلال مسابقات الدخول لأربع جامعات يابانية عريقة، في مارس 2011، حيث نشر أسئلة امتحاني الرياضيات واللغة الإنجليزيّة على صفحة المساعدة لـYahoo، ليسترجعها بعدما تمّ الإجابة عليها من طرف من كانوا في اتصال معه Les internautes، باستخدام عنوان هاتفه "L'adresse IP"، رغم المنع الثّام للاستخدام للهواتف خلال الامتحانات، وتجهيز الجامعات اليابانية لنظام تشويش الموجات. إذ تمّ توقيفه من طرف الشّرطة وقُدّم للمحاكمة، حيث حُكِم عليه بغرامة مالية تقدر بـ4.200 €، و3 سنوات سجن. وتعتبر المرّة الأولى التي يتمّ التعامل مع حالات مشابهة.

⁵³⁴ "التّبلاع": مصطلح أساسي من المصطلحات المهندسة للسوق اللغوية وللثقافة الطّلابية التّعليمية، وتعني تمكّن الطّالب من انتزاع معدل عام (10 من 20)، إمّا في المقياس الواحد، أو كامل المقاييس من خلال نظام التّكامل، أو عن طريق صيغة الإلتقاذ، للمرور للمستوى الموالي، أو المستوى الثّانوي والحصول على الشّهادة. وقد يستجد الطالب بأساليب غير قانونية لتحقيق ذلك، أشهرها "التّحْرَاز".

- كما يلجأ ممارسيه أثناء الاختبارات إلى عدّة وسائل وطرق لتنفيذ "إنجاح" هكذا عملية، من أهمها:
- اختلاس النّظر أو الهمس من الزمّيل القريب، "التّحرّاز" على وُريقات تُخبّأ تحت الملابس، بشكل يُيسّر استخراجها للحاجة (وهي الطريقة الأكثر شيوعاً).
- "التّحرّاز" على المنديل أو وضع ورقة بداخله، لأن استخدامه أثناء الامتحان لا يثير الشبهة.
- "التّحرّاز" على المقلّمة، المتزّر، الطاولة، الجدار، العمود، زجاج النّوافذ، اليد والذّراع، بطاقة الطالب، وغيرها من الوسائط القريبة من الطّالب، حيث تُكتَب عليها (المعادلات، النّظريات، القوانين، التّواريخ، وحتى الدّروس كاملة).
- طيّ أوراق صغيرة ووضعها داخل الأقلام لاستخدامها شخصياً، أو لتمريرها لزملاء آخرين. ويتم أيضاً طي أوراق بشكل أنبوبي وإصاقها تحت الطاولة أو الكرسي ليسهل استعمالها.
- الكتابة على أوراق بيضاء بشوكة الفُرجار، أو بشيء مشابه، حتى تبدو وكأنّها ورقة بيضاء، يمكن الاستعانة بها دون أن يتفطن لها أحد. وتحدث التّقارير عن التّحرّاز بـ"الحبر اللّطيف"، أين لا تُكشَف الكتابة إلّا بعد تعريض الورقة المكتوبة لدرجة خفيفة من الحرارة.
- استثمار العديد من التّقنيات الرّقمية الحديثة على نحو المفكرة الإلكترونيّة، إذ تشير التّقارير الصّينية -مثلاً- إلى استخدام كاميرات صغيرة جداً، تُثبّت على المِحمّاة، أو المسطرة، أو القلم، وعن نظارات مُزودة بجهاز استماع، وعن ساعات بِشاشاتٍ تُثبّت على الفخذ. بل، وعن أقلام رقمية مُزوّدة بمتّرجم آلي، وغيرها من آخر الصّيحات الإلكترونيّة⁵³⁵. كما انتشرت في السّنوات الأخيرة مواقع إلكترونية تقدم نصائح وإرشادات عمليّة عن الغش، والسلوكات المتوقّعة من المراقبين، وحتى المدّة التي عادةً ما يفقد فيها المراقب تركيزه في المراقبة، كما تُقدّم العقوبات المحتملة لمن يُمسك في حالة الغش، والتّبريرات الممكن تقديمها في هكذا وضعيّة⁵³⁶.
- تبلورت ممارسة "التّحرّاز" كاستراتيجية-عقلانية- لتعامل الطالب مع إكراهات والزامات الثّقافة التّنظيمية الجامعية، في جانبها التّقيني (الامتحانات)، لكن بلمسةٍ طُلابيةٍ خاصّة. بعدما أضحى الامتحان "غاية لا وسيلة"، كما يعتقد "موريس شربل Maurice Cherbel"⁵³⁷. إذ أصبحت هكذا

⁵³⁵ يمكن الاطلاع على فيديوهات لآخر اختراعات أساليب 'الغش في الامتحانات' على الموقع التالي:

<http://www.youtube.com/watch?v=qZa-L6Jyiak>، تاريخ الاطلاع: 2011/09/5.

⁵³⁶ إنّنا أمام ظاهرة "رقمّة التّحرّاز (المُرقّم)".

⁵³⁷ الامتحان حسب اعتقاده وسيلةٌ وليس غايةً في حدّ ذاتها، إنّه وسيلة لكشف مواطنِ القوّة والضعف في العملية التربوية بُغية تقويمها. ومقياسٌ تعتمد عليه الدول والمؤسسات لتجيز الشّباب للانتقال من مرحلة إلى مرحلة أعلى في السّلم التعليمي، أو

ممارسة شبه عادية، بعدما تمَّ إخراجها من خانة "المحتقر واللامثمن" في الثقافة الطلابية إلى خانة "العادي"، بل "المُثَمَّن" لإجتياز الامتحانات، فالمُسْتَثْنَى أضحي عادي والعادي أضحي مُسْتَثْنَى.

يشخص عالم الاجتماع "روبرت ميرتون Robert Merton" السلوك المنحرف-والتحرّاز (الغش) سلوك منحرف- لهتدي إلى أنّ الثقافة السائدة تُحدّد الأهداف العامّة التي يجب أن يلتزم بها المُنتسِبين لها، إضافةً إلى الكيفيات والممارسات التي تعتبرها مقبولة ومحمودة، تتناسب مع قيمها ومعاييرها الثقافيّة، والتي على الجميع الاختيار من بين المُتاح للوصول إلى الأهداف المسطرة-في موضوعنا النّجاح (التّبلاع) في الامتحان-. لكن، هناك دائماً أشخاصاً "يجتهدون" في بلوغ الأهداف بإستراتيجياتهم الخاصّة، التي غالباً ما تبتعد عن الكيفيات المسطرة سلفاً. وذلك راجع لخاصية البناء الاجتماعي، أيّ المجتمع ومؤسّساته، فالمسؤولية تقع عليه. لأنّ أنماط السلوك المنحرف عبارة عن إستجابة عادية للمواقف الاجتماعية السائدة في المؤسّسة.

المُتتَبِع للوضع التعليمي باختلاف أطواره، يُلحظ-وبدون جهد جهيد- تنامي الظاهرة، واستمرارها في إحتلال "مساحات قبول" على مستوى السلوك والتّمثلات الاجتماعية، لدى جمع غفيرٍ من التّلاميذ والطلبة⁵³⁸. بل تشير المؤشّرات إلى أنّها إنتزعت نوعاً من الاعتراف الرّسمي الغير مُعلن، والغير مُباشر، إعترافٌ ضمنيّ من طرف بعض الفاعلين في الفضاء الجامعي⁵³⁹، من خلال التّساهل في "زدع" مُمارسو هكذا فعل، بطبيعة الحال لغايات في نفس يعقوب، يريد تجاوزها. بالإضافة للاعتداءات ضدّ-بعض- الأساتذة المراقبين، أثناء أو بعد انتهاء الامتحان لِعَدَم السّماح لهم بنقل ما يريدون (الغش في نظر المُراقب). بالإضافة إلى أنّ العلاقة بين الأهداف الثقافيّة والمعايير الرّسمية، ليست بالضرّورة قوية، ولا مُنسجّمة دائماً، لأنّ تحقيق أهداف معيّنة قد يتمّ بعيداً عن الأطر المسموحة بها رسمياً. واللامعياري-كما يعتقد "ميرتون"- حالة تسود بين جماعة يكثر فيها عدد الذين يفشلون في تحقيق الأهداف التي تُقرّها الثقافة التنظيمية (الرسمية)، بوسائل واستراتيجيات غير رسمية، بسبب ندرة تلك الوسائل في الفضاء الاجتماعي. يحدث ذلك نتيجة إختلال التّوازن البنائي بين الأهداف والوسائل.

=للدخول إلى الجامعة، أو للمباشرة بوظيفة ما. من هنا كان التناقض الذي حصل عملياً، وأصبح الامتحان غاية لا وسيلة، فأفضى ذلك إلى إنتشار هكذا أساليب غش.

⁵³⁸ ولعلّ أغرب ما قرأت عن الظاهرة (خلال 2010)، خبر نشرته جريدة "الجزائر نيوز" عن طالبة أجنبية بقسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، بجامعة الجزائر نهاية الموسم 2010/2009، وُجدَ عندها فُصاصة تحرّاز، طولها أزيد من المئتر. (تعرّف هذه الطريقة في الممارسة الطلابية بطريقة "L'accordéon"، نسبة لآلة الموسيقى "L'accordéon diatonique".

⁵³⁹ لا يتسبب التّوصيف فقط على الفضاء الجامعي، بل يتعدّاه لباقي الفضاءات المجتمعية.

انطلاقاً مما ذُكر، يمكننا أن نتفهم "التَّحْرَازَ" كاستراتيجية إبتدعها "الطَّالِبُ المحرِّزُ" -بحسابات عقلانية- للتَّكْيِيفِ والتَّاقْلَمِ المزدوج، من جهة مع إكراهات الثَّقافة الجامعية الرِّسْمِية، وفق القاعدة الميكيفيلية "الغاية تبرر الوسيلة"، والغاية هنا نوعان، غاية إنتزاع النِّقْطة، التي تُمكِّنه من "التَّبْلَاعِ"، وغاية نهائية تتمثل الشهادة. ومن جهة أخرى مع -بعض- قيم الثَّقافة الفرعية الطَّلابِية، الخاصَّة بفئة ما (مع الإشارة إلى أنَّ هناك تمايز نسبي بين قيم الثَّقافة الطَّلابِية نفسها، إذ يمكن الحديث عن ثقافات طلابية فرعية، بعضها يذمُّ ويُقدِّح فعل التَّحْرَازِ كما ستعكسه بعض الوحدات لاحقاً). لكن ما يهْمُنَا هو تلك القيم والمعايير المشتركة بين الطَّالِبِ المُتَبَنَّيْنَ "التَّحْرَازَ" غرافيتياً. والذين يتَّصفون بثقافة فرعية تُثَمِّنُ اختراق بعض معايير الثَّقافة الرِّسْمِية، لتُقَدِّسَ معايير خاصَّة بها، تعتقد أنَّها مناسبة لوضعياتها.

ولتحقيق رهاناتها تتم العملية وفق حسابات استراتيجية عقلانية، تتوزَّع ما بين انتزاع النِّقْطة والحصول على الشَّهادة، بأقل تكلفة ممكنة. وفي ضوء ذلك تتشكل لديهم العديد من القيم والمعايير والشِّعارات التي تُمَجِّدُ مثل هكذا ممارسات. ولعلَّ أشهرها تلك العبارات التي صاحبت الطَّالِبِ منذ الأيام الأولى من وُلوجِه المؤسسة التَّعليمِية، نذكر من بينها: "من نَقَلَ إِنْتَقَلَ، ومن اعتمد على نَفْسِه بَقِيَ في كُرْسِيَه"، و"من أراد العُلَى شَخَّرَ اللَّيَالِي" كرد فعل لِمَبْنَىِ المَقولَةِ الضَّائِعَةِ الصِّيتِ "من أراد العُلَى سهر اللَّيَالِي".

يعتقد الباحث "فرانسوا غينارد François Guénard" (أستاذ بجامعة "Paris Sud - Orsay")، أنَّ الغشَّ في الامتحانات ظاهرة مُسْتَفْحَلة في الجامعة المعاصرة، باختلاف مجتمعاتها، والكل أو على الأقل السَّواد الأعظم من الفاعلين، يتحاشون الحديث عنها. إذ تُؤكِّد التَّقارير الرِّسْمِية والغير رسمية على انتشارها المُتسارع، وتنامي وسائل الغش، خاصَّة بعدما تمَّ استثمار وسائل الاتصال الحديثة لذلك⁵⁴⁰. كما حاولت دراسات مماثلة كشف أسبابها وتمثلاتهم لها، فأشارت أنَّ ذلك يعود إلى:

- ضغط النِّقْطة (العلامة) وتحولها إلى غايةٍ لا وسيلة، مما يثير الرِّغبة القوية في انتزاعها بأيِّ طريقة، لتحقيق القبول في التَّخصُّص، أو الانتقال لمستوى أعلى، أو النَّجَاح -التَّبْلَاع- للضَّفر بالشَّهادة.
- الرِّغبة في تباهي وتفاجر الطالب أمام زملائه بتمكِّنه من "الفعل" و(الغشِّ) رغم مراقبة الأساتذة، فيستحق "الاحترام والتَّقدير" منهم، وبالتالي تأكيد "تميّزه" من خلال هكذا سلوك "غير رسمي".
- تفسُّي سلوك الغش في المؤسسة بحيث تحوّل إلى شبه قاعدة (غير رسمية) في الثَّقافة التَّنْظِيميَّة.

⁵⁴⁰ أننا أمام ما يمكن تسميته بـ "الغش/التَّحْرَازِ المُرَقَمِ".

• الهالة الكبيرة التي تُحاط بها الامتحانات، سواء من الأسرة أو الأساتذة، تخلق لدى أغلب الطلبة الخوف من الرّسوب، فَيَتَّجِهْ إلى الغشّ في حالات عجزه/تفريطه عن التحضير لما طُلِبَ منه - لأسباب شتى تحتاج لدراسات منفردة-

• عدم تفهم المقاييس لأسباب عدّة.

• تماطل وتهاون بعض المراقبين أثناء المراقبة، وانشغالهم مع بعضهم البعض.

ظاهرة مسّت أغلب جامعات العالم باختلاف تخصصاتها، تحولت كما يصفها "باولو فيريري P. Ferrery" في قوله "أصبحت الجامعة تُنتج أشخاصًا مُبرمجين، يُؤثرونَ ثقافة الدّاعة، بالطريقة البنكية. والعلم عندهم مادّة حفظ، وليس منهجًا للبحث والتّجريب والاختبار والاستنباط، وما تزال تغطي بعض المعارف سحَابًا من أساطير التّفكير الخرافي، دون تَعَمُّق في الوقائع والحقائق"⁵⁴¹.

لفت انتباهنا تواجد بعض الكتابات التي تطرح مسألة التّقييم/التّقويم بنوع من الامتعاض، أين يتساءل فيها الطالب عن الطريقة المناسبة للإجابة، والحصول على النقطة، نقرأ منها:

الو. رقم 11: "كيف أجيب يا استاذي" عمود/ قسم الفلسفة.

الو. رقم 12: "النقطة....النقطة كيف السبيل" طاولة/ قسم العلوم الاجتماعية.

يرجع ذلك لِعَدَم وضوح طريقة الإجابة خلال الامتحانات والعروض، وكيفيات التّقويم. فأغلب الامتحانات- كما تؤكدُه العديد من البحوث- تقيس المستويات المعرفية البسيطة، مثل التّدكر، وتتجاهل المستويات العليا، كالتّحليل والتّركيب والتّمييز والتّقويم. والامتحانات بوصفها الحالي لها انعكاسات سلبية على العملية التّعليمية بأكملها، لأنّها ترفع روح التّنافس وتُشجّع الطلاب على الغشّ بدلاً من البحث، نظرًا لاعتمادها على الكتاب المقرّر فقط. أمّا "فاليري إريش Valérie Erlich" فترجع أسبابها لتجذّر مبدأ "إعادة الإنتاج الوفي" لخطاب الأستاذ، عوّضَ الإجابات التي تتميز بالتّحليل الشّخصي، بإعادة تأويل وتحوير المعني. فالدّروس والمحاضرات الحوارية أقل قبولاً لدى الطلبة خاصّة طلبة السّنة الأولى والثّانية⁵⁴² -وحتى بعض الأساتذة-

بمؤسساتنا التّعليمية من الابتدائي إلى الجامعي، "فغالبًا" ما تُقدّس مبدأ "بضاعتنا رُدّت إلينا"، بل "بضاعتنا يجب أن تُردّ إلينا"، ولذلك أسباب عدّة، منها الطريقة البيداغوجية التي تنشأ بها/عليها

⁵⁴¹ حامد عمار، "من همومنا الجامعية"، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، عالم الكتب، القاهرة، جامعة عين الشمس، مركز تطوير التعليم الجامعي، ص 46.

⁵⁴² Valérie Erlich, Jacques Lucciardi, "Le rapport à l'écrit des étudiants de Première année d'université", SPIRALE, Revue de Recherches en Éducation, 2004, n° 33, pp.113- 126.

القائمين على النظام التعليمي، بدءاً من مُعتلي الوصاية إلى المفتشين والمدراء والأساتذة. إنها الطريقة التلقينية "التقليدية" المعتمدة على الحفظ والاستظهار الآلي للمعلومات. وكأن الطالب أضحي خزاناً تُخزّن فيه المعلومات لإستظهارها وقت الحاجة، وفق طريقة المثير والاستجابة البافلوفية (نسبة لنظرية المنعكس الشرطي للعالم الروسي "إيفان بافلوف Ivan Pavlov")، حيث نُطالبه بتفريغها⁵⁴³. بل ويرفض بعضنا -كأساتذة ومسؤولين- استنارت السؤال أثناء الدروس. يصف هكذا وضعية بيداغوجية -في الجامعة الجزائرية- الدكتور "محمد بن عبد الكريم الجزائري"، في كتابه "الثقافة ومآسي رجالها"، بقوله "..قد حاولت أن أناقش في إحدى المسائل، أستاذ من جامعة الجزائر، عندما كنت طالباً بها، عندما أخطأ في المسألة، فغضب الأستاذ، واستشاط من مناقشتي إياه، وأجبرني على السكوت، ثم خاطبني -مع من معي من الطلبة- بقوله "خذوا عنا، ولا تعترضوا عنا"، فلم يكن في وسعي سوى امتثال أمره، ولم أبح قاعة الدرس حتى جادت قريحتي بثلاثة أبيات شعرية، ها هي ذي:

مالي أراني من الأشياخ في عجبٍ ♣ لم يأت منهم سوى الأوهام والريب
أضعت علماً غزيراً كنت أحمله ♣ وما بقيت سليم الفكر والعصب
قالوا: وثقنا بحفظ النص مجتلباً ♣ أما النقاش فنحن منه في غضب⁵⁴⁴.

بل أكثر من ذلك، فقد استبطن العديد من الطلبة الطريقة الإملائية لمعرفة كيفية إعادة البضاعة إلى صاحبها، إما بالحفظ الآلي أو التخّراز. ولتجنب المساءلة المباشرة خلال المحاضرات. ولهذا تكثر السجلات بين الطلبة والأساتذة كل بداية موسم دراسي، حول طريقة التدريس المناسبة لهم (الإملائية)، بل قد يواجه الأستاذ مقاومة -شرسة- إذا حاول تغييرها بطرق أخرى. وبعد طول سجالٍ تُجمع الأغلبية على اختيار طريقة "ما وجدنا عليه آباءنا الأولين"، باستثناء بعض الأساتذة الذين يتمكنون من مجارة الطلبة بأساليب مختلفة. تصف لنا الباحثة "طالب إبراهيمي خولة" الوضع بقولها "...وإذا بدأت دروسك في حصصها الأولى، تسمع أصواتاً تُنادي بالإملاء، وإذا أُرجعت وثائق الامتحان، تسمع كذلك الطلبة يَحْتَجُون فيقولون "كُتِبْتُ وَاشْ قُلْتُ"، وكأن الطلبة سُجِناء نَمَط من التعليم، لا يُقَدِرُونَ على رَدِّهِ، والتخّرر منه، فإنهم أَدْمَغَةٌ تُشَكِّلُ وتُخَبِّئُ بالمعلومات، فإذا

⁵⁴³ للمزيد يمكن الرجوع لكتاب:

Malika Boudali Greffou, "L'école Algérienne de IBN BADIS à PAVLOV", (Préfacé par : Mohamed DJIDJELLI), Alger, LAPHOMIC, 1989, 123 p.

⁵⁴⁴ محمد بن عبد الكريم الجزائري، "الثقافة ومآسي رجالها"، الجزائر، شركة الشهاب، د س ن، ص 66.

أَخْرَجَتْهُمْ مِنْ هَذَا النَّمَطِ شَعْرُوا بِالْقَلْقِ وَالْفَشْلِ...⁵⁴⁵. بالإضافة لـ"معضلة" البطالة، الملامسة موضوعياً لشريحة واسعة من الفئات الشبانية، باختلاف مستوياتها التعليمية على رأسهم الشباب الجامعي. فقد غيرت بشكل جذري الشروط العامة لحياة الشباب المتعلم وغير متعلم، الذي فقد الثقة في "المدرسة" بكل أطوارها كمحطة مهمة لجراك اجتماعي صاعد. بالإضافة لتراجع مكانة الفئات المتعلمة ضمن السلم التراتبية الاجتماعية.

لفت انتباهنا تنامي-نقول تنامي لأننا لم نعثر على مثل هكذا عبارات خلال دراستنا السابقة- نوع من الكتابات التي ترفض وتقدح فعل "التحراز" (الغش)، بل وتقدح المستوى المنحط، والمنتدّي لمستوى التعليم الجامعي ككل، وتتهم-مباشرةً- الطالب بالتقصير في ذلك. حيث نقرأ على سبيل المثال:

الو. رقم 13: "إذا أعجبك حلاوة الكسل فتذكر مرارة الفشل" طاولة/ علم الاجتماع إمامة.

الو. رقم 14: "لا تنقل أنت في الماستير" + "لا تنقل أنت في الماستير" طاولة/العلوم الاجتماعية.

الو. رقم 15: "أبها الأطفال أفيقوا وأنضجوا لماذا هذا المستوى المتدني..نفوة" طاولة/العلوم الاقتصادية. مضامين تتفق -إلى حدٍ ما- مع إملاءات وتوصيات "ثقافة المؤسسة" الجامعية، تُؤشّر على تمثّل نسبة من الطلبة لتعاليمها التنظيمية، نقول ذلك على الأقل على مستوى المكتوب غرافيتياً.

2.3.3. الغرافيتيا العاطفية والغرامية:

يتوقّر-ويُوقّر- الفضاء الجامعي فرصاً سانحةً لنسج علاقات خاصّة بين الجنسين، تتوزّع ما بين أوقات المحاضرات والاستراحة، وانتظار الحافلة، وتناول وجبات الغذاء (خاصّة المطعم المركزي)، وإضراب الأساتذة أو غيابهم. في بهو المكتبة، أوقات إعداد العروض الجماعية (حيث تحوّلت المكتبة لفضاء جدّ مناسب للهمس والهمز في العلاقات الغرامية أو للتّحضير لها). وفي الأحياء الجامعية التي تعرف حالة الاختلاط بين الطلبة، أو المتجاوزة في التّشديد. بل، وحتى خلال نهاية الأسبوع، مما يفسح المجال لتواشج علاقات عاطفية بينهم.

علاقات غرامية تُنسج وتُشبك وفق قاعدة كثيرة الحضور في الثقافة الطلابية "نظرة وإيماءات فموعد ولقاء"، فتجدّهم على المقاعد ينتشرون، وفي كلّ مكان وزاوية يجلسون، يتهمسون ويتلامزون ويتهمزون، و"برسائل SMS" يتواعدون⁵⁴⁶. حتّى أضحت هكذا علاقات غرامية سلوكاً

⁵⁴⁵ طالب إبراهيمي خولة، "من الثانوية إلى الجامعة، بين لغة التدريس والموقف من المعرفة. جامعة تبحث عن نفسها! طلبة أم تلاميذ؟!"، الجامعة اليوم: (أعمال ندوة)، تنسيق وتقديم: جمال غريد، منشورات CRASC، ماي 1998، ص 61-72.

⁵⁴⁶ في هذا السياق يؤكد "مارك أوجي Marc Augé" على أهمية التقنيات الحديثة للاتصالات في تكوين ثقافة الشباب عامّة. وفي ذات الفكرة يؤكد "ميشال فوكو M. Foucault" أنّ التطور التكنولوجي سمح للأفراد التحرر من إكراهات النظام، ومن الهويات الموروثة (المقولبة سلفاً).

عادياً داخل "الحرم الجامعي"⁵⁴⁷. تنوعت الكتابات الغرافيتية المتضمّنة للعاطفة والغرام، حيث بلغت نسبتها 15% من النّسبة العامة للمضامين، ما بين التّعبير عن مدى الهَيَام والتّئيم بـ"المعشوق"، أو القَدح والتّشهير (السّلي) له في حالة فِشل العلاقة بينهما. كما تباينت من حيث الصّيغة اللغوية المتنوعة التّركيب، ركّزناها في ثلاثة مستويات، أما المستوى الأول سمّيناه بـ"معادلات الحب".

وأما الثّاني، فتجلّى من خلال رسومات لرموز وأشكال وصور ذات دلالات رمزيّة اجتماعية، لمسألة "الحب والغرام"، على نحو (القلب، السّهم، قطرات الدم...). وأمّا الثّالث، فتجلّى في عبارات ذات أسلوب مباشر عن الحب والغرام ولوّاعججه، مع تغييب مقصود لإسم ولقب المُعْرِفَت (ة) أو المُعْرِفَت به (ل) أو له (ل)، فإمّا "الاسم" أو "اللقب"، ونادراً ما نلفيهما معاً في وحدة⁵⁴⁸. نستعرضها ونُذيل كل مستوى بتعليق خاص، ثم بتعليق شامل، يحاول تفسير انتشاره بهذا كيفة ونسبة.

أ. "معادلات الحب" معادلات وفاق:

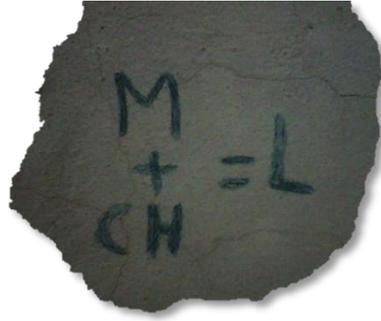
من بين المضامين المعبّرة عن أبعاد "العاطفة والغرام"، كتابات إصطلحنّا على تسميتها بـ "معادلات الحب"، لاحتوائها على عناصر المعادلة، حيث تتأثت من ثلاثة عناصر، إسم العاشق (طالب) + اسم المعشوق (الطالبة) = نتيجتها "الحتمية" والمأمولة "الحب"، بكل لغات ولهجات العالم. ويمكن أن يُعكس طرفي المعادلة (بحسب كاتب الرّسالة الغرامية)، فُتُكُتَب كما يلي: العاشق (الطالبة) + المعشوق (الطالب) = الحب للأبد (بكل اللغات). وغالباً ما تُهندسُ المعادلة بكتابة الحرف الأوّل لإسم العاشق والمعشوق... وهذه بعض النّماذج الغرافيتية:



الو. رقم 16: طاولة/ قسم العلوم الاجتماعية. الو. رقم 17: باب غرفة/ إقامة جامعية.

547 جعلت أحدهم يكتب "هوايتي تَرَصّد طالبات السنة الأولى" عمود/ المكتبة المركزية.

548 يجب لفت الانتباه إلى تواجد أشكال أخرى تمزج وتخلط بين الأشكال الثلاثة لإيصال الرّسالة الغرامية.



الو. رقم 18: جدار/ قسم الهندسة المدنية الو. رقم 19: نافذة/مرحاض/(كُتِبَت بالبُرَاز).

تكشف البنية والصياغة اللغوية للوحدات الجرافيتية مدى فاعلية الكايح (الضابط) الاجتماعي في قضية الجنس والعاطفة، إذ لم يستطيع الطالب البوح بأحاسيسه اتجاه الطرف المقصود. فالحرف كناية عن الاسم أو اللقب، لكن نظراً لثقل الممنوعات الجاثية في ضميره وعقله الباطن، بعدم التشهير، هكذا مسألة، خاصة فيما يتعلق بأسماء الفاعلين، (بنفسه وبالطرف الآخر)، ابتدع هكذا معادلات غرامية، مؤثثة بكلمات وعبارات مستوحاة من الثقافة الغرامية المحلية والمجتمعية (إنشاء الله، برّبي،..)، والعالمية.

ب. "القلب" أيقونة رمزية للعلاقات الغرامية:

نقصد بالرمز تلك الأشكال والرسومات التي توحى بدلالة معينة، تتعدى صورته المورفولوجية (الصورية)، وله معنى خاص لدى فئة أو مجتمع معين، على نحو صورة القلب، التي تعتبر من أكثر الرموز شهرةً. تحوّل في العقود الأخيرة إلى رمز عالمي يتجاوز اللغات كلها، وأصبح لغة مشتركة بين المجتمعات، باعتباره صورة مادية ورمزية تجسّد بقوة مفهوم تجريدي ألا وهو "الحب" (العشق، الغرام) -خاصة للعلاقة بين الجنسين). بل إنّه منبع الانفعال العاطفي والروحي والفكري، عثر عليه علماء الآثار مُكرراً في الرسوم البدائية التي تركها الإنسان القديم على جدران الكهوف (الغرافيتيا التاريخية). إلا أنّه لم يكن يحمل معناه المعاصر⁵⁴⁹.

⁵⁴⁹ يرجع أول استخدام رسمي لرمز (القلب)، حينما همت مصانع طباعة ورّق "الكوثشينة" في فرنسا عام 1480 بعد مدّة قصيرة من اختراع الطباعة. ويعتبر شعار "أنا أحب نيويورك" (I love New York) (J♥NY) أحد أشهر الشعارات المعاصرة، صمّم في أواسط السبعينات على يد الفنان "ملتون جلايزر" Milton Glaser. وقد تحوّل إلى علامة تجارية للحملات الدعاية السياحية للمدينة منذ ذلك الوقت. واستخدم على كل ما يمكن تصويره من سلع ترويجية وسياحية: الحلّي، والأقلام، وأكواب القهوة، وعلاقات المفاتيح، والأزرار، وحبّات الحلوى... حاولت مدينة "نيويورك" حمايته من التقليد، ويقال إنّها رفعت ما يزيد على (ثلاثين ألف) قضية في سعيها إلى ذلك.



الو. رقم 20: مكتب/قسم الإعلام الآلي . الو. رقم 21: باب/ قسم اللغات.



ى

الو. رقم 22: جدار/قسم الهندسة المدنية. الو. رقم 23: طاولة/قسم الهندسة الميكانيكية.

اكتسبت -وأكسبت- هذه الرموز دلالات رمزية ثقافية مُحدّدة، تختزل حالات ومستويات العلاقة العاطفية والغرامية بين طرفين، إمّا المعاناة أو المباهاة، والتي تُنوب عن "أحبُّ I love"، أو الكشف والإعلان عن الرّغبة في ربط علاقة مع الآخر. ذلك لأنّ النّشاط الجنسي العاطفي، رمزي في أكثر جوانبه، فهو يُعبّر عن ملامح من هويتنا، وطبيعة المشاعر والعواطف التي تُراودنا⁵⁵⁰.

خ. "الكلمة" دلالاتها المُعبّرة:

عكست بعض "الكتابات" الحالات العاطفية التي يعيشها "العاشق" إتجاه عشيقته(ها)، بالكشف عن درجة الإعجاب والتّعلق به (ها)، أو الإعلاء من مسألة الحب والجنس، ومحاولة اكتشاف منعرجاته، سواء بالبحث عنه من خلال الممارسة (التّجارب الغرامية Les histoires)، أو الاستفسار عنه بين جماعة الأقران. أو البحث عنه في مُتُون الصّحف والمجلّات والمواقع الإلكترونيّة (المتخصّصة)⁵⁵¹.

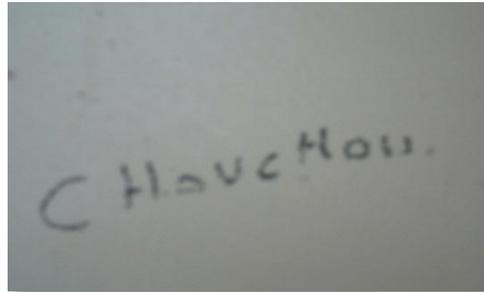
⁵⁵⁰ أنتوني غيدنز، "علم الاجتماع"، مرجع سابق، ص 208.

⁵⁵¹ حسب إحصاءات محرك "Google" العرب هم أكثر المجتمعات بحثاً عن كلمة "جنس Sexe"، لأسباب عدّة، خاصة الثقافية منها. للاستزادة يمكن الرجوع للموقع التالي: <http://www.google.com/trends?q=sex>.

يتم ذلك باستثمار وحدة "الكلمة" التي وصفها "برايس باران Braice Parain"⁵⁵² بقوله إنَّ "الكلمات مُسَدَّسات عَامِرَة بِقَدَّائِفِهَا". فكلُّ رمز أو كلمة حُبَلِي بِحَمُولَة دلالية خاصَّة. في سياق "حديثه الجرافيتي" عن مسألة الحب والغرام، يمكن للطالب أن يرتقي لـ"شخص ساخرٍ Homo ludens" ومبدع، يتلاعب بالكلمات والرموز، لِيُعَبِّرَ ببراعةٍ عن لَوَاعِجِهِ أو سخريته من الواقع المَعِيش، حيث يُبَدِّل وَيُغَيِّرُ وَيُحَوِّرُ الحروف والكلمات، قد تُخَلُّ بسلامة الرسالة (الكلمة، العبارة)، بُنيويًا ودلاليًا ونحويًا، ليعكس فكرة ما، على نحو الوحدات التالية:

الو. رقم 24: "Regarde la réalité en farce" طاولة/ قسم الترجمة.

الو. رقم 25: "Fatma you are not HalowIne"⁵⁵³ نافذة / قسم اللغات.



الو. رقم 26: جدار/كلية العلوم الاقتصادية الو. رقم 27: طاولة/ قسم الصيدلة.

ويمكن لعلاقات التفاعل العاطفي أن تدخل فترة ركودٍ أو إخفاقات متتالية، ومتباينة النتائج، ظهرت آثارها في مضمون الكتابات. يتجلى ذلك واضحًا من خلال كتابات لأسماء الطالبات أو الطلبة، أو أرقام هواتفهم (هِنَّ) بُغِيَة التَّشْهِيرِ والقَدْحِ بهنَّ⁵⁵⁴، حيث انتشرت كتابات تَشْمُت وتَسُبُّ وتقدِّح إخفاقات حدثت لأسباب شتى.

الو. رقم 28: "يا أوَانِس حذاري من الغَدَارِ الرجل" مدخل جناح/الاقامة الجامعية للبنات.

الو. رقم 29: "احذروا الجنس الخَشِن كلهم زَخَّاس" نافذة/ الأدب العربي.

لِيَرُدَّ عليها آخر. "حذار من الجنس النَّاعِمِ" نفس الحامل و المكان.

الو. رقم 30: "méfier vous des garçons" طاولة/ قسم العلوم الدقيقة.

⁵⁵² فيلسوف فرنسي (1897-1971)، من أهم مؤلفاته: *Recherches sur la nature et les fonctions du langage*, Gallimard, 1942, 196 pages

"تَرَصَّد فيه تاريخ الفلسفة واللغة، منذ ما قبل "سقراط" الى "هيغل".

⁵⁵³ أشرنا سابقًا لتعدُّد وتنوع الأخطاء التَّحْوِيَة والصرفية في صدر هذا الفصل. وهذا ما قد يُؤشِّر على خلل في تمكنه المعرفي

باللغة المستخدمة في حديثه اليومي (الرسمي والغير رسمي)، سواء العربية أو الفرنسية.

⁵⁵⁴ مؤشِّر على نمط من العلاقة الصَّرَاعِيَة بين الجنسين، وعلى ريدود الأفعال ضدَّ الهيمنة الذكورية في المُتَخَيَّل الاجتماعي فيما يتعلق بمسائل تتركِّز حولها سلطة المنع (خاصة الجنس)، من خلال التنشئة الاجتماعية (المجتمعية).

كما عكست بعض المضامين الجغرافية مدى تلَهْفِ الفاعل لموضوع الجنس ومُروّجيه، خاصة القنوات المُسوّقة له، بأسلوب مباشرٍ (فاضح). نقرأ منها ما يلي:

الو. رقم 31: "Chercher le sexe la moure, le corps" جدار/ قسم الترجمة.

الو. رقم 32: "Peace and love and sex" عمود/ قسم البيولوجيا.

ليس من اليسير الحَقْر معرفيًا حول موضوع "العاطفة والجنس" في المجتمع الجزائري، نظرًا للتكتّم المفروض عليه على مستوى النقاش العلني، وللهالة الوصفية لهذا البُعد الهويّاتي، رغم إنوجادِه القوي على مستوى عناصر الدّات والأفعال والتّصرفات والعلاقات بين الجنسين. ذلك لأنّ العلاقات العاطفية هي توطئة قَدَر الإنسان وشَرطه إنوجادِه، فهو قبل كل شيء كائن علائقي تواصلِي، ولا يمكن لبعض التّقاليد أو الأعراف أن تمنع الجنسين من التّعارف والتّواصل والتّعالق⁵⁵⁵. إذ، غالبًا ما نتمثّل هكذا بعد كفضاء للتّسكّر والكبح والكتّمان الحشومة والعيب والحرام (اجتماعيًا) على مستوى المناقشة العلنية بين الأفراد والمؤسسات، لعدم تفتيح عُيون أبنائنا عليه.

رغم ذلك، يبقى "الجنس" في مخيالنا الاجتماعي هو المرغوب والمرفوض في آن واحد، هو المُتعة المُرادّة واللّغنة المُساقّة، يشكّل هاجسًا قويًا يتّحَيّن المناسبات والفرص للظهور، ومنه يُمسي قوّة موجّهة ومُنْتِجَة لِنماذج من التّصورات والمفاهيم والقيم، تنتظر من يجرؤ تجاوز خُطوطها المُفتَعلة⁵⁵⁶. خطوطٌ، ضيّقت حيز السّجال (النقّاش) فيه بحجّة مُلامسة، بل وافتراع عذريّة الطّابوهات المجتمعية، التي يجب الوقوف عندها. وكأنّنا نصّر على حرث البّحر، و زرع الهواء، وتلقح القبور ببذور الزّهور.

على مستوى المضامين الجغرافية الطلابية، يلج الطالب(ة) الجامعة مُتَشَبِعًا بهكذا تمثّلات اجتماعية⁵⁵⁷ عن الجنس وما حوى، والجُنوسَة وما تضمّنت، فإذا به يصطدم بسلوكيات وتأويلات خاصّة، "مُتحرّرة نوعًا ما" من الرّقابة الاجتماعية، تُيسّر نسج علاقات عاطفية بين الجنسين. يدخل

555 للأسف، تمثّلنا العام لهذا علاقة لا يتعدى - في غالب الأحيان - مستوى تحقيق الرّغبة الجنسية، فالذّكر (الرجل) لا يتمثّل الأنثى (المرأة) سوى كموضوع جنسي يجب الذّفر والإطاحة بها، بكل الحيل والطّرق. والأنثى ذاتها، لا تتمثّل الذّكر إلا كموضوع جنسي يريد الإيقاع بها، لإشباع لذته لا غير. والعكس صحيح. فلماذا الإصرار على عسكرة العلائق بين الجنسين ضدّ بعضهما البعض؟.

556 تُرسم هذه الخطوط من خلال نظام التّمثّلات الاجتماعية التي تُهندس العلاقات المُفترضة بين الجنسين (ذكورًا وإناثًا)، وذلك عبر عمليات البصم - والوصم - الاجتماعي الذي تضمّنه مؤسسات التّنشئة الاجتماعية التقليدية.

557 لم تتشكل هكذا تمثّلات من لا شيء، وإنّما تعود لمرجعيات سوسيوثقافية، رُسّخت في العقل الجمعي للطالب، إنّها ثمرة التّنشئة الاجتماعية التي تحرص على تنفيذها المؤسسات (التقليدية). في مُقابل ذلك تدفقت ثقافة شبابية تُدّيس (اعتقاد المؤسسات الوصية) هذه المرجعيات، وجدت في وسائل الإعلام والاتصال ملأًا آمنًا لتسويقها ونشرها.

في اضطراب ما بين إملاءات وتوصيات الضمير الجمعي المآقبل جامعي (الأسري والمسجدي والمحلي)، وإغراءات سوق العرض العلاقتي (الغرامية) في الوسط الجامعي.

ورغم الحضور الملفت لـ"معضلة" الجنس (والعلاقات العاطفية) في حياتنا اليومية، إلا إنها لا تزال في حاجة للتحرر من "ثقل الهابيتوس Habitus" الذي يشكلها. والمُتَبَصِّر لمضامين بعض الكتابات العاطفية والغرامية والجنسية-خاصة بالمراحيض- يلحظ نوعاً من "العطب الطلّابي" المفتوح على ذات المسألة. إذ لم يجد الطالب مساحة تعبيرية كافية لتفريغ المكبوت، والتساؤل الجنسي اللّحُوح، لأسباب أغلبها يعود لقيم ومعايير الثقافة السائدة، التي كثيراً ما تُحدِّد وتُنمِّط العلاقات العاطفية.

فالمعطيات الثقافية -كما يؤكد ذلك "رالف لينتون Ralph Linton"- تُحدِّد النظرة إلى الفوارق البيولوجية وليس العكس، وكل المجتمعات تفرض على الجنسين مواقف ومهام مُتباينة، وأغلبها تحاول عقْلنة هذه الفوارق بالارتكاز على الخلافات الفيزيولوجية بين الجنسين، أو دورهما المختلف في عملية إعادة الإنتاج. ولكن دراسة مُقارِنة للأدوار المنوطة بالجنسين في الثقافات المختلفة تُبرز أنّ العوامل السابقة الذِّكر قد تكون نقطة البداية في توزيع الأدوار، ولكن الثقافة السائدة هي التي تحدّد في الواقع نسبتها للمرأة والرجل. وتَبَيَّن الخصائص النفسية المنسوبة للرجال والنساء في المجتمعات تبايناً كبيراً هي الأخرى، إلى حدِّ كونها ترتكز على تبريرات فيزيولوجية واهية⁵⁵⁸.

حيث تشير الدراسات إلى أنّ "السُّلوك العاطفي" إنّما يَنجُم عن التعليم/التعلم لا عن الفطرة، أي عن طريق سيرورة التنشئة الاجتماعية الجنوسية⁵⁵⁹، من خلال الأدوار التي يتعلمها الأفراد، بمساعدة وكالات فاعلة (الأسرة، المدرسة، وسائل الإعلام...). مما يجعلها (التنشئة الجنوسية)⁵⁶⁰ تستمر من المَهْد إلى اللّحد. وللأسف، تغيب هذه التنشئة المقصودة (التنشئة الاستباقية Socialisation anticipatrice)، في أسرنا ومؤسساتنا التعليمية، باستثناء بعض الدروس التي

⁵⁵⁸ Ralph Linton, "The study of man", Londres, Appleton- century Co ; 1936, p116.

=نقلاً عن: فاطمة المرينسي، "ما وراء الحجاب، الجنس وكهندسة اجتماعية"، ترجمة فاطمة الزهراء أزروبل، الطبعة الرابعة، المغرب، المركز الثقافي العربي نشر فنك، 2005، ص 21.

⁵⁵⁹ يميّز علماء الاجتماع بين "الجنس" و"الجنوسة"، فأما الجنس، فيقصد به الفوارق البيولوجية بين جسم الذكر وجسم الأنثى، وأما الجنوسة، فتعني الفوارق النفسية والاجتماعية والثقافية بين الرجال والنساء.

⁵⁶⁰ التنشئة الجنوسية الاجتماعية: عمليات التنشئة الاجتماعية المتواصلة على مدار الحياة، لتنمية الخصائص التي تتلاءم مع التوقعات الاجتماعية من كلا الجنسين. (تعريف "أنتوني غيدنز A. Giddens").

تُلامس مسألة الجنس في بعدها الفيزيولوجي التَّشريحي، بنوع من التَّحفظ والحِشمة⁵⁶¹. والانتشار المَهُول لثقافةِ نُسُوقٍ و"نُسَلَعِينُ" الجنس والعاطفة وفق رؤية ضيقة، من خلال الأفلام والمسلسلات (خاصةً المستوردة منها: التركية، المكسيكية، البرازيلية والصينية...)، وتشكيلها (فرضها) لهايبيتوس معيّن من العلاقات، يدخل في سياق عَوْلَمَة مفاهيم العلاقات العاطفية والجنسية.

ولعل من أبرز مميّزات "الكتابات" الخاصة بهذا المضمون، تغييبُ مقصودٌ لِاسم الفاعل، (الاسم الكامل: اسم+ لقب)، لقد افتعل "صفة المجهولية L'anonymat"، فحضوره يكون بالغياب المباشر، والحضور الغير مباشر لأنّاه الفردية، أمام هويته المَظْهَريّة أو الإسمية. ومنه، ترتقي الممارسة الجغرافية لتكون إستراتيجية إعلان حضور مُتميّز، وفي ذات اللحظة غياب/تغييبٌ مقصود، مُتميّز كذلك. ذلك لأنّه يَعي جَيِّدًا أنّ ما يريد قوله جغرافيتيًا يقع في خانة الممنوع أو المرفوض من قِبل "العقل الجمعي". فَيَزَكُن إلى خيار تغييب اسم الفاعل، حتّى ولو حَضَرَ بجزءٍ من هويته الاسمية (اسمه أو لقبه أو كنيته)، إذ نادرًا ما وجدنا اسمًا كاملاً في الوحدات الخاصة بهكذا مسألة. فالموقف المتناقض من الجنس/الجنوسة في المجتمع، وهشاشة التّربية الجنسية للطالب⁵⁶²، وانتشار الفُوبِيّات Les phobies، نتيجة الكَبْت المجتمعي، لمسألة العاطفة وعلاقتنا بالجنس الآخر، من بين مبررات استثارة الحضور القوي للجغرافيتيا العاطفية والجنسيّة⁵⁶³. إذ نعتقد أنّ ذلك يعود لأسباب عدّة:

- خصوصيّة التَّنشئة الجامعية -خاصّة الغير رسمية- التي تعمل على تيسير العلاقات العاطفية بين الطلاب، نظرًا لتباعد المسافات (عن المنزل، وعن المجتمع المحلي).
- تحوّل الفضاء الجامعي إلى فضاء مُستثير ومُحَفِّز للعلاقات العاطفية بين الجنسين، نظرًا لانتساع هامش الحرية والحركة والفاعل.
- كما أنّ العدد المتعبّر للطلّبة يجعل "تجربة" العلاقات العاطفية أمرًا مقبولًا، لأنّه "أمر عادي C'est normal" ما دامت تمارسه الأغلبية، بل قد يصبح أمرًا مطلوبًا في الثقافة الطّلابية. فالطّالِب(ة) الذي ليست له علاقات مع الجنس الآخر يُوصَف (علنًا أو ضمنيًا) بأوصاف دُونية،

⁵⁶¹ يتحدّث الباحثون في مقاربتهم لموضوع الجنس عن خمسة مستويات رئيسة: المستوى السيكو- فيزيولوجي، المستوى الرّمزي

الثقافي، المستوى النّمطي، والمستوى المؤسّساتي، ثم المستوى الأيديولوجي.

⁵⁶² وقَبْلَهُ باقي الفاعلين في "التنشئة المجتمعية".

⁵⁶³ حتّى أنّ البعض يتحدّث عن "البُخل العاطفي" في علاقتنا الاجتماعية.

كالمُتَأخَّر(ة) -مَارَاكُش عَايْش-⁵⁶⁴. حيث أُمسى الفضاء -الأزْحَب- الذي يُمْكِن من رِبْط عِلاَقَات عاطفية دون الوقوع في شِرَاكِ السَّلْطَة المجتمعية، التي غالبًا ما تُلاحق هكذا بعد، إذ تُغَيِّبُه من الحوارات الرّسْمية (المقررات التّعليمية، وسائل الإعلام الرّسْمية). لكن، يجب التّنبيه بأننا لا نتحدث عن العِلاَقَات العاطفية من جانب الممارساتي (لأنّها سارية المفعول)، وإنّما من الجانب التّعليمي التّربوي-السّليم- بمعنى تعليم الشّباب كيف يتعامل مع هكذا بعد، خاصة أثناء المراهقة، حيث يتعرّض لوابلٍ من الأسئلة العاطفية والجنسية "المحرّجة"، فيبحث لها عن إجابات، غالبًا ما يجد لها شذرات عند أقرانه، وهذا ما قد يُضفي للفهم النّاقص لهكذا جانبٍ مُهمّ.

فالتّالِب(ة) من وراء هكذا جغرافيتيّا، يرومُ تفرّغ وتصريف بعض مكبوتاته، وبثّ لواعج حُبّه وإعجابه وعشقه للطّرف الآخر، بُغية استدراك نوع من التّوافق النّفسي الاجتماعي العِلاَقاتي، ذلك لأنّه يُعاني من اضطراب ما بين التّمثّلات والممارسات، و"إغراءات" الفضاء الجامعي، وما بين الإملاءات التّنشؤوية المجتمعية (العيب والحرام..). إضافةً لإكراهات المرحلة العُمريّة (المراهقة)، باعتبارها مرحلة إعادة تنظيم للتّوازنات السّابقة على المستوى الجسدي والنّفسي والعاطفي والفكري، ومنه، إعادة ترتيب مَعَالِم هويّته السّابقة (الطفولة)⁵⁶⁵. مما يولّد لديه نوعاً من الاضطراب، حاول التّعبير عنه جغرافيتيًّا. فَتَجَسَّر وتَسِيح مَوَاطِن البَوَح العاطفي/الجنسي، والتّعبير عمّا يُوصَف بالمُدَنَس، واتّساع الرّقعة المُسَيّجة، بل وارتفاع السّياج ليصل لمراحل عُمرية مُتقدمة من حياة الفرد، تتجاوز مرحلة الطفولة، يجعل الطالب يبحث عن "طرق هُرُوبية" في التّعامل مع هكذا موضوع، فكانت الجغرافيتيّا واحدة منها.

إذ كثيرًا ما تُواجه المسائل الجنسية -حسب "كريمة البهجوري" وآخرون- في مختلف المناسبات العامة والاجتماعية والعلمية، وحتى الطّبيّة، بِسِتار ثقيلٍ من الصّمّت أو الإحراج أو الجهل أو التّجاهل، أو بمزيج من ذلك جميعًا. فلا بديل عن التّربية الجنسية في عصرنا⁵⁶⁶. لأنّ الثقافة الجنسية كأى ثقافة أخرى متصلة بالإنسان، بجسده وغرائزه، لذا من الضروري اكتسابها والتّعرف على ذلك. وأنّ ما نعيشه من "محرّمات اجتماعية" حول الموضوع، إنّما هو بفعل التقاليد

⁵⁶⁴ كنا قد إطلعنا على مجموعة من الدّراسات الأولية التي أجريت حول موضوع "العلاقات العاطفية"، بالجامعة، أكدت في غالبها أنّ "العلاقات العاطفية في تمثّلات الطّلبة"، أمرٌ لا بُدّ منه. فأغلب المقابلات التي أجريت معهم، تُجمع على أن الطالب/الطالبة الذي ليس له علاقات غرامية مع الآخر، ما زال لم يَفْقه "الحياة"، وما زال متأخرًا عن متطلبات (موضة) العصر (Retard).

⁵⁶⁵ Marion Haza, "Le psychologue à l'écoute des adolescents tagueurs", Sociétés et jeunes en difficulté, n°2, 2006. <http://sejed.revues.org/index185.html>. Consulté le: 26/8/س 2011.

⁵⁶⁶ كريمة البهجوري، "الموسوعة الجنسية"، القاهرة، مكتبة الهلال للنشر والتوزيع، 2010، ص 5.

والتراكمات التاريخية. لذا فإنّ مواجهة التقاليد تعني أن نخترقها بالحكمة، حتّى لا تخلق لنا سلبيات أكثر ممّا نريد أن نتفاداه من السّلبيات⁵⁶⁷.

لذا يؤكد بعض علماء (النفس والتربية والاجتماع) على أهمية تنشئة الجيل النّاشئ تنشئة جنسية مُتّزنة، تُقدّم من خلالها معلومات مبسطة وعلمية مناسبة، وبلغة هادئة، منطقية بعيدة عن الإثارة أو الابتذال، ضمن ما يُعرّف "بحقائق الحياة". وينصحون الأهل (الجيل المُنثي)، بضرورة الإجابة على تساؤلات الأطفال والمراهقين، المرتبطة بالأمر الجنسي بشكل منطقي، دون إسكاتهم، أو إعطائهم معلومات مُضلّلة خاطئة، عن أدوارهم الجنسيّة -بحجّة "ما يسمّى في الدّارجة الجزائرية بـ"الثّصارّة وقلّة الحيا"-، خاصةً وأنّهم يتحدثون عن المراهقة باعتبارها مرحلة "بطالة جنسية"، حيث يكون المراهق في كامل قوّاه الجنسيّة، إلّا أنّ الظروف المجتمعية تمنعه من تصريفها، بطرق مقبولة دينياً وثقافياً. لذا يوصي "ج. كونجر John Conge" بأنّ من بين الأعمال الرئيسة التي يجب القيام بها في مرحلة المراهقة، والتي تنطوي على كثير من مطالب النّمو، أن يكتسب المراهق شعوراً واضحاً بهويته، أي أن يجد المراهق جواباً شافياً لمشكلته (من أنا؟)⁵⁶⁸.

3.3.3. غرافيتيا تقدير الذات.. "أنا أُعزفتُ إذن أنا موجود":

نوع آخر من أنواع المضامين إنفرض على ترتيب الممتن الغرافيتي نظراً للمساحة التي احتلها (بنسبة 13%)، ومنه للثقل الذي يحتله في المنظومة القيّمية الثقافيّة الطّلابية. الغرض منه إثبات وتقدير الأنا⁵⁶⁹. أيّ إثبات الوجود الفردي أو الجماعي، أو إثباتهما معاً، وفق "إستراتيجية التكرار La stratégie de répétition"⁵⁷⁰. فالكتابة المتكرّرة للاسم أو اللّقب، قد تحمل معنى إعلان الطّالب ضمناً قوله: "أنا هنا، أنا موجود، رغماً عن كلّ شيء، ورغماً عن كل شخص".

ف"إثبات الذات" والتّعبير عنها يحتلّ جزءاً معتبراً ضمن المضامين، بكتابة الاسم أو ضمير المتكلّم "أنا"، "Je"، "Moi"، "I"، رغم عدم تحديد الهوية كاملة، وذلك من خلال ترك أثر Une

⁵⁶⁷ المرجع نفسه، ص 6.

⁵⁶⁸ بول مس، جون كونجر، وجيروم كاجان، "أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة"، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، الكويت، مكتبة الفلاح، 1986، ص 481.

⁵⁶⁹ لمفهوم "تقدير الذات" عدّة تعريفات، من بينها: تعريف "كوبر سميث K.Smith" حيث يعرفه بأنه: (تقييم يضعه الفرد لنفسه وبِنفسه، ويعمل على المحافظة عليه، ويتضمّن أيضاً اتجاهات الفرد الإيجابية أو السّلبية نحو ذاته، ومدى اعتقاد الفرد بمقدرته وأهميته وقدرته). أمّا "روبرت دبليو ريزنر" - رئيس المجلس العالمي لتقدير الذات - فيعرّفه على أنّه (تعبير يقصد به إحساس الفرد بإحترام ذاته وثقته بنفسه، وبهويته الذاتيّة وبأهدافه).

⁵⁷⁰ Alexandra Saemmer & Moniaque Maza, "E-Formes: Ecriture visuelle sur supports numérique", Publication de l'Université de Saaint-Etienne, 2008, p. 66. (Google Books).

trace(رسالة) للآخر، مهما يكن هذا الأخير (الطالب، الأستاذ، أو أيّ عامل بالمؤسسة الجامعية)، ذلك لأنّ سلطة الفعل الجغرافي تتضح من خلال قدرتها على استنطاق الأصوات الصّامتة وإسماعها للآخر، إنّها صوت من لا صوت له. فلجأ الطالب -الشّاب- للفعل الجغرافي لإسماع صوته بطريقة متميّزة. هذا الشّاب الذي وصفه أحد السياسيين الجزائريين -بنوع من الازدراء- "بأنّهم مخلوقات بشرية لا إرتباط لهم بأيّ جماعة اجتماعية، غير مُكترئين بما يجري حولهم"⁵⁷¹.

وكنتيجة لإعتلالات ثقافة التّهميش -المُعشعشة- في نمطنا التّنشوي، الرّسني والغير رسني، إتجأ الطالب للفعل الجغرافي للتعبير وللردّ عليها، ومنه اختلاق تقدير ذاتي (فردني وجماعي). فالجغرافيتيا كما يقول "إميل بنفيسست Emile Benveniste" وسيلة فعّالة لإعادة امتلاك الذات، التي من خلالها تتشكل الهوية الذاتية (التّذويتية)⁵⁷². كما تطرح المسألة الجغرافية مُشكل "الإبعاد الحضري Relégation urbaine" في اعتقاد "ألان ميلو Alain Milon" ذلك لأنّ المُبعد- أو الغريب L'étranger" كما يُسميه- ليس ذلك الشّخص الذي يُمنع من إقليم مُعيّن، وإنّما من الحق على هذا الإقليم. حيث تقوم الثقافة العامّة للمجتمع باستبعاد هؤلاء، فيلتجئون بدورهم لعملية إبعاد أفراد المجتمع من خلال كتابة هيروغليفيّة متميّزة⁵⁷³. إنّها تكشف عن أبعاد المعاناة الحضريّة⁵⁷⁴. على مستوى الجغرافيتية الطلابية تمظهرت مضامين "التّقدير الذاتيّ" على التّحو التالي:

أ. "الاسم" مفتاح الهوية (إنّ لي إسماً إذن أنا موجود):

يعتقد علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا أنّ سبب إنتشار "الطاك Tag" (كتابة الاسم خاصة)، مرّده لديناميكية هويّاتية خاصّة بالممارسين (المراهقين)، أكثر منها رغبة منهم في مواجهة السّلطة القائمة. باعتبارها ممارسة جماعية وفردية تمنح للفاعل فرصة سانحة للتّماهي المرغوب فيه. ولأنّ الاسم عنوان وجودنا، نُجيب من نادانا به، وتتموّقفُ ممن نسيه، وننّفعلُ ممن حاول تحريفه أو العبث به⁵⁷⁵. جعلوا الوعي بالاسم وجهاً من أوجه الوعي الذاتيّ (الهويّاتي)، لأيّ شخص، فإذا كان

⁵⁷¹ Abdelkrim El-Aidi, "Jeunesse en Algérie, représentations et enjeux", Inédit, 1995, p 9.

⁵⁷² Emile Benveniste, "Problèmes de linguistique générale", Paris, Gallimard, 1975, p 260.

⁵⁷³ Alain Milon, op. cit.

⁵⁷⁴ Alain Milon, "Tag et graff mural, visage et paysage de la ville", Les Annales de la Recherche Urbaine, n° 85, pp.140-147. In: http://www.annalesdelarechercheurbaine.fr/article.php3?id_article=238. Consulté le:11/09/2011.

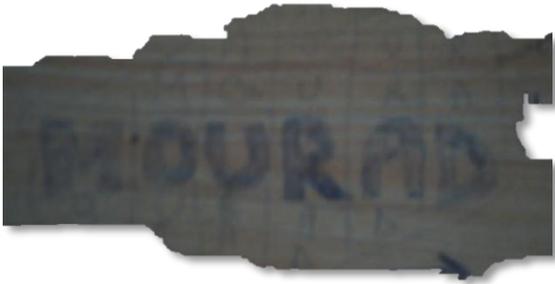
⁵⁷⁵ أدرك العلماء أهميته، فأسسوا لعلم "الأنثروبونيميا Anthroponymie": الذي يعني بدراسة الاسم العلم، يتفرع إلى "Anthroponymie": دراسة "أسماء البشر"، و"La toponymie": وتعني بدراسة "أسماء الأماكن". أما "الأنثروبونيميا" فهي فرع معرفي يهتم بدراسة أسماء الأشخاص من زوايا متعدّدة، بمرجعيات مختلفة، قانونية، فلكية، نفسية، ديموغرافية، سوسولوجية.

الوعي بالذات يُحدّد السلوك الإنساني، ويُتمّط الحياة الشخصية، ومُستلزماتها السلوكية، ويُمكنُ الذات من تقييم نفسها. فإنّ الوعي بالاسم (اسم الطالب) عبارة عن إستعراض لعنوان هويته، ولخصائصها الثقافية والنفسية والاجتماعية. باعتباره -الاسم- وعاء ذو حمولة دلالية مكثّفة - يُعبّر عن إنتماءات متعدّدة بأبعاد أساسية: الديني، القطري، الجهوي، اللغوي، المجالي، الطبقي والجنسي. على مستوى دراستنا احتلّ "الاسم" -الشخصي- مساحات جغرافية مهمة، وذلك بكتابته - وإعادة كتابته- بل التّفاني والتّنطّح في تَفخيمه (بحروف مُفخّمة)، وزخرفتها بأدوات وأشكال وأبعاد مختلفة، وألوان متعدّدة، تُنبئُ عن انشغال "الفاعل" بهكذا بُعد هويّاتي "متأزّم". ومن بين الوحدات المُعبّرة عن ذلك، نقرأ التّماذج التّالية:

الو. رقم 33: " محمد+ محمد+ محمد" كرسي/ محطة الحافلة المجاورة للجامعة.



الو. رقم 34: طاولة/ قسم علم النفس. الو. رقم 35: عمود إسمنتي/ فناء كلية الطب.



الو. رقم 36: جدار/ كلية العلوم الدقيقة/ شتوان. الو. رقم 37: طاولة/ قسم الفلسفة.

ف"الاسم" هو الوجه الظاهر للهوية، حيث زادت أهميته مع توطُن الملكية الخاصة والجماعية، وتقسيم الأدوار. وارتباطه بامتلاك الأولاد، الأرض... وممارسة السّلطة (سلطة التّسمية وتوزيع الأدوار). فالأسماء طريقة لترتيب العالم وتقسيمه كما يعتقد الباحث "الميلودي شغمون". والاسم بُنية مُركبة، قد تتألف من جزئيين، كما هي العادة في مجتمعنا، (الاسم الثنائي: اسم+ لقب)، ويجب

التَّمييز بين الاسم الشَّخصي، وهو الاسم الرَّسْمِي للفرد، واللقب العائلي، ويسمى أيضًا باللقب الغَيْري، الذي يُشارِكه فيه آل أسرته وعائلته وعشيرته. غالبًا ما لجأ الطالب لِغَرْفَتَةِ إِسمه الشَّخصي أكثر من لقبه العائلي، بُغْيَةَ إِعادة الاعتبار لذاته، وكتقدير ذاتي يتميَّز عن تقدير الآخر/الآخرين الذين يحملون اللقب نفسه. تَمَّ ذلك بِتَفْخِيم حروفه، بالفرنسية (En majuscule)، أو إرفاقه بلازمة "تحيا" و"vive ..."، "I love...".

يعتقد الباحث الأمريكي "هانك بيجنبرغ Henk Pijnenburg" أن الدَّافع الأساسي للشَّباب السُّود خلال نهاية السِّتِينات لِلانْهْجاس بالْغِرافِيْتِيَا، الْخاصَّة بِالْأَسْمَاءِ/الْأَلْقَابِ/الْكُتْبَى (الطَّاك Tag) هو "ثقافة التَّهْجِير" التي سادت بعد ترحيل الرَّجُل السُّود من إفريقيا إلى أمريكا، وما ترتَّب عنها من تَغْيِير قَسْرِي لمعالم هويته، وفي مقدمتها أسماؤهم الأصليَّة، وَمَنْحهم أسماء تنتهي لثقافة الرَّجُل الأبيض. أسماءٌ لم يسمِعوا بها قَطُّ، ولا علاقة لها بهويتهم وهوية آبائهم وأجدادهم. وبين العبارات التي سَفَّرُوها عبر وسائل النَّقل، عبارة "إِنَّ لِي إِسْمًا، إِذْن أَنَا مَوْجُودٌ"، و"أنا هنا"⁵⁷⁶.

في تصنيفه للمضامين الجغرافية، يجعلها -جغرافيتيا الأسماء- "ستيوارت Jack Stewart" في سُدَّة المضامين الجغرافية، تتصدَّر الفئات الأربعة الأخرى. لأنَّها أكثرها انتشارًا، إذ غالبًا ما تحتل أغلب الوسائط من (الجدران، الأبواب، وسائل النَّقل العمومية والخاصَّة، زنانات السِّجْن، شالِمَات الثَّكْنَات العسكريَّة...، هدفها التَّعبير عن هوية فردية أو جماعية، تبحث عن الاعتراف والتَّقدير⁵⁷⁷. فالفاعل -حسب جو أستيْن Joe Austin- الذي يَتَعَمَّد ترك إِسمه على الجدار- أو ما ناب عنه- إنَّما يهدف بلغة الجغرافيتيا لَصْنع وَنَحْتِ إِسمه الخاص، والتَّشْهير به، ولورمزِيًا⁵⁷⁸.

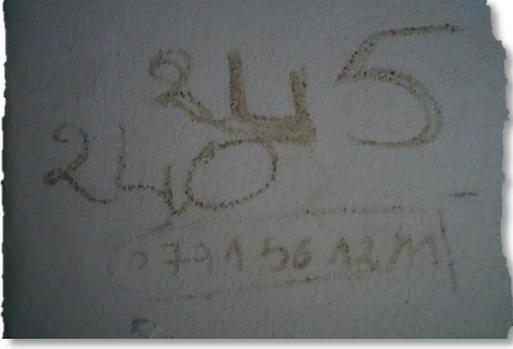
ب. "رقم الهاتف" كمؤشِّر لرقمنة هوية الفاعل:

يَلْتَجِئ الطالب أيضًا لِ"غَرْفَتَةِ" أرقام هاتفه المحمول، منفردًا أو بجانب إِسمه، للتَّشْهير (الإيجابي) لمستوى من مستوياته الهويَّاتِيَّة، بوسائل رَقْمِيَّة، قصد لَفْتِ إِنْتباه الآخر (طالب أو طالبة)، وكَدَعْوَة مفتوحة لِإستعدادده القَبْلِي لِنَسْجِ عِلاقات-في غالبيها مع الجنس الآخر-ويمكن أن يكون الدَّافع وراء كتابته "التَّشْهير السِّلْبِي" لرقم من رفض أو أخفق في الحفاظ على العلاقة العاطفية معه.

⁵⁷⁶ Henk Pijnenburg & Frank Essink, "Vandal and crusaders, the liberation of I", 2007, p4. URL: www.historyofgraffitiart.com. Consulted: 11/8/2009.

⁵⁷⁷ Jason Dax Woodward, op. cit.

⁵⁷⁸ Joe Austin, "Taking the train :How graffiti art became an Urban Crisis in New York city, Columbia University Press, 2001, p 201.



الورقم 39: برمیل نفط/إقامة البشير الإبراهيمي للذكور. الو. رقم 40: جدار/قسم اللغات.



الو. رقم 41 : طاولة/ قسم علم الاجتماع⁵⁷⁹.

كما وُجِدَت "كتابات" استخدم فيها الطالب الأسلوبين معاً، الاسم ورقم الهاتف أو الولاية. فالاسم طريقة خاصّة لتقديم الذات الطّالبيّة للآخر.

ت. معاناة "الأنا المُحتَقَر":

رغم مشاركتها نفس الدّعامات والرّكائز مع باقي الأصناف الأخرى، إلّا أنّها تميّز عنها في المحتوى والمغزى، إذ تهدف للإعلان والإقرار بوجود الفاعل، والإلحاح على ضرورة إعراف الآخر بإنوجاده، وضرورة تقديره واحترامه، ك"أنا مستقلة" لها مميزات السلوكية والاجتماعية والثّقافية الخاصّة بها، ولو بأسلوب غير مباشر. على نحو الوحدات التالية:



الو. رقم 42 : طاولة/ قسم العلوم الاقتصادية.

⁵⁷⁹ الطاولة حُبلى بالعديد من المضامين الجغرافية، ركّزنا على الجزء الخاص برقم الهاتف.

الو. رقم 43: " OH JE SUIS LA " طاولة/ قسم التاريخ.

الو. رقم 44: " VIVE MOI SEC " صندوق الطوارئ/ قسم العلوم الاقتصادية.

كما وُجِدَت "كتابات" تستخدم ضمير الجمع، كمؤشر من مؤشرات الهوية الجماعية:

الو. رقم 45: " Hay regardez nous un peux " محطة الحافلة/ مدخل الجامعة إمامة.

الو. رقم 46: " Nous existon " عمود كهرباء/ قسم اللغات.



الو. رقم 47: طاولة/العلوم الاجتماعية(LMD) الو رقم 48: جذع شجرة/كلية الهندسة.

ث. مؤشرات "النرجسية المفرطة":

قد تتحول الرغبة القوية في إسترداد القيمة الذاتية للشخص⁵⁸⁰ إلى عرض من أعراض ما يُسميه علماء النفس بـ"النرجسية Le narcissisme"، والتي نفترض أنّها ظهرت نتيجة عوامل عدّة، أبرزها "تسلط" بعض القيم التنشئية الممارسة في دهاليز مؤسساتها. ومن بين المضامين المعبرة عن ذلك، منها:

الو. رقم 49: "Vive Moi Seul RACHID" جذع شجرة/ إقامة البشير الإبراهيمي.

الو. رقم 50: " نبغيك روجي SAVA " نافذة/ قسم الادب العربي.⁵⁸¹

⁵⁸⁰ نتيجة ما يسميه "Walter Runciman" (1966) بالحرمان النسبي الأثاني (أو الفردي)، أو الحرمان النسبي الأخوي (أو الجماعي). حيث يقع الحرمان النسبي الفردي عندما يقارن الأفراد وضعهم الشخصي وضع أفراد آخرين من جماعتهم الداخلية، فيحضر هنا العامل الفردي الأثاني والاهتمام بدائرة الذات. أما الحرمان النسبي الجماعي فيحدث في حالة شعور أفراد =المجموعة أن جماعتهم محرومة عموماً مقارنة بجماعات ذات علاقة. و يُعتبر عالم الاجتماع "روبرت ميرتون R. Merton" من السباقين في استخدام مصطلح "الحرمان النسبي Relative deprivation" في مقارنته لظاهرة الانحراف الاجتماعي، كما استخدم "إ. دوركايم" مصطلح "الأنومي L'anomie" كنقطة ارتكاز في تحليلاته للانتحار.

⁵⁸¹ يمكن للوحدة الجغرافية أن تأخذ تأويل ثانياً يتحدث عن العلاقة الغرامية بين طالب و طالبة.



الو. رقم 51: نافذة/قسم الحقوق (الخدش). الو. رقم 52: طاولة/قسم الإعلام الآلي.

ما يلاحظ على مضامين "التقدير الذاتي" بكل أبعاده، التّغيب المقصود "لقب Le nom"، والاستحضار المدروس (العقلاني) "للاسم Le prénom". ذلك لأنّ "اللقب" يؤشّر للانتماء الرّسّي الاجتماعي للفرد. أمّا الاسم، فيعكس الانتماء الشّخصي للفرد، الذي يميّزه عن باقي الأفراد المنتمين لنفس "اللقب العائلي".

تخفي مقصود، إمّا توجُّسًا من المتابعة الرسمية. أو رغبةً في التّفرد باسمه الذي لا يشاركه فيه أحد. وإن كنا نرشح فرضية تحتاج إلى دراسات تثبتها أو تدحرها، ألا وهي طبيعة ومعاني بعض الألقاب الجزائرية، التي أُلحقت ورُسّمت خلال العهد الاستدماري⁵⁸². رغبةً منه في طمس معالم الهوية الجزائرية، وتعويضها بهوية هجينة، بموجب "قانون الألقاب" الصادر عام 1882، والتي تتسم في جزء مهم منها بمعاني انتقاصيه واحتقارية. بعضها ذات معاني مخلة بالحياء العام، وبعضها مستوحى من أسماء الحشرات والحيوانات، وأدوات الحرث والزّرع والحصد والدرس، وأعضاء الجسم، والعاهات الجسدية، وألقابًا أخرى نسبة للألوان وللفضول وأدوات الطهي، وألقاب معانيها مُخلة بالدوق والحياء المجتمعي...

ويسبق لنا الدكتور "جمال يحياوي"⁵⁸³ أمثلة عن ألقاب مَشينة وغير مريحة نفسيًا واجتماعيًا، حُمِلتْها عائلات جزائرية منذ 1882، يتم تداولها في كلّ المحرّرات والوثائق الرّسمية، على نحو لقب "حمار" و"بوذيل" و"خاين النار"، و"مجنون" و"بومعزة" و"كّئاس" و"بومنجل"، "جرؤ الذيب"...

⁵⁸² يذكر الباحث "جمال يحياوي" أنّ الألقاب الجزائرية قبل هذا القانون، كانت ثلاثية التركيب (الابن والأب والجد)، وفي حالات حُماسية التّركيب، بحيث تُضاف لها المهنة والمنطقة: مثال (أحمد بن أحمد بن موسى البناي الوهراني).

⁵⁸³ أستاذ جامعي ورئيس المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، قام بدراسة عن "الألقاب الجزائرية". وصف من خلالها عملية تغيير ألقاب الجزائريين "بالمجزرة الثقافية" التي أُفترقت في حق الهوية الجزائرية. والتي خلقت لدى آلاف العائلات معناه نفسية ما زالت الى يومنا هذا. يُرجع الباحث أهداف المجزرة الى ما يلي: "الاستيلاء على الأراضي، وتفكيك نظام القبيلة، وإبراز الفرد كعنصر معزول لإرساء دعائم الملكية الفردية، تغيير أساس الملكية إلى أساس النسب بدلاً من

ولو تحدثنا عن الألقاب المعروفة نذكر اللقب الذي يحمله وزير الثقافة الأسبق "محمد العربي دماغ العتروس" (رأس التيس)، أو لقب "مولود فرعون" للكاتب المشهور "آيت شعبان"⁵⁸⁴.
غرافيتياً، يأمل الطالب، بل يطلب من "الأخر" حق الاعتراف والتقدير والاحترام داخل الفضاء الاجتماعي المبني على علاقات القوة في كل شيء، واحترام إسمه وأناه، يكون باحترام أحاسيسه وشعوره، أي، قيمه ومعايير الثقافة والهوية. ولعلّ هذا ما قصده "جون بيار ألبير Jean Pierre Albert" بقوله "إنّ أيّة ممارسة للتشهير أو الإعلام عن فكرة ما، على أشياء مختلفة، أواني، ألبسة، سيارات، هي تذكير الآخرين بوجوده وهويته، معبراً أو محاولاً التعبير عن إختياراته الأخلاقية أو الجمالية. إنّه الاستخدام الهويّاتي للكتابة⁵⁸⁵ L'usage identitaire de l'écriture". فكتابة الاسم الخاص بالمُعزّفت، أو توقيعه "البسيط"، أو كناية يَنْجَلِّها له علاقة بالبحث عن "حق الاثبات والاعتراف" بهويته المتميّزة.

ويمكن إستخدامها للكشف عن معالم هويّته، من خلال ما يُخَلِّفه على مختلفة الدعامات، قصد إعادة الاعتبار والتقدير لـ"أنا الفردي المحتقر Un moi minoré"، أو ما تُسميه "راوول هوميرو فيلا Raúl Homero Villa" إعادة الاعتبار لـ"أنا المُضطّهد Je opprimé" أمام سلطة وتسلّط الخطاب المُهيمن، الذي غالباً ما يتجاهل خصوصيات هذا الأنا. بدءاً بما يُعتمَل في الوسط الأسري من هيمنة لسلطة الأبوية -بمعناها التسلطي-، مروراً بالفضاء المدرسي والجامعي، ومنه باقي المنظمات المجتمعية. (تدجين اجتماعي) قد يُضفي لبلورة برّاثن "ثورة مضادّة"، نتيجة الاحتقار الذي يعانون منه. إذ يمكن -كما يقول "شارلس تيلور Charles Taylor"- أن يلحق بالشخص أو المجموعة من الأشخاص، أذى وتَشويه حقيقي، إذا عكسَ لهم المجتمع الذي حوّلهم، صورة عن أنفسهم، تنطوي على الحصر والحطّ من الكرامة والاحتقار.

ف"المُعزّفت" كما يعتقد "ألان فيلبو Alain Vulbeau" يلجأ للغرافيتيا لتسجيل ذاته في نسق اجتماعي يشتغل على مبدأ التهميش والإقصاء، بُغية إيجاد مكانة اجتماعية مُواتية له، كشخص مُتفرد. وليس بعيداً عن ذات السياق تؤكّد "فرانكل بياطريس Fraenkel Béatrice" بأنّ الغرافيتيا

=أساس القبيلة، القضاء على الشّخصية الإسلامية من خلال تغيير الأسماء ذات الدلالة الدينية، إحلال الفرد في المعاملات الإدارية والوثائق مكان الجماعة، وأخيراً تطبيق النمط الفرنسي مخاطبة الفرد بلقبه وليس باسمه.

⁵⁸⁴عائلات جزائرية تعاني نفسياً منذ 127 سنة بسبب ألقاب قبيحة"، العربية نت، من الموقع الإلكتروني:

<http://slimaneboussoufa.wordpress.com/2009/06/26> . تاريخ الاطلاع: 2011/8/11.

⁵⁸⁵ Jean-Pierre Albert, " Etre soi: Ecritures ordinaires de l'identité", in: Identité, lecture, écriture, Chaudron (M.) et de Singly (F.), Paris, Editions BPI, Centre Georges Pompidou, 1993, pp.45-58.

وسيلة فعّالة من أجل إعادة تحديد المكانة الاجتماعية والسياسية للفاعل داخل مجتمعه، ذلك لأنّها مرتبطة بالتّغير الاجتماعي لهذا المجتمع⁵⁸⁶. هذا ما حفّز الباحثة "سوزان فيليب Susan Phillips" على انتقاد لادّعاء لمن يصمّم الجرافيتيا بالشّخبطات الصّبيانية، الملوّثة للمنظر العام، لأنّها -حسبها- حلٌّ عبّوري "للحرمان La privation" الذي يُعانيه هؤلاء الممارسون، إذ يستخدمونها من أجل تحديد وتعريف ذواتهم الفردية والجماعية، داخل الفضاء الذي يتواجدون فيه. وتُرفع الباحثة عن الظاهرة- ضدّ نزعة الانتقاص والدّونية-، إذ تُؤكد بأنّه بمجرد أن تُفكّ هذه الكتابات تُدرك بأنّ جزءاً مهمّاً من أبعاد هوياتهم معروض على الجدران، وأغنى مكان للحصول عليها هو قلب الأحياء الشّعبية، التي تُشبهها بمناجم الذهب، في تحصيل الجرافيتيا⁵⁸⁷. ف "جرافيتيا التّقدير الدّاتي" تشتغل وفق إستراتيجية إعادة نشر وتسويق صورة ايجابية للأنا الغير موصومة Non stigmatisé، بلغة "إ. غوفمان E. Goffman".

"جرافيتيا الأسماء أو الطاغ" حسب "Roky 3" أحد ممارسيها -الفرنسيين- ممارسة يتم من خلالها تصريف العُنف الدّخلي، وطريقة لتقيؤ ما بداخلك من ضنك، بل إنّها "أدرينالين Adrenaline" المُعرّفت⁵⁸⁸. بل، ويذهب بعض الدّارسين إلى أبعد من ذلك، عندما يؤكّدون على أن عملية المحو والتّظيف التي تمسّ المساحات المُعرّفتة الحاضنة لهكذا مضامين، في حدّ ذاتها نفّي وتهميشٌ لفاعليها، الذين تمّ تغريبهم عن قيمهم الثقافيّة والهويّاتية الخاصة بهم.

4.3.3. كرة القدم "أفيون" الطّلبة :

تعتبر الرّياضة حسب "تالكوت بارسونز Talcott Parsons" صمّام أمان للنظام الاجتماعي، يهدف للحفاظ على بقاء الجيل النّاشئ مُندمجاً في ثقافة جيل الكبار. في حين يعتقد "يورغن هابرماس Jürgen Habermas" بأنّ الرّياضة بديلٌ للحرب"، إذ تسمح بتنميط وتنظيم العُنف، حيث نحترم الخصم داخل الملعب، ونعبّر عن ذلك في الملاعب بالهتاف والصّراخ الحاد⁵⁸⁹. جعلها

⁵⁸⁶ Fraenkel Béatrice, op, cit.

⁵⁸⁷ Susan A. Phillips, "Graffiti and gangs in Los Angeles wallbanging", published by the University of Chicago Press, 1990, p 177.

⁵⁸⁸ François Schreuer, op. cit.

⁵⁸⁹ على نحو ما حدث في إسبانيا في عهد "فرونكو Franco"، حيث لم يجد "الكاتالونين" سوى الملاعب للتعبير والتحدث الحر بلغتهم الأصليّة. نفس الأمر حدث سنة 1998 عندما انتصرت إيران على الولايات المتحدة الأمريكيّة، في مقابلة كرة القدم، إذ لم تتجرأ السلطات الإيرانيّة وقف آلاف المتظاهرين (رجالاً ونساءً) عندما خرجوا للتعبير عن فرحتهم بالانتصار، عكس ما حدث في مناسبات أخرى، وينسحب الأمر على البلدان (العربية والإفريقيّة).

تحتل صدارة الرياضات الأكثر شعبية في العالم، حيث يقدر عدد ممارسيها بصفة منتظمة بمئتين وخمسين مليون شخص في مئتي بلد⁵⁹⁰.

وضعية، جعلت "مانويل فازكاز مونتالبان Manuel Vazquez Montalban" يصفها (ظاهرة الكُرّة) في متن مقال له بـ"Le Monde Diplomatique"، بالدين اللائكي La religion laïque الباحث عن "إله جديد". فيتساءل -الكاتب- إن كان "بيرلسكوني Berlusconi" قادرًا على بلوغ سُدّة رئاسة الحكومة الإيطالية، لو لا رئاسته -المسبقة- لنادي "ميلانو Milano" الشهير بنجومه المُؤسّطرين؟. ذلك لأنّه يمتلك كثيرًا من وسائل الإعلام ذات الجماهيرية الواسعة،- فضلًا عن إمتلاكه أيضًا شخصية كاريزمية جذابة-⁵⁹¹. أمّا الكاتب "بيتر مارش Peter Marsh" فيشير في متن كتابه "Aggro: Illusion of Violence"، (الخصام العنيف: خداع العنف) الصادر عام 1978، أنّ من إيجابيات ظاهرة عُنف الملاعب أنّها تجنّب المجتمعات الانفجار الاجتماعي في كثير من الأوقات، باعتبارها مُتنفّسٌ للغاضبين. وينطلق في تحليله من كون الجماهير مَهْمَا تباينت طبقاتها الاجتماعية، فهي جزء من طبقة واحدة⁵⁹².

أمّا على مستوى معطيات دراستنا، ما يُلاحظ على الوحدات الجغرافية ذات المحتوى الرياضي كلها تتحدث عن "كرة القدم Le football"، حيث بلغت ما نسبته 11%. فإذا كان "كارل ماركس K. Marx" قد تعامل مع "الدين" باعتباره أفيون الشعوب، فكُرّة القدم اليوم أضحت كذلك، "إنّها أفيون الشّباب، بل الشعوب". إذ لم تعد لعبة جماعية فقط⁵⁹³، بل فعل ثقافي وشكل جديد لتجميع الأفراد والجماعات، واحتكاكهم المباشر. عملية -الاحتكاك- هي في حدّ ذاتها نوع من أنواع التّنشئة الشّبابية، تفرز العديد من أشكال التّفاعل الاجتماعي، كالتّضامن الذي لا يقوم على رابطة الدّم (العرق)، وإنّما على علاقة -جديدة- نابغة من قيم الثّقافة الرّياضية (الكُروية)، حول لعبة ما، ومنه حول لاعبٍ أو فريق ما، إستطاع الإبداع في الممارسة الرّياضية دون مراعاة خصوصيّة

⁵⁹⁰ مارتن روبن، "كرة القدم في المملكة المتحدة"، الشروق أون لاين، 2011/11/16.

<http://www.echoroukonline.com/ara/articles/123175.html>. تاريخ الاطلاع: 2011/5/22.

⁵⁹¹ Manuel V. Montalban, Mythologies du sport, le football, religion laïque en quête d'un nouveau Dieu, août 1997. In: http://www.monde-diplomatique.fr/1997/08/VAZQUEZ_MONTALBAN/8972. Consulté le: 22/8/2010.

⁵⁹² ويشير الكاتب "كونراد.ج. لونز Konrad Zacharias Lorenz" إلى ذلك بقوله إنّ "المناصر المتعصب" يحمل في آنٍ واحد توحّش الدّئب وعطفه، أي يتصرف بعنفٍ مع خصومه وبرقيقٍ ومسامحةٍ مع أنصار ناديه.

⁵⁹³ ف"كرة القدم" - حسب "ألان إرنبارغ Alain Ehrenberg" - ليست رياضةً فقط، بل وجهة نظر خاصة بالحياة"♥.

♥Alain Ehrenberg, "Le culte de la performance", Paris, Calmann-Lévy, 1991, p. 55.

الحدود السياسية والقُطرية. حيث أمست "لعبة عالمية" لها رموزها وأساطيرها الذين أبهروا الألوْف المؤلِّفة، بل الملايين من الشُّباب.

عملياً سَنَسْتَعْرِضُ هكذا مضامين جغرافية وفق منطق التدرج من العالمي إلى المحلي، ومن الفريق إلى اللاعب. بدايةً، جغرافيتيا كرة القدم العالمية، من خلال الفرق الرياضية، ثم جغرافيتيا أسماء اللاعبين الذين شغلوا الوَرَى و مَلَأوا الدُّنَا بمهاراتهم وشطحاتهم الكرويَّة. وهذه عيِّنة من الوحدات الجغرافية التي جمعناها من فضاءات وحاملات مختلفة:

أ. **النَّوادي كمصدر للتَّمَاهي**⁵⁹⁴:

تتنوع ما بين الفرق المحلية والنوادي الأجنبية، خاصة البرازيلية والأوروبية، مع حضور ملفت "مؤقت" للمنتخب الوطني، نقول مؤقت لإرتباط وحداته بأحداث "2010".

• **النَّوادي الأوروبية والبرازيلية:**

عكست العديد من الوحدات الجغرافية مدى "تَتِيْم" الطالب بالنوادي الأوروبية والبرازيلية، منها:

الو. رقم 53 : "AJAKS my love" جدار/ قسم الصيدلة.

الو. رقم 54: "Real MadridVive" عمود / محطة حافلة/إمامة.

الو. رقم 55: "PSG Manchester" بهُو مكتبة الحقوق.



الو. رقم 56: طاولة/ قسم الفنون. الو. رقم 57: جدار/ قسم علوم الأرض والمحيط

• **المنتخب الوطني ونتائجه!؟؟:**

توحي بعض الوحدات الجغرافية باعتزاز "المُعْرِفَت" بالمنتخب الوطني، خاصة أيام تصفيات كأس العالم 2010، وب"رضا مؤقت Une satisfaction temporaire" عن النَّتَائِج الإيجابية التي حققها، خاصة إنتصاراته على منتخبات لنا معها تاريخ متميِّز، كالفرق المصري⁵⁹⁵ والمغربي والكوديفواري. وهذه بعض الوحدات الجغرافية تعبر عن ذلك.

⁵⁹⁴ يجب أن نشير إلى أنّ هذا المضمون كثير الحضور بإقامات الذكور، بالمقارنة بإقامات الطالبات.

⁵⁹⁵ في ذات المعنى نقرأ على جدار ثانوية "مليحة" بتلمسان: (موسى 1- فرعون 0) و(ليلي علوي 0/ وردة الجزائرية 2).



الو. رقم 58: طاولة/قسم التاريخ (مخطط عام لمباريات الفريق الوطني كم استغرق من وقت لكتابته!؟).
الاجتماع/إمامة. الو. رقم 59: منضدة/قسم علم

• الفرق المحليّة:

تنوعت المضامين الجرافيتية ما بين أسماء ورموز وشعارات ونتائج النوادي الوطنية والمحلية، نسوق بعضها منها: الو. رقم 60 " : 0 WAT : 2 MCO " جدار/ قسم التاريخ.
الو. رقم 61 " : 2 JSK : 1 CRB " واجهة باب/ مدخل جناح.
الو. رقم SAM62 : 1 ASMO : O جدار/ قسم الأدب العربي.
الو. رقم 63: " MCO " " WAT " " CRB " طاولة/ قسم جراحة الأسنان.



الو. رقم 64: نافذة/ إقامة بختي عبد المجيد (الجرافيتيا المعكوسة Graffiti revers) (596).

ب. أسماء وألقاب اللاعبين:

تعتبر موضة تقليد بل و"تقديس" اللاعبين المشهورين عالميا من بين أساليب تشكيل الهوية الفردية "المنشودة" لشباب اليوم، بمختلف فئاته الجنسية والاجتماعية. جرافيتياً، تجلّى ذلك من خلال كتابة وكتابة .. وكتابة أسمائهم وألقابهم وكُنَاهُهم على مختلف الدعامات التي فحصناها بالفضاء الجامعي، منها:

ت. أسماء اللاعبين الأجانب:

تنوعت ما بين اللاعبين الذين ينتسبون للنوادي الأوروبية والبرازيلية، على نحو:

596 للاستزادة أنظر فصل التقعيد المفاهيمي.

الو. رقم 65: "ZIDAN" جدار/ كلية الهندسة.

الو. رقم 66: "VIVE RONALDO" جدار/ مدخل مراحيض كلية الطب.

الو. رقم 67: "KAITA" باب/ جناح اقامة البشير الابراهيمي.

الو. رقم 68: MON STAR . Fernando Morientès جدار/مدخل كلية التكنولوجيا.

ث. أسماء اللاعبين المحليين: أغلب المضامين تمحور حول أسماء لاعبي الفريق الوطني، على نحو:

الو. رقم 69: « BOUGARRA » أنتم أملنا الوحيد" منضدة كمبيوتر/المكتبة المركزية.



الو. رقم 70: جدار/ قسم الأدب واللغات الأجنبية.

المتتبع للأحداث الرياضية لأيّ مجتمع يستنتج أن الحركة الرياضية كثيراً ما تعبر عن رهانات فردية وجماعية، تتجاوز لحظة الممارسة أو الفُرجة، حيث ترتبط هذه الرهانات بمسألة إثبات وتأكيد الهوية الفردية والجماعية والمجتمعية. هذا ما يؤكدُه "باسكال بونيفيس Pascal Boniface عندما كتب بأنّ العولمة أدّت إلى تضييع جزءٍ مهمٍّ من الملامح الهويّاتية للمجتمعات، فبقيت الرياضة (كرة القدم) تقوم بدور الضّامن لإستمرارية هذه المعالم الهويّاتية. من خلال أصناف التقليد والتّماهي التي تتّضح من وراء مضامين الشّعارات وألوان البدلات الرياضية، وأسماء وألقاب الرّياضيين وفِرَقِهِم، والتّمايز من خلال طُقوس الدخول والخروج من الملاعب التي يلعب فيها الفريق المتعاطف معه، وتقاليد الفعل التّشجيعي للفريق، كلّها مؤشّرات لتماهي مُتميّز، يتعلق بشخص أو فريق معين⁵⁹⁷. والمتجول في الفضاء الجامعي-التلمساني- يلحظ مؤشرات التقليد للاعبين أو النوادي بشكل جليّ، من مؤشّراتها:

✓ انتشار قَصّات وتَسريحات الشّعر المتنوعة، المستوحاة من قَصّات اللاعبين المشهورين.

✓ ارتداء أقمصّة رياضية (Tricots-graffitis) مُعَرَفَتٌ عليها أسماء اللاعبين (Kakà, zidane)،

(Karim Ziani).

⁵⁹⁷ للاستزادة أنظر:

Pascal Boniface et al, "Football et passions politiques", Le MONDE diplomatique, Manière de voir, n° 39, Mai- juin 1998.

✓ وكذا التّوادي ورموزها وشعاراتها (لغوها)، MILAN، EL BARSA، ...

✓ إرتداء ثياب مُزَكَّشَة بأعلام الدول الغربية والأمريكية (إيطاليا، فرنسا، البرازيل، إسبانيا...)

✓ التَّنَطُّحُ في تقليد طُقوس التّعبير اللَّفْظي والحركي، لحظة تضييع فُرص التّهديف، أو التّعبير عن الفرحة بتسجيل الأهداف، أثناء المباريات بين الطّلبة محليًا، كالترّحلق على الرُّكبتين، وضع القميص على الوجه، الحركات المهلوانية والرّقصات الإفريقية والبرازيلية....

إنّها ديانة مجتمعية ثانية⁵⁹⁸، جعلت الكل يَنْهَجِسُ بها⁵⁹⁹، العام والخاص، إذ نقرأ في جريدة "النهار الجديد" ليوم 2010/01/29. مقال بعنوان "الجزائر كسبت تلاحما شعبيا بفضل إنجازات أبناء الشيخ سعدان/ أساتذة علم الاجتماع يُثمنون نتائج الفريق الوطني" بقلم الصحفي "سامي. ز" حيث ذكر على لسان الأستاذ "عادل شهيب" (جامعة جيجل قسم علم الاجتماع)، أن الفريق الوطني لعب دورًا فعّالًا في خلق التّلاحم الشّعبي على مستوى الفرد والجماعة، وإعادة التّحام فئات المجتمع، خاصّة وأنّ الجزائر عاشت مرحلة من التّفرقة، بسبب مجموعة من الطّروف الاجتماعية، ساهمت في تشتت هذه الفئات، أين حلّت الرياضة خاصّة كرة القدم، والتي لعبت دورًا كبيرًا في إعادة قيم التّعاون والتّكافل الاجتماعي⁶⁰⁰.

ما يلاحظ على مضامين "غرافيتيا كرة القدم Graffiti de football" الحضور اللافت للاعبين وفرقهم الأوروبية والبرازيلية، أمام الحضور الخافت للاعبينا المحليين، مع بروز ملحوظ للفريق الوطني من خلال بعض العبارات والكلمات والرّموز المرتبطة به، خاصّة خلال تصفيات مونديال 2010. وكذا العرق والدُموع التي ظُفرت أثناء المباريات، مع تسجيل واضح لمباراة مصر والجزائر، وما أسألته من حبرٍ وعرقٍ، نتيجة حرارة الثّورة الإعلامية التي أُحدثت لحاجات في نفس يعقوب أراد قضاءها (في كِلا المجتمعين). حتّى اعتقدنا -ذات يوم أو يومين- أنّ مجتمعنا ارتقى إلى المجتمعات (الهادئة)، وأنّ مشاكلنا اليومية قد ذابت وتلاشت، كما تلاشت مياه البحر أمام سيدنا موسى ومن كان معه من المؤمنين.

⁵⁹⁸ Denis Müller, " Le football comme religion populaire et comme culture mondialisée: brèves notations en vue d'une interprétation critique d'une quasi-religion contemporaine", 2005. Paru =dans : Marc Dumas, François Nault et Lucien Pelletier(dir), Théologie et culture. Hommage à Jean Richard, les presses de l'université de Laval, Québec, 2004, p.299.314.

⁵⁹⁹ وليست كما قرأناها ذات حصة، في "كتاب القراءة" خلال المرحلة الابتدائية، بأنّها جِلْدٌ مَنْفُوحٌ يَنْطُحُ هُنَا وَهُنَا. بل هي أكبر من ذلك - سيدي المُبرمج- إنّها أفيون أَدْمَنَ عليه الملايين من شبابنا بل وحتّى كهولنا.

⁶⁰⁰ وبنفس الوصف والتحليل استعرض "Jean-Pierre Séréni" الحالة الجزائرية، في مقاله المُعنون ب:

"Quand l'Algérie s'enflamme pour le ballon rond", Le Monde diplomatique, 23 février 2010.

مضامين (غرافيتيا كرة القدم) عبّرت -بصدق- عن حال الكرة الجزائرية -والكرة العالمية- خاصة الأوروبية والبرازيلية منها، باعتبارها الأكثر حضورًا بالمقارنة مع الكرة المحلية. تجسّد ذلك من خلال تكرار كتابة أسماء فرق رياضية، وأسماء -أو ألقاب- "النجوم". ربّما يعود ذلك لحالة "السُّبّات السنوي" الذي تعيشه الرياضة الجزائرية عامّة، وكرة القدم خاصّة. وتلاحق الإخفاقات والهزائم، أمام منتخبات كُنّا نعدّهم إلى وقت قريبٍ من منتخبات الدّرجات الدُّنيا. بالإضافة لتهميش أو عدم فاعلية سياسات تنمية الرياضيات الفردية والجماعية، خاصة المرض -المزمن- الذي إستفحل في جسم الرياضة المدرسية والجامعية،-اللّهم إلاّ بعض المنافسات التي تفعلّ خلال كرنفالات معيّنة- و"شلل" الهيئة المقرّرة في دمج الشّباب(الطلاب)، واختلاق قنوات تنفيسيّة لهؤلاء، "أرغمته" للتّوجه والإفتتان بالفرق الأوروبية أو البرازيلية، وصلت إلى حدّ "تقديس" نجومها.

للكرة "السّاحرة" دورٌ كبير في إستثارة وتقوية الرّوابط الاجتماعية بين الأفراد (المشجعين، والمتعاطفين)، ولعلنا نتذكر تلك "الحالة الاستثنائية" أيّام تصفيات المونديال الاخير، التي جعلت الجزائريين يلتحمون حول-حدث- إنجاز منتخهم الوطني، بطبيعة الحال لن ندخل في البحث عن أسباب هذه الحالة، لأنّها تحتاج لعمل بحثي مستقل. فقد تلعب الرياضة عامّة وكرة القدم خاصّة، دور الإسمنت Le ciment الذي يرأب ويردّم الشقوق والانقسامات بين الأفراد والجماعات، وحتى بين المجتمعات⁶⁰¹. ويمكنها أن تُحدِث العكس، تزيد في الانقسامات، بل تضيئي وتدكّي الثّورات والحروب كما يعتقد مؤلّف "الكرة ضدّ العدو"⁶⁰² "سايمون كوبر Simon Kuper" الذي تناول فيه مكانة الرياضة الأكثر شعبية عالميا، من خلال سيرة شخصيات عالمية، على نحو "مانديلا" و"القذافي" و"بن لادن" و"برلسكوني" ليخلص إلى أنّ "كرة القدم ليست مُجرّد لعبة"، بل ممارسة لها تأثير أعمق مما نتصور على قرارات ومشاعر الشّعوب والأفراد⁶⁰³. بل تحولت إلى لغة كونية تُدوّر مصائر ملايين البشر في العالم حولها.

⁶⁰¹ ويمكنها أن تهديم أواصر التّجاور والعيش المشترك، ولعلّ ظاهرة "العنف في الملاعب" أصدق برهان لذلك.

⁶⁰² Simon Kuper, "Football against the enemy", Pub: Orion, 2011, 256p.

كتاب يلامس علاقة الكرة (الساحرة المستديرة)، بالعالم الخارجي، علاقتها بالسياسة، بالاقتصاد، بالمجتمع وبالتاريخ عامة. كما يصف- المؤلف- بدقة متناهية كيفية مساهمة كرة القدم (الأكثر شعبية في العالم) في استنقاذ وشنّ الثورات عبر العالم. تُرجم الكتاب لعدّة لغات، منها العربية للدكتور "خليل راشد الجبوسي" بعنوان "الكرة ضدّ العدو".

⁶⁰³ قبيل انطلاق مونديال 1994 بالولايات المتحدة الأمريكية، سأل صحفي أمريكي أحد الهائيتيين من مناصري الفريق البرازيلي قائلا: ما الأهم بالنسبة إليك، البرازيل أم الاحتلال الأمريكي؟؛ فرد المشجّع: نحن جائعون على مدار السنّة ونعاني المشاكل كل يوم، ويتحدث الأمريكيون عن الغزو كل يوم، لكن كأس العالم يحدث مرّة كل أربع سنوات".

أمّا على المستوى الجزائري -وفي ذات السّياق- كتب الباحث "جمال بولي" أنّ الرّياضة خاصّة كرة القدم تثير شغف الكثير من الأشخاص، مما يجعلها ترتقي لممارسة سوسيو ثقافية تُساهم في توطين أشكال التّعاقد و التّوافق الاجتماعي والوطني". تجلّى ذلك في بعض الوحدات الجغرافية، التي عكست بعض معالم الهوية الوطنية، (الرّاية الوطنية، النّشيد، وبعض الشّعارات والمقاطع من الأغاني الرّياضيّة... أسْتُحضِرَت للتعبير عن مدى غِبْطَة الطالب بالفوز الذي أحرزه منتخبه، خلال مباراة ما، خاصة إذا تعلق الأمر بفريق نتقاسم معه بعض معالم مستوى من مستويات الهوية (المغربية، العربية، الإفريقية)، كالمنتخب المصري، المغربي، التونسي،...). لكن يبقى السؤال الذي يحتاج للدراسات للإجابة عليه، لماذا يزيد تَعْصُبنا لذاتنا كلّ ما لامسنا من يُجاوِزنا في المكان أو اللّسان؟. و من بين الوحدات المتضمنة ذلك:



الو. رقم: 71: طاولة/ قسم الحقوق. الو. رقم 72: طاولة/ قسم الأدب العربي.

يُنَبِّهنا آل السوسولوجيا بأنّه لا يجب أن نَغفَل عن رجال السياسة والحكم في استغلال الرّياضة أيديولوجيًّا، بكل أشكالها، بغية تَخدير وتغليط المجتمعات للاستتباب النظام القائم، واستدامته ومحاولة (سَرْمَدَة) البقاء على "الكرسي". وما تفعله حملات وسائل الإعلام لإستهراض واستوقاد المشاعر الوطنية -أو إطفائها- إذا أُريدَ لها ذلك. ويلخص ذلك "سايمون كوبر" في كتابه السّالف الذكر، بأنّ اللّعبة الرّائعة (كرة القدم) تؤدّي إلى إطلاق الحروب وإيقافها، لعبة كانت سبباً في تحريك شرارات العديد من الثورات، وسبباً في بقاء أعتى الديكتاتوريات في السلطة. رغم ذلك تبقى الكرة أفيون المجتمعات المعاصرة.

5.3.3. غرافيتيا "الجماعات الطلابية"⁶⁰⁴:

يُجمع الدّارسون على أهمية "الجماعة" في بناء وتشكيل معالم هوية الفرد، إذ من خلال احتكاكه (تفاعله اليومي) بالجماعة (الأخر) يدرك وينمو لديه الشّعور بـ "الأخرين Les autres" المختلفين عنه من حيث الشّكل والمظهر والآراء، (والهوية). ومنه تنطرح مسألة الانتساب "للجماعة"

⁶⁰⁴ يستخدم المتخصصون في الجغرافيتيا كلمة "Crew" لدلالة على "المجموعة/ الجماعة".

كفضاء هويّاتي مفضل -بل ضروري- لتنشئته الذاتية حول أمور تتعلق بهويته الخاصة، بُغية ادراك مكانته في الجماعة ومنه في المجتمع ككل. عبّر عن أهمية ذلك جرافيتياً في العديد من الوحدات التي برزت كفة متميّزة ضمن فئات المَتن الجرافيتي (ما نسبته 10%)، توزّعت ما بين الجماعات المحليّة والجماعات الطلابية، نستعرض نماذج منها:

أ. جرافيتيا "مجموعات الانتماء":

تعتبر "الجماعة/المجموعة Le groupe" في الأدبيات السوسولوجية فضاء مهمًا لتحقيق حاجات الانتماء العضوي والرمزي للمنتسبين إليها، وفضاء إمتلاك مُؤقت لميكانيزمات هُويّاتية فردية، باتصالاته وأدواره، حيث يتمّ إستغلال كل فرد في الحفاظ على الهوية الجماعية، والتي - بدورها- تُحدّد خصائص هويته الفردية⁶⁰⁵. حيث كشفت العديد من الدّراسات أنّ لكل جماعة نسق ثقافي مُتميّز، يُسمّيه "أ. ميكشيللي A. Mucchielli" بـ"ذهنية الجماعة La mentalité du groupe"، وهي الخبرة المكتسبة التي يشترك فيها جميع أعضاء الجماعة، مع العلم أنّ مفهوم الذّهنية في إعتقاده، يُغطي مفهوم الثقافة المُستبطنّة، باعتبارها نواة الهوية الجماعية⁶⁰⁶.

للإشارة، لا وجود لمجموعات اجتماعية منعزلة-تمامًا- عن الآخر، بل مفروضٌ عليها إقامة علاقات بمجموعات مجاورة، مما يؤدي إلى تشكيل الوعي بتمايزها، كما تُقيم مبادلات واستعارات من الغير (القريب والبعيد). إذ تشكل هوياتها بالتّجمع والتناقض، فألى جانب الاختلافات النّاجمة عن البُعد، هناك إختلافات ناجمة عن القُرب، "رغبة في التّمايز وتحقيق الذات" كما يعتقد "ك. ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss"، بما يسميه "جورج دوفرو Georges Devereux" بـ"التّثاقف المُنافِس".

ذلك أنّ الهوية الجماعية تسمح بتشكيل نظام تمثّلات متميّز، من خلاله يُشكل الفرد أفق مُؤقت لِيُحدّد ويتعامل مع هويته الخاصة حسب "بيارتاب Pierre Tap"، من خلال "فكرة التّفاعل البنائي" بين الشّخص والمؤسّسات⁶⁰⁷. تلقي هذه الفكرة الضّوء على آليات وسيرورة التّمائل والاستبطان للنّماذج الاجتماعية (المُتاحة)، مُؤكّدة في الوقت نفسه بأنّ الموضوع لا يقتصر على

⁶⁰⁵ يعتبر "جورج ميد G. Mead" من السّباقيين في الدّود عن أنّ الوعي للذات ليس إنتاجاً فردياً فقط بل يتشكل من خلال مجموع التفاعلات الاجتماعية التي ينغمس فيها الفرد. فكل شخص يدرك هويته بتبني وجهة نظر الآخرين، ووجهة نظر المجتمع الذي ينتمي إليه.

⁶⁰⁶ دونيس كوش، مرجع سابق، ص 38.

⁶⁰⁷ Pierre Tap;Philippe Malrieu,"Société pygmalion? Intégration sociale et réalisation de la personne", Collection: Organisation et Sciences Humaines, Editeur : Bordas,1992, 263p.

الإشباع الميكانيكي والأحادي الجانب للفرد في بيئته، بل هناك أيضاً "التمايز"، سيرورة يتمايز بها الفرد عن الآخرين، ويتخلق بصفات خاصة به، يحاول أن يؤثر بها على محيطه الاجتماعي. وهذا ما أشرت إليه بعض مضامين غرافيتيا "التقدير الذاتي".

رغم عسر الفصل بينهما يميز المختصون بين "جماعة الانتماء" و"الجماعة المرجعية"، فجماعة الانتماء هي التي ينتمي إليها الفرد بشكل فعلي، أما الجماعة المرجعية فهي التي تمنح الفرد قيمته وضوابطه ومواقفه وآراءه، وسلوكياته. قد تكون جماعة الانتماء هي نفسها الجماعة المرجعية، وقد تكون جماعة لا ينتمي الفرد إليها، لكنه يتماثل معها⁶⁰⁸. تجلّى ذلك بنسبة معتبرة - (10%) من مضامين الوحدات الجغرافية التي جمعناها، حيث عبّر الطالب عن إنتمائه لمجموعته المرجعية⁶⁰⁹ (القرية، القبيلة، البلدية، الدائرة، الولاية). كما عبّر -أيضاً- عن "مجموعته الطلابية" (الحالية)، التي يتفاعل معها في الوسط الجامعي، سواء من نفس الجنس أو من نفس التخصص أو العكس.

ب. الولاء للجماعة "المرجعية المحلية":

كثيراً ما استخدمت الكتابات الجغرافية للإعلان والتشهير (الاجباي) للحيّز الجغرافي الذي ينتمي إليه الطالب، كمؤشّر من مؤشّرات الهوية المَناطقية، المحلية، الجهوية. حيث أكّدت مدى الانتساب والتميّز على مستوى مجموعة الانتماء (الجماعة المرجعية)، من خلال أوصاف متنوعة تصبّ في خانة الافتخار والتقييم الجماعاتي "...حضر ذلك بكتابة أسماء المنطقة التي ينتمي إليها (الولاية، الدائرة، البلدية، المنطقة والعرش والقبيلة...)، إمّا مُفخّمة أو مُذيلةٌ بأوصاف التَّبجيل والفخر والاعتزاز، في غالبيتها مُبتدئة أو مُذيلةٌ بلازمة "تحيا vive، Sec، vive (...). كما تدلّل على ذلك النماذج التالية:

الو. رقم 73: "vive ناس البيض وسيدي الشيخ" عمود إسمنتي/علم الاجتماع.

الو. رقم 74: "VIVE BECHAR" باب/ إقامة البشير الإبراهيمي للذكور.

⁶⁰⁸ نشير هنا لصعوبة التّمييز بين الجماعة المرجعية وجماعة الانتماء بالمعنى السوسولوجي، لعدم تمكننا من استجلاء فاعلية كل مجموعة على مستوى تنميط السلوكيات والمواقف الطلابية، نتيجة طبيعة الموضوع المدروس، وخاصة المعطيات التي تتحاز فقط للمنتوج الجغرافي.

⁶⁰⁹ يُعرف هـ. هيمن Herbert Hyman "المجموعة المرجعية بأنها كل مجموعة ينتسب إليها الفرد لتحديد مواقفه".



الو. رقم 76: جدار/قسم الهندسة المدنية.



الو. رقم 75: جدار/حي البشير الإبراهيمي
للذكور(رمز الهوية الأمازيغية)



الو. رقم 77: جدار/شعبة العلوم الاسلامية. الو. رقم 78: طاولة/ قسم الآثار.



تعددت الوحدات التي تُعبّر عن الانتماء للجماعة المحلية، سواء العشائرية أو القبلية أو العرشيّة أو المناطقية أو الجهوية، أو الولائية. تاريخياً، عُرِفَ هكذا مضمون منذ الأيام الأولى للممارسة الجغرافية على يد "Taki 183" عندما عُرِفَت رقم الشارع الذي يقطن به. كما وُجِدَت كتابات تعبر عن أرقام الولايات (13-14-08-22...)، والدوائر والبلديات (13200،...)⁶¹⁰، ولعل الهدف منها التّشهير لما يُسميه "Eduardo Camacho-Hübner" بالهوية البريدية identité postale⁶¹¹.

ت. "الجماعة الطّلابية" فضاء هويّاتي بامتياز:

تضمّنت بعض الوحدات الجغرافية مضامين رَامَ -وَيَرُومُ- من خلالها الطالب الكشف (والإعلان والتّشهير) عن انتماءاته "للجماعة الطّلابية" التي ينتسب إليها -على الأقل مؤقتاً- ومدى توافقه مع أشخاصٍ نَسَجَ معهم علاقات "صداقة"-ولو مؤقتاً أيضاً- نتيجة التّفاعل الايجابي بينهم،

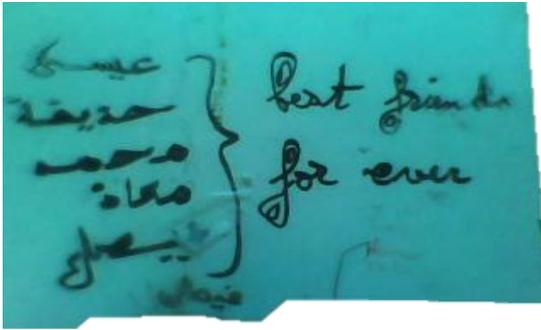
⁶¹⁰ كشفت بعض المقابلات المفتوحة مع الطلبة خلال فترات الإشراف على مواضيع المذكرات، على حقائق مثيرة عن المكتبة، على نحو التّقسيم "الغير معلن" لفضاء المكتبة على أساس الإقامة والانتماء: فالطلبة الساكنين بتلمسان مدينة (13) يجلسون بالجهة (س) -اليمنى أو اليسرى- أمّا باقي الطلبة (الضواحي) فمقاعدهم بالجهة المقابلة.(..،13).

⁶¹¹ Eduardo Camacho-Hübner, "Je suis Mxx, et toi? – Moi ? Xiiimxv", Espaces Temps.net, Mensuelles,2006. <http://espacestems.net/document1867.html>. Consulté le :12/11/2009.

وتشاركهم في نفس الاهتمامات والشواغل، إذ رأى أنهم يلائمونه ويساعدونه في التكيف وتخطي إكراهات النسق الجامعي والمجتمعي، سواء في بعده الرّسسي أو الغيررسي.

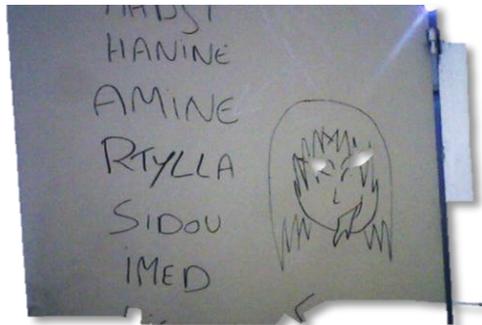
يلتجئ الطالب لكتابة أسماء مجموعة أصدقائه/زملائه، من يقتسمون معه وجهة النظر حول بعض "الأمر" التي يرى أنها مهمة. إنها مضامين تعكس دلالة ما يسميه أنصار التفاعل الرمزي بالانتماء للجماعة المرجعية⁶¹². تلك الجماعة التي ينتمي/يتماهى إليها فكرياً أو اجتماعياً أو قيمياً، لموازنة سلوكه، أو إحراز صورته الاجتماعية، أمام سلطة الآخر(الغير)⁶¹³. تتباين أسس "التوافق الجماعاتي" ما بين الأصل المناطقي، والانتساب التخصصي الأكاديمي، والتعايش الإقامي (الإقامة الجامعية)... منها:

الو. رقم 79: "FATIMA+ KARIM+ SID AHMED =Dep Anglais" عمود/قسم اللغات.



الو. رقم 81: باب/ قسم البيولوجيا.

الو. رقم 80: طاولة/ قسم الصيدلة.



الو. رقم 82: باب/قسم العلوم الاجتماعية. الو. رقم 83: طاولة/ شعبة الفلسفة.

غالبا ما تُكتَب/تُغرَفَت أسماء أعضاء الجماعة وتُقرَن بكلمات أو رموز تعبّر عن الوحدة والتعاون

والصداقة، مع تمنيات الاستدامة من خلال كلمات "للأبد، دائما، Forever، à Vie..."

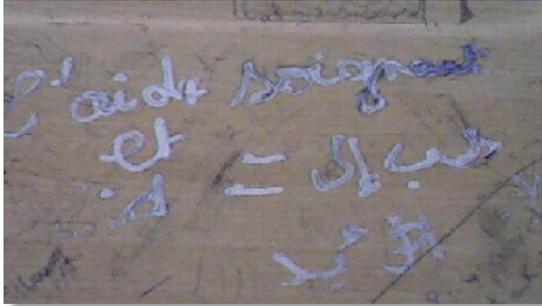
⁶¹² الجماعة المرجعية: تلك الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، تؤثر على قراراته وتصرفاته، وعلى سلوكياته بصورة عامة، ذلك لأن تصرفاته تتأثر بشكل كبير بهذه الجماعات المرجعية التي ينتمي إليها، أو التي يطمح في الانتماء إليها. ويرجع سبب ذلك إلى أن طبيعة العلاقة بين أعضائها مستمرة. وقد يكون بينهم فرد أو أكثر ذو تأثير على غيره، فيقوم بترشيد سلوكياتها، نحو التناسق والانسجام، لتتماشى مع المعايير الرسمية، والغير رسمية للجماعة التي ينتمون إليها.

⁶¹³ إنها الجماعة التي عرفها "تشارلز كولي" بـ "جماعة تعطي أفرادها حرية التعبير عن الشخصية والعواطف وينصهر فيها الأفراد".



الو. رقم 84: طاولة/ قسم علم الاجتماع. الو. رقم 85: طاولة/ قسم التاريخ.

يشير الباحثون لمتغير "التخصص الأكاديمي" باعتباره عاملاً من عوامل تجسيد الروابط الاجتماعية بين الطلبة المنتسبين له، ومنه بتشكيل معالم ثقافة طلابية متميزة، إذ يعتقد "دوبي Dubet" أن معايير التماهي وتشكيل الخبرة الطلابية يجب البحث عنها ضمن علاقاتهم وتفاعلمهم بتخصصاتهم.



الو. رقم 86: طاولة/ قسم العلوم الاقتصادية. الو. رقم 87: طاولة/ قسم الطب.

كما يمكن للمجموعة أن تبتدع أو تنتج "اسماً مستعاراً" لتسمية ذاتها، يتم نحتُه أو استعارته من مجموعة أخرى (مشهورة)، تتأثر بها، إذ تعتقد أنها تتقارب مع انشغالاتها، فقد تُسمي "نموذجاً" يُقتدى به في أمر معين، على نحو الوحدتين الآتيتين:



الو. رقم 88: جدار/ الأدب العربي⁶¹⁴. الو. رقم 89: طاولة/ علوم الزراعة والغابات.

⁶¹⁴ بحثنا عن معنى الكلمة، فوجدناها ذات معاني متعددة، نذكر منها:

- Dakotas: قبيلة من قبائل الهنود الحمر "Sioux". - Dakota: مصطلح يُطلق على لهجات قبائل "Sioux".

اعتمادًا على مقولة عالم الاجتماع "ميشال مافيزولي Michel Maffesoli" التي كثيرًا ما رافَع عن مصداقيتها العلمية في مؤلفاته، القائل فيها أنّ "الوَسَط يُنَبِّي وَيُقَوِّي الرّابطة الاجتماعية". وجد الطالب في وسطه الجامعي ظروف مناسبة لِنَسج روابط اجتماعية متميّزة، تساعده في تشكيل معالم هويته الفردية والاجتماعية، حيث يستند في هذه المرحلة على تنشئة "جماعة الانتماء" (المرجعية). يعتقد بعض الباحثين أنّ جماعة الانتماء في الفضاء المدرسي-ومنه الجامعي- لها تأثير في تنمية الشّعور بقيمة الذات، وبنية النّسق القَبِيّ للطّالب⁶¹⁵، إذ يمكنها أن تساهم في خَلْخلة النّسق القَبِيّ الأُسري والمحلي، والمؤسّساتي الذي يتعايش فيه مع أقرانه. لذا تجلّت الجماعة بشكلها الجديد من خلال الجرافيتيا، ممّا جعلها وسيلة فعّالة للجماعات الطلابية للتعريف بأعضائها وبخصائص هويّاتهم الجماعية، داخل الفضاء الذي يتواجدون ويتفاعلون فيه. تعبر جرافيتياً عمّا يسميه "Maffesoli" بـ"التّماهي القَبِيّ L'identification tribale" (بالمفهوم المعاصر للقبيلة). يتمّ التّعبير عن وحدة وتعاضد الجماعة كرد فعل "للتّحديات" التي تواجهها، حيث يتصدّرها البحث عن "الاعتراف La reconnaissance". اعترافٌ من طرف المجموعات الأخرى (النّظراء من الطلبة)، ثمّ باقي "فاعلي" المؤسّسة الجامعية (بأساتذتها وطاقمها الإداري)، ومن ثمّة إعراف أفراد المجتمع (جيل الكبار).

غالبًا، ما يتمّ تسجيل أعضاء المجموعة وفق ترتيب يتصدّره المُعرِّف (الطّالب الذي كتب الوحدة الجرافيتية)، لتليها بقية أسماء الجماعة متتالية، كل على حسب درجة الصّداقة (قُربه) مع "كاتبها/مُعرِّفها"، بعبارات تعبّر عن الصّداقة والوحدة والأخوة، وتذييلها بكلمات ورّموز تتمنى "الاستدامة" على نحو (للأبد، مدى الحياة، Forever، pour la vie، ..). حيث ترتقي الجرافيتيا لتكون استراتيجية هويّاتية مزدوجة، تحاول تلبية حاجة الاعتراف للفرد والجماعة، ضدّ أنواع التّمهيش، وضدّ ما يُسميه الباحثين "الاغتراب الهويّاتي"، الذي يعيشه معظم الشّباب العربي. يدعم ذلك الباحث "مانويل كاستلز Manuel Castells" عندما يؤكد أنّ الجرافيتيا وسيلة فعّالة من

- Dakota عنوان أغنية لفرقة روك بريطانية "Stereophonics".

⁶¹⁵ Bouvard Alexandre, "Elèves difficiles en classe normale ou en classe spécialisé : Rapport entre modalité d'attachement, niveau d'estime de soi et structure du système de valeur", Thèse de Doctorat en psychologie, Université de Franche-Comté UFR des sciences du langage, de l'Homme et de la société, 2007, p. 97.

خلالها تتمكن الجماعة المُهمَّشة من تشكيل مَعالم هويتها. إنَّها صوت للتَّحدث مع المجتمع من خلال الصَّورة أو الكلمة التي تُعَرِّفُ بالفضاء العام بهدف الاستهلاك العام لها⁶¹⁶.

وهذا ما يدفعهم للبحث عن طرق واستراتيجيات لتجاوز هكذا مشاكل وممنوعات، من بينها التَّمركز الجماعي في جماعات اجتماعية محدودة العدد (ما بين 2 و10 طلبة)، تشكَّلت من خلال صيرورة تفاعلهم اليومي مع بعضهم البعض، ومع محيطهم (الأسري، المدرسي، الجامعي)، الذي "أهمل أو همَّش" -بعض- مطالب تشكيل هويتهم الخاصَّة، واعتبرها أمور ثانوية، بل ومطالب طفولية -في بعض الأحيان-. وضعُ جعلهم يشكِّلون هوية جماعية وسطحية، حسب تعبير "Alain Vulbeau" مؤقتة ومتغيرة، ذلك لأنَّها ملائمة للفضاء الحالي فقط. فيَميلون لأثرهم دون آباءهم قصد إعادة الاعتبار "للأنا الفردي المُحتَقَر Un moi minoré"، أمام تسلُّط الخطاب المُهمِّين الذي يتجاهل خصوصيات هذا الأنا⁶¹⁷. أو ما يسميه "ميشال مافيزولي Michel Maffesoli" بـ"الترجسية الجماعية Le narcissisme collectif"، والتي هي في واقع الأمر سوى تجسيدا لـ"الترجسية الفردية"، وهذا ما يُيسِّرُ لنا فهم التَّحول الذي وقع من منطق الهوية إلى منطق التَّماهي (D'une logique de l'identité à une logique de l'identification)⁶¹⁸.

فلم تُضفي "الحدائثة" كما كان يأمل علماء الاجتماع الرأسماليين إلى تنميط الأفراد والمجتمعات، وتقويض خصوصياتهم الثَّقافية، بل أدَّت إلى تقويض مرتكزات الحدائثة نفسها، بالتَّكوص إلى أنماط من هويات ما قبل الحدائثة، يُعاد إنتاجها من المنظور التَّقني الجديد⁶¹⁹. ويسمى هذا الاتجاه باتجاه "التَّجذُر الدِّيناميكي"، ويقصد به إعادة تنميط أشكال الماضي في صيغ ما بعد حدائثة، يتجلَّى آثار ذلك في البُنى الاجتماعية، السياسة، الفنِّية والثَّقافية الرَّاهنة. قَعَد لذلك في مَن كتابه "عصر القبائل Le Temps des tribus"⁶²⁰، حينما تحدث عن الحنين المحموم للأشكال الثَّقافية

⁶¹⁶ Bradley J. Bartolomeo, "Cement or canvas: Aerosol art & The changing face of graffiti in the 21st century", Union College, Schenectady NY, USA-2001. URL: <http://www.graffiti.org/faq/graffiti-is-part-of-us.html>. Consulted: 11/06/2010.

⁶¹⁷ Jérôme Monnet, "Espaces et cultures à Los Angeles. A propos de quatre ouvrages récents concernant les "Latinos""، Revue: Cybergeog: European Journal of Geography, de livres , 2001, (modifié le 13/12/06). URL: <http://cybergeog.revues.org/932>. Consulted : 23/02/2009.

⁶¹⁸ Michel Maffesoli, "Du Tribalisme". In: <http://www.michelmaffesoli.org/textes/du-tribalisme.html>. Consulté le : 22/8/2009.

⁶¹⁹ "Iconologies, Nos id@tries postmodernes", Éditions Albin Michel, 2008.

⁶²⁰ Le Temps des tribus: Le déclin de l'individualisme dans les sociétés postmodernes", Grasset Kincksieck, 1988, (rééd. Livre de Poche ,1991).

العتيقة، وللانتماءات الأصيلة في سياق "القبلنة/القبليّة المعاصرة". ويعني تجدد تشكّل بنية القبيلة بمعايير وقيم ما بعد حداثة. سواء كانت سياسية، اقتصادية، أيديولوجية. فرغم المجهودات الحثيثة التي قامت بها الحداثة بهدف توحيد وتنميط ودحض الاختلافات، وترسيخ هيمنة البنى التقليدية (الدولة، الأسرة) على تنشئة الأفراد. إلا أنّها لم تستطع بلوغ ذلك، لأنّه بقدر ما كثّفت من ترسيخ عوامل الترابط الاجتماعي، بقدر ما أفرغتها من أيّ مضمون واقعي. لتحلّ محلّها قيم ومعايير ما بعد الحداثة (الرغبة، الصّورة، القبيلة المعاصرة، الترحال..) من خلال فضاءات التّواصل الحميمة.

فالمؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة، لم تعد لها السّلطة "الواسعة" التي كانت تمتلكها على النّظام الاجتماعي. وهذا ما يفسر-حسب "مافيزولي Maffesoli"- تَفْشِي تعدّد أزمات المجتمع الإنساني المعاصر، كالإرهاب، والحركات الأصولية، والتيارات اليمينية العنصرية المتطرفة، وتطبيق السياسة والانتخابات... فلم يعد مثلاً التعليم الجامعي قنطرة مضمونة تربط الشّباب المتعلم بعالم الشّغل. فبعد عصر الحداثة المستقر-نسبياً- حلت فترة "القبلية الجديدة Le nouveau tribalisme"، بأوانٍ شتّى، مهنية وجنسية وأيديولوجية ودينية وثقافية. والتي من المتوقع أن تُعمّم مستقبلاً-حسب اعتقاده-. وفق قيم ومعايير جديدة، لم يعد لثلاثية: العمل، المستقبل، العقل، حضوراً قوياً فيها كما ألقناه، بل تُركّ المجال للقيم الجمالية الذّوقية التي تُعطي أهمية قصوى للجسد والخيال واللعب. إنّنا أمام انتشار قيم عصر "المجتمع التّرجيسي La société narcissique" كما يعتقد "غاي طونيلّا Guy Tonella"⁶²¹.

إضافةً لاستفحال ثقافة "الاستهجان Réprobation" والذي يعني إستنكار أفعال وتصرفات ومعتقدات الغير، الذي وُلد نوعاً من الاتّفاق (العَلَيّ أو الضّمْنِي) بين مجموعة من الطّلاب، عاشوا ويعيشوا-إلى حدّ ما- نفس الظروف والأوضاع الإقامية والتنشئية، ممّا أدى مع مرور الوقت، لبُلوّرة قيم ومعايير ثقافة فرعية-تُميّزهم- وذلك بتطوير أنساق وآليات اجتماعية تلقائية في البداية، لتتحقيق نوعاً من الحماية والاتّزان النّفسي، يتمّ ذلك بالتّمرّكز الجماعي (المجموعات الطلابية). الذي يسمح بالتّعبير الحُر بكل الطُّرُق (التّحدّث عن الممنوع اجتماعياً، دون حَرَج).

⁶²¹ Guy Tonella, "Le narcissisme contemporain et ses implications cliniques", Conférence donnée à la Société Brésilienne d'Analyse Bioénergétique (SOBAB), Sao Paulo, Brésil, 2003, p7. URL: http://www.cfab.info/attachments/081_Tonella_Narcissisme_comtemporain_2003.pdf. Consulté le:28/7/2012.

فَتَشْكِيل/تَشَكُّل هذا الفهم المشترك والمناخ المُوَحِّد، يجعلهم يكوّنون نماذج سلوكية، وعادات ومصطلحات خاصّة بهم، أنتجت-مع الوقت- قيماً ثقافية، يتميّزون بها عن باقي الفئات الاجتماعية الأخرى التي "استهجنّهم"⁶²². ولعلّ هذا ما يُفسّر انتشار هكذا مضمون غرافيتي، بكتابة أسماء العديد من الطلبة ضمن زمرة واحدة. فالكتابة الغرافيتية، كما يؤكده الباحثون تُوقّر للفاعل - المُعْرِفِ- الإحساس بالهوية الذاتيّة، وانزع الاعتراف "الذاتي/الجماعي"، وذلك بالتعبير غرافيتياً عن انتمائه الاجتماعي لمجموعة الطلابية، ألم تقلّ العرب قديماً "الصّاحب ساحب".

ث. أبرز متغيرات العلاقات الاجتماعية الطلابية (غرافيتياً):

من بين المتغيرات الواضحة الحضور في تشكيل الانتماءات الطلابية (الجماعات)، من مختلف المضامين الغرافيتية، نجد:

- السن: أغلبهم ما بين 20 و 24 إلى 27 سنة مع بعض الاستثناءات العُمرية.
- الجنس: غالباً ما نجد الجماعة الطلابية تتولّف من الجنسين معاً.
- منطقة الإقامة (الانتماء الجغرافي): الجهة، المنطقة، الدائرة، البلدية، القرية والحي، العرش...
- التّخصّص الأكاديمي: للتّخصّص والمسلك الأكاديمي دورٌ فعّال في تشكيل المجموعة الطلابية، نظراً للقيم والمعايير المتشاركة بينهم⁶²³.
- الظروف المعيشية: داخل الحرم الجامعي، خاصّة ظروف الإقامة الجامعية، وبالأخصّ الغرفة التي تقيم فيها الجماعة.
- الأذواق الغنائية والرياضية (الفنيّة): العديد منهم يتشاركون في "ذوق غنائي" معين، تجسد ذلك من خلال كتابة أسماء "المغنيين" وربطها بأسماء مجموعة من الطلبة.

6.3.3. غرافيتيا الاحتجاج الطلابي:

كنتيجة تكاد تكون حتمية للظروف المتأزّمة التي يعيشها المجتمع الجزائري، على مختلف الأصعدة، الاجتماعية، الاقتصادية، الأمنية... تراكمت العديد من الوحدات الغرافيتية عكست مدى "الاحتجاج" عليها (بلغت نسبتها 8% من النسبة العامة للوحدات). ولأنّ الطالب عضو من الكل، يتأثّر ويؤثر على محيطه المجتمعي. ونظراً لعدم "توافر" قنوات وفضاءات للتعبير-الحر- عن

⁶²² خاصّة الفئات التي لها سلطة مباشرة عليهم على نحو: الكهول والشيوخ.

⁶²³ في ذات السياق يؤكد "فرانسوا دوبيي François Dubet" أنّ الطلبة يتحدّدون من خلال العلاقة التي يشكلونها من خلال دراستهم، حيث يتم تحديد معالم الهوية الطلابية، ومسار تجربة الطالب داخل الجامعة. يتركز طرحه في ثلاثة ميكانيزمات أساسية، هي: الاندماج الطلابي، الموهبة الفردية للطلاب، المشروع الذي يطمح الطالب تحقيقه.

نظرته لما يحدث أمامه، وما يشغله ويؤرقه، ولما يأمله، إلتجأ إلى "الغرافيتيا" للتعبير عن ذلك. حيث تعددت وتنوعت المضامين المُعبّرة عن الاحتجاج -وفي بعض المرات السُّخط والتَّضْمُر- على الواقع المُعاش بأبعاده الاقتصادية، الاجتماعية، الأمنية والثقافية⁶²⁴. نستعرض بعضها منها:

أ. الاحتجاج ضدّ الأوضاع المعيشية بالإقامات الجامعية:

انتشرت العديد من الكتابات الغرافيتية التي تضمنت رفض واضح للأوضاع الاجتماعية السائدة في الإقامات الجامعية، من تسيّب وإهمال وفوضى عارمة، على مختلف المستويات المأكل، المرقد، النقل، المنحة، والتأمين⁶²⁵، فلا يكاد يمرّ يوماً حتّى نقرأ عن احتجاجات داخلية - عنيفة في بعض الأحيان- على هكذا أوضاع، رغم المجهودات المبذولة. وبدورها عكست العديد من الوحدات الغرافيتية مدى معاناة الطالب في الحي الجامعي، حيث نقرأ ما يلي:

الو. رقم 90: "عذاب القبر للطلبة" باب المطعم/ إقامة الاخوة علالي/بوهناق ذكور.

الو. رقم 91: "les internes c'est la famine" جدار الرواق/ إقامة بلميمون ذكور.

الو. رقم 92: "toujour la chaine" حاجز حديدي/ مطعم إقامة البشير الابراهيمي.

الو. رقم 93: "donne moi du pain" حاجز حديدي برواق المطعم المركزي.

المتبّع لأوضاع الجامعة خاصة -والمجتمع الجزائري عامة- يلحظ تنامي "ثقافة الاحتجاج" على الأوضاع القائمة وصلت إلى حدّ استخدام وسائل وطرق غير معهودة، كاحتجاز المسؤولين والأساتذة والإداريين داخل مكاتبتهم والاعتداء عليهم بالشتم، وأحيانا بالضرب-بل والقتل أيضاً- وقطع الطرق، حرق العجلات، واستعمال الغازات المسيلة للدموع في بعض الاحتجاجات، تخريب الممتلكات.. "ثقافة" استشرّف مآلاتها الباحث في علم الاجتماع "ناصر جابي"، حيث علّق عليها في حوار مع جريدة "الجزائر نيوز" (يوم السبت 2010/12/4)، بقوله: أنّ الحركات الاحتجاجية التي يقوم بها الطلبة والتنظيمات الطلابية ستكون حركات احتجاجية أكثر عنفًا في السنوات المقبلة، لأنها لازالت لم تصل إلى درجة العنف الحقيقي، بل ما يحدث هو مجرد "عنف رمزي"، مشيراً إلى أن انتشار الفساد في الجامعة، هو السبب الرئيسي في هكذا وضع، مضيفاً أنّ هذه الحركات الطلابية أضحت جزءاً من هذا الفساد.

⁶²⁴ ملاحظة: للتذكير تمّ ترتيب مضامين الاحتجاج على أساس عدد الوحدات الغرافيتية المُعبّرة عن كل بُعد فرعي.

⁶²⁵ كلنا نتذكر حادثة انفجار مطعم الإقامة الجامعية "بختي عبد المجيد" بحي "الكيفان" 2012-05-25، الناجم عن ترسب الغاز، والذي أدّى لوفاة تسعة طلاب، وجرح 28، وفق تصريحات مدير الصحة والسكان بالولاية لوكالة الأنباء الجزائرية. وما تلاه من احتجاجات طلابية.

ب. العلاقات البيداغوجية ليست على ما يُرام:

عَدَدُ مُهَمِّمٍ من الوحدات الغرافيتية عَبَّرَ من خلالها الطالب عن إمتعاضه واحتجاجه ورفضه لِمَا يُعْتَمَلُ داخل الفضاء الجامعي، خاصّة في مستواه البيداغوجي، أغلبها يتعلق بالوضع المُعاش في الجامعة، وطبيعة العلاقة بين الطالب وباقي الفاعلين الاجتماعيين، من أستاذة ومسؤولي (الكليات والأقسام والشُعَب والقاعات والإقامات الجامعية).

فيما يخص الوحدات المعبّرة عن الوضع المُعاش في الجامعة، المتعلقة بنظام التّدريس الجديد (LMD)، وبالعلاقة البيداغوجية مع الأساتذة، نقرأ على سبيل المثال، ما يلي:

الو. رقم 94: "Les études ses des souffrances" طاولة/ قسم اللغات.

الو. رقم 95: " ما يعرفوا هذو الاساتذة سوى التّزيار" سبورة/ العلوم الدقيقة.

الو. رقم 96: "Lmd غي خروطي" سبورة/ مدرج.

الو. رقم 97: "Lmd: lesse moi dormir" باب/ قسم اللغات/ وقسم العلوم الاجتماعية.

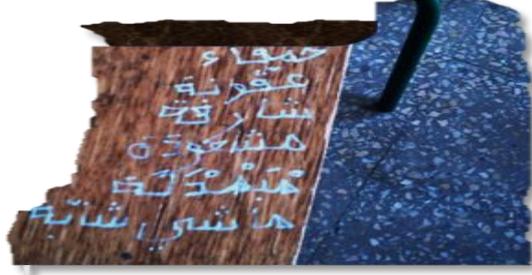
الو. رقم 98: "الحفظ + الحفظ + الحفظ" جدار/ شعبة العلوم الاسلامية.

مضامين عكست مستوى من مستويات التّفاعل بين الطالب وباقي الفاعلين في المؤسسة الجامعية، توحى في معظمها بِضَجَرٍ، واحتجاج -مكتوب- على طبيعة النظام التعليمي الجديد (LMD)، بأسلوب يمتزج بالسُخريّة والتّحوير في التّسميات (الوحدة رقم 100). كما تعكس "إختلال وظيفي Un dysfonctionnement" العلاقة البيداغوجية السّارية، العمودية بين الطلبة والأساتذة والإداريين. رغم ذلك يحاول الطالب "العقلاني" تشكيل إستراتيجيات متنوعة لتحقيق رهان توطيد العلاقة "الجيدة" مع أساتذة المقاييس، والعكس ممكن بالنّسبة لبعض الأساتذة. تصفُ هكذا "علاقة" الباحثة "نجاة ميكيداش" بقولها "أنّ الأستاذ لا يقتصر على دوره الدّيداكتيكي، بل يلجأ لإستخدام سُلطته أكثر من معلوماته، أمام مختلف مشاكل الطّلبة التي يواجهها"⁶²⁶. وقد يتحوّل الإشراف العلمي على المذكرات والأطروحات أداة للقهر الفكري⁶²⁷، وترويج

⁶²⁶ Mékideche Nadjat, "Ecole, adolescence et identité, pour une psychologie de la construction identitaire , le système éducatif en Algérie et les enjeux du changement", Annales de l'université d'Alger, numéro spécial, 1995-1996, pp. 15-21.

⁶²⁷ الفعل البيداغوجي: حسب كل من "ب. بورديو" و "ت. باسرون" عبارة عن عنف رمزي يفرض نوع من التعسف الثقافي. ولا يمكن فرض هذا الأخير إلا بواسطة سلطان تعسفي، أي كل فعل بيداغوجي هو موضوعياً عنف رمزي، يهدف الى فرض

اتجاهات معيّنة، وفرض تبعية عمياء على طريقة "من علمني حرفاً صرت له عبداً"-نعتقد أنّها محدودة-. كما وُجِدَت كتابات تستهدف أساتذة بأسمائهم كاملة، تعمّدنا عدَم ذكرها، مراعاة لشعور الأساتذة المقصودين من الكتابات. نذكر على سبيل المثال الوحدات الجغرافية التالية:
الو. رقم 99:"الأستاذ (X) غائب على طول حتى أثناء المحاضرة" خلفية باب/قسم الحقوق.



الو. رقم 100: طاولة/ قسم العلوم الاجتماعية.

نشير أنّ العلاقة البيداغوجية بين الأستاذ والطالب لا يتحكم فيها الطرفين فقط، بل تتدخل "الادارة" في تفعيلها، إمّا لصالح العلاقة السليمة أو العكس في بعض الأحيان.
ت. الاحتجاج على الواقع المجتمعي:

عكست بعض المضامين الجغرافية نبرة احتجاج واضح على الأوضاع الاجتماعية التي يعيشها الطالب -الفرد- الجزائري، والتي توحى بنظرة ضبابية للغد، خاصة بعدما دخلت الجزائر "عالم الأشباح" كما يقول "بختي بن عودة"، بداية تسعينات القرن الماضي. عبّر عن مشكلاته بهذا الشكل للفت انتباه السّلطات، والرّغبة في محاورتها، بعد أن غابت/غُيِّبَت قنوات الحوار المؤسّساتي. نورد عينة منها.

الو. رقم 101: "المسؤول ذئب للانسان" خلفية باب/قسم العلوم السياسية.

الو. رقم 102: "Ou va l'algerie" طاولة/ قسم الصيدلة⁶²⁸.

الو. رقم 103: "بلاد الميزيرية و chomage" سلالم /حي جامعي.

الو. رقم 104: "الشعب في الميزيرية واموالنا عند FMI" مقعد /محطة الحافلة.

ما يلاحظ على بعض الكتابات الجغرافية تفعيلها للحوار غير مباشر بين الفاعلين (الطلبة المغرقتين)، حيث يتساءل الطرف الأول ثم يرد عليه الثاني، ومن بينها:

=تعسف ثقافي بواسطة سلطان تعسفي، انطلاقا من أن هذا الفعل لا يمكنه أن يُمارَس بدون سلطة، ولا بدون علاقة تواصل بين طرف سائد وثان مسود.

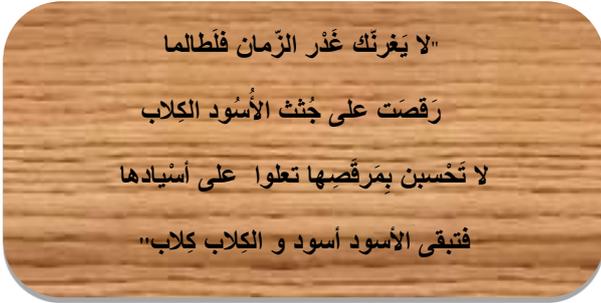
⁶²⁸ وُجِدَت العبارة في فضاءات أخرى، وهو سؤال عَرَفَ رواجًا لافتًا خلال العشيرية الحمراء/السوداء التي عشناها. وهو سؤال كثيرًا ما سُوقَ أوقات الأزمات، حتى أمسى "موضة تساؤل"، على نحو مقال السوسبيولوجي "ر. مونتان Robert Montagne".
"Où va l'Algérie?". In: Politique étrangère, n°1, 1945, 10^{eme} année, pp.75-95. In: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/polit_0032-42X1945num1015549.

الو. رقم 105: "البلاد الى اين؟ والى متى؟" طاولة/ المكتبة المركزية.

الو. رقم 106: "راها رايجا للهاوية يا زميلي" نفس المكان.

ث. أمارات الضَّجَرِ الطَّلَابي:

لقد أضحّت العوائق الاقتصادية في ظلّ النظام العالمي الجديد وزحف العولمة من أبرز العوائق التي تتحكّم في ثقافة ووعي الإنسان، ما يذكرنا بمدى صمود المقولة الماركسية التي تُقَرَّبُ بأنّ الواقع الاقتصادي هو الذي يتحكّم بل ويُحدِّد وعي النَّاس وعلاقاتهم الاجتماعية، حيث يؤكد "كارل ماركس K. Marx" ذلك في قوله: "إنّ الحياة المادية هي التي تحدّد الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية عامّة". فالظُّروف الاقتصادية والاجتماعية لها دور كبير في اختلاق الاستقرار النفسي والاجتماعي لأفراد أيّ مجتمع. فالتجاء الطالب للكتابات الجرافيتية كوسيلة للتخفيف من هذا الضَّجَرِ (القلق من الغم)، ومحاولة منه تناسي واقعه المُعاش والتَّمَسُّكُ بأحلام اليقظة. فتُمسِّي الجرافيتيا كما تؤكد "جانيس ران Janice Rahn" استراتيجية لِنَسِيان الواقع المُعاش⁶²⁹. إنّها أدلة تكشف عن أبعاد الضَّجَرِ الطَّلَابي من الأوضاع المادية والعلاقاتية والاجتماعية المُعاشة. وهذا ما تجلّى في العديد من الوحدات الجرافيتية التي انتشرت على مختلف الحاملات، حيث نقرأ ما يلي :



رقم 107: طاولة/قسم العلوم التجارية . الو. رقم 108: طاولة/مكتبة العلوم الاجتماعية.

⁶²⁹ Janice Rahn, "Motivation in Hip-Hop Graffiti Culture: A Site of Tension Between Individual Desire, Peer Influence and Community Space", CNADA, Concordia University, 1999. URL: http://people.uleth.ca/~janice.rahn/articles/hip-hop_graf.pdf.consulted. Consulted: 25/09/2009.



الو. رقم 109: باب غرفة/إقامة بلميمون 500 سير إمامة ذكور. الو. رقم 110: جدار/قسم الاعلام الآلي. باعتبار الطالب فاعلاً ومُنفعلاً بما يُحيط به، جاءت العديد من الوحدات الجرافيتية تعكس تمثّلته لهذا الوضع الذي يعيش ويتعايش معه، ذلك لأنّها نتاج للظروف السوسيو اقتصادية والسياسية والثقافية التي يتواجد فيها. فكلمات "Merde"⁶³⁰ و"ouff" و"كازيهين" والقنطرة و...، مؤشرات قوية لمدى إمتعاض واحتجاج "الكاتب" على واقعه المجتمعي المتأزم. إنّها أمارات تختزل كل أصناف المعاناة الطلابية. فالجرافيتيا كما تؤكد "دونيس بيلودو Denyse Bilodeau" مَهما كانت حاملاتها، تُجسّد لنا الاحتجاج الفردي أو الجماعي على الظّروف المُعاشة⁶³¹. وإذا استحضرننا فكرة "كلار غنشات Claire Guinchat" نقول إنّها ردُّ فعل عن الظّروف السوسيوسياسية القاسية⁶³². فتموضعت كمرآة، بل "بارومتر Baromètre" يقيس درجة الحرارة الاجتماعية للفضاء الجامعي خاصّة، والمجتمعي عامّة.

• جرافيتيا اللّهاتُ وراء الضّفة الأخرى:

برزت العديد مضامين توحى برفض الواقع الجزائري، والتلّهت لما "وراء البحر"، أو كما تسمى بـ"أحلام الهجرة"، تلهفٌ إلى "الهناك المُوسطرّ/الأسطوري" بلغة السوسيوولوجي هواري عدي". تجسّدت على العديد من الوسائط الجرافيتية، وتنوعت ما بين الإفصاح المباشر بالرغبة الملحة في الهجرة أو "الحرقّة EL Harga"، وكتابة أسماء البلدان المأمولة لذلك، خاصة البلدان الأوروبية (فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، إسبانيا،.. والأمريكية (كندا وأمريكا)، مع تذييلها بعبارات التّبجيل والتّعظيم والتّمني، (تحيا، Vive، إنشاء الله، بري،... ومن بين الوحدات المعبرة عن ذلك:

الو. رقم 111: "CANADA" or "USA" or "Germany" سلالم/ إقامة البشيرالابراهيمى.

الو. رقم 112: "الهدة .. تحيا.. الهدة " جدار/ الحقوق.

⁶³⁰ التي قال عنها Flaubert " بهذه الكلمة العظيمة يمكننا التّخفيف من معاناتنا البشرية".*

*In: Claude Gagnière, Pour tout l'or des mots, Robert Laffont, 1996, p. 583

⁶³¹ Denyse Bilodeau, Les murs de la ville: Les graffitis de Montréal, Liber, 1996, p. 8.

⁶³² Claire Guinchat, op. cit. p 29.



الوحدة رقم 113: طاولة/ قسم علم النفس.

الو. رقم 114: "تحيا VISA" علبة إطفاء الحرائق/ قسم الهندسة المدنية.

تُعتبر كلمة "الحُرَيْف" أو "الحَرْفَةُ El harga"⁶³³ من بين المفردات الأكثر رواجًا خلال العقدين الأخيرين، إعلامياً وسياسياً واجتماعياً. حيث لقيت رواجًا مُنقطع النظير في السوق اللغوية الشبابية، إذ أضحت تُراود أحلام- الشباب (الطالب) الجزائري المُتَعَطِّش لتغيير وتحسين-أوضاعه الحياتية، وبلوغ "الفردوس"- الوهمي- المَشْهُود. كلمة، من دلالاتها -في الدارجة الجزائرية- أنّ صاحبها ينوي "إحراق" "هويته"-الرسمية- من أجل إنتزاع بطاقة إقامة في الخارج (أوروبا+ أمريكا + كندا). لها مرادفات عدّة في اللغة الشبابية، منها "الهْدّة" و"الهَرْبَة" و"التَّفَحَات"،... والمتتبع للمظاهرة يلحظ تنامي حدّة إستثارته- وسط الشباب- كُلّما حَلَ موسم العُطَل السنوية، وحلّ معه عودة المهاجرين الجزائريين على متن سياراتهم الفاخرة المرصّعة بالهدايا والإكراميات، للأهل والأصحاب. والمحظوظ -في نظر الشباب المُتَفَرِّج عليهم- من يعود بِرُفْقَة زوجة -أجنبية (فأوروية)- شقراء، كَمُؤَشِّر واضح على "درجة النعيم" التي يعيشها، ودرجات الجِراك الاجتماعي التي بلغها. وأنّه لم يَعُد ذلك الذي كان يُنظرُ إليه على أنّه "جَايْح"، "فَنِيَانٌ"، وإنّما الظُّروف هي التي صَيَّرَتْهُ على ما كان عليه. يكشف من نوع السّيارة والفتاة (La blonde)، عن "تعريف جديد" من خلال ملامح هويّاتية جديدة، تقطع -إلى حدّ ما- مع بعض ملامح الهوية السّابقة. وهنا يكثر تحسُّر وتأسُّف وتَأَقُّف وخيبة أمل الشباب -المُراقِب (البَرْقَافُ)- لفقدانهم هكذا نعمة "عظمى" (فُرصة الهَدّة للعمل بالخارج).

تشير دراسة أمنية -خاصة بمصالح الدرك الوطني- إلى تنامي مطرد لعدد القضايا المعالَجة في إطار مكافحة "الهجرة السّرية" بنسبة 300 % خلال الثلاثي الأول من السّنة الجارية (2008 سنة نشر الدّراسة)، و669 % بالنسبة لعدد الموقوفين من "الحرقاة"، وذلك مقارنة بنفس الفترة من السّنة الماضية. وأنّ عدد المرشحين "للحَرْفَة" ارتفع بنسبة 50 % عام 2007، وهو في تزايد مطرد.

⁶³³ نعتقد-سوسيولوجيا-أنّ كلمة "الحَرْفَة" أكثر دلالة من -المُفبركة قانونياً- "الهجرة السّرية". فالكلمة بالدارجة أكثر قوة وواقعية منها بالعربية الفصحى. إذ من معاني "الحَرْفَة"، أنّ فاعلها "يَحْرُقُ" كل المراحل (الرسمية) المتبعة في الهجرة الرّسمية، وربّما كل أوراق هويته، رغم تيقّنه أنّ "حَرْفَتَهُ" قد تفضي الموت المحقق، في قوارب الموت .

وبلغة الأرقام، بلغ عدد "الحرّافة" الموقوفين 1071 شخصاً عام 2007، أُودِعَ منهم 625 الحبس، مقابل 446 موقوف استفاد من الإفراج المؤقت، مُوزَّعين على ولايات وهران، عين تموشنت، مستغانم، تلمسان، الطارف، جيجل، سكيكدة⁶³⁴. كما أشارت ذات الدّراسة إلى ارتفاع عدد القضايا المعالجة بنسبة 300 % و669 بالنسبة لعدد الأشخاص الموقوفين. وأنّ أغلب "الحرّافة" شباب تتراوح أعمارهم بين 18 و28 عاماً، إضافة إلى قُصّر وكهول تتجاوز أعمارهم الأربعين، ومنهم شابات وحوامل وشيوخ. إضافة إلى "طلبة" وبطّالين، موظفين ومستخدمين وأصحاب نشاطات حرّة (جميع الفئات الاجتماعية).

ولم تعد "عدوى" "الخريف" حكراً على منطقة بعينها، أو جنس معيّن، أو فئة اجتماعية محدّدة، بل السّواد الأعظم من الفئات الشبابية تحمل -وإن كمشروع- إلى التّحرر من ثقل العيش المضطرب، تحلم صباحاً مساءً ببلوغ الضّفة الأخرى، حيث تشير "ساحلي زهرة"⁶³⁵ إلى أنّ 80 % من الشّباب الجزائري يحمل مشروع الحرّفة، وإن لم يجسده بعد. كما نقرأ يومياً في الصّحف عن جامعيين عُثِرَ عليهم، أو تمّ القبض عليهم على متن ما أصبح يُعرف بـ"زوارق الموت"، أو على جثثهم ملقاة بعرض البحر، هلكوا بعدما نفذ الماء أو الغذاء، أو الوقود، فكان الهلاك مآلهم.

7.3.3. غرافيتيا الصّراع مع "الأخر":

يتحدّث مفكرو "الصّراع" عن أشكال بالغة التّنوع من هكذا تفاعل اجتماعي، تبدأ بالصراعات الأولىّة بين الأفراد وتنتهي بالجماعية والمجتمعية. فمثلاً، يحدث الصّراع حسب "جيورج زيمل George Simmel بين الأفراد، و"لويس أ. كوسر Lewis Alfred Coser بين الجماعات الاجتماعية الصغيرة، و"ابن خلدون" بين القبائل والعشائر، أمّا "ر. دارندوف Ralf Dahrendorf بين التنظيمات الاجتماعية، و"ك. ماركس K. Marx" بين الطبقات⁶³⁶.

يحدث الصّراع نتيجة أسباب متعدّدة، منها الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية، والتّفسية. يحدث نتيجة تقاطع رهانات شتى، إذ يمكنه أن يحدث نتيجة توزيع الخبرات التّادرة

⁶³⁴ أعدّها الملازم الأول "عيدات أحمد" ضابط بخلية الاتصال بقيادة الدرك الوطني، نُشرت بجريدة "الشروق اليومي".

⁶³⁵ رئيسة جمعية "عشق الجنوب" بباريس الجزائرية، وعضو في الأمم المتحدة في برنامج التنمية والهجرة، وفي الاتحاد الأورومتوسطي، مهتمة بالشؤون المتعلقة بالشباب والهجرة، ومشرفة على مشروع تكويني لصالح الشباب الحرّاف (عينة 60 حرّافاً). (إشراف وتدعيم وزارة التضامن الوطني والأسرة والجالية الجزائرية بالخارج).

⁶³⁶ معن خليل عمر، "تقد الفكر المعاصر، دراسة تحليلية ونقدية"، الطبعة الثانية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1991، ص 12.

(الممتلكات الاقتصادية، السلطة -بمفهوم ميشال كروزي-)، والقيم، الأفكار وقواعد اللعبة المتحكمة بنظام التفاعل (كالتنظيم مثلا)⁶³⁷. يظهر في شكل "عنف" معنوي أو لفظي أو رمزي أو جسدي. استطاع هكذا مفهوم أن يجد مكانه ضمن تراتبية مُتُون الكتابات الطلابية، ما نسبته 8% من النسبة العامة للمضامين. "كتابات" أُشْرَت في معانها -على المستوى الجغرافي- لصراع مباشر وغير مباشر، من جهة بين الطلبة، ومن جهة أخرى بين الطلبة والفئات الأخرى (الأستاذة، الإداريين، الآباء...). حيث تتوزع ما بين الصراع المناطقي والجهوي، والصراع بين الأجيال (الجيلي)، إلى الصراع الطلابي. لتموقع الكتابة الجغرافية كاستراتيجية هوياتية فعّالة في "إعادة تعريف" العلاقات بين "الأنا" و"الأخر"، ومنه إعادة تحويرها بين "الخاص" و"العالم"، مستعرضة لمواقف اتجاهه. تجلّى ذلك من خلال ثلاث مستويات من علاقات الصراع، انعكست في مضامين معبّرة.

أ. الصراع المناطقي والجهوي:

من بين مستويات الصراع في متن المضامين الجغرافية، الصراع المناطقي والجهوي. يرجع هذا الأخير في جذوره إلى إمتداد تاريخي ضارب في الفكر الإنساني عامّة، والفكر العربي والجزائري خاصّة، فالصراعات القبليّة والعرشيّة ما تنفك أن تخمد حتى تُستثار من جديد في مناسبات مختلفة. "صراع" يُؤسّر لتلازم نمطين ثقافيين-أو أكثر- في التعامل مع الوجود الإنساني الاجتماعي، الذي تُغذّيه التنشئة الاجتماعية المُلقّنة بداية في الفضاء الأسري والمحلي. فأول ما يُلقن للطفل، الأصل الإثني والقبلي، بتبجيل وتفخيم "الأنا" وتقديس نقاء أصله وفصله وتاريخه، ورجالاته ومساراته الحيّاتية. وتعظيم أمجاده، فلا نقائص وعيوب بها، وإنّما هي "الكل في الكل"-حتى وإن كانت العكس- أمام "الأخر" المحتقر والمرفوض بأوصاف إحتقارية تدنيسية، تُستقى من كُنَانِيش التاريخ الاجتماعي، وتُعيد إنتاجها في صراع مُستمرّ، مُضمرّ أو مُعلن⁶³⁸. مما يضيف لإستدامة العلاقات الصراعية بين الطرفين -الأطراف- وخلق سياجات وجدران لا مرئية تُهندس حدود العلاقة بينهما، قد يصل لحدّ المقاطعة التجاريّة، كبيع المساكن والأراضي، أو التزاوجية كالمصاهرة...

⁶³⁷ خليل أحمد خليل، "المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع"، بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر، 1984، ص 71.

⁶³⁸ تعتبر الجغرافيتيا في فهم "سولانج فارنوي Solange Vernois" منفذ أساسي للإجباطات الناجمة عن إكراهات وممنوعات المجتمع الحضري.. إذ تظهر كتأكيد الفاعل على خصوصية ثقافة الضاحية♦- يجب استعمال مفهوم الضاحية بمعناه السوسبيولوجي الواسع-.

♦ Solange Vernois, "Arts de la rue et droit de cité", Cahiers du centre d'histoire des entreprises et des communautés, n°23-24, Université de Clement-Ferrand II, 1998, pp.71.79.

ولنجاح هكذا عملية يتم تسخير ترسانة من الأقوال والنكت، والقصص والأساطير والأكاذيب التي يتداخل فيها الواقعي مع الخيالي والديني مع الدنيوي. يتم ذلك من خلال ما يسميه الدكتور "أحمد الطراح" بعملية "التنميط Stereotyping"، ويعرفها بأنها عملية إصدار الأحكام على فئات المجتمع وجماعته الوطنية، وتدل بدورها على درجة الخلل في عملية الاندماج الوطني⁶³⁹. ولعل ثقافة العروضية والمناطقية والجهوية التي تستثمر من طرف بعض الفاعلين المرشحين، ويطانهم (القائمين على حملاتهم الانتخابية)، بشكل كبير، خلال مواسم الانتخابات الولائية والمحلية -وحتى البرلمانية (2012)- لخير دليل على ما نقول. وهذا ما أدى بالعديد من المحللين للعلاقات الاجتماعية بالمجتمعات العربية بوصفها بأنها -مازالت وللأسف- علاقات تقوم على المحسوبية والقربانية، والولاءات الضيقة، عوض علاقة "المواطنة والتحضر"، على نحو (برهان غليون، محمد حربي، هواري عدوي)...ومن بين الوحدات الجغرافية المعبرة عن ذلك، نقرأ ما يلي:

"salut je suis l'agent mulder, et voici l'argent scaly la terre et envahit par les bagarat les combatons. Aidez nous...Tlemcen est en danger "

الو. رقم 115 : طاولة/ المكتبة المركزية.

الو. رقم 116: " تحيا ناس مغنية كونترا على ناس ندرومة " جدار/ كلية الهندسة.

كما وردت بعض الوحدات في صيغة "صراع جغرافي سجالي" بين الفاعلين، على نحو:

الو. رقم 117: "العروبية...العروبية كلاونا" سلالم/ البيولوجيا. ليرد عليه آخر:

الو. رقم 118: "تحيا العروبية يا وحد الكفية" نفس المكان. ثم آخر (لتباين خط الكتابة):

الو. رقم 119: "CONTRA على ناس تلمسان" نفس المكان.

الو. رقم 120: "يا وحد الفرخ لو كان نعرفك. (تعمدنا اخفائها لإخلالها بالحياة) .." نفس المكان.

ب. الصراع بين الأجيال:

عكست بعض الوحدات مستوى آخر من مستويات الصراع، ألا وهو الصراع بين الأجيال (الصراع الجيلي Le conflit générationnel)، بين جيل الآباء (المُنشؤون وجيل الشباب المُنشئ)، بين الأب/ الأم، الجدّ والجدّة، الابن أو البنت، وبين الأستاذ والطالب. بين جيل الكبار المحافظ والمتمسك بالموروث والتقاليد التي تَنشأ (نشأ) عليها، وجيل ترعرع في ظل إنفتاح اجتماعي وثقافي واسع - غير متحكّم فيه-.

⁶³⁹ غسان منير حمزة سنو، علي أحمد الطراح، "الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام: دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية العالمية، بيروت، دار النهضة، 2007، ص 70.

غير أنّ المشكلة لا تقف عند حدّ الاختلاف، وإلاّ أُعْتَبِرَ ذلك أمراً محموداً، بل تتعدى إلى مستوى الخِلاف، مما -قد- يفرز صراعاً (لفظياً، مادياً، معنوياً وجرافيتياً)⁶⁴⁰، حيث "يَتَّهَم" جيل الآباء (الكبار)، جيل الأبناء (الشباب) بالسّطحية والتكاسل في تَبْنِي قِيم ومعايير ثقافية يرون فيها مرجعيات أصلهم وهويتهم، و"اللّهات" وراء قِيم ومعايير "غريبة" عنهم، كارتداء ملابس غريبة، والاستماع لموسيقى وأغانٍ -يعتبرها- بعيدة كل البعد عن الفن الأصيل. في المقابل "يَتَّهَم" الشباب الكبار بتمسكهم بثقافة "رجعية" متخلّفة ومُتَكَلِّسَة، لم تُعُدْ قادرة على التّعاشيش مع المتغيرات والمستجدات المتسارعة للعصر. جرافيتياً، تجسّد ذلك من خلال مضامين الوحدات الجرافيتية منها:

الو. رقم 121: " le pere et la haine " طاولة / قسم اللادب العربي.

الو. رقم 122: " حرام عليك يا أبي " مكتب/ قاعة الأترنيت، المكتبة المركزية.

الو. رقم 123: " I hate you PA/ PA " طاولة/ قسم علم الاجتماع.

الو. رقم 124: "كُولِثِي مِنْ تَحْتِ رَاسِ الشَّيَابِ" مقعد/مدرج كلية العلوم الاقتصادية.

من بين القراءات التي يمكن تقديمها لهكذا صنف من الكتابات، "تفاقم" إختلالات التّنشئة الاجتماعية للمؤسّسات التّنشئية، حيث عرفت "فجوة الأجيال Le fossé des générations" اتّسع متسارعاً⁶⁴¹، مما أوجَدَ علاقات صراعية أفقية وعمودية، نتيجة إستدامة بعض القيم والمعايير والسلوكات التي تقدّسها الثقافة العربية عامّة، والجزائرية خاصّة، والأسرية والمدرسية بالأخص. ثقافة تنفرد بصفة العِصْمَة-الموهومة- و"تخنق" النقاش الهادف بين الآباء والأبناء، وتَمْتَن "الوَصْمَ" بامتياز. فَعَكَسَ الطالب -جرافيتياً- نتائج هكذا خلل تنشئوي/ تربوي.

تؤكّد الدّراسات التي أُجْرِيت حول مشاكل الشّباب المراهق، أنّ نسبة معتبرة منه تعاني من ظاهرة 'فجوة الأجيال'، التي تتّسع تدريجياً، يوماً بعد يوم، بين سلوكاته وأعمالهم وتوقّعات آبائهم،

⁶⁴⁰ يبدو أن الصّراع الجيلي المعبر عنه جرافيتياً ليس وليد الأمس القريب، بل يتراجع إلى آلاف السنين، حيث أورد الدّارسون دلائل تعود لثلاثة آلاف سنة، من خلال لوحة طينية بابلية عُرِفَت عليها العبارة التالية:
"يبدو أنّ شباب اليوم متعفّن حتّى النّخاع، فاسد، غير متدين وكسول. لا يمكنه أن يشبه شباب الأمس، ولا يمكنه أن يحافظ على حضارتنا" ♦ (ترجمة حرة للمعنى).

♦ La jeunesse:La jeunesse est-elle un problème?, supports de réflexion", Café philo. Association Aldéran,p 4.URL: http://alderan.association.perso.neuf.fr/cariboost_files/La_20jeunesse.pdf .
Consulté le: 29/7 /2012.

⁶⁴¹تشير الدراسات السوسولوجية أن الفصل في الوظائف بين البيت والمدرسة، ومكان العمل يجعل المراهقين يزدادون اختلافاً عن البالغين، كما يجعلهم أكثر وعياً بذواتهم، وأكثر تأثراً بجماعات الرفاق من تأثرهم برعاية الوالدين وباقي المؤثرات المرتبطة بعالم الكبار. (نقلا عن، محمد الجوهري وآخرون، "لغة الحياة اليومية"، مركز التراث الحضاري والطبيعي، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة، 2008، ص 28-29) .

فيما يجب أن يمارسونه فعلاً، بما يتفق ويتماشى مع معاييرهم، الأسرية والمجتمعية، أي مع القيم الثقافية التي يراها جيل الكبار⁶⁴²، وأن 95% من الشباب العربي يعاني من مشكلات تواجههم عند محاولتهم تجاوز فجوة الأجيال، التي تفصل بين أفكارهم وأفكار آبائهم، حتى أصبحت نوعية العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة شبيهة إلى حد ما بتلك التي تُبنى بين المُقيمين في الفندق⁶⁴³.

كما يمكنها أن تؤثر على شكل من "التَّحَدِّي" الغير مباشر لسلطة الكبار (المُنشئين). فالجغرافيتيا حسب "جيف فيرال Jeff Ferrell" عبارة عن تحدي للسلطة الرسمية، السياسية والدينية، وهي -أيضاً- رد فعل على المشاكل الاجتماعية والعنصرية والاعتراضية. لذا يلجأ الفاعل للجغرافيتيا للتعبير عن رفضه للتمييز بكل مستوياته وأشكاله. فهي ظاهرة سوسيو ثقافية تسمح للشباب المُعرِّف بتشارك القيم والمعايير التي تمكنه من إعادة تعريف الفضاء الذي يتواجد فيه⁶⁴⁴.

أكثر من ذلك، تراكم في المخيال الاجتماعي الجزائري -والعربي- فكرة أن تكون شاباً هو في حد ذاته أن تكون مختلفاً (بالمفهوم السليبي) -بل وموصوماً- وأن تكون غريباً ومضطرباً ومتمرداً، فكرة وُزِّت وأعيد إنتاجها، ولُقِّنت -بطريقة غير مباشرة- للفئة الشبابية. ولعل هذا ما أراد دحضه عالم الاجتماع "أوليفي غالون Olivier Galland" عندما صرَّح "أنَّ الشباب ليسوا مخلوقات غريبة". فقيم الشباب، ليست -حتمًا- قيم مُناقضة لقيم الكبار، بل يكفي إيجاد اساليب ملائمة "لتفهم" هؤلاء حتى يتماشوا مع الأهداف المنشودة من طرف وكالات التَّنشئة، دون الإخلال بالقيم العامَّة للمجتمع. خلل تنشئوي أفضى لمعاناةٍ دفعت (المُعرِّف) للبحث عن فضاءات وقنوات للتعبير عنها، فإلتجأ للكتابة كوسيلة مُيسَّرة للتعبير الحر عن ذلك.

ت. جغرافيتيا الصِّراع الطَّلابي (البين طلابي Inter-étudiant): أُشِّرت بعض

الوحدات الجغرافيتية على مستوى آخر من مستويات التفاعل الطَّلابي، لِسَّ ألواناً من الصِّراع

⁶⁴² كتب عنهم "كولن ولسون Colin Wilson" - مؤلف أكثر من أربعين كتاباً- يقول بأن "عالم الكبار خدعة ضخمة، لكنها مُقنعة". لأنهم في الواقع ليسوا أكثر راحة عقل ولا حكمة حين يكبرون، وإنما يتعلمون فقط كيف يخفون شكوكهم بالتَّصرف كالآخرين، أو بالتَّلُفُّظ باصطلاحات عادية، وأحياناً بالإغراق في الخمر للشعور بالثقة في النفس، وهم بهذا يخدعون أنفسهم بالدرجة نفسها التي يخدعون بها الآخرين♥. (لكن هذا الوصف لا ينسحب على كامل "الكبار" بل هناك من يتصف بالرجاحة والتَّعقل والحكمة، ولو لا هم لما كان للحياة معنى).

♥ كولن ولسون، "الجنس والشباب الذكي"، ترجمة، أحمد عمر شاهين، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، 1996، ص.6.

⁶⁴³ نقلاً عن: موقع مركز "ممكن" (مركز المعلومات والمصادر للشباب العرب). 2011/5/20. من الموقع:

<http://www.momken.org/?p=135> . تاريخ الاطلاع: 2012/5/29.

⁶⁴⁴ Ferrell, Jeff. "Urban graffiti: Crime, control, and resistance", Youth and Society 27, pp. 73.

92, 1995. <http://yas.sagepub.com/content/27/1/73.abstract>. Consulted: 10/7/2011.

والرفض والامتعاض بين مختلف الفاعلين. وما يُلاحظ على هكذا مضمون تواجهه بكثافة بفضاءات الأحياء الجامعية، بالمقارنة مع باقي الفضاءات الأخرى. ربّما لأنّها المكان الذي تتجمّع فيه أكثر "الجماعات" الطلابية، المتباينة المصالح والأهداف والرّهانات (اعتلاء لجنة الحي والمطعم، التّحكم في "الطابور La chaîne"، تسيير المصلّيات والمساجد. و"استغلال" أسماء/مكاتب المنظمات الطلابية،...) إذ نطالع يومياً عن صراعات متعدّدة الأسباب والأشكال بين مجموعات الطلبة، باختلاف قناعاتهم "الأيديولوجية"-بالمعنى السوسيولوجي-سواء في الجامعة (مركز الممارسة البيداغوجية)، أو في الأحياء الجامعية، حول أحداث محاولات "السيطرة" على المنظمات، أو لجان الأحياء، أو المصلّيات⁶⁴⁵. ينشب الصّراع الطلابي لأسباب عدّة، على نحو فشل العلاقات الغرامية بين الجنسين... ومن بين الوحدات التي عكست هكذا وضع، نقرأ في:

الو. رقم 125: "يا منير أنت الكلب الكبير" مدخل جناح/ إقامة البشير الابراهيمي.

الو. رقم 126: "نُتوما كَامَلُ شَمَايْتُ" باب غرفة/إقامة الإخوة علائي. بوهناق للذكور.

الو. رقم 127: "المرئبة مرئبة من دازها ولي ما شي مرئية تقعد في دازها...؟؟؟" سلالم جناح /

إقامة حسيبة بن بوعلي. الكيفان للطلّبات.



الو. رقم 128: صندوق كهرياء/ مدخل قسم العلوم الدقيقة.

قد تُصنّف هذه "الكتابات" على مستوى العلاقات 'البين فردية Interindividuelles' في خانة ما يُسميه "لوك بوشري Luc Bucherie"⁶⁴⁶ بـ"غرافيتيا الإشاعة وضد الاشاعة Propagande et contre-propagande" التي تستهدف من رسائلها أشخاص وجماعات ومؤسسات، تُلحق بها تُهمّماً وأوصافاً واطّئة، والتي غالباً ما تحضّر خلال الحروب والصّراعات الجماعية والمحتمعية.

⁶⁴⁵ عشنا هذه الظاهرة ونحن طلاب بجامعة السانيا بوهران، بالحي الذي كنا نُقيم فيه، حيث شبّت صراعات عنيفة بين مجموعة تسمى نفسها بـ"القُطبيين" (انتساباً إلى "السيد قطب")، ومجموعة "الإخوانيين" حول تسيير مصلّى الحي (ETO)، وصلت الأمور إلى الشّجار، مما جعل "القُطبيين" يكسرون قُفْلَ باب المصلّى ويستبدلونه بأخر، وكادت الأمور تتفاقم لولا تدخل مصالح الأمن. تكررت الظاهرة بالعديد من الإقامة الجامعية.

⁶⁴⁶ Luc Bucherie, "Graffiti mise en scène des pouvoirs et histoire des mentalités, op. cit, pp.186-188.

خلاصةً، نتجرأ ونقول إننا نعاني في علاقاتنا من "أزمة ثقة"، بين الأجيال أو داخل الجيل الواحد. "الثقة" التي صنّفها عالم الاجتماع الألماني "جورج زيمل" كأحدى أهم تركيبات قوى المجتمع، وبدونها (الثقة العامة General Trust) يتحلل المجتمع أو يفقد تكامله.

8.3.3. "المُعْنِي" الناطق الرّسمي باسم الطالب:

كثيراً ما كانت "الموسيقى" (بالحانها وكلماتها) (الأغاني) وأذواقها الموسيقية المتعدّدة، وسيلة فعّالة لإمتداح أو إنتقاد الأوضاع الاجتماعيّة والثّقافية والسّياسية. ما رشّحها لتكتسب خاصية مُنفردة، تفتقر إليها الأساليب التّبليغية الأخرى. تتصدّرها خاصية ترميم البُعد الهويّاتي للفرد، وللجماعة، خاصة لدى الشّباب، الذي غالباً ما تنّصّب في وجهه الإملاءات الرّسمية والمجتمعية. مما جعلها في بعض الأحيان ترسم كجسر وجودي بين حاضر وماضي مستمعها (ذكرى، حادثة، تجربة عاطفية، .. هذا ما جعلها كما يؤكّد "مینیو باتريك Mignon Patrik" أول منتج إستهلاكي يُورّع للشّباب"⁶⁴⁷.

يلحظ المتنبّع للسّاحة الفنّية الجزائرية كيف أضحى المجتمع بوثقة ثقافية لتفاعل وتمازج العديد من الألوان والأنماط الموسيقية، من الطّبوع المحليّة، كالأندلسي المُنحصِر بالمدن الحضريّة العتيقة (تلمسان، العاصمة، عنّابة، قسنطينة)، إلى البدوي الصّحراوي، مروراً بالشّاوي والقبائلي وطابع الرّأي وموجات الرّاب التي وجدت لها مكانة مهمة بين الشّباب خاصّة. وبعض التّقليعات الموسيقية، الإفريقية والشرقية والغربية الأمريكيّة. ورغم هذا الرّخم الموسيقي، لم تحض بدراسات علمية (أنثروبولوجية وسوسيولوجية كافية بُغية إستجلاء وظائفها في تشكيل ثقافة وهوية الفرد الجزائري. باستثناء بعض الدّراسات المحتشمة، من طرف بعض الهوّاة، أو من خلال بعض الرّسائل الجامعية التي تدخل سياق التّحضير لشهادات التّخرج، والتي غالباً ما تبقى حبيسة الأدراج.

وإذا رجعنا لمحتوى الكتابات الجغرافية، نلاحظ التّواجد "الواسع" لجغرافيتا المغنيين (المطربين) باختلاف نحلهم الفنّية، حيث بلغت نسبة 7% تباينت من حيث التّجلي ما بين كتابة أسماء وألقاب وكُنّيات هؤلاء. وكتابة عناوين أو مقاطع من أغانهم. لكن يجب الإشارة إلى أنّ اللّون الأكثر تواجداً هو ما يُعرف في السّوق الغنائية بـ"الرّأي"، بنمطه "العاطفي Sentimentale"، من خلال أسماء رُواده، على نحو الشاب خالد، نصرو، مامي، رضا الطاللياني...ثم يأتي المغنيين الذين اشتهروا بأغاني اجتماعية، "بلال"، "لطفي دوبل كانو"، "بعزيز"، "كريم مصباحي"،...⁶⁴⁸. ثم يليه

⁶⁴⁷ Mignon Patrik, Marty Pierre, "La musique forme la jeunesse", ANIM' Magazine, n° 45, janvier, 1999, pp.20.23.

⁶⁴⁸ مع العلم أنّ كل المغنّيين الذين ذُكروا قدّموا أغاني متنوعة، ما بين العاطفي والاجتماعي.

أسماء المغنّيين العرب (خاصّة المشارقة)، الذين اشتهروا بأغانهم العاطفية على نحو، كاظم الساهر، ماجدة الرومي..لكنهم يتشاركون مع المغنين الجزائريين في نوع المواضيع المُغنّاة (العاطفية والغرامية). نستعرض منها بعض الوحدات :

أ. أسماء وألقاب وكُنَى المُغنّيين:

وردت بعض المضامين الجرافيتية عاكسةً أسماء وألقاب المغنين (الجزائريين والأجانب) منها:



الو. رقم 129: طاولة/ قسم الأدب واللغة العربية (ثلاثة أسماء).

الو. رقم 130: "chanter sentimentale" AMIN /LOTFI/HASNI⁶⁴⁹ طاولة/ الأدب.

الو. رقم 131: «LOTFI DOUBLE CONON» نافذة/ قسم الصيدلة.

الو. رقم 132: "جورج وسوف سلطان الطرب" باب/ قسم التاريخ.

أغلب المغنين "عرب"، ربّما يرجع ذلك لطبيعة "لغة" التّخاطب التي يستخدمها هؤلاء في أغانهم، والتي غالباً ما تتنوّع ما بين "الدّارجة" بكل عناصرها ومستوياتها اللّغوية واللّهجية، وخليطها المُفرداتي، المُشكّل من مفردات عربية وفرنسية وإنجليزية وإسبانية ودارجة... لها وقعٌ متميّز في استثارة عواطف الطالب(ة).

ب. عناوين ومقاطع غنائية: حيث نقرأ التّماذج التّالية:

الو. رقم 133: "مدينة الحب كاظم الساهر" طاولة/مكتبة علم النفس وعلم الاجتماع.

الو. رقم 134: "الباب عند الباب وأنا في العذاب" (3 مرات) طاولة/قسم علوم الأرض.

الو. رقم 135: "بلال رانا قاع ولاد حرما" عمود/ محطة الحافلة شتوان.

الو. رقم 136: "ما بقاش espoire" صندوق إطفاء الحريق/قسم الصيدلة.

استطاعت أغنية "الرّاي Le raï" أن تتغلغل في الحياة اليومية لشريحة واسعة من الشّباب، إذ كسبت قلوبهم، وتمكنت من انتزاع مكانة -وأيّ مكانة- في سلّم الذّوق الشّبابي، ومنه على مساحة واسعة في السّاحة الثّقافية الجزائرية. هذا الطّابع الذي ترعرع في الأوساط الحضريّة المُهمّشة، عرف تطوّرًا ملحوظًا بدءًا بالرّاي التقليدي، ووصولًا للرّاي الحديث. أو كما يُسميه البعض بـ "رّاي

⁶⁴⁹ نعود و نذكر أنّنا تعمّدنا نقل الوحدات بأخطائها للحفاظ على مصداقيتها.

الشباب Raï des chebs"، ظهر بداية السبعينات من القرن الماضي على لسان شباب أرادوا الانتفاض على طرق التعبير التقليدية عن بعض الموضوعات الخاصة. فَحَوَّرُوا طريقة مُتميّزة، تَتَّصِفُ بالأسلوب المباشر واللغة الصّارخة، في البوح بما يشعرون به، من أمور عاطفية وغرامية، وما تُفَرِّزُهُ من انفعالات وعواطف.

بل أضحى-راي الشباب- حسب "سليمان إبراهيم" (صحافي وباحث في مجال الموسيقى)، عبارة عن سفير ثقافي مُخلص للشعب الجزائري في جوانب عدّة، بدءًا باللّغة المُستخدمة في توصيل المقصود، ووصولاً للجوهر، أي، بحفظ اللّهجات المحلية، والتي بدورها تعتبر الأرشيف الذي يحفظ القيم الثقافيّة المحلية. إنّه السّفير الأكثر تودّدًا ووفاءً للجزائريين⁶⁵⁰.

ومن بين الفئات الاجتماعيّة التي إنهجست بطابع الراي، الطلّبة. وتجلّى ذلك من خلال العديد من الوحدات الغرافيتية التي تبرز مدى الانهيار والتّئيم بهؤلاء المغنّيين. نحسبهم ارتقوا لمرتبة "دور النّاطق الرسمي" باسمهم، أمام "لاءات" سلّطة المجتمع، التي تمّهنّ نصّب حواجز وإشارات "توقّف Stop(s)" أمامهم قبل الشّروع في الكلام عن مكبوتاتهم ومشاكلهم. إذ تمكّن المغني(ة) Le(a) chanteur (euse) من التّحرر من هكذا حواجز مُهندّسة لثقافة التّوجّس⁶⁵¹ في أحاديثنا اليومية، والتي تجذّرت في المخيال المجتمعي، واكتساب ملكة التّعبير الجّهري والمباشر عن هموم ومشاكل وآمال يتشاركه -على الأقلّ غنائياً- فيها الطالب(ة).

استطاع هذا "المغني" أن يهيم بالآف الشباب، فتارةً يتقمّص دور "النّقابي المهموم" بمشاكلهم العاطفية والاجتماعية، وتارةً يجرّهم لمقاسمة أحلامه وآماله المفقودة والمنشودة، ومنه لرسم ملامح هويته -الشّبابية- المنشودة. يتم ذلك باستخدام لغة ذات مفردات مُتميّزة، لغة ذات مضمون خاص -لغة الرّاب مثلا-، والتي غالبًا ما يصيّمها "المندوبون" عن السّاحة الغنائية "الرّسمية" بأنّها غير أصيلة، وتُخلّ بالحياء وبقواعد الفن الرّاقى حسب القواعد-التقليدية- للموسيقى (الأندلسية، الحوزية، الشّعبية..)، وبالانحلال الأخلاقي في بعض الأحيان. تسبب ذلك في اغتيال أحدهم (المغنّيين)

⁶⁵⁰Brahim Hadj Slimane, "Musique Algérienne", dans: Algérie, histoire, société et culture, (Ouvrage collectif), coord, Hassan Ramaoun, Alger, CASBAH édition, 2000, pp. 280-299.

⁶⁵¹ التّوجّس: وقوع الخوف في النفس مع التّرقب والحدز. إنّه حسّ داخليّ، الإحساس بأنّ شيئًا ما سوف يحدث. (أنظر: معجم اللغة العربية المعاصر).

خلال "سنوات الدّم" (التّسعينات)، كما يؤكده "سعيد خطيبي"⁶⁵² في كتابه "أعراس النّار.. قصة الرّأي"⁶⁵³. ليُصرّح فيما بعد لوكالة الأنباء "رويترز Reuters" أنّ موسيقى "الرّأي" هي الطّابع الموسيقي الجزائري والعربي الوحيد الذي استطاع في وقت قياسي بلوغ الدّروة العالمية، حتّى أن القاموس اللّغوي الفرنسي "LAROUSSE" أدرج كلمة "Raï" عام 1998.

تأسيساً على ذات المضامين، نزعّم بأنّه رغم "محاولات" النّظام التعليمي لدعوة الطالب رغباً ورهباً-من خلال المقرّرات المُعلّنة الرسمية- لتجذير واستبطان شخصيات ومشاهير مرموقين في تاريخ النّضال المجتمعي، من رواد المقاومة وثورة المليون ونصف مليون شهيد، من أمثال (الأمير عبد القادر، فرانس فانون، جميلة بوحيرد، العربي بن مهدي...)، وتقديمهم كقُدوة وأُسوة حَسنة، يُحتدّى بها في السّراء والضّراء. كشفت هذه المضامين عن حضور واسع لـ"نجوم Stars" جُدّد، لم يكونوا في الحُساب المخطّط له-على الأقل ما هو مُعلن-، الشاب فضيل، الشّاب مامي والشّابة الزهوانية...والقائمة تطول بأسماء "الشّباب والشّابات".

وكأنّ النّماذج المُقتَرحة من "الأبطال"، لأنّ البطل يمكنه أن يُؤمّن الإنسجام بين أفراد الجماعة، إذا ما أُحسِن استثمار بطولاته وصورته الجماهيرية. نماذج يمكن الاسترشاد بها للتّماهي، لم تُقنع الفئة الطّالبيّة⁶⁵⁴. مما جعلها تتبّنى -غرافيتيًّا- نماذج جديدة، في مغنيين نَظّموا أغنيات تُلامس -في مُجملها- قائمة الممنوعات وتُشاجن، بل و"تتصادم" مع رموز سلطة المنع، بكل أنواعها⁶⁵⁵. فأمسى مثلاً "رضا الطاللياني" مشهوراً بأغنيته (يا بَابُورْ يَامُونْ أَمُورْ) التي تعني (حبيبتى يا باخِرة)، في إشارة إلى مُعضلة الحُرقة، "الهَوس" الذي ما فتى يَشغل نسبة معتبرة من الجزائريين⁶⁵⁶. كما أُشْتِهر مغني الرّأي "عز الدين الشلّفي" بأغنية "شُوفْ الحُفْرة شُوفْ". ومُغني الرّاب "رضا دوبل كانو"،

⁶⁵² سعيد خطيبي "صحفي ومترجم جزائري. يُرجع بدايات الرّأي إلى مؤسّسين منهم "الشاعر مصطفى بن إبراهيم"، "الحاج محمد الغوايشي" الشهير بالشيخ "حمادة"، الذي سجل أزيد من 100 أغنية، بعضها في باريس وبرلين، ومنها أغنية بمعية الموسيقار المصري "محمد عبد الوهاب" في ثلاثينات القرن العشرين، وغيرهم من الأسماء.

⁶⁵³ يقع الكتاب في 168 صفحة، منشورات البيت بالجزائر، 2010، رصد من خلاله الوجه الخفي لموسيقى الرّأي وأبرز أعلامها، من المغنيات والمغنيين، كما استعرض فيه جانباً من التاريخ السياسي والاجتماعي للجزائر قبل وبعد الاستقلال. ويزوج الباحث بين المقاربة السوسيو-تاريخية، والشهادات الحية والمعانيات الميدانية لرموز هذا الفن.

⁶⁵⁴ نقول ذلك في إطار المضامين الغرافيتيّة، ولا ننتهم أحداً (الطلبة) في وطنيته، أو أيّ أمر آخر.

⁶⁵⁵ يذكر "سعيد خطيبي" أسماء نسوة ساهمن في تطوير أغنية الرّأي، بكثير من الجرأة في طرح مواضيع غابت عن الفضاءات الرّجالية، خصوصاً فيما يتعلق بمحاولات الكشف عن عمق الأحاسيس، والبوح بحالة الكبت الجنسي. مثل "الشيخة الريميتي" التي كانت تردد عبارة "أَنَّ الشّقاء علّمها الاحترام والحشمة والغناء".

⁶⁵⁶ أنظر "غرافيتيا اللّهات وراء الضّفة الأخرى".

منتقد الوضع "المزري" للشباب/الفرد الجزائري. كل ذلك جعلهم يتصدرون مسيرة "التغيير" الاجتماعي، من خلال أسماء وأغاني تُلْكُمها الألسُن صباحاً مساءً. إذا حاورت أحدهم استعرض لك كباثروصغائر حياتهم الفنية والشخصية.

9.3.3. غرافيتيا "الإشهار المجاني":

مضمون آخر من المضامين الغرافيتية استطاع أن يحجز مكانة ضمن تراتبية الفئات، ألا وهو ما اصطَلحنا على تسميته بـ "غرافيتيا الإشهار المجاني". ما يلاحظ على هكذا نوع غرافيتيا⁶⁵⁷، توافره على عناصر الإشهار "الرسمي" المسوق في وسائل الإعلام المتعارف عليها (الرسمية). بل، غالباً ما استخدمت الغرافيتيا كوسيلة -غير رسمية- للتشهير بالمنتجات والخدمات المراد بيعها، سواء من طرف أشخاص أو مؤسسات⁶⁵⁸. لعل أشهرها -وأكثرها انتشاراً- تلك العبارة التي نكاد نَلْفِيها على جدران المنازل والمحلات المراد بيعها، إنها "للبيع A VENDRE" مُرفقة برقم الهاتف الثابت أو المحمول. بالإضافة لإعلانات لمنتجات وخدمات متعددة (النجارة، التّرصيص، الأنترنت، الدروس الخصوصية،...)، المنتشرة بمختلف تضاريس المجتمع.

ولأنّ العملية الإشهارية في أساسها "فن إتصال Un art de la communication"⁶⁵⁹ بين المُشهِر والمُشهِر له، بُغية استمالة و"دغدغة" عواطفه، لإقناعه بسلعة أو خدمة معينة، استخدمت فيه كامل الوسائل -الرسمية والغير رسمية- لتحقيق ذلك، ولعل "الغرافيتيا" أرخصها وأقصرها. وما أكثر "المشاهد الغرافيتية" المعبّرة عن ذلك. نذكر على سبيل المثال ما حدث "بجي Les castors" (بمدينة وهران)، عندما إستفاق سكان الحي على جدران مكسوة بثلاثة حروف مُترابطة "H.R.G"، والتي لم يفقهوا معناها إلا بعد حين، إذ تبين أنّها عنوان لألبوم "HARRAGA" لفرقة 'Rap محلية، اتّخذت لذاتها "الكتابة والجدار" وسيلة تشهيرية وترويجية لألبومها الجديد، أمام محدودية الإمكانيات للدّهَاب للإشهار الرّسمي، ولإيصال الرسالة بسرعة، وبلُغَة يفهمها المستهلك (الشباب). ذلك لأنّ الكلمة إذا عُنيَ بكتابتها بشكل جَدَّاب تصل إلى عقول وعاطفة

⁶⁵⁷ استخدام الغرافيتيا (غرافيتيا إشهارية) للإعلان عن خدمات معينة، يعود لقرون خلت، حيث يتحدث الدارسون عن غرافيتيا لممارسات الدّعارة (التجارة الجنسية)، بمدن إغريقية قديمة كمدينة "Ephese"، وُجدت على جدران (خاصة بداية الشارع)، توضح عدد الخطوات اللازمة لبلوغ المنزل والمبلغ الواجب إحضاره.

⁶⁵⁸ أنظر الصورة الخاصة بشركة "Microsoft" بالملحق رقم 1.

⁶⁵⁹ Alex Kataras, "Advertising, propaganda, and graffiti art", Master's thesis, MA Communication Design Saint Martin's, London UK, 2006. URL: <http://www.graffiti.org/faq/kataras/kataras.html>. Consulted:31/7/2012.

المُتَلَقِّي، كما يؤكده "BRASSAI" بقوله "إنّ كلمة مكتوبة باليد وبحروف غليظة وبارزة لها وَقَع لا يمكن أن يكون للملصقات أبداً"⁶⁶⁰.

أمّا فيما يخص مُتُون الكتابات الطلابية، فقد سجّل موضوع "التّشهير" لبيع السلع، ملابس، أدوات الزيّنة، السّجائر، تعبئة الرصيد "Flyxy"،...، وللخدمات (تصنيف الشعر، اعطاء دروس خصوصية، تعلم اللّغات، وحتّى الزواج (التّزويج)...)، حضوراً قوياً من خلال العشرات من الوحدات الجغرافية (ما نسبته 5%). نحاول استعراض نماذج منها، نبدأ بهذه الرّسالة الإعلانية المُتميّزة.

الو. رقم 137: "من تريد تسريح شعرها بسعر معقول 40 دج فلتتصل بالغرفة G – p 1"

مدخل الجناح/إقامة 19 ماي للطالبات.

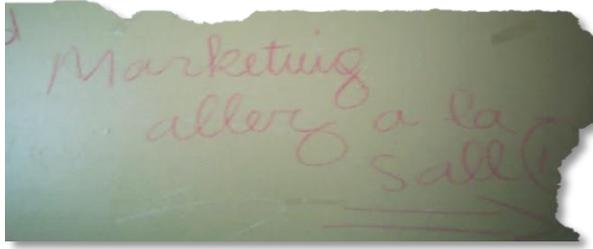
الو. رقم 138: "من تريد نمصّ تُلَقّاط" حَواجِها عند اختصاصية. فلتتصل بالغرفة E27"

مدخل النادي/إقامة 19 ماي للطالبات.

الو. رقم 139: "من تريد , Flyxy Allo, Djezzy فلتتصل بالغرفة 11H و 9 H"

نافذة المطعم/ إقامة 39 سكن (900 سرير) بوهناق للطالبات.

الو. رقم 140: "من يهملها الزواج فلتتصل بالغرفة B26" سلم الجناح/صوفي منور' للطالبات.



الو. رقم 141: جدار/قسم العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير.

المُتَجَوِّل الإقامات الجامعية يلحظ التّنامي المحموم لظاهرة النّشاط التّجاري الغير رسمي بها⁶⁶¹، يتّضح ذلك من خلال الخدمات التّجارية (الغير رسمية)، كالحلاقة وتصنيف الشّعروالماكياج-خاصة بإقامات الطالبات- بيع السّجائر، الأوراق 27/21، أقراص محاربة التّاموس، وتقديم دروس قُبيل الامتحانات ..ومن أجل التّسويق المُريح (والعقلاني) لهكذ خدمات لَجَأً للفعل الجغرافي للتّشهير بها، مُقابل مبالغ مالية مدروسة، غالباً ما تكون بأثمانٍ معقولة بالمقارنة مع أسعارها خارج الإقامة الجامعية (أنظر الوحدة 195 مثلاً).

⁶⁶⁰ BRASSAI, op cit, p 19.

⁶⁶¹ بطبيعة الحال، هي انعكاس لما يحدث بالمجتمع ككل، من تنامي للممارسة الغير رسمية مقابل انحصار الرسمي espace formel , espace informel. فالعديد من المحللين يتحدثون عن الاقتصاد التّحتي، الغير رسمي، الطّربانديست والبزّنة.

10.3.3. غرافيتيا المراحيض "لاتريناليا Latrinalia"⁶⁶²:

من بين المضامين الغرافيتية التي وُجِدَتْ لها درجة في ترتيب المضامين، غرافيتيا المراحيض "لاتريناليا Latrinalia" كما يسمّها آل الاختصاص⁶⁶³، حيث بلغت ما نسبته 4%. إذ تعتبر المراحيض مكاناً تتحقق فيه الانعزالية عن الواجهة العامّة للمجتمع، بحيث تكتمل -إلى حدّ ما- خاصيّة التّفردنّ بالمكان والزّمان. فلجأ الطالب للكتابة لتفريغ ما بداخله، في خِلْسَة عن المراقبة الاجتماعية وسلطتها المباشرة. إنها غرافيتيا تَنَسِّم بنوع من الجرأة في التّعبير عن أمور جنسية، بلغة أكثر طلاقة من إكراهات وضوابط النّسق التّعبيري العادي، الرّسمي، الملقن من طرف مؤسسات التنشئة الاجتماعية. وفي هذا السّياق يقول "بوان ميلسون Boen Milcent" بأنّ الغرافيتيا تعكس لنا قدرة الفاعلين في الاتصال الحر، متخلصين من كل أنواع الشّعور بالذّنب والإكراه⁶⁶⁴.

نذكر بعضاً منها، لكن نعتذر للقارئ عن عدم ذكر بعض الأمثلة كاملةً-رغم علمنا بأننا قد نُخلّ بقواعد الكتابة السوسولوجية-، لِفُرْطِ بَدَاءَتِهَا وَتَضَمُّنِهَا كَلِمَاتٍ وَرَمُوزٍ عَنِ الْأَعْضَاءِ التّناسلية (ذكرية وأنثوية)، وبعض التّعابير والكلمات التي لها علاقة بالجنس والجسد، والتي يَمُجِّها الذّوق العام للكلام عن الموضوع. لذا سنقتصر فقط على ما يلي:

الو. رقم 142: "محشورة محشورة، محشورة.. "أبواب المراحيض (السّتة)، قسم العلوم الاجتماعية.

وغيرها من الوحدات الغرافيتية التي تعمّداً عَدَمَ ذكرها للأسباب السّالفة الذكر. تعكس هذه الرّسائل-الإباحية- رغبات جنسية، يعجز الطّالب عن التّعبير عنها بطرق مشروعة. ويمكن تفسير ذلك، بالارتداد إلى مراحل الطّفولة المتميّزة، باكتشاف الذات، أي بداية التّفكير في الوظيفة الجنسية، غير البيولوجية للأعضاء، يحدث ذلك نتيجة تلاخُق مَطالِبِ نَمَائِيَّةٍ تفرضها المرحلة العُمريّة التي يعيشها الفاعل. بالإضافة لثقافة "الإسكات القهري" الممارس من طرف المربين

⁶⁶² نقصد بـ "غرافيتيا المراحيض" تلك المضامين التي عُزِفَت بالعديد من مراحيض الوسط الجامعي، تتميز بأسلوب مباشر، فاضح، بلغة متخلصة-غرافيتياً- من سلطة "الرّقيب المجتمعي" المعهود في التّعبير (الكلام) عنها أمام الآخر. حيث ركّزت على الجوانب الجنسية والبيولوجية⁶⁶³. ولكن هذا لا يعني تواجد مسائل أخرى، لكن حضورها جدّ محدود. ♦ أصل كلمة "بورنغرافيا" (بالانجليزية Pornography) إغريقي وتعني (العاهرة) أو (فعل الكتابة وتميل الجسد والجنس).

⁶⁶³ يعتبر الأنثروبولوجي الأمريكي "ألان دنديز Alan Dundes" أوّل من نحت المفهوم سنة 1965، ويعني به الغرافيتيا الخاصّة بالمراحيض، أجزأه باسم (Latrinalia). (للتفصيل أكثر أنظر فصل المفاهيم).

⁶⁶⁴ Boen S. Oemarjati, "Graffiti et Langage des adolescents :Le refus de baisser la tête", Revue:

Berita Anthropologie JAKARTA, Timur,1977,Vol 9, pp.117.125.URL: <http://cat.inist.fr/?>

[aModele=afficheN&cpsid=12341839](http://cat.inist.fr/?aModele=afficheN&cpsid=12341839). Consulté le : 11/09/2010.

(الأسرة والمدرسة،...)، من خلال تفعيل يَفِطَات المنع والتَّجَاهُل المقصود للحاجات والمطالب والرغبات الجنسيّة للشّاب، ومنه للطالب الجزائري. وهذا ما قد يُضفي به إلى إنطوائية -قَسْرِيّة-، تجعله يتفاعل مع محيطه الاجتماعي، وفي مقدمته الجامعي بكل فاعليه (حتّى قبل المرحلة الجامعية)، بدءًا بالأستاذ الأب الرّمزي، الذي -غالبا- ما لا يقدم له -أو يقنعه- بأجوبة شافية، عمّا يشعر به من هواجس وأزمات باطنية وعلاقاتية (خاصة ما الجنس الآخر)، تجعله يفقد الثّقة في ذاته، ثم في محيطه الاجتماعي، لعدم وجود ما يقنعه، فيلجأ لهذا المحيط الجامد والصامت (جدار، طاولة، صفائح...)، قصد الإعلان عن آراءه وتصوّراته وتمثّلاته للجنس، وتجاربه وإخفاقاته، وكذا قُدراته في مواجهة وتحدّيه لحالة الإقصاء والتهميش والاعتراب بكل مستوياته. ويُعلّق النّفساني "هشام بزي" (أستاذ بالجامعة الأمريكية اللبنانية)، عن هكذا رسائل، بقوله "أنّ هؤلاء الشّباب يعجزون عن التّنفيس عنها، أو التّعبير عن نزعات ومكبوتات لا يستطيعون تفرّغها. وتُعبر أيضًا عن هَوَامَاتٍ قد تكون واعية أو لا واعية، وقد تُؤمّن لُدّةً للشّباب من دون الشّعور بذلك" ⁶⁶⁵.

يؤكّد كل من "لين بارتولوم Lynn Bartholome" و"فيليب سنايدر Philip Snyder" في دراستهما عن غرافيتيا المراحيض ⁶⁶⁶، بأنّ سبب التّجاء المُعْرِفَتَيْن لهذه الأخيرة يعود لأنّها مكان للتّعبير الحر عن المشاعر والأحاسيس المُراقبة اجتماعيًا، بعيدًا عن سلطة القيود الاجتماعية. فهي عبارة عن اتصال شعوري يهدف الكشف عن الطابوهات والمحرمات المجتمعية، بلُغة مباشرة صارخة وفاضحة. أمّا "ميشال أنفراي Michel Onfray" فيرى أنّ المُمارِسَ يَلْتَجِئُ للمراحيض العمومية لإفراغ والتعبير عما يسميه بـ"البؤس الجنسي La misère sexuelle" الذي يعيشه. في حين تعتقد الباحثة "كاترين فيشر Katharine Fischer" أنّ سبب التّجاء الطالبات إلى المراحيض لممارسة الغرافيتي يعود بالدرجة الأولى إلى غياب عملية المراقبة والقص وحرية التعبير، دون الإلتزام بالقواعد اللّغوية، التي قد تُعيق البوح المباشر عن الرغبات الجنسية. حيث يمكن إخفاء هويتهنّ بكل حرية، بل هناك كتابات كُتبت من طَرَفَيْن بهويات ذكورية ⁶⁶⁷.

⁶⁶⁵ زينة براجوي، "الكتابة على جدران حمامات الجامعات: إنّه الهُتاف الصّامت"، جريدة السفير، العدد: 10796، 07/10. <http://assafir.com/WeeklyArticle.aspx?EditionId=736&WeeklyArticleId=27075&ChannelId=3637> تاريخ الاطلاع: 2009/05/12.

⁶⁶⁶ L. Bartholome & P. Snyder, "Is it philosophy or pornography?. Graffiti at the Dinosaur Bar-B-Que", The journal of American culture, v. 27, 2004, pp.86-98.

⁶⁶⁷ Michel Martin, "German student gest degree in latrine literature", 2009. URL: <http://www.du-world.de/dw/article/0.4540624.00html>. Consulted: 27/09/2010.

وينضاف كخاصية منفردة لهذا الصِّنف من المضامين التَّغْيِيب المقصود لإسم كاتبها (مجهولية مُعْرِفِهَا L'anonymat du graffeur)، لأنَّ هكذا مجهولية -حسب الباحثين- تُساعد المُعْرِفِ على الإفصاح المباشر عن رغباته الجنسية دون قَيْدٍ⁶⁶⁸. ولأنَّه يدرك تجاوزه للسِّياق العام للكلام عن مسائل معينة. وفي ذات السِّياق كتب "أحمد شراك"، في مقاله السالف الذكر، ما يلي: "الإلَّا أَنَّهُ من ناحية أخرى ليست كل الغرافيتيا مفتوحة على تأويلات في القراءة والمعنى والدلالة، فهناك الغرافيتيا المباشرة إلى درجة الإسْفَافِ والسَّمَاجَةِ، خاصَّة الغرافيتيا البورنوغرافية والجنسية، وغرافيتيا الشَّتِيْمَةِ والإشاعة.."⁶⁶⁹.

نَبَّهَ في الختام، أَنَّهُ قد تتضمَّن الوحدة الغرافيتية (الكلمة، الجملة، الرمز، الصورة)، في بعض الأحيان عدَّة تأويلات قد تتعكس في بعض الأحيان. فمثلاً، كتابة رقم الهاتف، قد تحدث بهدف التَّشْهِير الدَّائِي بالمؤشِّر الرقْمِي للهوية الشَّخصية، من أجل الإعلان عن الاستعداد القبلي لنسج علاقات اجتماعية مع الآخر، سواء من نفس الجنس، أو من الجنس المغاير. كما قد تُكْتَبُ من أجل القَدْح والتَّشْهِير السَّلْبِي بالطَّرْف الآخر، الذي خَذَلَهُ أو هَجَرَهُ في العلاقة التي كانت بينهما، خاصة ما بين الجنسين، وغالباً ما لا يكتفي المُعْرِفِ (ة) بذكر اسمها(ه) فقط، بل يُدَيِّلُهُ بكلمات ورسومات جنسية بَدِيئَةً (اجتماعياً).

11.3.3. غرافيتيا متنوعة:

ما يلاحظ على هذا المحتوى، تباين الوحدات الغرافيتية، ومحدوديتها من حيث العدد لم تتعدَّى 3% من العينة. رغم ذلك تباينت ما بين الغرافيتيا السياسية Les graffiti politiques المحدودة، والغرافيتيا الأمنية ومجموعة النَّصائح والإرشادات ذات مرجعيات دنيوية ودينيوية، مع لمسات فنيَّة، منها:

أ. غرافيتيا أمنيَّة:

ما وَرَدَ كان إنعكاساً للأوضاع ظروف اجتماعية وأمنية متأزمة عاشتها -وتعيشها- الجزائر منذ أحداث أكتوبر 1988، وما لَحِقَها من جَرَّاء استفحال ظاهرة "العنف الهمجي" (الإرهاب/الحرب الأهلية)، وما أفرزته من "تبعات سلبية"، بشرية ومادية. فردية وجماعية ومجتمعية. نفسية وعقلية واجتماعية. "وضعية استثنائية" جعلت آل الاختصاص يحذرون من "أزمة عنف" وطنية تلوح مؤشِّراتها بشكل واسع في المجتمع الجزائري. حيث صرح البروفسور "مصطفى خياطي" رئيس

⁶⁶⁸ Ibid.

⁶⁶⁹ نعتقد أنَّ حتَّى هذه النَّيِّ يَصِفُهَا 'بالإسفاف والسَّمَاجَة'، هي في حدِّ ذاتها تعبير عن دلالات معينة، تحتاج للتفكيك والتأويل.

الهيئة الوطنية لترقية الصحة وتطوير البحث "فورام"، للشروق اليومي" في عددها الصادر في 6/3/2008، بأن أعمال العنف المتصاعدة التي تشهدها مختلف ولايات الوطن هي نتيجة حتمية لإهمال هذه الشريحة التي كانت شاهدة على مجازر رهيبة خلفت صورا من القتل والذبح والاعتصاب لازالت متجذرة في أذهانهم على شكل كوابيس وتصرفات عدوانية لم تجد من يفهمها ويخفف من وطأتها. بأن أزيد من مليون شاب من ضحايا المأساة الوطنية تحوّلوا إلى قنابل موقوتة بدأت تتفجّر على شكل عنف وتخريب وقتل جزاء الإهمال والتهميش الذي تعرضوا له في السنوات الماضية. ومن جهته أكد السوسيولوجي "نصر الدين جابي" لذات الجريدة، بأنّ المجتمع الجزائري يعرف بداية لإنتاج العنف -بمختلف المستويات- وأنّ الشّباب الذي شاهد وعايّن وتعرض لمختلف أشكال العنف جزاء العشرية السوداء يعمل اليوم على إعادة إنتاج العنف الذي تعرّض له انتقاما من المجتمع الذي لم يساعده على تخطي الأزمات النّفسية والاجتماعية التي واجهته⁶⁷⁰.
غرافيتياً، تجسّدت "آثار" المأساة الوطنية من خلال مضامين بعض الوحدات الجرافيتية التي علقت حول "رموزها" ومخلفاتها، سواء ما تعلّق بالحزب المحظور "الجمهية الإسلامية للإنقاذ"، أو "الجيش"، أو "الإرهاب"،... ومن بين ما كُتب :

الو. رقم 143: "لا للإرهاب" جدار محطة حافلة / قطب شتوان.

الو. رقم 144: "vive ANP" جدار/ قسم الفلسفة .

الو. رقم 145: "الذي يبحث عن ذرة أمان في وسط ذئب غرضها قتل الأمة الجزائرية

والإسلامية". طاولة/ قسم العلوم الادارية والقانونية.

ب. **السياسة شبه غائبة عن اهتمامات الطالب⁶⁷¹:**

لم تتراء "رسائل الجرافيتيا السياسية" بعدد كافٍ يرشّحها لتتنظّم كغفّة جرافيتية مُستقلة، ضمن تراتبية الفئات الأخرى. إنّنا أمام ظاهرة "عزوف الطلبة" (الشباب) عن لعبة السياسة ومناكفاتهم⁶⁷²، التي يعتبرها المتخصصون أساس الفعل الديموقراطي في أيّ مجتمع يتغنى بذلك⁶⁷³.

⁶⁷⁰ بلقاسم حوام، "مختصون يحذرون من أزمة عنف وطنية، مليون شاب جزائري من ضحايا المأساة يغذون العنف الحالي" الشروق اليومي، 2010/5/06.

⁶⁷¹ وإن كنا نعتقد أن حتى هذا العزوف عن السياسة هو في حدّ ذاته تنشئة سياسية، قد تكون مقصودة.

⁶⁷² حاولنا العودة للميدان (الجامعة) خلال الحملة الانتخابية لتشريعات 2012/5/10، كمحاولة منا للبقاء على اتصال دائم بالميدان، لكننا لم نجد ما يستثيرنا كمادة جرافيتية معبرة.

⁶⁷³ نفترض أنّ عزوف الطلبة -ومنه الشباب- عن السياسة، يعود لأسباب موضوعية أكثر منها ذاتية، يأتي في مقدمتها إشكالية البطالة، "بطالة الكوادر/الأطر"، التي أصبحت تلامس موضوعياً شريحة واسعة من فئات الشباب، باختلاف مستوياته التعليمية،

والتي نعتقد أنّها تتبلور بشكل "ناضح" -في الجامعة- من خلال الممارسة الأكاديمية والبيداغوجية التي ترتسم من "طبيعة" العلاقات بين الأساتذة والطلاب، وباقي القائمين عليها، والتي تحتاج بدورها لاستجلاء أكثر بمساعدة دراسات جادة. لأنّها (العلاقات) ليس على ما يُرام كما أُشّرت عليه مضامين الوحدات الجغرافية السالفة التّوضيح. رغم ذلك سجلنا بعض الوحدات المُتضمّنة أسماء ورموز بعض الأحزاب، والمفاهيم والكلمات السياسية، نستعرض منها ما يلي:

الو. رقم 146: "FLN" جدار/ قسم الأعلام الآلي.

الو. رقم 147: "vive Gia /Mia " طاولة/قسم الآثار.

الو. رقم 148: "قال التعددية قال.. كلها للنظام والنظام للنظام" محطة حافلة/قطب شتوان.

ليرد عليه آخر. "تريد الصدق اكره السياسة والسياسيين" نفس المكان والدّعامه.

الو. رقم 149: "الانتخابات خلّونا من البوليستيك كُشّ راه باين" خلفية باب/العلوم السياسية.

بشكل عام تعكس مضامين الجغرافيتيا السياسية عن رغبة "مُعلنة غرافيتيا" في تميع ونزع الشرعية عن قضايا ومؤسّسات اتّخذت لنفسها من "رموز الهوية الطُّلابية"-والشبابية- لِشَرَعنة وسمدة خطاباتها "المتكلمة". على نحو الخطاب الذي -كثيرا- ما يتغنّى ويتحدث باسم الشّباب والطلّبة، دون إدراكه ووعيه بأوضاعهم. فتموّقت الممارسة الجغرافيتية-كما يعتقد السوسولوجي

=بشكل يجعل كل العوائل الجزائرية تعيش على إيقاع التدايعات الاجتماعية والنفسية لها. فقد غيرت بشكل جذري الشروط العامة لحياة الشباب المتعلم وغير المتعلم، الذي فقد الثقة في المدرسة بكل أطوارها، وبالتالي التعليم، كوسيلة للحراك الاجتماعي التصاعدي. زيادة على تراجع مكانة الفئات المتعلمة في سلّم التراتبية الاجتماعية. مما جعل مرحلة الشباب تتعرض لحالة تمطط سوسولوجي قسري، وتخليه (المؤقت) عن نزوعه الطبيعي لتحقيق استقلالته تحت ضغط الحاجة المستمرة للأسرة والعائلة، وانهجاسه بالبحث عن وظيفة مستقرة. بالإضافة لتنامي عدم الثقة في السياسي وسياساته. والصورة الغير مشرفة التي يحملها الشباب عن درجة التزام المسؤولين بوعودهم، وعدم فعالية الخطب السياسية الزنّانة، رغم كثرة العناوين السياسية (الأحزاب والمناصب)، مما أفضى إلى إفلاس الممارسة السياسية في مجتمعنا. وكذا عدم تمكّن السياسيين (المسؤولين) من معالجة قضايا الشباب، الذي فضل "الحرقه" والموت في البحر، على تجرّع مرارة "الشوماج" والتهميش. كل ذلك وغيره جعل الطالب (الشاب) يسجل بقوة عزوفه الملحوظ عن السياسة والفكر وما جاورها. للإشارة الظاهرة حاضرة حتى بالمجتمعات الغربية لكن بدرجة وأسباب مختلفة. حيث صنّف تقرير مجلة "The Economist" البريطانية المتخصصة بالشؤون الدولية، والموسوم ب: "The Democracy Index 2011 Democracy under stress" (الديموقراطية تحت الضغوط) الجزائر في المرتبة 130 عالميا ب344 نقطة، بعدما احتلت المرتبة 125 سنة 2010 ب344 نقطة.



الو. رقم 155: طاولة/ مكتبة الحقوق.



الو. رقم 154: طاولة/ علم الاجتماع.



الو. رقم 156: طاولة/ قسم الأدب العربي. الو. رقم 157: جدار/ قسم الهندسة المدنية.

بدايةً، نعتقد أنّ هذا الصّنف من المضامين الجغرافية يؤثّر على طبيعة الجو البيداغوجي (والمناخ التنظيمي) السائد أثناء المحاضرات والتّطبيقات، وكذا الوضع الاجتماعي بالإقامات الجامعية، وما يَسْتَتْبِعُهَا من خدمات جامعية -الغير مُرضية للأسف، كما عبّرت عنه مضامين الاحتجاج سلفاً-. ويمكن إرجاعه أيضاً لأسباب أخرى، منها طبيعة البرامج والمقرّرات التّعليمية، البعيدة نوعاً ما عن حاجات وإهتمامات الطالب.

لأنّ الجامعة -على المستوى العالمي- كما يؤكده العديد من الباحثين، على لسان المفكر "فيليب كومبز Philip Coombs"⁶⁷⁷ ضلّت السبيل وخذلت المجتمع فيها، فبدّل البحث عن حقائق جديدة شغلت نفسها ببناء حُصُون أكاديمية لحماية المعتقدات القديمة، بدلاً من أن تبتعد بمقدار ذراع عن الخلط وعدم الانتظام في المجتمع، أبعدت نفسها بمسافات فلكية عن مشكلات المجتمع المُلِحّة، حيث تَشْتَدُّ حاجته لمساعدتها. وبدلاً من المحافظة على إستقلالها باعتباره ضرورة للجهد العقلي الأمين والمنتج، فإنّها قد دافعت بوحشية عن الاستقلال، باعتباره إمتيازاً وغاية في حدّ ذاته.

⁶⁷⁷ فليب كومبز، "أزمة التعليم في عالمنا المعاصر"، ترجمة أحمد خيرى كاظم، الدكتور جابر عبد الحميد جابر، القاهرة، دار النهضة، 1981، ص 216-217.

بدلاً من قيامها بتشكيل شباب اليوم ليصبحوا قادرين على حل مشكلات المجتمع في الغد، دربتهم وشجعتهم على الهرب من نفس هذه المشكلات"⁶⁷⁸.

رغم أنّ هذا الانتقاد مبالغ فيه نوعاً ما، إذ لا يمكن تطبيقه على كامل الجامعات، إلا أن له نسبة معتبرة من الصّحة والحضور، خاصّة بالنسبة للجامعات العربية، حيث تطرح بحدّة إشكالية العلاقة بين الجامعة والمجتمع، وما ترتب الجامعات العربية والجزائرية ببعيد، حيث تحتل المراتب الأخيرة⁶⁷⁹. بالإضافة لطبيعة العلاقة البيداغوجية - التي تحدثنا عنها سابقاً - وعدم إكتراث الطالب بالمادة المُقدّمة، لإدراكه المسبق بحصوله على الشّهادة الجامعية. فالجامعة الجزائرية كما يقول أحد المفكرين الجزائريين، أضحّت حاضنة لتفريخ الشّهادات الجامعية.

ويمكنها (المضامين الجرافيتية) أن تُؤشّر كذلك على وُلّع بِمَارَكات السّيّارات والدّراجات السّريعة، التي تُسوّقها الثّقافة الاستهلاكية، والتي تُقدمها كأحد أهم ركائز التّقدير الاجتماعي من طرف الآخر⁶⁸⁰، الأكثر انتشاراً بين مجتمعات المعاصرة، التي نعتّها عالم الاجتماع "جون بودريار Jean Baudrillard" بـ "المجتمع الاستهلاكي La société de consommation"⁶⁸¹، التي أفرزت ما يُسميه "ألبارتو غاليمبارتي Umberto Galimberti" بـ "ثقافة الاستهلاك"⁶⁸². ثقافة هيمنة على كامل المجتمعات المُعولمة. لذا نعتقد أن هذه المضامين تجلّت كتعبير عن رغبةٍ مُلحةٍ لإمتلاك السّيارة، باعتبارها مؤشراً قوياً لتصنيف الأفراد في سُلّم الثّرأتب الاجتماعي في مجتمعنا، وعاملاً مُهمّاً للانتقال من مكانة المراهق (الطفل) إلى مكانة "الرّاجل". لأن الجرافيتيا كما يعتقد "جيف شانغ Jeff

⁶⁷⁸ في نفس السياق أكّد "ريمون بودون Raymond Boudon" في كتابه:

"L'inégalité des chances, la mobilité sociale dans la société industrielle" Paris, A. Colin, 1973.

أنّ الانسجام الذي كان قائماً بين الجامعة و النظام الاجتماعي قد تحطّم، بسبب تضاعف عدد الطلبة، و التغير السريع الذي طرأ على المُكوّن الاجتماعي للجامعة.

⁶⁷⁹ العديد من المنظمات والمؤسسات منحصصة في تتبع الإنتاج العلمي والمعرفي لجامعات العالم، تتوج كل سنة بترتيب عالمي لها، ولعل أشهرها " ترتيب شانغاي".

⁶⁸⁰ ما هو شائع في مجتمعاتنا تُصدّر المعايير المادية والمظهرية في تقييم وتقدير الأشخاص، على نحو "قيمته تتحدد بنوع السيارة التي تملكها". بلغة المصريين (عندك قرش تسوى قرش)، وليس بمستواك العلمي والمعرفي أو الأخلاقي.

⁶⁸¹ في كتابه "La société de consommation" 1970. وإن كان قد سبقه في نحت المفهوم الاقتصادي الأمريكي "John Kenneth Galbraith" نهاية الخمسينات، حيث انتقد النمط الاستهلاكي المفرط للمجتمعات الغربية آنذاك.

⁶⁸² ويعتبرها سابغ سبعة كبائر جديدة، بعد كل من: النّمطية، الاستغراق في الجنس، الإنكار، الوقاحة، الخوّاء والاختلالات العصبية. التي تقابلها حسب السبغ الكبائر التقليدية وهي: الغضب، الحسد، الكبرياء، الجشع، الشهوانية، الكسل والنهم. (أنظر كتابه: "رأس المال والرذائل الجديدة" الذي نشره 2004).

Chang" و"هيلواز إسكيي Heloise Esquié" طريقة لتحقيق المكانة الاجتماعية في مجتمع تتحدّد فيه هويتك بملكيتك⁶⁸³.

ف"الهوس المجتمعي" بامتلاك سيارة جعلها تتصدّر وسائل النقل الأكثر فعالية، والوسيلة التي تربط بين الفرد وجماعته ومجتمعه، لتضمن له الاندماج في المجموعة، هذا ما جعلها تتبوأ مكانة متميّزة، سواء في الوسط الحضري أو الريفي. لذا يميّز علماء الاجتماع بين الجانب الهويّاتي والعاطفي في فهمنا لرمزية امتلاك السيارة. فامتلاك سيارة يعني "التّواجد اجتماعياً" (فمكانتك الاجتماعية تتحدد بامتلاكك للسيارة، بل بنوع السيارة).

لذا أضحي "إنتراع" رخصة السّياقة من أبرز طقوس وُلوج (الحراك الاجتماعي) الشباب لعالم "الكبار Les adultes"، ومنه للمجتمع في المجتمعات المعاصرة. إنّها وسيلة للاندماج ورمز الاستقلالية والتّميز، وميكانيزم فردي وأسري للتّعويض La compensation. ولعل سلوكيات "السّائقين" أثناء القيادة من إفراط في السّرعة إلى التّجاوزات الخطيرة وعدم احترام اشارات المرور- عمداً-، وتشغيل الموسيقى الصّاخبة، وردود المناكفات اللفظية والإشاراتيّة Gestuelle، كلّها علامات ومؤشّرات تنتظم في رغبة التّميز وإثبات الدّات، ولو على القوانين والأخلاق والأرواح⁶⁸⁴. في الختام، نذكر أنّنا اجتهدنا في هذا الجزء لإستعراض واستجلاء أهم المضامين الجغرافيتية، أثّنت تضاريس المشهد الجامعي، مع تعليل دلالاتها السوسيوأنثروبولوجية الممكنة. "مضامين" أشّرت على بعض مستويات التّماهي الطّلابي وعناصره المعكوسة جغرافيتياً.

⁶⁸³ Jeff Chang, "C'ant Stop Won 't Stop : Une histoire de la génération hip hop", traduit de l'anglais par Héloïse Esquié, Paris, édition: Allia, 2006, p 154.

⁶⁸⁴ ولعل هذا ما جعلنا نحتل المراتب الأولى في "إرهاب الطرقات"، فالأمر ثقافي نفسي أكثر منه تقني كما نعتقد.

4.3. مستثيرات الممارسة الجرافيتية بين الدافع والحافز

اعتمادًا على ما سبق، سندعرض في هذه السطور أهم دوافع وحوافز الممارسة التي نعتقد أنها تندس وراء "إنكتاب" و"إستكتاب" الجرافيتيا الطلابية، وفي ذات المَتن نجتهد في استجلاء أبرز الأهداف المنشودة من وراء هكذا ممارسة. عموماً، يعتقد جُلّ الباحثين أنّ الممارسة الجرافيتية "فعلٌ" تَقِفُ وراءه دوافع (حوافز) متعدّدة منها:

- البحث عن تحقيق الشُّهرة.
 - الرّغبة في الاتصال والتّواصل، وإسّماع صوته للآخر، ومنه إيصال وتوصيل الرّسالة المرادّة.
 - دافع تأكيد الذات، فالجرافيتيا سبيل للتّقدير الذات (للأنا).
 - التّعبير عن الهوية والانتماء لمجموعة اجتماعية معيّنة (مستوى الهوية الجماعية). باعتبارها الحامية له، والمساهمة في تشكيل هويته الفردية.
 - التّعبير عن الاحتجاج والسُّخط: ضدّ الوضعية السّياسية والاجتماعية في قطاع ما، خاصّة تلك التي تتّواشج بشكل مباشر مع الشّباب (الطلاب).
 - تمرير الإشهار المقرّصن *Publicité piraté*.
 - التعبير الحر عن الخواطر والآراء السّياسية والثقافية والدينية المذهبية والأيدولوجية.
 - لتحقيق نسبة "معتبرة" من الاستقلالية، إنني أكثر حرية وأنا أكتب، كما يصرح أحدهم.
- ويمكن تنميط أهم الدّوافع الثاوية وراء إنكتاب الجرافيتيا الطلابية، كما يأتي:

أ. دوافع ذاتية نفسية:

يعتقد "بوب بريان Bob Bryan" أنّ الجرافيتيا تعبير عن الحالة النفسية للمجتمعات ولحالة ذهنيّتها. فغالبًا ما تتجلى الكتابات نتيجة دوافع باطنية، وغرائز ومكونات مختلفة. لتتحول هذه الأخيرة لصمّام أمانٍ من الانفجار النّفسي، إنّها تطهير للعواطف الحُبلى بالمعاناة⁶⁸⁵. إذ تسمح لنا بالكشف عن حالة مرضية تسمى "فُصام الشخصية (Schizophrénie)، التي تعرقل عملية إدماج وإندماج الفاعل في الحياة الاجتماعية⁶⁸⁶. فمن خلال الفعل الجرافيتي يَتِمُّ تفريغ المكبوتات النّفسية والاجتماعية المُتكلّسة نتيجة سَمَاكَة كُرّة الثلج المُتدَحرجة منذ الشّهور الأولى من التّنشئة الاجتماعية إلى لحظة "كتاباته الجرافيتية".

⁶⁸⁵ يصرح "Futura 2000" -أحد أشهر مُمارسي الجرافيتيا الأمريكيّة- قائلاً، بأنني وجدت في الجرافيتيا الأمان النفسي الداخلي، بعدما كنت أعاني من "أزمة هوية"، فاتّخذت الجرافيتيا للإعلان عن هويتي الجديدة.♥

♥ S. H. Fernando, op.cit.

⁶⁸⁶ Benjamin Pradel, op.cit.p.183.

"كتاباتٌ" تعكس أبعاد شخصية الطالب وتكوينه النفسي والتربوي، وميولاته ورغباته، ومُعاناته اليومية، وطموحاته، باعتباره عنصراً وفاعلاً ينمو ويتطور من مرحلة عُمرية لأخرى. فلكل مرحلة مطالبها النمائية المُتميّزة. فتتشكل ضغوطات ومكبوتات نتيجة أواليات الضبط الاجتماعي، المُمارس في الفضاءات المختلفة، التي يُنشأ فيها من (أسرة، مدرسة، مسجد،.. والجامعة)، مع بعض الاستثناءات، لأنّها تتميز بهامش حركة وحرية واسع بالمقارنة مع الفضاءات السابقة.

كلّ نسقٍ، له ضوابطه ومحدداته وقوانينه التي تُسَيِّره، متجاهلةً -نسبياً- المطالب النمائية المتعددة، مُلقيةً عليه تعاليمها دُفعة واحدة، دون "إفهامه" الغايات من وراءها، مما يخلق بداخله نوع من التوترات والاضطرابات، تدفعه دفعاً للبحث عن استراتيجيات للتخفيف منها. فَيَلْتَجئ للكتابات الجرافيتية لتفريغ مكنونات النفس وتقلباتها. وفي ذات الوقت محاولة منه تناسي هذا الوضع المُتأزم. إنّها حسب "جانيس ران Janice Rahn" إستراتيجية لنسيان وتناسي الواقع المُعاش⁶⁸⁷. إلْتجأ للجرافيتيا كوسيلة تعويضية لعدم قدرته على التعبير "اللفظي" العلني، عمّا يختلج في نفسه، نتيجة سلطة "الكبح المجتمعي" المُسلط عليه، من طرف مؤسسات التنشئة. ويتضاعف هكذا "فقر تعبيرى" عندما يتعلق الأمر بالمحرمات الاجتماعية، كالجنس والعاطفة والانتقاد الصريح.

ب. حوافز موضوعية:

• حوافز تعليمية تربوية، تنشئية:

ترتبط هكذا دوافع بطبيعة ثقافة النسق التربوي والتّعليمي والتّنشئوي في البيت والشّارع، المدرسة والجامعة، وباقي مؤسسات التنشئة التي يَحْتَك بها، إذ غالباً ما يُهْمَسُ أو يُرْفَضُ، وفي بعض الأحيان يُقْمَعُ بدعوى قُصُوره المعرفي اللّصيق به منذ الطّفولة⁶⁸⁸. فأوَالِيَاتِ إشتغال النّظام التّعليمي وَزَخَمِ المنهج الدّراسي، تخلق نوع من الخلل في شخصيته، وفي طريقة تكيفه مع متطلبات الفضاء الجامعي، خاصّة في شقّه البيداغوجي، نتيجة نظام التّقويم المعتمد من طرف السّواد الأعظم - وليس الكل- من القائمين عليه، من مُنظّرين سياسيين للعملية التعليمية، ومشرفين، ومنفذين كالأساتذة. إذ غالباً ما يعتمد في عملية تقييمه -ونادراً تقويم- الطالب في الامتحانات على مبدأ سَمِينَاهُ بمبدأ "بِضَاعَتُنَا يَجِبُ أَنْ تُرَدَّ إِلَيْنَا"، وإلّا لا كَيْلَ لِلْمُتَحَنِّينَ عِنْدَ الْمُتَحَنِّينَ.

⁶⁸⁷ Janice Rahn, "Painting without permission: Hip-Hop graffiti subculture", Publisher: Bergin & Garvey, Canada, 2002, p.180. (Google Books).

⁶⁸⁸ حتّى أضحت كلمة "طفل" في مرادفاتها بالدّارجة الجزائرية، (بَزْ، دَرْي، غَرْيَانْ،..) كلها كلمات ذات دلالات تقزيمية، انتقاصية، إذ غالباً ما تُرَدَّفُ وتُلْحَقُ بكل شخص تُريدُ تَقْزِيمَهُ ووصمه.

بالإضافة لثقافة التّقدّيس المُفْرِط والمُعْلَن للنقطة، كغاية في حدّ ذاتها، في حين من المفروض أن تكون وسيلة للتحصيل المعرفي. وكأساس للرّضا وللمرور لمستوى أعلى. هذا ما يدفعه للبحث عن إستراتيجيات للتّكيف مع هكذا وضع، بتمثّل قواعد اللّعبة. تجلّى ذلك فيما وصفناه سابقًا بإستراتيجية "التّحرّاز". لتجاوز "عقبة" الامتحان، الذي يعتمد كثيرًا على "إجتّار" ما قُدّم. بالإضافة إلى فلسفة المجتمع في التعليم ونظرته للشّهادة الجامعية، والحالة-المرضية- لسوق العمل، وغيرها من الظّروف التي تحدّد مساراته ومآلاته ما بعد المرحلة الجامعية.

• حوافز اجتماعية، سياسية وثقافية:

غالبًا ما ترتبط محفّزات "الفعل الغرافيتي" بضغطات الوضع المعيشي للطالب، داخل المؤسّسة الجامعية بكل تنظيّماتها المُهندِسة لها (الحي الجامعي، طابور المطعم، وسائل النّقل، مدرجات المحاضرات، مخابر التطبيقات (TP/TD)، قاعات الأنترنت، المكتبة...)، وخارجها المتمثلة في طبيعة "وضعه/واقعه" العائلي والمحلي والفنوي والاجتماعي. ظّروف أقلّ ما توصّف به أنّها "متأزّمة" للغالبية من الطلبة. مما يفرز لديه ردود فعل متباينة، ما بين الإيجابي والسّلي على مختلف الأصعدة، منها:

• "غياب"، أو لنقل إنحصار لُغة/ثقافة الحوار بين الطالب ومحيطه الأسري (الأولياء)، والجامعي (الأستاذ والمسؤول الإداري). ممّا يُفرز نوعًا من "الفراغ التّفاعلي"، يُضفي لخلل فكري معرفي، وحتى نفسي، حول قضايا حياتية مصيرية بالنّسبة له، باعتباره "فاعلًا" له مطالبه وحاجاته وأحلامه الخاصة والتميّزة.

• حالة الفراغ: عدم فاعلية الأنشطة الخاصة بالوقت التّرفيهي للطالب، خاصة بالأحياء الجامعية، لعدم فاعلية السياسات المكلفة بذلك، فالفراغ يخلق الممل والضيق.

• تُسَنَّمَر "الكتابات الغرافيتية" لتجاوز حالة الملل والامتعاظ، الذي يعانيه الطالب نتيجة طبيعة الجو/المناخ العام للجامعة وللمجتمع، وبالأخص أثناء المحاضرات لعدم استثارتها لانتباهه، لأسباب عدّة، لعلّ أهمّها بُعدها عن انشغالاته واهتماماته.

خلاصةً، يمكن القول أنّ الطالب يُغرّفِت لِحَاجَةٍ في نفس يعقوب أراد -يُريد- قضاءها، تتمركز في:

• الرّغبة اللّحوحة في -إعادة-إنتزاع حق التّواجد والتّموّع في النّسيج المجتمعي داخل الجامعة وخارجها.

• محاولة كَسْبُ وإنتزاع الاعتراف والتّقدير من الآخر المُهمّين.

• للتّنفيس عمّا يُضنك علاقاته وحياته، بدّحض فترات الملل والرّوتين، الذي غالباً ما يحضر أثناء اللقاءات الرّسمية، كالمحاضرات والاجتماعات، حيث يعكف الشّخص على "خربشة" كلمات ورموزاً لن نفقه معانيها، إذا لم نستنجد بمفاهيم التحليل السوسولوجي أو النّفسي أحياناً.

• للانتقام والسّخرية -غرافيتياً-، إذ يلجأ الفاعل للممارسة بُغية صَبِّ سَخَطِهِ وَمَقْتِهِ على المقصود من تلك الرسالة، -بطريقة كاريكاتورية ساخرة في بعض الأحيان- ثمّ يُدَيِّلُهَا بعبارات إنتقاصية ودُوْنِيَّة، يشعر بعدها أنّه اسْتَرَدَّ ما أُخِذَ منه -ولو رمزياً-⁶⁸⁹. قد يكون المقصود من الرسالة الغرافيتية أيّ شخص يتفاعل مع الطّالب، في الأسرة، الحي، البلدية، الجامعة...وقد تكون الغرافيتيا وسيلة ناجعة للانتقام من الأستاذ -أو المسؤول- الذي وَجَّحَ وَسَخِرَ مِنْهُ أمام الرّملاء، ولم يستطع الرّدّ عليه لأسباب عدّة، فَيَكْتُبُ ما لم يستطع البوّح به أمامه.

• للتّعبير عن رفض الواقع المُعاش، ومنه رفض السّياسات المُتّبعة في تسيير شؤون المؤسّسة الجامعية (الخدمات الجامعية، إلقاء المحاضرات، التّقويم، إجراء المسابقات..).

• الإعلان عن انتماء لجماعة معيّنة (محلية أو إقليمية أو طلابية أو عالمية)، اختارها للتّماهي مع -بعض- مرجعياتها، وكأنّنا أمام برّاثن مَوْجَة ما يُسعى في أدبيات الموضوع -خاصة الأمريكيّة- بـ"عصابات الغرافيتي Graffiti Gangs".

• للتّعبير عن تحديّهِ للقوالب النّمطية -التقليدية- للسلطة الرّسمية، الأبوية بكل مستوياتها.

• كاستراتيجية للتّكيف مع إكراهات الثقافة التّنظيمية الرّسمية للمؤسّسة الجامعية كالتّخراز مثلاً.

• للتّعبير عن عاطفة الحب أو الكُره لشخصٍ ما، إمّا من فئته، خاصة الجنس الآخر، أو من الفئات الأخرى، كالرياضيين والمغنيين والممثلين، للكشف عن مدى إعجابه وهيامه به. أو لجماعة محددة.

ولتقريب الفهم أكثر للقارئ نُورد الشّكل التّالي لتلخيص أبرز دوافع الفعل الغرافيتي الطلابي:

⁶⁸⁹ في هذا السياق وينوع من الجُرأة، يعرف أحد الممارسين للغرافيتيا "الطاك Tag"، بقوله "الطاك عبارة عن قذارات وأذنان، وطريقة للتّبؤل والبصق على جدرانكم (يقصد مجتمع الكبار)، ووسيلة لمعارضتكم، إنّه عبارة عن ظهّار للمجتمع الرّسمي ♥. ♥NAHOUM-GRAPPE Véronique, "Tags et graffitis", mise en ligne: Novembre 2009. <http://www.esprit.presse.fr/archive/review/article.php?code=15508>. Consulté le: 18/7/2010.

5.3. ملامح الهوية الطلابية بين سرّ المكبوت وسحر المكتوب

والآن نحاول توضيح ثقل الملامح الهوياتية الطلابية في ميزان ثنائية المقدس والمدنس بالمفهوم السوسيولوجي للمصطلحين، ومن ثمة نحاول تركيز بعض الاستنتاجات التي -نعتقد أننا- توصلنا إليها، لنختم الفصل بتعداد إجرائي للملامح الهوياتية.

1.5.3. المضامين الجرافيتية بين ثنائية المقدس والمدنس:

كثيراً ما كانت الجرافيتيا وسيلة لتجاوز الرّسّي والمقدس بمفهومه الواسع، مما جعلها محل إتهام -شبه مُزمن- من طرف العديد من الفاعلين الرّسمين، حيث سَخَرُوا ما يملكون من وسائل وإمكانات مختلفة لمحاربتها (أو على الأقلّ للحدّ منها)، وسائلٌ مادية ومعنوية، فكرية وقيمية وقانونية⁶⁹⁰، ممّا أفضى لإستيطان علاقة الصّراع والمطاردة بين الطرفين (السّلطات والممارسين).

وتزيد حالة التّوتر بينهما إذا لأمست هذه الممارسة فضاءات وشخصيات -تُعتبر- مقدسة (بالمفهوم الشّامل للقُدسية)، نذكر على سبيل التّدليل ما حدث بمدينة "روما"، بتاريخ 2010/7/2 عندما إستيقظ سكان حي "La Scala Santa" على كتابات -بلغة أجنبية- وُصفت آنذاك بالتهجمية والشّنيعة، ضدّ الممثل الرّسّي للكنيسة "البابا Benoit XVI". فَهَبَّت السلطات المحلية لتنظيفها، وتلاحقت التّصريحات المُندّدة بهكذا أفعال. بدءاً بتعليق رئيس بلدية "روما" السيد "جيانى أليمانو Gianni Alemmano" الذي أدان بشدّة الفعل، واعتبره فعلاً مدنّساً لِمكان مقدس، وغالٍ على سكان المدينة، وعلى كامل الحجّاج الوافدين من الجهات الأربع من المعمورة، وأعلن عن تضامن إدارته مع "البابا".

كما تقدّح (تُشكّك) الجرافيتيا في بعض أعراف وتقاليد المجتمع، ممّا رَشَحَهَا لِتحتل مكانة هامشية ومُهْمَشَة، خاصة في المجتمعات والجماعات التي تعرف اتّساع مساحات "المسكوت عنه"، وكثرة الطّابوهات باختلاف ألوانها وأنواعها، حيث تكثّر معالم Les balises توجيه التّعبير السياسي والديني والجنسي... وهذا ما يؤكّده الدكتور "عبد الناصر جابي" (أستاذ في علم الاجتماع) عندما يُعلّق على الممارسة بفضاء المراحيز بقوله: "أنّ ظاهرة الكتابة على الجدران موجودة في كل البلدان، وليست قاصرة على الجزائريين وحدهم، تُعدّ شكلاً من أشكال التّعبير على الهامش حول مواضيع عادةً ما تكون على الهامش هي الأخرى. وأنّ المسكوت عنه في المجتمع يتعرّض دائماً للقمع،

⁶⁹⁰ للتفصيل أكثر يمكن الرجوع لاستراتيجيات محاربة الممارسة.

وكُلِّما كان المسكوت عنه كبيراً كلِّما كان القمع أكبر. ويُعتَبَرُ الجنس والسياسة من المواضيع الأكثر قمعاً في مجتمعاتنا العربية، لذا يلجأ البعض للمراحيض للتعبير عنها⁶⁹¹.

تُعَبِّرُ "الكتابات الجرافيتية" -في مجملها- عن قيم ثقافية طلابية، أغلبها ذو طابع مُناقض أو مُضاد، أو مُتمردٍ على قيم الثقافة المؤسسية الرسمية، باعتبارها نسق أيديولوجي سياسي وثقافي هُويّاتي، تجتهد مختلف مؤسسات التَنشئة الاجتماعية على ترسيخه لهؤلاء الفاعلين. فَبَعْدَ عملية التَّحليل والتَّدقيق للكتابات وتصنيفها، ظهر لنا جلياً سيادة الخطاب المُدَنَّس (بالمعنى السوسيولوجي للمصطلح)، على مُحتويات "النص الجرافيتي"، واكتساح الخطاب الفاضح -بشكل مباشر- لمسائل تعتبر "محظورة"، أو على الأقل هامش حرية التعبير عنها مُحدَّد سلفاً، داخل الأطر العامّة لمؤسسات التَنشئة (الأسرة، المدرسة، المسجد، الجامعة). إنّها مضامين مُشاكِسة للرّسيمي (التنظيمي، الثقافي، الاجتماعي)، سواء فيما تعلق بمسألة التَّحرّاز أو العاطفة والجنس أو علاقات الصِّراع...كلّها مسائل توجي بِغَلَبَةِ الطابع المُدَنَّس (الغير رسمي، الغير قانوني، الحشومة والعيب، الغير مَرغوب فيه). جُلُّها صفات تنتظم فيها مُجَمَل المضامين الجرافيتية.

ولعل هذا ما شَجَّع "عادة" استخدام يافِطَة "المُقَدَّس" بمفهومه الواسع، لِذَحْض وَتَغْيِيرِ وَوَصْمِ الممارسة الجرافيتية في أبعادها المتعدّدة، سواء بحجّة الحرام، أو العيب، أو الممنوع، أو الحشومة. حتّى من طرف "غير العامّة"، إذ غالباً ما تستخدم "قرائن دينية" في محاكمتها (تحرّيمها). ونسوق على سبيل المثال تصريح "مسعود هدنة" (رئيس قسم المجتمع، بجريدة الشروق اليومي) "للعربية نت" يقول فيه: "...أنّه قرأ نماذج من تعليقات على جدران بعض المراحيض يُندى لها الجبين، وما يفعله هؤلاء -حسبه- يتنافى مع السلوك الإسلامي الذي يمنع الكلام عند قضاء الحاجة، والكتابة هي نوع من الكلام الصّامت الذي يستلزم رَدّاً، ثمّ يتطور الأمر إلى سبابٍ مُتبادل إذا كان الموضوع مُثيراً للجدل⁶⁹².

كما يتجلّى الطابع المدنس في المضامين بشكل فاضح، إذ نَزعم أنّه انتقل من درجة "إنتقِ الكلام المُباح" إلى درجة "الكلام كلّهُ مُباح"، لِيَكْتَشِفَ عُرْيَ المدنس، ومنه هَتَكِ سِتَارَاتِ المقدس (أخلاقياً واجتماعياً وثقافياً)، تَجَسَّدَ ذلك بشكل واضح ومباشر في مضامين جرافيتيا المراحيض. انطلاقاً من عبارات الخطاب المُستعرض لمسألة الجنس وما حوى، بشكل مباشر. بالإضافة إلى إستحضار -جرافيتيا- ألفاظ (فاضحة) مُعَبَّرَة عن الرّغبة في الفعل الجنسي، من خلال رموز وعلامات خاصة،

⁶⁹¹ وَرَدَ ذلك في سياق استجواب خَصَّ به قناة "العربية نت" بتاريخ: 2007/03/20.

⁶⁹² قناة العربية: الثلاثاء 20/3/2007. www.alarabia.net/articles/2007/03/20/32747.html

حتى خارج المراحيلض. إترضت دلالاتها أكثر من خلال رسومات للأعضاء التناسلية (الذكورية والأنثوية). وقد حضر الطابع المدنس في المضامين من خلال المواقف (العدوانية) إترجاه "الأخر القرب" من خلال مسائل الصّراع (المناطقى والجهوى والجليلى). ولعلّ سيادة الطّابع المدنس لهكذا خطاب هو الذى دفع "البعض" لرفضه والحكم عليه سلبياً، ويعزّون شيوعه إلى إبتدال القيم الأخلاقية والتربوية، وخذش صورة ثقافة السلّطة/الرسمية السّائدة.

ختاماً، يمكننا القول أنّ "الممارسة" حقاً استراتيجية فعالة يهدف من خلالها الفاعلين للتعبير عن خصوصياتهم الثقافية والهويّاتية، حتى ولو أضطّروهم ذلك إلى تدنيس (مقصود وغير مقصود) لبعض القيم والمعايير الثقافية للمجتمع، وتقديس أخرى، كنّا نعدّها "مدنسة"، يحدث ذلك وفق قاعدة "تدنيس المقدس وتقديس المدنس".

2.5.3. على سبيل الاستخلاص:

تأسيساً على كل ما سبق، يمكن القول أنّ "الكتابات الغرافيتية الطلابية Les graffitis estudiantine" عبارة عن هُتافٍ صاخٍ صامتٍ، احتلت العديد من الفضاءات الجامعية، وجرّثت على الكثير من الدّعانات المختلفة، بُغية الاستبعاد والاستحضار، استبعاد المُقلق وغير مرغوب فيه، واستحضار المرغوب والمحبوب والمأمول. فكثير من الموضوعات قد لا تجد إلاّ الجدران-وما ناب عنها- ملاذاً للبوّح والتّموّف (التعبير عن موقف مُعيّن)، كما كان الحال إبان فترة الاستفاقة ضدّ الهيمنة الاستعمارية بالجزائر، أو الاحتلال الصّهيونى لفلسطين. وكما حدث-ويحدث-في مجتمعات ثالّية تتّصف بثقافةٍ تمّتمن التّضيق على الحريات الشّخصية والمجموعاتية.

ومنه تتّموضع الكتابات الغرافيتية كمارسة طلابية "يومية"، تُروم إثبات ملامح "الذّات الطّالّية"، تحت إلهام الحاجة إلى تمكين الذّات وتحقيق الهوية، باعتبارها حاجة تُخصّ الكائن الانسانى وحده، بحسب اعتقاد "إريك فروم Erich Fromm". إنّها وسيلة كتابية يحاول من خلالها الفاعل وبطريقة (صامتة) إسماع "صوته" للآخرين، وفي ذات الوقت تأكيد انتماءاته المتقاطعة لمجموعة أو مجموعات معيّنة، حيث لا يتّيم مُعارضة ومُنازعة "مرجعيات" هويته الخاصّة.

كما يمكن اعتبارها "وسيلة مُقاومة" لإكراهات وإملاءات وكالات التّنشئة الاجتماعية، ما دام المجتمع يحاول من وراء مشروعه التّنشئوى تحقيق التّكامل والتّوافق الشّامل بين أفرادهِ، وفقّ معالِم هويّاتية موحّدة وواحدة، محدّدة سلقاً. تُهمّش وتُقصي -في أحيان كثيرة- بعض خصوصيات أفرادهِ، التي تميّزهم عن بعضهم البعض. فالترجأ الطالب المُعْرِفُ لهكذا كتابة لتكون إعلاناً مباشراً

عن إنْجَادِهِ وَفَقَّ مَبْدَأُ "أَنَا أُعْرِفْتُ، إِذْنِ أَنَا مَوْجُودٌ Je graffe donc je suis"⁶⁹³. وامتداداً لوجوده، وَلِيْمَشْهَدَ مِنْ خِلَالِهَا مَلَامِحَ ثِقَافَتِهِ وَهَوِيَّتِهِ الْخَاصَّةَ (الفردية والجماعية)، بمقدار ما يَتَمَشَّهَدُ أَيْضًا خِلَاصُهُ مِنْ ثِقَافَةِ الْمَحْوِ وَالْإِلْغَاءِ وَالتَّهْمِيشِ⁶⁹⁴. حيث تَتَمَوْضَعُ الْكُتَابَاتُ كَنْتِيجَةَ لِمَا يَسْمِيهِ "ميشال فوكو M. Foucault" بـ "مُمارَسَةُ الْأَنَا"، التي تَهْدَفُ لِتَشْكِيلِ الْأَنَا، إِذْ تَرْجَمُ الطَّالِبُ هَذِهِ الْمَمَارَسَةَ بِالْغَرَاْفِيْتِيَا، حَيْثُ رَكَّزَ عَلَى تَحْدِيدِ مَلَامِحِ "أَنَا"، مِنْ خِلَالِ الْاسْمِ اللَّقْبِ، الْكُنْيَةِ وَانْتِمَائَاتِهِ، وَبَحْثِهِ "العنيد" عَنِ التَّقْدِيرِ وَالْإِعْتِرَافِ بِخُصُوصِيَّاتِهِ الثَّقَافِيَّةِ الْهَوِيَّاتِيَّةِ.

ف"الأنا الطلابي" المعكوس في بعض ملامحه -من خلال الكتابات- كشف عن انتماءات مُتَعَدِّدَةٍ وَمُتَقَاطِعَةٍ، تَتَشَكَّلُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُرَكَّبَةٍ وَمُتَدَاخِلَةٍ، تَرْبِطُ بَيْنَهَا عِلَاقَاتُ مُتَغَيِّرَةٌ وَمُتَعَاضِدَةٌ الْمُسْتَوِيَّاتِ، الْفَرْدِيَّ وَالْجَمَاعِيَّ وَالْمَجْتَمَعِيَّ، وَالْأَشْكَالَ، الْأَسْرِيَّةَ وَالْمَنَاطِقِيَّةَ، الْجَهْوِيَّةَ وَالْإِقْلِيمِيَّةَ، الدُّوَلِيَّةَ وَالْكَوْنِيَّةَ. وَكَأَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تُشَكِّلَ ضَمِيرًا طَلَّابِيًّا مَتَنوعَ الدَّلَالَاتِ، بِالتَّعْبِيرِ عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَرْجِعِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، وَمَحَاوَلَةٍ إِنْتِزَاعِ الْإِعْتِرَافِ بِالتَّبَايُنِ وَالْإِخْتِلَافِ، وَالتَّنَوُّعِ وَالتَّعَدُّدِ، شَرْطًا لِتَحْدِيدِ مَعْنَى الثَّقَافَةِ، وَمِنْهُ الْهَوِيَّةُ. دُونَ أَنْ نَعْقُلَ عَنِ تَأْتِيرَاتِ الثَّوْرَةِ الْمَعْلُومَاتِيَّةِ وَالْإِتِّصَالِيَّةِ⁶⁹⁵. لِأَنَّ الْغَرَاْفِيْتِيَا -كَمَا نَعْتَقِدُ- هِيَ الْفَضَاءُ التَّوَاصُلِيَّ الْأَصْدَقُ لِتَمَثُّلِ شَكْلِ الْحَدَاثَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ (التعبير عن خصوصية الأفراد بحرية أكثر)، جَاءَتْ "الكتابات" لِتَعْمَلَ ضِمْنَ وَظِيْفَةٍ تَمَثِّلِيَّةٍ وَكَاشِفَةٍ لِطَبِيعَةِ الْوَاقِعِ الطَّلَّابِيِّ الْمُعَاشِ، مِنْ خِلَالِ مَضَامِينِ مُتَعَدِّدَةِ الْأَبْعَادِ.

هَكَذَا أُعِيدَ اسْتِعْرَاضُ مَلَامِحِ الْأَنَا الطَّلَّابِيِّ، وَ لَوْ بِنَبْرَةِ كِتَابِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، غَيْرِ رَسْمِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ مَضَامِينِ الْأَثَرِ الْغَرَاْفِيْتِيِّ. بِاعْتِبَارِهَا دَلَالَاتٌ تُمَثِّلُ وَتُؤَصِّلُ لِلْهَوِيَّةِ الطَّلَّابِيَّةِ. وَأَكْثَرُ قُدْرَةٍ عَلَى نَعْرِیَّةِ الْمَخْبُوءِ وَالْمَسْكُوتِ عَنْهُ، الْمُسَيِّجِ بِالْمَحْرَمَاتِ وَالْمَمْنُوعَاتِ الْمَجْتَمَعِيَّةِ. حَيْثُ وَرَدَتْ كُتَابَاتُ الطَّلَّابِ، سَارِدَةً لِبَعْضِ مَلَامِحِ هَوِيَّتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، وَمُسْتَعْرِضَةً لِانْتِمَائَاتِهَا الْمُتَقَاطِعَةِ. فَكَانَتْ بِمِثَابَةِ سِيرَةٍ ذَاتِيَّةٍ، سِوَا مَا اسْتَعْمَلَ ضَمِيرَ الْمُتَكَلِّمِ "أَنَا" أَوْ "النحن"، أَوْ الْغَائِبِ "هُوَ" أَوْ "هَمْ". فَاسْتَعْرِضَ آرَآءَهُ وَأَفْكَارَهُ

⁶⁹³ على صيغة الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود Je pense donc je suis".

⁶⁹⁴ في ذات المعنى صرح أحد ممارسي الغرافيتيا، الكندي "أ. بارادا Arturo Parada" خلال مقابلة أجراها معه مؤسس مركز البحث في الغرافيتيا السويدي "نوربارت سيغل Norbert Siegl" عبر الموقع: <http://www.graffitieuropa.org> بأن الغرافيتي ثقافة فرعية تعتمد على الفن الهيروغليفي لإسماع صوت شباب القيطوهات، ما داموا لم يحصلوا على فرصة لإسماعها بطريقة رسمية". للاستزادة حول إنتاجات المركز: <http://www.graffitieuropa.org/definition1.htm>.

⁶⁹⁵ تشير الإحصاءات بـ: "[Socialbakers.com](http://www.Socialbakers.com)" (موقع متخصص في متابعة شبكات التواصل الاجتماعي) أن عدد الجزائريين المسجلين على موقع التواصل الاجتماعي "Facebook" مع نهاية 2011، قارب الثلاثة ملايين مُنْتَسِبِ (مليونين و835 ألف عضو)، بارتفاع قارب نسبة 85% هذه السنة، لتقفز الجزائر إلى المركز 46 عالميا والرابع عربيا.

المُؤشِّرة على بعض ثيماتٍ وخصوصيات الذات الكاتبة (المُعرِّفة)، معتمداً في ذلك على الربط بين البعد العام المجتمعي بكل أطرافه الثقافية، وبعده الخاص (الجنسي والعُمري والفئوي)، غير مُكثَرٍ لا بالتكرار ولا بالقواعد التقليدية الرّسمة لِطُقُوس الكتابة المُتعارَف عليها في الكتابة الأكاديمية والرسمية، فلم يلجأ مثلاً لا للمُسوّدة-لأنّ الدّعامات هي بحدّ ذاتها مُسوّدة-، ولا للقواعد التعبيرية المتوارثة. مما رشّح الممارسة الغرافيتية لتتموقع كاستراتيجية فعّالة لتحقيق "رهاناته الهويّاتية Ses enjeux identitaires"، في وسطٍ (جامعي ومجتمعي)، تنتشر فيه المباريات السياسية Les jeux politiques لتحقيق هكذا رهانات. كشف الطالب الفاعل عن انتماءاته من خلال تمكّنه وممارسته لسلطة الكتابة، بل وقُدْرته على إفتتاح الكلام وإيقافه بالطريقة الغير مُتعارَف عليها في الكتابة الأكاديمية.

كما استطاع الطالب (المُعرِّف Le graffeur) تجاؤز لحظة التعلُّم التي "إعتاد" عليها أثناء حديثه العَلَي عن خصوصياته، بتحريك مضامين المسكوت عنه (المُحكى ضمنيًا)، بسبب جُملة من الاعتبارات المجتمعية. وعليه، صار بالإمكان استنطاق بعض أبعاد الثقافة والهوية الطّلابية أمراً مُمكنًا-على الأقل غرافيتيًا-، لتكشف عن هوية مهْجُوسَة بالحضُور عبر العديد من الوسائط، التي يمكن اعتبارها بِمَثَابَة الوثائق والسجّلات التي تحفظها، حيث "الانقلاب" (النّسي والمؤقت) على ثقافة الكليّات المُغلّقة، والإعلان عن انتماءه لثقافة الخصُوصيّات المفتوحة.

ولأنّ الكتابات الغرافيتية خطاب تفاعلي يحدّث تَماسُه مع كافّة أبعاد الوعي الطّلابي⁶⁹⁶، (الفئوية، السّياسية، التعليمية، الاقتصادية والثقافية...). فالطالب حين يُعرِّف يُستدعي المكبوت المُتراكِم إمّا ليُعلنه للغير، وإمّا ليُعلنه أمام الغير. ومن ثمّ شكّلت ثيمتي الخصُوصية والاختلاف التي تطبع العلاقة بين الطالب (الأنا والنحن)، والآخر ('الهُو' والهُم') محورًا مركزيًا في المَتن الغرافيتي. ذلك لأنّ الغرافيتيا كما يؤكد "Futura 2000" على لسان الباحث "س. ه. فارناندو S. H. Fernando" شكلاً من أشكال الاتصال والتواصل، وسيلة اتصال مع الآخرين بواسطة نوع من الهوية المجهولة، والمخفية عمداً، بهدف إختلاق "الأنا المُغايرة Un Alter ego"، يتم تنميته تدريجيًا باستخدام الغرافيتيا، لينتقل لمرحلة إنتزاع تقدير واحترام الآخرين، ومن ثمة تحقيق

⁶⁹⁶ تُعرف "الموسوعة الفلسفية" الوعي: بوصفه حالة عقلية من اليقظة، يُدرك فيها الانسان نفسه وعلاقاته بما حوله من زمان ومكان وأشخاص، كما يستجيب للمؤثرات البيئية استجابة صحيحة.

الشُّهرة⁶⁹⁷. لكن، تفكيك سؤال العلائق بين الهوية وتماهاياتها مع الممارسة الجغرافية يستلزم "الانفتاح" على ما يُعْتَمَلُ في رِحَابِ الحقل الجامعي وخصوصياته، والمجتمعي ومميزاته، من قيم وممارسات وظواهر، وما يَتَأَسَّسُ في أُنْبِيَتِهِ من سُلْطِ تُرَاهِنٍ على واقع الطالب ومستقبله، وتُحَدِّد العديد من قضاياها وأسئلته مع باقي المؤسسات المجتمعية. فالجامعة ما هي إلا نموذج مُصَغَّرٌ يدخل في إطار تفكير طموح لترسيخ معالم الهوية الوطنية والمجتمعية المراد منها.

أ. علاقة الطالب بـ "الأخر":

الجغرافيتيا، فعل اجتماعي حاول -وما زال- من خلاله الطَّالِبُ تمرير خطاب (ورسائل Des messages) يُصَحِّحُ من خلاله بعض المفاهيم والرؤى والأحكام المُسَبَّقة، بما يكفل له الاعتراف والاحترام والتقدير، إبتداءً من إختلافه -أو خِلافه- مع زُملاء وزَميلات الفصل، ووصولاً لمحيطه الأسري والمجتمعي -وقد يحدث العكس-. حيث يصطدم بـ"عقليات أبوية" مُتَسَلِّطَة -وَمُتَكَلِّسَة في بعض الأحيان-. ولعل من أهم المضامين الجغرافية التي أُشِّرت على ذلك تلك التي "تحدّثت" عن طبيعة العلاقة(ات) بين الفاعل (الأنا) والفاعل (الأخر)، "الغير" بِتَعَدُّدِ نُعُوتِهِ. على نحو الكتابات العاطفية والغرامية أو الصِّراعية.. حيث مزجت ما بين المُرافقة الحميمية والمُواجهَة الصِّراعية. عاكسةً رغبة تجاوز التَّسَلُّط والعنف، والتَّغافل والتَّهميش.

فقد أعاد (الطالب) ترتيب مرجعيات وعناصر هويته المَنشُودَة- بلغة "م. كاستيلز Castells Manuel" "الهوية المشروع L'identité-projet"، من خلال الممارسة الجغرافية. يَكشِفُ وَيَكْتَشِفُ ذاته باستغلاله لسلطة الكتابة، وإختلاق وظيفة ثانية للدِّعَامَات التي تَحْمِلُهَا (فالوظيفة البيداغوجية للطاولة -مثلا- تحوَّرت لأداة للتعبير عن الهوية). فإستعرض علاقة تحريفٍ وَقَلْبٍ للأدوار والوظائف، فَبَعْدَمَا رُسِّمَت الكتابة كأداة للممارسة الأكاديمية الرَّسْمِيَّة تحولت /حوَّلت إلى كتابة مُتَنَصِّلَة- إلى حَدِّ ما- من القواعد الضَّبْطِيَّة الأكاديمية، سِوَاءٍ في الأسلوب أو البِنْيَة أو النُّحُو أو المضمون أو اللُّغة. رغم ذلك تبقى الجغرافيتيا ممارسة جادَّة وهادِفَة في مُعْظَمِهَا، تُواجِه واقع مُتَأَرِّم بأوضاعه ومشاكله المتراكمة، زيادة على أنماط التَّهميش.

وسواء أكان المُعْرِفُت (طالب أو طالبة)، فإنَّه يطمح إلى تسويق خطابٍ تحريضي، يَتَوَخَّى إشرارك كُلِّ من يُعاني التَّمييز والتَّهميش في المجتمع -خاصة الشُّباب منه-. حيث تَتَصَفُّ كتاباته بِكثافة وعمق الرِّسالة، في تبليغ المُبتَغَى، بما قَلَّ ودَلَّ. عن طريق إستثمار ترسانة من الكلمات

⁶⁹⁷ S. H. Fernando, "The new beats: Culture, musique et attitudes du hip-hop", traduit de l'anglais par Jean Philippe Henquel & Arnaud Réveillon, ed : L'Eclat, 2008, 318 p. (Google Books).

والرُموز المُتعدّدة، والمساعدة في تَهشِيم بعض الصُور الثّقافية المُتأكّلة (التقليدية)، وتُناوِر لِبُلُوغ ذلك، بتوظيف مُعْجَمٍ مُثِيرٍ وَفَعَالٍ -خاص بهم- قاصِدِين من وراء ذلك كُلِّهِ تَبْشِيرًا بِقِيم ثقافية طُلابية- وشبابية- جديدة وفاعِلة.

من هنا نَتَبَيَّنُ ما للجرافيتيا من وظيفة اجتماعية وسياسية وثقافية، وبالتالي هويّاتية، تَنزَع إلى "دَمَقْرَطة" بعض القِيم (وَفَق تصور الفاعلين)، والتَّقريب بين الأفراد، بعيدًا عن عقلية التّعالي التَّسَلُّط. هكذا، يتبيّن كيف تُواكب "الممارسة" بتعدّد أبعادها الأحداث والتّغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، وتُسهم في الإدلاء بِدَلْوِها -بل بِدَلَائِمِها- في المسائل الطّازجة، طامحةً إلى التّغيير بِ "طُرُق بسيطة"، نَزَاعَةً إلى التّأثير في الرّأي العام (الطّلابي والمجتمعي)، من أجل تَأْلِيهِه أو إرجاعه إلى مَجْرَاه الطّبيعي -كما يعتقد الطالب-. وإن بَدَت في ظاهِرها شكلاً من أشكال التّعبير الدّاتي، فهي في مضمونها تعبير عن الإنهجاسات الجماعية/ المجتمعية.

كما يَرُوم الفاعل من خلالها إيصال رسالة للمجتمع، مَفادُها "أَنَّ وَثائق ومرجعيات التّماهي الرّسمية التي من خلالها يَتِمّ تَصْنِيفَ وتعريف الأشخاص غير كاملة، أو غير مُعبّرة عن هويته الحقيقية، التي يجب أن تَأْخُذَ بعين الاعتبار "هويته الواقعية". إنّها -أيّ الممارسة- تَسْجِل غير رسمي لِمَلامح الهوية الطّلابية، مُقابل التّسْجِيل الرّسْمي (بطاقة التعريف، بطاقة الطالب، وغيرها من وثائق إثبات الهوية الرّسمية). مع الإشارة، إلى أنّنا لا نَقْصِدُ أنه تَخَلَّى عن هذه الأخيرة، وإنّما فَعَلَ بِطريقته الخاصّة وَثائق (الكتابة الجرافيتية وَحوامِلِها)، للتّعبير عن أبعاد هويته، التي يَعْتَقِد أنّها مناسبة له، ولوضعيّاته التّفاعلية، الآنية.

فأعاد التّجريب الجرافيتيا تنظيم النِّظام الهويّاتي (المتعارف عليه رسمياً واجتماعياً)، في الجامعة وفي المجتمع بِ"لا نظام جديد"⁶⁹⁸- الذي يُعْتَبَرُ نظام في تمثّل فاعليه. ففي هذا "اللانظام" (التّخريب، التّلوّث، الفوضى الجرافيتية)-كما يصفه مندوبو النظام الرّسْمي- يَنْدَسُّ نظام له خصوصيات مُعيّنة، نذكر منها:

• تجاوز -نسبي- للأطر اللّغوية المُلقّنة للطالب خلال مساره التعليمي (لغوية، نحوية، صرفية وإملائية).

• الخلط بين عدّة لغات/لهجات في بنية الكلمة أو الجملة الواحدة، ضمن ما يُسميه الدّارسون، ومن بينهم البروفيسور "ياسر سليمان" (بجامعة كامبردج)، بالمزج أو الخَلْط اللّغوي. إذ يتحدث عن

⁶⁹⁸ نستذكر مقولة "George Balandier" عندما يتحدث عن "chaologie" أو "L'ordre se cache dans le désordre".

انتشار ظاهرة العَرَبِيَّة (عربية + إنجليزية)، والعَرَبِيَّة (عربية + فرنسية)⁶⁹⁹. مما يجعل الجرافيتيا الطلابية، كتابة تَتَخَطَّى وتَتَجَاوَز حُدُود الكتابة التَّقْلِيدِيَّة والأكاديميَّة - لا نُشكُّ في أنَّ التَّجَاوَز مقصود-. لا مقدمة ولا توسيع وخاتمة، لا نقطة ولا فاصلة، ولا تَقْيُيد بقواعد النَّحو والصَّرْف والبلاغة. فلم يعد الأمر متعلِّقًا بتمثيل معقول-وفق عقلانية المؤسَّسات التَّعليميَّة- لأبعاد الحياة المعيشيَّة للطالب، بل مُلامسة عقلانية (طلابيَّة) للوجود الواقعي، الذي لا يمكن النَّفَاذَ إليه إلا من خلال هكذا كتابة جرافيتيَّة. حيث يتم استبدال النص الخَطِّي المُتَّصِل والمتجانس (جمل مفيدة كما تنعَمُها القواعد الرسميَّة) بكتابة جرافيتيَّة حُبْلَى بـ"الأخطاء" اللَّغويَّة والنَّحويَّة والصرفيَّة. أين تتشابك اللُّغات واللهجات، بحيث لم تُعدَّ الجرافيتيا مُجَرَّد مِرآة للواقع الخارجي، بل حتَّى للحياة الحميميَّة المسكوت عنها.

• غياب أو تَغْيِيب الخطوات المنهجية التي تلقَّها في طرح موضوع ما، أُسُوة بقواعد الكتابة الأكاديميَّة الرسميَّة، من مقدمة وتوسيع وخاتمة، التي تُنَشَّر عبر وسائط عدَّة، ويوصى بها -إلزامًا- في كتابة الرِّسائل بتعدد أشكالها ومواضيعها وتخصصاتها.

• إبتداع لُغة خاصَّة مُتَحَرِّرة من القواعد (الرسميَّة) في التعبير عن أبعاد محدَّدة من النفس البشريَّة، خاصة الجنس (بأسلوب مهذب وغير مباشر)، حيث يتم تنشئة الطالب على أسلوب يَتَّخِذ من الحذر والتَّحَوُّط والانتقاء أساس أيِّ حديثٍ عنه. إنَّها طريقة لإختلاق لُغة دخيلة داخل اللغة الأصليَّة كما يعتقد "جيل دولوز Gille Deleuze". بل إستراتيجيَّة للاستظهار وإسماع المستور والمقموع، وتحويل الغير مُفكر فيه لِمُفكر فيه. يتعلق الأمر بنمط إشتغال اللُّغة المكتوبة جرافيتيًّا، وآلياتها في تمثيل الوجود الطلابي، من حيث هو موجود في اللُّغة و باللُّغة، ومن خلالها يُعْرَف ويُتداوَل ويُستَهْلَك. فالكتابة -في عُمومها- ممارسة ثقافية في المقام الأول، وفعل حضور وتعبير عن الهوية (التَّماهي).

• محاولة الحديث عن مرجعيَّات الهوية الطلابيَّة وفق معايير تناسب خصوصيَّتها، قد تتجاوز معايير الهوية المنشودة من طرف المؤسَّسات الرِّسميَّة.

ومنه يمكن القول، أن الطَّلِبَة بممارستهم هذه، ابتدعوا نَسَقًا فرعيًّا (جرافيتيًّا)، للتَّعبير الحرِّ والمباشر، عن ملامح هويَّتهم الخاصَّة. حيث يشتغل هذا النَّسَق الفرعي، وفق رُموزٍ وطُقُوس غير مُعلَّنة وغير متعارف عليها من (رموز الكتابة الجرافيتيَّة ♥، مُعادلات الحب، و"طقس الكتابة" أو النَّقْش على الخشب بالمدور... وبعض قيم الانتماء للمجموعة المنشود تجاوزها في المقررات

⁶⁹⁹ طرَحَ ذلك خلال الملتقى السنوي للمجلس الأعلى للتعليم، المنعقد بالعربية السعوديَّة، 2009.

الرّسمية، كالصّراع مثلا. وأرقام وكلمات خاصة، تندرج ضمن مفردات القاموس الشّبابي، الذي تنفرد به هذه الفئة، والتي قد لا يفهمها سواهم، ولا يَفْكَ شِفْرَتَهَا إِلَّا شَابٌ مِثْلَهُمْ، أو من إنهّجس بالموضوع. وهي ظاهرة ليست بالجديدة، إذ غالباً ما يتحدث المختصون عن تَمَيُّزها بلغة ونمط معيشي خاص (ثقافة). ويُعلل سبب ذلك الدكتور "الميداني بن حويلي" المختص في فقه اللغة (جامعة الجزائر) أنّ إستعمال الشّباب لغة خاصّة هو نوع من الهروب من المجتمع، وعلى الكبار إحترام لُغَتِهِم الجديدة وعدم الاستهزاء بها طالما أنّها لا تتعارض مع الآداب العامّة في المجتمع.

ب. "الكتابات العارية" و"الكلام الشّوقي":

لعلّ أوّل ما يثير انتباه المتبصّر في البنية اللّغوية للكتابات الجرافيتية، هو الحضور الملفت للغة العاريّة المباشرة، المتصلة من عباءة الرّسميات في التّعبير، بحيث تتوافق مع "أخلاقيات" المجتمع (الرسمية والمجتمعية)، خاصة في أمور الجنس والعاطفة. وكأنّ الطالب المُعْرِفِ تَقَصَّدَ التّمرّدَ على أنماط التعبير الرّسمي المُعتمَد على إنتقاء الكلمات والتعبير، وأعاد الاعتبار للكلام الهامشي المُتَخَفِّي، حيث لا يمارس الرّقابة الدّاتية، ولا (يُطَهَّر) خطابه من (البذاءة والفُجور والسّفه -وفق المنظور الرّسمي والشّرعي-). بل عبّر بلُغة (كلمات وعبارات ورموز ورسومات) عارية، تعكس بشكل "ساخر ومكشوف" الوضع الطلابي اليومي، لجعل صوته الممنوع مسموع. كتابات تكشف النّقاب عن عوالمه الحميمية، وتستنطق رغباته المكبوتة، وتقول ما لا يُقال علناً، تقول الكّبت والحرمان والجنس. بل "تنتهك" المسكوت عنه، أو مُمْتَعَضٌ (من الامتعاظ) من يتكلم فيه.

وأحياناً يبدو أنّ "المُعْرِفِ" يبحث عن لغة متميّزة، لغة تستخدم و"تنتفع" من باقي اللغات. تخترق قواعد واصطلاحات التّواصل المتعارف عليها أكاديمياً رسمياً. وكأنّ علاقته باللّغة المكتوبة علاقة براغماتية، تعتمد الاستخدام المباشر لمختلف لغات التّواصل والتّوصيل. لعلها من نتائج العولمة الثقافية في أبعادها اللّغوية والثقافية (فرضية تحتاج لدراسة لتأكيدها). لكن، لماذا هذا الحضور المكثّف للغتين الفرنسيّة والإنجليزية؟

سؤال ليس من اليسير الإجابة عليه، أمام إنحصار الدّراسات حول الموضوع، لكن رأينا أن نقدم بعض الأفكار (افتراضات أكثر منها إجابات)، علّها تُصيب هدف الإجابة، لأن موضوع كهذا يحتاج لبحث مُستقل بذاته. كثيراً ما يؤكد الباحثون على العلاقة الوثيقة بين اللّغة والهوية⁷⁰⁰. باعتبار اللّغة من المقومات الأساسيّة لبناء الفرد وإعدادة للنظام الاجتماعي. إنّ حياة (هوية) أيّ مجتمع

700 للتفصيل يمكن العودة ل: جون جوزيف، "اللغة والهوية"، ترجمة الدكتور: عبد النور خراقي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم

حاضرة في لغته⁷⁰¹، والهوية اللغوية مرتبطة بالتفاعل اللغوي بين أفرادها. ولكن، إذا ما استدعينا مقولة "ابن خلدون"-عن اللغة- الذي يؤكد من خلالها "أن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلة بين اللغات صورة لمنزلة دولتها"، وبالملاسة الثقافية لهذه المقولة نستخلص أن العلاقة بين الثقافات علاقة أفضلية، قائمة على مدى مساهمتها في الحضارة الإنسانية، لأن اللغة وعاء الثقافات. ومنه يمكن تبرير وتأويل الحضور الملفت للغتين (خاصة في مسألة العاطفة والغرام، كرة القدم والمغنيين،..)، بالافتراضات التالية:

أ. ربّما لأتمها "ثقافة الحب والغرام" على الطريقة الأوروبية، النابعة من تأثير تنشئة وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وهي الأكثر حضوراً، فمصادر قيم ومعايير وسلوكيات العاطفة والجنس، تبقى مصادر أوروبية وأمريكية بالدرجة الأولى، ومؤخراً تركية وصينية، المهيمنة على الساحة الإعلامية، سواء داخل البيوت أو خارجها، خاصة الجامعة، باعتبارها بوتقة لالتقاء العديد من التجارب العاطفية والجنسية، لأسباب اشترنا لها سلفاً. والتي غالباً ما تُستعرض فيها "موضات الحب" (فكراً وفعالاً). نابعة من مرجعيات أوروبية، من خلال محتويات المنتج الثقافي الأوروبي المُسوّق عبر وسائل الإعلام والاتصال التقليدي والحديث.

ب. وربّما لضّعف التّسويق اللّغوي والقِيبي (الثقافي) الهادف للبعد العاطفي، وتَقهّر السّوق اللّغوية لهذا الأخير باللغة العربية، خاصة الخطاب المتعلق بالجنس، أمام الحضور المُكثّف للخطاب الفرنسي والإنجليزي، سواء المكتوب (كتب ومجلات)، أو السّمي البصري، من خلال ما يعرض في الأفلام والمسلسلات والأشرطة. وما أحدثته "الثورة الرقمية" في تيسير توصيل ذلك للمستهلكين (الشباب).

ت. دون أن نتغافل عن آثار العولمة (الثقافية اللغوية)⁷⁰² التي إنطلقت من مبادئ اقتصادية، لتتجاوزها للسياسة والثقافة والمجتمع واللغة، وبالتالي مرجعيات الهوية، كما يعتقد مانويل كاستيلز M. Castells. ولَمّا كانت العولمة هي الأمركة- كما يعتقد جل المفكرين- كانت الإنجليزية لغة العولمة. لغة هيأت لها دولها مكانة راقية، بتفعيل الإنتاج العلمي والثقافي (بكل ألوانه)، وتسويقه الكثيف بالإنجليزية-والفرنسية في المجتمعات المستهلكة، بعد إتكاؤها على وسائل

701 استعيد في هذا المقام مقال (عبارة) رائد حركة إحياء اللغة العبرية الحديثة المفكر اليهودي (الإسرائيلي) "إليازر بن يهودا Eliezer Ben Yehuda" التي قالها في نهاية القرن التاسع عشر "لا حياة لأمة دون لغة".

702 يمكن لتأثيرات العولمة أن تحمل طابعاً سلبياً، ففي مجال اللغة- مثلاً- يتحدث علماء اللسانيات عن مفاهيم متعدّدة ذات علاقة بظاهرة العولمة، على نحو: "الهيمنة اللغوية"، "الصراعات اللغوية"، "موت اللغة وانقراضها"، "اللغة العالمية". لكن هذا لا يعني عدم وجود نتائج إيجابية للعولمة تحتاج لمن يستجلي مظاهرها.

الاتصال الحديثة في نشر وتحقيق أهدافها ومراميها. أمام تراجع وتدني المنتوج الثقافي المحلي (العربي) بألوانه المختلفة.

مما سبق، يمكننا أن نزعم بأنّ "الكتابات الغرافيتية" عبارة عن فعل وجودي متميّز، يتشكّل على مبدأ الإنصات لتفاصيل وحيثيات "الأنا الطلابي" في تفاعلاته مع الواقع المُعاش بأبعاده المختلفة. إنّها (الغرافيتيا) تُمثل فعلاً طقوسياً للتّماهي، بحيث يُصرّف من خلالها "خُدوش" التّفاعل اليومي مع الآخر، خاصّة مع فاعلي المؤسسات الاجتماعية، وما تحمله من أوامر ونواهي، التي قد تتعارض مع خصوصياته الثقافية والانتمائية. ومنه يمكن القول أن الممارسة الغرافيتية تعبير عن إقصاء للصّمت، حيث تنعت وتُسمي الأشياء والأمر بمُسمياتها الواقعية، بل وتتجاوز سياق الطابوهات والممنوعات المجتمعية. إنّها خطاب طلابي حاضر، ونص ورسالة شاهدة على ثقافته وهويته، استقرت ملامحها على الحاملات 'كْمُسْتَنَد تَوْثِيقِي' مُهم.

كما يتضح اعتماداً على المضامين أنّ الفضاء الجامعي في ممارساته الرسمية "لم يرتقي" - بدرجة كافية- ليطموح كفضاء تنويري وتثويري للقضايا الخاصة بالطالب، كالجنس مثلاً. فضاءً عقلائيّ وحدائيّ في "ملاسته العلمية" لكل ما له علاقة بـ "الطابوهات" المتعدّدة الأشكال والمستويات. فضاء نُكاشف فيه نقائص "الأنا" و "الهو" و "النحن" و "الهئم"، بأسلوب نقدي. بل أضحى وسطاً يغلبُ عليه "السّمة التقليدية"، يُسائر ثقافة فضاءات التنشئة الاجتماعية التقليدية - إن صحّ التعبير- مع استمرار هيمنة التفكير الشعبي -بلغة "علي الكنز"- وتأويلاته المتعلقة بقضايا الفرد والجماعة⁷⁰³.

وبالتالي، يمكننا الزّعم بأنّ الطّلبة من وراء كهذا ممارسة يُعبّرون عن بادرة "تمرد غرافيتي" (كتابي) مُتحرّك فيه، لأنّه يمكن أن يتحوّل إلى تمرد غير مُسيطر عليه⁷⁰⁴، ولنا في التاريخ عبرة يا أولي الألباب، على نحو (ثورة الطلاب 1968 بفرنسا، اضطرابات 5 أكتوبر 1988، الربيع الأمازيغي (الأول والثاني)، أحداث 5 جانفي 2011 بالجزائر، وتطوّرات ما سُمّي بـ"الثورات أو الانتفاضات العربية"... فهل من رجلٍ رشيدٍ؟. فالكتابات عبارة عن تحدّي غير عنيف، وتجاوز مؤقت لبعض القوالب التّمطية "المغلوطّة" أو الغير مفهومة.

⁷⁰³ في ذات السّياق يؤكد الباحث "محمد هشماوي" بأنّ الجامعة الجزائرية لم تعد ذلك الفضاء المُتميّز عن المجتمع العام، ذلك لأنّها تفكر بنفس ميكانيزمات تفكير العوام من الجزائريين.

⁷⁰⁴ يصرح أحد الشباب الجزائريين، يلقب نفسه بـ "عمر الخيام" فيقول: أحببت الكتابة على الجدران حيناً.... ثم أمنت إحراق كل ما أكتب... فلا تعجبوا إن وجدتموني يوماً متلبساً بتهمة إحراق المدينة؟.♥.

♥Du:<http://www.forum-algerie.com/le-jardin-de-la-poesie/28659-graffiti-f.html>. Consulté:8/08/11.

كل ذلك يجعل من الممارسة الجرافيتية استراتيجية فعّالة لإعادة تركيب وترتيب مصادر وعناصر الهوية الطلابية، ومنه الشّبابية، والمعاني الممكنة لها، خاصةً في خِصَم تلاحق وتسارع إيقاعات العولمة. أين أصبحنا كما يؤكد "م. كاستيلز Manuel Castells" نعيش تنازع قوتين من أجل تحويل العالم وحياتنا، هما العولمة والهوية. لقد خلقت ثورة تكنولوجيا الإعلام وإعادة إنبناء الرأسمالية نمطاً جديداً من المجتمع، إنه مجتمع الشبكات...تخترقه الثقافة الافتراضية الواقعية...ويُكوّن فضاء تدفّقات، وزمناً غير زمني، تُعبّر كلها عن أنشطة مُهيمنة ونُخب مُسيّرة، لكن تُرافِقها في الآن نفسه تظاهرات قوية لهويات جماعية تأتي مُتحديةً العولمة والمواطنة العالمية، باسم الخصوصية الثقافية ومراقبة الأفراد لحياتهم وبيئتهم⁷⁰⁵.

مما سبق يمكننا إستشفاف بعض خصوصيات الثقافة الطلابية التي تُؤثّر مستويات الهوية الطلابية منها:

- الحضور الملفت -والقوي- لـ"فعل التّحرّاز"، كاستراتيجية فعّالة للتعامل مع القواعد التنظيمية للعملية التعليمية، بمختلف التخصّصات. تؤشّر على تصرف عقلائي استراتيجي مع النّظام القائم، وأوليات اشتغاله (الحصول على الرّهان-الشّهادة- بأقل جهدٍ مُمكن)، وفق مستلزمات الفعل العقلاني ذي الأهداف المُحدّدة.
- الحضور المكثّف للبعد الجنسي والعاطفي في الثّقافة الطّلابية المكتوبة، نتيجة ثقل القوالب النمطية الثقافية والاجتماعية اتّجاه المسألة.
- السّعي الحثيث لإنترع التّقدير الذاتي، أمام الآخر (القريب والبعيد).
- فعالية طوطم "كرة القدم" في تشكيل تمثّلات الطالب، وتَنميط سلوكياته، إتجاه الأنا والآخر.
- الرفض والاحتجاج، خاصيتان تَسِمَان الثقافة الطلابية.
- تفشّي العلاقة الرّفضية والصّراعية مع "الآخر"، خاصةً مع جيل الكبار (بتعدّد مُمثّليه)⁷⁰⁶. وكأنتنا أمام التّوصيف الذي عبّر عنه عالم الاجتماع "ألان تورين A. Touraine"، خلال لقاء علي⁷⁰⁷، عندما سأل يوماً مجموعة من الشّباب عن الفئات التي لا يُطيقونها، وما السّبب في ذلك؟.

⁷⁰⁵ Manuel Castells, "Le pouvoir de l'identité", Editions Fayard, 1999, p.11.12.

نقلا عن: عادل بن الحاج رحومة، "تنشئة الهويات الفردية عند الشباب عبر الفضاءات الاتصالية والمعلوماتية"، مجلة إضافات لعلم الاجتماع، العدد التاسع /شّتا 2010، ص 133. 146.

⁷⁰⁶ رغم التّلقين المُستمر بالمؤسسات التعليمية، بالوحدة والتعاون، وضرورة دحض عقلية العصبية والتشردّم.

⁷⁰⁷ ورد ذلك في حوارٍ أجراه معه "غستو بارونكو Gosto Barranco".

فأجاب أغلبيهم، بأنّ أكثر الفئات الاجتماعية التي يكرهونها، الشّرطة والمعلمين والمرشدين الاجتماعيين، لأنّهم يكذبون علينا، ويخدعوننا إذ يدعوننا للاندماج في مجتمع لا يقبل الاندماج.

• الحضور اللافت للطابع الشّعبي التقليدي (ثقافة المجتمع المحلي) في تنميط العلاقات الاجتماعية بالوسط الجامعي، الأفقية والعمودية. وضع يصفه الباحث "محمد هشماوي" بأننا عملنا على "تشريد الجامعة (La clochardisation de l'université).

• الإنهيار بـ"الهناك المؤسّط"⁷⁰⁸، خاصة على مستوى المضامين الجرافيتية التي تمجّد وتُصوّر 'ما وراء البحر' بـ"الجنان المفقودة"، لكنّها مرغوبة من طرف السّواد الأعظم من الجزائريين، خاصة الشباب منهم.

• محدودية فعالية بعض المرجعيات الهويّاتية "المنتقاة" والمطروحة ضمن البرامج التعليمية الرّسمية، أمام "جاذبية" مرجعيات "جديدة"، على نحو التّثيّم بالأندية والرياضيين (الأجانب)، والمغنيين والمُمثّلين.

هنا تنتهي رحلة اجتهادنا البحثي، نرجوا أن نكون قد إستوضحنا ولو جزء يسير بعض جوانب الاشكالية المطروحة.

708 "الهناك" كمقابل للـ"هنا" الجزائري. والمؤسّط، نسبة لعملية الأسطرة التي شكّلناها عن الضّفة الأخرى.

خاتمة عامة

(بدايات الانهjas البحثي بالظاهرة)

في ختام هذا العمل المتواضع نذكر أننا حاولنا من خلاله ملامسة أبعاد وملامح الهوية الطلابية من خلال مختلف "مُتُون الكتابات الجرافيتية" المنتشرة بمختلف تضاريس الفضاء الجامعي التلمساني، بمحاولة الإجابة على ثلّة من الأسئلة صغناهما كما يلي:

- ◆ يا تُرى، ما مضمون هذه "الكتابات الجرافيتية" (الخربشات) المنتشرة بالوسط الجامعي؟
- ◆ وما الدلالات السوسيو أنثروبولوجية التي يمكن إستشفافها من هكذا "مضامين"؟
- ◆ أليست هذه "الكتابات" تأكيداً على هويّة طلابيّة متميّزة؟
- ◆ ما أهمّ الأسباب الثاوية وراء إستفحال الممارسة الجرافيتية بالفضاء الجامعي؟
- ◆ ما دوافع إلتجاء الطالب لهكذا كتابة هامشية؟
- ◆ أليست صياغة طلابية خاصّة لمعالم هويّاتية متميّزة عن ملامح "الهوية المندشودة" من طرف المؤسسات التّنشئية والتعليمية الرّسمية؟

- ◆ لماذا هذا الحضور المكثّف "للمدّنس" على مستوى مضامين هكذا "كتابات"؟
- ◆ ألا يمكن القول أنّ "الفعل الجرافيتي" يؤشّر عن كوجيطو جديد "أنا أُغرّفت -أكتب الجرافيتيا- إذن أنا مَوْجُود" على صيغة الكوجيطو الديكارتّي "أنا أفكر إذن أنا موجود"؟
- ولمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة صغنا الإجابات المؤقتة (الفرضيات) التالية:

- تعبّر هذه "الكتابات" عن مضامين مُهندِسة لثقافة طلابية خاصّة.
- تعكس هكذا "كتابات جرافيتية" أبعاد هوية طلابية متميّزة بانتماءاتها المتعدّدة.
- "الكتابات الجرافيتية" إستراتيجية هوياتية للتعبير عن ملامح الهوية الطلابية.
- إنتشرت "الجرافيتيا" لعدم توافر قنوات تعبيرية ملائمة للطالب للتعبير عن خصوصياتهم الثقافية.
- ظهرت "الجرافيتيا الطلابية" كردّ فعل لسلطة المنع والتهميش التي يعاني منها الطالب داخل الفضاء الجامعي خاصة، والمجتمعي عامة.
- غلب المضمون "المُدّنس" نتيجة الطابع التّسلطي السائد في علاقات التّنشئة الاجتماعية المُمارّسة في المؤسسات التّنشئية المنوطة بهكذا وظيفة.
- إنبلّجت هذه "الكتابات" نتيجة إنحباس التّعبير الحر عن الخصوصيات الثقافية للطالب، بحجة الممنوع والحرام والعييب، المُترنحة ما بين ثنائية المقدس والمدّنس.

•التجأ الطالب "للفعل الجرافيتي" لإثبات إنوجاده وانتزاع الاعتراف من "الأخر".

عملياً تركّزت المرحلة الاستطلاعية على تجميع أكبر قدر ممكن من المعطيات الجرافيتية (الوحدات الجرافيتية)، من مختلف فضاءات الوسط الجامعي، والتي جئّت على العديد من الدعامات (الإسمنتية، الخشبية، المعدنية والزجاجية)، مع تكثيف القراءات لمختلف الأدبيات المتعلقة بالموضوع، بمختلف التخصصات العلمية (الأنثروبولوجيا، علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ والأركيولوجيا وعلم اللسانيات..). لننتقل للتصنيف والتفئّة، معتمدين على "المضمون"، حيث خلصنا لإحدى عشرة فئة أساسية، مع تفرّع بعضها لفئات ثانوية، وردت بالترتيب الموالي، (جرافيتيا التّحرّاز، الجرافيتيا العاطفية والغرامية، جرافيتيا تقدير الذات، كرة القدم أفيون الطلبة، جرافيتيا الجماعات الطلابية، جرافيتيا الاحتجاج الطلابي، جرافيتيا الصّراع مع الآخر، المغني النّاطق الرّسمي باسم الطالب، جرافيتيا الإشهار المجاني، جرافيتيا المراحيض Latrinalia، جرافيتيا متنوعة.

ليتجلّى فيما بعد، أنّها مضامين تؤشّر وتعكس ملامح ثقافة ومنه هوية طلابية مُتميّزة ومُميّزة. برزت في شكل كتابات هامشية، نتيجة سلطة (سُلط) المنع الاجتماعي المُمارَس من طرف مؤسسات التّنشئة الاجتماعية عامة، ذلك لأنّها تعتبرها (هذه التّحافة)، مسائل غير مسموح لها بالظهور العلني، لأنّها مسائل (لأخلاقية أو تُخلّ بقواعد النّظام الأخلاقي والقانوني التّنظيمي العام للمؤسسة الجامعية، وكذا باقي المؤسسات الاجتماعية. كما خلصت عملية التّحليل إلى أنّ ظاهرة الجرافيتيا باختلاف أشكالها وأنواعها، ومضامينها ودعاماتها، تعتبر "نَبْضًا واقعيًا" غير مُقبَرَك/ مُنَمَّق لواقع مجتمعا، ومنه عن أزماته -المُزمنة-، أو العارِضة، وأحلامه وانتظاراته، سواء على مستوى كلياني مجتمعي أو على مستوى خاص بأفراده. وذات اللحظة عن حصيلة (مردودية) مؤسسات التّنشئة الاجتماعية بأنواعها، ومختلف إختلالاتها الوظيفية.

كما كشفت هكذا "مُتُون جرافيتية" عن بعض "مناطق الظلّ والعتمة" بالوسط الجامعي خاصة، والمجتمعي عامةً. أيّ عن بعض مستويات "المسكوت عنه" داخل هذا الأخير (على مستوى النّقاش العلني الهادف). إذ يمكن إعتبارها مرآة عاكسة لواقع العلاقات التفاعلية (الصّراعية) المُعلنة والمُضمرة، القائمة بين "مُمثلي الملكية الشّرعية" للفضاء الجامعي وباقي "الفاعلين (الطلبة)" الباحثين عن "إعادة امتلاك" وهيمنة -ولو رمزيًا- وإعادة رسم حدوده، على حسب ما

تُمليه عليهم قيمهم ومعاييرهم الثقافية والهوياتية المتميّزة. ومنه تنكشف علاقة الفضاء المُرمّز والمُؤطّر (رسمياً) بالفضاء المُعاش والمأمول (والواقعي) للطلاب.

✘ لكن من المقصود من وراء هكذا "كتابات"؟.

التجأ الفاعل - (الطالب(ة)) - إلى الكتابة الجرافيتية كاستراتيجية للتعبير عن ما يُكُنّه صدره من إحترام أو إحترقار، أو تبجيل أو إمتعاض لشخص أو جماعة ما، وفي ذات الوقت يحاول إرسال رسائل بعضها مُشَقَّر للآخر، فحتّى الكلمات والرموز الغير مفهومة حسب إعتقادنا، يمكن الجزم أنّها رسائل متميّزة، يَفْقَهُها الفاعل المُعْرِف (الطالب(ة)). إنّها "لغة هيروغليفية" معاصرة كما أشرنا سابقاً، خاصّة بهم. إنّها مؤشّرات لـ"تمرّد جرافيتي" يبحث من خلالها عن "الاعتراف الهويّاتي" لذاته ولجماعته، كما يؤكد ذلك "جيل بوديني Gille Boudinet"⁷¹¹.

ومن هنا، يرتقي "الفعل الجرافيتي" من المستوى الفردي إلى الجماعي عندما تَسْتثير رسالة ما الطرف الآخر، ويندفع للردّ عليها فيُعْرِف فوقها أو بجانبها أو أسفلها، فيتشكّل نوعاً من الحوار، تَنَجَّرُ ونسُميه بـ "الحوار الجرافيتي Le dialogue graffitique" الغير مباشر. قد يأخذ ألوّناً متعدّدة، منها الصّراع أو الرّفص، أو القبول⁷¹² ... "ثيمات" العديد من القضايا المشتركة بين الفاعلين، خاصّة المسائل التي تتضاعف حولها سلطة المنع بأنواعها المتعدّدة. فالفاعل (المُعْرِف) رامّ تبليغ رسائل "هامّة" لثلاثة مستويات:

✦ للأنا: قصد التّنفيس عمّا يُضنك حياته المعيشية.

✦ للنّحن: للجماعة المرجعية أو الانتمائية (المناطقية، الطلابية)، بهدف التّشهير (الايجابي أو السلبي) بمعالم الهوية الجماعية، ومنه الإعلان عن تحدّيه لكل من يقف أمام تحقيق ذلك.

✦ للآخر: الفرد، الجماعة، المجتمع، لمطالبة بضرورة احترام خصوصياته الثقافية والهوياتية.

كما إتّضح من خلال المضامين الجرافيتية مؤشّرات مواقف -منحرفة نسبياً- عن المرامي الرّسمية للمؤسسة الجامعية، فرغم الأهداف -المُقنّعة إلى حدّ ما- والرّامية لترويج بعض أنماط التّماهي،

⁷¹¹ Gille Boudinet, "Tags, rites de passages: Vers la proposition d'une " trans-culture ", l'Institut français de l'Éducation, 2004. <http://www.inrp.fr/biennale/5biennale/Contrib/Long/L57.htm>. Consulté le : 11/10/2009.

⁷¹² تعتقد عالمة النفس الأمريكية "كارين هورني K. Horney" بأنّ الإنسان في مساعيه لإشباع حاجاته ضمن علاقاته الإنسانية، لا يخرج عن الاتجاهات الثلاثة في تحركه اتجاه الآخرين، فهو إمّا أن يتحرك نحوهم، تدفعه الحاجة إلى الحب والانتماء، أو يتحرك بعيداً عنهم تدفعه الحاجة إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتي، أو يتحرك ضدّهم تدفعه الحاجة إلى القوة والسيطرة. (هول Hall وآخرون، 1969).

وَنَمَدَجَتْهَا عَلَى أَنَّهَا "النَّمَاذِجُ الْمَثَالِيَّةُ" لِذَلِكَ. وَرَغْمَ سُلْطَةِ الْكَوَائِحِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، تَمَكَّنَ الطَّالِبُ مِنْ خِلَالِ "هُتَافِهِ الصَّامِتِ" (فَعَلَ الْغِرَافِيَّتِيَا) أَنْ يُعْلِنَ عَنْ مَوَاقِفِهِ مِنْ قَضَايَا اجْتِمَاعِيَّةِ، سِيَاسِيَّةِ، تَعْلِيمِيَّةِ، عِلَاقَاتِيَّةِ، غِرَامِيَّةِ وَجِنْسَانِيَّةِ،... "مَوَاقِفِ" اِتَّسَمَتْ فِي طَابِعِهَا الْعَامِ بِالْانْحِيَاذِ النَّسْبِيِّ عَنْ تَوْصِيَّاتِ الْخِطَابِ الرَّسْمِيِّ الْمُرَوَّجِ لَهُ رَسْمِيًّا. حَيْثُ انْتَقَلَ "الطَّالِبُ الْمُغْرِفْتُ" مِنْ مَسْتَوَى مُسْتَهْلِكِ لِلخِطَابِ إِلَى مُخَوَّرٍ لَهُ، بَلْ وَمَنْتَجٍ لِخِطَابٍ آخَرَ، وَمِنْهُ لِمَعَالِمِ وَمَرْجِعِيَّاتِ هَوِيَّاتِيَّةِ مَتَمَيِّزَةٍ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ "إِسْتَفْزَازِيَّةِ" لِمَعَالِمِ الْهَوِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ الْمَنْشُودَةِ. كَمَا تَمَكَّنَ مِنْ اِبْتِدَاعِ وَظِيْفَةِ ثَانِيَّةِ -مُضَمَّرَةٍ Latente بلغة "روبرت ميرتون Robert Merton"- لِلدَّعَامَاتِ الْغِرَافِيَّتِيَّةِ الْمَحِيْطَةِ بِهِ، إِضَافَةً لَوْظِيْفَتِهَا الْبِيْدَاغُوْجِيَّةِ (الْجَلِيَّةِ Manifeste).

فِي الْخِتَامِ، سَنَحَاوِلُ تَعْدَادَ بَعْضِ الْاِقْتِرَاحَاتِ وَالْمَوَاضِيْعِ، الَّتِي نَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَحْتَاجُ لِنَفْعَالِ دِرَاسَاتٍ عِلْمِيَّةٍ جَادَّةٍ، جَرِيئَةٍ وَفَعَّالَةٍ، بَغِيَّةِ الْفَهْمِ الْعِلْمِيِّ لِلْمَسْأَلَةِ (الْهَوِيَّةِ) الطَّلَابِيَّةِ وَالشَّبَابِيَّةِ، بِكُلِّ أِبْعَادِهَا.

- بَدَاءًا بِضُرُورَةِ التَّأْسِيْسِ الْفِعْلِيِّ وَالْجَادِ لِسُوسِيُولُوْجِيَا تَخْصِيصِيَّةٍ، تَهْتَمُ بِمَخْتَلَفِ الظُّوَاهِرِ الَّتِي لَهَا عِلَاقَةٌ بِالشَّبَابِ، وَالَّتِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَقَدِّمَ إِجَابَاتٍ عِلْمِيَّةٍ عَنْ أَسْئَلَةٍ وَقَضَايَا "هُؤُلَاءِ"، بِاعْتِبَارِهِمْ فِئَةٌ عُمُرِيَّةٌ تَحْتَلُّ -بَلْ يَجِبُ أَنْ تَحْتَلُّ- مَكَانَةً بَارِزَةً فِي التَّرَاتِيْبِيَّةِ الْمَجْتَمَعِيَّةِ، وَمِنْهُ فِي أَجَنْدَةِ السِّيَاسَاتِ التَّنْفِيْدِيَّةِ، سِوَاءِ بِالنَّظَرِ إِلَى حُضُورِهَا الْكَمِّيِّ (نِسْبَةِ الشَّبَابِ دَاخِلِ الْمَجْتَمَعِ)، إِذْ تَعْتَبِرُ طَاقَةَ اِبْتِجَاعِيَّةٍ مَهْمَةً لَوْ أَحْسَنَ تَوْجِيْهِهَا وَاسْتِثْمَارِهَا، أَوْ قُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ مَعْتَبَرَةٍ، أَوْ اِحْتِيَاطِ اِبْتِخَابِيٍّ لَا يَجِبُ التَّفْرِيطُ فِيهِ. مِمَّا يَسْتَلْزِمُ الْاِنْفِتَاحَ عِلْمِيًّا وَسِيَاسِيًّا عَلَى إِشْكَالَاتِهَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِعَوَائِقِ الْاِدْمَاجِ/ الْاِنْدِمَاجِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ مَعَ بَاقِيِ الْمَوْسُوسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، ذَلِكَ قَصْدٌ بَلُوْغٌ إِجَابَاتِيٌّ وَافِيٌّ وَمَقْنَعَةٌ لِلْأَسْئَلَةِ الْمَتَشَعْبَةِ، وَالَّتِي تَعْتَبِرُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، رَهَانَاتٍ يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهَا بِجَرَأَةٍ مَنَهْجِيَّةٍ.
- تَوْفِيرِ وَتَفْعِيلِ قَنَوَاتٍ وَوَسَائِلِ تَعْبِيرِيَّةٍ تَوَاصِلِيَّةٍ، تَسْمَحُ لِلشَّبَابِ/الطَّلَابِ بِالتَّعْبِيرِ -الْحُرِّ- عَنْ كُلِّ مَكْبُوتَاتِهِ وَأَرَائِهِ وَأَمَالِهِ وَطَمُوحَاتِهِ الْخَاصَّةِ، وَمِنَاقَشَتِهَا نِقَاشًا بِنَاءً، لِ"اِقْنَاعِهِ" بِضُرُورَةِ التَّخْلِيِّ عَنْ بَعْضِ الْأَفْكَارِ الَّتِي لَا تَخْدُمُ "مَصْلَحَةَ" الْمَجْتَمَعِ الْجَزَائِرِيِّ، لَكِنْ دُونَ تَغْيِيْبِ تَقْدِيرِ وَاحْتِرَامِ خُصُوصِيَّاتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، بُغْيَةً تَفَادِيِ الْعَوَاقِبِ الْغَيْرِ سُوِيَّةِ، كَظَاهِرَةِ الْعَنْفِ وَالتَّعَصُّبِ بِأِبْعَادِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، الَّتِي مَا فَتَنَتْ تَنْتَشِرُ كَثَقَافَةً تَعْبِيرِيَّةً عَنْ أَدْنَى الْمَطَالِبِ، وَلِنَا فِي الْأَحْدَاثِ السَّالِفَةِ الذِّكْرُ

- عبرة لمن يعتبر⁷¹³. زيادةً على ذلك، كشف لنا تاريخ المجتمعات بأنّ الثقافات "الاستعلانية" ذات التفكير الأحادي، التي ترفض الحوار مع "الأخر" (القريب والبعيد) قد زالت واندثرت.
- تكثيف الدّراسات المتعدّدة/المتشاركة التّخصصات لموضوع "الهوية" بكل مستوياتها وأنواعها وعناصرها في المجتمع الجزائري، لأنّها فعلاً مشكلة القرن الحالي.
 - توسيع الإستنارة البحثية حول "ظاهرة الغرافيتيا" خارج الفضاء الجامعي، في باقي مؤسسات المجتمع (المؤسسات المفتوحة والمغلقة على حدّ سواء)، للكشف عن الاختلالات الوظيفية لكل مؤسّسة على حدى، لأنّها فعلاً "بارومتر" لقياس ذلك.
 - أفراد كل "مضمون" من مضامين الغرافيتيا الطلابية ببحثٍ مستقل متقاطع التّخصصات العلمية.
 - تفعيل دراسات مُقارِنَة بين "الغرافيتيا الذكورية" و "الغرافيتيا الأنثوية"، ولعل أهم مكان لذلك "المراحيض" باعتبارها وسطاً يمكن التّفريق بين الجنسين، لاستجلاء خصوصية ثقافة كل "جندر".
 - تعميق المعرفة العلمية "المحلية" حول طبيعة العلاقة(ات) بين جيلي الآباء والأبناء، لأنّ الأحداث الأخيرة (عربياً) دحضت أسطورة "الكبار يعرفون الصّغار، على وزن المثل الشعبي: (اللّي فَايتكُ بليّة فَايتكُ بَحيلة).
 - تفعيل دراسات جادّة تناقش المسألة الجنسية/الجنسانية، بل وتخصيص "مقرّرات تعليمية" حولها.
 - ضرورة إعادة النّظر في "مبدأ التّقييم/التقويم" المعتمد خلال الامتحانات، وتأثيره على عملية التّحصيل العلمي، بدءاً من المستويات القاعدية (الابتدائي والإكمالي الثانوي ثم الجامعي).
 - الكشف عن مناطق الظّل والعتمة الخاصة بالنظام الجديد (LMD)، باستجلاء نقائصه واعتلالاته، بدون مهادنة ومجاملة.
 - البرهنة والتّرويج لفعالية الطرق الحوارية/التّقاشية في حل المشاكل التي تعترضنا.
- وفي نهاية المطاف، يتبين أنّ ظاهرة الغرافيتيا الطلابية لم تكن سلوكاً عبثياً وطيشاً، وإنّما فعل واع مقصود، يرمي من ورائه الفاعل (الطالب) للتّعبير عن ملامح ثقافته وهويته الخاصة. بل "استراتيجية هويّاتية" فعّالة لتمثيل ملامحه الهوياتية.

⁷¹³ نقصد أحداث 15 أكتوبر 88، و معاناة العشرية السوداء (الحمراء)، ومؤخراً أحداث 5 جانفي 2011، وباقي السلوكات العنيفة التي لا تكاد تُقَرُّ يوماً، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، في التعبير عن أبسط المطالب.

ورغم النتائج المتوصل إليها، يجب التذكير أن البحث ما هو إلا اجتهاد تأسيسي، علّه يكون لغيرنا حافزاً قوياً- للمواصلة فيه، في أفق إستكمال التأسيس العلمي للظاهرة بالمجتمع الجزائري، ومنه لسوسيولوجيا الشباب/الطلبة عامّة، خصوصاً وأنّ المسألة الطلابية/الشبابية في أبعادها الثقافية والهوياتية ما زالت بعيدة عن الاحتواء والفهم الموضوعي. فلو انتظرنا -كما يقول أحد المفكرين- كلّنا بلوغ الكمال، فلن ندرس أيّ موضوع كان، لذا إسترخ وتمتّع بما أنجزت. لكن ينبغي أن نذكر أولاً بقضية ابستمولوجية مهمة، وردت على لسان الدكتور "جمال غريد"⁷¹⁴، مفادها أنّ الواقع الاجتماعي هو دائماً أكثر ثراءً وتشعباً، من ترجمته البحثية العلمية، فالأمور لا تُعتمَل على أرض الواقع حسب الثنائية المجردة، فلا وجود أصلاً في المجتمع للتقسيم البسيط والساذج بين الأبيض والأسود، وإنّما الوجود لكل ألوان الطيف، غير أنّ ما يهم الباحث هو اللون الغالب، لأنّه هو الذي يعطي للواقع المدروس صيغته المميزة.

⁷¹⁴ مداخلة بالملتقى الدولي: النخب والمجتمع في العالم العربي، حالنا الجزائر ومصر، بعنوان: الجزائر، ثنائية المجتمع وثنائية النخبة الجذور التاريخية، المنعقد بمدينة تيمون، الجزائر، أيام 23/24/25 مارس 2002.

قائمة المصادر والمراجع

(الببليوغرافيا/ الويبليوغرافيا (Webliographie):

• المصادر والمراجع العربية: (هذه أغلب المراجع المعتمدة، مرتبة ترتيباً ألفبائياً).

• المعاجم والقواميس والموسوعات:

- 1- البهجوري، كريمة، "الموسوعة الجنسية"، القاهرة، مكتبة الهلال للنشر والتوزيع، 2010.
- 2- الجوهري، عبد الهادي، "قاموس علم الاجتماع"، الطبعة الثانية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1998.
- 3- الصّالح، مصّاح، "الشامل: قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية"، انجليزي عربي، مع تعريف وشرح المصطلحات، الرياض، دارعالم الكتب للطباعة والتوزيع، 1999.
- 4- الكرمي، حسن سعيد، "معجم المنار، إنجليزي، عربي"، مكتبة لبنان، 1970.
- 5- المصري، ابن منظور الإفريقي، "قاموس لسان العرب"، بيروت، دارصادر، المجلد السادس، 1990.
- 6- بدوي، أحمد زكي، "معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية" بيروت، مكتبة لبنان، 1977.
- 7- بودون، ريمون & بورّيكو، فرانسوا، "المعجم النقدي لعلم الاجتماع"، ترجمة: الدكتور سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.
- 8- بينيت، طوني & غروسبيرغ، لورانس & موريس، ميغان، "مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع"، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2010.
- 9- دينكين، ميشيل، "معجم علم الاجتماع"، ترجمة: إحسان محمد حسن، بيروت، دار الطليعة، 1981.
- 10- زيعور، علي، "الموسوعة الفلسفية العربية"، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1986.
- 11- غيث، محمد عاطف، "قاموس علم الاجتماع" دار المعرفة الجامعية، 2006.
- 12- مدكور، إبراهيم، (تصدير)، "المعجم الفلسفي"، القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1983.

• الكتب:

- 1- الجزائري، محمد بن عبد الكريم، "الثقافة ومآسي رجالها"، شركة الشهاب الجزائر، د.س.ن.
- 2- الجوهري، محمد، وآخرون، "الأنثروبولوجيا، بحوث نظرية وتطبيقات علمية"، القاهرة، دار المعارف، 1980.

- 3- العربي، ولد خليفة محمد، "المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية: مساهمة في تحليل وتقييم التربية والتكوين والبحث العلمي"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989.
- 4- القديمي، نواف، "الإسلاميون.. سجل الهوية والنهضة"، بيروت/الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2008.
- 5- المرينسي، فاطمة، "ما وراء الحجاب، الجنس كهندسة اجتماعية"، ترجمة فاطمة الزهراء أزرويل، الطبعة الرابعة، المغرب، المركز الثقافي العربي ونشر فنك، 2005.
- 6- أونج، والتر، "الشفاهية والكتابية"، ترجمة: حسن البنا عز الدين، الكويت، سلسلة عالم المعرفة العدد 182، 1994.
- 7- بارث، رولان، "لذة النص"، ترجمة: فؤاد الصفا، الحسين سحبان، المغرب، الدار البيضاء، دار توبقال، 1988.
- 8- بورديو، بيار & باسرون، جان كلود، "إعادة الإنتاج ، في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم"، ترجمة "ماهر تريمش"، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2007.
- 9- تومسون، ميكل، وآخرون، "نظرية الثقافة"، ترجمة: علي سيد الصاوي، الكويت، عالم المعرفة، العدد 223.
- 10- جيدنز، أنتوني، "مقدمة نقدية لعلم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون، القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، 2002.
- 11- جوزيف، جون، "اللغة والهوية: قومية، إثنية، دينية"، ترجمة: عبد النور خراقي، الكويت، عالم المعرفة، ع342، 2007.
- 12- حداد، سالم، "صراع الهوية بين الأنا والآخر: المغرب العربي نموذجاً"، المغرب، الأطلسية للنشر، 2000.
- 13- خليل، أحمد خليل، "الشعارات والصحافة الجدارية في كتابة مبنى الأسطورة"، دار الحدائق، بيروت، 1979.
- 14- خليل نوري، مسيمر العاني، "الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية"، بغداد، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة ، ديوان الوقف السني، 2009.
- 15- دراج، أحمد السيّد، "صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية"، جدة، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، دارالأصفهاني، 1980.

- 16- ديبار، كلود، "أزمة الهويات ،تفسير التحول" ،ترجمة رندة بعث، المكتبة الشرقية، 2008.
- 17- ريكو، بول، "الذات عينها كآخر"، ترجمة: جورج زيناتي،، لبنان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة ، 2005.
- 18- سموك، علي، "إشكالية العنف في المجتمع الجزائري، من أجل مقارنة سوسيولوجية"، الجزائر، عنابة، جامعة باجي مختار، مخبر التربية والجريمة في المجتمع، 2006 .
- 19- شايغان، داريوش، "أوهام الهوية"، ترجمة محمد علي مقلد، بيروت، دار الساقى، 1993.
- 20- علي، نبيل،"الثقافة العربية وعصر المعلومات"، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 265، 2001.
- 21- عوض، عباس محمود، "المدخل إلى علم نفس النمو: الطفولة-المراهقة- الشيخوخة"، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1999.
- 22- عوض، كمال سالم، "مكتوب على جدران التوك توك"، بحث اجتماعي ساخر، مصر، كتاب اليوم، السلسلة الثقافية، 2011.
- 23- غريد، جمال، (منسق ومقدم أعمال ندوة)، "الجامعة اليوم"، الجزائر، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC)، ماي 1998.
- 24- غيرتز، كليفورد، "تأويل الثقافات: مقالات مختارة"، ترجمة الدكتور محمد بدوي، لبنان، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2009 .
- 25- فارني، جان بيير، "عولمة الثقافة"، ترجمة: عبد الجليل الأزدي، الجزائر، دار القصة للنشر، 2003.
- 26- كوبر، آدم،"الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي"، ترجمة: تراجي فتحي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 349، 2008.
- 27- كوش، دونيس،"مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية"،ترجمة: د. منير السعيداني، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2007.
- 28- كومبز، فيليب، "أزمة التعليم في عالمنا المعاصر"، ترجمة: أحمد خيرى كاظم، الدكتور جابر عبد الحميد جابر، القاهرة ، دار النهضة، 1981.
- 29- كنج، روجر وآخرون، "الجامعة في عصر العولمة"، ترجمة: فهد بن سلطان السلطان، الرياض، مكتبة الملك فهد، الوطنية، 2008 .

- 30- محمد، إبراهيم & محمد، طارق، "شعارات الانتفاضة"، المركز الفلسطيني للإعلام، 1991.
- 31- محمد العربي ولد خليفة، "المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية"، مساهمة في تحليل وتقييم نظام التربية والتكوين والبحث العلمي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1989.
- 32- محمد حسن، برغثي، "الثقافة العربية والعولمة، دراسة سوسيولوجية لأراء المثقفين العرب"، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007.
- 33- محمد، سليمان، "إعلام الانتفاضة تكاملية الأداء، فاعلية الإنتاج"، نيقوسيا، النهضة برس، 1991.
- 34- مرسي، محمد منير، "التعليم الجامعي المعاصر قضاياها واتجاهاته"، القاهرة، دار النهضة المصرية، 1977.
- 35- مطر، سليم، "الذات الجريحة، إشكالية الهوية في العراق والعالم العربي(الشرقمتوسطي)"، طبعة رابعة، جنيف-بغداد، مركز دراسات الأمة العراقية-ميزويوتاميا، دار الكلمة بيروت، 2008.
- 36- معلوف، أمين، "الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء والعولمة"، ترجمة د. نبيل محسن، سورية، دمشق، ورد للطباعة و النشر و التوزيع، 1999 .
- 37- منير، غسان سنو & الطراح، علي أحمد، "الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام: دراسات في إجراءات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية العالمية"، بيروت، دار النهضة، 2002.
- 38- ميكشيللي، ألكس، "الهوية"، ترجمة علي وطفة، دمشق، دار الوسيم للخدمات الطباعية، 1993.

• المقالات:

- 1- البقاعي، مرح، "بين البيولوجي والثقافي.. سينما الهويات"، مجلة أدب وفن، (مجلة ثقافية إلكترونية، 2007: <http://www.adabfan.com/cinema/712.html>، تاريخ الاطلاع: 11/4/13).
- 2-،، "عصابات الغرافيتي...والجداريات"، الحوار المتمدن، العدد 1023، 2004. الموقع: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=26837. تاريخ الاطلاع: 09/9/18.
- 3- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، "الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة". الموقع http://islamtoday.net/files/w_e_di/P_9.htm#1. تاريخ الاطلاع: 12/3/3.
- 4- الثبتي، مليجان معيض، "الجامعات، نشأتها، مفهوما، وظائفها، دراسة وصفية تحليلية"، المجلة التربوية، الكويت، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، ع54، 2000، صص 211-255.

- 5- الجابري، محمد عابد، "سؤال الهوية في العالم العربي". النشر الإلكتروني:2010/03/23،
http://www.aljabriabed.net/identite_arabe.htm، تاريخ الاطلاع: 2011/03/07.
- 6- الخويلدي، زهير، "هوية الشخص وثقافة الآخر"، ملتقى ابن خلدون للعلوم والفلسفة والأدب.
http://ebn-khaldoun.com/article_details.php?article=317، تاريخ الاطلاع: 11/04/8.
- 7- السباعي، جمال، "جداريات الثورة.. رسائل الثوار"، النشر الإلكتروني: 11/5/11. بالموقع:
<http://www.freemisurata.com/vbnow/content.php?r=341>، تاريخ
 الاطلاع: 2011/6/8.
- 8- الطائي، عباس، "آفات اللغة والهوية"، بالموقع: www.ahwazstudies.org، تاريخ الاطلاع:
 2010/06/02.
- 9- النقاش، فريدة، "العرب والهوية"، مجلة العربي الكويتية، ع 515، أكتوبر 2001، ص ص 90-96.
- 10- النقرى، معن، "في نظرية الثقافة وتعريفها"، مجلة الموقف الأدبي، مجلة أدبية شهرية تصدر
 عن اتحاد الكتاب العرب، بدمشق، العدد 378، تشرين الأول 2002. الموقع:
<http://www.awu-dam.org/mokifadaby/378/mokf378-023.htm>، تاريخ الاطلاع: 11/2/2.
- 11- النقيب، خلدون، "المشكل التربوي والثورة الصامتة"، بيروت، مجله المستقبل العربي، 1993،
 ص ص 65-69.
- 12- إنميرات، عبد العزيز، "هويتنا الثقافية في خضم تحولات العولمة.. من الاختراق إلى الممانعة"
 مجلة الكلمة، العدد 21، السنة الخامسة، خريف 1998.
- 13- بدودو، محمد، "بيير بورديو والسوسيولوجيا"، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، ع 8،
 1986، ص ص 102-108.
- 14- بنعبد العالي، عبد السلام، "جدوى الكتابة"، 2009. بموقع: <http://www.alawan.org>، تاريخ
 الاطلاع: 11/3/31.
- 15- بوتشيش، إبراهيم القادري، "حول مفهوم الهوية ومكوناتها الأساسية"، بالموقع الإلكتروني:
<http://histoire.maktoobblog.com/1152534> . تاريخ الاطلاع: 2009/6/14.
- 16- حمود، محمد، "قراءة في خطاب هامشي..."، الحياة الثقافية التونسية، وزارة الثقافة
 التونسية، عدد مزدوج: 68/67، 1994، ص ص 39-44.

- 17- خولة، طالب إبراهيمي، "من الثانوية إلى الجامعة، بين لغة التدريس والموقف من المعرفة. جامعة تبحث عن نفسها! طلبة أم تلاميذ؟!"، الجامعة اليوم:(أعمال ندوة)، تنسيق وتقديم: جمال غريد، منشورات CRASC، ماي 1998، ص ص 61-72.
- 18- رمعون، حسن، "الجامعة نتاجاً ورهاناً مؤسساتياً: حالة الجزائر والعالم العربي"، مجلة إنسانيات، العدد 6، سبتمبر- ديسمبر، 1998، ص ص 51-63.
- 19- شراك، أحمد، "أسئلة الجغرافيتيا من الدلالات إلى الخطاب" الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب دمشق، العدد 3954، آذار 2004.
- 20- —، —، "الجغرافيتيا والكتابة"، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 411، تموز 2005، ص ص 75-96.
- 21- عدلي، هويدا، "العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا"، مجلة دراسات، السنة الثالثة، العدد 11، طرابلس، 2002، ص ص 71-73.
- 22- محمد، باقر جاسم، "الهوية الوطنية: محاولة في التعريف الوظيفي". موقع البلاغ: <http://www.balagh.com/islam/u10s34a5.htm> ، تاريخ الاطلاع: 2011/03/06.
- 23- هول، ستيوارت، "حول الهوية الثقافية"، ترجمة: بول طبر، مجلة إضافات، العدد الثاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ربيع 2008، ص ص 137-174.
- مقالات الصحف والجرائد:
- 1- السعيداني، المنجي، "تونس: حديث الجدران، معرض يُؤرّخ لمطالب الثورة"، جريدة الشرق الأوسط، العدد 11798، 18/3/2011.
- 2- المشعان، خالد، "الثورة السورية: من الكتابة على الجدران إلى الكتابة على صفحات التاريخ"، جريدة القدس العربي، (مدارات)، العدد 6750، بتاريخ 13 أبريل 2011.
- 3- برجاي، زينة، "الكتابة على جدران حمامات الجامعات: إنه الهُتاف الصّامت"، جريدة السفير، العدد: 10796، 10/9/2007.
- 4- جمال الزرن، "الكتابة على الجدران والفضاءات الاتصالية "المهمشة"، الأيام البحرينية، ملحق رؤى الثقافي، 2006/9.
- 5- حجار، بسام، "الشّعارات على الجدران، حروب الغثيان وأخطاء الإملاء"، الحياة، 9557، 1989.

- 6- زقاري، أحمد، "تطورات الكتابات الحائطية المسيئة لأمين نقابة عمال أرسيلور"، الشروق اليومي، ع2990، 2010/7.
- 7- مطاوع، أنمار، "الكتابة على الجدران.. وسيلة الإعلام الحجرية"، جريدة عكاظ، العدد 2261، 2007/8/26.
- 8- "حرب الشعارات تنطلق على الجدران.. بين بَخَاخِي"، الثورة والنظام"، جريدة الشرق الأوسط (الصادرة من لندن)، العدد 11964، 2011/8/31.

• البيبليوغرافيا و الوابليوغرافيا **Webliographie** باللغات الأجنبية:

• **DICTIONNAIRES ET ENCYCLOPEDIES:**

1. ANSART, Pierre, "Le **ROBERT, Dictionnaire de Sociologie**", Coll. Dictionnaires Le Robert /Seuil, Editeur : Le Robert ,1999 .
2. Delarge, Jean-Pierre, "**Dictionnaire des Arts Plastiques modernes et contemporains**", Editions Gründ, 2001.
3. "**Encyclopedia Encarta**", 2006.(CD).
4. " **Encyclopedia Universalis**", 2011. (DVD).
5. "**LAROUSSE**", Dictionnaire Encyclopédique Illustré, 1998.
6. "**The Columbia Encyclopedia**", sixth edition, 2000. (DVD).

• **LIVRES**⁷¹⁵:

1. ABELL, Ernest L; Buckley. Barbara E, "**The handwriting on the walls. Toward a sociological and psychological of Graffiti**", Greenwood Press, 1977.
2. AUSTIN, Joe, "**Taking the train: How graffiti art became an urban crisis in New York city**", Columbia University Press, 2001.
3. BAUDRILLARD, Jean, "**Kool killer ou insurrection par les signes**", éd: les partisans du moindre Effort, 2005.URI:http://www.lpdme.org/projects/jean_baudrillard/koolkiller.html. Consulté le:4/7/2010.
4. BILODEAU, Denyse, "**Les murs de la ville**", Montréal, ed: Liber, 1996.
5. CHANG, Jeff, "**C'ant stop won 't stop: une histoire de la génération hip hop**", traduit de l'anglais par Héloïse Esquié, Paris, éd: Allia, 2006.
6. CARRIER, Hervé, "**L'université entre l'engagement et la liberté**", Paris: Presses de l'Université Grégorienne, 1972.
7. COFFIELD, Frank, "**Vandalism & graffiti: The state of the art**", London, Publisher: Calouste Gulbenkian Foundation, 1991.
8. COME, Thierry& MORDER, Robi, "**Etat des savoirs: Les engagements des étudiants, formes collectives et organisées d'une identité étudiante**", Rapport pour l'Observatoire de la Vie Etudiante, Juin 2009. URL:<http://www.ovenational.education.fr/medias/files/publications/dc45rapportove150609.pdf>. Consulté le :2/11/2009.
9. COULON, Alain, "**Le métier de l'étudiant, l'entrée dans la vie universitaire**", Paris, PUF, 1997.

⁷¹⁵ ملاحظة: أغلب المراجع الأجنبية الواردة، متوفرة على محركات بحث في الأنترنت، خاصة "Google" من خلال خدمة "Google Books"، أو مواقع أخرى.

10. DE CERTEAU, Michel, "**L'invention du quotidien, art de Faire**", Paris, éd: Union général d'éditions,1980.
11. GREFFOU, Malika Boudali, "**L'école algérienne de IBN BADIS à PAVLOV**",(Préfacé par: Mohamed DJIDJELLI), Alger, LAPHOMIC, 1989.
12. GUERID, Djamel, "**L'exception Algérienne, la modernité à l'épreuve de la société**", Alger, Casbah édition, 2007.
13. HAAS, C. R. "**Pratique de la publicité**", 9^{ème} édition, ed. Dunod, 1988.
14. HALPERN, Catherine &RUANO-BORBALAN, Jean-Claude (Conception), "**Identité, l'individu, le groupe, la société**", éditions Sciences Humaines, 2004.
15. HAROUEL, Louis, "**Culture et contre- culture**", Paris, Quadrige, PUF, 1998.
16. LANI-BAYLE, Martine, "**Du tag au graff'art, les messages de l'expression murale graffitée**", Marseille, coll: Psychologie et société, France, Hommes et Perspectives, 1993.
17. MACDONALD, Nancy, "**Graffiti subculture, Youth, Masculinity and identity in London and New York** ", Palgrave Macmillan, 2001.
18. MARTIN, Henri-Jan,"**Histoire et pouvoirs de l'écrit**",Paris,Albin Michel, 1996.
19. MAURICE, Tournier, "**Les mots de Mai 68**", France, Presses Universitaires du Mirail Toulouse, 2007.
20. MAZA, Monique (dir.), SAEMMER, Alexandra. "**E-formes, écritures visuelles sur supports numériques**", Publications de l'Université de Saint-Etienne, 2008.
21. POPPER, Frank, "**Ecrire sur l'art: De l'art optique à l'art virtuel**", l'Harmattan, 2007.
22. PHILLIPS, Susan A, "**Graffiti and gangs in Los Angeles wallbangin**", published by the University of Chicago Press, 1990.
23. PHILLIPS, Susan, "**Wallbangin, graffiti and gangs in Los Angeles Chicago**" ,The University of Chicago Press, 1999.
24. PRADEL, Benjamin, "**Entre institutionnalisation et clandestinité: Le graffiti ou l'hydre à deux têtes**", In: **C'EST MA VILLE!**, de l'appropriation et du détournement de l'espace public", sous la direction de: Nicolas Hossard & Magdalena Jarvin, ed: Harmattan, 2005, pp.177-188.
25. RAMAOUN, Hassan, (coor)," **Algérie, histoire, société et culture**", Alger, CASBAH édition, 2000.
26. RAHN, Janice, "**Painting without permission: Hip-Hop graffiti, subculture**", Canada, Pub: Bergin &Garvey, 2002.
27. RIOUT, Denys et al, "**Le livre du Graffiti**", Paris, édition Alternatives, 1990.

28. ROBINSON, David, "**Soho walls: Beyond graffiti**", New York, Publisher: Thames & Hudson, 1990.
29. SNYDER, Gregory J, "**Graffiti Lives, beyond the tag in New York urban underground**", ed: New York University Press, 2009.
30. STEINBERG, Paul, "**The graffiti of the intifada**", a brief survey, JERUSALEM, PASSIA (Palestinian academic society for the study of international affairs, 1994.
31. TAP, Pierre; MALRIEU, Philippe, "**Société pygmalion? Intégration sociale et réalisation de la personne**", (Coll: Organisation et Sciences Humaines), Ed: Bordas, 1992.

● **MEMOIRES ET THESES:**

1. BLANCHON, Pierre, "**Au cœur de la ville et au frontières de l'art: La pratique du graffiti**", Mémoire de fin d'études, Institut d'études politique de Lyon, Université Louis Lumière, 1999.
2. BUCHERIE , Luc, "**Graffiti, mise en scène des pouvoirs et histoire des mentalités**", Thèse de doctorat d'état en sciences politique, Université de Paris XIII, de droit et de science politique, Science politique, 1982.
3. GIVRON, Monzon; TRUFFEAUD, Gaspard, "**Portraits sociologiques de graffiteurs**", Master en sciences sociales, orientation sociologie didactique, Université Libre de Bruxelles, Faculté de sciences politiques, économiques et sociales, 2008-2009. URL: <http://www.reveur.be/documentations/memoire-graffiti.html>. Consulté le: 23/7/2009.
4. FANNY, Salane, "**Trajectoires scolaires et identités étudiantes en milieu carcéral, L'évasion par le haut**". Thèse de Doctorat en Sciences de l'Education, Université de Paris. Le résumé: http://www.ove-ational.education.fr/medias/files/palmars/concours2008_resumesalane.pdf. Consulté le 4/7/2009.
5. LIAN, Xiang GAI, "**Publicité, culture, pratiques sociales. Analyse comparative de la publicité en Chine et en France**". Thèse de doctorat de Sciences de l'information et de la communication, Université Lumière Lyon 2, Institut de la communication, 2007. URI: http://theses.univ-lyon2.fr/documents/lyon2/2007/gai_x#p=142&a=TH.back.1. Consulté le: 15/6/2009.
6. MANSIER, Thomas, "**Identité du rock et presse spécialisée évolution d'une culture et de son discours critique dans les magazines français des années 90**". Doctorat nouveau régime, Sciences de l'Information et de Communication, Université Lumière Lyon 2, 2004. URL: http://theses.univ-lyon2.fr/documents/lyon2/2004/mansier_t#p=0&a=top. Consulté le: 1/7/09.
- 9- RADEL, Benjamin, "**Une action artistique en milieu urbain: Le graffiti ou l'impossible reconnaissance**", Mémoire sur les dimensions sociales, esthétiques

et politiques du graffiti, Université Pierre Mendès France, Institut d'Études Politiques de Grenoble, 2002 - 2003.

- 10- PROUX, Raphaëlle, "**Variations colorées d'une pratique mondialisée: L'appropriation culturelle du graffiti hip hop à Montréal et à São Paulo**" Ph. D. en Anthropologie, département d'anthropologie, Faculté des arts et des sciences, 2010.
- 11- SCHEEPERS, Ilse, "Graffiti and urban space", University of Sydney, Australia, 2004. In: www.graffiti.org/faq/scheepers_graf_urban_space.html. Consulted: 2/6/09.
- 12- TEWART, Jack, "**Subway graffiti: An aesthetic study of graffiti on the subway system of New York city, 1970-1978**", Ph. D Thesis, School of Education, New York University, 1989. Abstract in: <http://whatyouwrite.wordpress.com/2008/12/02/an-aesthetic-study-of-graffiti-on-the-subway-system-of-new-york-city-1970-1978/>. Consulted: 7/2/2010.
- 13- THEDE, Nancy, "**L'identité ethnique des Gitans de la basse Andalousie**". Thèse de Doctorat en philosophie, Université Montréal, Faculté des arts et sciences, département d'anthropologie, 1998.

• ARTICLES:

1. AILAT, Farid, "**Le grand malaise**", Jeune Afrique, 5/5/2008. URL: <http://www.jeuneafrique.com/Article/LIN04058legraesiala0/>. Consulté le: 22/7/10.
2. ALBERT, Jean-Pierre, "**Etre soi: Ecritures ordinaires de l'identité**", in: "**Identité, lecture, écriture**", Chaudron M et de Singly. F, Paris, Editions BPI, Centre Georges Pompidou, 1993, pp.45-58.
3. —,—"Écritures domestiques", In: Manuscrit auteur, publié dans "**Ecritures ordinaires**", D. Fabre (dir), 1993, pp. 37-94.
4. ALONSO, Alex, "**Urban graffiti on the city landscape**", Department of Geography, university of Southern California, 1998. URL: <http://www.streetgangs.com/academic/alonsograffiti.pdf>. Consulted: 11/5/06. APPEL, Valeria, "**Ghetto art: Thousand voices in the city**", First published in: EDIT° 3, Territories, Paris, TIDE association, 2006. URI: http://www.graffiti.org/faq/appe_lghettoart2006.html. Consulted: 2/8/2009.
5. Ashley Ian & al, "**Graffiti at UBC: A sociological analysis of graffiti**". URL: https://circle.ubc.ca/bitstream/handle/2429/28729/Graffitiat_UBC.Pdf?sequence=1 Consulted: 10/01/2010.
6. BARNES, Alison, "**Graffiti: over ground archaeology or environmental crime?**". URL: <http://www.stbride.org/friends/conference/temporarytype/overgroundarchaeology>. Consulted: 11/8/2011.

7. BARRIAUX, Marianne, "**Les graffeurs s'emparent des murs chinois**", 24/8/09, (AFP).URI:<http://chine.aujourduilemonde.com/les-graiffeurs-semparent-des-murs-chinois>. Consulté le :19/8/2011.
8. BARTHOLOME, Lynn; SNYDER, Philip, "**Is it philosophy or pornography? graffiti at the dinosaur Bar-B-Que** ", The journal of American culture, v 27, 2004, pp.86-98.
9. BARTOLOMEO, J. Bradley, "**Cement or canvas: Aerosol art & the changing face of graffiti in the 21st century**", Union College, Schenectady NY, USA-2001. In: <http://www.graffiti.org/faq/graffiti-is-part-of-us.html>. Consulted: 1/6/09.
10. BAZIN, Hugues, "**L'art d'intervenir dans l'espace public**", TERRITOIRES avril 2005, pp.10-12.
11. BERKANI, Véronique, "**L'art et la révolte**", TERRITOIRES, n°457, avril 2005, pp.34-36.
12. BERTRAND, Anne-Marie, "**Fraenkel Béatrice, Les écrits de septembre : New York 2001**", Paris, Textuel, 2002. <http://bbf.enssib.fr/consulter/bbf-2003-01-0141-004>. Consulté le: 11/02/2011.
13. BESANCON, Julien, "**Les murs ont la parole: Mai 68**", ed: Tchou, 2007.
14. BLAKE, C. Fred. "**Graffiti and racial insults: The archaeology of ethnic relations in Hawaii**", published in Modern Material Culture: The archaeology of Us, Edited: Richard A. Gould, department of Anthropology, University of Harvard at Manoa, Academic PRESS, 1981, pp.89.99. URI: <http://www.Anthropology.hawaii.edu/people/faculty/Blake/pdfs/1981GraffitiandRacialInsults.pdf>. Consulted: 14/9/09.
15. BLOCH, Anny, "**Les façades de la désobéissance. Tags, graffs et fresques murals**", Revue des sciences sociales, «Civilité, incivilités», n° 29, 2002, pp.92-99. URI : www.synergiescanada.org/fr/journals/erudit/lsp20/.../016394ar. Consulté le: 17/01/2009.
16. BOEN S, Oemarjati, "**Graffiti et langage des adolescents: Le refus de baisser la tête**", Revue: Berita Anthropologie JAKARTA, Timur, 1977, vol 9, pp.117.125. <http://cat.inist.fr/?aModele=afficheN&cpsidt=12341839>. Consulté le : 2/7/09.
17. BOURDIEU, Pierre, "**L'identité et la représentation**", Actes de la recherche en sciences sociales, n° 35, 1980, pp.63-72.
18. BOYER, Régine & CORIDIAN, Charles & ERLICH, Valérie, "**L'entrée dans la vie étudiante, socialisation et apprentissages**", Revue Française de pédagogie, n°136, Juillet - Aout-Septembre 2001, pp. 97-105.

19. BRYDEN, Nicholas; MEHLBERG, Eric, "**Bathroom walls speak out: A exploratory study of restroom graffiti**", Humboldt State University. April 24, 200. URL: <http://users.humboldt.edu/jverlinden/319Web/examples/2003/BathroomWalls.pdf>. Consulted: 20/05/2011.
20. BOUDINET, Gille, "**Tags, rites de passages: Vers la proposition d'une "trans-culture"**", l'Institut français de l'Éducation, 2004. URI: <http://www.inrp.fr/biennale/5biennale/Contrib/Long/L57.htm>. Consulté: 11/10/2009.
21. BOUYER, Sylvain, "**Je vous salis ma rue: Tags, graffs et graffitis**". In: Communication et langages, n°110, 4^{ème} trimestre 1996, pp. 95-103. URI: <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/colan0336-15001996num11012725>. Consulté le :8/9/2009.
22. BUCHERIER, Luc, "**La prison de Crest (Drôme): Graffiti religieux, graffiti politiques**", Revue, le monde Alpin et Rhodanien, Centre alpin et rhodanien d'ethnologie, Grenoble, France, 2004, vol, 32, n° 1-2, pp.47-61.
23. BÜRGE, Clément ; GRANIER, Cyril,(Rédacteurs en chef), "**Mai 68: Au delà de la commémoration, la réhabilitation** ",INTERNATIONAL.ink, n° 03, Mai 2008, Edité par l'association des étudiants en science politique et en relations internationales (AESPRI), Imprimé par Repro Mail, 44 p.
24. CAMACHO-HÜBNER, Eduardo, "**Je suis Mxx, et toi?–Moi? Xiiimxv**", Espaces Temps.net, Mensuelles, 2006). URI: <http://espacestems.net/document1867.html>. Consulté le:12/11/2009.
25. CAVAN, Sherri, "**The great graffiti wars of the late 20th century**" Paper presented at the Pacific Sociological Association, dept of Sociology, San Francisco State University,1995. URL: <http://www.graffiti.org/faq/greatgraffitiwars.html>. Consulted: 11/8/2009.
26. CHALFANT, Henry; COOPER, Martha. "Subway Art", Chronicle Books, 2009. 128p. URL: <http://www.amazon.com/Subway-Art-Anniversary-Martha-Cooper/dp/0811868877/ref=sr11?ie=UTF8&qid=1316344357&sr=8-1>. Consulted: 18/9/11.
27. COURANT, Stéphane, "**Voyages et graffiti, l'espace marqué**", L'Autre Voie, n°7,2011. URL <http://www.deroutes.com/AV7/graffiti7.htm>. Consulté :17/9/11.
28. COZZOLINO, Francesca ,"**Les murs ont la parole, un exemple de prise de parole sur le mur. Les peintures murales d'Orgosolo**", In: Rivista discussioneculturale,n°.8-giugno,2008,pp.30.31. URI : <http://www. Professionaldreamers.et/images/ losquaderno/ losquaderno08.pdf>. Consulté le: 4/5/2012.
29. DEAL, Eric; ONE TFP, Spar, "**History of graffiti Pt 1**",1998. URL: <http://www.daveyd.com/historyofgraf.html> . Consulted:11/8/2010.

30. DELAMOTTE-LEGRAND, Régine, "**Compte rendu de : Maurice Tournier, 2007, Les mots de Mai 68**", Coll" Les mots de", Toulouse, Presses Universitaires du Mirail. In: GLOTTOPOL: Revue de sociolinguistique), n°12, Université de Rouen, Laboratoire LIDIFra, 5/2008, pp.265-266. URI: <http://www.univ-rouen.fr/dyalang/glottopol/telecharger/comptesrendus/crdelamotte2htm>. Consulté le: 3/8/10
31. DEMERS, Jeanne ; MCMURRAY, Line ; LAMBERT, Josee, "**Graffiti et prostitution**", Tessera, pp.106-111.
32. DENISE, Pirani, "**Transition démocratique et culture urbaine au Brésil : Le phénomène du graffiti**", Cahiers du Brésil Contemporain, n°25-26, 1994, pp.81-94. URI: <http://www.revues.msh-paris.fr/vernumpub/02-4-Pirani.pdf>. Consulté le: 22/8/09.
33. DENNANT , Pamela, "**The emergence of graffiti in New York city**", London, Thames Valley University, American Studies Project, 1997. <http://www.hiphop-network.com/articles/graffitiarticles/emergenceofnycitygraffiti.asp>. Consulted: 11/8/2009 .
34. DERYCKE, Marc, "**Les graffitis bateliers: Empreintes, suspensions.. nomination**", Langage et société n° 103, mars 2003, pp.79-115.
35. EHRLICH, Dimitri ; EHRLICH, Gregor, "**Graffiti in Its Own Words**", 2006. <http://nymag.com/guides/summer/17406/> .Consulted: 26/8/2011.
36. ERLICH, Valérie ; LUCCIARDI, Jacques, "**Le rapport à l'écrit des étudiants de première année d'université**", SPIRALE- Revue de Recherches en Éducation, n° 33, 2004, pp. 114-126.
37. ESPOSITO, Rashaun, "**The artistic construction of a counter-culture** ", 2005. URL: <http://www.graffiti.org/faq/esposito.html>. Consulted: 22/9/10.
38. GADSBY, Jane M., "**Looking at the writing on the wall: A critical review and taxonomy of graffiti texts**". URL: <http://www.graffiti.org/faq/critical.review.html>. Consulted: 14/8/2009.
39. GALLISSOT, René, "**Sous l'identité, le procès d'identification**", l'Homme et la société, n°83 (nouvelle série), 1987, pp. 12-27.
40. GUILLAIN, André, "**L'enfance du geste: Ecriture et graffiti**". In: Communication et langages, n°97, 3ème trimestre 1993. pp. 46-52. <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/colan0336-15001993num9712455>. Consulté le :10/11/2011.
41. GUINCHAT, Claire, "**La grammaire des murs**". URI: <http://www.des-gens.net/la-grammaire-des-murs>. Consulté le: 16/8/2009.

42. —,—"La vie graffiti", CAES magazine,(CNRS), n° 67,avril-mai-juin, 2003, pp.28.31.URI:<http://www.des-gens.net/LA-VIE-GRAFFITI>.Consulté le: 25/7/10.
43. HALL, Stuart, "**Identités et cultures. Politiques des cultural studies**", Cahiers du Genre, n°47/2009,(Notes de lecture), pp.205-207.URI:<http://cahiersdugenre.pouchet.cnrs.fr/Notes%20de%20lecture%20CdG47.pdf>.Consultéle: 22/8/2009.
44. HALPERN, Catherine, "**Faut-il en finir avec l'identité,(Aux origine des civilisation)**", Sciences Humaines,n°151,Juillet2004.<http://www.scienceshumaines.com/index.php?lg=fr&idarticle=424>.Consulté le :20/20/09.
45. HARRIS, Roy, "**The origins of writing**", London, G. Duckworth, 1986. In: Canadian journal of communication, vol.13, n° 3-4,pp.139.145. (Book Reviews: by: Ann McLeod, Port Coquitlam). URL:www.cjc-online.ca/index.php/journal/article/download/470/376. Consulted: 21/02/09.
46. HAZA ,Marion, "**Le psychologue à l'écoute des adolescents tagueurs**", Sociétés et jeunesses en difficulté, n°2, 2006. URI: <http://sejed.revues.org/index185.html>. Consulté le: 26/8/2011.
47. JEFF, Ferrell,. "**Urban graffiti: Crime, control, and resistance**", Youth and Society,27,1995,pp.73- 92.In: <http://yas.sagepub.com/content/27/1/73>. Consulted: 10/09/2011.
48. KOKOREFF, Michel, "**Des graffitis dans la ville**", Quaderni, n°.6, Hiver 88/89,pp.85.90.URI:<http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/quad0987-13811988num611892>.Consulté: 14/8/2008.
49. LACHMANN, Richard, "**Le graffiti comme carrière et comme idéologie**", traduction: Jean-Samuel Beuscart, Loïc Lafargue de Grangeneuve, Claire Lemasne et Frédéric Vagneron), Terrains & travaux 2/2003, n°5, pp.55-86. URL:www.cairn.info/revue-terrains-et-travaux-2003-2-page-55.htm. Consulté le: 11/8/2009.
50. LAMER, Sylvie-Anne, "**Graffiti dans la peau, marquages du corps, identité et rituel**",RELIGIOLOGIQUES, n° 12, automne 1995, pp.149-167. [http:// www. religiologiques.uqam.ca/no12/graffiti.pdf](http://www.religiologiques.uqam.ca/no12/graffiti.pdf). Consulté :22/6/2009.
51. LATOUILLE, Jean-Jacques, "**Entre l'individu et la société** ", Recherches & Educations, n° 2 , 3^{eme} trimestre 2002.URL:<http://rechercheseducations.Revues.org/index276.html>. Consulté le: 09/5/2011.
52. LEMIRE, Vincent ; POTIN, Yann, "**ICI ON NOIE LES ALGÉRIENS**", Fabriques documentaires, avatars politiques et mémoires partagées d'une icône militante (1961/2001), Genèses, n° 49, déc. 2002, pp.140-162.

53. LE BRETON, David, "**Les conduites à risque des jeunes comme résistance**", Èrès, Empan, 2005/1, n°57, pp.87-93. URL : <http://www.cairn.info/revue-empan-2005-1-page-87.htm>. Consulté le: 22/02/2008.
54. LEY, David; CYBRIWSKY, Roman, "**Urban graffiti as territorial markers**", Annals of the Association of American Geographers, vol. 64, n°4, Dec.1974, pp.491-505. URL: <http://links.jstor.org/sici?sici=0004>. Consulted: 12/1/2009.
55. LUCCI, Vincent (dir.), al, "**Des écrits dans la ville, sociolinguistique d'écrits urbains: L'exemple de Grenoble**", La liberté, «Lire», Mensuel, n°86 - Août/Septembre 1998. <http://www.scienceshumaines.com/index.php?lg=fr&idarticle=10215>. Consulté le: 22/8/2011.
56. MACDOWALL, Lachlan, "**The graffiti archive and the digital city**", IN: Place Local Knowledge and New Media Practice", Cambridge Scholars Publishing, 2008, pp.134.146. URL: <http://legart.drupalgardens.com/sites/legart.drupalgardens.com/files/PlaceBookPreprintForAuthors.pdf>. Consulted 14/2/11
57. MAFFESOLI, Michel, "Du tribalisme". URL: <http://www.michelmaffesoli.org/textes/du-tribalisme.html> . Consulté le: 22/8/2009.
58. —, "**Iconologies, notre idolâtries postmoderne**", 2008, p.11. [http:// multimedia.fnac.com/multimedia/editorial/pdf/9782226183934.pdf](http://multimedia.fnac.com/multimedia/editorial/pdf/9782226183934.pdf). Consulté le: 18 /8/2011.
59. MAHER, Shiraz, "**A world of walls**", 2009, adapté par: Danilett, "**Un monde de murs?**". URL: <http://danilette.over-blog.com/article-les-murs-dans-le-monde-58283514.html> , Consulté le: 25/08/2011.
60. MAYOL, Pierre, "**Les univers culturels des jeunes**", in: R. Boyer et C. Coridian (coord.), Modes de vie collégiens et lycéens, INRP, 2000. Sciences Humaines, n° 109-October 2000. URL: <http://www.scienceshumaines.com/les-sept-piliers-de-la-culture-jeunefr762.html>. Consulté le: 20/01/2010.
61. MARTIN, Michael; A. BATES, John, "**The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes**", Journal of Sex Research, vol,16,1980, pp.300.315. URL: <http://www.informaworld.com/smpp/content~db=all~content=a918465630~frm=titlelink>. Consulted: 10/2/ 08.
62. MARTIN, Michelle, "**German student gest degree in latrine literature**", 2009. <http://www.du-world.de/dw/article/0..4540624,00html>. Consulted 27/09/10
63. MENISSIER, Thierry, "**Culture et identité**", Le Portique, Recherches, 7/12/ 07. URI: <http://leportique.revues.org/index1387.html>. Consulté le: 22/9/11.
64. MICHEL, Kokoreff, "**Des graffitis dans la ville**", Quaderni, n°6, Hiver 88/ 89, pp.85-90. URI: http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/quad_0987-13811988num611892. Consulté le: 1/2/09.

65. MILON, Alain, "**Tag et graff mural, visage et paysage de la ville**", Les Annales de la Recherche Urbaine, n° 85, pp.140-147. URI: http://www.annalesdelarechercheurbaine.fr/IMG/pdf/Milon_ARU_85.pdf. Consulté le:22/06/2010.
66. MONNET, Jérôme, "**Espaces et cultures à Los Angeles. A propos de quatre ouvrages récents concernant les "Latinos"**", Revue: Cybergeog: European Journal of Geography, de livres, 05/4/2001.URL:<http://cybergeog.revues.org/932>. Consulté le: 05/8/2011.
67. MONTALBAN, Manuel.V,"**Mythologies du sport, le football, religion laïque en quête d'un nouveau Dieu**", août 1997. URI:http://www.monde-diplomatique.fr/1997/08/VAZQUEZ_MONTALBAN/8972. Consulté le: 22/8/2010.
68. MÜLLER, Denis, "**Le football comme religion populaire et comme culture mondialisée: Brèves notations en vue d'une interprétation critique d'une quasi-religion contemporaine**", 2005. Paru dans: MARC Dumas, François Nault et Lucien Pelletier(dir),"Théologie et culture". Hommage à Jean Richard, les presses de l'université de Laval, Québec, 2004, pp.299.314.
69. MUSSET, Alain, "**Les murs, miroirs des villes, Nuevo Mundo Mundos Nuevos, Optika**", 2005.URL:<http://nuevomundo.revues.org/document638.html> Consulté le: 11/8/2008.
70. Abdoulaye Niang, "**Graffiti: Un modèle existentialiste pour la jeunesse urbaine**",2011.URL:<http://www.lesoleil.sn/index.php?option=comcontent&view=article&id=3770:docteur-abdoulaye-niang-sociologue-specialiste-du-graffiti--l-un-modele-existentialiste-pour-la-jeunesse-urbaine-r&catid=45:music&Itemid=75>. Consulté le: 29/12/2011.
71. NATHALIE, Vincent-Arnaud, "**Les mots au pouvoir, les murs déchiffrés: un laboratoire langagier**", EspacesTemps.net, 08.05.2008. In: <http://espacestemp.net/document5113.html>. Consulté le:30/8/2009.
72. NINNES, Ted, "**Diversion and graffiti abatement programs—A new direction**", University of Waikato, 1998. <http://www.msd.govt.nz/about-msd-and-our-work/publications-resources/journals-and-magazines/social-policy-journal/spj10/diversion-and-graffiti-abatement-programmes.html>.Consulted: 10/6/11
73. OEMARJATI, Boen S.,"**Graffiti et Langage des adolescents: Le refus de baisser la tête**", Revue: Berita Anthropologie JAKARTA, Timur, 1977, vol 9, pp.117.125.URL:<http://cat.inist.fr/?aModele=afficheN&cpsidt=12341839>. Consulté le: 11/09/2010.
74. PATRIK, Mignon; PIERRE, Marty, "**La musique forme la jeunesse**", ANIM' Magazine, n° 45, janvier, 1999, pp. 20.23.

75. PERSAUD, E. Jerry, "**The signature of Hip Hop: A sociological perspective**", International Journal of Criminology and Sociological Theory, Vol. 4, n^o. 1, June 2011, pp.626-647. URL: [http://pi.library.yorku.ca/ojs/index.Php/ijcst/article /view file/32157/29376](http://pi.library.yorku.ca/ojs/index.Php/ijcst/article/view/file/32157/29376). Consulted :18/09/2011.
76. PIJNENBURG, Henk; ESSINK, Frank, "**Vandal and crusaders, the liberation of I**", 2007, pp.1.4. URL: www.historyofgraffitiart.com. Consulted: 11/8/09.
77. PLAZA, Renata Teixeira, All, "**Between the public and the private: Sex differences in restroom Graffiti from Latin and Anglo-Saxon courtiers**", Institute of psychology, University of São Paulo, Brazil, 2007, 29p. URL: <http://www.ead.fea.usp.br/WPapers/2003/03-007.pdfv>. Consulted: 11/8/11.
78. POTTER, Russell. A, "**Introduction, spectacular vernaculars: Hip-Hop and the politics of postmodernism**", State University of New York Press, Ithaca, 1995, 19p. URL: [http://khup.com/download/0keyword-spectacular-vernaculars /russell-a-potter-introduction-spectacular-vernaculars-hip.pdf](http://khup.com/download/0keyword-spectacular-vernaculars/russell-a-potter-introduction-spectacular-vernaculars-hip.pdf). Consulted 3/7/10
79. RAHN, Janice, "**Motivation in Hip-Hop graffiti culture: A site of tension between individual desire, peer influence and community space**", Canada, Concordia university, 1999. URL: <http://people.uleth.ca/~janice.rahm/articles/hip-hopgraf.pdf>. Consulted: 25/09/2009.
80. RAMOND, Serge, "**Un patrimoine culturel oublié: Les graffiti**", Revue Archéologique de L'Oise, n^o23, 1981, pp.9-28. URI: <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/pica0752-56481981num2311152>. Consulté: 17/9/11.
81. SAHUT, Romain, "**Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain**", IUTBM, 2002-2003, 34p. URI: <http://usuc.fr/Projets/Rapports/IUT/Graffiti/Graffitietartsurbains.pdf>. Consulté le: 14/7/2009.
82. SAID ,Belkacemi Mohand, "**Kabylie: Les graffitis sur les murs de Tizi- ouzou ne disent pas de belles choses** ", 2007. URI: <http://kabylie.unblog.fr /2007 /09/18/ kabylie-les-graflitis-sur-les-murs-de-tizi-ouzou-ne-disent-pas-de-belles-choses/ .> Consulté le: 15/08/2011.
83. SCHREUER, François, "**De la couleur sur les murs**", novembre 2006. http://francois.schreuer.org/articles/20061100_tag . Consulté le: 11/01/09.
84. SPINELLI, Luciano, "**Techniques visuelles dans une enquête qualitative de terrain**", De Boeck Université, Sociétés, 2007/2, n^o96, pp.77.89. <http://www.cairn.info/revue-societes-2007-2-page-77.htm>. Consulté le 22/5/09.
85. —, —, "**Entrailles de la ville: Les écritures vues du métro**", Sociétés, 2010/3 n^o109, pp.55-62. URI : <http://www.cairn.info/revue-societes-2010-3-page-55.htm>. Consulté le: 6/12/2011.

86. STOWERS, George C, "**Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art**", 1997.URL:<http://www.graffiti.org/faq/stowers.html>. Consulted: 20/10/11.
87. SYLVIA ANN, Grider,"**Con Safos: Mexican-Americans, names and graffiti**", in Journal of American Folklore, vol. 88, 1975,pp.132-142.URL: http://www.graffiti.org/faq/graffiti_biblio.html.Consulted:14/2/10.
88. TRACEY .E. Bowen, "**Graffiti art: A contemporary study of Toronto artists**", Studies in Art Education, vol. 41, n^o.1, Autumn, 1999, pp. 22-39.
89. TRAHAN, Adam, "**Identity and ideology: The dialogic nature of Latrinalia**", Internet Journal of Criminology, 2011. pp.1-8.URL: [http://www. Internet journal ofcriminology.com/TrahanIdentityandIdeologyThe%20DialogicNatureofLatrinaliaIJCSeptember2011.pdf](http://www.Internetjournalofcriminology.com/TrahanIdentityandIdeologyThe%20DialogicNatureofLatrinaliaIJCSeptember2011.pdf).Consulted:27/2/12.
90. VAGNERON, Frédéric," **Le tag: Un art de la ville (Observateur)**", Terrains &Travaux, ENS Cahan, n^o5, 20/2003, pp.87-111.URI: www.cairn.Info/revue-terrains-et-travaux-2003-2-page-87.htm.Conulté le:22/8/08.
91. VERONIQUE, Nahoum-Grappe, "**Tags et graffitis**",9/2009.URI:<http://www.esprit.presse.fr/archive/review/article.php?code=15508>.Consulté le18/7/10.
92. VINCENT-ARNAUD, Nathalie, "**Les mots au pouvoir, les murs déchiffrés: Un laboratoire langagier**", *EspacesTemps.net*, 08.05.2008.URI:<http://espaces temps.net /document5113.html>. Consulté le: 20/10/208.
93. VULBEAU, Alain, "**Les tags, spectres de la jeunesse**", Les Annales de la Recherche Urbaine, n^o 54, mars 1992, pp. 61-67.
94. —,—, "**L'Art ou la loi?. Tags et graffs, entre institutions et générations**", TERRITOIRES, Avril 2005, pp.4-6.
95. WALKER, Read Allen,"**Classic American graffiti: Lexical evidence from folk epigraphy in western North America: a glossarial study of the low element in the English vocabulary**", pub: Maledicta, Waukesha, Wis. USA, 1977, 83p. URL: <http://www.getcited.org/pub/101667479>.Consulted:12/05/10.
96. WERWATH, Timothy, "**The culture and politics of graffiti art**", High School, Columbia, MD, USA, 2006.URL:<http://www.graffiti.org/faq/werwath/werwath.html>.Consulted:14/2/2009.
97. YOLANDE, Cohen ; CLAUDIE, Weil, "**Les mouvements étudiants: Une histoire en miette**", le mouvement social, n^o 120,1982, pp.3-11.

- Articles Journaux:

1. GALOFARO, Antonino; BOUKHELIFA, Sami; BURNENS, Nicolas," **Tunisie. Des couleurs révolutionnaires sur les murs de Ben Ali**", El Watan, 15/07/2011.

2. Guerid, Djamel , "L'université Algérienne à 100 ans", Le Quotidien d'Oran, (Débat), 17/01/2010.
3. GROSSER, Alfred, "Les identités abusives", Le monde 28 Janvier 1994.
4. "Des hélicoptères contre les graffitis", Info Soir, 10 avril 2005.

• **Films/ Documentaires :**

- a. BOB, Bryan, "Graffiti vérité", 1996.
- b. "Images d'Algérie ", 1964 .

• **La sitographie** بعض مواقع الأنترنت

http://www.graffiti.org .	موقع عالمي يهتم بالفن الجرافيتي.
http://www.latrinalia.org/	موقع خاص بالممارسة /الظاهرة بالمراحيض (Latrinalia).
http://www.bombingart.com/	موقع يحاول توجيه الجرافيتيا لصالح الأهداف الرسمية.
http://www.graffiti.org/index/best.html .	موقع عالمي ثري بالمعطيات النظرية والميدانية الخاصة بالممارسة.
http://www.graffiti.org/faq/graffiti_biblio.html	موقع لأبرز ما كُتب حول الممارسة/ الظاهرة(كتب، مجلات، فيديوهات، نماذج.
http://www.thehistoryoflosangelesgraffitiart.com/	خاص بتاريخ الظاهرة بالمجتمع الأمريكي عامّة، ومدينة "لوس أنجلوس" خاصة.
http://website-tools.net/google-keyword/word/graffiti "Website-Tools.net"	(موقع شامل) متخصص بالمواقع التي تهتم بالممارسة.

الملاحق

الملحق رقم 1: مجموعة من الوحدات الجرافيتية متعددة المرامي.

الملحق رقم 2: مصطلح "الجرافيتي" بأبرز لغات العالم.

الملحق رقم 3: بعض المصطلحات المهندسة لحقل الجرافيتيا.

الملحق رقم 4: جرافيتيا مـاي 68.

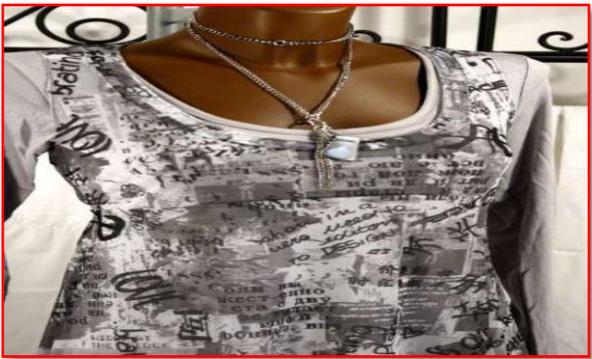
الملحق رقم 5: عينة من الكتابات الجرافيتية صاحبت الانتفاضات

العربية الأخيرة بفرنسا (من توقيع المغتربين العـرب).

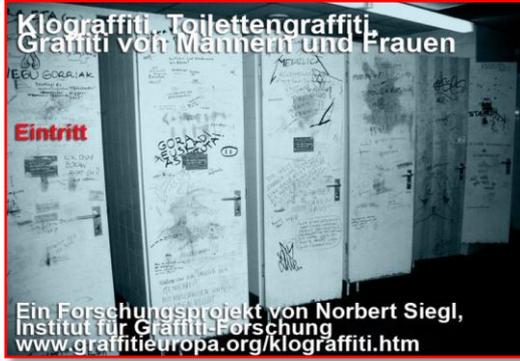
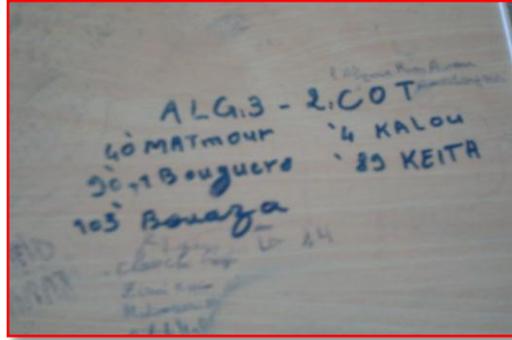
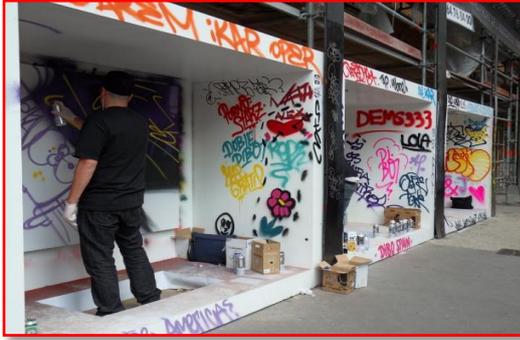
الملحق رقم 6: كرونولوجيا أبرز المحطات العالمية للممارسة الجرافيتية.

الملاحق

الملحق رقم 1 : مجموعة من الوحدات الجرافيتية متعدّدة المرامي⁷¹⁶:



⁷¹⁶ اخترنا -عمدًا- هذه العينة لتقريب الظاهرة من زوايا متعدّدة، كالدّعامات، الأشكال، المضامين، الأنواع والأصناف وحتى وسائل الكتابة الجرافيتية وألوانها. جمّعناها من مراجع ومصادر رقمية متعدّدة، (بعضها من عيّنة دراستنا).





الملحق رقم 2: مصطلح "الغرافيتي" بأبرز لغات العالم:

نستعرض في هذا الملحق مفهوم "الغرافيتي" بأهم لغات العالم ، علَّها تكون مفاتيح بحثٍ لغيرنا ممن شَغَفَتْهُ حَبًا لِلتَّعَمُّقِ فِيهَا⁷¹⁷.

Langue	Le terme "Graffiti" S + pl :
Greek:	Graphitis.
Italian:	S:graffito, pl: graffiti.
Spanish:	Graffiti or graffiti.
French:	S: Graffite, graffito, graffiti. pl:Graffiti (s)
Romania:	Graffiti.
German:	Graffito, Kratzmalerei
Swedish:	Graffiti.
Portuguese:	Graffiti.
Croatian:	S: grafit, pl: graffiti.
Hebrew:	Graffiti, ktvotkir. גראפיטו (graffito). גרפיט (graffito),
Hindi:	Divaar pay likhai.
Chinese :	涂鸦双色涂层法 (graffitis,graffito), 粗糙雕刻: Graffito.
عربي:	خريشة أو شخبطة أو غرافيتي

⁷¹⁷ ملاحظة: S : للمفرد، و pl: للجمع.

الملحق رقم 3: بعض المصطلحات المُهندِسة لحقل الغرافيتيا

هذه بعض المفاهيم/المصطلحات/العبارات المُستِجِة لحقل الممارسة الغرافيتية، نَحَمَها المختصون⁷¹⁸.

Tag : est un concept défini comme un insigne, une étiquette ou signature ou logo de l'artiste, avec sa police de caractères, d'un geste travaillé, calligraphique, souvent illisible et que seuls les initiés peuvent déchiffrer. Généralement, il représente le nom du tagueur. C'est la base du graffiti.

Graff, fresque, burning, pièce : Plus sophistiqué et esthétiquement recherché, qui peut inclure photos, affiches... Inspiré des comics des années 70 ou du tatouage.

Throw up ou flop : Intermédiaire entre tag et graff, c'est un grand dessin de lettres aux contours et volumes travaillés, mais exécuté rapidement.

Styles : "bubble", "chrome" (imite les réflexions sur objets chromés), "bloc" (lettres carrées et compactes) ou "wildstyle" (lettres illisibles, enchevêtrées).

Black book : Cahier perso pour recueillir les esquisses d'autres graffeurs afin de collectionner le plus de styles possibles.

Autocollant : L'autocollant est généralement un tag préparé à l'avance, puis appliqué sur les surfaces et les endroits les plus divers. Ces autocollants peuvent être rencontrés sous la forme de croquis, concepts, dessins, impressions, en noir et blanc ou en couleurs, sur un rectangle, un carré, un rond, un triangle, etc...ou simplement découpés suivant leur forme.

Pochoir : Un peu moins utilisé par la communauté des sprayeurs, le pochoir est pourtant un moyen aussi rapide et efficace que l'autocollant.

Le pochoir peut s'avérer complexe à réaliser lorsque la forme qu'on lui attribue est plus poussée qu'un découpage plein.

Chrome : La plupart du temps réalisé en blanc et noir, il constitue un stade avancé dans le graffiti. Le chrome s'apparente à un véritable travail de typographe, nécessitant la réalisation d'un lettrage dont la taille variera selon la quantité de peinture et le support choisi.

Toy, toyer : Ne pas respecter un graff existant en taguant dessus.

Cartonneur : Tagueur présent partout.

La bombe aérosol : est le récipient dans lequel la peinture se trouve sous forme liquide et maintenue sous pression, destinée à être pulvérisée .

⁷¹⁸ بعضها مستوحى من مفاهيم الباحث " Gautier Bischoff " و آخرون، خاصة من خلال كتابهم:

Bischoff G, Malland J, ECR" Kapital, un an de graffiti à Paris". 4^{ème} éd. Paris: Alternatives, 2000 .

الملحق رقم 4: غرافيتيا ماي 68

هذه عيّنة من "الكتابات الغرافيتية" التي جمعها الباحث المُتمَرِّس "د. دزيرغوفيسكي Daniel Dzierzowski"، بعنوان: "Mai 68: Slogans et graffiti". عبارة عن مجموعة من الوحدات الغرافيتية استقاها من العديد من المؤلفات. نعتقد أنها مهمة، خاصة في جانبها التاريخي والمنهجي:

Abolition de l'aliénation.

Abolition de la société des classes.

L'aboutissement de toute pensée, c'est le pavé dans ta gueule, C.R.S. /Rue de Rennes

L'agresseur n'est pas celui qui se révolte mais celui qui réprime /Rue Saint-Jacques

Autogestion de la vie quotidienne /Place du Panthéon.

Le bâton éduque l'indifférence /Sorbonne.

La bourgeoisie n'a pas d'autre plaisir que de les dégrader tous /Assas.

Cache-toi, objet /Sorbonne, hall Richelieu.

Céder un peu c'est capituler beaucoup /Beaux-Arts.

Celui qui peut attribuer un chiffre à une (é)motion est un con /Sorbonne.

Ce n'est pas seulement la raison des millénaires qui éclate en nous, mais leur folie, il est dangereux d'être héritier /Nanterre.

C'est en arrêtant nos machines dans l'unité que nous démontrons leur faiblesse.

"C'est parce que la propriété existe qu'il y a des guerres, des émeutes et des injustices." (Saint Augustin)

Déjà 10 jours de bonheur /La Mutualité et/ou Censier.

Défense de ne pas afficher /Sc. Po.

Écrivez partout !

L'éducateur doit être lui-même éduqué /Sorbonne.

Embrasse ton amour sans lâcher ton fusil /Odéon.

En tout cas pas de remords !

Espérance : ne désespérez pas, faites infuser davantage. /Sorbonne, Cour.

Est prolétaire celui qui n'a aucun pouvoir sur l'emploi de sa vie quotidienne et qui le sait

Nanterre et/ou Odéon

Les étudiants sont cons.

Exagérer c'est commencer d'inventer /Censier.

Exagérer, voilà l'arme /Censier.

Examens = servilité, promotion sociale, société hiérarchisée.

Explorons le hasard /Boulevard Saint-Germain.

Faites l'amour et recommencez /Rue Jacob et/ou Odéon.

Faites la somme de vos rancœurs et ayez honte /Censier.

Le feu réalise ! /Nanterre.

L'humanité ne sera vraiment heureuse que lorsque le dernier des capitalistes aura été pendu avec les tripes du dernier des bureaucrates /Rue Lhommond.

Il est interdit d'interrompre /Hall, Sciences Po.

"Il faut porter en soi un chaos pour mettre au monde une étoile dansante." (Nietzsche)

Il n'y a de mortel, de temporel, de limitée et d'exclusif que dans l'organisation et dans les structures /Nanterre, hall A1.

Il n'y aura plus désormais que deux catégories d'hommes : les veaux et les révolutionnaires. En cas de mariage, ça fera des réveaulutionnaires. /*Educat. surveillée*

L'imagination prend le pouvoir /*Rue de Seine et/ou Science Po., escalier.*

L'insolence est la nouvelle arme révolutionnaire /*Médecine.*

Interdit d'interdire. La liberté commence par une interdiction : celle de nuire à la liberté d'autrui. /*Sorbonne.*

Jeunes femmes rouges toujours plus belles /*Faculté de médecine.*

Les jeunes font l'amour, les vieux font des gestes obscènes.

Jouissez ici et maintenant /*Nouvelle Faculté de médecine.*

La liberté, c'est le crime qui contient tous les crimes, c'est notre arme absolue /*Sorbonne, hall Grand amphi.*

La liberté, c'est le droit au silence /*Censier.*

La liberté commence par une interdiction. Celle de nuire à la liberté d'autrui /*Nanterre.*

Luttons contre la fixation affective qui paralyse nos potentialités. -Comité des femmes en voie de libération.

Lynchons Séguy ! La marchandise, on la brûlera ! /*Institut pédagogique.*

Mangez vos professeurs /*Sorbonne.*

Manquer d'imagination, c'est ne pas imaginer le manque /*Nanterre, amphi. musique*

Le masochisme aujourd'hui prend la forme du réformisme /*Sorbonne.*

Mes désirs sont la réalité /*Nanterre, C 24.*

Métro, boulot, dodo .

Les murs ont des oreilles. Vos oreilles ont des murs /*Condorcet.*

N'admettez plus d'être / immatriculés / fichés / opprimés / réquisitionnés / prêchés / recensés / traqués / *Odéon, escalier foyer.*

Nous sommes des rats (peut-être) et nous mordons. Les enragés /*Sorbonne.*

Nous sommes rassurés : 2 + 2 ne font plus 4 /*Censier.*

Nous sommes tous des "indésirables".

Nous sommes tous des juifs allemands /*Gare de Lyon.*

الملحق رقم 5: عينة من الكتابات الجرافيتية صاحبت الانتفاضات العربية

الأخيرة، بفرنسا (من توقيع المغتربين العرب):

انتشرت هذه الكتابات بُعيدَ اشتعال الانتفاضة التونسية، بتاريخ 16 جانفي 2010 ، انتشرت على جدران شوارع مدن فرنسية، (" Paris"، " Montreuil " و " Bagnolet ")⁷¹⁹.

- "Solidarite avec les revoltes au magrheb"
- "Dictature ou democratie, le capital s'engraisse".
- "Tunisie algerie ... boum !".
- "Le pillage des riches, c'est la lutte des classes".
- "Au maghreb comme ailleurs, vive l'insurrection".
- "Dictature ou democratie, a bas tous les etats".
- "A bas tous les pouvoirs".
- "En france comme au maghreb pouvoir assassin".
- "Propageons la revolte !".
- "La revolution c'est le renversement d'un regime, mais aussi le bouleversement des rapports sociaux".
- "alger- tunis. Insurrection".
- "ni dictature. Ni democratie. A bas tous les etats".
- "la repression et leurs politiciens n'arreteront pas nos revoltes".

⁷¹⁹ Graffitis- Three 'terrorists' arrested", 2011/01/23 by: Polisson. URL: http://juralibertaire.over-blog.com/article-appel-du-front-de-liberation-des-murs-6530_026_9.html. Consulted: 22/6/2011.

الملحق رقم 6: كرونولوجيا أبرز المحطات العالمية للممارسة الجرافيتية:

الملحق عبارة عن ترصّد كرونولوجي لأهم المحطّات التّاريخية العالمية للممارسة الجرافيتية، منذ القدم إلى اليوم (2010)⁷²⁰.

Antiquité:

- VIIe siècle avant notre ère : des graffitis de cette époque prouvent que des mercenaires grecs ont servi en Égypte
- 79: la ville de Pompei est recouverte des cendres du Vésuve, ce qui conservera de nombreuses peintures mais aussi des centaines de graffitis.

XIIe siècle:

Des graffitis, œuvres de graveurs effectuées juste avant la pose de l'enduit du décor peint sont fréquents, et redécouverts lors d'une restauration. Ceux de l'église de Moings sont exceptionnels avec sur la paroi nord les dessins très variés, avec des cavaliers, des paons, des écussons, des fleurs de lys et sur la paroi sud une scène de guerre.

XVIIIe siècle:

les voleurs et les mendiants gravent ou dessinent sur les portes des maisons des indications codées, qui indiquent à celui qui peut les déchiffrer ce qu'il trouvera dans la maison : personne seule, femme facile, sans intérêt, etc. Le premier recueil de ces signes date du XIX^e siècle, en Allemagne. Cette pratique perdure.

- de 1780 à 1787: Restif de la Bretonne écrit des épisodes de sa vie sur les parapets des ponts de l'Île Saint-Louis.

XIXe siècle :

- 1808 : Bonaparte ordonne la destruction de la Tour du Temple, qui avait servi de prison à la famille royale. On y relève un graffiti de Marie-Thérèse de France : « *Marie-Thérèse-Charlotte est la plus malheureuse personne du monde. Elle ne peut obtenir de savoir des nouvelles de sa mère, pas même d'être réunie à elle quoiqu'elle l'ait demandé mille fois. Vive ma bonne mère que j'aime bien et dont je ne peux savoir des nouvelles. Ô Mon dieu, pardonnez à ceux qui ont fait mourir mes parents. Ô mon père, veillez sur moi du haut du Ciel. Ô mon Dieu, pardonnez à ceux qui ont fait souffrir mes parents.* »
- 1843 : Dans La Revue des deux-mondes, Alfred de Musset publie le poème Le mie prigioni, dont l'inspiration lui est venue pendant un bref séjour en prison. Il y évoque les graffitis sur les murs. Lire le *Le mie prigioni* sur Wikisource
- années 1850 : sur les site de Signature Rock et de Independence Rock, les pionniers qui suivaient la Piste Bridger, la Piste de Mormons et la Piste de l'Oregon ont laissé une trace de leur passage, généralement datée. Ces site exceptionnels ont permis aux historiens d'en savoir plus sur le trajet exact de la Piste de l'Oregon.

⁷²⁰ الملحق منسوخ من الموقع الإلكتروني التالي:

http://fr.wikipedia.org/wiki/Chronologie_du_graffiti#Ann.C3.A9es_1990 .Un article de Wikipédia, L'encyclopédie libre. Consulté le : 8/9/2011.

XX^e siècle : Années 1940 :

- 14 juillet 1941 : depuis Londres, l'ancien ministre belge Victor de Laveleye lance la « campagne des V » en demandant depuis Londres à ses compatriotes de graffiter des "V" partout où ils le peuvent. V pour "victoire" mais aussi pour Vrijheid ("liberté"). Le succès dépasse de loin les frontières de la Belgique et des petits "V" sont gravés, peints ou dessinés dans toute l'Europe. Le principe sera repris après-guerre, dans l'Espagne de Franco, où l'on pourra lire des "P", pour "protester". Voir aussi : V pour Vendetta.
- 1944 : après le débarquement, alors que les troupes alliées progressaient, avec difficultés, vers Paris, et avaient la surprise d'avoir été précédés par un soldat Kilroy, qui écrivait aux endroits les plus inaccessibles et les plus dangereux, « Kilroywashere » (Kilroy était là). Très vite, "Kilroy" est devenu un nom collectif et mythique, des dizaines de soldats se sont mis à signer pour lui.

Années 1950 :

- 1952 : Guy Debord inscrit le graffiti "Ne travaillez jamais".

Années 1960 :

- 1960 : sortie du livre « Graffiti », par le photographe Brassaï, éd. Le Temps. (30 ans de photographie de graffitis.)
- 1963 : Gerard Zlotykamien commence à peindre dans les rues ses « éphémères », des silhouettes inspirées par les ombres laissées sur les murs par la population d'Hiroshima après l'explosion de la bombe atomique. Zlotykamien cesse les éphémères en 2003.
- Fin des années 1960 : les premiers tags, signés Cornbread et Cool Earl, apparaissent à Philadelphie.
- 1969 et années suivantes : début du graffiti à New York, avec Taki 183, Frank 207, Phase 2, Barbara 62 et Eva 62, Stayhigh 169, Joe 136, Julio 204 et des dizaines d'autres.
- 21 juillet 1971 : interview de Taki 183 dans le New York Times

Années 1970 :

- 1972 : première exposition d'art consacrée aux graffiti-artistes, à la Razor Gallery de New York. Les artistes sélectionnés par le sociologue Hugo Martinez et les United Graffiti Artists étaient Phase 2, Mico, Coco 144, Pistol, Flint 707, Bama, Snake et Stitch 1
- 1972 : John Lindsay, maire de New York, déclare la guerre aux graffitis, mais des graffiteurs de l'époque se rappellent que, malgré tout, les trains peints sous le mandat de ce maire parcouraient la ville pendant des années.
- mars 1973 : dans le New York Magazine, un article de Richard Goldstein intitulé *The Graffiti hit parade* évoque le potentiel artistique du graffiti.

- 1974 : Avec des auteurs tels que Tracy 168, Cliff 159 ou Blade, les graffitis new-yorkais se compliquent et gagnent des décors, des fonds, des personnages. Les premiers wagons intégralement peints commencent à se montrer.
- 1974 : Un homme qui se dit artiste peint à la bombe « *Kill lies all* » sur le *Guernica* de Pablo Picasso, au Museum of Modern Art de New York et afin de protester contre le massacre de My Lai. L'artiste, un iranien nommé Tony Shafrazi, qui a affirmé que son action n'était pas du vandalisme mais une complétion du tableau, deviendra plus tard un important marchand d'art américain, qui représentera d'ailleurs plusieurs artistes liés au graffiti : Keith Haring, Jean-Michel Basquiat ou encore Kenny Scharf.
- 1975-1977 : on s'accorde en général à considérer ces deux années comme les plus prolifiques de l'histoire en termes de graffitis dans le métro de New York : les divers principes créatifs étaient arrivés à maturité, le nombre de graffiteurs ne cessait d'augmenter, mais la réponse de la Metropolitan Transportation Authority était bien trop molle pour endiguer le phénomène.
- 1976 : Jean Baudrillard publie un essai consacré au graffiti, *Kool-Killer ou l'insurrection par les signes* (in: *L'échange symbolique ou la mort*, Gallimard)
- 1979 : Dans le film comique Monty Python : La Vie de Brian, l'Hébreu Brian est surpris par un centurion alors qu'il écrivait un slogan anti-romain sur un mur au centre-ville ; ce Romain constate une erreur de grammaire latine et oblige Brian à copier 100 fois la phrase correcte, ce qui le contraint à écrire sur tous les bâtiments de la place centrale.

Années 1980 :

- 1980 : exposition *New York New Wave* organisée par Diego Cortez au centre d'art P.S.1 (Moma) à New York. Des artistes installés tels que Andy Warhol y côtoient des graffiti-artists tels que Seen ou des peintres inspirés par cette culture tels que Jean-Michel Basquiat.
- 1981 : ouverture à New York des galeries *FashionModa* (3e avenue, dans le Bronx) et *Fun Gallery* (East Village), toutes deux consacrées à la promotion d'artistes issus du graffiti.
- 28 octobre 1981 : premier article consacré au graffiti new-yorkais dans la presse française. L'article « American Graffiti : Tag » est signé Pascaline Cuvelier.
- 1982 : sortie du film « Wild Style » (Charlie Ahearn), qui met en scène Lee Quinones et Lady Pink. Le documentaire « Style Wars » présente de nombreux artistes et met particulièrement en valeur Seen, Kase 2 (un graffiti-artist manchot), Dondi White ainsi que Cap, un graffiteur spécialisé dans le vandalisme des travaux des autres graffiteurs.
- 1982: la première exposition de Keith Haring a lieu, à la galerie Tony Shafrazi
- 1982 : Bando importe le graffiti new-yorkais à Paris. Spirit, dès 1979, tague Attica puis Panzer ou La Bande à Bonnot, son groupe de Punkrock, puis fonde le premier

crew : les Paris City Painters avec Blitz et Asphalt, ils se renommeront La Force Alphabétick. Cette primeur peut être disputée avec Epsilon Point : un peintre original, street-artist avant la lettre et n'ayant jamais eu peur de mélanger les techniques et les cultures : pochoiriste, graffiteur "new-yorkais", peintre plus traditionnel, (de E. : « *J'ai commencé à peindre à la bombe en 79 à Dijon, puis à Montpellier, avant de revenir à Paris en 1981* »).

- 1982 : Placardage sauvage dans le quartier beaubourg par la groupe Dix 10 d'une vingtaine d'affiches originales peintes à l'occasion de leur exposition "Le premier supermarché d'art" qui commence le mois suivant à l'Atelier-Galerie 74, 74 rue de la verrerie à Paris. Ils participent aussi bien des années plus tard à la série d'affichage connue sous le nom de "Une nuit".
- 1983 : débuts à Paris de Saho, Skki, Blitz, Lokiss, Scipion, TDK, Doc. Les premiers groupes sont le BombSquad 2, les Paris City Painters, le Bad Boys Crew. La plupart des premiers graffeurs sont des parisiens des beaux quartiers, le mouvement mettra des années avant d'atteindre les cités¹
- printemps 1983 : Blitz, Asphalt et Spirit peignent un métro parisien. C'est une première. Le second sera peint par Blitz, Asphalt et Saho.
- 1983 : formation du groupe VLP (Vive La Peinture). Ces 3 étudiants en art qui se sont rencontrés lors d'interventions dans les Catacombes de Paris vont prendre d'assaut les palissades des chantiers autour des Halles et du Louvre, les recouvrant de personnages issus du croisement de l'expressionnisme et de la BD, dans des couleurs criardes hyper-vitaminées .
- 1983 : sortie du documentaire « Style Wars » (Henry Chalfant/Tony Silver), où apparaissent des graffiti-artists tels que Seen, Dondi White, Kaze 2, Daze, Iz the Wiz, etc.
- 1983 : ouverture de la galerie de Sidney Janis (57ème rue, New York), consacrée au graffiti. Sidney Janis, né en 1896 et décédé en 1989, était un collectionneur d'art "primitif" américain depuis le début des années 1940.
- 1984 : sortie du livre « Subway Art », par Henry Chalfant et Martha Cooper. Ce sera la bible des amateurs de graffiti "new-yorkais"
- 1984 : La RATP embauche le graffeur Futura 2000 pour sa campagne "Ticket chic, ticket choc" (des affiches détournées à la bombe)
- 1984 : La galerie Tony Shafrazi expose Kenny Scharf.
- 1984 : l'exposition Arte de Frontiera - NY Graffiti, organisée par la galerie d'Art Moderne de Bologne (et qui voyagera à Milan) propose au public européen une sélection d'artistes "post-graffiti" : Basquiat, Haring, Quinones, Lady Pink, Zephyr, Daze, Rammellzee, A-One, etc.
- 1984 : On commence à parler de Post-graffiti, et c'est le titre d'une exposition à la galerie de Sidney Janis.

- 1984 : Les Frères Ripoulin exposent à la Galerie du Jour/Agnès b.
- 1985 : Les VLP (Vive La Peinture) organisent à Bondy (Seine-Saint-Denis) le long du canal de l'Ourcq, le premier rassemblement international de fresquistes, graffitistes et peintres de rue . Les murs et ponts sont recouverts sur plusieurs kilomètres .
- 1985 : Les Frères Ripoulin exposent à la Galerie Tony Shafrazi, à New York. C'est un premier lien véritable entre Paris et New York.
- 1985 : sortie du livre de D. Riout, D.Gurdjian, J.-P. Leroux, « Le livre du graffiti » aux éditions Alternatives.
- 14 janvier 1986 : première interview de graffiti-artists « hip hop » français, par Le Matin : Lokiss, Scipion, Saho, Skki et Jacki.
- 1987 : ouverture du musée du graffiti ancien à Verneuil-en-Halatte (Oise)
- 1987 : sortie du livre « Spraycan Art », par Henri Chalfant et James Prigoff. Ce livre est important car il est le premier à montrer que le graffiti existe hors de New York, il traite d'autres villes américaines mais aussi de Paris, Barcelone, Amsterdam, Londres,
- 1988 : c'est, selon le sociologue Alain Vulbeau, l'année où les "tags" sont devenus insupportables pour la population parisienne : les articles des journaux n'en parlent en effet plus de manière bienveillante, dans l'opinion publique le vandalisme urbain a pris le pas sur l'art de rue.
- 1988 : Docter crée le groupe TAS (Terrorist Art System) à Saint Quentin en Yvelines, France, banlieue de Versailles, avec Doger, Edge, Monzon, Onyx, Snooker et Trisk.
- 1989 : le dernier wagon graffitié est mis au garage par la Metropolitan Transportation Authority à New York, achevant avec succès une campagne de 5 ans destinée à éradiquer le graffiti dans le métro de la ville. Cette campagne a coûté environ 250 millions de dollars.
- 1989 : Azot, Mad, Jenlain, Monzon et Snooker commencent les pochoirs dans la ville de Saint Quentin en Yvelines, France. Ils intègrent tous les membres du groupe TAS qui devient ainsi le premier groupe de graffiti alliant graffiti nord américain et graffiti ouest européen ainsi que le groupe de graffiti comportant le plus grand nombre de pochoiristes. Monzon et Snooker sont des tagueurs qui se mettent aux pochoirs et Azot, Jenlain et Mad sont des pochoiristes qui se mettent aux tags.
- 1989 : Monzon crée le pochoir hip-hop, faisant ainsi le lien entre les graffiti d'origine ouest européenne et plus particulièrement anglaise et punk (pochoirs) et les graffiti d'origine nord américaine et rock (tags et graffs). Ces pochoirs se caractérisent par l'utilisation des lettrages, et/ou une signature, un groupe de référence et l'aérosol comme symbole au lieu du rat cher aux punks.
- 1989 : Monzon et Mad TAS élaborent le premier pochoir free style.

Années 1990 :

- 1991 Sortie en France de *Paris Tonkar* de Tarek ben Yakhlef et Sylvain Doriath aux Éditions Florent Massot et Romain Pillement, 1991 (ISBN 2-908382-09-1). Premier livre consacré aux graffitis parisiens.
- 1992 (?) une publicité de la RATP montrant un tag de Megaton avertit : *bien que nos galeries soient les plus fréquentées, certains modes d'expression n'y auront plus leur place.*
- 12 janvier 1992, la station de métro Louvre-Rivoli est vandalisée. L'image de copies de statues antiques taguées fera le tour du monde et choquera beaucoup l'opinion publique.
- 18 janvier 1992, le Figaro magazine titre *Tags : ras-le-bol* et pointe du doigt la bienveillance de Jack Lang à l'égard du graffiti.
- 25 février 1992 : lors d'un point presse, Jacques Chirac, maire de Paris, propose de réglementer la vente des bombes de peinture.
- mars 1992 : à Bruniquel (Tarn-et-Garonne), des scouts (éclaireurs de France) engagés dans une opération de dépollution, effacent des peintures rupestres datant de l'ère Magdalénienne (~15 000 ans) en croyant nettoyer des graffitis.
- 1993 : Monzon TAS est le premier à investir les tunnels du métro de Bruxelles. Il y fait les premiers tags, les premiers flops, le premier lettrage et le premier pochoir.
- 1993 : Les TAS Sputnik, Supé, Same, Monzon, Snookeret Miss TootyII effectuent la première virée dans les tunnels du métro de Bruxelles. Le plus jeune, Supé, 13 ans, se fait attraper, après une course poursuite sur trois stations.
- 1996: la société *KeepAmericaBeautiful, Inc.* et la compagnie *Sherwin-Williams* (fabriquant des bombes de peinture Krylon, légendaires dans le monde du graffiti) lancent un programme anti-graffiti : *Graffiti Hurts* (le graffiti fait mal).
- 1996 : Monzon TAS monte la première association de graffiti de Belgique : Estampe 51.
- 1999 : Prise en flagrant délit à la suite de la plainte du propriétaire d'un mur, Miss Tic est condamnée à une amende de 22 000 Francs et à des dommages et intérêts.
- 1999: un sondage réalisé pour la S.N.C.F. (Société nationale des chemins de fer français fait état d'une opinion majoritaire contre les tags et graffiti qui sont associés à l'insécurité. Au même moment, en France, ce sont les émeutes en banlieue et à Paris au sein même des manifestations étudiantes. L'insécurité est ressentie partout et par n'importe quel signe... Ce sondage sera donc le prétexte ou la raison, c'est selon, pour le procès que va engager la S.N.C.F. pour la censure des graffitis dans les magazines.
- 1999 : Estampe 51 asbl organise la première exposition de pochoirs hip-hop du monde à la Boutique culturelle d'Anderlecht, Bruxelles.

XXIe siècle :

- 2000 : les VLP (Vive La Peinture) collent ZumanKojito sur les murs de Paris . Personnage de 2 mètres de haut, peint sur papier, il est surmonté d'une bulle où l'on peut lire ses pensées ("J'existe", "Je résiste", "Je suis un morceau d'utopie" etc...)
 - 2001 : ouverture à Paris de la Galerie Speerstra, dédiée au graffiti. Willem Speerstra vend et expose le genre graffiti depuis 1990 avant de s'être décidé à ouvrir un espace à son nom. (En 2007, la galerie déménage en Suisse.)
 - 2003 : la SNCF attaque en justice les magazines Graff'it !, Graff Bombz et Mix Grill, qu'elle accuse d'encourager le phénomène graffiti sur ses supports en la publication de photographies. Déboutée en première instance, la SNCF fait appel...
 - 17 février 2006: sortie du jeu vidéo d'aventure Marc Ecko's Getting Up: Contents Under Pressure par l'éditeur Atari. Le héros est un graffiteur, qui plus est, vandale et violent. Le jeu a été réalisé avec les conseils de nombreuses célébrités du genre, qui ont reçu, elles, compensation (Futura 2000 par exemple).
 - 2006 : Monzon TAS sort les premiers timbres de graffiti d'Europe, l'un avec son tag, l'autre avec son logo.
 - 2006 : l'asbl Estampe 51 élabore les premières revendications politiques du Mouvement graffiti et les diffusent via l'exposition "D'une Citoyenneté à l'Autre" organisée dans les locaux d'Infor Femmes asbl, à Anderlecht, Bruxelles. Le graffiti peut désormais se présenter comme un mouvement social dans le sens que Touraine lui donne.
 - Fin septembre 2006 : La SNCF perd le procès en appel qu'elle avait intenté aux magazines Graff'it !, Graff Bombz et Mix Grill. Les journaux, galeries, et consorts conservent le droit de montrer et diffuser des photos de Graffiti mêmes vandales étant donné le fait que ceux-ci n'ont pas pour fin d'encourager à la dégradation mais bien de le relayer, avec la possibilité que ce soit un Art pour le public qui les regardent.
- À ce même moment, La Speerstra Gallery et la Maison d'édition Graff It Productions organisent une exposition et publient un livre (après le fameux ouvrage "Subway Art") où Henry Chalfant présente au grand public une série de métros new-yorkais graffés inédits, datée de 1979 à 1984.
- 2009 : du 27 mars au 3 mai, Exposition Le Tag au Grand Palais, La collection Gallizia, 300 œuvres des plus grands graffeurs internationaux.
- Le Ministre de la Culture, M. Donnedieu de Vabres, ouvre quant à lui, les portes du Grand Palais de Paris à la culture Hip-Hop.
- Exposition à la fondation Cartier retraçant l'histoire du graffiti.
 - 2010: 13, 14 et 15 février, Exposition-Vente "T.A.G. Les lettres de noblesse" au Palais de Tokyo, 5 000 visiteurs en deux jours. Les œuvres exposées ont été vendues le lundi 15 février par la société Pierre Bergé & Associés au profit de l'association SOS Racisme. Le record a été obtenu par une toile de Taki 183.

الملخص:

تهدف دراستنا للكشف عن ملامح هوية (انتماءات) الطالب الجزائري من خلال "الكتابات الجرافيتية/الغرافيتي" المنتشرة بمختلف التضاريس الفرعية للفضاء الجامعي. لأجل ذلك اعتمدنا على المنهج الفهمي والمقاربة الثقافية/الثقافية. ليتجلى لنا بعد التحليل أن "الممارسة الجرافيتية" تتموضع كوسيلة بل "استراتيجية" للتعبير عن خصائصه الثقافية والهوياتية التي تميزه عن "الآخرين"، ومنه تأكيد وانتزاع الاعتراف لهذه "الهوية".

الكلمات المفتاحية: الممارسة الجرافيتية - الثقافة الطلابية - الهوية الطلابية - المثنون الجرافيتية - الطالب المُعْرِفَت.

Le résumé :

L'objectif de la présente étude est de comprendre les traits culturels et identitaires (Les identifications) de l'étudiant algérien à travers "les écrits graffittiques/Les graffitis", phénomène déployé dans tous les sous-espaces universitaires. Pour cette raison nous avons adopté la méthode compréhensive et l'approche culturaliste. Notre conclusion est la « pratique du graffiti » est un moyen, mieux une stratégie d'expression culturelle et identitaire de l'étudiant le distinguant des « Autres », et visant par le même l'affirmation et la reconnaissance de cette "identité".

Mots clés : La pratique graffittique- La culture étudiante – L'identité estudiantine - Les contenus graffiques –L'étudiant graffeur.

The abstract:

Our goal in this study consist to understand the cultural and identities features through the "Writings graffiti/ Graffiti". This phenomenon spread over the subspaces university. For that reason we rborowed the "comprehensive method" and the "cultural approach".

We concluded that the practice of the "graffiti" is a " Strategy" in order to express his "culture" that constitutes his "Identity", that defers itself of "Others". Therefore that makes it possible both the assertion and acknowledgment of this identity.

The key concepts: The graffiti practice - the student culture - student identity - The graffiti's content - The student graffitist.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم العلوم الاجتماعية

شعبة علم الاجتماع

ملخص أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع موسومة:

هُوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات
الغرافيتية جامعة تلمسان نموذجاً

إعداد الطالب: باي بوعلام إشراف الدكتور: مزوار بلخضر

السنة الجامعية: 2012-2013

ملخص الأطروحة

نروم من خلال الصفحات التالية تقديم ملخص مطول عن دراستنا الموسومة "هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الجغرافية - جامعة تلمسان نموذجاً".

مقدمة:

يعيش المجتمع العربي عامة و الجزائري خاصة، والشبابي (الطلابي) بالأخص، اختبارات عسيرة متعددة المستويات (اجتماعية، ثقافية، سياسية، اقتصادية.. يلخصها الدكتور "مسعود ضاهر" بقوله "إن أبرز سمات المشهد الثقافي العربي الرّاهن هي التّخلف، القُطرية، السُّكونية، اللاديمقراطية، الاستهلاكية"¹. جلّها متغيرات توجّج أسئلة "الهوية" (الفردية والجماعية والمجتمعية)، وتؤشّر على الضرورة بناء إستراتيجيات لإستحداث "توازن" داخل الوعي الفردي والجمعي، ربما يعزّز الدّفاعات الدّاتية، واستجاباتها الفاعلة للتعامل مع إيقاع الضغوط التي تفرضها متغيرات الحداثة وإكراهات ظاهرة العولمة، وتداعيات الفضاءات والحدود المفتوحة، وأنماط التّنمية أو النّماء السريع في أزمنة العولمة².

سوسيولوجيًا، إنّنا أمام ظاهرة "ثقافة الهوية(ات)" -وهوية الثقافة(ات)-، حيث أضحت هذه الأخيرة من أهمّ متغيّرات الاستقطاب والتّعبئة والحشد، بعد تقهر "الأيديولوجيات التقليدية"، إن لم تتحوّل بحدّ ذاتها إلى "أيديولوجية". فإنّ أهمّ تجلّيات الأزمة التي تعيشها معظم المجتمعات العربية ترتبط بمسألة الهوية، سواء تعلق الأمر بالمجتمع العراقي أو السّوداني، اللّبناني، الفلسطيني أو الجزائري.. إلخ. إذ أخذت "الظاهرة" طابعاً صدامياً ودّمويّاً، داخل الدولة القُطرية (الوطنية) الواحدة. ذلك لأنّها تحمل في طيّاتها عناصر ثابتة، وأخرى مُتجدّدة ومتغيّرة. وغالباً ما تخضع هذه العناصر للفحص والتّدقيق، وإعادة التّرتيب والهيكلية، خاصّة في مجتمعٍ كمجتمعنا الجزائري، حيث تعرض منذ مطلع عقد الثّمانينات -وقبله خلال الهيمنة الاستعمارية الفرنسية-

¹ ورد ذلك خلال ندوة "نحو نظام ثقافي عربي جديد"، صفاقس، تونس، 22-24/07/1991.

² يوسف الحسن، الهوية وكتابة التاريخ، الخبر الجزائرية، الاثني 2011/7/14.

لإختبارات عسيرة على مستوى مختلف المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، جعلته يعيش "صدمة ثقافية وحضارية" كما يصفها "أبو القاسم سعد الله"³.

مما جعل الشباب/الطلبة يخضع في تنشئته وتربيته لمؤسسات اجتماعية متعددة ومتنوعة، تقودها وتوجهها قيّم ومعايير وأهداف مختلفة ومخالفة -ومتناقضة أحياناً-. ويزيد الأمر تعقيداً و"إغتراباً" لشباب المجتمعات التي تعرف "فترة انتقالية"، كالمجتمع الجزائري، حيث يُعاني شبابه -كما يعتقد العديد من الباحثين الجزائريين ومن بينهم "علي الكنز"- تَشْتَتاً وِعْدَم وضوح للنموذج الذي يُفترض أن يُلتمسه وينشده ويتمثله، في عالم مضطرب ومتغير بصفة مُتسارعة مَلِيءٍ بالتناقضات والتلاطمات. إضافةً إلى تعايش هذه الفئة في ظلّ كيانات اجتماعية متعددة ومُتعارضة، تبدأ بالقبيلة وتمرّ بالطائفة وتنتهي بالوطن، ثم بالمجتمع الإنساني ككل⁴. إنّه "يعيش في كيان مرّكب معقد، تتداخل فيه عناصر الولاءات المحلية بالولاءات الوطنية، والعالمية، خاصّة مع تأثيرات العولمة، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود المشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة"⁵.

"وضعية" اضطرتّه للاجتهاد في افتكاك وانتزاع "مكانة" اجتماعية مُتميّزة ومُميّزة له، تُعبّر بدرجة مناسبة عن أوضاعه وحاجاته، وتُميّز كينونته، وتحدّد له أدواره الملائمة، ومعايير سلوكياته وتصرفاته، محاولاً تشكيل شخصية مستقلة ومستقرة نوعاً ما. إلا أنّ هذه العملية(ات) لن تكون سهلة التحقيق نظراً للأوضاع الاستثنائية، السياسية والاقتصادية

³ حيث يؤكد "بأنّ ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر،... بل احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو احتلال التقدم للتخلف".♦

♦ أبو القاسم سعد الله، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال"، مقدمة الطبعة الثانية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1976، ص5-6. نقلاً عن مقال: جمال غريد، "الجزائر: ثنائية المجتمع وثنائية النخبة التاريخية"، الملتقى الدولي ("التّخب والمجتمع في العالم العربي حالتا الجزائر ومصر")، تنظيم مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقي من أجل التنمية بالجزائر بالتعاون مع مركز البحوث العربية للدراسات العربية والإفريقية والتوثيق بالقاهرة، تيميمون، 23-24-25 مارس 2002، ص 2.

⁴ إنّه يعيش "أزمة اختيارات ورُموز ومرجعيات هويّاتية".

⁵ سعد الدين إبراهيم، "تعليم الأمة العربية للتخطيط في القرن العشرين"، القاهرة، المعهد العربي للتخطيط، 1992، ص

والاجتماعية، التي يعيشها السّواد الأعظم من أفراد المجتمع -خاصة الشباب منهم- مع تباين التّضاريس.

يشكل الطلبة الجامعيون نسبة مهمّة من فئة الشّباب ككل، إذ ما فتئت تُعرف اتّساعًا يوميًا بعد آخر- ففي الجزائر مثلاً عرف عدد الطلبة الجامعيين زيادة معتبرة⁶. وضعية شغلت العديد من "أهل الحل والرّبط ومالكي وسائل الإنتاج"، من سياسيين وإداريين وأصحاب مؤسسات، وباحثين أفنّوا حياتهم المهنية مُنْهَجِسِينَ بِتَحَوُّلاتِهَا وإنتاجاتها الثّقافية والاجتماعية-ولمّا لا الجغرافية..؟- حيث تبلورت رُؤى تعاملت مع الطلبة باعتبارهم جسم اجتماعي متماسك، له خصوصياته المتجانسة⁷.

حيث يحاول الطالب خلال المرحلة الجامعية تكثيف تفاعلاته الاجتماعية، من أجل إثبات ذاته أمام الآخر القريب والبعيد. وفي نفس الوقت يركّز من حين لآخر لمراجعة مؤقتة، ينعزل فيها لمحادثة الالتزامات الشّخصية والجماعية (المجتمع المحلي)، والمؤسّساتية (الفضاء الجامعي خاصة)، والمجتمعية (باقي الفضاءات الأخرى التي يتفاعل معها). يركن لما يسميه "أ. ستروس Anselm. L Strauss"⁸ بـ"التّوقف الهويّاتي Le moratoire identitaire"، حيث يُعرّفه بأنّه لحظة إنسحاب مؤقت للفرد من الحياة الاجتماعية من أجل تأمّل مشاكله الهويّاتية، ومنه إعادة بناء وتشكيل التزاماته اتجاه نفسه واتجاه الآخرين⁹.

⁶ بلغ عددهم خلال موسم 2009-2010 حوالي 1.164.137 طالب، مقابل 2.750 طالب ل 1962-1963. نقلا عن:

"Djamel Guerid, "L'université algérienne à 100 ans", Le Quotidien d'Oran, 2010/1/17.

ليقفز العدد خلال موسم 2011-2012 حوالي 1.400.000 طالب، مُوزَعين على النظامين الكلاسيكي و(LMD).
⁷ يتساءل "م. نوفي Michel Novi" عن تجانس الظروف المشتركة بين الطلبة، والتي تضيف لتشكّل جماعة طلابية ذات مصالح وأهداف مشتركة. ومنه يمكن تعريف الطلبة إمّا من خلال "المكانة" أو من خلال امتداد حالة المراهقة. لكن هل يسمح لنا هكذا وضع الكلام عن "الجماعة الطلابية" بشكل مطلق، حيث يتدخل متغيّر تنوّع التّخصصات الأكاديمية ليخلط التنبؤات. وهذا ما أثبتته دراسته (1991) عن طلبة جامعة "Nice-Sophia Antipolis" حيث سجّل اختلاف واضح في كيفية التّعبير عن مشاكلهم حسب إختلاف الكليات والأقسام.

⁸ "Anselm Leonard Strauss" (1916-1996): سوسيولوجي أمريكي، تأثر بالفاعلية الرّمزية، وانتقد الوظيفية بحدّة، خاصة من خلال كتابه:

Miroirs et masques. Une introduction à l'interactionnisme, Paris, Métailié, 1992, 192 p.
Une globalisation. Les mobilités internationales à l'ère de la⁹Stéphanie Garneau, sociologique des carrières spatiales et des socialisations professionnelles comparaison

وبما أنّ هناك ممارسات متعدّدة ومتنوّعة في التّعبير عن الهويات (الوطنية والفرعية والفردية)، تتموضع "الممارسة الكتابيّة" كاستراتيجية فعّالة لذلك. لأنّ الكتابة عامّة -بما فيها الغرافيتية Les graffitis - ليست كما يؤكّد "روي هاريس Roy Harris" في كتابه "أصل الكتابة"، صدّى خطياً للكلام فقط، بل نظاماً آخر لتمثيل الأفكار التي تمتلك استقلاليتها الخاصة. ومنه لا تغدو الكتابة مجرد حاملاً للكلام، بل ابتكاراً مُتميّزاً أوّلجت البشرية جمّعاء في عصر جديد.

غير أنّ المُتتبع لتَمَظُّهَرَات "المُمارسة الكتابيّة" بأنواعها، يقتنع بأنّ هناك أشكال تُصنّف خارج السّياق الرسمي لها-أي في اللّارسمي- غالباً ما يُنظر إليها بنوع من التّغافل والتهميش والدونيّة، رغم حضورها الواسع في حياتنا اليومية. كالكتابة الغرافيتية Les graffitis. التي يصفها آل الأنثروبولوجيا والسوسولوجيا بأنّها - "الكتابة" باختلاف أنواعها وأشكالها وحاملاتها- تهدف إلى الإفصاح/التّعبير عن الانتماء الجماعي لكاتبها. إنّها تُعبّر كما يرى "جون ألبرت Albert Jean" في غالب الأحيان عن الهوية الشّخصية والعائلية والجماعية لأصحابها. فالطالب في "مسيرة بحثه" عن هويته يدخل في تفاعلات أفقية (مع نظرائه من الطلبة، وباقي من يتفاعل معهم خارج المحيط الجامعي)، وعمودية (الأستاذة والإداريين وباقي القائمين على خدمة "الحرم الجامعي")، يحاول إثبات ذاته وانتزاع الاعتراف منهم. يُترجم ذلك من خلال سلوكياته القويّة والفعليّة والإيمائية، والرّمزية الثّقافية، ك (اللّباس، قصّة الشّعور واللّكنة..)، وتجرّأ ونقول و"الممارسة الغرافيتية".

إنّها بمثابة سرد ذاتي/جماعتي، حول وقائع وحيثيات الحياة اليومية للطّالب، بأبعادها الثّلاثة الماضي والحاضر والمستقبل. سردٌ فرديٌّ وجماعيٌّ لخصوصيات ومُعاناة "الذّات" الطّلابية، لذا يجب فهم وتفهم التّمثّلات والمعايير المُهندِسة للثقافة الطّلابية، ومنه للهوية الطّلابية، من خلال استقصاء وتحليل مختلف المضامين الغرافيتية التي انتشرت بمختلف تضاريس جامعة أبي بكر بلقايد-الجيزّ المكاني للدراسة- من قاعات ومُدرجات، ومطاعم،

ومحطات الحافلات، ومراحيض وإقامات جامعية، و... على دَعائمِ عِدَّة، كالجدران، الأعمدة، المناضد، الأبواب، التّوافذ، الكراسي..). فرضت -وتفرض- نفسها على الباحثين كظاهرة اجتماعية بحثية، تحتاج للفحص والتّحقيق. فالمتبصر للفضاء الجامعي يلحظ التّواجد الكثيف لها عبر كامل الفضاءات والوسائط التي تُؤثِّثُ هذا الأخير. كلّ هذا دفعنا لترح مجموعة من الأسئلة فرضت وجودها على موضوعنا، ومنها:

- يا تُرى، ما مضمون هذه "الكتابات الجغرافية" (الخرشبات) المنتشرة بالوسط الجامعي؟
- وما الدلالات السّوسيو أنثروبولوجية التي يمكن إستشفافها من هكذا "مضامين"؟.
- أليست هذه "الكتابات" تأكيداً على هويّة طلابيّة متميّزة؟.
- ما أهمّ الأسباب الثّأويّة وراء إستفحال الممارسة الجغرافية بالفضاء الجامعي؟.
- ما دوافع إتجاه الطالب لهكذا كتابة هامشية؟.
- أليست صياغة طلابية خاصّة لمعالم هويّاتية متميّزة عن ملامح "الهوية المنشودّة" من طرف المؤسّسات التّعليمية الرّسمية؟.
- لماذا هذا الحضور المُكثّف "للمدنس" على مستوى مضامين هكذا "كتابات"؟.
- ألا يمكن القول أنّ "الفعل الجغرافي" يُوَشِّر عن كوجيطو جديد "أنا أُغرِفَت -أكتب الجغرافيتيا- إذن أنا مَوْجُود" على صيغة الكوجيطو الديقارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود"؟.
- ولمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة صغنا الإجابات المؤقتة (الفرضيات) التّالية:
- تعبّر هذه "الكتابات" عن مضامين مُهندِسة لثقافة طلابية خاصّة.
- تعكس هكذا "كتابات جغرافية" أبعاد هوية طلابية متميّزة بانتماءاتها المتعدّدة.
- "الكتابات الجغرافية" إستراتيجية هويّاتية للتّعبير عن ملامح الهوية الطلابية.
- إنتشرت "الجغرافيتيا" لعدم توافُر قنوات تعبيرية ملائمة للطالب للتّعبير عن خصوصياته الثّقافية.

- ظهرت "الغرافيتيا الطلابية" كردّ فعل لسلطة المنع والتّهميش¹⁰ التي يعاني منها الطالب في الفضاء الجامعي خاصةً والمجتمعي عامّةً.
- غلب المضمون "المدنّس" نتيجة الطابع التّسلطي السائد في "علاقات" التّنشئة الاجتماعية الممارّسة بالمؤسّسات التّنشئية المنوطة بهكذا وظيفة.
- إنبلّجت هذه "الكتابات" نتيجة إنباس التّعبير الحر عن الخصوصيات الثقافية للطالب، بحجة الممنوع والحرام والعيب، المُتربّحة ما بين ثنائية المقدس والمدنّس.
- إلّجأ الطالب "للفعل الغرافيتي" لإثبات إنوجاده وإنّزاع الاعتراف الاجتماعي من "الأخر".

☒ الاختيارات النظرية والمنهجية للدراسة:

بشكل عام، نعتقد أنّ دراستنا تتموقع ضمن الاجتهادات السوسولوجية التي تُراهن على المقاربة السوسولوجية النّقدية، كخيار منهجي لمحاولة فهم العالم الاجتماعي، وقد ركّزنا على ملامسة المسألة الهويّاتية الطّلابية في علاقتها بالممارسة الغرافيتية، بحُكم ما أصبح يَعرفه الموضوع من إهتمام متزايد -خاصةً في المجتمعات الغربية- بُغية الرّفْع من كفاءة الفئة الشّبابية عامّة، والطّلابية خاصّة. ضمن الاتجاه الميكروسوسولوجي، و اختيارات المنهج الفهمي، الذي يُيسّر تفهم المعاني الكامنة وراء أفعال الأفراد الذين بمقدورهم التصرف بحرية -محدودة-، في مصائيرهم، كما يعتقد "م. فيبر M.WEBER"¹¹. كما اعتمدنا على المقاربة الثقافية (الثقافية) بُغية إستجلاء أواليات إشتغال الممارسة (الظاهرة)، باعتبارها عاكسةً لثَمَثَلات وتصوّرات وانتماءات الفاعلين (الطلبة المُعَرَفَتِين /graffiteurs / Les étudiants graffeurs). حيث قمنا بإستثمار كامل المعطيات (الميدانية) المُتاحة قصد تحليل كُُل وحدة غرافيتية (كلمة وجملة أو رمز و صورة)، بالتركيز على مضمونها واللغة المستعملة، دون إغفال طبيعة الحامل Support،... من حيث التقنيات، اعتمدنا بالدرجة الأولى على "تحليل المضمون"، كتقنية رئيسة.

¹⁰ يعتقد الباحث "ألان ميلو Alain Milon" أنّ ظاهرة الغرافيتيا ناتجة عن ظاهرة "التّهميش الحضري"، ذلك أنّ الشّخص المُهمّش ليس ذلك الذي يُمنع من الإقامة في إقليم معيّن، وإنّما الذي عمّلت الثقافة المجتمعية بإبعاده -عن قصد أو عن غير قصد-، فيلتجأ لوسيلة الكتابة الهيروغليفية الغرافيتية للردّ عليها، ومنه على الإقصاء والتّهميش.

¹¹ Max Weber, Économie et Société 1, Les catégories de la sociologie, Traduit de l'allemand par Julien Freund et al, la Librairie Plon en 1971, p28.

يتوزع الإطار المورفولوجي للدراسة على ثلاثة فصول مُؤنَّثة بعناصر خضعت للانتقال التدريجي من العام إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، من الانساني العالمي إلى المحلي الجزائري، ثم الجامعي. وهكذا توزعت شواغلها على مقدمة عامة، بمثابة تقعيد للإشكالية المدروسة، مع أهميتها البحثية، وأهدافها ودوافع الاستمرار فيها، مع الإشارة إلى اختياراتها المنهجية. لندفها بفصل أوّل/تمهيدي يسرد أركيولوجيا "الممارسة الجرافيتية" وركائزها النظرية، عالمياً وعربياً وجزائرياً، وواقعها بين استراتيجية المكافحة والاستيعاب، من خلال ثلّة من الدراسات التي قاربتها من زوايا متعدّدة. في حين يستعرض الفصل الثاني التقعيد المفاهيمي والمنهجي للدراسة، بتسييج أبرز المفاهيم المهندسة لها، مع عرض مختصر لأهم المقاربات المعتمدة من المختصين في دراستها. لنتقل للفصل الثالث لإستجلاء أبرز ملامح الهوية الطلابية من خلال المُتون الجرافيتية، مع تذييله بإستنتاجات مركزة حولها.

الفصل الأول: : أركيولوجية الممارسة "الجرافيتية" وركائزها النظرية

حاولنا ضمن الفصل الأول ترصّد تاريخ الفعل/الممارسة الجرافيتية، محاولين استجلاء أهمّ مظاهر وخصائص وتحولات الممارسة قديماً وحديثاً، عالمياً ومحلياً، من خلال مختلف الدّراسات المتعددة التّخصصات التي أرّخت لها. ومن ثمة، فهم العلوم الإنسانية والاجتماعية لهكذا ظاهرة، منذ أن تلمّس الإنسان الأوّل بدهيات فعل (الخربشة) التي سبقت تاريخياً الكتابة (الجرافيتيا التاريخية)¹². لنعرّج على بعض حيثيات رحلتها المعاصرة من أمريكا (المهد) إلى أوروبا، وباقي المعمورة، ومجالات التأثير والتأثر، وأهم الثّيمات التي طرحتها. لنقف بعدها على أهم ملامح الظّاهرة بالمجتمعات العربية-قديماً وحديثاً- على قلة المراجع التي توقّرت لدينا. كل ذلك كمدخل تقعيدي لفهم الظاهرة بالفضاء الجزائري عامّة، والجامعي خاصّة، وجامعة تلمسان بالأخص. لنذيل الفصل بأهم المواقف المجتمعية -خاصةً الرّسمية- منها، واستراتيجيات السّلطات للتّخلص منها، أو تمثّلها وصهرها في ثقافة المجتمع (الرسمية)، على نحو "نظرية" النّوافذ

¹² ساهم العديد من الباحثين في فكّ شفرة هكذا "كتابات"، فمنهم من اعتبرها شكلاً من أشكال التواصل (المكتوب) القبلي (Communication tribale)، بين أفراد القبيلة الواحدة. ومنهم من فقّها على أنّها قرآنٌ جليّة تُورّخ لممارسات شعائر وطقوس دينية، لجماعات ولمجتمعات قديمة.

المكسورة Broken Windows". "جيمس ويلسون Welson .Q. James" و"جيبورج كلينغ
George. L. Killing".

أما الفصل الثاني: التّعديد المفاهيمي والمنهجي للدراسة

فركّزنا فيه على أهم المفاهيم المُسيّجة للإطار المفاهيمي لدراستنا، باستجلاء أهم
المصطلحات المؤثّثة لها. إنطلاقاً من تعريفات أهم القواميس والمعاجم والموسوعات المتخصصة،
وكذا إسهامات المفكرين والباحثين من خلال دراسات وأبحاث رصينة. في البدء، سنّلامس
مفاهيم الهوية، باعتبارها من المفاهيم الاستراتيجية حسب الباحث الإسباني "ج. جيميناغ
Gilberto Giménez".

إذ يعرفها سوسولوجياً، "Dictionnaire de Sociologie" بأنّها كلمة تنحدر من الجذر
اللاتيني "idem" (Le même)، الذي يدلّ على التّوحد والاستمرارية. وتعني الهوية أيضاً، كلّما
أعرّف به ذاتي، وكل ما يُعرّفني به الآخرون. وترتبط الهوية دائماً بعلامات ورموز تستخدم لإثبات
تشابه الأفراد فيما بينهم، مقابل تحديد التّمايز عن الآخرين¹³. مروراً " الانتماء، التّماهي"،
وتمفصلاتها المفهومية.

ومن ثمّة نعرّج على مفاهيم الثقافة وتفرعاتها (الثقافة الطلابية) المؤثّثة لل"الهوية الطلابية"
إنطلاقاً من مستويين أساسيين، مستوى الهوية الفردية، وتعني مجموعة الخصائص الجسدية
والنفسية والعقلية والعُمريّة، والفنوية والاجتماعية والثقافية (بما للمفهوم من شحّات دلالية
سوسولوجية وأنثروبولوجية)، من حيث القِيَم والأذواق والمشاعر والاعتقادات التي يتميّر بها
كل طالب(ة) بين نظرائه من الطلبة (داخل الفضاء الجامعي)، والتي تخضع لمتغيرات متقاطعة،
كالسّن (المراهقة بمراحلها)، الجنس، التخصص الأكاديمي، الأصل الاجتماعي والثقافي... إذ
تتكامل فيما بينها لتأثّر وتُنَبّي الشّعور بهويته المنفردة والمتفردة، والتي عبّر عن بعض ملامحها
غرافيتياً. ومستوى الهوية الجماعية (الجماعية Groupale)، وتضم مجموع السّمات المشتركة
التي تميّر الجماعة(ات) الطلابية -كفئة مُتميّزة- عن غيرها من فئات المجتمع الجزائري، سواء

, Coll: Dictionnaires Le Robert "Dictionnaire de Sociologie.L e ROBERT" ¹³ Pierre Ansart,

264..p Le Robert ,1999,(le mots: Identité),:Seuil, Ed /

عن مجموعات الشّباب الغير جامعي (الشّباب العاطل-أو المُعطل- الشّباب المشتغل، الشّباب المغترب...)، أو عن باقي فئات المجتمع، كفئة الرّاشدين (Les adultes)، داخل الوسط الجامعي، من أساتذة وإداريين، أو خارجه من أولياء ومسؤولين.

ثم "الكتابة" ومستوياتها مرورًا بمفهوم المراهقة باعتبارها مرحلة بحث هُويّاتي بامتياز، مع الإشارة لرمزية أهم "دعامة غرافيتية Support graffitique" المتمثلة في "الجدار". لتركز على "الغرافيتيا/الغرافيتي Graffiti"¹⁴ " ذات البنية الدلالة –الحالية- الإيطالية الأصل والفصل، والمشتقة من فعل "Graffiare"، ويعني (يخدش ويكشط). ولجت سوق التّداول المعجمي في القواميس الإنجليزية سنة 1851. ليَنفرضَ المصطلح ضمن القواميس الفرنسية -تدرجياً- حيث وردت مفردة "Graffito" سنة 1886، وقبلها كلمة "Graffite" سنة 1878¹⁵. ذكرت عنها قواميس التّجدير وتعليل أصل الكلمات والألفاظ أنّها ذات أصول لاتينية ويونانية وإيطالية، أين اكتسبت دلالاتها التّهائية. مع مرور الوقت عرفت إنزيّاحات دلالية متعدّدة على مستوى الدّلالة والمعنى والاشتقاق¹⁶، بعدما كانت تدل على تلك الكتابات التّاريخية التي تركها الإنسان القديم على الكهوف والمغارات.

بنوع من التّأثيل المفصّل، يحضر المفهوم في لغات العالم بيّنى ومَعاني مختلفة¹⁷، لكنها متقاطعة في دلالة مشتركة. ففي اللّغة الإغريقية نجد كلمة "Grapheim" تعني "يكتب، يرسم وبعض المرات يُلون". أمّا في اللّغة اللاتينية فأصل الكلمة يعود لكلمة "Graphium" وتعني: يُخْرِيش، يَخْدُش، وَيَكْشُط¹⁸. في حين نجدها في اللغة الإيطالية مشتقة من مفردة "Sgraffito" وتعني "يخدش، ويُخْرِيش". تطور اشتقاقها إلى "Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti". ومعناه

¹⁴ و تُكْتَبُ أيضًا: " Graff " و "Graff". (لا توجد قاعدة مضبوطة).

¹⁵Romain Sahut, Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain, IUTBM, 2002-2003 p3.

Ex: Les dérivés graffitique (adj.), graffitiste (adj.), graffiteur, se (subst.), sont des ..¹⁶ néologismes récents appartenant à la langue spécialisée.

¹⁷ للوقوف على المفهوم في أهم لغات العالم أنظر الملحق رقم 2 .

¹⁸ Pierres Philosophales, "graffiti(es) d'Expressions Murales Photo" Collectif des 12 , 11./le 13/9 Consulté., 150p. In:<http://photograffeurs.over-blog.net>, eBook 2010Singes,

"كَتَبَ وَخَدَشَ أَوْ خَمَّشَ أَوْ حَكَ سَطْحاً"¹⁹. بشكل عام تُشير كلمة "غرافيتي Graffiti" في اللغات الأوروبية إلى أيّ كتابة أو رسم أو نقش أو خَدَش ، أنجز باليد على الجدران²⁰. تذكر الأدبيات التاريخية والسوسولوجية أنّ أول استخدام للمفهوم في الدّراسة العلمية، كان من طرف الباحث "آبي كاروسي Abbé Garruci"، في دليله الموسوم بـ"غرافيتيا مومباي Graffiti de Pompéi" سنة 1859، وإن وُجِدَت إرهاباتها قبل ذلك بكثير، على مستوى الفعل والممارسة.

ليتحوّر المفهوم بعيد منتصف القرن الماضي لتشمل كل "مختلف الكتابات والرسومات المترابطة التي تُعرَفُ" على الجدران، وما شاكلها من الدّعامات (Les supports)، غير مخصصة لذلك، باستخدام أدوات الكتابة التقليدية أو المعاصرة، كالأصباغ والرُّذاذ.. "تباينت السّجالات والمناكفات حولها، إذ يُرَقِّمها البعض لدرجة العمل الفنيّ، بينما يحتقرها ويُدَنِّسها البعض الآخر، ويُنزِلها لِدَرَكة الفعل التّخريبي (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامة والخاصة. ففي قاموس "Le Robert" -مثلاً- تدل الغرافيتيا على: كل كتابة أو رسم مخطوط أو منقوش على الحيطان، وعلى جَنَبَات آثار المدن. وفي معناها العام، كتابة أو رسم رَكِيك على الجدران، والأبواب العمومية أو الخاصة، أو خَرِبَشَات (شَخْبَطَات) سَاقِطَة -وفاحشة- Des gribouillages obscènes.

الفصل الثالث: ملامح الهوية الطلابية من خلال المُتون الغرافيتية

استعرضنا فيه أهم أبعاد وعناصر الهوية الطّلابية التي استخلصناها من المضامين الغرافيتية، ومنه استجلاء أهم الدّوافع الثّأوية وراء انتشارها (الغرافيتيا) بالوسط الجامعي. لكن قبل الإندلاق في إستعراض ذلك، يفرض علينا أنّ نتحدث عن أبرز إشكالية في مقارنة ممارسة الغرافيتي، منذ تبلورها كظاهرة بحثية نهاية ستينات القرن الماضي، ألا وهي "التّصنيف/التّفْيئة La catégorisation" الخاصّة بالمضامين الغرافيتية contenus Les graffitiques، التي أَرَقَت الدّارسين، بإختلاف نَحْلِهِم المعرفية، ومن ثمة نحدّد "أساس التّصنيف" الذي اعتمدها في دراستنا. حيث اخترنا مبدأ "المضمون/المحتوى(s)

¹⁹ Romain Sahut, op.cit.p.4.

Dictionnaire Encyclopédique Illustré, p 707. ²⁰ LAROUSSE.

"Le(s) contenu". مع تحديد الفضاءات والدعامات التي جثت بها عليها هكذا "آثار
غرافيتية".

بلغت عينة دراستنا 763 وحدةً غرافيتيةً، وهي عينةٌ مُتعمَّدة ومقصودة، لأننا انتقيناها
اعتمادًا على درجة وضوحها ويُسرِّقِراءتها، من على مختلف الحاملات، واستئْتِننا الوحدات
العسيرة القراءة (التي قد تدنو من مستوى الخربشة الغير مفهومة)، والتي سمّاها "هنري كالي
Henri Calet" ب"الكتابات العسيرة فكّ التّشفير"²¹. في حين، يجب الإشارة لوجود عيّنة
غير مباشرة، والتي أخذت بالحسبان خلال عملية التّحليل، ذلك أنّ هذه "الكتابات" انعكاس
لممارسة فئة طلابية، تتميز بخصائص عُمرية تتراوح ما بين ثماني عشرة وأربع وعشرين سنّة،
حيث تموضعت "الكتابات الغرافيتية" الطلابية ك"كاشف" و"باروميتر" لتحصُّس المشاكل
التي يعاني منها الطالب داخل الفضاء الجامعي وخارجه. إنّها "سُلّم رِشتر Richter" يقيس
الهزّات الاجتماعية قبل وبعد حدوثها (ارتداداتها). فالكتابات الغرافيتية عبارة عن تَمَاهي
مُتعدّد الأبعاد، تَمَاهي مَحلي، وآخر مَناطقي، وثالث وطني وإقليمي، ورابع عالمي. يؤشّر على
رغبة إنتراع الاعتراف والإقرار العلني بانتماءات مُعيّنة. والشكل التّالي يوضّح أبرز المضامين
الغرافيتية، وترتيبها حسب "عدد الوحدات الغرافيتية" (العينة).

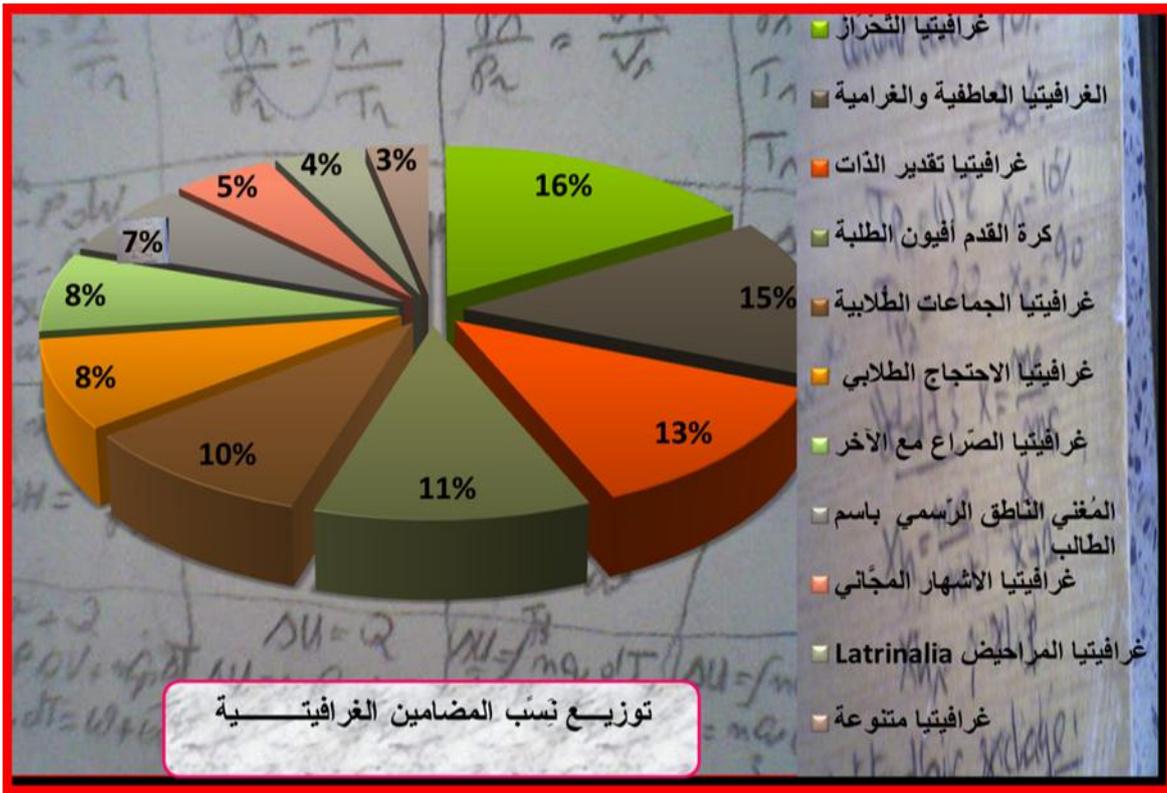
لنتحصل على إحدى عشرة فئةً (11)، وسَمناها كما يلي: غرافيتيا التّخرّاز، الغرافيتيا
العاطفية والغرامية، غرافيتيا تقدير الذات، غرافيتيا كرة القدم "أفيون" الطلبة، غرافيتيا
الجماعات الطلابية، غرافيتيا الاحتجاج الطلابي، غرافيتيا الصراع مع "الأخر"، غرافيتيا
"المُعني" النّاطق الرّسّمي بإسم الطالب، وغرافيتيا الإشهار المجاني، غرافيتيا المراحيض
Latrinalia و غرافيتيا متنوّعة (كتابات متنوّعة لم ترتقي لفئة مستقلة). نوضحها ضمن
الرسم التالي:

, Le Temps des Médias 2005, n°4, "Ce qu'ont dit les murs de Fresnes" Trévisan, ²¹ Carine
pp.90.100.



الشكل رقم 1: ترتيب "المضامين الغرافيتية" على أساس عدد الوحدات

ليتضح من خلال الشكل التالي الحضور الملفت والقوي لغرافيتيا التخراز، والغرافيتيا العاطفية والغرامية، وكذا غرافيتيا تقدير الذات، قمنا بترتيب الوحدات الغرافيتية من الأكثر تواجدًا إلى أقلها (من اليمين إلى اليسار). ومن أجل تقريب وتدقيق المضامين قمنا بحساب نسبة كل مضمون على جدي، من المجموع الكلي للكتابات الغرافيتية، والشكل رقم 2 يوضح ذلك.



الشكل رقم 2: توزيع نسب المضامين الغرافيتية

لنحلّل كل بُعدٍ من ابعاد "الثّقافة/الهوية الطلابية" على حدى، مدعّمين ذلك أمثلة ونماذج غرافيتية، ثمّ ذيلناها بمحاولة تبرير دلالاتها السوسيوأنثروبولوجية. مع تحديد مستثيراتها ودوافعها الممكنة (دوافع ذاتية نفسية، تعليمية تربوية، تنشئية). على نحو:

أ. الرّغبة اللّحوحة في -إعادة-إنتزاع حق التّواجد والتّموّع في النّسيج المجتمعي داخل الجامعة وخارجها.

ب. محاولة كسب وإنتزاع الاعتراف والتّقدير من الآخر المهيمن.

ت. للتّنفيس عمّا يّضنك علاقاته وحياته، بدّحض فترات الملل والرّوتين، الذي غالباً ما يحضر أثناء اللّقاءات الرّسمية، كالمحاضرات والاجتماعات، حيث يعكف الشّخص على "خريشة" كلمات ورموزاً لن نفقه معانيها، إذا لم نَسْتَنجِد بمفاهيم التّحليل السوسيوولوجي أو النّفسي أحياناً.

ث. للانتقام والسُّخرية -غرافيتياً-، إذ يلجأ الفاعل للممارسة بُغْيَةً صَبَّ سَخَطَهُ وَمَقْتَهُ على المقصود من تلك الرسالة، -بطريقة كاريكاتورية ساخرة في بعض الأحيان- ثمَّ يُدَيِّلُهَا بعبارات إنتقاصية ودُونِيَّة، يشعر بعدها أنَّه اسْتَرَدَّ ما أُخِذَ منه -ولورمزيًا.

ج. للتعبير عن رفض الواقع المُعاش، ومنه رفض السِّياسات المُتَّبَعَة في تسيير شؤون المؤسسة الجامعية (الخدمات الجامعية، إلقاء المحاضرات، التَّقويم، إجراء المسابقات..).

ح. الإعلان عن انتماء لجماعة معيَّنة (محلية أو إقليمية أو طلابية أو عالمية)، اختارها للتماهي مع -بعض- مرجعياتها، وكأَنَّنا أمام بَرَاثِن مَوْجَة ما يُسَى في أدبيات الموضوع -خاصة الأمريكية- بـ"عصابات الغرافيتي Graffiti Gangs".

خ. للتعبير عن تَحَدِيهِ للَقَوالب النَّمطية -التقليدية- للسلطة الرسمية، الأبوية بكل مستوياتها.

د. كاستراتيجية للتكيف مع إكراهات الثقافة التَّنظيمية الرَّسْمية للمؤسسة الجامعية.

ذ. للتعبير عن عاطفة الحب أو الكره لشخصٍ ما، إمَّا من فتنته، خاصة الجنس الآخر، أو من الفئات الأخرى، كالرياضيين والمغنيين والممثلين، للكشف عن مدى إعجابه وهيامه به. أو لجماعة محددة.

يبقى أن نشير في ختام الدراسة إلى أنَّ استجلاء ملامح ودوافع "الفعل الغرافيتي" الطلابي ومنه الشبابي بالمجتمع الجزائري، ليس بالعمل اليسير والمنتهي، ذلك لأنَّ أهدافه التَّهائية تبقى غير ثابتة، وإنَّما متغيِّرة على الدَّوام لتغيِّر الطُّروف والمزاج و"الرهانات".

الملخص: تهدف دراستنا للكشف عن ملامح هوية (انتماءات) الطالب الجزائري من خلال "الكتابات الجرافيتية/الجرافيتي" المنتشرة بمختلف التّضاريس الفرعية للفضاء الجامعي. لأجل ذلك اعتمدنا على المنهج الفهمي والمقاربة الثقافية/الثّقافيّة. ليتجلّى لنا بعد التّحليل أنّ "الممارسة الجرافيتية" تتموضع كوسيلة بل "استراتيجية" للتعبير عن خصائصه الثقافيّة والهويّاتية التي تميّزه عن "الآخرين"، ومنه تأكيد وانتزاع الاعتراف لهذه "الهوية".

الكلمات المفتاحية: الممارسة الجرافيتية - الثقافة الطلابية - الهوية الطلابية - المُتّون الجرافيتية - الطالب المُعرّف.

Le résumé :

L'objectif de la présente étude est de comprendre les traits culturels et identitaires (Les identifications) de l'étudiant algérien à travers "les écrits graffitiques/Les graffitis", phénomène déployé dans tous les sous-espaces universitaires. Pour cette raison nous avons adopté la méthode compréhensive et l'approche culturaliste. Notre conclusion est la « pratique du graffiti » est un moyen, mieux une stratégie d'expression culturelle et identitaire de l'étudiant le distinguant des « Autres », et visant par le même l'affirmation et la reconnaissance de cette "identité".

Mots clés : La pratique graffitique- La culture étudiante – L'identité estudiantine - Les contenus graffiques –L'étudiant graffeur.

The abstract:

Our goal in this study consist to understand the cultural and identities features through the "Writings graffiti/ Graffiti". This phenomenon spread over the subspaces university. For that reason we rborowed the "comprehensive method" and the "cultural approach".

We concluded that the practice of the "graffiti" is a " Strategy" in order to express his "culture" that constitutes his "Identity", that defers itself of "Others". Therefore that makes it possible both the assertion and acknowledgment of this identity. The key concepts: The graffiti practice - the student culture - student identity - The graffiti's content - The student graffitist.